اللهجاتُ العربيّة

نَشْأةً وَتَطوُّرًا

دكتور

عبد الغفار حامد هلال

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة فى كلية اللغة العربية

وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٤١٧ عبد الغفار حامد هلال.

غ ف ل هـ اللهجات العربية: نشأة تطوراً/ عبد الغفار حامد هلال.

- القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٩٨.

٤٨٨ ص، ٢٤ سم.

بيليوجرافية: ص ٤٦٩ - ٤٧٧.

تدمك: ٥٦ - ١٠٩٠ - ١٠ - ٩٧٧.

١ - اللغة العربية - اللهجات. أ - العنوان

تصميم وإخراج فني

أحمد محمد هاشم



حورس للطباعة والنشر (مهندس/ هشام الشربيني وشركاه)

١ ش المدق - خلف رقم ١٨٤ ش بورسعيد - السيدة زينب ت: ٣٩٥٧٦١٤

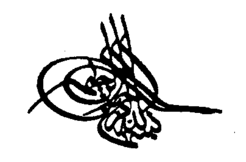


بر ودعاء

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وإننى أهب ثواب هذا العمل الخالص إلى والدىّ اللذين وجهانى، وغرسا فىّ حب البحث العلمى، وأفاضا علىّ من رضاهما ما مكننى - بعون الله - من السير فى طريق الله لخدمة لغة القرآن وعلومه وسنة رسوله ﷺ، والله عز وجل أسأل أن يتغمدهما برحمته، وأن يجزيهما عنى وعن كل ما أفدته وأفيده من هذه العلوم خير الجزاء وأوفاه، وأدعو - كما أمرنى المولى عز وجل.

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء:٢٤]



المقدمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن بالعربية وكان سياجا لها حفظا وسلامة وكفل لها التوحد والسلطان والنفوذ بين لغات العالم، والصلاة والسلام على من علمه ربه لهجات العرب فقال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى». وبعد.

فليست العربية بدعا من اللغات فى نشأتها وتطورها وتوحدها، فقد كان العرب قبائل متعددة متوزعة فى شتى أنحاء الجزيرة العربية الواسعة التى تشتمل على بيئات كثيرة يلتقى فيها بعضها ببعض وينفصل بعضها عن بعض بعوامل جغرافية وثقافية وحضارية فى أزمنة وأماكن خاصة أدت إلى سماع بعضهم ألسنة من غير بنى جنسه، مما وقع تحت تأثيره وحسه، وكانت لهم لهجات مختلفة حسب تنوع بيئاتهم وتعدد ألوان حياتهم وثقافاتهم، ولا ريب أن ذلك كان له أثره فى استقلال بعض هذه اللهجات - أحيانا - واتصال بعضها بغيرها أحيانا أخرى، وكان هذا وذاك عاملين على الانقسام تارة والتوحد تارة أخرى.

ثم كتب لبعض هذه اللهجات أن يحيا ولبعضها أن يموت نتيجة أسباب كثيرة، ثم ظهرت لغة عامة تحدث بها العرب جميعا فى محافلهم وأسواقهم ومجالات القول عندهم.

ولما نزل القرآن الكريم عمل على شد أزر هذه اللغة الموحدة واستمرار حياتها راسخة البنيان عالية الذرا.

وإذا كانت اللغات العالمية دائمة التغير يعروها الضعف والشيخوخة والاكتهال كلما مرت بها حقبة من الزمان فإن العربية بعد التوحد ونزول القرآن الكريم حظيت بالثبات فى أصواتها وكلماتها وتراكيبها ولم يعترها الضعف أو الوهن فلا تزال - والحمد لله - تجرى على ألسنة المتحدثين المثقفين بها بصورة تقارب - إن لم تماثل تماما - ما كان ينطق به أسلافنا من العرب الفصحاء

وكان لحديث علماء اللغة الجامعين لـها والواضعين لقواعدها - فى شتى فروع علم اللغة - جهد كبير فى الحفاظ عليها لتظل أداة لفهم كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ،وقد دعاهم حبهم لها وشغفهم بها لارتباطها بمصـدرى التشريع أن يحيطوها بالتقدير والإكبار والحفظ والصون، وأن ينفوا عنها مـا يحتمل أن يحولها عن مسارها الحيوى، فـأسقطوا من حسابهم الحديث عن بعض اللهجات التى كانت ظواهرها غير مستحسنة أو شذت عن الاتجاه العام للعـربية النموذجـية، فأهملـها الرواة أحيانـا، وتركوها تمـوت وتختفى أو جـمعوا بعضـها وحاول علماء الـلغة إخضاعه للمـقاييس العامة بـبعض التوجيهات والـتأويلات أو الحكم عليها بالندرة أو الشذوذ أو نحو ذلك مما أطلقوه من مصطلحات وتسميات.

وإن هذه اللهـجات التى كانت فـى لغة العرب تكـشف للباحث والدارس الـمراحل التى مرت بها وخط سيرها وتوصل نتائج دراستها إلى ما يفيد اللغة العربية إذا أحسنا فهمها ومعرفة سلوكها.

وهذا الكتـاب يتناول بالحـديث حياة العـربية حين كـثرت فيـها اللهجـات وتنوعت وحين توحدت فى لغة عامة للعرب جميعا.

واقتضت الدراسة والبحث أن يكون هذا الكتاب مشتملا على ستة أبواب تتدرج فيها دراسة هذا الموضوع المهم.

تحدثت فـى الباب الأول عن الكلام والقـول واللغة واللهـجة والصلة بيـنها اشتقـاقا ومعنى وطبيعة جغرافية وحضارية.

وفى الباب الـثانى عرضت عوامل انـشعاب اللغة إلـى لهجات مع تطبـيق ذلك على نشأة العربية وتنوع لهجاتها.

وخصصت الباب الثالث بالتوحد اللغوى وأسبابه وأثر ذلك فى العربية الباقية.

وكان حـديثـا فى البـاب الرابع عن اخـتلاف اللـهجـات العربيـة ومظاهـره فتنـاولنا - بالعرض والبحث - آثار اللهجات العربية ودراسـتها، ثم عالجنا ما اختصت به من مظاهر عديدة فى عدة فـصول تحدثنا فيها عن الإبـدال فى الحروف والحركات والتغـيير فى بعض الصيـغ اللغوية واخـتلاف الأوجه الـنحوية وطرائق الـعرب فى إظهـار الحروف وادغامـها ونقص بعض الحروف وزيادتها.

وكان حديثنا فى الباب الخامس عن القراءات وصلتها باللهجات العربية، عرضنا فيه صلة القـراءات بالأصوات العـربية وائتلافـها ولهجـات العرب فى ذلك، وتنـوع القراءات

والتأليف فيها وتدوين القرآن فى المصاحف وصلة ذلك بالأحرف السبعة، كما تناولنا بالبحث منهج اللغويين والنحاة في معالجة القراءات والأساس الصحيح لتفسيرها.

ثم عرضنا فى الباب السادس لأهمية البحث اللهجى الحديث وأدواته وطرقه والإفادة منه فى دراسة اللغات، وسقنا صورا لدراسة بعض اللهجات الحديثة لنفيد منها فى دراسة فصحانا العربية.

وكانت لنا جولات واسعة فى كتب اللغة والنحو والأدب فتشنا فيها عن آثار هذه اللهجات لينضم بعضها إلى بعض ونستقبل القاصي والداني ونبحث عن شواردها وأوابدها بين أحاديث متفرقة فى بطون المراجع وأمهات الكتب حتى نقف على حقيقة هذه اللهجات وطبيعتها وشواهدها فيما نقل إلينا من نصوص موثوق بها مما أمكننا العثور عليه ومحاولة تفسيره من الوجهة اللغوية.

وحديثنا يتناول بيان آراء اللغويين فى هذه الظواهر من خلال دراستهم لها وتصورهم لما بقى منها فى إطار القواعد والأسس التى رسموها، ثم كانت لنا وقفات مع آرائهم بالتأييد أو المناقشة أو التفسير والتوجيه والترجيح أو التضعيف حسب مقاييس علمية اتخذناها طريقا لإثبات ما صح ونفى مازيف، وعالجناها من منظور موضوعى يعتمد على بعض ما جد فى مجال الدراسة اللغوية على المستوى الصوتى والمعجمى والدلالى والتنظيمى دون أن ننساق وراء بعض التفسيرات التى تنأى عن المناهج العلمية الصحيحة التى تحكم لغتنا وتتفق وطبيعتها.

ولعلنا نكون قد أضفنا بهذا العمل العلمى نواحى جديدة فى بحث لهجات العرب وتوجهها اللغوى.

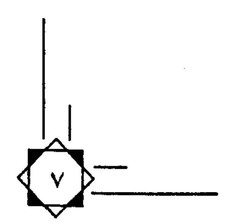
والله أسأل رشادا وتوفيقا

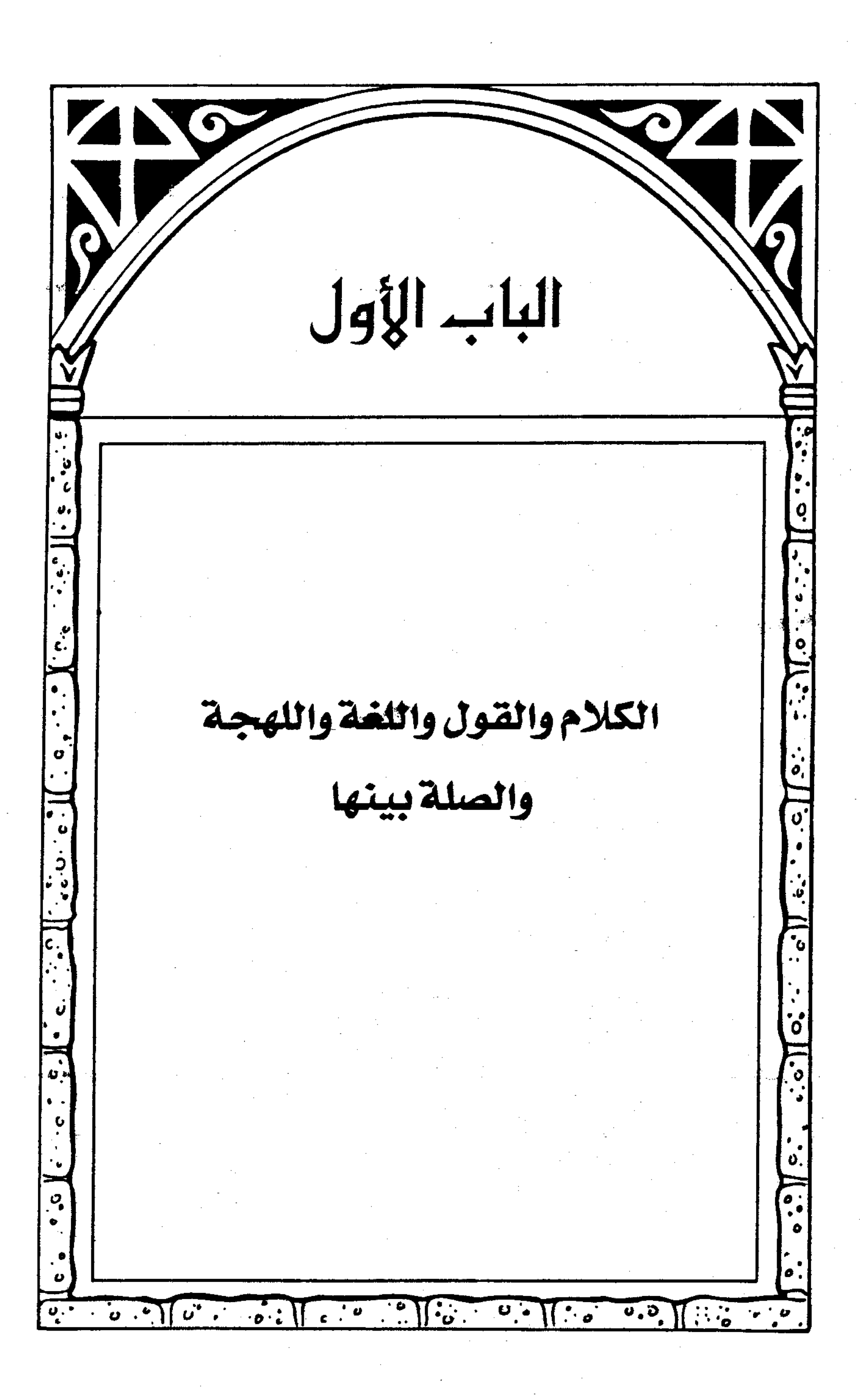
أ.د. عبد الغفار حامد هلال

القاهرة فى:

١٠ من رمضان سنة ١٤١٨هـ

٨ من يناير ١٩٩٨م





الباب الأول

الكلام والقول واللغة واللهجة والصلة بينها

الكلام والقول

لا يستطيع باحث أن يفرق بين الكلام واللغة أو يعزل أحدهما عن الآخر «فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية أى كلمات فالتفكير بلا كلمات عائم»[1]، «والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها»[2]، «وما يسميه النحاة أقسام الكلام وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس فى الواقع إلا أقسام اللغة فقول صاحب الألفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير إلى اللغة وما تتألف منه»[3]، «فالكلام الذى هو نشاط إنسانى نطقى نتيجة لإرادة المتكلم» يعد الباعث لكلمات اللغة بحيث يجعلها حية بعد موتها ووجودها فى طوايا العقل أو المعاجم، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد فى القواميس أو تختزن فى عقل الجماعة الإنسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ويراعونها فى استعمالهم من ناحية النظام الصوتى والصرفى والنحوى، واللغة بهذا الوصف تسمى «باللغة المعينة»[4] التى هى نتاج جمعى يستعمله الأفراد «وللكلام علاقة باللغة المعينة، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العلمى منها»[5]، وفى الدراسات الصوتية الحديثة يستخدم الكلام طريقا لمعرفة الاتجاهات الصوتية فى لغة ما أو لهجة ما وتلك من أبرز الوسائل الناجحة لمعرفة حقائق صوتية لم يهتد الباحثون إليها من خلال الدراسات القديمة؛ لأن دراسة القدماء بنيت على الوصف النظرى للأصوات دون تطبيق عملى لها لعدم توافر الأجهزة الحديثة لديهم.

وعلماء العربية القدامى فى تناولهم للكلام والقول لا يأتون بمتكلمين ليسجلوا أقوالهم ويطبقوا عليها، وإنما يبحثون المسألة من وجهة نظر أخرى هى بيان معنى كل منهما وهل له صلة باللغة أو لا؟ ولا ريب أنهم مصيبون فى بحثهم إذ الكلمات - كما رأينا

---

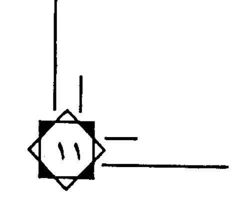
(١) مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩.

(٣) المصدر السابق ص ٤٠.

(٤) اللغة (فندريس) ص ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥.

(٥) مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢-٣٥.



هى مكونات اللغة وأساسها، وقد عرض ابن جنى للكلام والقول على طريق الاشتقاق الأكبر محللا معنييهما وتصرفاتهما والفرق بينهما، ومعللا كل ذلك بما يعن له من أسباب، وقد مزج بين طريقى النحويين واللغويين فى ذلك.

الكلام: عرف الكلام بأنه «كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذى يسميه النحويون الجمل نحو زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفى الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء فى الأصوات، وحس ولب وأف وأوه، فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام»(٦)، وقال: إن الكلام اسم من كلم بمنزلة السلام من سلم، وهما بمعنى التكليم والتسليم وهما المصدران الجاريان على كلم وسلم، قال الله سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال عز اسمه: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]»(٧) وهو جنس للجمل المركبة لأدلة:

١- أن العرب حددوا للدلالة على الواحد لفظ (كلمة).

٢- أن المصدر كذلك حاله، فإذا قيل: قام محمد فهو كلام، وإذا قيل: قام محمد وأخوك جعفر، فهو أيضا كلام، كما كان لما وقع على الجملة الواحدة كلاما وإذا قيل قام محمد وأخوك جعفر، وفى الدار سعيد فهو أيضا كلام كما كان لما وقع على الجملتين كلاما، وهذا طريق المصدر لما كان جنسا لفعله، ألا ترى أنه إذا قام قومة واحدة فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين فقد كان منه قيام، وإذا قام مائة قومة فقد كان منه قيام، فالكلام إذن إنما هو جنس للجمل التوام مفردها ومثناها ومجموعها، كما أن القيام جنس للقومات مفردها ومثناها ومجموعها، فنظير القومة الواحدة من القيام الجملة الواحدة من الكلام.

٣- استعملت العرب لفظ (كلام) وما بمعناه من كلمة حديث ومنطق فى أشعارها فى مقام الشجو وأحاديث المحبين «ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجو ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع، إنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه بعذوبة مستمعه ورقة حواشيه»، وقد ساق ابن جنى أمثلة كثيرة لهذا الاستعمال من أشعار العرب كقول كثير عزة:

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعا وسجودا

وقول الراعى:

وحديثها كالغيث يسمعه ... راعى سنين تتابعت جدبا

فأصاخ يرجو أن يكون حيا ... ويقول من فرح هيا ربا

(٦) الخصائص ١/ ١٧.

(٧) المصدر السابق ١/ ٢٥.

وقول ذي الرمة:

لهـا بـشـر مثـل الحـريـر ومنـطق رخيـم الـحـواشـي لا هراء ولا نـزر

وقد عقب على كل مثال ذكره بمـا يوضح أن لفظ الكلام أو الحديث أو المنطق لابد أن يكون عبـارة عن «كلام مفـيد مستقـل بنفسه ولو بجـملة واحدة، فإن نـقص عن ذلك لم يكن هنـاك استحسـان ولا استعـذاب» بل إن كل مقام مـن المقامـات التي ذكرها الشـعراء يستدعى جملا كثيرة حتى يتحقق لكل منهم ما أراد[٨].

٤- يقتضى اختصاص الكلام بالجمل التامة المستقلة بنفسها اشتقاق لفظ الكلام فهو - كما يرى ابن جنى - من الكلم والكلام والكلوم، وهي الجراح، لما يدعو إليه ولما يجنيه فى أكثر الأمر على المتكلمة[٩]، قال: (وجرح اللسان كجرح اليد) ومنه قوله:

قـوارص تأتـينـي ويحـتـقـرونـهـا وقـد يـمـلأ الـقطـر الإنـاء فـيـفـعـم

وإنما ينقم من القول ويحقر ما ينثى ويؤثر، وذلك ما كان منه تاما غير ناقص ومفهوما غير مستبهم، وهذه صورة الجمل وهو ما كان من الألفاظ قائما برأسه غير محتاج إلى متمم له، فلهذا سموا ما كان من الألفاظ تاما مفيـدا كلاما؛ لأنه فى غالب الأمر وأكثر الحال مضر بصاحبه وكالجارح له[١٠].

هذا البيان كان دفـاعا عن معنى الكلام على الطريقة النحـوية، ثم قرن ابن جنى ذلك ببحث مادة (ك ل م) وتقلباتـها على الطريقة اللغوية، فتعرض لمـادة (ك ل م) وتقلباتها على طريقة الاشتقـاق الأكبر الذى يعد هو مبتكره فـيبين أنها «حيث تقلبت فمـعناها الدلالة على القوة والشدة، والمستعمل منها أصول خمسة هى: (ك ل م) - (ك م ل) - (ل ك م) - (م ك ل) - (م ل ك) وأهملت منه (ل م ك) فلم تأت فى ثبت.

فالأصل الأول (ك ل م) يأتى منه الكلم وما تصرف منـه بمعنى الجرح، والكلام ما غلظ من الأرض وفى كل ذلك شدة وقوة، ومنه:

(عليها الشيخ كالأسد الكليم)

إذا جرح فحمى أنفا وغضب فلا يقـوم له شىء، ومنه الكلام وذلك أنه سبب كل شر وشدة فى أكثر الأمـر، ألا ترى إلى قول رسـول الله ﷺ: «**من كُفِيَ مَئونة لقلقـه وقبقبه وذبذبه دخل الجنة**»[١١]، ومنه قـول أبى بكر رضى الله عنه فـى لسانه: «هذا أوردنى الـموارد» وهو باب واسع.

---

(٨) الخصائص ١/ ٢٧-٣٢. (٩) يقصد المتكلمين. (١٠) الخصائص ١/ ٣٢.

(١١) اللقلق: الـلسان، القبـقب: البطن، الذبذب: الفـرج. الجمهرة ١/ ١٢٦، وانظـر كلام ابن جنى بالخـصائص ١/ ١٤.

والثاني: (ك م ل) كمل الشيء - مثلثة الميم - فهو كامل وكميل وعليه بقية تصرفه والتقاؤها، أن الشيء إذا تم وكمل كان حينئذ أقوى وأشد منه إذا كان ناقصا غير كامل.

والثالث: (ل ك م) اللكم إذا وجأت الرجل ونحوه، ولا شك فى شدة ما هذه سبيله.

والرابع: (م ك ل) منه بئر مكول إذا قل ماؤها، قال القطامى:

(كأنها قلب عادية مكل)

فالبئر إذا قل ماؤها كره موردها وجفا جانبها وذلك شدة ظاهرة.

والخامس: (م ل ك) منه ملكت العجين عجنته فاشتد وقوى ومنه ملك الإنسان، ففيه قدرة للمالك عليه[(١٢)].

وبذلك يكون ابن جنى قد فسر مادة (ك ل م) وأبان عن معنى الكلام بما يفيد أنه عبارة عن «الألفاظ برءوسها المستغنية عن غيرها، وهى التى يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها»[(١٣)].

القول: عرف القول بأنه كل لفظ مذل به اللسان تاما أو ناقصا، فالتام هو المفيد أعنى الجملة، وما كان فى معناه نحو: صه وإيه، والناقص ما كان بضد ذلك نحو زيد ومحمد وإن، وكان أخوك إذا كانت الزمانية لا الحدثية، فكل كلام قول وليس كل قول كلاما[(١٤)]، هذا هو حقيقة معناه، ثم إنه يستعمل مجازا بمعنى الاعتقاد والرأى فيقال: هذا قول فلان أى رأيه ومعتقده «وفلان يقول بقول أبى حنيفة ويذهب إلى قول مالك أى يعتقد ما كانا يريانه، ولا يراد بذلك أنه يحكى لفظهما عينه من غير تغيير لشىء من حروفه، ومثل ذلك أن تقول فى رفع زيد بالابتداء فى قولنا: زيد قام أبوه، هذا قول البصريين أى رأيهم، وفى رفعه بما يعود عليه من ذكره هذا قول الكوفيين، وأنت تريد بذلك اعتقادهم لا نفس حروفهم، وإلا فإن عبارة القائل قد تتغير والمراد الرأى لا العبارة[(١٥)] ولا يصح هذا كلام أبى حنيفة أو كلام البصريين أو كلام الكوفيين إذ الكلام يتعلق بالألفاظ الصادرة عن كل منهم، ولا علاقة له بالرأى والاعتقاد، وذلك تخصيص وضعى لغوى»[(١٦)] وصح إطلاق القول على الاعتقادات والآراء لأنها تخفى فلا تظهر إلا بالقول فهى سبب له، والقول دليل

---

(١٢) المصدر السابق ١/ ١٣ - ١٧. (١٣) المصدر السابق ١/ ٣٢.

(١٤) المصدر السابق ١/ ١٧. (١٥) المصدر السابق ١/ ١٨.

(١٦) ولهذا يصح أن تقول كلام فلان... إلخ، إذا وضعت الكلام موضع القول متجوزا بذلك. الخصائص ١/ ١٨. وجواز ذلك فى القول دون الكلام مجرد اتجاه إلى الأليق فقط. الخصائص ١/ ٢٠.

عليها كما يسمى الشيء باسم غيره إذا كان ملابسا له، ومثله في الملابسة قول الله سبحانه: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ [إبراهيم ١٧] فمعناه - والله أعلم - أسباب الموت إذ لو جاءه الموت نفسه لمات به لا محالة، ومنه تسمية المزادة الراوية والنجو نفسه الغائط وهو كثير(١٧) وتدور مادة (ق و ل) وتصرفاتها حول الخفوف والحركة وتصرفاتها الستة كلها مستعملة.

الأصل الأول: (ق و ل)، وهو القول فالفم واللسان يخفان ويقلقان ويمذلان به.

الأصل الثاني: (ق ل و)، منه القلو حمار الوحش وقلوت الشيء وكل ذلك فيه إسراع وخفة.

الأصل الثالث: (و ق ل)، منه الوقل للوعل؛ لأنه يصعد الجبل بحركة وسرعة.

الأصل الرابع: (و ل ق)، قالوا: ولق يلق إذا أسرع.

الأصل الخامس: (ل و ق)، منه لوق الطعام واللوقة الزبدة، وذلك فيه تحريك وخفة وإسراع.

الأصل السادس: (ل ق و)، منه اللقوة للعقاب لخفتها وسرعة طيرانها، ومنه اللقوة في الوجه كأن اضطراب شكله بها جعله في خفة وطيش، واللقوة الناقة السريعة اللقاح، وكل ذلك يتضح فيه معنى الخفة والسرعة والحركة(١٨).

مقارنة بين الكلام والقول:

أوضح ابن جني من خلال حديثه السابق فروقا وصلات بين الكلام والقول واستعمال كل منهما:

١- مادة (كلم) تدور حول الشدة والقوة، على حين تدور مادة (قول) حول الخفوف والحركة.

٢- الكلام يستعمل في الألفاظ المستقلة المفيدة، والقول أعم فيستعمل فيما يكون مفيدا أو غير مفيد، وقد نبه على ذلك سيبويه حين قال: «واعلم أن قلت في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها وإنما ويحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولا»(١٩) ، ثم قال في التمثيل: «نحو قلت زيد منطلق» فهذا يعني أن الكلام الذي يحكى بالقول لا يصدق إلا على التام المستقل المعنى «وأن القول لا يستحق هذه الصفة»(٢٠) .

٣- الكلام لا يستعمل في الاعتقادات والآراء والقول يستعمل فيها، ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله ولا يقال القرآن

(١٧) المصدر السابق ١/ ١٩، ٢٠ (١٨) المصدر السابق ١/ ٥ - ١١.
(١٩) الكتاب ١/ ٦٢ (٢٠) الخصائص ١/ ١٩



قول الله، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبر لذلك عنه بالكلام الذى لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة وعدل به عن القول الذى قد يكون أصواتا غير مفيدة وآراء معتقدة[٢١]، وإنما عبروا عن الاعتقادات والآراء بالقول دون الكلام «من حيث كان القول بالاعتقاد أشبه منه بالكلام، وذلك أن الاعتقاد لا يفهم إلا بغيره، وهو العبارة عنه، كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره، ألا ترى أنك إذا قلت قام وأخليته من ضمير فإنه لا يتم معناه الذى وضع فى الكلام عليه، لأنه إنما وضع على أن يفاد معناه مقترنا بما يسند إليه من الفاعل، وقام هذه نفسها قول وهى ناقصة محتاجة إلى الفاعل كاحتياج الاعتقاد إلى العبارة عنه، فلما اشتبها من هنا عبر عن أحدهما بصاحبه، وليس كذلك الكلام لأنه وضع على الاستقلال والاستغناء عما سواه والقول قد يكون من الفقر إلى غيره على ما قدمناه، فكان إلى الاعتقاد المحتاج إلى البيان أقرب وبأن يعبر به عنه أليق[٢٢]، واختصاص القول بالاعتقاد والرأى تخصيص لغوى وضعى كما ذكرت فيما سبق لمجرد أنه الأليق به من ناحية المعنى، ولذلك صح استعمال الكلام فيه أيضا ألا ترى إلى قول رؤبة:

لو أننى أوتيت علم الحكل   علم سليمان كلام النمل

فحديث النمل أشبه بالاعتقاد فكان الأجدر به القول إلا أنه أوقع الكلام موقعه[٢٣].

٤- يستعمل كل من الكلام والقول مجازا فى الأصوات غير الإنسانية ومما جاء منه فى الكلام:

فصبحت والطير لم تكلم   جابية[٢٤] طمت بسيل مفعم

ومن استعمال القول فى مثل ذلك:

قالت له الطير تقدم راشدا   إنك لا ترجع إلا حامدا

امتلأ الحوض وقال قطنى

بينما نحن مرتعون بفلج   قالت الدلّح الرواء إنيه

وقالت له العينان سمعًا وطاعةً   وأبدت كمثل الدر لما يُثقَّب

---

(٢١) المصدر السابق ١/ ١٨.   (٢٢) المصدر السابق ١/ ٢٠.

(٢٣) انظر تعقيب الأستاذ النجار فى الخصائص ١/ ٢٢.

(٢٤) الجابية: الحوض الضخم وطمت: غمرت. يقال: طم الماء يطم طما وطموما: علا وغمر، وجاء السيل فطم كل شىء: أى علاه. انظر اللسان (طم) ج ١٥/ ٢٦٢، ٢٦٣، (جبى) ١٨/ ١٤٠

وذلك كثير فى القول دون الكلام لسعة مذاهب القول عن الكلام حتى ليشمل المفيد وغيره «وإذا جاز أن نسمى الرأى والاعتقاد قولا وإن لم يكن صوتا كانت نسمية ما هو أصوات قولا أجدر بالجواز، ألا نرى أن الطير لها هدير والحوض له غطيط والسحاب له دوى. فأما قوله

(وقالت له العينان سمعا وطاعة)

فإنه وإن لم يكن منها صوت فإن الحال آذنت بأن لو كان لهما جارحة نطق لقالتا سمعا وطاعة، وقد حرر هذا الموضع وأوضحه عنترة بقوله:

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان - لو علم الكلام - مكلمى

وامتثله شاعرنا آخرا فقال.

فلو قدر السنان على لسان لقال لك السنان كما أقول[٢٥]

فالكلام والقول وما يعبران عنه وما اشتقا منه وما دارا حوله من معنى فيه أصوات وحركات ينجم عنها أصوات تتضح من استعراض حديث ابن جنى السابق عنهما، ويؤخذ من هذا كله أن ما يسمى بالكلام والقول هو عبارة عن مجموعة من الأصوات تتجزأ إلى مجموعات صغيرة يمكن أن تسمى كل منها وحدة صوتية، وهذه الوحدة الصوتية تأتلف مع أختها فى التركيب لتكون معنى من المعانى المرادة للمتكلم، هذه الوحدة هى ما يعرفه علماء اللغة والنحو باسم الكلمة، وكل كلمة مركبة من مجموعة من الأصوات الفردية التى تجتمع هى الأخرى لتكون هذه الوحدة الصوتية المركبة الدالة على المعنى المراد منها، والذى وضعها له المجتمع المعين، فالنحاة يجعلون الكلام الذى هو الألفاظ المفيدة تعبيرا صوتيا ونشاطا يرمز مفهومه إلى أجزاء ثلاثة، هى. الاسم والفعل والحرف، وكل منها يسمى فى عرف العلماء كلمة، قال ابن مالك.

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم[٢٦]

واحده كلمة والقول عم وكلمة بها كلام قد يؤم

وهذه الوحدة التى عرفت باسم (كلمة) عرفها النحاة بأنها قول مفرد[٢٧] أو لفظ مفرد[٢٨] أو قول مفرد مستقل أو منتوى فيه. فالمستقل مثل محمد جاء، والمنتوى فيه مثل فاعل قم وهو الضمير أنت[٢٩] وهم يقصدون بكلمة قول أنها لفظ، ولما كان القول

---

(٢٥) الخصائص ١ / ٢٢ - ٢٥

(٢٦) الكلم اسم جنس جمعى لأنه يفرق بينه وبين واحده بالتاء واحده كلمة كنبق ونبقة. الخصائص ١ / ٢٥، حاشية الخضرى ١ / ١٧

(٢٧) الشذور ص ٥ (٢٨) الأشمونى ١ / ٢٦ (٢٩) همع الهوامع ص٣

(الذى هو كل لفظ) يشمل المفرد والمركب والتـام والناقص (الكلمة الواحدة وما هو أكثر من كلمة) حددت التعريفات مفهوم الكلمة بقولها (مفرد).

وقد عاب الدكتور تمام حسان هذه التعريفات بما يأتى:

١- أنها لا تـفرق بين الصوت والـحرف أى بين عملـية النطق والنظـام الذى أجرى عليه.

٢- أنها تخلط بين الوظيفة اللغوية والمعانى المنطقية والوضعية.

٣- أنها لا تفرق بـين وجود الكلمة وعدمهـا فى تعريفها، وهذا مـا يؤدى إلى الخلط فى التفكير[٣٠].

ولذلك عرفها بقوله:

«صيغـة ذات وظيفة لغـوية معينـة فى تركيب الجـملة تقوم بدور وحـدة من وحدات المعجم وتصلـح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغير مـوضعها أو يستبدل بهـا غيرها فى السياق، وترجع فى مادتها غالبا إلى أصول ثلاثة وقد تلحق بها زوائد»[٣١].

ويبدو لى أن تعـريف الأقدمين لا عيب فيه بـل هو دقيق تماما وموجـز واف بالمعنى المطلوب منه، فهو:

أولا- لا يخلط بـين القول والكـلمة واللفـظ بل فيه تـحديد لهـا ولا عيب أن تلتـقى معانى الألـفاظ الثلاثة لاشتـمال الأصوات عليها، فـكل لفظ يمكن أن يطلق عـليه قول لأن القول هو ما يتلفظ به، وكل لفظ بهذا المعنى هو قول، والكلمة ليست إلا لفظا فلا مانع من إطلاق اسم القول عليها، وهذا لايعد خلطا بل يعد اشتراكا فى جنس هو جزء التعريف مثل الإنسان حيوان ناطق، حيث يشترك فى لفظ الحيوان مع الإنسان سائر الحيوانات، ولم يعب ذلك أحد. والجزء الآخر من التعريف يمنع ما يراد منعه، فكلمة ناطق تمنع ما عدا الإنسان من الدخول فى التـعريف، وقد أضيف إلى تعريف الكـلمة ما منع غيرها من الدخـول معها وهو (مفرد) فكلمة مفرد أخرجت المركبات سواء كانت تامة أو ناقصة.

ثانيا- فيما يبدو لى أنه لا يصح إدخال الوظيفة اللغوية فى تعريف أجزاء اللغة، وهذا غير موجود فى تعريف الأقدمين، بل هو موجـود فى تعريف الدكتور تمام نفسه، وبالرجوع إليه يمكن فهم ما أقول.

---

(٣٠) مناهج البحث فى اللغة ص ٢٢٦. (٣١) المصدر السابق ص ٢٣٢.

ثالثا - ليس هناك خلط فى التفكير بالإشارة إلى الكلمات المضمرة مثل أنت فى قم بل هذا مجرد تلميح إلى أن الكلمة تارة تكون واضحة مرئية وأخرى مستترة قياسا على وجودها الخارجى.

وقد عرف ميه الكلمة بأنها ربط معنى ما بمجموعة ما من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقى[٣٢]، وهذا التعريف صالح للمورفيمات والجمل وأجزاء الجمل أيضا، وعند جاردنر[٣٣] «أن الكلمات ذات وجهين فى طبيعتها فوجه هو المعنى ووجه آخر هو الصوت، وحيث تكون الكلمات فى ملك كل شخص تكون من ناحيته جواهر طبيعية مكونة من منطقة المعنى من جهة ومن صورة صوت معين من جهة أخرى، هذا الصوت صالح لأن يعاد نطقه بالإرادة، والكلمات فى حقيقتها نفسية وهى مواد للمعرفة والتكلم مع أنها فى أحد جانبى طبيعتها تشير إلى حدث عضوى تمكن إعادته بحسب الإرادة».

والتعريف الأول للكلمة شامل لها ولغيرها، والثانى يدخلها فى عالم الفلسفة وعلم النفس «وليس الباحث اللغوى بحاجة إلى أن يبنى أفكاره على أسس غريبة عن منهج اللغة.. لاحظ فى تعريف جاردنر استعمال كلمات: الحقيقة - الطبيعة - الملك - المعرفة - التكلم - النفس».

ويلاحظ الدكتور تمام أن تعريف الكلمة لا يمكن اتحاده فى جميع اللغات بل لكل منها تعريف يستمد من طبيعتها ووسائلها الخاصة فى التركيب كما يقول فندريس[٣٤]،ولكن يبدو لنا أن الكلمة التى هى وحدة لغوية تدل على معنى من المعانى لا تختلف بهذا التحديد من لغة إلى أخرى، فلا مانع من وضع تعريف شامل لها فهذا لا صلة له بطرق البناء الصرفى أو غيره من خصائص اللغات.

وأعتقد أن تعريف الكلمة العربية واف بالغرض المقصود، فالكلام والقول - كما رأينا - يعبران عن أصوات تفيد معانى خاصة يراها المتكلمون، وتلك الأصوات التى يترجم عنها الكلام هى جوهر اللغة ومعناها والمراد منها كما يتبين ذلك من عرضنا للغة ومفهومها عند عالمنا ابن جنى وغيره من قدامى ومحدثين.

---

(٣٢) مناهج البحث فى اللغة ٢٢٧، ٢٨، وانظر اللغة (فندريس) ص١٢٤.

(٣٣) عالم لغوى إنجليزى.

(٣٤) مناهج البحث فى اللغة ص٢٣٥ وما بعدها، وانظر اللغة ص ١٢٤

اللغـة واللهجـة

اللـغة:

تاريخها:

منذ التقى الإنسان بغيره وهو يحتاج إلى وسيلة تفاهم - وكما يقول فندريس «أصبح تكرار القول بأن الإنسـان كائن اجتماعى أمرا مـبتذلا، ولعل من أدل السمات على الـطبيعة الاجتماعيـة فى الإنسان تلك الغريزة التى تدفع عـلى الفور الأفراد المقيميـن معا إلى جعل الخصـائص التى تجمعـهم مشاعة بينـهم ليتميـزوا بها عن أولئك الذين لا توجـد لهم هذه الخصائص بنفس الدرجة»[1]، وهذه الوسيلة تتنوع من مجتمع بدائى إلى مجتمع حضارى» فالسـلوك الجماعى عـلى ثلاث درجات بلا رموز جـماعية وبـرموز جماعـية غير شـعورية وبلغة»[2]، ونحن الآن بصـدد بيان أرقى الوسائـل التى وصل إليهـا الإنسان فى تفاهـمه مع أخيه وهى اللغة الصوتية.

ولم تعرف كلمة (اللغة) طريقها إلى الظهور بين مفردات العربية إلا بعد انتهاء القرن الثانى الهجرى، وقد أطلقت آنذاك على ما جمعه الرواة من البادية عن العرب الفصحاء بعد فشو اللحن.. ولم يطـلق على الرواة وهم القائمون بفنون اللغة لـفظ (اللغوى) إلا فى القرن الرابع بعد أن استفاض التصنيف فى اللغة وتميزت العلوم العربية واستعجمت الدولة فصار صاحب الـلغة يعرف بـها ... وخلف ذلك اللـقب لقب الراوية، ومـمن عرفوا به فـى القرن الرابع أبو الطيب اللغوى وابن دريد والأزهرى وغيرهـم[3].

ويعتقـد أن الكلمة لم ترد فى الأدب العربى قـبل القرن الثامن الهجـرى، فقد جاءت أول مرة فى شعر **لصفى الدين الحلى**[4] وهو:

بقـدر لـغات الـمرء يـكثـر نفـعـه　　فـتـلـك له عـند الـمـلـمـات أعـوان
فهافت على حفظ اللغات وفهمها　　فكـل لسـان فـى الحـقـيـقـة إنـسـان

---

(1) اللغة ٣٠٢.　　(٢) مناهج البحث فى اللغة ٥٣.

(٣) تاريخ آداب العرب ١/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٤) توفى سنة ٧٥٠هـ وانظر ديوانه ص ٤٥٣.

ويعبر القرآن الكريم عن اللغة بكلمة لسان[٥] مثل ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[٧]، وهذه الكلمة هى المشهورة فى اللغات السامية، ففى العبرية Iashoon بمعنى اللغة يقال: Hallashoon ha - evrit (اللغة العبرية) وفى بقية الساميات كذلك.

ومن هنا يقول الدكتور أنيس: «يظهر أن العرب القدماء فى العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن باللغة إلا بكلمة اللسان تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى فى معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية، وقد يستأنس لهذا الرأى بما جاء فى القرآن الكريم من استعمال كلمة اللسان وحدها فى معنى اللغة»[٨]، ولكن مادة (ل غ و) التى تعنى الصوت والكلام قد وردت فى القرآن الكريم والحديث والشعر المعتمد كثيرا، وسيتبين ذلك من حديثنا عن اشتقاقها وتصريفها، وتطلق كلمة لغة عند القدماء ويراد منها اللهجة[٩] وتقابل باللغات الأجنبية Longue فى الإنجليزية بمعنى لسان أو لغة[١٠]، Langue فى الفرنسية بالمعنى السابق[١١]، وبذلك تتفق اللغتان الإنجليزية والفرنسية مع العربية فى التعبير باللسان عن اللغة، وفيهما مع ذلك كلمات أخرى لمعنى اللغة لا تطلق على اللسان وقد تطلق على اللهجة أيضا، وهذه الكلمات فى اللغات التى تقدمت تفهم اشتراكها فى الصدور عن أصل واحد.

اشتقاقها وتصريفها:

يذكر اللغويون ومنهم ابن جنى وأرباب المعاجم أنها مشتقة من الفعل لغا يلغو إذا تكلم، أو من لغِى يلغَى - بكسر الغين في الماضى وفتحها فى المضارع - إذا لهج. يقول ابن جنى: أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فعلة من لغوت أى تكلمت، وأصلها لُغْوة ككرة وقلة وثبة كلها لاماتها واوات، لقولهم كَروتُ بالكرة وقلوتُ بالقُلة، ولأن ثبة كأنها

---

(٥) وردت كلمة لسان بمعنى اللغة ٨ مرات فى القرآن. انظر المعجم المفهرس ص ٦٤٧.

(٦) الأحقاف الآية ١٢. (٧) الشعراء : ١٩٣-١٩٥.

(٨) فى اللهجات العربية ط ٢ ص١٤ (٩) المصدر السابق ط٣ ص١٦.

(١٠) قاموس إنجليزى عربى تأليف محمد طه محمود. ط الاستقامة ٣٨٣ وتطلق بمعنى اللغة أيضا فى الإنجليزية كلمة language ص٢١٦.

(١١) قاموس فرنسى عربى تأليف إسكندر شحاتة. لندن ط٢ ص٢١٠ وتطلق كلمة langage بمعنى لغة أو لهجة أو نطق أو أسلوب، وهناك ألفاظ أخرى غير ذلك.

من مقلوب ثاب يثوب، وقالوا فيها لُغات ولُغون[١٢] ككُرات وكُرون، وقيل منها لغِي يلغَى إذا هذى ومصدره اللغا قال:

وربٍّ أسراب حجيج كُظَّم ... عن اللغا ورفث التكلُّم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، أى بالباطل وفى الحديث: «من قال فى الجمعة صه فقد لغا» أى تكلم[١٣].

ويأخذ عليه أستاذنا الدكتور قناوى أنه غير جار على المشهور من القواعد الصرفية التى تقول: إذا حذف حرف من الموزون حذف ما يقابله من الميزان، وكون أصلها لُغْوة يلزم عليه الجمع بين العوض والمعوض وقلما يجتمعان[١٤]، ويجرى هذا النقد على ما قاله الأزهرى وغيره من أن أصلها لُغْوة بوزن فُعلة[١٥]، وما نبه عليه أستاذنا الدكتور قناوى ملحظ صرفى دقيق[١٦].

ومن نص ابن جنى السابق يفهم أنه يرى اشتقاق لغة من لغا يلغو بمعنى تكلم أو من لغِى يلغَى بمعنى هذى، وبالاشتقاق الأول قال صاحب القاموس، وبالثانى قال صاحب المفردات، ففى القاموس لغا لغوا تكلم ج لُغات ولغون[١٧]، وفى المفردات: لغى بكذا أى لهِج به لَهَج العصفور بلغاه أى بصوته، ومنه قيل للكلام الذى يلهج به الناس فرقةً فرقةً لغة[١٨]، ومع ذلك ذكرًا الاشتقاق الثانى وما يتعلق بالمادة من معان لغوية يقال: لغَيتَ تَلْغَى نحو لقيت تلقَى واللَّغْو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذى يورد لا عن روية وفكرة فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور، قال أبو عبيدة: لَغْو ولَغًا نحو عَيب وعاب - وأنشد (عن اللغا ورفث التكلم)، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ وقال:﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، وقال:﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى كفوا عن القبيح ولم يصرحوا وقيل معناه: إذا صادفوا أهل اللغو لم يخوضوا معهم. ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به، ومنه اللغو فى الأيمان أى ما لا عقد عليه

(١٢) ملحق بجمع المذكر. (١٣) الخصائص ١/ ٣٣.

(١٤) محاضرات أستاذنا الدكتور قناوى.

(١٥) اللسان ٢٠/ ١١٦، ١١٨.

(١٦) الأشمونى ٤/ ٣٤٠-٣٤٣ ومنار السالك ٢/ ٣٦٦، ٤١١، ٤١٢ وانظر الكتاب وتعليق الأعلم على قول الشاعر (هما نفثا فى فىّ من فمويهما) ٢/ ٨٣.

(١٧) القاموس ٤/ ٣٨٦. (١٨) المفردات ٤٥٢.

وذلك ما يجرى وصلا للكلام بضرب من العادة قال: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾، ومن هذا أخذ قول الشاعر:

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تُعَمِّدْ عاقدات العزائم

وقوله تعالى: ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾، أى لغوا، فجعل اسم الفاعل وصفا للكلام نحو كاذبة، وقيل لما لا يعتد به فى الدية من الإبل لغو، وقال الشاعر:

(كما ألغيت فى الدية الحوارا)[١٩]

وذكر صاحب القاموس بعض ما تقدم[٢٠]:

ويبدو من استعراض مادة (لغو) فى الكتابين السابقين أن الأول يميل إلى ترجيح أحدهما والثانى بالعكس على ما بينته.

وقيل إن فعله لغى إلا أنه فُتح حرف الحلق فيكون ماضيه لغا ومضارعه يلغو ويلغَى[٢١]، وقد قصدت بذكر كلام اللغويين بنصه وطوله أن أبين تأصل كلمة (لغة) فى العربية وموادها، وقد استعملت فيما أوردته بمعناها الحقيقى الذى هو الأصوات الإنسانية وغيرها وما يمكن أن يشبهها من معان مختلفة.

وبناء على ذلك لا يقبل القول الذى ذهب إليه بعض المحدثين من أن كلمة لغة دخيلة على العربية، وأنها معربة من كلمة Logs الإغريقية التى تعنى كلمة أو فكرة، ويعزز ذلك - عندهم - التشابه بين الكلمتين[٢٢] ، والزعم بأن الكلمة لم ترد فى آداب العرب المتقدمين ولا فى القرآن الكريم. فقد ثبت لذى عينين وقوعها فى القرآن، وقول العجاج السابق كما وقعت فى الحديث: **(من قال لصاحبه يوم الجمعة...)** إلخ كما ورد فى المعاجم العربية (لغا يلغو) إذا تحدث ولغى يلغَى إذا لهج مع تصرفات أخرى لمادة (لغو) ونصوص كثيرة موثوق بها، وذلك كله يثبت عربية كلمة (لغة) وإن شاركت غيرها من اللغات الأخرى للتشابه فى الأصل الأول للغة الإنسان.

---

(١٩) المفردات ٤٥١، ٤٥٢ والحوار - بضم الحاء وكسرها- الأخيرة رديئة عند يعقوب، ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم ويفصل، فإذا فصل عن أمه فهو فصيل، وقيل: هو حوار ساعة تضعه أمه خاصة. اللسان ٥/ ٣٠١.

(٢٠) القاموس ٤/ ٣٨٦. (٢١) لسان العرب ٢٠/ ١١٧.

(٢٣) اللسان والإنسان د. حسن ظاظا ص ١٣١، ١٣٢.

ننتقل بعد ذلك إلى بيان معنى (اللغة):

حدها ابن جنى بأنها: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[٢٣] ووافقه على ذلك سائر القدماء من علماء اللغة العرب[٢٤] ويميل إلى ذلك علماء الاجتماع فهى عندهم:

نظام من رموز ملفوظة عرفية يتعاون ويتعامل بها أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة.

فيستفاد من كل من هذين التعريفين أن اللغة وسيلة مهمة فى الربط بين أفراد المجتمع والتعبير عن شئونهم المختلفة فكرية كانت أو غير فكرية، من كل ما يهمهم فى حياتهم الخاصة والعامة.

بيد أن لبعض الباحثين ملاحظات عليه جد مفيدة، فهذا التعريف يقصر اللغة على الأصوات الإنسانية المعبرة عن أغراض، ويخرج غيرها كالأصوات الإنسانية التى لا تعبر عن غرض، كغطيط النائم، وتخرج كذلك أصوات الحيوانات المعبر بها عن أغراض وما كان المعبر به عن الغرض غير صوت، كالعقد والنصب والإشارة بالرأس أو غيرها من أعضاء الجسم، والإشارات التى تستعملها السفن، والإشارات التى تستخدم فى الجيوش، وما يتفاهم به الصم وبعض السكان الأصليين فى أمريكا، وأستراليا وبعض العشائر فى أواسط أفريقيا، وما يظهر على الإنسان من الانفعالات النفسية التى تظهر فى حالات المرض والغضب والفرح والحزن ونحو ذلك، وكذلك الأصوات الصادرة عن كل ما له صوت أو له صلة بحدوثه ولو كان جمادا: آلة أو نحوها كأصوات المدافع وآلات الحرب.

وقد عد صاحب هذا النقد خروج ما تقدم عن نطاق اللغة - فى رأى الأقدمين - قصورا فى التعريف، وبنى ملحظه على أن هذه الأشياء الخارجة عن التعريف أصبحت - على وجه الحقيقة العرفية - من وسائل التفاهم، فكان ينبغى أن تدخل فيه، لكن تعريف الأقدمين خص اللغة بما تقدم أولا.

ويدل لذلك أن مرادهم بالأصوات ينحصر فى ذات المقاطع لأنها هى المعبرة عن الأغراض، لا الأصوات المرسلة كالتى تصدر من الحيوانات، والمراد بالقوم بنو آدم، ولا

(٢٣) الخصائص ١/ ٣٣.
(٢٤) القاموس ٤/ ٣٨٦ ولسان العرب ٢٠/ ١١٨.

يشمل معنى هذا اللفظ غيرهم، فأما استعماله للجن فى مثل قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾، فهو استعمال مجازى، فلا يعترض به على الحقيقة[٢٥].

ولعل علماءنا القدامى - حين خصوا اللغة - فى اصطلاحهم العلمى - بما يصدر عن الإنسان من الأصوات المعبرة عن الأغراض قصدوا الحديث عن اللغة التى تلبى حاجات الجماعة، ويهتم بها المجتمع لأنها الوسيلة التى تفى بأغراض الناس وشئونهم فى الحياة.

ولذا نرى أن التعريف واف بالغرض المطلوب.

وعلماء الفلسفة والمنطق يبنون تصورهم لها على أساس وظائفها التى حددها الأستاذ جفونز وهى:

١- أنها وسيلة للتوصيل.

٢- أنها مساعد آلى للتفكير.

٣- أنها أداة للتسجيل والرجوع.

ويبدو أن الوظيفتين الأولى والثالثة واحدة فهما عبارة عن: توصيل الأفكار، سواء أكان ذلك بالأصوات المنطوقة بالفعل، أم بالتسجيل والكتابة ليرجع إليها فيما بعد[٢٦].

ويعرفها علماء النفس بأنها: استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار ونقلها من شخص إلى آخر[٢٧].

ويبدو أن المناطقة وعلماء النفس يقصرون اللغة على نقل الأفكار فحسب،وذلك تحديد غير واف بالغرض، فاللغة لا تقف عند حد التعبير عن الأفكار بل هناك موضوعات أخرى تخص الناس فى شئونهم العامة، وهناك أحداث الترفيه والتسلية، فقد تستعمل للتعبير عن العواطف والمشاعر المختلفة، وقد تستخدم للترنم بالغناء، وسوق القصص، والحكايات والأساطير، وكل ذلك للتسرية عن النفس، والتخفيف من أعباء الحياة ومشكلاتها.

---

(٢٥) انظر محاضرات فى فقه اللغة لأستاذنا الدكتور محمد قناوى، وقد خالف الأستاذ عبد الله العلايلى سائر اللغويين فعد اللغة غاية لا وسيلة، وهو قول ينبو عنه التحقيق. انظر: مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٥-٢٤.

(٢٦) اللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ص٨ واللغة والمجتمع د٠ السعران ص١٣.

(٢٧) اللهجات العربية د٠ نجا ص٥.

ومعنى ذلك أن اللغة أكثر من أن تكون أداة للفكر، أو تعبيرا عن عاطفة. اللغة جزء من كياننا السيكولوجى الروحى، وهى عملية فيزيائية واجتماعية[٢٨]، وهذا كله يثبت أن اللغة هى الرابطة الحيوية بين أفراد المجتمع والتى تعبر عن حاجاته، وتجمع شمله، وتوحد أهدافه، وهذا ملاحظ فى تعريف علماء العرب، ووافقهم عليه علماء الاجتماع.

اللهجة[٢٩]

اشتقاقها:

ورد اشتقاقها بوجهين:

الوجه الأول: أنها مأخوذة من لهج الفصيل يلهج أمه: إذا تناول ضرع أمه يمتصه، ولهَج الفصيل بأمه يلهج إذا اعتاد رضاعها فهو فصيل لاهج.

الوجه الثانى: أنها مشتقة من لهج بالأمر لهجا ولَهْوَج وألْهَج يعنى أُولع به واعتاده أو أُغرِى به فثابر عليه، واللَّهَج بالشىء: الوُلُوع به[٣٠].

وكل من الوجهين مناسب لوجود العلاقة بين أصل الاشتقاق وطريقة النطق التى يتبعها الإنسان، فاللغة يتلقاها الإنسان عن ذويه ومخالطيه كالفصيل الذى يتناول اللبن من ضرع أمه فيمتصه كما أنه حين يتعلم اللغة يكلف بها ويولع كمن يتعلق بشىء معين ويُولع به[٣١].

واللهجة هى لغة الإنسان التى جبل عليها واعتادها ونشأ عليها، وقد أطلقت اللهجة على اللسان أو طرفه فهو آلة التحدث بها.

معناها:

اللهجة: طريقة معينة فى الاستعمال اللغوى توجد فى بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة.

---

(٢٨) محاضرات فى اللهجات د. أنيس فريحة ص٩ واللغة بين الفرد والمجتمع ص٩-١١.

(٢٩) يعبر القدماء عن اللهجة بكلمة (اللغة) فقد عقد ابن جنى بابا فى الخصائص بعنوان (باب اختلاف اللغات وكلها حجة) وابن فارس يعقد بابا فى الصاحبى بعنوان (اختلاف لغات العرب من وجوه) وكذلك علماء آخرون كأبى على القالى فى (الأمالى فى لغة العرب).

(٣٠) تهذيب اللغة ٦/ ٥٤، ٥٥ والصحاح ١/ ٢٣٩ ولسان العرب ٣/ ١٨٣.

(٣١) اللهجات العربية د. نجا ص ٩١.

ويعرفها بعضهم بأنها: العادات الكلامية لمجموعة قليلة من مجموعة أكبر من الناس تتكلم لغة واحدة(٣٢).

وهذه الطريقة أو العادة الكلامية تكون صوتية فى غالب الأحيان؛ ومن ذلك - فى لهجات العرب القديمة: العنعنة وهى قلب الهمزة المبدوء بها عينا، وهذه الصفة معروفة عند قيس وتميم يقولون فى أنك عنك، وفى أذن عذن على حين أن بقية العرب ينطقون الهمزة دون تغيير فى أوائل الكلمات.

كذلك: الكشكشة وهى فى ربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب فى المؤنث شينا فيقولون: رأيتكش وبكش وعليكش، فمنهم من يثبتها حالة الوقف فقط وهو الأشهر ومنهم من يثبتها فى الوصل - أيضا- ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها فى الوصل ويسكنها فى الوقف فيقول: منش وعليش(٣٣) وغيرهم من العرب يبقى الكاف دون تغيير. كذلك: العجعجة فى لغة قضاعة يجعلون الياء المشددة جيما يقولون فى تميمى تميمج(٣٤) وغيرها يبقى الياء، ويجرى مثل ذلك فى العاميات، ففى مصر تنطق الهمزة مسهلة فى رأس وفأس فيقولون راس وفاس، كما يبدلون الثاء سينا فيقولون فى ثبت: سبت، وفى بحوث: بحوس وغير ذلك كثير(٣٥).

وهذا كله لاختلاف البيئات العربية وعوامل الاجتماع عندها وتطاول الأزمان عليها.

وقد تكون الطريقة متعلقة ببنية الكلمات ونسجها، فاسم المفعول إذا صيغ من الفعل الثلاثى الأجوف فإن عينه تعل عند الحجازيين، سواء أكان واويا أم يائيا مثل: مقول ومدين. ولكن التميميين يعلون الواوى ويتممون اليائى فيقولون: مبيوع ومديون، وعلى طريقة بنى تميم تجرى اللهجات العامية فى مصر وبعض جهات اليمن ونجد.

وقد يكون اختلاف الاستعمال اللغوى من جهة المعانى، وتذكر كتب اللغة كثيرا من ذلك ككلمة (وثب) فهى عند (حمير) بمعنى (جلس) وعند عرب الشمال بمعنى (قفز) و(السدفة) عند تميم (الظلمة) وعند قيس (الضوء)(٣٦).

---

(٣٢) علم اللغة العام لروبنز ص٥٢ ومقدمة لدراسة فقه اللغة. د. محمد أبو الفرج ص٩٣.

(٣٣) المزهر ١/ ٢٢١، ٢٢٢.

(٣٤) المصدر السابق.

(٣٥) وفى الفرنسية نجد بعض القرى تنطق (a) فتحة حيث تنطق قرى أخرى (e) فتحة ممالة، وتنطق بعضها (o) ضمة مفتوحة حيث تنطق القرى الأخرى (u) ضمة صريحة. اللغة ٣١٠.

(٣٦) المزهر ١/ ١٨٨، ١٩١.

ولكن الاختلاف الصوتى يلعب الدور المهم فى اختلاف اللهجات وتنوعها، واللهجة اتجاه منحرف داخل اللغة، وكل من اللغة واللهجة تتصلان بالصوت، فاللغة ترتبط به من حيث إفادة المعنى، واللهجة من حيث صورة النطق وهيئته.

والاختلاف الصوتى يرجع إلى ما يأتى:

١- اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية كالجيم فالعربية من وسط اللسان والمصرية من أقصاه مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى.

٢- اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات كترقيق الحرف وتفخيمه عند القبائل المختلفة.

٣- اختلاف فى مقاييس بعض أصوات اللين. إذ إن أى انحراف يصيب تلك الحروف التى تعرف بحروف المد عند الأقدمين يؤدى إلى اختلاف فى نطقها.

٤- تباين فى النغمة الموسيقية للكلام: فذلك يختلف بين القبائل وحسب البيئات المختلفة.

٥- اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض، فالجمهرة من العرب تقلب الواو تاء عند وقوعها فاء لافتعل مثل، اتصل هربا من تلاعب الحركات، ولكن الحجازيين لا يقلبونها تاء، فتتأثر بالحركات السابقة عليها فتقلب حسب الحركات واوا بعد الضمة، وألفا بعد الفتحة، وياء بعد الكسرة فيقولون: ايتصل - ياتصل - موتصل...[٣٧] وكذلك الياء إذا وقعة فاء لافتعل.

ويقول فندريس عن الفرنسية: «إننا نجد فروقا ذات بال بين قرية وأخرى حتى ليمكننا أن نميز لهجة كل قرية منها بوصف مخالف لغيرها من حيث الصوتيات، ومن حيث النحو، ومن حيث المفردات[٢٨]، واللهجة إذا اتسمت بخصائص بارزة بحيث توافر لها ما يجعلها تستغنى عن أصلها، وتفى بحاجة الجماعة التى تتحدث بها أمكن أن تسمى لغة، وذلك حين تنضج قواعدها ونظمها الصوتية والصرفية والتركيبية بحيث تجتمع لها عناصر الإفادة الكاملة والتعبير السليم كاللهجات العربية فى مصر، والمملكة العربية السعودية، والعراق وسوريا ولبنان وغيرها من سائر البلاد العربية، إذ يطلق عليها اسم (لغات) باعتبار وفائها بحاجة مجتمعاتها، وباعتبار صلتها باللغة العربية الأم تعد كل منها لهجة لأنها لم تستغن عنها، بل إنها استمدت - ولا تزال تستمد - منها مقومات حياتها الأصلية.

---

(٣٧) اللهجات العربية د. نجا ٧-١٠ وفى اللهجات العربية د. أنيس ص١٦ بتصرف.

(٢٨) اللغة ص ٣١٠.

وقد تساعد عوامل كثيرة على استقلال اللهجة وصيرورتها لغة قائمة بذاتها مشهورة لدى مجتمعها، بل وسواه من المجتمعات الإنسانية التى تكون على صلة بأهلها، وهذه العوامل يمكن لكل منها أن يقوم بهذا الدور فى استقلال اللهجة على النحو السابق وهى:

١- عامل عسكرى - سياسى.

٢- عامل دينى.

٣- عامل أدبى.

٤- عامل اجتماعى طبقى.

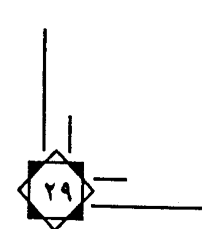
وقد يتدخل عاملان أو ثلاثة فى تكوين هذه اللهجة.

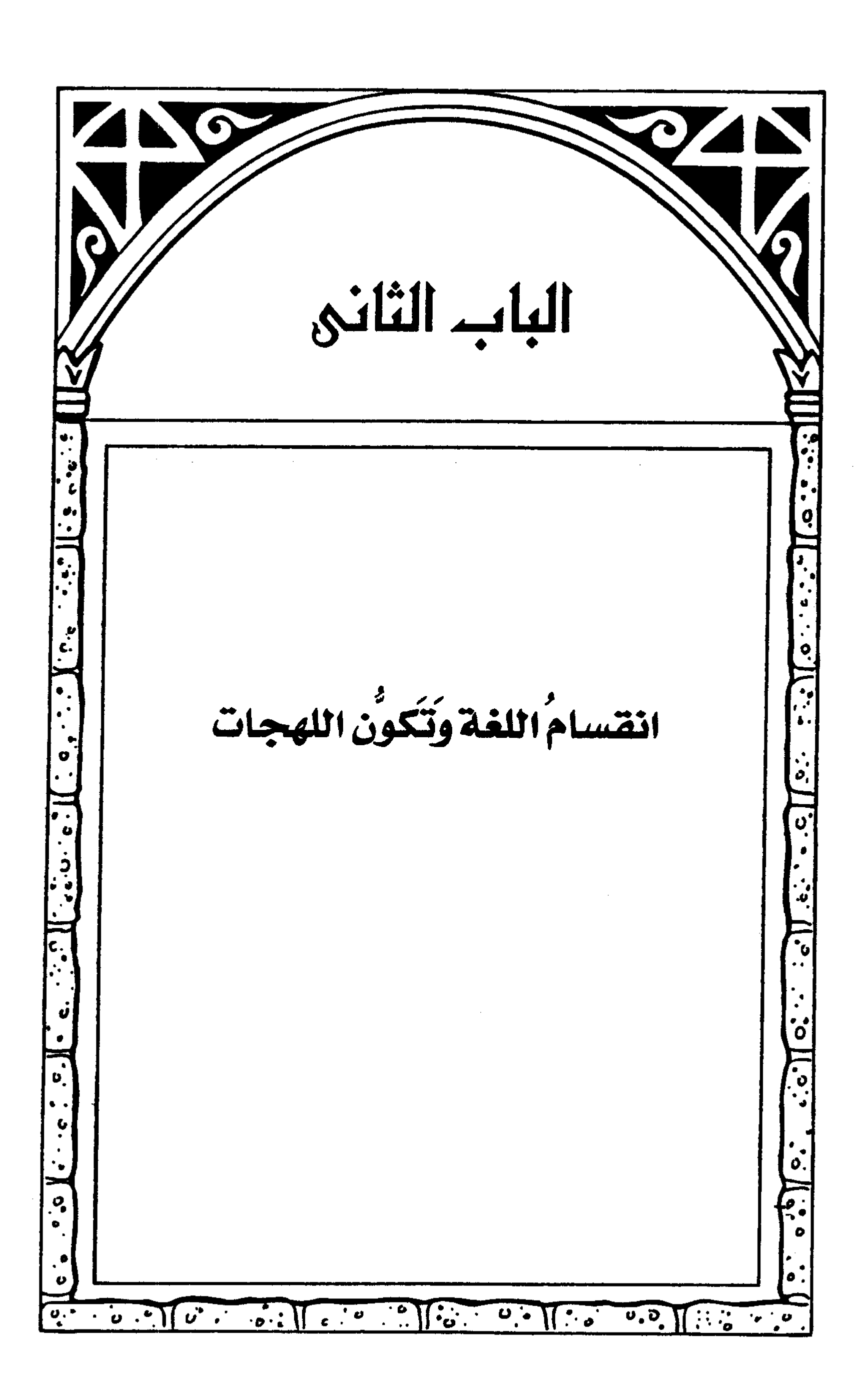
مثال الأول: اللهجات الروسية التشيكية والبلغارية أصبحت لغات رسمية معترفا بها عندما استقلت هذه البلدان عن روسيا.

مثال الثانى: ارتقاء العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية إلى مرتبة أدبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها.

مثال الثالث: لغة إيطاليا الحديثة فهى اللهجة التى كتب بها أدباء وشعراء أمثال: دانتى وبترارك ولوكاتشيو وأصلها لهجة فلورنسا.

مثال الرابع: لهجة باريس - بعد القرن السابع عشر - أصبحت المثال الأدبى الرفيع الذى ينبغى لكل كاتب ناشئ أن يحتذيه. وذلك ينطبق على لغتنا العربية النموذجية التى كان أساسها لهجة قريش، ثم استطاعت أن تتغلب على اللهجات الأخرى لتلك العوامل.





الباب الثانى

انقسامُ اللغة وتَكَوُّن اللهجات

منذ آدم - عليه السلام - واللغات التى يستعملها نسله يتوالى عليها الانقسام إلى لهجات، وبعد الطوفان توزع أبناء نوح - عليه السلام - فى الأرض، فنشأت مجموعات لغوية تنسب إلى أبنائه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وكل منها له فروع متعددة فى القديم والحديث.

ولا ريب أن اللغة تبقى متحدة فى المجتمع الذى يتخذها أداة له إذا كانت حياته الاجتماعية والأرض التى يعيش عليها متحدة فى أهدافها وعوامل تكوينها، فإذا تغير شىء من ذلك كان إيذانا بانشعاب تلك اللغة إلى لهجات.

وقد عزا العلماء انشعاب اللغات إلى لهجات لعوامل أهمها:

١- اختلاف البيئات الجغرافية:

فالأرض التى يعيش عليها البشر مختلفة، ففيها الجبال والسهول والوديان، وفيها الأراضى الزراعية والقاحلة، ومتى اختلفت البيئة الجغرافية فإن ذلك يؤدى إلى اختلاف اللغة، فإذا انتشرت جماعة لغوية تعيش فى مكان معين على أرض واسعة تختلف طبيعتها فإن ذلك يؤدى - مع تطاول الزمن - إلى انشعاب لغتها الواحدة إلى لهجات. وإذا كانت البيئة تؤثر على سكانها جسميا وخلقيا ونفسيا، كما هو الواقع فإنها - كذلك تؤثر على أعضاء النطق وطريقة الكلام.

٢- تنوع الظروف الاجتماعية:

لا ريب أن كل قوم لهم قوانينهم وطرقهم الخاصة فى معيشتهم وتفكيرهم سواء فى ذلك الشعوب المختلفة وطبقات الشعب الواحد، فكل شعب له ملامح ثقافية وعادات وتقاليد خاصة تختلف عن الآخر، فالمجتمع الإنجليزى غير المجتمع الفرنسى غير الأمريكى أو الرومى أو العربى فى طريقة معيشته وقوانينه العامة والخاصة.

والمجتمع الواحد قد يوجد فيه الطبقات الأرستقراطية والدنيا أو الطبقات الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها من أرباب المهن المختلفة،وبقدر ما يوجد من تلك المظاهر تتفرع لغات المجتمعات وتختلف.

بل يوجد من العاميات الخاصة بقدر ما يوجد من جماعات متخصصة، والعامية الخاصة تتميز بتنوعها الذى لا يحد، وأنها فى تغيير دائم تبعا لأحوال الجماعات والأمكنة التى تعيش فيها، فكل جماعة خاصة وكل هيئة من أرباب المهن لها عاميتها الخاصة[1].

(١) اللغة ٣١٥.

كما أن تغير تلك الأحوال التى تعيش فيها الجماعة تنعكس آثارها على اللغة، فلا شك أن المهاجرين من الأسبان والإنجليز إلى أمريكا قد عرى لغتهم بعض التطور الصوتى فاختلفت الأسبانية والإنجليزية هناك عنهما فى موطنهما الأصلى.

والعرب عندما خرجوا من جزيرتهم إلى الأقطار المجاورة بعد الفتح الإسلامى قد عرى لغتهم بعض التطور، بل تشعبت إلى لهجات متنوعة(٢).

فاختلاف المكان والنواحى الاجتماعية ووسائل الحياة كانت له آثاره فى لغة الجماعة بعد ارتحالها من بلدها الأصلى بحيث برزت أمارات التغير هناك عنها هنا.

ومن كل ما تقدم ندرك أن نظام المجتمع واختلاف طبقاته وتغير أحواله قد يسبب تفرع لغته إلى لهجات.

٣- الاتصال البشرى وآثاره:

الإنسان مدنى بطبعه - كما يقول علماء الاجتماع - فهو فى حاجة إلى مساعدة أخيه الإنسان، ولذلك فقد يتصل بنو البشر لتبادل المنافع،كما أن الإنسان قد يحتاج إلى الهجرة من وطنه الأصلى إلى مكان آخر بحثا عنه القوت أو لأسباب أخرى دينية أو استعمارية.

وبدهى أن تلك الاتصالات تحتاج إلى معرفة هؤلاء وهؤلاء بلغات الآخرين حتى يمكنهم التفاهم وتوثيق الصلات، أو إخضاع جماعة ما لسيطرتهم، وهذا يؤدى إلى احتكاك اللغات بعضها ببعض ونشوب صراع بينها، فالتوسع وضرورة الاتصال يقتضى معرفة لغات عدة معرفة جيد(٣)، بما يخلق اختلالا فى الأداء، فكثيرا ما لوحظ أن تطور اللغات يزداد بسرعة بازدياد انتشارها فى الخارج وازدياد عدد الناس الذين يتكلمونها وتنوعهم،إذ إن انتشارها فى أقاليم تحتك فيها بلغات أخرى يعرضها لأن تفقد خصائصها الموغلة فى الذاتية، والتأثير الذى يقع عليها من الخارج يؤدى بها إلى التغير السريع(٤)، وقد تتغلب إحدى هذه اللغات على الأخرى.

ونحن نشاهد نطق الأجانب للغة العربية إذا اتصلوا بالعرب كاليونانيين والإيطاليين فلا يستطيعون النطق بالطريقة العربية،فهم - مثلا - لا يمكنهم نطق الحاء فى مثل كلمة (محمد) فيحولونها إلى خاء.

وفى حالات الحروب نجد لغات المغزوين تتلاشى أمام لغة الغزاة وتنزوى فى

---

(٢) اللهجات العربية د. نجا ص ١٦ وفى اللهجات العربية د. أنيس ط٣ ص٢٣.

(٣) اللغة: ٣٤٨. (٤) المصدر السابق: ٤٢٧.

ضعف وتقهقر، وذلك واضح فى تغلب العربية على لغات البلاد المفتوحة كالقبطية فى مصر والفارسية فى بعض بلاد فارس القديمة والآرامية فى العراق والشام[٥]، والأرمينية تقهقرت أمام الروسية فى أوربا[٦]، لأن الضعيف عادة يحب أن يقلد من هو أقوى منه[٧].

وقد تبقى لغة المغزوين صاحبة الهيبة والاستعمال فى شئون المجتمع فإرادة الإغريق ألا يضحوا بلغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها أو حتى أن تنال منها، هذا إذا كثر عدد الغزاة.

أما إذا قل فإن لغتهم قد يصيبها الضعف كما حدث للغة النورمانديين بعد غزوهم لانجلترا فقد تغلبت الإنجليزية عليها لقلة عدد الغالبين ولم يكن للنورماندية الفرنسية غير أثر قليل فى اللغة الإنجليزية[٨].

فالباحث يرى أن هذه الاتصالات البشرية للمنافع أو للسيطرة واتصال اللغات نتيجة لذلك يعد عاملا من عوامل اختلاف اللغات عن أصلها بما يفرقها إلى لهجات، «فتطور اللغة المستمر فى معزل عن كل تأثير خارجي يعد أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق فى أية لغة، بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذى يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيرا ما يلعب دورا مهما فى التطور اللغوى»[٩].

---

(٥) فى اللهجات العربية: ٢٣.

(٦) اللغة ١ , ٢.

(٧) اللهجات العربية: ١٦.

(٨) فى اللهجات العربية ط٣ ص٣٤.

(٩) اللغة ٣٤٨. ويضيف بعضهم عاملا آخر هو: اختلاف الأفراد فى النطق، فسابير يذهب إلى أن اللهجات تنشأ من الميل العام إلى الاختلاف الفردى فى الكلام،ويجعلون من ذلك ما يسمى بالقياس الخاطئ. انظر اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص٣٩.

تطبيق تلك العوامل على العربية

كل تلك العوامل حدثت فى لغتنا العربية التى عاشت فى مناطق مختلفة، فقد كانت الصحراء تمثل جانبا من بيئتها الطبيعية، ثم انتقلت الأمة العربية إلى الحضارة فوجدت مناطق زراعية وأخرى تجارية، وكان لذلك أثره فى اختلاف أحوال أهلها بين تنقل وترحال أو إقامة واستقرار.

ثم خرج العرب من جزيرتهم إلى المناطق المجاورة فى الشام والعراق ومصر فالتقت العربية مع أخواتها من الساميات كالعبرية والآرامية وغيرهما، كما التقت مع لغات أخرى أجنبية كالفارسية والرومية والقبطية.

وكل ذلك كانت له آثار بعيدة المدى فى ظهور لهجات شتى للغة العربية. وإليك تفصيل ذلك:

(أ) العامل الاجتماعى والثقافى والجغرافى:

اللغة العربية - وهى إحدى لهجات اللغة السامية - كانت واحدة عند الناطقين بها ثم زادت وانقسمت بتأثير الحضارة والتطور، إذ إن العرب لم تستمر حياتهم على طريق واحدة وفى حدود لا تتغير، بل إنهم - كبقية البشر - تتغير أحوالهم الاجتماعية وما مر بهم من ثقافات، فدعاهم ذلك إلى تطور لغتهم لتناسب مظاهر حياتهم الجديدة.

وقد أخذت العربية فى التطور - كذلك - لانتقالها من البادية إلى الحاضرة، فبعد أن كانت فى بقعة صحراوية يتمسك أهلها بمنطق آبائهم الفصيح، بدأت تنتقل بانتقال أهلها إلى مجتمع حضارى، فتتغير على الألسنة وتتطور تبعا لذلك على الرغم من نهجهم طريق السلف، فأهل الحضر يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة، غير أن كلام أهل الحضر مضاه لكلام فصحاء العرب فى حروفهم وتآليفهم، إلا أنهم أخلوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح[10].

والفرق واضح بين صورة لهجات البادية التميمية، ولهجات الحاضرة الحجازية المتمثلة فى القرشية، فقد ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء «فأما عنعنة تميم فإن تميما تقول فى موضع (أن). (عن) تقول عن عبد الله قائم وأنشد ذو الرمة عبد الملك:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة

(١٠) الخصائص ٢/ ٢٩.

وأما تلتلة بهراء فإنهم يقولون: تعلمون وتفعلون وتصنعون بكسر أوائل الحروف.

وأما كشكشة ربيعة، فإنما يريد قولها مع كاف ضمير المؤنث: أنكش ورأيتكش وأعطيتكش، تفعل هذا فى الوقف، فإذا وصلت أسقطت الشين[11]، فقريش ما ترفعت عن ذلك إلا للثقافات الاجتماعية التى نشأ أهلها عليها، كذلك فبيئة الحجاز الحضرية غير الصحراء التى يعيش بها بنو تميم.

(ب) الاتصال البشرى بين العرب وغيرهم:

لم يعش العرب فى عزلة عن غيرهم، أو عن اتصال بعضهم ببعض، فالحياة الاجتماعية تحتاج إلى صلات وروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب، وقد تهيأت لهم وسائل هذا الاتصال عن طريق تبادل المنافع وعن طريق الغزو والسيطرة كما عرفنا، ولا ريب أن الإسلام - بعد الفتوح - محا ديانات الشعوب التى تغلب عليها واحتلت لغته العربية الصدارة لديها، فى جميع الأعمال والشئون والمخاطبات العادية.

وقد تأثرت العربية - أيضا - بلغات البلاد المفتوحة وأثرت فيها، وإذا كانت قد كتب لها التغلب، فإنها قد فقدت - أيضا - بعض مميزاتها حتى انشعبت إلى لهجات.

ويؤكد ذلك فشو اللحن على ألسنة العرب بعد انتشار الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية، فقد رووا أن النبى ﷺ سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال: (**أرشدوا أخاكم فقد ضل**) ورووا أيضا أن أحد ولاة عمر - رضى الله تعالى عنه - كتب إليه كتابا لحن فيه، فكتب إليه عمر «أن قنع كاتبك سوطا» وغير ذلك، مما كان سببا فى وضع علم النحو على يد أبى الأسود الدؤلى، ولذا منع علماء العربية الاحتجاج بكلام من كانت له صلة بالأمم المجاورة كلخم وجذام.

ومعنى ذلك أن احتكاك الشعوب يؤدى إلى احتكاك لغتها[12]، وقد تبرز خصائص إحداهما على الأخرى «ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التى لا تزيدها الأيام إلا تفرقا، ولكن الذين يتكلمون إحدى هذه اللغات يميلون دائما إلى المحافظة عليها كما هى»[13].

وقد أدى هذا الاختلاط بين العرب والأجانب ممن دخلوا الإسلام إلى تفرع العربية إلى لهجات فى البلاد المفتوحة كالمصرية والسورية والعراقية وغيرها من اللهجات التى نرى آثارها حتى اليوم.

---

(١١) المصدر السابق ٢/ ١١.   (١٢) اللغة: ٣٤٨.   (١٣) المصدر السابق : ٣٢٦.

(جـ) اختلاط القبائل العربية وأثره فى اللهجات:

وإن اتصال العربى بأخيه له كذلك أثره فى لهجة كل فريق حيث تؤثر وتتأثر بأختها، فقد دعت الحاجة الاجتماعية العرب إلى التلاقى والتعامل الاجتماعى «فإن العرب بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة الواحدة فى دار واحدة، وهذا الاتصال الوثيق يؤدى إلى اتصال لهجاتهم بعضها ببعض فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعى أمر لغته كما يراعى ذلك من مهم أمره»(١٤).

فلقاء اللهجات مهم للعرب كأمور الحياة الأخرى التى يلتقون من أجلها، وإذا التقى العربى بغيره حدث واحد من ثلاثة أمور:

- تمسكه بلهجته الأصلية.
- انتقال لسانه إلى اللهجة الجديدة.
- اجتماع لهجته مع لهجة غيره.

وذلك يمكن فهمه من قول ابن جنى:

«اعلم أن العرب تختلف أحوالها فى تلقى الواحد منها لغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع فيقول ما يسمعه، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته ألبتة، ومنهم من إذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ووجدت فى كلامه»(١٥).

فعندما يلتقى العربى بأخيه ويتحادثان أو يسمع كل منهما لغة الآخر، فإما أن يحس أحدهما من كلام صاحبه ما يعجبه، فيتلقف كلماته بسرعة ويترك لهجته الأصلية، وإما أن يستعملها مع لهجته، وإما أن يتعصب للهجته الأولى فيستعصم بها.

ومن أمثلة تمسك العربى بلهجته الأصلية موقف أبى زياد الكلابى من نطق كلمة «النطع» بلهجته الخاصة وعدم اعترافه بغيرها، فقد سأل أبا عبد الله الأعرابى عن قول النابغة الذبيانى:

على ظهر مبناة......

فقال أبو عبد الله: النطع بفتح النون فقال أبو زياد: لا أعرفه، فقال: النطع بكسر النون فقال أبو زياد: نعم، فقد أنكر غير لغته كما ترى مع ما بينهما من قرب(١٦).

وليس الغالب أن يبقى العربى على لهجته غير متأثرة بما يجاورها من لهجات إخوانه الآخرين، بل إن الأعم هو التفاعل بين تلك اللهجات بحيث تأخذ هذه من تلك وتلك من هذه.

---

(١٤) الخصائص ٢/ ١٥، ١٦. (١٥) المصدر السابق ١/ ٣٨٣. (١٦) المصدر السابق ١/ ٣٨٣.

ولذلك كان تبادل التأثيرات اللغوية هو الشائع بين تلك اللهجات المتولدة من لغة واحدة.

وقد عقد ابن جنى بابا (فى العربى يسمع لغة غيره أيراعيها ويعتمدها أم يلغيها ويطَّرح حكمها)[17] ذكر فيه سؤال أبى زيد للخليل عن الذين قالوا: مررت بأخواك، وضربت أخواك، ممن يلزمون المثنى الألف، فقال الخليل: هؤلاء قولهم على قياس الذين قالوا فى ييأس: ياءس، أبدلوا الياء لانفتاح ما قبلها.

وأخذ ابن جنى يفسر قول الخليل على أن بلحرث بن كعب نظروا فى استعمال أكثر العرب المثنى بالياء نصبا وجرا فجعلوا مكان الياء ألفا فى لغتهم حالتى النصب والجر، استخفافا للألف.

وبعضهم فسر قول الخليل على أن العرب جميعا كانوا يستخدمون الياء فى المثنى حالتى النصب والجر إلا أن بلحرث بن كعب فضلت استعمال الألف فى أوجه الإعراب كلها، وإن كان القياس يقتضى رأى الجمهور.

ورأى بعضهم احتمالا آخر هو: أن بلحرث بن كعب كانوا - كغيرهم من الجمهور - يستعملون المثنى بالياء فى النصب والجر ثم قلبت بلحرث بن كعب الياء ألفا للخفة لأنها أسهل عليهم، وهذا القلب بسبب الفتحة قبل الياء، وإن لم تكن الياء مفتوحة، وهذا قول آخر لأبى الحسن الأخفش.

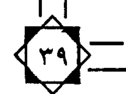
ولكن ابن جنى لم يرتض هذا التفسير، لأن الاحتمال الأقوى - عنده - أن يكون بلحرث بن كعب قد نطقوا بالألف من أول الأمر، ولم يكونوا ينطقون المثنى بالياء، ثم تحولوا إلى الألف، لأن الياء هى القياس للفرق بين المرفوع وغيره، وهى الأقوى والجماعة عليه، فكيف ينتقلون من الأقوى إلى الأضعف وهم لم ينطقوا قط بالياء، ولم يبدلوها ألفا، لكن بلحرث راعت لغة الكافة الكثيرة فصنعوا لغتهم من أول الأمر بالألف، ولم يعدلوا إليها من غيرها.

وقد عقب ابن جنى على بعض هذه الأوجه بأن صاحب لغة يراعى لغة غيره، لأن العرب يتصل بعضهم ببعض، وهم خلق كثير منتشر متجاور لهم علاقات وارتباطات، وبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعى أمر لغته كما يراعى ذلك من مهم أمره.

وقد يؤدى هذا التبادل للتأثير بين اللهجات - أحيانا - إلى انتقال لسان العربى إلى غير لهجته إذا كثرت صلاته بها.

وقد تبقى لهجته الأصلية، مع ظهور سمات خاصة فيها من لهجة غيره، ولذلك صور متعددة تندرج تحت عنوان: **«تركب اللغات»**

(17) المصدر السابق ٢/ ١٤-١٦.



تركيب اللغات

اقتضت الحاجة الاجتماعية أن يستعمل العربى ظواهر أو ألفاظا خاصة بلهجة أخيه إلى جوار ما يستعمله فى لهجته الأصلية، ودراسة هذا الموضوع تنحصر فى جانبين:

١- جانب الأبنية. ٢- جانب الألفاظ.

١- التداخل فى الأبنية:

القدماء يجعلون من الممكن شكل عين الثلاثى فى الماضى والمضارع بإحدى الحركات الثلاث: الفتحة أو الضمة أو الكسرة، فيفترضون بالقسمة العقلية تسعة وجوه يرفضون منها ثلاثة؛ لأنها لم ترد عن العرب وهى:

- فعُل يفعَل، بضم العين فى الماضى وفتحها فى المضارع.
- فعُل يفعِل، بضم العين فى الماضى وكسرها فى المضارع.
- فعِل يفعُل، بكسر العين فى الماضى وضمها فى المضارع(١٨).

والأوزان الستة التى قبلوها لورودها عن العرب هى:

- فعَل يفعِل، بفتح العين فى الماضى وكسرها فى المضارع.
- فعَل يفعُل، بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع.
- فعَل يفعَل، بفتح العين فى الماضى وفتحها كذلك فى المضارع.
- فعِل يفعَل، بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع.
- فعِل يفعِل، بكسر العين فيهما.
- فعُل يفعُل، بضم العين فيهما.

وقد نصوا على أن (فعَل يفعَل) بفتح العين فى الماضى والمضارع يكون فيما عينه أو لامه حرف حلق مثل: فتح يفتح، وقرأ يقرأ(١٩) كما عدوا باب (فعِل يفعِل) بكسر العين فيهما موقوفا على السماع.

---

(١٨) من أسرار اللغة ط٣ ص٣٠.

(١٩) هذا ما تؤكده التجارب الصوتية الحديثة، فأصوات الحلق تحتاج بعد صدورها من مخرجها الحلقى إلى اتساع فى مخرجها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا وتلك هى الفتحة - انظر فى اللهجات العربية ط٢ ص ١٢٨ ومن أسرار اللغة ط ٣ ص٢٤.

وعلى هذا الأساس فكل ما خالف هذه الوجوه التى اعتمدوها يعد شاذا عندهم «ألا تراهم كيف ذكروا ما جاء على فعل يفعل بكسر العين فى الماضى وضمها فى المضارع نحو نعم ينعم، ودمت تدوم، ومت تموت، وقالوا أيضا فيما جاء من فعل يفعل بفتح العين فيهما وليس عينه ولا لامه حرفا حلقيا نحو قلى يقلى وسلا يسلى وجبى يجبى وركن يركن وقنط يقنط[٢٠].

كما أن المعروف عندهم فى بناء الوصف من الفعل الثلاثى أن المفتوح العين يكون الوصف منه على فاعل، مثل كتب فهو كاتب، والمضموم العين يكون منه على فعيل مثل كرم فهو كريم، وتلك قاعدة مشهورة عندهم فكل ما خالفها عد شاذا.

ومما عدوه شاذا ما ذكروه من فعل بضم العين فهو فاعل نحو حمض فهو حامض وعقرت المرأة فهى عاقر، ولذلك نظائر كثيرة.

وهكذا شأن كل ما خالف القواعد عندهم، فإنه يوصم بالشذوذ، ولكن الأجدى فى ذلك هو الحمل على تركب اللغات، فهو لغات تداخلت فتركبت وهكذا ينبغى أن يعتقد وهو أشبه بحكمة العرب[٢١].

وتفسير التداخل فى الأبنية يدعونا إلى تقسيمها إلى نوعيها:

(أ) أبنية الأفعال. (ب) أبنية الأسماء.

(أ) تفسير التداخل فى أبنية الأفعال:

«دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع، إذ الغرض فى صيغ هذه المثل إنما هو لإفادة الأزمنة، فجعل لكل زمان مثال مخالف لصاحبه، وكلما ازداد الخلاف كانت فى ذلك قوة الدلالة على الزمان، فمن ذلك أن جعل العرب بإزاء حركة فاء الماضى سكون فاء المضارع، وخالفوا بين عينيهما فقالوا: ضرب يضرب وقتل يقتل وعلم يعلم»[٢٢].

والقياس فيما ماضيه (فعل) بكسر العين أن يكون مضارعه على (يفعل) بفتحها نحو: ركب يركب وشرب يشرب، والقياس - كذلك - فيما ماضيه (فعل) بفتح العين أن يكون مضارعه على (يفعل) بكسرها نحو ضرب يضرب وسرق يسرق، ففى الأول كسرت عين الماضى ففتحت عين المضارع، وفى الثانى بالعكس لتحقيق المخالفة والتناظر بينهما

---

(٢٠) الخصائص ١/ ٣٧٥.

(٢١) المصدر السابق ١/ ٣٧٥ وانظر المغنى فى تصريف الأفعال للشيخ عضيمة ص ٤٠ وما بعدها.

(٢٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٥.

«فكما فتح المضارع لكسر الماضى فكذلك - أيضا - ينبغى أن يكسر المضارع لفتح الماضى».

وإنما جاءت المخالفة - أيضا - فيما ماضيه (فعل) بفتح العين مع كسر عين المضارع وضمها فقيل (يفعل) نحو قتل يقتل ودخل يدخل؛ خروجا على القاعدة السابقة التى تناظر بين (فعل) بكسر العين و(فعل) بفتحها فى عينى مضارعيهما، من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة مخالفة للفتحة، وآثروا خلاف حركة عين المضارع لحركة عين الماضى، ووجدوا الضمة مخالفة للفتحة خلاف الكسرة لها، عدلوا فى ذلك إليها فقالوا: قتل يقتل ودخل يدخل وخرج يخرج بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع[٢٣].

أما ما نجده من الثلاثى مما تكون فيه حركة عينه فى الماضى والمضارع سواء وهو باب (فعل) نحو كرم يكرم فعلى كل حال فاؤه فى المضارع ساكنة وموافقة حركة عينه، لأنه ضرب قائم برأسه، ألا تراه غير متعد بخلاف (فعل) بفتح العين و(فعل) بكسرها فأكثره متعد، فلما خالفهما خولف بينهما وبينه[٢٤].

وفى الرباعى وما فوقه لم ينظروا إلى هذا اللون من المخالفة «فقالوا: دحرج يدحرج فحركوا فاء المضارع والماضى جميعا وسكنوا عينيهما، وكذلك قالوا: تقطع يتقطع وتقاعس يتقاعس وتدهور يتدهور ونحو ذلك؛ لأنهم أحكموا الأصل الأول الذى هو الثلاثى فقل حفلهم بما وراءه»[٢٥].

وهذا كله كان شرحا لقانون المغايرة الذى اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته فى الاشتقاق وعد فيه ابن جنى موفقا كل التوفيق.

ولو لاحظنا ما وضعه ابن جنى والقدماء من قواعد لاشتقاق الأفعال - على الوصف السابق - لوجدنا أنها تتفق تماما مع رأى المحدثين، فهم حين يعالجون اشتقاق صيغة من أخرى يبحثون على ضوء أسس ثلاثة:

١ - المغايرة Polarity التى فطن إليها ابن جنى.

---

(٢٣) المصدر السابق ١/ ٣٧٩ وهذا القول تؤيده القوانين الصوتية الحديثة التى تجعل الضمة والكسرة أصواتا ضيقة يقابلها الفتحة التى هى الصوت المتسع، فإذا أردنا أن نخالف بين الماضى والمضارع أخذنا للأول الضمة أو الكسرة وأخذنا للمضارع الفتحة أو العكس بالعكس. انظر: من أسرار اللغة ط٣ ص٣٣.

(٢٤) المصدر السابق ١/ ٣٧٦. (٢٥) الخصائص ١/ ٣٧٥.

٢- وظيفة الفعل فى الكلام وتبعا لها يأخذ الفعل حركته بمجرد المصادفة ملتزمة فى اللهجة الواحدة، وتختلف اللهجات فى إيثار حركة على أخرى.

٣- إيثار الحروف المجاورة[٢٦] فى اللغات السامية لحركات خاصة ومن بينها حروف الحلق.

وبذلك نستطيع أن نقف على أن الأبنية المقبولة للفعل الثلاثى والتى علل لصحتها ابن جنى «لا يعقل نسبتها للغة موحدة كاللغة النموذجية الأدبية» بل إنها «تنتمى إلى عدة لهجات كل منها التزم بابا أو بابين، ويؤيد ذلك ما ورد فى معاجم اللغة من نحو: فقه بضم العين صار فقيها والكسر لهجة كلاب - سخن مثلثة العين والكسر لبنى عامر - حضر من باب نصر وعلم والأخير لأهل المدينة[٢٧]، ويؤيد هذا ما نراه فى اللغات السامية شقيقات اللغة العربية، ففى العبرية نجد أن الماضى فى الكثرة الغالبة من الأفعال على وزن (فعل) بفتح العين وأحيانا على وزن (فعِل) بكسر العين ثم يندر أن يكون على (فعل) بضم العين، ونرى أن مضارع الأول هو (يفعُل) بضم العين ومضارع الوزنين الأخيرين (يفعل) بفتح العين، ولا نكاد نجد فى اللغة العبرية ما يشذ عن هذا سوى بضعة أفعال[٢٨]، وإذا تحققنا أن هذه الأبنية هى فى الأصل لهجات للقبائل العربية، وأنها قد اتجهت هذه الاتجاهات وتركت ما عداها فلا غرابة فى تفسير ما عد شاذا وخارجا عليها بأنه لهجات تداخلت.

أولا: ما خالف الأوزان المقبولة مثل ما جاء على فعِل يفعُل بكسر العين فى الماضى وضمها فى المضارع كنعِم ينعُم وفضِل يفضُل، فنعِم بكسر العين فى الأصل ماضى ينعَم بفتحها وينعُم بضم العين فى الأصل مضارع نعُم بضم العين ثم تداخلت اللغتان فاستضاف من يقول نعِم بكسر العين لغة من يقول ينعُم بضمها فحدثت هناك لغة ثالثة، فإن قلت: فكان يجب على هذا أن يستضيف من يقول (نعُم) بضم العين مضارع من يقول (نعم) بكسر العين فتركب من هذا أيضا لغة ثالثة وهى (نعُم ينعَم) بضم العين فى الماضى وفتحها فى المضارع؟

---

(٢٦) أى لغيرها كإمالة حركة ما قبل تاء التأنيث مع الحروف المستفلة والنطق بها فتحة مع حروف الاستعلاء فى قراءة الكسائى، وفى اللهجة القاهرية نلحظ الارتباط بين الحروف والحركات فى صيغة (استفعل) فما فيه حروف التفخيم تؤثر عينه الفتحة غالبا حين تكون هذه الحروف فى الآخر، أو قبل الآخر، فى حين تؤثر الحروف الأخرى الكسرة مثل: يستلبخ - يستفظع - يستأمن - يستغفل - يستبشر. (من أسرار اللغة ط ٣ ص٣٤، ٣٥).

(٢٧) اللسان ٥/ ٢٧٢، ١٧/ ٦٦، ٤١٨.

(٢٨) من أسرار اللغة ط ٣ ص ٣٢ وما بعدها.

قيل: منع من هذا أن (فعُل) بضم العين لا يختلف مضارعه أبدا وليس كذلك (نعم) بكسر العين لأن (نعم) بكسر العين قد يأتي فيه (ينعِم وينعَم) بكسر العين وفتحها جميعا فاحتمل خلاف مضارعه دون الأول(٢٩).

وكذلك (فضل يفضل) : فيقدر أنه جاء على بابين بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع وبفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع، فأخذ الماضى من اللغة الأولى والمضارع من اللغة الثانية فنشأت لغة ثالثة مركبة منهما(٣٠).

ثانيا: ما جاء بفتح عينى الماضى والمضارع وليست العين أو اللام حرفا حلقيا وله أمثلة منها:

قنط يقنط: فهما لغتان تداخلتا، وذلك أن (قنط يقنط) بفتح العين فى الماضى وكسرها فى المضارع لغة، و(قنط يقنط) بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع لغة أخرى، ثم تداخلتا فتركبت لغة ثالثة فقال من قال: قنط يقنط بفتح العين فيهما ولم يقولوا: قنط يقنط بكسر العين فيهما؛ لأن آخذا إلى لغته لغة غيره قد يجوز أن يقتصر على بعض اللغة التى أضافها إلى لغته دون بعض.

وكذلك: ركن يركن: فيه لغتان: ركن يركن كعلم يعلم وركن يركن كقتل يقتل وحكى عنهم: ركن يركن (فعل يفعل) بفتح العين فيهما، وهذا عند أبى بكر من اللغات المتداخلة كأن الذى يقول (ركن) بفتح الكاف سمع مضارع الذى يقول (ركن) بكسرها وهو (يركن) فتركبت له لغة بين اللغتين وهى: ركن يركن بفتح العين فيهما(٣١). فأما الأفعال التى جاءت عينا الماضى والمضارع فيها متوافقتين بالكسر مثل نعم ينعم وحسب يحسب وبئس يبئس، فقد علل ابن جنى لها باحتمال التداخل وغيره تبعا لأنه لم يعرف لها ماض آخر مع (فعل) بكسر العين يكون مفتوح العين يمكن به القطع بأنها من تداخل اللغات - على ما يرى - فقد أتى ماضى هذه الأفعال على (فعل) بكسر العين أو (فعُل) بضمها وكل منهما لا يأتى مضارعه على (يفعل) بكسر العين لأن قانون المخالفة يقتضى أن يكون مضارع (فعل) بكسر العين (يفعَل) بفتحها ومضارع (فعُل) بضم العين (يفعل) بضمها وقد جاءت كلها بالكسر فى الماضى والمضارع فيحتمل:

١ - أنها من باب التداخل إلا أن الماضى من اللغة الأخرى مفقود وهو: «حسب - نعم - بأس - يبس بفتح العين» واستغنى عنه بالماضى الموجود: «حسِب - نعِم - بئِس -

(٢٩) الخصائص ١/ ٣٧٨. (٣٠) المصدر السابق ١/ ٣٨٠، ٣٨١ والمحتسب ٢/ ٥.

(٣١) المحتسب ١/ ٣٢٩، ٢/ ٥.

يبس بكسر العين» كما استغنوا بترك عن وذر وودع ونحو ذلك[٣٢] ويؤيده ما حكاه السيوطى عن الكسائى[٣٣].

٢ - أنها ليست من باب التداخل بل قيل (ينعِم) بكسر العين في المضارع موافقة لماضيه (نعِم) على (فعِل يفعِل) بكسر العين فيهما تشبيها له بباب (فعُل يفعُل) مما يوافق فيه المضارع الماضى بالضم «فكما أن فعل بضم العين بابه يفعُل بضمها كذلك شبهوا بعض (فعِل) بكسر العين به فكسروا عين مضارعه كما ضموا فى ظرُف عين ماضيه ومضارعه، فنعِم ينعِم بكسر العين فيهما محمول على كرُم يكرُم[٣٤] وحسب يحسب ويئس ييئِس ويبس ييبِس بكسر العين فيها جميعا مشبه بباب كرُم يكرُم على ما قلنا فى نعِم ينعِم بكسر العين فيهما[٣٥].

(ب) تفسير التداخل فى أبنية الأسماء:

عرفنا أن للعرب قواعد خاصة فى اشتقاق الأوصاف من الأفعال، فمن الثلاثى المفتوح العين تأتى على فاعل، ومن المضموم العين تأتى على فعيل، وما جاء مخالفا لذلك عده الصرفيون شاذا، ولكن ابن جنى يخرج بعضه على أنه من باب تداخل اللغات فقولهم: «شعر فهو شاعر وحمض فهو حامض وخثر فهو خاثر وطهر فهو طاهر بضم العين فى جميع الأفعال، على نحو من هذا، وذلك أنه يقال: شعر وحمض وخثر وطهر بضم العين وفتحها فى جميع الأفعال، فجاء شاعر وحامض وخاثر وطاهر على شعر وحمض وخثر وطهر بفتح العين فى جميع الأفعال ثم استغنى بفاعل عن فعيل وهو فى أنفسهم وعلى بال من تصورهم، يدل على ذلك تكسيرهم لشاعر على شعراء لما كان فاعل واقعا موقع فعيل كسر تكسيره ليكون ذلك أمارة ودليلا على إرادته وأنه مغن عنه وبدل منه»[٣٦].

وقد عد ابن جنى من التداخل قراءة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحِبُكِ﴾ يقول: لعل الذى قرأ به تداخلت عليه القراءتان بالكسر والضم فكأنه كسر الحاء يريد الحبك بكسر الحاء والباء وأدركه ضم الباء على صورة الحبك بضمهما فجمع بين أول اللفظة على هذه القراءة وبين آخرها على القراءة الأخرى[٣٧]، ولا يأتى اعتراض الرضى على ابن جنى فى هذا

---

(٣٢) الخصائص ١/ ٣٧٨، ٣٨٨ واللسان ١/ ٣٥٥، ٨/ ١٤٦، ١٤٨ والبصريون وسيبويه يردون هذا الرأى، انظر اللسان ٨/ ١٤٧ والكتاب ٢/ ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٣٣) المزهر ١/ ١٩٤.
(٣٤) الخصائص ١/ ٣٧٩.
(٣٥) المصدر السابق ١/ ٣٨٠.

(٣٦) المصدر السابق ١/ ٣٨١.
(٣٧) المحتسب ٢/ ٢٨٧.

الرأى بأن: «الحُبُك بضمتين جمع الحباك وهو الطريقة فى الجبل ونحوه، والحبك بكسرتين مفرد وأنه يبعد تركيب اسم من مفرد وجمع»[٣٨]، وذلك كما يقول محققو المحتسب: «مُسَلَّم فى التركيب من لغتين لأنه - حينئذ - أخذ من مفرد وجمع أما التركيب من قراءتين - إن صح الأخذ به - فلا يبدو بعيدا لأن قراءتى الجمع والمفرد مرويتان، والقارئ بالتركيب منهما يريد أن يروى ما يؤثر لا التعبير عما يريد التعبير عنه، وهذا فيما يبدو لى أصوب من اعتبارها خارجة على القواعد، وقد حاول ابن جنى وصفها بذلك أولا ثم بدا له تخريجها على هذا الوجه المقبول، ويمكن إدراك الوصف الأول من قوله: «وأما الحِبُك بكسر الحاء وضم الباء فأحسبه سهوا؛ وذلك أنه ليس فى كلامهم فعل أصلا بكسر الفاء وضم العين وهو المثال الثانى عشر من تركيب الثلاثى فإنه ليس فى اسم ولا فعل أصلا»[٣٩].

وقد اعتبرالدكتور أنيس القول بالتداخل فى الصيغ «ناحية صناعية بحتة لا تسوغها تلك الأمثلة التى رواها ابن جنى فضلا عن أنه لم يبين كيف تتداخل اللغات ولا الدوافع التى قد تدعو لمثل هذا التداخل، فافتراض أن لهجة من اللهجات تستعير طريقة النطق بالماضى فقط دون مضارعه أو المضارع فقط دون ماضيه أمر بعيد الاحتمال؛ وذلك لأن الأوزان لا تستعار وإنما الذى يستعار هو الكلمات، وليس هناك من مسوغ يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل فيها من قوله نعِم ينعَم بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع إلى نعِم ينعُم بكسر العين فى الماضى وضمها فى المضارع»[٤٠]، وقد ساق أدلة لرأيه هذا:

(أ) من كلام ابن جنى نفسه من بعض القصص التى تقوم حجة عليه لا له، فمماًّ روى عن أبى حاتم قال: قرأ علىَّ أعرابىٌّ بالحرم (طيبى لهم وحسن مآب) فقلت: طوبى فقال: طيبى قلت طوبى قال طيبى، فلما اشتد علىَّ قلتُ: طوطو فقال طِى طِى[٤١].

---

(٣٨) شرح الشافية ١٠، ١١ ط ١٣٤٥ وفى الصبان اعترض بأن التداخل فى جزءى الكلمة الواحدة غير معهود إنما المعهود التداخل فى الكلمتين نحو كُدت بضم الكاف تكاد فإن كُدت بالضم على لغة من قال كاد يكود وأكاد على لغة من قال: كاد يكاد ٤/ ٢٣٨، ٢٣٩ وقال أبو حيان: كسرت الحاء إتباعا لكسرة ذات وأل حاجز غير حصين،واعترض عليه أيضا بأن (أل) كلمة برأسها فهى حاجز قوى يمنع من الإتباع. انظر المصدر السابق ٤/ ٢٣٩.

(٣٩) المحتسب وتعليق المحققين ٢/ ٢٨٧.

(٤٠) فى اللهجات العربية ط٢ ص١٥٣، ١٥٤ بتصرف يسير، ومن أسرار اللغة ط٣ ص٣٠.

(٤١) الخصائص ١/ ٣٨٤.

(ب) نلحظ فى اللهجات الحديثة أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين قد يلتقيان ويصادق أحدهما الآخر زمانا طويلا وكل منهما يلتزم لهجته وما نشأ عليه، فإذا تأثر أحدهما بالآخر وأخذ يقلده فى لهجته لسبب من الأسباب تكلم كل منهما بعد مران طويل ومخالطةمستمرة لهجة واحدة، أما أن تمتزج اللهجتان وينشأ منهما لهجة ثالثة فليس مما يقره المحدثون من الباحثين فى اللغات.

وقد اقترح الدكتور أنيس حلا لتلك المشكلة التى أعيت القدماء أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ماضيها ومضارعها ثم تبوب وتنسق وينظر إليها على أنها تنتمى إلى لهجات متعددة، ..، وقد قام هو بنفسه بعملية الجمع والتبويب هذه متخذا القرآن الكريم ومعاجم اللغة مصادر لبحثه، وقد خرج من ذلك بنتائج يمكن حصر أهمها فيما يأتى:

١- الماضى المفتوح العين يكون مضارعه مضموم العين أو مكسورها إلا حين تكون لامه أو عينه من حروف الحلق فتفتح مع استثناء الأفعال القرآنية: نزع - قعد - رجع - بلغ - زعم - نفخ - نكح.

٢- الماضى المكسور العين لا يكون مضارعه إلا مفتوح العين.

٣- جعل باب (فعُل يفعُل) بضم العين فيهما (الذى لم يعثر فى القرآن الكريم له إلا على فعلين كبُر وبصُر) فرعا لصيغة (فعل) وأنه لا يلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة فى معنى الحدث.

٤- لا يوجد فى القرآن الكريم باب (فعِل يفعِل) بكسر العين فى الماضى والمضارع[٤٢].

٥- الأفعال المشتركة التى ورد لكل منها أكثر من باب ولم يختلف معناها قسم الاشتراك بينها إلى: الاشتراك بين بابى نصر وضرب - بين بابى ضرب وفرح - بين بابى نصر وفرح - بين بابى فرح وكرم- بين باب كرم وبابى ضرب ونصر، وقد جعل لكل من هذه الأقسام بابا أصليا واحدا يطرح ما عداه إلا فى القليل النادر الذى يأخذ وضعا خاصا، وبنى هذا الحكم على تقسيم المحدثين للأفعال إلى اختيارية واضطرارية، والاختيارية فى عرفهم هى التى لنا اختيار فى حدوثها ولو كانت مما يعده القدماء لازما كجلس وقعد، والاضطرارية عندهم بعكس ذلك وهى ما ليس لنا اختيار فى حدوثها مثل كبر وضعف، وقد لاحظ المحدثون أن كلا من هذين النوعين يختلف عن الآخر فى صيغته، فبينما يؤثر

(٤٢) من أسرار اللغة ط٣ ص١٤ وفى اللهجات العربية ط٢ ص١٥٧.

أحدهما حركة من الحركات يؤثر الآخر حركة أخرى(٤٣)، وبناء على ذلك حكم بأن الاشتراك فى بابى نصر وضرب يجب أن ينسب إلى لهجتين مختلفتين، وربما كانت تلك الأفعال من هذا النوع تستعمل فى لهجة واحدة، أما الاشتراك فى بابى ضرب وفرح أو فى بابى نصر وفرح فإذا كان الفعل من الأفعال الاختيارية حددنا له باب نصر أو ضرب وضربنا صفحا بباب فرح الذى نسبته له المعاجم، أما إذا كان من الأفعال الإجبارية حددنا له باب فرح وضربنا صفحا عن باب نصر أو ضرب، والاشتراك فى بابى فرح وكرم يجعلنا نحكم بأنها من الباب الأول وحده، فإذا كانت الأفعال المشتركة من باب كرم وبابى ضرب ونصر فسرناها على أن معناها من باب كرم قد قصد فيه المبالغة، وأن الفعل من بابى نصر وضرب قد حول إلى كرم للرغبة فى جعل المعنى من الصفات الغرزية الثابتة(٤٤)، ونحن نجيب:

١- بأن تداخل اللغات ليس عملية صناعية بحتة بل استمدها ابن جنى من واقع اللغة وأتى بأمثلة مستعملة فى العربية الفصحى والقراءات القرآنية، وقد أبان ابن جنى عن الأغراض التى دعت العربى إلى الاقتباس من لغة أخيه وهى كثرة الخلاط معه لما يحتاجه فى حياته بجوانبها المتعددة، وقد بينا ذلك بوضوح فى أسباب نشأة اللهجات فى اللغة بما يبرهن على أن ابن جنى تكلم عن دوافع الانقسام والأخذ عن الآخرين عربا وغير عرب.

٢- القصة التى أوردها الدكتور أنيس رواية عن ابن جنى إن دلت(٤٥) على امتناع تحول العربى عن لهجته إلى لهجة غيره فهناك - فيما روى عن ابن جنى أيضا - قصص كثيرة تدل على تحول اللسان من لهجة إلى أخرى، ويمكن أن ننقل القصة التى ذكرت عقب تلك القصة السابقة التى رواها الدكتور أنيس، ونجتزئ بها عن غيرها: «فقد روى أن أبا عمرو سأل أبا خيرة عن قولهم استأصل الله عرقاتهم فنصب أبو خيرة التاء من عرقاتهم فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جلدك» والأعرابى قد ينطق بالكلمة يعتقد أن غيرها أقوى فى نفسه منها، ألا ترى أن أبا العباس حكى عن عمارة أنه كان يقرأ ﴿ولا الليل

---

(٤٣) يفهم من تفسيره للأفعال أن الحركة للفعل الاختيارى تكون عادة الفتحة فى المتعدى، وبذلك يكون هو الأصل وفى الاضطرارى الكسرة والضمة فى اللازم ويفاضل بينهما عند الاجتماع فتقدم الكسرة على الضمة فتعد صاحبة الباب.

(٤٤) من أسرار اللغة ط ١٩٥١ ص٤٦، ٤٧، ٤٨ وانظر مؤتمر المجمع اللغوى الدورة (١٦) ١٩٤٩-١٩٥٠.

(٤٥) لأن الواضح منها تعنت هذا العربى فى معارضة أبى حاتم.

سابقَ النهار﴾ بالنصب دون تنوين سابق قال أبو العباس: فقلت له: ما أردت؟ قال: سابقٌ النهارَ بتنوين سابق، فقلت له فهلا قلته؟ فقال: لو قلته لكان أوزن أي أقوى...[٤٦]، فكما أن العربي يتمسك أحيانا بلغته ويعتصم بها قد ينتقل هو أو غيره إلى لغة أخرى فصيحة أو غيرها أو يتأثر بتلك اللغة بما يظهر في لهجته التي يستعملها كما أوضح ذلك أبو الفتح ابن جني.

٣- تصور الدكتور أنيس لاثنين يعيشان معا ثم لا تتأثر لهجة أحدهما بلهجة الآخر تصور بعيد، فالإنسان منا في حياته العادية إذا عاشر إنسانا دون أن يسكن معه فقد تتسرب على مر الزمن بعض خصائص لهجته إليه، وقد ينطق بها أحيانا بلا شعور منه أو إرادة، وذلك واضح ملموس، فما بالنا باثنين يعيشان معا في بيت واحد؟ إن ذلك ولا شك سيترك أثرا يعد خليطا من لهجتيهما، ولم تنشأ اللهجات العربية إلا من هذه المخالطة بين العرب وغيرهم بما تعد به خليطا من مواد وطرائق عربية ممزوجة بغيرها من سمات اللغات الأخرى التي اتصلت بها وعاشرتها مع أهلها.

على أن الدكتور أنيس نفسه يميل إلى قبول معنى التداخل ويظهر ذلك من عبارات له تفيد توقعه لصحة هذا الرأي، فقد دافع عن ابن جني بقوله: «لعل ابن جني أراد بتداخل اللغات أنه قد يتصادف أن نجد في لهجة من اللهجات فعلا أو فعلين لا يتبعان طريقة الاشتقاق في الأفعال الأخرى مثل نعم ينعم بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع، وحينئذ نعلل مثل هذه الأفعال بأن الماضي أو المضارع غريب على هذه اللهجة أو أنه على هذه الصورة مستعار من لهجة أخرى تحت تأثير ظروف خاصة به، وعندما وقف أمام الأفعال (نكح - نزع - رجع - بلغ - قعد - زعم - نفخ) ليفسرها أطلق لقلمه أن يقول: «يظهر أنها تنتمي في صيغتها للهجة أخرى غير اللهجة القرشية... وليس معنى هذا استعارة الصيغة أو طريقة الاشتقاق، وإنما معناه استعارة هذه الأفعال بصيغتها الشائعة في مصدرها الأصلي».

وأنا أفهم من مجرد أنها مستعارة معنى التداخل وإلا فكيف يمكن تصور ذلك دون هذا المعنى، ولا فرق بين أن تكون مستعارة بلفظها أو بصيغتها، فمجرد الاستعارة يعطيها هذا المفهوم الواقعي الواضح، على أن كلام الدكتور أنيس يدل على نظرة ليست قاطعة فعباراته تمتلئ بأسلوب: يظهر - وربما - ولعل - فإذا صح[٤٧]، وفي تعليقه على تقسيم الأفعال الذي اقترحه لم يكن جازما أيضا.

---

(٤٦) الخصائص ١/ ٣٧٣، ٣٨٤، ٢/ ١٣ في قصة أبي خيرة.

(٤٧) من أسرار اللغة ط٣ ص٣٠، ٣١، وفي اللهجات العربية ط ٢ ص١٥٩.

ولذلك يقول:

«ولعل من القبائل من كانوا يؤثرون صيغة (فعِل يفعُل) بكسر العين فى الماضى وضمها فى المضارع، ولعل منها من كانوا يقولون (فَعُل يفعَل) بضم العين فى الماضى وفتحها فى المضارع إلى غير ذلك من الاحتمالات التى ستكشف عنها بحوث المستقبل»(٤٨).

(جـ) التداخل فى الألفاظ:

وذلك بأن تضع قبيلة لفظا من الألفاظ لمعنى وتضع له قبيلة أخرى لفظا آخر فينتقل لفظ إحدى القبيلتين إلى الأخرى، وتستعمله استعمالها للفظها(٤٩)، ومن ذلك ما يلاحظ من اجتماع لهجتين عند رجل واحد يورد لفظتين أو أكثر لمعنى واحد فى لغته، وإذا كثرت على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت فى لغة إنسان واحد فإن أحرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كله، هذا فى غالب الأمر(٥٠) ومعنى ذلك أن الترادف ينشأ من اختلاف اللهجات واجتماعها ويمكن إدخاله تحت (تداخل اللغات)(٥١).

وقد يكون اللفظ واحدا مختلف الصورة من ناحية البنية وأحكامها الصرفية أو الصوتية فتستعمل إحدى القبائل الصورة المستعملة للفظ عند غيرها من شقيقاتها، فما يتعلق بالبنية والصرف كاستعمال فعل وأفعل بمعنى واحد فى قول الشاعر:

سقى قومى بنى مجد وأسقى ... نُميراً والقبائلَ من هلال

واستعمال صلة الضمير مرة وعدم استعمالها مرة أخرى فى قول الشاعر:

فظلت لدى البيت العتيق أخيلهو ... ومِطْوايَ مشتاقان لهْ أرقان

واستعمال الصلة رأى الجمهور وحذفها لغة لأزد السراة.

ومما يتعلق بالناحية الصوتية: الإبدال فى مثل سكر طبرزل وطبرزن، وأيم وأين للحية، فتلك لهجات مختلفة كما يصرح ابن جنى(٥٢).

---

(٤٨) وقد كان رأيه محل نظر من أعضاء المجمع اللغوى. انظر مؤتمر المجمع الدورة (١٦).

(٤٩ فقه اللغة د. نجا ٤/ ٢٦.

(٥٠) إذ من الجائز أن تكون قبيلته قد وضعت الألفاظ جميعا لهذا المعنى وذلك احتمال ضئيل. الخصائص ١/ ٣٧٠-٣٧٣.

(٥١) هناك المشترك والمتضاد وفيه تجتمع عدة معان للفظ واحد، وبعضها ينشأ من اجتماع اللهجات أيضا فيمكن أن يسمى ذلك تداخلا.

(٥٢) الخصائص ١/ ٧٠ وما بعدها.

وقد اعترض الدكتور أنيس كذلك - على تداخل اللغات فى الألفاظ بمعنى أن العربى قد يستعمل خصائص من لهجة غيره مع لهجته، فلكل لهجة صفات خاصة بها، وليس من المرجح أن يجتمع فى اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان فى أمر واحد(٥٣).

والواقع أن ذلك ليس بممنوع، فالفرد منا ينتقل من بلدته ويذهب إلى غيرها فتتغير على لسانه بعض النواحى الصوتية ويميل إلى استخدام ألوان جديدة من البيئة التى انتقل إليها إما للحاجة أو للتظاهر ومجاراة الأوضاع الجديدة، وقد تصبح مع مرور الزمن طبيعية عنده(٥٤).

وتعترف جمهرة الباحثين بالتداخل، فأستاذنا الدكتور نجا يعترف بالتداخل، ويعده من نظرات ابن جنى الثاقبة فى دراسته اللغوية، ومن الأمور الهامة التى عرض لها، لأنه أبان عن توليد أبواب جديدة لا تتفق والقواعد المعروفة نتيجة لاختلاط الاستعمالات العربية الناجمة عن كثرة ارتحال العرب من مواطنهم طلبا للعيش الذى ينشدونه(٥٥)، وعقد فصلا خاصا من كتابه بعنوان «تداخل اللغات وتوافقها» بين فيه كيف تتداخل اللغات وأسباب ذلك ونتائجه(٥٦).

والأستاذ العلايلى يعترف أيضا بتداخل اللغات وعقد له فصلا فى كتابه «مقدمة لدرس لغة العرب» وعده ذا أثر فى توليد عدد من المواد والمشتقات إلا أنه يقول:

أظن أن من الخطأ الشك فى تأثيره وعمله، كذلك أظن من الخطأ المبالغة فى عمله إلى الحد الذى يصطنعه دارسو اللغة اليوم.

ويفسر ما حكاه ابن جنى من باب التداخل فى أبنية الأسماء مثل طهُر فهو طاهر وشعُر فهو شاعر على أنه ليس من تداخل اللغات، بل من تداخل الأوضاع بنسيان الخصوصية أو بتقاربها (قالوا أحبَّ الرجلُ ومفعوله محبوب وحبٍّ وفاعله مُحب) واستغنوا بهذه المداخلة غير المقصودة عن حاب ومحب لتقارب الخصوصية بين المزيد والأصل، وأكثر ما يأتى من ذلك يعد فى نظره أثريات مضمحلة أو تنويعات لم تتعمم(٥٧).

---

(٥٣) فى اللهجات العربية ص١٥٢.

(٥٤) مثل: علية بفتح اللام وكسرها، عملت بفتح العين والميم وكسرهما ونحو ذلك مما نجده فى بيئاتنا.

(٥٥) فقه اللغة ط الجديدة ٤/ ١٦، ١٧ بتصرف.

(٥٦) المصدر السابق ٢٥-٢٧ (٥٧) مقدمة لدرس لغة العرب ٢٢٧.

ويتخذ الأستاذ العلايلى من التداخل طريقا إلى الاستفادة من النظام الجديد الذى يحاول تطبيقه فى اللغة العربية «ففى العمل اللغوى الجديد يمكن أن نداخل مثلا فى هلك يهلك بين بابى ضرب وطرب، وباب ضرب هو الأصل، وباب طرب يدل على المفاجأة، فنداخل بينهما لإفادة شىء يجىء تارة مفاجئا وتارة على الطبيعة، فإذا حللنا عليه (هلك) مثلا دلت من باب (ضرب) على الهلاك الطبيعى ومن باب (طرب) على الهلاك الفجائى. وفى التداخل على الهلاك مما لا ينتظر كالموت من الجرح اليسير بالتسمم، ويسمى هذا العامل بعد تقريره على هذا الوجه بتداخل الأوضاع(٥٨).

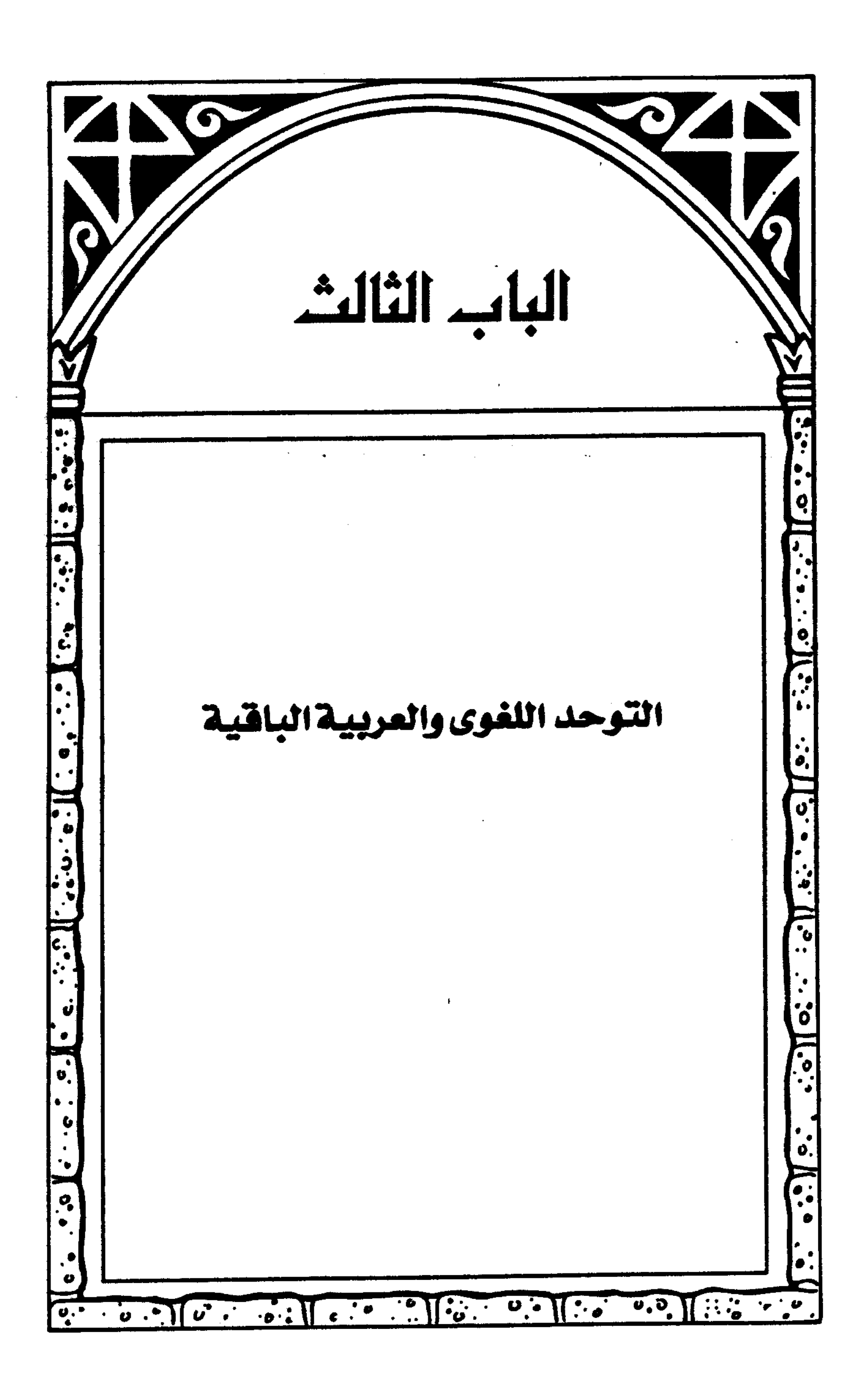
ويفسر اختلاف أبنية الأفعال على أنها تمثل مراحل التطور التى مرت بها لغتنا العربية، وأن العربى فى طور الاستقرار حاول تصحيح الماضى على الفتح والمضارع على الكسر، وأمات باب نصر والباب السادس، وقرر الباب الثالث فيما كان حلقى العين أو اللام وبقية الأبواب يلجأ إليها لحاجات معنوية، وما وقع حلقيا وليس من هذا الباب فأثرى(٥٩).

والحق أن رأيه فى أبنية الأفعال وتطورها واستخدام التداخل فى الوضع اللغوى الجديد اقتراح لا نعلم أن علماء اللغة المحدثين قد وافقوه عليه.

---

(٥٨) المصدر السابق: ٢٢٩.

(٥٩) المصدر السابق: ١٦٨، ١٦٩.



الباب الثالث

التوحد اللغوى والعربية الباقية

التوحد اللغوى بين اللهجات

يحتاج الناس إلى اتصال بعضهم ببعض أفرادا وجماعات وأمما، ولهذا الاتصال آثاره اللغوية، فلهجات تلك الجماعات والأمم ولغاتها تتلاقى ويستفيد بعضها من بعض، والتأثر الذى يعترى لهجات اللغة الواحدة قد يبدو عاديا حين لا يكون الاختلاط بين الطبقات كبيرا كلهجات القرى والمدن فى أية دولة، فلكل منها سمات تمتاز بها من الأخرى، وبينها اشتراك فى مظاهر كثيرة تستخدمها من اللغة العامة، ولذا لا تستعصى إحداها على الفهم خارج حدودها، اللهم إلا فى حالات العزلة التى تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التى تفصل بعضها عن بعض أمور جغرافية واجتماعية؛ فإنها تؤدى إلى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها، وقد تستعصى على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة، وحين تتجاور اللهجات الخاصة فى المدن الكبرى والقرى المجاورة لها تزيد درجات التأثر، ففى داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ويحاول الأدنى تقليد الأرقى، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة، وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلى عن خصائص لهجاتهم وتقليد المدينة؛ لأن حضارة أهل المدن وثقافتهم تجعل الرغبة فى تقليدهم ملحة لدى الريفيين.

وقد أجريت بحوث فى هذا الحقل أوضحت عوامل تفوق لهجة على أخرى، وهى تعود فى معظمها إلى الثقافة والحضارة والنفوذ والسلطان وعدد الناطقين ونحو ذلك، فإذا انفردت إحداها بمزية بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات نفوذ سياسى أو تجارى أو دينى واسع أو كثر عدد الناطقين بها فإن ذلك يدعو إلى تغلبها على أختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى، وقد حدث هذا كثيرا في التاريخ اللغوى، فاللاتينية التى صارت لغة إيطاليا المشتركة وأخيرا لغة العالم بأسره كانت لغة روما أولا وقبل كل شىء، أى لغة المدينة فى مقابلة الريف المجاور واللهجات القاصية على السواء[1].

واللهجة الباريسية أصبحت لغة فرنسا بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية إنما خرجت من العاصمة ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة وهى البرجوازية، وقد استقرت فى القرن التاسع عشر وسلم بها القصر ثم الأقاليم والكتاب الكبار باستعمالهم

---

(١) اللغة لفندريس : ٢٢٩.

إياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائيا وعلى استمرارها لذلك لا نكاد نحس فيها أثر اللهجات)[٢].

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة إذ كانت أقرب من غيرها إلى اللاتينية[٣]. ولهجة فلورنسا (فى إيطاليا) لهجة المجتمع الراقى بهذه المدينة هى التى صارت لغة إيطاليا.

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية قبل الإسلام لتحقق النفوذ السياسى والاقتصادى والدينى لها.

ويمكن أن تنشأ على إثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة وما بقى من خصائص اللهجات الأخرى المنحدرة.

وهذا التوحد اللغوى - الذى أشرنا إليه - يخضع لعوامل كثيرة أهمها:

١- العامل السياسى:

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسى واحد يؤدى إلى تقارب لهجاتها ثم توحدها فى لغة عامة، فالساسة والحكام يجردون أحاديثهم العامة في مختلف المناطق من المظاهر الصوتية والصرفية والمعجمية وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة أو طائفة حرفية ولو كان الحاكم من أبنائها ليكون ما يوجه إلى الشعب مفهوما لدى كل الطبقات الاجتماعية، ونلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطنى المناطق الأخرى، فيحاولون تقليد لهجاتها والتخلى عما تنفرد به لهجاتهم الأصلية، ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية إلى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية، ويمكن أن نمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية التى كانت لهجة باريس ثم انتشرت فى جميع البلاد الداخلة فى المجال السياسى الفرنسى.

واللاتينية صارت لغة إيطاليا المشتركة، وأخيرا لغة المجتمع الغربى بأسره[٤] تبعا للنظام السياسى،وذلك فى الإمبراطورية الرومانية[٥] القديمة، وعدم خضوع الدولة لنظام سياسى واحد يضع الصعوبات فى طريق التوحد اللغوى، فألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة[٦].

(٢) المصدر السابق: ٣٣٠. (٣) اللغة: ٣٣٥.
(٤) اللغة: ٣٢٩. (٥) اللغة والمجتمع د. محمود السعران ص ١٧٤.
(٦) المصدر السابق: ١٧٤.

وكانت تبدو آثار اللهجات المحلية فى عامية متعلمى الألمان حتى فى أيامنا هذه أكثر من غيرها من البلاد الأوربية[٧]، ولذا قام انتشار الألمانية المشترك فيها على أسباب مستقلة عن كل وحدة سياسية، فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شىء لغة كتابة تدين بنجاحها إلى أسباب دينية كما تدين بأصلها إلى الرغبة فى الاستعمار، وكانت هناك حركة مارتن لوثر وترجمته للكتاب المقدس، وهناك لغة المستشاريات فى المدن والإمارات الألمانية. والألمانية كانت تحتل الأراضى السلافية قدما بقدم وتحل محل اللغات السلافية فتكونت الألمانية المشتركة فى مدن الاستعمار فى ألمانيا الشرقية، تلك اللغة التى وصلت بفضل الإصلاح الدينى إلى أهميتها الأدبية،واستقرت بفضل اكتشاف المطبعة وصارت لغة الكتابة فى ألمانيا المثقفة بأسرها[٨].

٢- العامل الاجتماعى والاقتصادى:

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب والمصاهرة، ويلتقون للتجارة وتبادل المنافع فى شتى المجالات، وقد تنشب بينهم المنازعات، وهذا يؤدى إلى اختلاطهم وقوة الاتصال بينهم، ولذلك أثره فى التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتلخص من السمات التى تنفرد بها كل لهجة.

ومن الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ما حدث للهجات الجزيرة العربية من توحد - فى لغة عامة - قبل الإسلام بحوالى قرن ونصف أو قرنين من الزمان، لما كان بين أهلها العرب من ارتباط فى النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة والجوار والتعامل التجارى وغيره من الصلات الاجتماعية.

٣- العامل الأدبى:

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوى، فالأدباء من قصاص وشعراء يكتبون أدبهم بلغة يفهمها جميع الشعب بمختلف طبقاته، ليروج ويذيع، وتلك اللغة التى يكتبون بها تتخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية لأى أقليم من أقاليم الدولة، وهذا يهيئ سبيل التوحد للهجات الجماعات المتعددة.

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر اللذان عنيت بهما الأسواق الأدبية كعكاظ وذى المجاز والمجنة، وكم جرى التنافس والمبارزة بين الشعراء فى هذه الأسواق ليحكم لهذا بالتفوق على ذاك، وكانت تلك الأشعار مصدر إمتاع للجماهير العربية، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا قامت على أساس اللهجة القرشية وما استفادته من محاسن اللهجات الأخرى.

وفى أوربا توحدت لهجات مشتركة من أصل أدبى محض مثل الإيطالية التى

---

(٧) اللغة: ٣٣، ٣٣٤. (٨) المصدر السابق.



استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام وتأثيرهم مثل دانتى وبترارك ولوكاشيو،وذلك فى وقت لم يكن لإيطاليا فيه أية وحدة سياسية، وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم... واللغة التى رفعها (دانتى) إلى مرتبة اللغة الأدبية والتى صارت لغة إيطاليا المشتركة كانت أولا وقبل كل شىء لغة مدينة هى فلورنسا ولغة المجتمع الراقى فى هذه المدينة(٩).

٤- وسائل الإعلام:

لوسائل الإعلام كالإذاعة المسموعة والمرئية ودور الخيالة (السينما) والمسارح والصحافة وغيرها أثرها فى التوحد اللغوى، فهى لسان حال الأمة والمعبر عن أغراضها السياسية والاجتماعية، وهى تستخدم لغة أشبه بأن تكون عامة فيما يسمع أو يكتب على سواء ففى الأقطار العربية - مثلا - تستخدم الفصحى وبعض الأساليب العامية التى يفهمها الجميع، وتلك الوسائل - بلا شك- لها خطرها فى التأثير على الناس وتكوين لغة عامة.

٥- المدن الكبرى:

للمدن الكبرى أثرها فى نشوء لغة مشتركة إذ تتطلع إليها أنظار سكان الأماكن المجاورة لها والبعيدة عنها فيكثر الغادون إليها من كل صوب، وهم حين يلتقون داخل تلك المدن يحاولون - عادة - التخلى عن سمات لهجاتهم الأصلية، ويميلون إلى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا، فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم يلتقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا إلى أى حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الشعب كله.

فالدور الأساسى الذى آل إلى أثينا بعد سقوط الامبراطورية الفارسية أدى إلى ظهور لغة مشتركة مستمدة من اللهجة الأتيكية، ولكن زاد من قوة الأتيكية وإشعاعها شهرة شعرائها وفنانيها،فكان لأثينا - بوصفها مركزا سيساسيا وأدبيا وفنيا على السواء - شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى التاسع بعد الميلاد أداة للتفكير عند جميع الإغريقيين(١٠).

وقد تكونت الإنجليزية المشتركة فى مدينة لندن التى ساعد موقعها على أن تكون ملتقى لمختلف اللهجات (هذا إلى أن تكون اللغة المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لندن المفاجئ حيث أخذت تلتقى بين أحضانها طوائف المهاجرين على اختلافهم، يفدون عليها من الأقاليم، ويمتزجون بالسكان السابقين، هذه الهجرات أدت إلى شحن اللغة المشتركة بآثار اللهجات حتى لتجد نطق الإنجليزية فى القرن السابع عشر لم يثبت بعد، وأنه يشتمل على عدد كثير من وجوه الخلاف، ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم، ولكن هذه الهجرة

(٩) المصدر السابق: ص ٣٣٥.

(١٠) المصدر السابق: ٢٨، ٣٢٩.

الأقليمية أنعشت تبادل السكان بين العاصمة والأقاليم، ذلك التبادل المفيد الذى أدى أجل خدمة لانتشار اللغة المشتركة، وإذا فإنجلترا تدين - أيضا- بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا إلى أهمية عاصمتها)(١١).

وفى مدينة القاهرة تتزاحم اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية بلقاءات أصحابها، ولذا تميل إلى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع.

٦- الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية:

فالدين يجمع الناس حول كتاب واحد يقرءونه ويتعبدون به ويطبقون أحكامه ويدعوهم إلى الاجتماعات العامة فى الصلوات والأعياد والحج وغيرها،ولذلك أثره الكبير فى التوحد اللغوى.

ولا شك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية تؤدى دورها فى اتخاذ لغة عامة فدور العلم والثقافة وطلابها الذين يفدون من مختلف الأقاليم ويلتقون فى المدارس والجامعات وقصور الثقافة والمكتبات وما شاكلها ولقاءات الثكنات العسكرية كذلك له أثره فى تخلى هذه الطوائف عما لا يفهم من لهجاتهم ويتجهون بذلك إلى لغة عامة.

وقد حاول تيمورلنك أن يضع لغة لجيشه تسهل مهمة قواده، ومع فشل تلك المحاولة فإنها تدل على احتياج الجيوش إلى نظام لغوى مفهوم لدى أوساطها المتباينة(١٢).

وفى إطار هذه الأسباب الداعية إلى توحد النظام اللغوى فإن العالم العربى قد توافرت له علاقات كثيرة اجتماعية ودينية وسياسية وأدبية وثقافية؛وربطت بين أرجائه الإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة وسبل المواصلات، فبرزت فيه لغة مشتركة تتمثل فى العربية الفصحى التى تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المنتشرة فيه.

ولا ننسى أن نشير إلى أن اللغة المشتركة التى تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها لا تتخلص نهائيا من خصائص اللهجات المحلية، بل تبدو آثارها فيها وتنعكس عليها.

ويتجلى هذا الأثر واضحا فى العربية الفصحى المعاصرة واللهجات العامية المتفرعة منها، وقد أشرنا - من قبل - إلى ماتحويه اللغات المشتركة فى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التى شاركت فيها(١٣).

---

(١١) المصدر السابق: ٣٣١، ٣٣٢.

(١٢) اللهجات العربية للدكتور إبراهيم نجا ص٢٤، ٢٦. واللغة والمجتمع للدكتور السعران ص١٧٢، ١٧٥.

(١٣) انظر كتابنا: علم اللغة بين القديم والحديث ط٢ من ص١٦٥-١٧٣.

العربية الباقية

يقتضينا الحديث عن عوامل الانقسام والتوحد فى اللغة، أن نبين موقف لغتنا العربية التى ورثناها عن أسلافنا من التوحد والانقسام.

فلغتنا العربية بدأت على ألسنة العرب الأولين وقبائلهم القديمة من أمثال (عاد) التى كانت تعيش فى جنوبى الجزيرة، وثمود التى كانت تجاور الآراميين فى شماليها.

وهذا التفرق للقبائل دعا إلى ظهور لهجات عربية هنا وهناك، إلا أن قبائل الشمال تأثرت لهجاتها - فيما يبدو - بالآرامية التى هى إحدى اللغات السامية - أخوات العربية - وقد وصلتنا نقوش تحمل بعض هذه اللهجات،وتبين بعض معالمها الصوتية، وخصائص القواعد والمفردات فيها.

ولما اندثرت القبائل القديمة المتحدثة بهذه اللهجات كانت بقايا منهم لا تزال تحمل لغة الآباء، وتتحدث بها، وعن طريقها نقلت إلينا العربية الباقية.

وإذا صح أن نطلق على اللهجات التى تحدثت بها قدامى القبائل العربية اسم (العربية البائدة) - لأنها قد بادت مع أهلها - فإننا نسمى اللغة التى وصلتنا بـ (العربية الباقية) لبقائها فينا حتى اليوم.

وقد عاشت العربية فى شمالى الجزيرة (نجد والحجاز وتهامة) واستطاعت فى القرن السادس الميلادى أن تبسط نفوذها فى الجزيرة كلها وتدخل اليمن مرة أخرى، وتسيطر عليها وتمحو ما بقى فيها من لهجات، وتحل محلها، وهذا لأن أهلها العدنانيين استطاعوا أن يسيطروا على جنوبى الجزيرة بعد أن ضعف نتيجة الغزوات المتتالية من الفرس والأحباش، وتبعهم الزحف اللغوى، فتوحدت حينئذ لهجات الشمال والجنوب فى لغة عامة واحدة قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين عاما تقريبا[١].

---

(١) قبل القرن الخامس الميلادى أخذت خصائص اللهجات العربية الشمالية القديمة واللهجات العربية الجنوبية القديمة تنصهر وتخضع لحسن العربية الفتية ولذوقها، ومما لا جدال فيه أن ذلك الانتقال والتطور التدريجى للعربية قد حدث فى الحقبة التاريخية الواقعة بين القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ومن الجائز أن يكون ذلك قد حدث قبل القرن الثالث الميلادى، انظر: دراسات فى اللغة العربية د/ خليل نامى ص١٧، ١٨.

وإذا بحثنا عن أولية العربية الباقية فلن نستطيع الوقوف عليها لأن التاريخ اللغوى مجهول ولم تصلنا آثار ترشد إليه، وكل ما نعرفه أنه توافرت لدينا نصوص أدبية - شعرا ونثرا - متكاملة القواعد والنظام اللغوى، وهذا يعبر عن لغة بلغت شأوها من النضج والقوة لكنه لا يرشد إلى فترة طفولة اللغة أيام كانت ساذجة ضعيفة غير مهذبة القواعد والتركيب.

وهذه اللغة التى بلغت غايتها من النضج والتكوين هيئ لها أن تنتشر فى الجزيرة العربية الواسعة حيث تختلف البيئات والعادات والتقاليد بين الشمال والجنوب، والأحوال التى يعيش فيها أبناء العرب فى مواطنهم المتعددة، ولذا لم تلبث أن انقسمت إلى لهجات عديدة فى أنحاء الجزيرة.

ولم يعش العرب فى جزيرتهم منعزلين بعضهم عن بعض وإنما كانوا يلتقون فى التجارة وفى الأسواق الأدبية التى يتبارى فيها الشعراء والأدباء ويقدمون نتاج قرائحهم، وقد أدت لقاءاتهم المتعددة، وسماع كل عربى للهجات إخوانه من المناطق الأخرى إلى أن يستفيد كل منهم من صاحبه من الناحية اللغوية كما يستفيد منه من النواحى التجارية والثقافية وغيرها.

وكان القرشيون يلتقون - كغيرهم من القبائل - بإخوانهم العرب من كل مكان، وقد ساعدت عوامل كثيرة على تهذيب لهجتهم، وتهيئة الفرصة لها لتحتل الصدارة بين اللهجات العربية الأخرى، أهم هذه العوامل:

١- نفوذهم الدينى:

كان القرشيون يحظون بتقدير العرب لهم؛ لأنهم هم الذين يتولون سدانة البيت الحرام والقيام على شئونه، وكانوا يستضيفون الحجاج ويقومون على سقايتهم[٢]، وتعليمهم مناسكهم[٣]، وبعد حادث أبرهة الأشرم توطد مركز قريش حتى قالت العرب عنهم: «أهل الله قاتل عنهم فكفاهم مؤونة عدوهم»[٤]، وهذا كله جعل لقريش سلطانا دينيا يعترف به العرب جميعا[٥] حتى قيل عنهم «قريش أئمة الناس وهداتهم وأهل البيت وصريح ولد إسماعيل وقادة العرب»[٦].

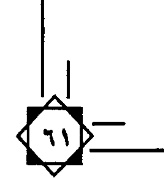
(٢) السيرة النبوية ١/ ١٢، ١٢٥، ١٣١، وتاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٦٠.

(٣) الخصائص ١/ ٣٣.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٥٠، وتاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٩.

(٥) تاريخ العرب العام ص ٥١.

(٦) الطبقات الكبرى ٢/ ٣٨، ٨٦، والسيرة النبوية ٤/ ١٥٢.



٢- نفوذهم التجارى:

انطلق القرشيون فى أنحاء الجزيرة وما حولها من الأقطار فى الشام وفارس والعراق ومصر والحبشة وكلهم ثقة واطمئنان لما لهم من مكانة بين العرب أساسها النفوذ الدينى(٧).

وكانت أنشطتهم التجارية كبيرة وواسعة. ففى رواية للطبرى أن إحدى قوافلهم التجارية بلغت خمسمائة وألف بعير ومائة رجل، ولا ريب أن هذه القافلة التجارية الكبيرة كانت تحتاج إلى أدلاء معرفة وخبرة بالصحراء وطرق التجارة وحراس يحمونها من السلب والنهب وكانت قريش تستخدم فى ذلك رجالا من قبائل العرب المختلفة فى الجزيرة ولا سيما البدو(٨).

وقد ازدهرت تجارة قريش ولا سيما بعد انهيار سد مأرب سنة ٤٥٠م وطرد قبيلة خزاعة من مكة.

وكانت لهم سفن تنقل التجارة من الحبشة وأفريقية الشرقية عبر البحر الأحمر وكانت تنقل تجارتها وتجارة اليمن إلى أسواق فلسطين وتنقل تجارة الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن(٩)، وهكذا تجارة الأقطار الأخرى.

ولا ريب أن ذلك كله جعل لقريش مركزا تجاريا أثروا من ورائه ثروات طائلة ووطد صلاتهم بالقبائل العربية المختلفة.

وقد نزل القرآن الكريم مشيرا إلى رحلاتهم التجارية صيفا وشتاء قائلا: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾.

٣- نفوذهم السياسى:

لا ريب أن القرشيين فى مكة حظوا باستقرار ونظام(١٠) فى حياتهم الاجتماعية نتيجة لما تمتعوا به من نفوذ دينى واقتصادى واسع، وقد تهيأ لهم طائفة من الزعماء الذين كانوا يتدخلون لفض النزاعات سواء بين بطون القبيلة المتعددة أم بين المتنازعين من غيرهم،

---

(٧) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٥٢، ٢٧٧، ٣٢٧، ٣/ ٦٣، ٤/ ٥٦، والطبقات الكبرى ١/ ٤٥، ٤٨، والسيرة النبوية ١/ ١٢٥، ٢/ ٦٩، ١٨٢، ١٨٠، ٢٨٨، وفتوح البلدان للبلاذرى ١/ ٦٧، ومغازى الواقدى ١/ ١٦، ٢٧.

(٨) السيرة ٢/ ١٨٢.

(٩) الطبقات الكبرى ١/ ٤٣، وموسوعة التاريخ الإسلامى د. أحمد شلبى ص١٢٦.

(١٠) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٦، والسيرة ١/ ١١٥، ١٢٢، والطبقات الكبرى ١/ ٤١، ٤٢، ٨٢ وغيرها.

وكانت مكة حرما آمنا من ورد إليه لا يظلم ولا يعتدى عليه، إلى جانب ما كان لقريش من علاقات ودية طيبة مع القبائل المختلفة فى داخل الجزيرة وعلى أطرافها فى الطريق إلى الشام أو العراق، ولعل للنفوذ التجارى واستخدام بعض هذه القبائل فى شئون التجارة أثرا بينا فى تحقيق السيادة القرشية إلى جانب ما تمتعوا به من نفوذ دينى أشرنا إليه من قبل، وكانت لهم أحلاف كثيرة مع القبائل، كل هذا جعل لهم سيادة سياسية بين العرب جميعا، حتى قال أبو بكر الصديق عقب وفاة النبى ﷺ والبحث فيمن يخلفه: «لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش».

٤- نفوذهم اللغوى:

ونتيجة لكل ما سبق اتسع نفوذ القرشيين اللغوى فنمت لهجتهم وازدهرت وسادت اللهجات الأخرى فأصبحت لغة عامة للعرب جميعا،واستعملتها القبائل المختلفة فى نتاجها الأدبى الرفيع، يقول الدكتور إبراهيم أنيس:

«فبيئة مكة قد هيئت لها ظروف وفرص بعضها دينى وبعضها اقتصادى واجتماعى، مما ساعد على أن تصبح المركز الذى تطلعت إليه القبائل وشدت إليه الرحال قرونا قبل الإسلام، وكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست فى كثير من صفاتها على لهجة مكة ولكنها استمدت أيضا الكثير من صفات اللهجات»[١١] ومما سهل سبيل الغلب أن أهلها بعدوا عن التعصب لها ففتحوا أمامها لتستفيد من اللهجات الأخرى ما حسن وعذب، وبهذا استطاعت أن تعبر عن كل حاجات الحياة وفنون الكلام وغنيت بكل الوسائل التى جعلتها مرنة تصلح لكل الأغراض[١٢].

وسواء أكانت لغة قريش وحدها هى اللغة الفصحى أم أضيف إليها بعض اللهجات الأخرى لتكوين اللغة المشتركة فقد أصبحت لغة العرب جميعا قبل نزول القرآن الكريم لغة يحتذونها فى خطبهم وأشعارهم ونزل بها القرآن الكريم فقوى من شأنها ودعم من سلطانها.

وقد اعتبرت تلك اللغة أفصح اللهجات وأنضجها لما بعدت عن الأمور التى تخل بالفصاحة،ولنستمع إلى هذا الحوار الذى دار بين معاوية بن أبى سفيان ورجل من السماط حول أفصح الناس، قال معاوية للرجل: أى الناس أفصح؟ قال: قوم ارتفعوا عن رتة العراق وتياسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن شنشنة تغلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير. قال معاوية: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قريش قال: صدقت فممن أنت؟ قال: من جرم، قال الأصمعى: وجرم من فصحاء العرب[١٣].

---

(١١) مستقبل اللغة العربية المشتركة ص٨. (١٢) فقه اللغة د. وافى ص ١٤٠.

(١٣) العقد الفريد ١/ ٢٠٧، وانظر: درة الغواص. ص٢٤٩-٢٥١.

وقد اعتبر ابن خلدون لغة قريش أفصح وأصرح من غيرها من اللهجات العربية «لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم»[١٤].

ويوضح ذلك أن ابن جنى يعتبر مقياس الفصاحة قائما على صحة السليقة والبعد عن الأعاجم وعدم التأثر بهم، ويتبين هذا من الفصل الذى عقده فى خصائصه بعنوان: (باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) يقول:

«ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شىء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقى ما يرد عنها»[١٥].

وعلى هذا، فليس اعتبار لهجة معينه أفصح من غيرها إلا بمقدار بعدها عن مظاهر الفساد واللحن، وقد تحقق هذا فى اللغة المشتركة التى كانت لسان العرب جميعا،ولا مجال للقول بأن العصبية هى التى جعلتها أفصح من غيرها.

وأما تغلب اللغة العربية على لغات الأمم التى دخلت الإسلام فكان لعوامل دينية ولسماحة الإسلام وإرادة المسلمين من هذه الأمم أن يؤدوا فرائضه بلغته وأن يحظوا بالمكانة فى الدولة الإسلامية الجديدة ولعوامل داخلية فى جوهرها الذى جعل الأجانب يعجبون بها وبطرائقها اللغوية.

يقول ابن جنى وقد بهرته العربية بسحرها وجمالها: «لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من الرقة والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها»[١٦].

ويقول أيضا:

«إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى وقد تدرب بلغته قبل استعرابه عن حال اللغتين فلا يجمع بينهما بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه»[١٧].

وهذه شهادة عالم ثقة أدلى بها ليبين الدوافع التى جعلت المسلمين يتركون لغاتهم الأصلية ويتجهون إلى العربية يتكلمونها ويتحدثون بها، وهذا هو الذى جعل العربية تصرع لغات البلاد المفتوحة وتقضى عليها.

---

(١٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٣.
(١٥) الخصائص ١/ ٢٤٢.
(١٦) المصدر السابق ٢/ ٥.
(١٧) المصدر السابق ١/ ٢٤٣.

فالحق أحق أن يتبع وهو أن فَوقُ العربية كان لعوامل ذاتية من داخلها لا من خارجها.

وحقا ما قال الأستاذ العقاد:

«إن للأمم فى تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها يضيق بها نطاق البحث، ومعظم هذه المفاخر دعوى لا دليل عليها وحجتها الكبرى أنانية قومية تشبه أنانية الفرد فى حبه لنفسه وإيثاره لصفاته بغير حاجة إلى دليل أو مع القناعة بأيسر دليل، ولكن الفصاحة العربية فى دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هذه المفاخر فى جملتها؛ لأن دليلها العلمى حاضر لا يتعسر العلم به، والتثبت منه على ناطق بلسان من الألسنة، ولا حاجة له فى هذا الدليل إلى غير النطق وحسن الاستماع»(١٨).

ولكن بعض الباحثين المحدثين يعارضون هذا الرأى فيرى بعضهم أن الذى جعل القدماء يقولون بسيادة القرشية سبب واحد هو أن النبى ﷺ من قريش أما أن قريشا لهم نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فتلك مسألة يرفضها الدرس اللغوى الصحيح، إذ إنه لا معنى لأن نقول: إن هناك لغة - مهما تكن - أكثر فصاحة من لغة أخرى(١٩).

ويقول الدكتور جواد على منكرا أيضا:

«وأما قولهم إن هذه اللغة الفصحى هى لغة قريش، لإجماع العرب كافة على أن لغة القرآن هى لغة قريش، وعدم ظهور أحد أنكر هذا الإجماع أو جادل فيه رغم ما كان من الخصومات السياسية بين قريش وغيرها من قبائل مضر، فقول لا يستند إلى حجج تاريخية، بل هو يصطدم مع واقع النصوص الجاهلية الواصلة إلينا، وبعضها نصوص لا تبتعد عن الإسلام بكثير، وقد كتبت كلها بلهجات تختلف عن هذه اللغة الفصحى التى نزل بها القرآن، وفى اختلافها عنها دلالة على أن الشعوب التى كتبت تلك النصوص لم تكن تكتب بعربية القرآن، وفى هذه الدلالة تفنيد لقول من قال إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية، لا فى الحجاز ونجد فحسب، بل فى كل القبائل»(٢٠).

ويرى الدكتور تمام حسان أن الفصحى المشتركة هى لغة العرب جميعا، وليست القرشية وحدها لأدلة:

١ - أن القرآن نزل بلسان عربى مبين ولم ينزل بلسان قريش، ولو كانت الفصحى أصلها لهجة قريش لأشاد النبى ﷺ بفصاحة لهجته، مع أنه أشاد بفصاحة نفسه، وأشار إلى

---

(١٨) اللغة الشاعرة ص٥٤، ٥٥.

(١٩) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية: ٤٢.

(٢٠) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/ ٦٤٠.

أنه نشأ فى سعد بن بكر - من عليا هوازن - وليست أولى بالفصاحة من قريش، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] فإذا كانت إحدى الآيتين تفسر الأخرى فإن (قومه) هنا هم العرب جميعاً لا قريش فقط.

٢- كانت للهجة قريش خصائص لم تشع فى الاستعمال العربى كتسهيل الهمزة وقد شاع تحقيقها فى النص القرآنى مما يدل على أن بالنص القرآنى ما ليس بلهجة قريش من الخصائص ويتحقق فى اللهجات الأخرى.

٣- أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وتعددت قراءاته، وفى القراءات ظواهر لغوية لم تشتمل عليها لهجة قريش.

٤- خلو النصوص الأدبية الجاهلية من أثر لقريش ولم يسمع عن شاعر جاهلى قرشى فحل، على حين نجد الشعر فى قبائل عربية شمالية وجنوبية حجازية ونجدية.

٥- مخاطبة الرسول ﷺ للقبائل بلغاتها مشيرا إلى أن هذه اللهجات لها من الفصاحة ما للهجة قريش، ومن ثم لم يكن بها من افتقار إلى الأخذ عن لهجة قريش، ولم يكن بأهلها من إحساس بالضعة يدعوهم إلى ذلك.

٦- أن النحاة حين حددوا قبائل الفصاحة، وجعلوا لهجاتهم مصادر فى النحو العربى، لم يقصروا الأخذ على قريش، بل لم يقبلوا الأخذ عن قريش وإنما سمعوا ممن عداها من قبائل الحجاز ونجد ذاهبين إلى سكان البرارى ممن كانوا أشد توحشا وجفاء وأبعد إذعانا وانقيادا وهم: قيس وتميم وأسد وطيئ ثم هذيل.

٧- فقدان السند التاريخى الذى يفيد أن لهجة قريش هى الفصحى المشتركة فدعوى جعل القرشية هى الفصحى افتراض يتعارض مع الحقائق المسلمة التى تقدمت(٢١).

وهذه بذور لآراء استشراقية، إذ يذهب بعض المستشرقين إلى أن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح، إذ من الصعب أن نتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها فى بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى، فقد كانت بيئتها موردا للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة فى الأسواق، وكانت قريش بحكم زعامتها الدينية والاقتصادية دائمة الاتصال تقريبا بهذه القبائل، وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال أنه لا وجود لها، وما هى فى حقيقة الأمر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى تكوّن على مر الزمن وانتهى به الأمر إلى أن يُكوّن لهجة البيئة الحجازية التى تسكنها قريش(٢٢).

---

(٢١) الأصول - الطبعة الأولى : ٧٨-٨١ بتصرف.

(٢٢) اللغة والنحو: ٤٢، ٤٣.

والحقيقة أن وقوع بعض الدخيل فى القرشية لا يؤدى إلى محو أصلها وتأصل الدخيل فيها، وهذا زعم استشراقى لهؤلاء المستشرقين الذين يحاولون بكل الوسائل ادعاء أن الفصحى غير لهجة قريش.

والقرشية ليست بدعا من اللهجات التى سادت لعوامل حضارية، ففى كل اللغات حدث مثل ذلك كأن صارت الباريسية لغة فرنسا ولغة روما لغة إيطاليا بل لغة الإمبراطورية الرومانية كلها.

وقد سادت القرشية الجزيرة قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وتحقق نفوذها الواسع فى مكة وما حولها بل فى الجزيرة كلها.

ويقول الدكتور شوقى ضيف:

«فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب بل فى كل القبائل العربية شمالا وغربا وشرقا وفى اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية» وفى رأيه أن المستشرقين جانبهم التوفيق فى الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب فى أن الفصحى هى عين اللهجة القرشية[(٢٣)].

ويرى الرافعى أن نزول القرآن بلغة قريش يؤكد حقيقة السيادة القرشية يقول:

«الأصل أن القرآن نزل بلغة قريش لأن الرسول ﷺ قرشى، وليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت وسقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام وغيرها من خصائصها».

بيد أن الرافعى يبالغ فى نسبة السيادة للهجة قريش إلى حد زعم فيه أن القرآن لو نزل بغير ما ألفه النبى ﷺ من اللغة القرشية وما اتصل بها كان ذلك مغمزا فيه؛ لأن العرب لا تستقيم لهم المقابلة حينئذ بين القرآن وأساليبه وبين ما يأثرونه من كلام النبى ﷺ فيهون ذلك على قريش ثم على العرب فتنشق الكلمة ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبدا[(٢٤)].

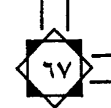
ويضطرب الرافعى فى عرضه لفكرته عن نزول القرآن بلغة قريش، فيقرر - مرة أخرى - أن هناك لغات أخرى نزل بها القرآن - إلى جانب لهجة قريش - يقول:

«اللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش هى لغة بنى سعد بن بكر الذين كان النبى

---

(٢٣) تاريخ الأدب العربى - العصر الجاهلى د. ضيف ٩/ ١٣٣، ١٣٤.

(٢٤) تاريخ آداب العرب ٢/ ٦٢، ٦٣.



ﷺ مسترضعا فيهم، وهى إحدى لغات العجز من هوازن ثم لغات جشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، وأولئك هم أفصح العرب جملة ثم خزاعة وهذيل وكنانة وأسد وضبة وكانوا على قرب من مكة يكثرون التردد إليها ومن بعدهم قيس ومن جاورهم فى وسط الجزيرة».

ونحن حين نثبت الفصاحة لقريش لا ننفيها عن غيرها، ومع ذلك بقيت آثار هذه اللهجات بارزة فى القراءات القرآنية التى جاءت تيسيرا على الناطقين المسلمين فى جميع الأمكنة والأزمنة كما نقله ابن الجزرى فى النشر، وقد قال ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف».

فالعرب كانوا يقرأون بلحونهم على تنوعها واختلافها من تحقيق الهمز وتخفيفه والمد والقصر والفتح والإمالة والإظهار والإدغام وضم الهاء وكسرها من عليهم وإليهم واستعمال الكلمات على أوجه مختلفة كبرىء وبراء وسرى وأسرى فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾[25] وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾[26]، إلى غير ذلك مما ذكرته كتب اللغة كالكامل للمبرد.

وفى كتب اللغة والنحو وردت شواهد وأمثلة لبعض هذه اللهجات التى مثلت بعض القواعد النحوية والظواهر اللغوية الصوتية والدلالية وغيرها مما يشهد أن بعضها له شهرة وذيوع وقوة فصاحة يمكن أن يحتج بها ويؤنس بنطقها كما قال ابن جنى: إن اللهجات كلها حجة.

فمن اللهجات البارزة: اللهجة التميمية والقيسية والأسدية وغيرها من هذه القبائل التى اشتهرت بالفصاحة وورد ذكر أصحابها فى كتب اللغة كالصاحبى والمزهر وغيرهما[27]. ويعد الهمز صفة مستحسنة من صفات اللهجة التميمية بحيث أخذ به القرآن فى صورته المشهورة التى نزل بها وإن كان التسهيل إحدى القراءات المعتد بها كذلك لكن الهمز أشهر.

ومن آثار اللهجات المختلفة التى لا تزال باقية وتشهد بواقعها اللغوى الظواهر اللغوية المشهورة كالاشتراك والتضاد والترادف وتعدد الأوجه الإعرابية لبعض الألفاظ فى التراكيب اللغوية والقلب والإبدال وغيرها.

بل إن بعض الألفاظ تختلف من قبيلة إلى أخرى، وبعض هذه الألفاظ المنسوبة للهجات أخرى غير القرشية قد وقعت فى القرآن الكريم.

---

(٢٥) الفجر الآية ٤. (٢٦) هود: الآية ٨١.

(٢٧) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/ ١٣٢.

ويذكر بعض العلماء أن نحو أربعين لغة وقعت فى القرآن: قريش وهذيل وكنانة وخثعم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وسبأ وعمان وبنو حنيفة وطيئ وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن واليمامة[٢٨] مما تضمنته لهجة قريش وما لم تتضمن.

وقد حاول الدكتور لويس عوض أن يرسم العصبية المتمثلة فى لهجة قريش لأنهم آل النبى ﷺ ومنهم نشأ فنشأ الشرف معهم لهذه القبيلة، وتمشى الشرف، وتسرب إلى لهجتهم فجعلت أفصح اللهجات جميعا وجعلت أساسا للغة التى نزل بها القرآن وتنوسيت جميع اللهجات الأخرى[٢٩].

وقد توسع فقهاء اللغة العربية الأوائل وكثير من المتأخرين فى إثبات ما جاء فى الصاحبى لابن فارس من أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها وكان عليهم أن يواجهوا مشكلة تعدد لهجات العرب التى كانوا يسمونها لغات فى الموازنة مع لغة قريش التى نزل بها القرآن فاتفقت كلمتهم على أن لغة قريش كانت أرقى لغات العرب وجعلوا من لغة قريش معيار الصحة والفصاحة لا شك بسبب نزول القرآن بلغة قريش، وبسبب سيادة بنى قريش ولهجتهم بعد انتصار الإسلام على بقية القبائل العربية ولهجاتها[٣٠].

وهذا الحديث الطويل قصد به الدكتور لويس الغض من شأن اللهجة القرشية - بخاصة - واللغة العربية - بعامة - والغض من شأن أصحاب تلك اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم والتقليل من أثرها فى تكوين اللغة العربية ومحاولة إرجاع هذا الأثر إلى العصبية للنبى ﷺ وإلى قبيلة قريش لا إلى العوامل الحقيقية فى تفوق هذه اللهجة، وهى عوامل كثيرة: اجتماعية وسياسية ولغوية، وكأن اللهجات المنزوية المقهورة إنما قبرت - فى زعم الدكتور - بحد السيف والجبروت والتسلط وغلبة قريش على بقية القبائل. ونقول:

إن وجود النبى ﷺ فى الأمة العربية أمر جعلهم - بلا شك - أصحاب شرف وفخر وامتد هذا الشرف إلى الأمة الإسلامية كلها بحمل رسالة الإسلام التى صححت مسار الحياة الإنسانية، وليس هذا تعصبا بل بيان لحقيقة الأمة التى تنشر دين الله وشريعة الحق والعدل فهى - من هذا الجانب - مفضلة على الأمم الضالة الملحدة التى لا تعرف الله وحقوق الناس ولا تقيم العدل، ولذا امتدح القرآن الكريم الأمة الإسلامية فى إطارها العام ولم يخص العرب وحدهم حين قال:

---

(٢٨) المصدر السابق ٢/ ٦٤. (٢٩) مقدمة فى فقه اللغة العربية: ٦٠ وما بعدها.

(٣٠) المصدر السابق ص٦٧.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٣١).

أما إن العنصرية امتدت إلى سيادة قريش على غيرها وسيادة لهجتها على سائر اللهجات واللغات الأخرى فهو غير وارد لا عن العرب ولا عن علماء العربية وما قاله الدكتور لويس محض افتراء.

فسيادة قريش ولهجتها لم تكن بعد الإسلام - كما تصور- بل من قبله، وحقائق التاريخ ترشد إلى ذلك، وقد جاء الإسلام فوجد اللغة العامة - متمثلة فى معظم المادة اللغوية القرشية - فنزل بها، وكان هذا مسايرة للواقع اللغوى الشائع فى البيئة العربية آنذاك.

وعلماء العربية تكلموا عن واقع موجود ولم يكونوا متحاملين أو قائلين بشىء لا تؤيده الحقائق العلمية والآثار.

وإذا كان الدكتور لويس قد اتهم أحمد بن فارس بالتعصب - ومن بعده ومن قبله علماء العربية الآخرين - حين عقد بابا فى كتابه (الصاحبى) بعنوان: «باب القول فى أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها»(٣٢) فإن الباحث المنصف يرى أن أحمد بن فارس لم يكن متعصبا فى هذا الباب الذى عقده بل كان بصدد بيان بعض ما امتازت به العربية من غيرها من اللغات الأخرى، ولم يرد تفضيلا عصبيا ممقوتا.

والرجل لأنه فارسى الأصل يوازن بين العربية والفارسية التى يعرفها فيقرر امتياز العربية بوقوع الألفاظ المترادفة فيها؛ ذلك لأنها تهيئ للمتكلم كثيرا من نواحى الإبانة والإيضاح بما لا يتيسر فى اللغات التى تخلو من الترادف فللسيف والأسد والفرس ألفاظ مترادفة فى العربية على حين أن الفارسية لا تعبر عن ذلك إلا باسم واحد، يقول ابن فارس:

لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسما غير واحد، وفى لغة العرب أكثر من خمسمائة اسم، وهكذا غيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة، فأين هذا من ذاك؟ كما يقرر امتياز العربية ببعض مظاهر البلاغة ووجوهها كالاستعارة والكناية والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من السنن الذى يقع فى القرآن وكلام العرب شعرا ونثرا وذكر لذلك أمثلة.

كما يقرر أن العربية لا تجمع بين الساكنين وقد يجتمعان فى لغة العجم، وعندما قال ابن فارس: (إن القرآن نزل بلهجة قريش) لم يكن ذلك تعصبا لأنهم أتباع النبى وذووه

---

(٣١) آل عمران. الآية ١١٠.   (٣٢) ص ٦ وما بعدها.

وبسبب نزول القرآن بها بل لأن القريشية من قبل نزول القرآن الكريم كانت قد انتشرت بين العرب وأصبحت لغة عامة لأسباب أخرى كثيرة: اجتماعية ودينية وسياسية وتجارية لخصها ابن فارس حين قال:

«أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، فقريش قطان الحرم وجيران البيت الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها أهل الله لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام لم تشبهم شائبة[٣٣]، ولم تنقلهم عن مناسكهم ناقلة، فضيلة من الله جل ثناؤه لهم وتشريفا إذ جعلهم رهط نبيه الأدنين وعترته الصالحين».

وهذا دون شك بيان لبعض المزايا التى اختصت بها لغة العرب ولا عيب فى ذلك ولا تعصب على الإطلاق.

ولهذه المزايا قرر ابن فارس أن ترجمة القرآن أمر جد عسير إذ لا يمكن أن تحمل ألفاظ اللغات الأخرى المعانى التى تتضمنها التعبيرات القرآنية ذات المعانى الجامعة، فيقرر أنه لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلى شىء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله - عز وجل - بالعربية لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب[٣٤].

و«لا وجه لمن يجيز قراءة القرآن فى صلاته بالفارسية، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة، إنما أمر الله - جل ثناؤه - بقراءة القرآن العربى المعجز»[٣٥] وهذه شهادة من أحمد ابن فارس الذى لم يكن شعوبيا فى دعوته بل جهر بالحقيقة التى تقول:

إن مزايا العربية تجعل ترجمة نص القرآن غير صحيحة لأنها تفوّت كثيرا من المعانى التى لا يمكن أن يعبر عنها اللفظ غير العربى.

وهذا يدحض فرية الدكتور لويس فى نقله إجازة ترجمة القرآن فهو بهذا يفتح مجالا فاسدا من مجالات دعاواه الباطلة.

ومن نص ابن فارس السابق نفهم أن قبيلة قريش سادت العرب لعدة أمور:

---

(٣٣) انظر الصاحبى ص١٦ - ٢٥. (٣٤) المصدر السابق ص١٧.

(٣٥) المصدر السابق ص٤٧.

١ - أنهم قطان الحرم وسدنة البيت ويلجأ إليهم سائر العرب لتعلم المناسك، وهذه السمة الدينية أكسبتهم تقدير العرب واحترامهم وحققت لهم الزعامة الدينية، وهذا قبل الإسلام بكثير.

٢ - ونتيجة الزعامة الدينية وعوامل أخرى - كالتجارة والأسواق - أصبح لقريش زعامة سياسية على العرب، ولا شك أن ذلك جعل غيرهم من القبائل يقلدهم فى لغتهم، فمن عادة المعجب أن يقلد من يعجب به ومن عادة الطبقات الاجتماعية أن تخضع لصاحب السلطان الأقوى فى كل شىء وتحاول تقليده[٣٦] مما جعل كثيرا من القبائل تترك كثيرا من مظاهر لهجاتها وتلجأ إلى محاكاة القبيلة ذات السيادة الطبيعية.

٣- ثم أضاف ابن فارس إلى ذلك أن القرشيين أنفسهم مع مالهم من زعامتين دينية وسياسية كانوا غير متعصبين للهجتهم فجعلوها تستفيد من لهجات إخوانهم العرب، وتلك عادة لغوية تحقق الوفاء الكامل بحاجات المجتمع المتحضر الذى اتسع ليشمل قبائل العرب بأسرها فى مناطق الجزيرة الواسعة.

وكان للقرشيين اختيار وذوق رفيع فبعدوا عن كل شوائب اللهجات التى تحول بينها وبين الفصاحة مما يعكر صفوها أو يشينها،يقول:

وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها - إذا أتت الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[٣٧].

وهذا دون ريب جعل للقرشية سيادة على غيرها من اللهجات أفادها بالحسن الجيد وزحزح عنها القبيح الردىء حتى استوت فى صورة عامة سيطرت على اللهجات الأخرى وجعلتها تنزوى، ويقتصر تداولها على المجتمعات والبيئات الخاصة، أما فى المجتمع العام فقد سيطرت لغة مشتركة معظم مادتها قرشى وبعضها من اللهجات الأخرى، ولما جاء الإسلام وجد العربية مستوية على سوقها فى إطار لغوى عام فنزل بها كتابه القرآن الكريم، ولم يكن ذلك تعصبا للهجة قريش على الإطلاق، وقد تهيأت لها فوق الأسباب المشار إليها قوة وسعة وهيبة وسلطان حينما حالفها الحظ بنزول القرآن الكريم بها حيث اختار الله نبيه من رهط قريش، وهذا هو ما ذهب إليه ابن فارس وسائر علماء اللغة.

والذى يدل على أن القرشية ضمت إليها بعض مظاهر اللهجات الأخرى ولم تثر

---

(٣٦) انظر كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث) ص١٧٦ وما بعدها.

(٣٧) الصاحبى ص٣٣ ، ٣٤.

عليها ثورة تحكم واستبداد أن القرآن اشتمل على عناصر أخرى غير القرشية، وقد أشار ابن فارس إلى ذلك فذكر أن القرآن جاء بلهجات اليمن كالأرائك فى قوله سبحانه: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾(٣٨) فالأريكة - بلغة أهل اليمن - الحجلة فيها سرير «الحجلة مثل القبة وحجلة العروس معروفة، وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور»(٣٩) وكذلك المعاذير فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ ﴾(٤١) هى الستور وأهل اليمن يسمون الستر المعذار(٤١).

وبعد هذا البيان نرى أن علماء العربية لم يقصدوا بمدح القرشية أنها أشرف لغات الأرض قاطبة على سبيل التعصب ضد غيرها، وإنما كان من باب بيان فضائل العربية ومزاياها، ومن هنا يفسد حكم الدكتور لويس بأن كثرة التفاعلات بين العربية وغيرها من اللغات الأجنبية عنها هى التى أنضجت اللغة العربية إنضاجا عظيما وأكسبتها مرونة كافية، وخصوبة أفرغتها فى لهجة قريش وأمكنها ذلك وأهلها أن تكون وعاء لوحى عظيم فى عصر الرسول وأداة صالحة للتعبير الفكرى العميق حتى عصر ابن خلدون مما أهلها أن تقهر بعض ما جاورها من اللغات، تماما كما قهرت اللغة اللاتينية عديدا من لغات أوربا التى فتحها الرومان حتى نهاية العصور الوسطى وظهور القوميات الحديثة فى بداية نحو (١٤٠٠) م.

فهذا الحكم - فى رأينا - أصبح غير ذى موضوع، وأن ما بنى عليه يعد غير صحيح على الإطلاق بعد ما أوضحنا من صلات بين العربية وسواها من اللغات وأنها فرع اللغة السامية ذات الخصائص المستقلة.

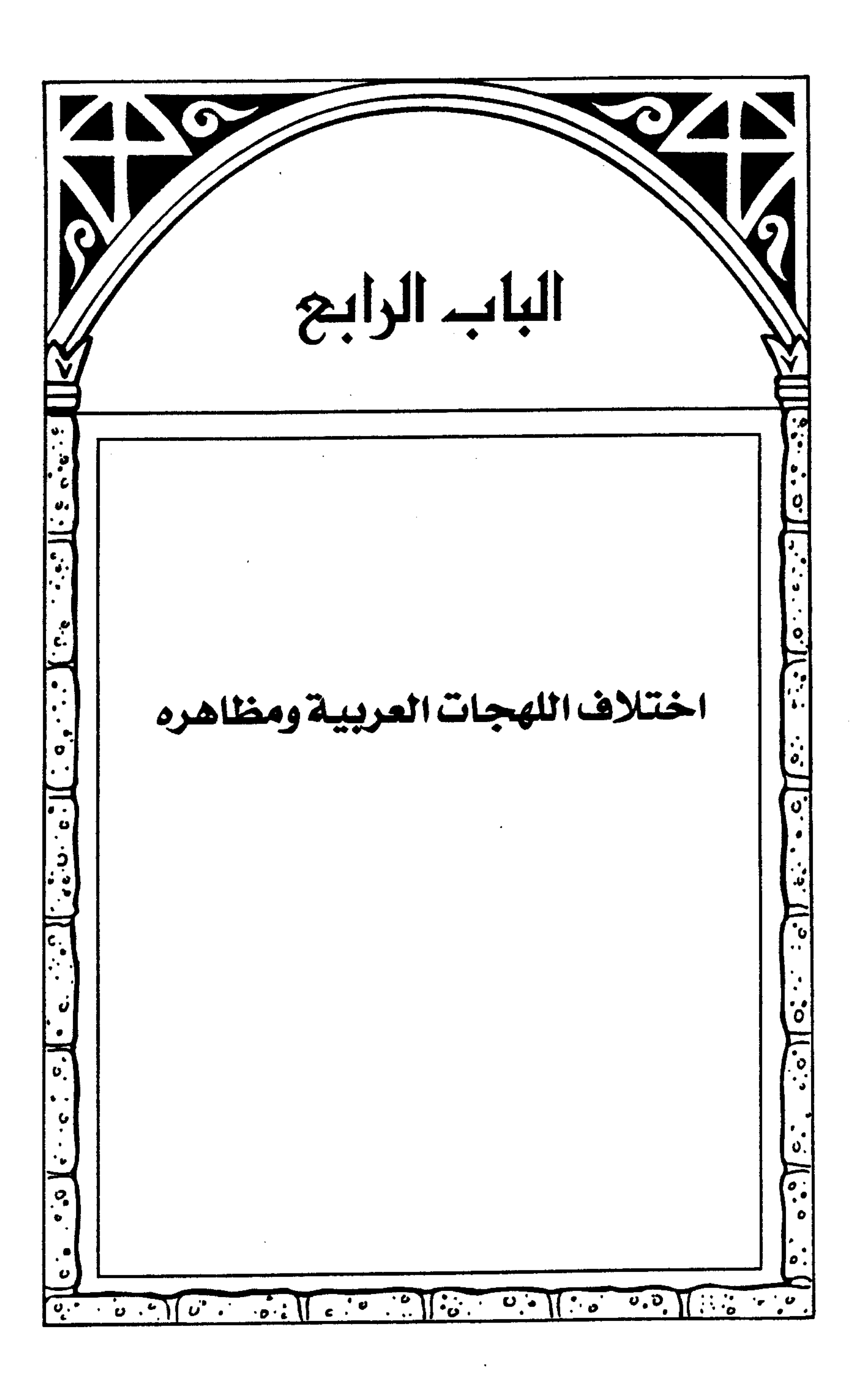
ونضيف فى تفنيد هذا الزعم أن القرشية لم تكتسب الزعامة بين لهجات العربية نتيجة لما دخلها من ألفاظ هندية أوربية أو مصرية قديمة، بل إن الثابت تاريخيا ولغويا أن زعامتها كانت نتيجة عوامل كثيرة هيأت لها سبيل الغلب كما ذكرنا.

وبهذا يثبت ما قرره علماؤنا من أن للعربية خصائصها واستقلالها،وإذا كانت قد انتفعت باتصالها بغيرها من اللغات فهذا فى حدود القليل الذى لا يخل بشخصيتها على حد ما ذكر الجواليقى فى كتابه (المعرب) والشهاب الخفاجي فى كتابه (شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل) وأضرابهما من العلماء الذين أشاروا إلى بعض الألفاظ التى نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى، بل ربما أفادت العربية أكثر مما استفادت، ويكفى أن نعلم أن نحو نصف اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذ إما من الفارسية أو من العربية(٤٢).

---

(٣٨) سورة الإنسان الآية ١٣.   (٣٩) الصاحبى ص٤٢ الأصل والتعليق.

(٤٠) سورة القيامة الآية ١٥.   (٤١) الصاحبى ص٤٢.   (٤٢) دلالة الألفاظ د. أنيس ص: ١٥١.



الباب الرابع

اختلاف اللهجات العربية ومظاهره

آثار اللهجات العربية ودراستها

بدأ الاختلاف اللهجى واضحا فى الجزيرة العربية نتيجة لاتصال أهلها ولقاء بعضهم ببعض فى التجارة والأسواق التى كانت تعقد للأدب والشعر،وهم وإن كانوا يلجأون فى هذه الأسواق إلى الفصحى فإن لهم لهجاتهم التى كانت تتسرب إلى منطقهم فى بعض الأحيان وكانوا يتكلمون بها فى شئونهم الخاصة.

وكان الحجازى يلاقى التميمى وكلاهما من عرب الشمال وكان يلتقى بأهل اليمن، وقد علمنا أن اليمن كان المصدر الأساسى لكثير من الهجرات التى كانت تتم من الجنوب إلى الشمال، وكانت رحلات أخرى تتم إلى اليمن من الشمال، وهنا وهناك اختلطت لهجات المهاجرين من كل صوب، ولابد أن جزيرة العرب باتساعها ورحابتها كانت مدعاة إلى اختلاف البيئات مما هيأ للهجات أن تنشأ وأن تتصارع فيما بينها حتى أدى ذلك إلى سيادة لغة عامة بين العرب جميعا.

ولم يكن الخلاف جوهريا بين اللهجات العربية للصلة القائمة بين العرب، وقد أورد ابن جنى ما يدل على أن الخلاف بين اللهجات فى الفروع لا الأصول، قال:

«فإن قلت: زعمت أن العرب تجتمع على لغتها فلا تختلف فيها، وقد نراها ظاهرة الخلاف، أفلا ترى إلى الخلاف فى (ما) الحجازية والتميمية وإلى الحكاية فى الاستفهام عن الأعلام فى الحجازية وترك ذلك فى التميمية إلى غير ذلك؟ قيل: هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته مختصر غير محتفل به، ولا معيج عليه، وإنما هو فى شىء من الفروع يسير، فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه، ولا مذهب للطاعن به»[1] وهذا فى اللهجات العربية الشمالية والجنوبية بعد التوحد.

ومع توحد هذه اللهجات تحت لغة عامة فإن بقايا اللهجات كانت تجرى على الألسنة فى نطاق بيئاتها المتعددة وظهر أثرها فيما كان النبى ﷺ يفعله من مخاطبة كل

---

(١) يستثنى من ذلك بعض المظاهر اللهجية فى اليمن قبل الإسلام بزمن طويل حين كان للهجة اليمن خصائصها التى جعلت بعض اللغويين يكاد يرى أنها ليست من العربية فى شىء، كما نقل ذلك عن أبى عمرو بن العلاء الذى يقول: (ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا) وابن جنى الذى يقول: (لسنا نشك فى بعد لغة حمير ونحوها عن لغة (بنى نزار) وابن خلدون الذى يقول: (وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصريف كلماته إلخ). انظر كتابنا: العربية خصائصها وسماتها ط٣ ص١٤٠، ١٤١.

الوفود والقبائل التى ترد عليه بلغاتها وحديثه ﷺ: «ليس من امبر امصيام فى امسفر»[2] مما قاله الرسول لبعض اليمنيين وفيه استعمل المصطفى ﷺ (أم) للتعريف مكان (أل) على طريقة اليمنيين وذلك يعرف فى اللهجات العربية باسم: (طمطمانية حمير) وقد قال على - رضى الله عنه -: يا رسول الله: نحن بنو أب واحد وأم واحدة ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: (أدبنى ربى فأحسن تأديبى).

وقد ظهر أثر هذه اللهجات فى قراءة القرآن الكريم فيما أوضحته بعض الأحاديث من صحة القراءة باللهجات العربية المتعددة، والحديث الذى رواه البخارى ومسلم والنسائى عن أبى بن كعب واضح فى هذا الصدد وفى نهايته:

«أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف».

وقد أخذ العلماء يشرحون هذا الحديث ويبينون وجوهه وما أريد بالسبعة فيه حتى جعل السيوطى من ذلك بابا لعرض هذه الآراء واستيفائها وهى تربو على الثلاثين[3].

ولما أخذ العلماء فى كتابة اللغة وجمعها وتدوينها نظروا إلى اللهجات على أنها شىء لا ينبغى الاهتمام به؛ لأن المهم هو الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ويمكن فهمه على أساس دراستها، وكذلك فهم سنة النبى الكريم، وهنا توافروا على الاهتمام بالفصحى ونبذ اللهجات كما خشوا أن يؤدى جمعهم للهجات إلى عدم جمع الكلمة الإسلامية ونقض الوحدة بين الأمة، وأخذ العلماء ينظرون إلى اللهجات على أنها انحراف عن اللغة المثلى ونسبوها إلى العامة والسوقة ورموا بعضها بالرداءة أو المذمة كما فعل ابن فارس فى كتابه (الصاحبى): (باب الردىء والمذموم من اللغات) واقتبس السيوطى كثيرا مما ذكر فيه من اللهجات، وقد اقتصر رواة اللغة فى الأخذ عن قبائل معينة بحجة أنها فصيحة دون غيرها مثل قيس وتميم وأسد وهذيل وكنانة وبعض الطائيين[4].

وحين وضعت قواعد النحو واللغة لم ينظروا إلى اللهجات إلا على أنها تنضوى تحت إطار اللغة العامة، فحاول النحاة صهرها فى بوتقتها، وإخضاعها للقوانين اللغوية العامة إن طوعا وإن كرها، فإذا تأبت عليهم رموها بالقبح أو الشذوذ أو الرداءة.

وقد روى ابن نوفل قال: سمعت أبى يقول لأبى عمرو بن العلاء: أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال: كيف تصنع

---

(٢) شرح المفصل ١٠/ ٣٤.

(٣) انظر بحثنا عن القراءات وصلتها باللهجات فى الباب الخامس من هذا الكتاب.

(٤) المزهر ١/ ٢١١، ٢١٢.

فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات[٥].

وقد ألفت فى اللهجات بعض الكتب الخاصة التى تحددها وتبين بعض ألفاظها، وكانت تسمى كتب (اللغات) وهى كثيرة منها كتاب (اللغات) للأصمعى، وكتاب (اللغات) لأبى زيد الأنصارى وكتاب (اللغات) للفراء، وكتاب (اللغات) لابن دريد وغيرها مما لم يصلنا، ومما وصلنا منها كتاب (اللغات فى القرآن) لإسماعيل بن عمر المقرئ[٦]، وكتاب (ما ورد فى القرآن الكريم من لغات القبائل) لأبى عبيد القاسم بن سلام[٧]، ويتصل هذان الكتابان بالنواحى الدلالية أكثر من غيرها، ففيهما كثير من اللهجات المنسوبة لقريش وتميم وهذيل وقيس وغطفان وثقيف وحمير والأزد وطيىء وهمدان وخزاعة وحضرموت وخثعم ومذحج وسبأ إلى غير ذلك، وفى القرآن بعض الألفاظ غير العربية فارسية ورومية ونبطية وسامية.. إلخ، كذلك كتب التفسير وعلوم القرآن تحوى كثيرا من اللهجات[٨].

وإلى جانب ذلك المعاجم اللغوية فهى تشتمل على ثروة عظيمة من لهجات العرب كالجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهرى ولسان العرب لابن منظور الذى جمع مواد اللغة العربية التى تبلغ ثمانين ألف مادة، كذلك كتب النوادر كنوادر أبى زيد فيها بعض الجوانب اللهجية وكتب النحو كذلك وإن كانت لا تهتم كثيرا باللهجات لأنها (تتناول اللغة بالتقنين والتنظيم ولو أعطى النحاة اللهجات حقها من الدرس لأراحونا من كثير من تأويلاتهم النحوية التى تبعد عن الفهم الصحيح للظاهرة اللغوية)[٩]، وفى كتاب سيبويه إشارات واضحة إلى هذه اللهجات كأن يقول: «قوم من العرب يقولون»[١٠] أو ناس من العرب[١١]، أو بعض العرب الموثوق بهم[١٢] إلى غير ذلك، وسيبويه يصف اللهجة

(٥) المصدر السابق ١/ ١٨٤، ١٨٥.

(٦) حققه ونشره د. صلاح الدين المنجد ط الرسالة ١٩٤٦م.

(٧) طبع مع تفسير الجلالين دار القلم ١٩٦٦، ونقل عنه السيوطى فى النوع السابع والثلاثين بالإتقان ١/ ١٧٥ وما بعدها.

(٨) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى والإتقان للسيوطى وغيرهما.

(٩) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ٥٧، ٥٨.

(١٠) الكتاب ١/ ١٦٤. (١١) المصدر السابق ١/ ٢٥٤. (١٢) المصدر السابق ١/ ٣٢٤.

أحيانا بأنها جيدة(١٣) وأحيانا أخرى بأنها رديئة(١٤) أو رديئة جدا أو ضعيفة أو قليلة خبيثة(١٥).

وقد اهتم النحاة المتأخرون باللهجات اهتماما كبيرا كابن مالك والرضى والسيوطى «ولابد لنا من التنبيه على أن الرواة والعلماء لم يدونوا اللهجات على مناطق العرب قبل تهذيب قريش للغة ولكنهم تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الإسلام وأشياء أصابوها فى أشعار العرب مما صحت روايته قبيل ذلك»(١٦).

وفى القرن الرابع بدت نظرية ابن جنى فى العناية باللهجات، وعدها حجة إذا كانت موافقة للقياس أو مخالفة له، فما وافقه قيس عليه، وما لم يوافقه حفظ ولم يقس عليه، وقد وضع تفصيل ذلك فى «باب فى اختلاف اللغات وكلها حجة»(١٧) وهو يعنى بذلك جواز استعمال اللهجات جميعا.

وقد وضع ابن جنى فى هذا الباب قواعد لقبول اللهجة أو ردها.

١ - فتقبل اللهجتان أو اللهجات إذا كانت على قدر واحد من الاستعمال والقياس، وهذا معنى قوله بقبول اللهجتين إذا كانتا فى الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين.

وطبق ذلك على لغتى الحجازيين والتميميين فى (ما) فلغة التميميين فى ترك إعمالها يقبلها القياس، ولغة الحجازيين فى إعمالها - كذلك - يقبلها القياس؛ لأن لكل واحد من القولين ضربا من القياس يؤخذ به، ويخلد إلى مثله(١٨).

لكن لك أن ترجح إحداهما على الأخرى إذا كانت أقوى قياسا أو أكثر استعمالا

---

(١٣) المصدر السابق بتحقيق الأستاذ هارون ١/ ٨٢، ٢٠٥، ٢/ ٤٠٧.

(١٤) المصدر السابق ط بولاق ٢/ ٢٩٤.

(١٥) المصدر السابق ٢/ ٣٥٨. (١٦) تاريخ آداب العرب ١/ ١٢٠، ١٢١.

(١٧) الخصائص ٢/ ١٠، والمزهر ١/ ٢٥٧.

(١٨) قياسها عند بنى تميم أنها حرف مشترك بين الأسماء والأفعال ومن حق الحرف المشترك أن يكون مهملا فهى كهل، قال سيبويه: (وأما بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل، وهى القياس لأنها ليست بفعل وليس ما كليس ولا يكون فيها إضمار). الكتاب ١/ ٢٨.

وقياسها عند الحجازيين شبهها بليس فى ثلاثة أمور: الدلالة على النفى فى الحال، ودخول كل منهما على المبتدأ والخبر، واقتران الخبر بعد كل منهما بالباء مثل: أليس الله بكاف عبده، - ما أنت بنعمة ربك بمجنون.

فقال: لكـن غاية ما لك فى ذلك أن تتـخير إحداهما فـتقويها علـى أختها وتعتـقد أن أقوى القياسين أقبل لها وأشد أنسا بها».

ويصرح فى موضع آخر بأن التميمية أقوى قياسا من حيث كانت عندهم كهل[19].

ومع ذلك يفضل ابن جنى الأكـثر استعمالا فى القرآن يقـول: (إلا أنك إذا استعملت شيئا من ذلك فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله وهو اللغة الحجازية ألا ترى أن القرآن بها نزل).

وليس معنى ذلك أنه يناقـض نفسه لأنه جعل القضية دائرة على أسـاس الاختيار بين قوة القياس وكثرة الاستعمال وهو يفضل ما كثر استعماله على ما قوى قياسه.

أما مـا تساويا فـيه قيـاسا واستـعمالا فـأنت بالخـيار فيـه، ومع ذلك وردت اللهـجة التميمية فى بعض القراءات كما فى قراءة (ما هذا بشر) و(ما هن أمهاتهم) - بالرفع - ولذا قدم فى كلامه الاستعمال على القياس.

٢- إذا كانت إحدى اللهـجتين أكثر استعـمالا، وأقوى قياسا من الأخرى فـالمختار الأكثر استـعمالا الأقوى قياسا، قال: فـأما أن تقل إحداهما جدا، وتكثـر الأخرى جدا فإنك تأخذ بأوسـعهما رواية، وأقـواهما قياسـا، ألا تراك لا تقول: مررت بك - بفـتح الباء - ولا المال لك - بكسر اللام - قياسا على قـول قضاعة: المال له - بكسر اللام - ومررت به - بفـتح البـاء - ولا تقـول: أكـرمتكـش قيـاس علـى لغة مـن قال: مـررت بكـش وعجـبت منكش[20].

والأساس هو كثرة الاستعمال - على ما يبـدو - وإن اعتمد معه قوة القياس - ليزيد الأمر وضوحا - فالقيـاس على قول قضاعة قياس لا يعضده كثرة الاسـتعمال، مع أن كسر اللام يمكن أن يكون له وجه مـن القياس على المفرد الظاهر مثـل (له) و(لزيد) والكشكشة ربما كانت موضحة للمؤنث وفارقة بينه وبين المذكر قياسا حال الوقف.

٣- جواز اسـتعمـال اللهجـة القليلة الاسـتعمـال، الضعيـفة فى القـياس فى الشـعر والسجع، وهو فـى نظر ابن جنى مقبـول عند الاحتياج إليه وغيـر منعى عليه، فـهو فى ذلك جرى على لهجات العرب وسننها، فلو استعـملها إنسان لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ.

والجـودة تأتى بـكثـرة الاستـعمـال، وقـوة القـياس، وهذا فـيـما وضـع فى عصـور الاحتجاج، أما كلام المولدين فلا يحتج به[21].

---

(١٩) الخصائص ١/ ١٢٥. (٢٠) المصدر السابق ٢/ ١٠. (٢١) المصدر السابق ٢/ ١٢.

وهذا هو الأزهرى ينقل الروايات المتعددة عن قول العرب: ماء ملح ومالح وأن المسموع كثيرا هو ملح لا مالح الذى لم يجئ إلا فى بيت العزاز:

بصرية تزوجت بصريا يطعمها المالح والطريا

ونقل عن يونس أنه لم يسمع أحدا من العرب يقول: (ماؤها مالح) وأنه يقال: سمك مالح وأحسن منه سمك مليح، ثم قال الأزهرى:

هذا وإن وجد فى كلام العرب قليلا فهى لغة لا تنكر(٢٢).

وهذا مما أعطى اللهجات أهمية لغوية يمكن أن يفاد منها فى اللغة والقراءات ويبعد بها عن الذم والتجريح، وكانت منطلقا لرد نقد النحاة لبعض القراءات وادعاء مخالفتها للفصاحة(٢٣).

ولكننا لو ألقينا نظرات فاحصة على دراسة ابن جنى للهجات وهو من هو فى اللغة والنحو لوجدناه يسلك الطريق السديد فى معرفة اللهجات واحتجاجه بها ولها فلم يكن نحويا عاديا يجمع ثم يكتب بطريقة تقليدية بل اعتمد على مصادر موثوق بها فى الوصول إلى هدفه وهى مشافهة الأعراب(٢٤).

وقد لاحظ الدكتور الراجحى ذلك صفة واضحة عند ابن جنى فقرر «أن أبا الفتح يدرك ما للمصدر البشرى من قيمة كبيرة فى استقاء اللغة، هذا المصدر الذى يعتمد عليه دارسو اللهجة فى المقام الأول والذى يسمونه the informer وفرق بين المشافهة لصاحب اللهجة وبين روايتها بطريق السماع عنه(٢٥) وقد نقل قوله فى ذلك.

«فليت شعرى إذا شاهد أبو عمرو وابن أبى إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعى ومن فى الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما فى أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه غير متهم الرأى والنحيزة والعقل(٢٦) فلا غرو - إذا - أن يكون للهجات نصيب كبير فيما وصلنا له من آثار علمية.

(٢٢) التهذيب ٥/ ٩٨، ٩٩.

(٢٣) انظر بحثنا عن القراءات وصلتها باللهجات.

(٢٤) انظر ص ٢٩٤ من رسالتنا للدكتوراه عن (ابن جنى اللغوى).

(٢٥) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ٦١. (٢٦) الخصائص ١/ ٢٤٨.

وكان ظهور اللهجات فى كتب ابن جنى ثمرة من ثمرات فكره وعلمه الغزير فقد درس اللغة وأبرز سماتها الخاصة وملامح جمالها وحيويتها وتوليدها واتساعها بمظاهرها المتعددة من الأصوات والاشتقاق والقياس والدلالة بما تشمله من معان متطورة ومتقابلة أو متلاقية، وكل ذلك له صلة باللهجات التى هى المصدر الوثيق لكل ما وضع من مبادئ وما أرسى من دعائم، وقد حرص دائما على بيان هذه الصلة فى دراسته لها، والباحث يرى فى كتبه لهجات للقبائل الآتية: قيس - بنى سليم - هذيل - عقيل - الحجاز وتميم - الأنصار - أزد السراة - بنى كلاب - بنى أسد - ربيعة - هذيل، وهذه اللهجات لها ما يسوغها من البيئة التى نشأ بها أصحابها، فهناك بيئة البادية وبيئة الحاضرة ولكل منهما آثار على أهلها جسميا واجتماعيا وفكريا، كما أن لها أثرا ملحوظا فى كلامها واتجاهاتها الصوتية والمعنوية، ولا ريب أن عالمنا ابن جنى قد أورد هذه اللهجات ليوضح خصائص العربية وسماتها المميزة أو ليحتج بها لقراءة وصفت بالشذوذ عند غيره.

وقد أبرزت كتب لغوية متعددة ألوانا ومظاهر من اللهجات العربية ككتاب فقه اللغة لابن فارس وفقه اللغة للثعالبى والأمالى للقالى، وأدب الكاتب لابن قتيبة وشرح الفصيح للبطليوسى ولابن درستويه ولابن خالويه ومعجمات اللغة وغيرها.

وكان أصحاب هذه المؤلفات يعبرون عنها (باللغات) ولم يظهر مصطلح اللهجات واضحا إلا فى العصر الحديث الذى برزت فيه دراسة اللهجات واعتنى بها كثيرا وظهرت فيها البحوث العلمية الجادة.

وقد وردت إلينا بعض الشواهد القليلة من الأبيات الشعرية وبعض الآثار الأدبية الأخرى التى تحمل طابع اللهجات المنزوية المقهورة، ويتمثل ذلك فى بعض ما ورد من الآثار التى صحت روايتها فى العصر الجاهلى والإسلامى أو ما سمعه الرواة من أفواه العرب المعاصرين لهم فى البدو والحضر.

ولم يكن همّ رواة اللغة حصر أنواع اللهجات وجمع كل نصوصها وشواهدها والعناية بحفظها من عوادى الزمن لتؤكد الجوانب اللغوية المتنوعة بين القبائل وتجعل لها تاريخا يوضح آثارها وملامحها وصفاتها وما عرض لها من تغير مع مرور الزمن على لسان القبائل الناطقة بها وما بينها من صلات القرب أو البعد.

ولو أنهم فعلوا ذلك لأفادوا العربية إفادة كبيرة لتفسير أمورها والغامض من أسرارها.

مظاهر اختلاف اللهجات

إن الناظر فيما وصل إلينا من آثار هذه اللهجات يجدها تتنوع بين ما يتصل بالجانب الصوتى وما يتصل بالجانب الدلالى.

فما يتصل بالجانب الصوتى يتجلى فى الاختلافات التى تبدو فى تغيير بعض الحروف والحركات من قبيلة إلى أخرى أحيانا، وهذا ما يطلق عليه اللغويون اسم (الإبدال)[1] وعلى ذلك تختلف بنيتها وصيغتها، كما يمكن أن تختلف الحركات الإعرابية وغيرها من وجوه النحو بين القبائل، ويمكن أن يتقدم حرف على آخر فيما يسمى ظاهرة (القلب المكانى)، وقد يلاحظ الاختلاف بين القبائل فى حذف بعض الحركات أو الحروف أو زيادتها، وهذا كله يتعلق بالجانب الصوتى.

أما ما يتصل بالجانب الدلالى فيبدو فى اختلاف القبائل العربية فى معانى الألفاظ وتنوع دلالتها، وقد نشأ عن تنوع الدلالة ظهور المشترك والمتضاد والمترادف فى ألفاظ العربية.

ومن ذلك ما روى أن أبا هريرة - وهو دوسى - [2] قال له النبى ﷺ يوما: ناولنى السكين - وكانت قد وقعت من يده - فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد بلفظ السكين، فكرر له القول ثانية وثالثة، فلم يفهم، ثم قال أبو هريرة: آلمدية تريد؟ فقيل له: نعم، فقال: أو تسمى عندكم سكينا؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ.

وقد ينفرد عربى ببعض ما تقدم دون أن نعرف القبيلة التى سمع منها ذلك بأن تجمع العرب على نطق معين أو معنى خاص، ثم يسمع من أحدهم ما يخالف ذلك مما لم يسمع من غيره.

وقد ذكر ابن جنى بعض ذلك فى خصائصه فى أبواب منها: (باب فيما يرد عن العربى مخالفا لما عليه الجمهور)[3] و(باب فى الشىء يسمع من العربى الفصيح لا يسمع من غيره)[4]، وقد ذكر ابن جنى تفسير هذا الوارد بأنه إذا كان العربى فصيحا فى غير ذلك وكان ما جاء به مما يقبله القياس إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان فإن

---

(١) سنتحدث - إن شاء الله - عنه تفصيلا بعد قليل ونتحدث أيضا عن أهم المظاهر الأخرى.

(٢) دوس بطن من الأزد. (٣) الخصائص ١/ ٣٨٥ - ٣٩١.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢١ - ٢٨. وانظر ما نقله السيوطى فى المزهر ١/ ٢٥٥.

الأولى فى ذلك أن يحسن الظن به وألا يحمل على فساده... ويمكن أن يكون ذلك قد وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها، وعفا رسمها، وتأبدت معالمها[٥].

وإما أن يكون شيئا ارتجله كابن أحمر الذى ثبتت الشهادة بفصاحته، والأعرابى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به، وقد حكى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها، وما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، فيحمل الأمر على ما يبدو وإن كان يحتمل غير ذلك، فمن شهرت فصاحته يقبل منه ما يورده، ويحمل أمره على ما عرف من حاله، لا على ما عسى أن يكون من غيره، وذلك كقبول القاضى شهادة من ظهرت عدالته، وإن كان يجوز أن يكون الأمر عند الله بخلاف ما شهد به، فالقاضى مأمور بحمل الأمور على ما تبدو لا على العمل بما عند الله لأنه لم يقع له به العلم[٦].

أما إذا كان ما سمع منه يخالف القياس كرفع المفعول، وجر الفاعل، ورفع المضاف إليه، فينبغى أن يرد ذلك لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا.

وإذا كان العربى الذى سمع منه ذلك مضعوفا فى قوله مألوفا منه لحنه وفساد كلامه فالصواب أن يرد ذلك عليه ولا يقبل منه[٧].

وإذا سمع ما هو ضعيف فى القياس من عدد كثير فالمحتمل أحد أمور:

١- أن يكون من نطق به لم يحكم قياسه على لغة آبائهم.

٢- أن يكون السامع قصر فى استدراك وجه الصحة.

٣- أن يكون هذا الضعيف الوجه قد تسرب إلى لسان هذا الفصيح من لغة غير فصيحة فاسدة الأصل ترددت على سمعه كثيرا فسرت فى كلامه، مع صحة لغته فى غيرها، فكأنه جمع بين لغتين، الأولى فصيحة هى لغته، والأخرى فاسدة انتقل لسانه إليها فى هذا الأمر الفاسد، فقد يتوهم من يسمع فصاحته أن يقبل منه الفاسد ويدخل عليه ظنا أنه فصيح كلغته السائدة.

وهذا جائز إذا سلمنا بأن العربى ينتقل لسانه، وقد ينتقل إلى لغة فصيحة أحيانا، وإلى لغة فاسدة أحيانا أخرى.

ويستبعد ابن جنى الاحتمال الثالث باعتبار أن العربى الفصيح ينفر من الخطأ فى اللغة، فلا يطاوعه لسانه عليه (فالفصيح إذا عدل به عن لغة فصيحة إلى أخرى سقيمة عافها،

---

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٨٦. (٦) المصدر السابق ٢/ ٢٣ - ٢٧.
(٧) المصدر السابق ١/ ٣٨٧، ٣٩١.

ولم يبهأ بها)[8] وقد جرب ذلك ابن جنى بأن سأل أبا عبد الله الشجرى - وهو أعرابى فصيح - ومعه ابن عم له دونه فى الفصاحة يسمى غصنا، فقال لهما: كيف تحقران حمراء؟ فقالا: حميراء، قال لهما: فسوداء؟ قالا: سويداء، ووالى ابن جنى من ذلك أحرفا أخرى، وهما يجيئان بالصواب قال ابن جنى: فدسست فى ذلك (علباء) فقال غصن - الضعيف فى الفصاحة -: (عليباء)، وتبعه الشجرى، فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور، ثم قال: آه: عليبى، ورام الضمة فى الياء.

ودلل ابن جنى بذلك على أن العرب - ولا سيما أهل الجفاء وقوة الفصاحة - يستنكرون خلاف اللغة استنكارهم زيغ الإعراب، ويتنبهون إلى زيغ الإعراب أكثر من خلاف اللغة لاعتمادهم على سماع لهجات كثيرة غير ما ينطقون به من ألسنة إخوانهم المجاورين لهم أو البعيدين عنهم[9].

---

(٨) أى: لم يأنس بها ولم يحبها.
(٩) الخصائص ٢/ ٢٥، ٢٦.

الفصل الأول

الإبدال وأثره فى اللهجات

تعريفه: فى اللغة مصدر أبدلت كذا من كذا إذا أقمته مقامه(١) والأصل فيه: جعل شىء مكان شىء آخر(٢).

وفى الاصطلاح: جعل حرف مكان آخر مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة(٣). وينظر إليه اللغويون على أنه جعل حرف مكان آخر أو حركة مكان أخرى.

والإبدال نوعان:

١ - **مطرد** عند جميع العرب، وهذا إذا استوفى شرطه وجب تنفيذه وهو الخاص بحروف (هدأت موطيا) وقد تكفل علم الصرف بدراسته.

٢ -**الإبدال غير المطرد،** وهو الذى لا يخضع لشرائط خاصة بحيث إذا لم ينفذ عد مخالفه مرتكبا سبيل الشذوذ، وهذا لا يكون عند العرب جميعا ولكن يتنوع بين القبائل(٤) فقبيلة تقول أن، وأخرى عن، وهذا هو الذى تتنوع عن طريقه اللهجات العربية، ويمكن

---

(١) شرح التصريح ٢/ ٣٦٦، ولسان العرب ١٣/ ٥٠، ٥١.

(٢) اللسان ١٣/ ٥٠.

(٣) فى كتب التصريف تفريق بين الإبدال والتعويض والقلب وبيان للنسبة بينها فهى تعرف الإبدال بأنه: جعل حرف مكان آخر مطلقا، والتعويض بأنه جعل حرف خلفا عن حرف آخر أو أكثر سواء كان المعوض فى غير مكان المعوض عنه، مثل عدة وابن أو فى مكانه نحو اصطبر ومخيريج فى تصغير مستخرج، فكل إبدال تعويض ولا عكس، والقلب هو: جعل حرف من حروف العلة والهمزة مكان حرف منها مثل قام وقائم فكل قلب إبدال ولا عكس، وقد خرج التعويض عن تعريف الإبدال بقيد المكان. وخرج القلب بقيد الإطلاق، إذ هو يختص بكون المبدل فى مكان المبدل منه، ولا يختص بحروف العلة، ومن راعى الاختصاص جعل بينها التباين. انظر الأشمونى مع الصبان ٤/ ٢٧٩، ٢٨٠، والتصريح ٢/ ٣٦٦، والخصائص ١/ ٢٦٥، ٢٦٦، والأشباه والنظائر ١/ ١٢٣-١٢٥، ومقدمة الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١/ ٩.

(٤) فقه اللغة د٠ نجا ص٢٦، ٢٧، واللهجات العربية ص٥٥.

الانتفاع به فى دراستها كما يمكن الربط بين الألفاظ المتشابهة فى اللغات السامية[٥] فالعربية والسريانية والعبرية وغيرها من أخواتها ترجع إلى لغة واحدة هى السامية الأم إلا أنها اختلفت لاختلاف البيئات والأحوال وأحيانا يكون هذا الإبدال قياسيا، فالثاء فى العربية تقابلها الشين فى العبرية، والتاء فى السريانية فـ(يثب) العربية يقابلها (Yashav) العبرية و(Yateb) السريانية، وأمثلة، هذا التبادل كثيرة فى الأخوات الساميات[٦].

كما يمكن الربط عن طريق الإبدال بين اللغات الإنسانية بعضها وبعض بكشف أوجه التشابه والاختلاف فى الأصوات كما فى (Cable) الإنجليزية و(كبل) و(حبل) فى العربية، ويترتب عليه انتقال الكلمات من لغة إلى أخرى، وهذا يكشف عن تفرع اللغات الإنسانية من أصل واحد، ويمكن إجراء مثل هذا النوع من البحوث الإبدالية بين العربية واللغات الأخرى وتحديد الأصل فى هذه اللغات والمنقول وهى عملية مطروحة للبحث والدراسة لكنها تحتاج إلى حيدة علمية ودلائل موضوعية لإثبات الأصالة والفرعية فى اللغات، ولعلنا نستطيع - إن شاء الله - أن نقوم بنوع من هذه البحوث فى دراسة مقارنة بين العربية وغيرها لنضع الحقيقة الناصعة أمام العيون بسبق العربية لسواها من اللغات الأخرى وإثبات قدمها الراسخة فى وضع الألفاظ والدلالات اللغوية.

لهذا وغيره من المزايا كانت تلك الظاهرة مثار البحث بين علماء اللغة.

---

(٥) فقه اللغة للدكتور محمد المبارك ص ٥٠.

(٦) الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ص٣٦، ٣٧ وفيه أمثلة للإبدال فى العبرية والأشورية.

آراء العلماء فى الإبدال

لما كانت ظاهرة الإبدال تمثل قدرا كبيرا فى تفسير ما قيل أنه من اللهجات العربية أرى من الضرورة العلمية ذكر آراء العلماء فى قضية الإبدال، وما حكموا فيه بتطور الألفاظ بعضها عن بعض، أو مما نشأ منها عن طريق اختلاف اللهجات، وأسباب هذا الحكم أو ذاك.

وقد أولى ابن جنى هذه الظاهرة عناية فائقة فى بعض كتبه، ونسب إليه رأى أصبح شائعا فى أوساط اللغويين ممثلا للرأى القديم عند علماء اللغة العرب، ولذا كان علينا أن نورد رأيه مدعما بأدلته، ونبين من تابعه عليه من القدامى والمحدثين، ثم نذكر علاجا حديثا لهذه المشكلة اللغوية ليتضح تفرع الألفاظ العربية المختلفة فى بعض الحروف وطرق نشأتها، هل حدثت بطريق الإبدال والتطور الصوتى أو المعنوى،أو نشأت عن لهجات متعددة لا صلة لإحداها بالأخرى، وبهذا نكشف نوع الصلة بين بعضها وبعض. ونضع أساسا صالحا للتفسير اللغوى الذى نرتضيه فيما حدث من اختلاف لفظى أو معنوى بين القبائل فيما يمكن تفسيره على أنه من الإبدال أو اختلاف اللهجات.

رأى ابن جنى:

إن ابن جنى قد عرض للإبدال باعتباره ظاهرة لغوية لها أهميتها فخصص لها قدرا كبيرا من مؤلفاته - كما ذكرنا - ويكفينا دلالة على هذا الاهتمام قوله فى اعتزامه أن يشرح كتاب يعقوب بن السكيت فى القلب والإبدال «ونحن نعتقد إن أصبنا فسحة أن نشرح كتاب يعقوب بن السكيت فى القلب والإبدال، فإن معرفة هذه الحال فيه أمثل من معرفة عشرة أمثال لغته، وذلك أن مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس»(٧).

ورأى ابن جنى يتلخص فى أنه نظر إلى كل كلمتين اتحدتا فى جميع الحروف إلا حرفا واحدا واتحدتا فى المعنى على أنهما تارة يكونان من الإبدال وأخرى من اختلاف اللغات (اللهجات)،وقد وضع مقياسا للحكم على الكلمتين متى تكونان من قبيل الإبدال ومتى تكونان من اختلاف اللهجات؟

---

(٧) الخصائص ٢/ ٨٨.



«فمتى أمكن أن يكون الحرفان جميعا أصلين كل واحد منهما قائم برأسه لم يسغ العدول عن الحكم بذلك فإن دل دال أودعت ضرورة إلى القول بإبدال أحدهما من صاحبه عمل بموجب الدلالة وصير إلى مقتضى الصنعة[٨]، وقد تبين من كلامه العديد فى سر الصناعة والخصائص أن مقياسه هو أن اللفظين إذا تساويا فى الاستعمال والتصرف «فلست بأن تجعل أحدهما أصلا لصاحبه أولى منه بحمله على ضده» وعلى هذا فكل لفظ لغة لقوم بأعيانهم يقول فى سر الصناعة: علث الطعام - وغلثه، والنشوع والنشوغ لغات كلها لاستوائها فى الاطراد والاستعمال[٩]. ويقول فى الخصائص «هتلت السماء وهتنت هما أصلان ألا تراهما متساويين فى التصرف، يقولون هتنت السماء تهتن تهتانا وهتلت تهتل تهتالا وهى سحائب هتن وهتل[١٠]. ويقول فى موضع آخر: «فأما قولهم إناء قربان وكربان إذا دنا أن يمتلئ فينبغى أن يكونا أصلين لأنك تجد لكل واحدة منهما متصرفا أى قارب أن يمتلئ وكرب أن يمتلئ[١١] فمن النصوص السابقة نفهم وجهة نظره فيما إذا تساوت الكلمتان فى التصرف والاستعمال، وهى أن تكون كل منهما لغة (لهجة)، أما إذا لم تتساو الكلمتان تصرفا واستعمالا بأن كانت إحداهما أكثر تصرفا أو أدور استعمالا فإنهما حينئذ من قبيل الإبدال وتكون الكلمة الكثيرة التصرف أو الاستعمال هى الأصل[١٢] والقليلة هى الفرع[١٣]، وهذا يتضح لنا أيضا من كلام ابن جنى نفسه، يقول فى الخصائص

---

(٨) المصدر السابق ٢/ ٨٢.

(٩) المصدر السابق ١/ ٢٤٧، ٢٤٨، علث وغلث الطعام: خلطه، والمادتان مذكورتان فى المعاجم (اللسان ٢/ ٤٧٤، ٤٧٨) ولعل إحداهما ناشئة عن الأخرى بطريق التصحيف، ومادة (نشع) - بالعين - فى المعجم دون الغين، والنشوع هو السعوط والوجور الذى يوجره المريض أو الصبى، والسعوط فى الأنف. والوجور فى الفم، ويقال: نشع الطيب: شمه (اللسان ١٠/ ٢٣٢).

(١٠) ٢/ ٨٢ بتشديد التاء المفتوحة فى هتن وهتل وتتفق اللام والنون فى المخرج وهو طرف اللسان مع اللثة العليا وبينهما الراء وتتفقان فى جميع الصفات، وهذا يسوغ التبادل بينهما، وقد جزم ابن جنى بأنهما أصلان يعنى أنهما فى لهجتين مختلفتين وليسا من الإبدال. وقد ورد فى كتب اللغة ما يؤيد أنهما لهجتان ونسبت الكلمات التى باللام إلى أهل الحجاز وتميم وقيس وكثير من أهل نجد، ونسبت الكلمات التى بالنون إلى بنى سعد من مضر وبعض كلب (البحر ١/ ٣١٨، والتهذيب ١٥/ ٣٩٤، والقلب والإبدال ٢٨٧).

(١١) ٢/ ٨٦ ولا مانع من التبادل بين القاف والكاف لأنهما من مخرج واحد وهو أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ويتفقان فى الانفتاح والإصمات والهمس - على رأى المحدثين فى القاف، ويمكن نسبتهما إلى اللهجات أيضا، ولعل القاف مناسبة للقبائل البدوية لأنها من الأصوات المستعلية والكاف للقبائل الحضرية لاستفال الكاف ورقتها.

(١٢) المبدل منه. (١٣) المبدل.

«رجل خامل وخامن النون فيه بدل من اللام، ألا ترى أنه أكثر وأن الفعل عليه تصرف وذلك قولهم خمل يخمل خمولا وكذلك قولهم قام زيد فم عمرو الفاء بدل من الثاء فى ثم ألا ترى أنه أكثر استعمالا»(١٤) ويقول فى سر الصناعة: «وأما قولهم فى الدرع نثرة ونثلة فينبغى أن يكون الراء بدلا من اللام لقولهم نثل عليه درعه ولم يقولوا نثرها فاللام أعم تصرفا فهى الأصل»(١٥) ويقول فى موضع آخر «يقال تركته وقيذا أو وقيظا والوجه عندى والقياس أن تكون الظاء بدلا من الذال لقوله عز اسمه ﴿والموقوذة﴾ بالذال، ولقولهم وقذه يقذه ولم أسمع وقظه ولا موقوظة، فالذال إذًا أعم تصرفا فلذلك قضينا بأنها هى الأصل»(١٦).

ويمكن بعد هذا أن نقول إن رأى ابن جنى هو: الكلمتان المتحدتان فى جميع الحروف ما عدا حرفا واحدا يكونان:

١ - من الإبدال: إذا أمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى، وذلك - كما نقلنا عنه - إذا كانت إحدى الكلمتين أكثر تصرفا أو استعمالا من صاحبتها، وهذا يمكن حدوثه عند قبيلة واحدة أو عند العرب جميعا.

٢- من اختلاف اللهجات: إذا لم يمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى، وذلك بأن تتساوى الكلمتان تصرفا واستعمالا ويكون عنده قبائل متعددة.

---

(١٤) ٢/ ٨٤ ولا مانع من التبادل بينهما لتوافر العلاقة الصوتية فهما شفويان ومتفقان فى جميع الصفات ما عدا الذلاقة للفاء والإصمات للثاء، ويجوز أن تكون كل منهما أصلا دون النظر إلى حكم لابن جنى بأصالة الثاء لكثرة التصرف، ومن الجائز نسبتهما إلى اللهجات على أن تكون الفاء للحجاز والثاء لتميم.

(١٥) ١/ ٢٠٦ ومعانى المادتين متقاربة، فهما تدوران حول التفريق ونقل الشىء من مكان إلى غيره، ونثر معروفة فى التفريق ونثل: منها نثل الركية أخرج ترابها، ونثل كنانته: أخرج ما فيها من النبل، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيه مقطعا، ومقياس التصرف ليس هو الأساس لمعرفة الأصل؛ فيجوز أن يكون كل من الراء أو اللام أصلا أو أن اللام نشأت لثغة عن الراء أو كل منهما أصل فى لهجتين مختلفتين والراء لتميم واللام للحجاز (التهذيب ٢/ ٣٨٢، ٨/ ٩١، ١٢/ ٣٥٥، ١٣/ ١٥٨، ٢٥٧).

(١٦) ١/ ٢٣٣ والتبادل سائغ بينهما لاتفاقهما فى المخرج والصفات ما عدا الاستعلاء والإطباق فى الظاء والاستفال والانفتاح فى الذال، وحكم ابن جنى بكثرة تصرف الكلمة بالذال غير سديد لكثرة تصرف الكلمة بالظاء أيضا كما ورد فى المعاجم (القاموس ٢/ ٤٠٠) واللائق بالأمر أن تكون الظاء فى بيئة بدوية تميل إلى التفخيم والأصوات المستعلية المطبقة، وأن تكون الذال من خصائص بيئة حضرية تميل إلى الترقيق والأصوات المستفلة المنفتحة.

وهذا الحكم المبنى على الشيوع وكثرة التصرف قد تعرض لنقد علماء اللغة فوجهته غير صالحة لأن تكون مقياسا علميا سديدا، وقد ناقش هذه الفكرة أستاذنا الدكتور نجا وأثبت عدم صلاحيتها وحدد وجوه الضعف فى نقاط نجملها فيما يلى:

١- مقياس التصرف لا ينبغى أن يعول عليه لجواز الاستغناء عن تصرفات الكلمة القليلة التصرف بتصرفات كلمة أخرى أو أن الكلمة متصرفة ولم يصل إليها الرواة، ويعقب أستاذنا على ذلك بقوله: «وعلى هذا فعدم الاشتقاق فى الظاهر لا يصح أن يكون مقياسا معولا عليه فى الحكم بالفرعية لما سبق».

٢- كثرة الاستعمال الذى يعتبره أصحاب هذا الرأى مقياسا للأصالة والفرعية لا يسير وفق أمر مطرد حتى نتخذه مقياسا لهذا الأمر، فالكلمة قد تنتشر فى عصر وتهمل فى غيره مما يجعل الكلمة معرضة للأصالة والفرعية،ثم يقول معقبا: «وهذا ما يجعل ذلك الأساس غير مستساغ»(١٧).

على أننا نلاحظ أن ابن جنى نفسه قد أحس بضعف هذا المقياس فى قرارة نفسه وظهر فى تطبيقه له بما يؤكد لنا تشككه فى صلاحيته، يقول فى سر الصناعة: وقالوا خطر بيده يخطر وغطر يغطر، فالغين كأنها بدل من الخاء لكثرة الخاء وقلة الغين، وقد يجوز أن يكونا أصلين إلا أن أحدهما أقل من صاحبه(١٨)، ويقول فى الخصائص: «فأما قولهم ما قام زيد بل عمرو وبن عمرو فالنون بدل من اللام ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن) والحكم على الأكثر لا على الأقل،هذا هو الظاهر من أمره ولست مع هذا أدفع أن يكون (بن) لغة قائمة برأسها(١٩)، ففى النصين السابقين دليل واضح على عدم اعتداد ابن جنى بهذا المبدأ وتشككه فيه.

وقد أوضح أستاذنا الدكتور نجا أن ابن جنى ومن تابعه قد تخلوا عن التزام هذا المقياس فيما ورد عنهم مما يجعلنا لا نوقن بالتزامه، وحكى عن ابن جنى قوله فى سر الصناعة: «وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم فى بعض اللغات فقد قالوا اجدمعوا فى اجتمعوا واجدز فى اجتز، ومنه قول الشاعر:

فقلت لصاحبى لا تحبسانا   بنزع أصوله واجدز شيحا

---

(١٧) اللهجات العربية ٥٧ وفقه اللغة ٤/ ٢٩.

(١٨) ١/ ٢٤٧، ظاهر أن العلاقة الصوتية تسوغ التبادل بين الخاء والغين فكلاهما من حروف الحلق من أدناه وتتفقان فى الرخاوة والاستعلاء، ويبدو أن الاختلاف - هنا - ناشئ عن اختلاف اللهجات، والغين للبدو لميلهم إلى الحروف المجهورة والخاء للحضر لميلهم إلى المهموس وهو المشهور فى كتب اللغة.

(١٩) ٢/ ٨٤.

«وهذا يعطينا صورة صادقة عن ضعفه» على حد تعبير أستاذنا[٢٠]، ولكننا عندما ننظر فيما كتبه ابن جنى عن الإبدال نجده يستعمل مقياسه فى بيان الأصل والفرع، فلعله قد رجع عن رأيه السابق بعد ما دون نظريته وأجراها تطبيقا على كثير من الألفاظ التى تصدق عليها.

ويشترط ابن جنى لتطبيق رأيه السابق تطبيقا صحيحا أن يكون الحرفان المختلفان فى الكلمتين متقاربى المخارج، ويقوى ذلك بالتماثل أو التقارب فى بعض الصفات أيضا.

ويمكن إدراك هذه الحقيقة فى مواضع كثيرة من أهم مؤلفاته التى أشرنا إليها، ومن ذلك قوله: «القلب فى الحروف إنما هو فيما تقارب منها وذلك الدال والطاء والتاء والذال والثاء والهاء والهمزة والميم والنون وغير ذلك مما تدانت مخارجه»[٢١]، وقوله فى موضع آخر: ونحو من هذا التقريب فى الصوت قولهم فى سبقت صبقت وفى سقت صقت وفى سلق: صلق وفى سويق: صويق وذلك أن القاف حرف مستعل والسين غير مستعل إلا أنها أخت الصاد المستعلية فقربوا السين من القاف بأن قلبوها إلى أقرب الحروف إلى القاف من مخرج السين وهو الصاد[٢٢]، وكثيرا ما عبر ابن جنى فى الإبدال بأن هذا الحرف أخ لهذا الحرف، فالراء أخت اللام والباء أخت الميم والزاى أخت الصاد وهكذا[٢٣]، وهذا الشرط أساسى لتحقق الإبدال ولذلك رأيناه لا يذكر فى كتبه شيئا مما لم يتحقق فيه هذا الشرط مما تباعدت مخارجه مثل خلع وجلع: ذهب حياؤه[٢٤] والزحاليف والزحاليق وفى

---

(٢٠) اللهجات العربية ٥٨ وفقه العربية ٢٩ وسر الصناعة (باب الدال) ١/ ٢٠١.

(٢١) سر الصناعة ١/ ١٩٧.

(٢٢) المصدر السابق ٢٠١ ولا مانع من التبادل بين السين والصاد لأنهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى بجانب اشتراكهما فى الهمس، ومع ذلك فاحتمال اللهجات أمر قائم، وتتأثر السين بأصوات الإطباق فتقلب إليها ونسبت هذه الظاهرة إلى قريش، ويقول أبو حيان: إنه اللغة الجيدة (البحر ١/ ٢٥) ولعل هذه الظاهرة أن تنسب إلى أهل البادية أجدر فصوت الإطباق فيه من الوضوح ما يتناسب مع البيئة الصحراوية (اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص١٥٠) وقد نسب ذلك إلى قوم من تميم هم بلعنبر أو إلى قوم من اليمن (الجمهرة ٢/ ١٥٤، ١٦٣) وربما كانت الصاد منطورة عن السين فى لهجة البدو (الكتاب: باب ما تقلب فيه السين صادا فى بعض اللغات ٤/ ٤٧٩) و(سر الصناعة ١/ ٢٢٠).

(٢٣) الخصائص من ص١٤٧ إلى ص١٥٣ ج٢.

(٢٤) اللسان ٩, ٤٠٢، ٤٣٠ والعلاقة الصوتية بعيدة مع الربط بينهما لملابسة ما، وربما دخل ذلك التصحيف (من أسرار اللغة ص ٥٢).

صدره على حسيفة وحسيكة[٢٥] ولم يتنازل ابن جنى عن هذا الشرط فى أى مثال من أمثلته على هذه الظاهرة اللغوية[٢٦]، وربما أضاف إليهـا مقويا لها اشتراكهـا فى بعض الصفات، كما قال عـن إبدال التاء من السين فى النات وأكـيات يريد الناس وأكياس «فـأبدلت السين تاء لموافقتها إياها فى الهمس والزيادة وتجاور المخارج»[٢٧] ويقول فى موضع آخر معللا لقلب الثاء تـاء فى افتعل من الثريد: «وإنمـا قلبت تاء لأن الثاء أخت التاء فى الهـمس فلما تجاورتا فى المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحـد فقلبوها تاء وأدغموها فى التاء بعـدها ليكون الـصوت نوعـا واحدا»[٢٨]، ويبـدو من ذلـك أن ابن جنـى يقـصد بـتقـارب المخارج اتحادها أو تجاورها.

ويتصل بتـمام رأى ابن جنى فى هذا الموضوع أن تكـون الكلمتان متحـدتى المعنى والاشتقـاق وإلا فإذا كان المعنى مختلفا أو كان الاشتقـاق مختلفا ولكنـه أدى إلى تركيب

---

(٢٥) المـزهر ١/ ٢٦٨ والزحـاليف أو الزحـاليق آثار تـزلج الصبيان مـن أعلى إلى أسـفل، وفى اللـسان ١٠/ ٣٩٢: الحسيفـة والحسيكة: الغيظ والعداوة والعـلاقة متباعدة بين الفاء والكـاف، ولذا فهما من اللهجات، فالصوت الشديد للقبائل البدوية والرخو للحجازية.

(٢٦) لم يتنازل ابن جنى عن هذا الشرط بمعنى البعد البعـيد كالأمثلة المذكورة وإلا فإنه قال بإبدال السين من الشيـن فى مثل سده وشده وهمـا متباعدان مـخرجا، ويظهر أن ابـن جنى يلاحظ هذا التبـاعد بين السين والشين فيشك فى الإبدال بينهما، ولذلك لم يصرح فى باب السين بأنها تبدل من غيرها، وقال: ينبغى أن تكون السـين بدلا منها بأسلوب التضعـيف كما نرى، ولم يلتزم ذلك كثـير ممن رووا ألفاظ هذه الظاهـرة مـن القـدمـاء كأبى الـطيـب اللغـوى انظر كتـابه الإبدال جـ١ صـحائف ٢٠٥-٢٥٢ ومقدمة محققه ص١٠، ١١.

(٢٧) سر الصناعة ١/ ١٧٢.

(٢٨) المصـدر السابق ١٨٩، وذلك مـثل قولهم: اترد وهـو مترد وجاء عـكس ذلك بقلب التـاء ثاء: اثرد ومثرد واثأر واثَّنَى.

ونرى أن إبدالهما أمر مـستقيم لقرب مخرجيـهما إذ التاء من طرف اللسان مع أصول الـثنايا العليا والثاء من طرفه إلا أنه يحتك ويتصل بأطراف الثنايا العليا نفسها فالفرق طفيف جدا والحرفان يتفقان فى صفـات كثيرة وهى الهـمس والاستفال والانفـتاح والإصمات، والثـاء حرف يحتاج إلى مـجهود عضلى فى نطقه مما دعا إلى تسهيله والنطق بالتاء سهل سريع مما جعله يتناسب مع أهل البادية الذين يميلون إلى الأصوات الشديـدة، على حين يميل الحضر إلى الأصوات الرخوة (فى الـلهجات العربية د٠ أنيس ص١٠٠-١٠٧) وربمـا وقع التصحيف بينهمـا مثل فى لسـانه رتة، والصواب بالـتاء ولث السويق والصواب بالتاء، ويـحيى بن أكثم وهى بالثاء، (تثقيف اللسـان ٤٨ - ٥٣ باب التصحيف إلى ص٧٣).

اشتبه فيه ظاهر اللفظين فلا يعتبر هذا من الإبدال كما صرح ابن جنى فى مواضع كثيرة، فمن الأول ما ذكره عن كلمتى (ثوم وفوم) قال: «وذهب بعض أهل التفسير فى قوله عز اسمه (وفومها) إلى أنه أراد الثوم، فالفاء على هذا بدل عنده من الثاء، والصواب عندنا أن الفوم الحنطة وما يختبز من الحبوب، يقال فومت الخبز أى خبزته وليست الفاء على هذا بدلا من الثاء»[٢٩]، ومن الثانى ما ذكره عن كلمتى (حثحثواوحثثوا) فى التعليق على قول الشاعر:

كأنما حثحثوا حصا قوادمه ... أو أم خشف بذى شث وطباق

قال: «فأما الحاء فبعيدة من الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها وينقل عن أبى على أستاذه قوله: وإنما حثحث أصل رباعى وحثث أصل ثلاثى وليس واحد منهما من لفظ صاحبه إلا أن حثحث من مضاعف الأربعة وحثث من مضاعف الثلاثة فلما تضارعا بالتضعيف الذى فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما، ثم يقول: وهذا هو حقيقة مذهبنا - وإذا قامت الدلالة على أن حثحث ليس من لفظ حثث فالقول فى هذا وفى جميع ما جاء منه واحد وذلك نحو تململ وتملل ورقوق ورقق وصرصر وصرر[٣٠].

موقف العلماء من هذا الرأى

ونحن إذا استعرضنا آراء العلماء من قدامى ومحدثين فى حل هذه المشكلة اللغوية فإننا نجد من سار على درب ابن جنى، كما نجد فى الوقت نفسه من خالفه وربما كانت الموافقة له أو المخالفة فى جانب من الموضوع، وهذا يقتضينا أن نناقش أهم هذه الآراء لنقف على مدى الموافقة أو المخالفة، فقد وافق ابن جنى فى رأيه السابق بجوانبه المختلفة ابن سيدة وابن يعيش[٣١] وإن كان يبدو لنا من حديث ابن سيدة عن الإبدال نوع من عدم

---

(٢٩) المصدر السابق ١/ ٢٥٢، ولا مانع - كما ذكرنا - من وقوع التبادل بين الثاء والفاء للتقارب فى المخارج والاتفاق فى بعض الصفات، ولكن اختلاف معنى اللفظين يؤكد عدم الإبدال كما ذهب إليه ابن جنى، ووجد فى معاجم اللغة ففيها: الفوم: الزرع أو الحنطة وأزد السراة يسمون السنبل فوما وقال بعضهم: الفوم الحمص لغة شامية والفوم الخبز أيضا، يقال: فوموا لنا أى اختبزوا. وينقل ابن منظور عن الفراء أن الفوم لغة قديمة وهى الحنطة والخبز معا. (اللسان ١٥/ ٣٥٧).

(٣٠) المصدر السابق ١/ ١٩٧، ١٩٨، واضح أن ابن جنى لم يقل بالإبدال لبعد المخارج وإن اتفقت الثاء والحاء فى الصفات، وهى الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات، ونحن مع ابن جنى فيما ذهب إليه إذ لابد أن تكون المخارج متقاربة للحكم بالإبدال، ولابد كذلك أن تكون الكلمتان متحدتين معنى واشتقاقا.

(٣١) اللهجات العربية د. نجا ص ٥٦ وفقه اللغة العربية ٤/ ٢٧.

الدقة، ومما يؤيد وجهة نظر ابن جنى قول ابن سيدة: وأذكر الآن شيئا من المعاقبة وأرى كيف تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير علة (عند القبيلة الواحدة من العرب) وإما لافتراق القبيلتين فى لغتين، فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلة فلا حاجة إلى ذكره فى هذا الكتاب؛ لأنه قانون من قوانين التصريف[٣٢]. ويشترط ابن سيدة توافر التقارب بين الحروف حتى يصح الإبدال فهو يقول: «فأما مالم يتقارب مخرجا ألبتة فقيل على حرفين غير متقاربين فلا يسمى بدلا»[٣٣].

وابن سيده كابن جنى يرى أنه لابد من اتحاد المعنى فى اللفظين حتى يمكن عدهما من باب الإبدال ولابد أن يكون المعنى حقيقيا لا تجوز فيه، فبعض العرب يقول جمس الودك وجمد الماء، ولا يقال جمس الماء ولا جمد الودك، وكان الأصمعى يخطئ **ذا الرمة** فى قوله:

ونقرى سديف الشحم والماء جامس[٣٤]

وعلى هذا فإذا قال بعضهم جمس الودك وجمد فليس هذا بدلا إذ مع تباعد مخرج السين والدال فى اللفظين لا يمكن الجمع بين معنييهما إلا على ضرب من المجاز[٣٥]، وفكرة الأصالة والفرعية غير واضحة عنده، ولهذا رأيناه يعقد فى الفصل الواحد أبوابا مختلفة فمنه البدل، ومنه ما يجرى مجرى البدل، وباب الحرف الذى يضارع به حرف من موضعه، والحرف الذى يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه، وباب ما يجىء مقولا بحرفين وليس بدلا، وباب المحول من المضاعف[٣٦]. وابن يعيش ينقل فى شرح المفصل كلام ابن جنى وأمثلته وينبه على تقارب المخارج والصفات بين المتبادلين ويحكم بالأصالة والفرعية تبعا لكثرة التصرف والاستعمال حسب ما عرفناه عن ابن جنى[٣٧]، ومن ذلك ما قاله فى إبدال الطاء من التاء فى نحو اصطبر وفحصت برجلى قال: فأبدلوا من التاء

---

(٣٢) المخصص ١٤/ ١٩.		(٣٣) المصدر السابق ١٣/ ٢٧٤.

(٣٤) السديف: السنام المقطع وقيل شحمه. الودك: الدسم وجمس وجمد بمعنى واحد، وقيل الجموس للودك والجمود للماء، والجامس من النبات ما ذهبت غضوضته ورطوبته فولى وجسا. اللسان ٧/ ٣٤١، ٣٤٢، ١١/ ٤٧، ٤٨، ١٢/ ٤٠٠، ٤٠١.

(٣٥) المخصص ١٣/ ٢٨٧.

(٣٦) المصدر السابق ١٣/ ٢٦٧-٢٩٠.

(٣٧) انظر شرح المفصل ١٠/ ٧ وما بعدها.

طاء لأنهما من مخرج واحد(٣٨) وقال عن إبدال الهاء من الهمزة أنهم «أبدلوها منها إبدالا صالحا على سبيل التخفيف، إذ الهمزة حرف شديد مستفل والهاء حرف مهموس خفيف، فمخرجاهما متقاربان إلا أن الهمزة أدخل منها فى الحلق، قالوا هرقت الماء أى أرقته... إلخ»(٣٩) وقال: «قالوا مازلت راتما على هذا الأمر أى راتبا، حكى ذلك عن أبى عمرو بن العلاء، فالميم بدل من الباء لكثرة الباء وتصرفها، ألا تراك تقول رتب يرتب فهو راتب أى ثابت، ولا تقول رتم يرتم فى هذا المعنى، فكانت الباء هى الأصل وقالوا: رأيته من كثم وكثب أى من قرب حكى ذلك يعقوب فالباء ينبغى أن تكون أصلا والميم بدلا منها لعموم تصرف الكثب وأنه يقال قد أكثب لك الأمر ورماه من كثب أى من قرب»(٤٠).

وكثير من المحدثين لم يزيدوا على ما قاله ابن جنى شيئا وإن اختلفوا معه عرضا وأسلوبا فيرى بعضهم - كما يرى ابن جنى - تقسيم الألفاظ التى تحمل اسم هذه الظاهرة قسمين:

١ - فبعضها من الإبدال: إذا كانت هناك علاقة صوتية.

---

(٣٨) المصدر السابق ٤٦، ٤٧. للتاء والطاء والدال علاقة صوتية تسوغ التبادل بينها فالمخرج واحد وقد يقتضى تجاور التاء مع حروف الإطباق إبدال التاء طاء لمناسبتها فى الاستعلاء والإطباق مع أنها أخت التاء فى المخرج وفحصط - بالطاء - تنسب إلى تميم الذين يفضلون الصوت المستعلى المطبق، فى حين تنسب التاء إلى الحجازيين الذين يفضلون الصوت المستفل المهموس.

(٣٩) المصدر السابق ٤٢، لا مانع من حدوث التبادل بين الهمزة والهاء لتدانى المخارج فهما من حروف الحلق ويتفقان فى صفات الاستفال والانفتاح والإصمات، ويمكن أن تكون بعض العرب نطقت بإحداهما، والآخرون بالثانية ونسبت بعض الكلمات بالهاء إلى طيىء (اللهجات العربية ٦٥، ٦٦).

(٤٠) المصدر السابق ١٠، ٣٥، وانظر سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ٨١، فقد نقل كلام ابن جنى مع تغيير قليل، والرأى الذى قاله ابن يعيش هو رأى ابن جنى وهو إجازة الإبدال بين الباء والميم، والباء هى الأصل لكثرة تصرفها فى المثالين، وأجاز ابن جنى كون كل منهما أصلا مستقلا عن الآخر قال: (ويحتمل الميم فى هذا عندى أن يكون أصلا غير بدل) لتصرفات أخرى ذكرها هناك، والباحث فى المعاجم يرى لكل من (رتب ورتم) معانى خاصة بها مع اتفاقهما فى الدلالة على معنى الإقامة والثبوت حقيقة أو مجازا، وكذلك (أكثب وأكثم) تشتركان فى معنى القرب الذى يجمع بينهما، وليست الباء أكثر تصرفا من الميم كما ذكر ابن جنى، وعلى هذا يجوز أن تكون كل من الباء والميم بدلا من الأخرى أو أن كلا منهما مستقل عن الآخر خاص بقوم دون قوم لاختلاف مادة الاشتقاق.

٢- وبعضها من غيره إذا لم توجد هذه العلاقة «وأغلب الظن حينئذ أن الصورتين تنتميان إلى منبعين مختلفين، وأن كلا منهما أصيل فى ذاته، وليس مثل هذه الكلمات إلا مثل كل المترادفات»[٤١].

يقول الدكتور أنيس: «حين نستعرض تلك الكلمات التى فسرت على أنها من الإبدال حينا أو من تباين اللهجات حينا آخر لا نشك لحظة فى أنها جميعا نتيجة التطور الصوتى، أى أن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروى لها المعاجم صورتين أو نطقين ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يجاوز حرفا من حروفها نستطيع أن نفسرها على أن إحدى الصورتين هى الأصل والأخرى فرع لها أو تطور عنها، غير أنه فى كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه»[٤١] والعلاقة الصوتية التى أرادها الدكتور أنيس هى القرب فى المخرج أو الصفة إذ إنه «شرط أساسى فى كل تطور صوتى»[٤٢]، ويقول الدكتور الصالح عقب نقله رأى الدكتور أنيس السابق: «ورأى المحدثين - على جراءته - أسلم اتجاها وأصح نتيجة من رأى تلك الطائفة من المتقدمين الذين ذهبوا إلى إكثار العرب من الإبدال كأنه سنة أو عادة، وكأن النطقين المختلفين عندهم متساويان يوضع أحدهما مكان الآخر، وكأنهم يعتمدون هذا الإبدال إعجابا به وتفننا فيه»[٤٣]، ولكن الدكتور الصالح يعتمد فى العلاقة الصوتية المخرج لا الصفة فهو يقول: «فقد لوحظ فيها الأمر الأهم وهو اتفاق المخرج، أما اختلاف الصفة فليس بذى بال لأن المعول فى معرفة نوع الصوت ودرجة إيقاعه على العضو الذى خرج منه من بين أعضاء جهاز النطق وليس على الطريقة أو الكيفية التى تم بها انطلاق هذا الصوت، فالدال والتاء حرفان نطعيان كلاهما يخرج من سقف غار الحنك الأعلى المسمى بـ«النطع» فهما إذًا متجانسان، وعلى هذا المعول فلا ضير بعد هذا أن توصف الطاء بالإطباق والاستعلاء وهما صفتان قويتان على حين توصف الدال بالصفتين المضادتين الضعيفتين الانفتاح والاستفال[٤٤] وقد صرح الدكتور شاهين بأنه (لا يكون الإبدال إبدالا حقا إلا إذا كان بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية كقرب المخرج أو الاشتراك فى بعض الصفات الصوتية كالجهر والهمس والشدة والرخاوة)[٤٥].

وقد قسم الدكتور أنيس الكلمات التى توجد بينها علاقة صوتية أقساما ثلاثة:

١- كلمات روى كل منها بنطقين ونسب كل نطق إلى بيئة معينة: فمتى أمكن معرفة الأصل والفرع حكمنا بذلك وبحثنا عن سر التطور الصوتى[٤٦] وإن لم يمكن «نستعين

---

(٤١) من أسرار اللغة ط٣ ص٥٩.

(٤٢) المصدر السابق ط٣ ص٥٩.

(٤٣) دراسات فى فقه اللغة ٢٣٩.

(٤٤) الصدر السابق ٢٤٥.

(٤٥) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٧٣.

(٤٦) من أسرار اللغة ط٣ ص٦٥.

بالقوانين الصوتية وتطورها للحكم على أى الصورتين هو الأصل وأيهما هو الفرع ويكون حكمنا مرجحا لا مؤكدا»(٤٧).

٢- كلمات روى لكل منها نطقان ونسب أحد النطقين لبيئة معينة ولم ينسب النطق الآخر: نعتمد لمعرفة الأصل والفرع منها على كثرة التصرف والاستعمال وورود النص القديم مشتملا على الصورة الشائعة يؤكد لنا الأصالة بين النطقين، أما حين نفتقد النص فالأصالة عن طريق الشيوع مرجحة رجحانا كبيرا، ولا يصح الرجوع عن هذا إلا إذا أبت قوانين تطور الأصوات مثل هذا الاعتبار(٤٨).

٣- كلمات روت المعاجم لكل منها نطقين متساويين فى الفصاحة والشيوع ولا ينسب أحد النطقين لبيئة معينة: إذا أمكن معرفة الأصل من الفرع حكمنا بذلك وإلا اعتمد الكثير التصرف والاستعمال أصلا لصاحبه «فإذا ورد لأحد النطقين نص قديم اعتبرناه الأصل... أما حين يرد كل من النطقين فى نصوص قديمة فكثرة الشواهد الخاصة بأحد النطقين ترجح فى الغالب أصالته»(٤٩).

فالدكتور أنيس يضع لمعرفة الأصل والفرع - بعد تحقق العلاقة الصوتية - مقياسا له جانبان:

١- معرفة المتقدم فى وجوده على الآخر،فإذا وجد ما يدل على سبق أحدهما زمنا كان هو الأصل والثانى هو الفرع.

٢- إذا لم يعرف المتقدم من المتأخر فيحدد الأصل بكثرة شيوعه وتصرفه والفرع بضد ذلك.

وهذا لم يزد على رأى ابن جنى شيئا فقد جعل - مثله - معرفة الأصل من الفرع مرهونة بورود الدليل الذى يبين أسبقهما(٥٠) معتمدا على الشيوع وكثرة التصرف.

وقد تابعه أيضا فى اعتماد المقياس السابق الدكتور الصالح فهو يقول: «ومقياسنا فيما ورد بوجهين لتمييز الأصل من الفرع هو كثرة الشواهد المتعلقة بأحد الوجهين فما أكثر الأمثلة على كثب والأقطار واللثام وما أقلها فى كثم والأقتار واللفام»(٥١).

فهذا كله يؤكد أن الرأى الحديث لا يختلف عن القديم إلا أسلوبا فقط وهو يروى الحقيقة التالية:

اللفظان على الصورة المعروفة يكونان:

---

(٤٧) المصدر السابق ص٦١.
(٤٨) من أسرار اللغة ط ٣ ص٦٢.
(٤٩) المصدر السابق ٦٣.
(٥٠) اسر الصناعة ١/ ٢٢١.
(٥١) دراسات فى فقه اللغة ص ٢٧١.



١ - من الإبدال إذا وجد مسوغه وهو التقارب الصوتى، وهذا عند قبيلة واحدة أو عند العرب جميعا أو أحد اللفظين فى قبيلة والآخر فى غيرها.

٢ - من اختلاف اللهجات: إذا لم يتحقق هذا التقارب وشأنها شأن كل المترادفات على أن الحكم الفيصل - كما قرروا - لمعرفة الأصل من الفرع هو الشيوع وكثرة التصرف.

وأعتقد بعد هذا الإفصاح التام - أن ذلك هو رأى ابن جنى نفسه مع اختلاف طفيف.

وكأن الدكتور أنيسا قد أحس بذلك حين قال معبرا عن رأى ابن جنى: «وأخيرا تعرض ابن جنى فى الفصل الرابع إلى أن بعض الكلمات قد تختلف بنيتها وذلك بأن يستعمل أحد الحرفين المتقاربين مكان صاحبه ثم ضرب أمثلة لذلك مثل طبرزن وطبرزل ودهمج ودهنج وخامل وخامن وبنات مخر وبنات بخر، ومثل هذه الكلمات يمكن أن تنتمى إلى لهجات متعددة أو إلى لهجة واحدة ولكن فى جيلين مختلفين من أبنائها على أن ابن جنى لم يحدثنا فى هذا الفصل عن معنى تقارب الصوتين ووجه الشبه بينهما من الناحية الصوتية»(٥٢).

ونقد الدكتور أنيس لابن جنى بأنه لم يوضح معنى تقارب الصوتين فى الفصل الذى ذكره غير مسلم فقد أوضح أنه هو تقارب المخارج والصفات فى مواضع كثيرة ذكرت بعضها عند بيان رأيه وتفصيلاته(٥٣).

ويرى فريق آخر من العلماء قدامى ومحدثين أن ألفاظ هذه الظاهرة نشأت من اختلاف اللهجات.

وعلى رأس القدماء الذين قالوا بذلك أبو الطيب اللغوى، فقد قال: ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان فى لغتين، والمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا فى حرف واحد، قال: والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة وطورا غير مهموزة ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميما والهمزة المصدرة عينا كقولهم فى نحو أن عن لا تشترك العرب فى شىء من ذلك إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون(٥٤).

---

(٥٢) فى اللهجات العربية ط٢ ص ١٥٥.

(٥٣) انظر ص٨٩ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٥٤) المزهر ١/ ٢٢٢.

وقد أوضح لنا هذا الرأى أستاذنا الدكتور نجا فى كتابيه اللهجات العربية وفقه اللغة، وقال بعد عرضه لرأى أبى الطيب ومناصريه: وهذا الرأى يفهمنا أن الإبدال لا يكون إلا من قبائل متعددة(٥٥).

ويوافق أبا الطيب فى هذا الرأى من القدامى ابن السكيت وأبو محمد البطليوسى وابن خالويه وأبو على القالى: فقد نقل السيوطى عن هؤلاء ما يؤكد ميلهم إلى هذا الرأى وأخذهم به.

فنقل من كتاب ابن السكيت أمثلة من بينها ما اتضح فيها رأيه وهو أن الإبدال ينشأ من اختلاف اللهجات، يقول فى إبدال الهمزة من العين: والأسن قديد اللحم وبعضهم يقول العسن(٥٦) ويقول بعد ذلك بقليل: وذأى البقل يذأى بلغة أهل الحجاز ولغة نجد ذوى يذوى(٥٧) وكذلك قوله: الأثافى ولغة بنى تميم الأثاثى(٥٨) ونقل عنه السيوطى فى خاتمة هذا الباب (الإبدال) وقال ابن السكيت: حضرنى أعرابيان من بنى كلاب فقال

---

(٥٥) اللهجات العربية ص ٥٦ وفقه اللغة العربية ص٢٧.

(٥٦) المزهر ١/ ٢٢ وعبارة القاموس الأسن بقية الشحم، والواقع أن الإبدال يكون من الهمزة إلى العين كثيرا لأن العين أسهل من الهمزة، والإبدال عادة يتجه نحو السهولة لا العكس، وإن كانت الشعوب تختلف فى إحساسها بالثقيل والخفيف من الحروف، فالهمزة أخف فى النطق الإنجليزى من العين وعند العربى بالعكس، وربما أبدلت الهمزة من العين فى بعض اللهجات مثل يا أبد الله - فى عبد الله - فى لهجة مكة وهو قليل (سر الصناعة ١/ ١٢١).

(٥٧) المصدر السابق ١/ ٢٢٣، لا توجد علاقة صوتية تسوغ التبادل، والمسألة ترجع إلى اختلاف اللهجات بين الحجاز وتميم، وكان الأصل أن الهمز للتميميين وأحرف العلة للحجازيين وأشباه كل من البدو والحضر، ولكن النسبة هنا وردت بعكس ذلك، وهذا مما يوضح عدم الاطراد فى الظواهر اللغوية (انظر إبدال الهمزة من حروف العلة والعكس فى هذا الكتاب).

(٥٨) المصدر السابق ١/ ٢٢٤، الأثافى والأثاثى: الحجارة التى تنصب ويوضع عليها القدر، وقد رجح ابن جنى أن تكون الثاء بدلا من الفاء لكثرة تصرف الفاء ولو مع بعد الاشتقاق إذ ورد أثفية ولم يرد أثية، ولكن ذكرت المعاجم تصرفات للكلمتين فيمكن أن تكون أثافى من (ثفا يثفو) تبع أو من (أثف الرجل) تبعه أو من (أثف القدر) وتشترك معها (أثاثى) فى ذلك الاشتقاق، ويمكن أن تكون (أثاثى) من (أث يئث ويؤث) إذا كثر والتف وفى هذا المعنى ثبات الشىء فى موضعه ويقال: تأثث الرجل المكان إذا لم يبرحه، وبهذا تختلف المادتان معنى واشتقاقا فلا إبدال بين الكلمتين، وربما أفاد هذا أن كلا منهما لهجة لطائفة من العرب فالفاء للحجاز والثاء لتميم.

أحدهما أنفحة وقال الآخر منفحة ثم افترقا على أن يسألا جماعة أشياخ من بنى كلاب فاتفق جماعة على قول ذا وجماعة على قول ذا وهما لغتان(٥٩).

وأما أبو محمد البطليوسى فيقول فى شرح الفصيح: ليس الألف فى الأرقان ونحوه مبدلة من الياء ولكنهما لغتان، ومما يدل على أن هذه الأحرف لغات ما رواه اللحيانى قال: قلت لأعرابى، أتقول مثل حنك الغراب أو مثل حلكه، فقال: لا أقول مثل حلكه(٦٠)، وقال أبو بكر بن دريد قال أبو حاتم قلت لأم الهيثم: كيف تقولين أشد سوادا من ماذا؟ قالت من حلك الغراب، قلت: أفتقولينها من حنك الغراب قالت لا أقولها أبدا(٦٠) وقد ذكر ابن خالويه فى شرح الفصيح ما يقرب من هذا، قال: أخبرنا ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى قال: اختلف رجلان فى الصقر فقال أحدهما بالسين وقال الآخر بالصاد فتحاكما إلى أعرابى ثالث فقال أما أنا فأقول الزقر بالزاى، قال ابن خالويه: فدل على أنها ثلاث لغات(٦١). ويؤكد لنا رأى القالى قوله فى أماليه: يقال: هرت الثوب وهرده وهرطه ثلاث لغات(٦١).

وقد أيد هذا الرأى من المحدثين فريق من العلماء على رأسهم أستاذنا الدكتور إبراهيم نجا فهو يقول - بعد أن أفصح لنا عن آراء العلماء فى هذا الشأن وناقشها مناقشة علمية دقيقة: «فالحق أحق أن يتبع وهو أن الإبدال ينشأ من اختلاف اللغات كما ذهب إلى ذلك أبو الطيب اللغوى»(٦٢)، وممن ذهب إلى هذا الرأى من المحدثين الدكتور السامرائى يقول بعد أن عرض آراء العلماء فى الإبدال: وأريد أن أخلص من هذا العرض لأقوال الأقدمين والمحدثين فى هذه المشكلة إلى أن العربية قد اشتملت على لغات عدة هى لغات

---

(٥٩) المزهر ١/ ٢٢١ إذ لا علاقة بين الهمزة والميم فلا إبدال.

(٦٠) المصدر السابق ١/ ٢٢٩.

(٦١) المصدر السابق ١/ ٢٢٩، ولا مانع من التبادل بين الزاى والسين والصاد لاتحاد المخرج وهو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى وتشترك فيما بينها فى الرخاوة والصفير والإصمات، ويجوز إرجاع هذا التبادل إلى اختلاف اللهجات، وينسب اللغويون النطق بالزاى والصاد إلى القبائل البدوية كقبائل عذرة وكعب وبنى القين (البحر ١/ ٢٥) وأزد عمان وبنى العنبر، كما تنسب السين إلى الحجاز، وهذا لأن الأصوات المجهورة والمستعلية تناسب البدو والمهموسة والمستفلة تناسب الحضر.

وبين الدال والتاء والطاء علاقة صوتية تسوغ التبادل، ويمكن أن تعود إلى اللهجات على أن التاء للحضر والدال للبدو لمناسبة المهموس للحضر والمجهور للبدو والطاء تناسب البدو كذلك لاستعلائها وإطباقها.

(٦٢) اللهجات العربية ٥٨ وفقه اللغة العربية ٤/ ٣٠.

القبائل المختلفة، وطبيعى أن يحصل الخلاف بين هذه اللغات لاختلاف البيئة، وعلى هذا فإن كثيرا مما حمل على الإبدال داخل ضمن هذه اللغات،وعلى هذا فليس هناك إبدال بل هناك اختلاف بين المعربين، فالذى يقول (صراط) لا يقولها بالسين سراط والعكس حاصل أيضا(٦٣).

ويقول قبل ذلك بقليل: أريد أن أقول إن اللغة فطرة وبداهة، فالذى يقول مدحه لا يمكن أن ينسرح لسانه فيقول مدهه والعكس صحيح أيضا(٦٤)، وهذا يشرح رأيه بوضوح وهو أن الإبدال ينشأ من اختلاف اللهجات، ويعتبر هذه النظرة هى النظرة الصحيحة فيقول: وعلى هذا فلم نعدم أن نجد بين الأقدمين من نظر إلى هذه المشكلة النظر الصحيح فقد قال أبو الطيب اللغوى الحلبى: ليس المراد من الإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هى لغات مختلفة(٦٤) ... إلخ. ويضيف الدكتور السامرائى إلى رأيه العلاقة الصوتية فلابد من التقارب بين الحروف المختلفة فى لهجات الناطقين من قبائل متعددة وإن لم تكن على طريق الإبدال، فقد نقل قول ابن السيد البطليوسى - مع شرحه - «إن الحرف الأضعف يقلب إلى الأقوى ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف».

ثم عقب عليه بقوله: وما ذكره ابن السيد صحيح فى كون تقارب المخرج هو الذى يؤدى إلى هذه المعاقبة(٦٥).

ويرى هذا الرأى أيضا الدكتور على عبد الواحد وافى ويشترط أن يتقارب الصوتان فى المخرج أو يتحدا فى جميع الصفات ما عدا الإطباق مثل أسود حالك وحانك وخامل الذكر وخامن الذكر(٦٦)، ويذكر من أمثلة الاتفاق فى الصفات ما عدا الإطباق تناوب الصاد والسين بمثل ساطع وصاطع والسراط والصراط(٦٧)، ثم يقول: «ويرجع السبب فى كثير من ظواهر هذا التناوب إلى اختلاف القبائل فى النطق بأصوات الكلمة، فمادة كشط مثلا كانت تنطقها قريش بالكاف على حين أن أسدا وتميما كانت تنطقها بالقاف»(٦٨) وقد وافقه أستاذنا الدكتور العزازى فى كل ما ذهب إليه(٦٩) إلا أنه أفرد له بابا خاصا عنونه بالإبدال أو الاشتقاق الأكبر، ولعل ذلك جمع بين موقفين، وهناك غير هؤلاء كثير لا يتسع المقام للإشارة إلى أقوالهم(٧٠).

---

(٦٣) التطور اللغوى التاريخى ص ١١. (٦٤) المصدر السابق ص١٠٨.
(٦٥) المصدر السابق ص١١٣. (٦٦) فقه اللغة د. وافى ص١٧٨.
(٦٧) المصدر السابق ١٧٩. (٦٨) المصدر السابق ص١٧٩.
(٦٩) فقه اللغة للدكتور العزازى ١٨٩، ١٩٠. (٧٠) انظر مثلا فقه اللغة للمبارك ص٥٠ وغيره.

ويلاحظ أن هذا الرأى - على الرغم من أنه يجعل ألفاظ هذه الظاهرة من اختلاف اللهجات - لا ينسى أن التقارب بين الحروف ملحوظ فيها وهذا يشير إلى تطور صوتى وإن كان بين لهجات متعددة.

وبعد استعراضنا لكل هذه الآراء ومناقشتنا لها نحس أنه لابد لنا من نظرة واعية وعميقة ومن تحليل علمى دقيق نتتبع به الظواهر المختلفة والدواعى الكثيرة التى أحاطت وتحيط باللغة ونشأة مفرداتها والأحوال التى عاشت فيها ومرت بها فى مراحلها التاريخية المتعددة حتى نصل إلى الحقيقة ونستنتج القانون الذى ينظم حوادثها إن كان لها قانون مطرد، وهذا يعتبر المفتاح لعلم الاشتقاق الذى يكشف الصلة بين كلمات تباعدت أصولها(٧١).

أسباب الإبدال

هناك عوامل متعددة ساعدت على وجود هذه الظاهرة، وقد أشار العلماء إلى كثير منها وإن مال كل منهم إلى واحد أو أكثر، وسنحاول تتبع معظمها حتى نستطيع تفسير ما ورد من ألفاظ هذه الظاهرة فربما رجع اللفظان إلى واحد أو أكثر من تلك العوامل، ولا مانع من ذلك إذ هذه الأسباب غير متعارضة، والذى جعلنا - كغيرنا من الباحثين - نفكر فى هذا التفسير هو وجود بعض تلك الألفاظ فى لغتنا العربية غير منسوبة إلى قائليها بل تضطرب المراجع فى نسبتها فهى أحيانا من لسان قريش وأخرى من لسان تميم وثالثة من لسان غيرهم من قبائل العرب(٧٢).

وبعد عرضنا للأسباب وتحليلها تحليلا علميا نحاول تطبيقها على الكلمات التى يمكن تطبيقها عليها فى إطار دراستنا للهجات العربية.

أولا: اختلاف اللهجات:

المعروف أن العرب سكنوا الجزيرة العربية وتفرقوا فى أنحائها وبيئاتها الطبيعية والاجتماعية مختلفة بين بداوة وحضارة، ولذلك - بلا ريب - أثر كبير فى تعدد اللهجات، واللغة عادة اجتماعية وخروج الفرد عليها يلقى مقاومة من المجتمع تأخذه بعقاب(٧٣)، ومن هنا صرح العلماء «بأن الذى يقول مدحه لا يمكن أن ينسرح لسانه فيقول مدهه والعكس صحيح أيضا»(٧٤) وقد مر بنا من الروايات اللغوية ما يؤكد تمسك

(٧١) المصدر السابق ص٣٩.

(٧٢) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ص٤٠١. وانظر ما يقرب من هذا فى الأصوات اللغوية ص١٥١.

(٧٣) اللغة والمجتمع د. وافى ص٤٢٣. (٧٤) التطور اللغوى التاريخى ١٠٨.

الجماعات الإنسانية بالنطق المتعارف بينها كرواية أبى حاتم عن أم الهيثم من حلك الغراب أو حنكه فقالت لا أقول من حنكه أبدا(٧٥) وكذلك رواية أبى حاتم عن الأصمعى: اختلف رجلان فى الصقر... إلخ، واختلاف اللهجات فى الواقع يعد عاملا مهما فى تفسير هذه الظاهرة، فالقبائل البدوية مثلا تميل إلى الأصوات الشديدة فى نطقها وهو أمر طبيعى يلتئم مع ما عرف عن البدوى من غلظة وجفاء فى الطبع، وبهذا يتميز نطقهم بسلسلة من الأصوات القوية السريعة التى تطرق الآذان كأنما هى فرقعات متعددة فى حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام... فالباء والتاء والدال والكاف وغيرها من الأصوات الشديدة تستعمل فى أفواه المتحضرين على الترتيب فاء. سينا. زايا. شينا(٧٦) ويمكن - بناء على ذلك - تفسير عدد غير قليل من الألفاظ التى عدت من الإبدال، ولو أن اللغويين نسبوا كل لفظ إلى قائله لقلل ذلك من خطر تلك الظاهرة ووجودها.

ثانيا - التطور الصوتى:

يرجع كثير من علماء اللغة - ومنهم ابن جنى - قدرا كبير من أمثلة الإبدال إلى التغيرات الصوتية، وذلك لعلاقة بين الحروف المتبادلة فى المخارج أو الصفات وإن اختلفوا فى تحديد هذه العلاقة، فكلمات اللغة تتألف من أصوات ينسجم بعضها مع بعض، يقول الأستاذ فندريس: «فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها ببعض ارتباطا وثيقا فهى تكون نظاما متجانسا مغلقا تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات وهى ذات أهمية قصوى؛ لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة بل من نظام من الأصوات»(٧٧) وأن الانسجام والتآلف يقتضى بعض التبدلات الصوتية باختلاف الناطقين وبيئاتهم، وتبعا لنواح (طبيعية فسيولوجية ونفسية معا)(٧٨)، بل إن هذا الاختلاف فى النظام الصوتى «يتغير إن قليلا وإن كثيرا من سن إلى أخرى»(٧٩) وقد أكد لنا المحدثون أنه ليس بين أبناء اللغة الواحدة اثنان ينطقان نطقا متماثلا فى كل الصفات(٨٠) وهذا التطور يؤدى إلى وجود صيغ جديدة، وفى البيئة الواحدة قد تستعمل هذه الصيغ بجانب القديمة فى فترة معينة ثم بعدها تبقى الجديدة وحدها فى عالم الاستعمال وقد توجد

---

(٧٦) فى اللهجات العربية ط٣ ص١٠٠ ومن أمثلة ذلك عكوب الطير وعكوف الطير، والنات والناس والدغدغة والزغزغة. انظر المصدر السابق ص١٠١، ١٠٥، ١٨٦ وهذا مجرد فرض إمكان حصول ذلك.

(٧٧) اللغة ٦٢. (٧٨) المصدر السابق ص٩١.

(٧٩) المصدر السابق ص٦٦ واللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ٣٥، ٣٦.

(٨٠) الأصوات اللغوية ص١٧٠.

صيغتان فى بيئة واحدة إذا استعملت الأخرى غير الشائعة على طريق المحاكاة أو اتجاها إلى اللغة المثالية، أما فى البيئات المتعددة فلا مانع من وجود كل فى موضعه، ولهذا التطور الصوتى عوامل كثيرة ساعدت عليه نتحدث عنها بالتفصيل فيما يلى:

(أ) أعضاء النطق: إن جهاز أعضاء النطق هو الذى يختص بإخراج عدد لا يحصى من الأصوات(٨١)، وقد حاول بعض العلماء أن يعزو التبدلات الصوتية إلى هذا الجهاز من نواح متعددة وسنقف منها جميعا الموقف العلمى الصحيح.

١ - اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب: ينسب بعض العلماء التطور الصوتى إلى اختلاف أعضاء النطق فهى «تختلف فى تكوينها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب، والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف(٨٢)، وهذا يعنى أن لكل شعب جهازا مكونا على نمط خاص يجعله قادرا على إصدار الأصوات بطريقة معينة تختلف عن الشعوب الأخرى، ولكن هذه النظرية لم يثبتها علم التشريح بل لقد برهن معظم علماء التشريح على أن أعضاء النطق عند الإنسان تتحد فى جميع تفاصيلها من وجهة نظر علم التشريح وعجز بعض الشعوب عن نطق بعض الحروف ليس دليلا على اختلاف أعضاء النطق، فعجز الإنجليزى عن نطق العين أو الضاد أو القاف لا يعنى أن جهاز النطق عندهم قد خلق على طبيعة لا تمكنه من النطق بهذه الحروف بل إن العادات الصوتية التى نشأ عليها والبيئة الاجتماعية من حوله هى التى جعلته لا ينطق بها، فالجهاز الصوتى مستعد لإصدار جميع الأصوات بلا استثناء،كل ما هنالك أنه يحتاج إلى المران عليها، فلو أن طفلا إنجليزيا نشأ فى بيئة عربية لنطق بهذه الأصوات كاملة المخارج والصفات كما ينطقها العربى تماما «وقد ثبت بالتجربة أن مدرس (الفوناتيك) يستطيع أن يعلم تلاميذه أى صوت من الأصوات فى أى لغة من لغات العالم مع شىء من المران والشرح العلمى دون أن يصحب عضلات نطق التلاميذ أى تغير فى تكوينها التشريحى»(٨٣)، وعلى كل حال فلابد أن يكون هناك تأثير ما - وإن لم يوجد اختلاف واضح - لأننا قررنا أن النطق يختلف من إنسان لآخر، والطفل يختلف عن أبويه اللذين يقلدهما تقليدا ناقصا، كما يقول الدكتور المبارك، وقد وصف الأستاذ (فندريس) هذا التغير بأنه «خطير النتائج لأنه لا يبشر بشىء أقل من انقطاع التوازن فى النظام الصوتى(٨٤)، وإذا كان هذا فى بيئة واحدة وشعب واحد فلا ريب

---

(٨١) التجويد والأصوات ص٨. (٨٢) علم اللغة د٠ وافى ص٢٧٤.

(٨٣) الأصوات اللغوية ص ١٧٢. (٨٤) اللغة ص ٦٥.

أن الخلاف بين الشعوب يكون أكثر وضوحا تبعا لما يحيط بالفرد فيها من مؤثرات واستعداد لأعضاء الجهاز الصوتى.

٢- تطور أعضاء النطق: حاول بعض العلماء أن يطبق على الجهاز الصوتى نظرية النشوء والارتقاء، فلا بد أن يتطور كما يتطور كل ما فى الكون، ولذلك تأثيره فى الأصوات، وقد ذكرنا أن النظام الصوتى يتغير من سن إلى أخرى[٨٥] ويقول الدكتور وافى أن هذا أمر مقرر فسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين إن لم يكن فى تكوينها الطبيعى، فعلى الأقل فى استعداداتها، وذلك تبعه تطور فى أصوات الكلمات، وقد كشف ذلك جماعة من العلماء على رأسهم هرمان بول ورسلو الذى تجرى حقائقه بالوسائل القديمة وبوسيلة الأجهزة الحديثة[٨٦]، ولكن الدكتور المبارك ينقض ذلك بقوله: «إن ما ادعاه بعضهم من تطور الجهاز الصوتى تطورا مطردا مردود إذ لا برهان له عليه»[٨٧] ويبدو لنا أن التغير الذى يعترى كل ما فى الكون يشمل أعضاء النطق أيضا، وإن كان هذا التغير بنسبة ضئيلة غير ملحوظة إلا أنها تترك أثرا ما.

٣- عيوب أعضاء النطق: قد يولد الإنسان مصابا بعلة تمنع أعضاء الكلام عن تأدية وظيفتها، وقد يعرض للإنسان فى أثناء حياته مرض يتسبب فى إحداث عيب فى أعضاء النطق، وهذا يؤثر فى حديثه، والمعروف أن الرواة كانوا يتحرون جمع اللغة عن القبائل الفصيحة ولم يكن لهم اتجاه إلى النظر فى أعضاء النطق للتحقق من سلامتها، وكانوا يكتفون بالأخذ عن العربى الواحد كما قرر ابن جنى[٨٨] وربما كان هذا العربى الذى شهد له بالفصاحة مصابا بلكنة تسببت فى تغير بعض الأصوات وربما انتقلت الكلمة على هذا النحو إلى التراث اللغوى، فاللثغة اللسانية تتسبب - ولا ريب - فى إبدال بعض الحروف، فالراء تتحول عند الألثغ إلى غين أو همزة أو لام، فكلمة يا ربى قد تنطق يا غبى ويا أبى ويا لبى[٨٩]، وقد عزا الأستاذ جورجى زيدان إلى عيب أعضاء النطق معظم ما عرف من ألفاظ هذه الظاهرة وقال: «وهى فى الغالب نتيجة علة طبيعية فى أعضاء النطق»[٩٠] وجعل ذلك عاما فى جميع الأمم، ولكننا نرى فى هذا القول مبالغة وإن كنا نوافقه موافقة عامة على أن لهذه العلل أثرا ما قد يتسبب فى إبدال بعض الكلمات، على أن الأستاذ فندريس يقول إن التغير الذى يعتبره اللغوى هو التغير الذى يظهر فى كلام مجموعة من الأفراد، ثم

---

(٨٥) المصدر السابق ص ٦٦.

(٨٦) الفونيتيك التجريبى علم اللغة د٠ وافى ص ٢٧٠، ٢٧١ وفقه اللغة له ص ١٣٠.

(٨٧) فقه اللغة ص٤٠. (٨٨) الخصائص ٢/ ٢١.

(٨٩) ومن أنواع اللثغات الرتة والبأبأة والتمتمة والفأفأة. المزهر ١/ ٢٦٥ وتاريخ آداب العرب ١/ ١٥٤.

(٩٠) الفلسفة اللغوية ٣٩، ٤٠.

يقول: ولكن لابد من تفرقة بين التغيرات الفردية والتغيرات المشتركة بين جميع الأطفال فى نفس الجيل،فقد يحدث أن أحد الأطفال لا يستطيع النطق ببعض الأصوات نتيجة لاستعداد خبيث موروث، أى أن يكون عنده بعبارة أخرى نقص فى النطق، هذه الحالات من النقص الفردى فى غالب الأحيان لا تعنى غير الطبيب، وغاية ما يعنى العالم اللغوى من أمرها أنه قد يستدل بها على اتجاهات اللغة(٩١).

(ب) المكان والزمان: تؤثر الطبيعة التى تحيط بالإنسان فى سماته الخلقية وسائر تصرفاته ومنها اللغة إذ هى لون من التصرف، ولا ريب أن اللغة فى بلد زراعية تختلف فى اتجاهها عنها فى بلد صناعية أو صحراوية أو جبلية أو ساحلية، ويمكن أن نرى ذلك واضحا فى البيئة العربية إذ كان البدو يعيشون حياة لا تعرف الاستقرار على حين كانت طائفة منهم تسكن المدن التى تتصل بما يجاورها عن طريق التجارة والثقافة فاختلفت فى اتجاهها اللغوى على ما نرى فى اختلاف لهجات البدو والحضر فى الجهد العضلى والأناة والسرعة فى النطق والفروق النطقية بينهم مثبوتة فى كتب اللغة،كما أن انتقال اللغة من جيل إلى آخر يصاحبه شىء من التغير فى النظام الصوتى فالطفل منذ نشأته يحاول أن يقلد أباه أو يتعلم منه «وأغلب الظن أن استعدادات الطفل الموروثة تلعب دورها فى هذا التعلم ولكن يمكننا أن نقدر دون عناء العوارض التى يمكن أن تعرض لسلامة النطق فى كل جيل»(٩٢) وعلى مر الزمن يحدث تقليد الأبناء للآباء تبدلات فى الحروف مهما يبالغ السلف فى تلقينهم وتعليمهم،وهذا لا تسلم منه لغة فى العالم ولكن هناك عوامل أخرى قد تقلل من هذا التأثير كالكتابة والتلقين فى المدارس(٩٣).وقد حظيت اللغة العربية الفصحى بما لم تحظ به لغة على الإطلاق فقد بذل أهلها وعلماؤها جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها ووصف أصواتها وصفا دقيقا وكان ذلك اهتماما بالقرآن الكريم الذى نقل إلينا أصوات العربية حتى فيما قبل القرآن من آماد بعيدة(٩٤) أما اتجاه المحادثة الدارجة فقد سار على النمط العام التطورى، وبهذا ندرك أن البيئة الطبيعية ومرور الزمن يؤثران على الجماعة البشرية بما يحدث بعض التغيرات فى لغتها ومن بينها تبدلات تعترى الأصوات مما يسبب ظهور ألفاظ تحمل اسم ظاهرة الإبدال.

(جـ) الحياة الاجتماعية:

١ - العزلة والاختلاط الاجتماعى: تتأثر اللغة - كغيرها من وسائل الحياة - بلقاء الإنسان بالآخر وانعزاله عنه فإذا قدر لطائفة من البشر أن تعيش فى مكان لا صلة له

---

(٩١) اللغة ص ٦٩، ٧٠. (٩٢) اللغة ص ٦٤.

(٩٣) فقه اللغة للمبارك ص ٤٠. (٩٤) المصدر السابق ص ٤٩.

بالآخرين - لأن طبيعة البيئة الجغرافية كالجبال والآكام أو صعوبة المواصلات والبعد عن العمران أو غير ذلك قد عزلتهم عن غيرهم - فإن هذا يؤثر على سلوك هذه الطائفة ومنه الاتجاه اللغوى الذى يأخذ شكلا يخالف الاتجاهات الأخرى عند بقية الشعوب، وربما عزل فريق من أهل اللغة الواحدة عن بقية بنى جلدتهم فتحدث بعض اختلافات وتطورات صوتية بينهم وبين إخوانهم من أبناء لغتهم[94] وقد يكون لذلك أثر فى الإبدال.

كما أن الاختلاط بصوره التى تحدثنا عنها - فى لقاء أصحاب اللهجات - يؤثر فى اختلاف الأداء الصوتى وانقسام اللغة إلى لهجات وعن طريق هذا الاتصال بين الشعوب وأبناء اللغة الواحدة، «كانت الانقلابات السريعة فى تطور بعض اللغات لأن الشعب الذى يتخذ لغة جديدة يطبق عليها - أحيانا - عوائد النطق فى اللغة التى تركها[95] فيمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزى أو الألمانى[96] وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطاء بسبب التردد فى صيغة الكلمات[97] وهذا حدث للعربية فى تفرعها إلى لهجات وتأثرها باللغات التى اتصلت بها وبخاصة بعد الفتوحات الواسعة وأن التأثر الواقع من تلك اللغات واللهجات بعضه - ولا شك - صوتى، وأن الحروف التى تكون بين الحروف العربية لخير شاهد على ذلك[99].

٢- الثقافة والحضارة: هذا العامل له اتصال بسابقه إذ ينشأ عن قطيعة شعب لجيرانه ألا يعرف تطور الحياة ونوازعها الجديدة وثقافاتها المتعددة التى تنشأ بين الحين والآخر، كما أن اتصال الشعوب وتبادل الثقافات عن طريق المعاملات الودية أو الغزو يؤدى إلى رقى الشعوب وتقدمها وحضارتها، وهذا - بنوعيه - له أثر فى النواحى اللغوية وبعضه يتصل بالأصوات، وقد حدث ما يشبه ذلك للعربية الفصحى وقت نشأتها ونموها تأثرا بالثقافة والحضارة، ونجم عن ذلك بعض أمثلة الإبدال.

٣- الحالة النفسية: أن الجو النفسى للفرد والمجتمع تظهر بعض آثاره على النطق فقد يكون اللفظ رقيقا ضعيفا، وقد يكون قويا ذا جرس وبقدر سرور الإنسان أو حزنه واستقراره وعدمه تكون ألفاظه معبرة،فمن وضوح أو غموض ومن تفخيم أو ترقيق إلى غير ذلك من وسائل التعبير اللغوى ومظاهره، ويعزو بعض العلماء تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة أو العكس إلى الحالة النفسية التى يكون عليها الشعب «فالشعب حين يميل إلى الدعة والاستقرار تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدة إلى الرخاوة فإذا اعتز الشعب

---

(٩٤) المصدر السابق ص ٤٩. (٩٥) فى اللهجات العربية ط٢ ص١٨.

(٩٦) اللغة ٨١، ٨٢. (٩٧) المصدر السابق ص ٦٣. (٩٨) المصدر السابق ص٨١.

(٩٩) انظر كتاب سيبويه باب الإدغام وكتابنا «أصوات اللغة العربية».

بقوته وجبروته مال إلى العكس»[100] وكما يحدث ذلك للجماعة يحدث للأفراد فيختلف نطقهم عن ذويهم من أبناء لغتهم وهذا ذو أثر أيضا فى ظاهرة الإبدال.

٤- عوامل اجتماعية أخرى: وهى كثيرة قومية ودينية وعصبية وغيرها، وقد يتسبب ذلك أو بعضه فى إحياء صوت مهجور وإماتة صوت مولد أو هجر صوت قديم وتوليد آخر، وهذا يترك أثرا على ما يعيش من أصوات اللغة «فالرغبة فى العودة إلى الفصحى فى بلاد العربية فى العصر الحاضر هى التى عادت ببعض الحروف من الشكل الذى آلت إليه كالهمزة بدل القاف فى كثير من المدن العربية والثاء والذال والظاء فى لفظها العامى إلى نطقها القديم الفصيح[101] وقد كان القرآن الكريم عاملا دينيا دعا إلى الحفاظ على اللغة العربية وأصواتها بطابعها القديم - كما ذكرنا - وقد تعصبت القبائل العربية للهجاتها المتعددة، ونحن نعرف الصراع الطويل الذى حدث بينها حتى استطاعت القرشية التغلب عليها بعد أن أثرت فيها اللهجات الأخرى[102]، وكم تصارعت أيضا مع اللغات التى اتصلت بها بعد الفتوح الإسلامية، ولا شك أن هذا وغيره له آثار يتعلق بعضها بظاهرة الإبدال.

ثالثا : دواع لغوية:

هناك عوامل لغوية متعددة ذات أثر فى الإبدال نتحدث عن أهمها:

١- تفاعل الأصوات: هو تأثر الصوت اللغوى بما يجاوره قبله أو بعده من الحروف، وهذا يشمل ما يسمى بالمماثلة والمخالفة والتناوب بين الأصوات وهاك بيانها:

(أ) المماثلة: حروف الهجاء منها ما يأتلف ومنها ما يختلف، ولابد من تحقيق التآلف بين الحروف عند تركيب الكلام حتى يتحقق الانسجام الصوتى فتتمكن أعضاء النطق من التفوه به، فإذا تجاور حرفان متنافران غير أحدهما ليقترب من الآخر أو يتحد معه مخرجا أو صفة «وهذه ظاهرة شائعة فى كل اللغات بصفة عامة غير أن اللغات تختلف فى نسبة التأثر وفى نوعه»[103] وهذا التأثر واقع فى اللغة العربية قديمها وحديثها كما يقول أستاذنا الدكتور نجا[104] كانقلاب النون الساكنة ميما إذا وليها باء وتحول تاء الافتعال طاء مما أوله صوت مطبق كما فى عمبر وشمباء واصطبر واطلع واظطلم ونحو ذلك مما أدنى فيه الصوتان أحدهما من الآخر[105] «وهذا التأثر متفاوت الدرجة فقد لا يعدو أن يكون مجرد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس وأقصى ما يصل إليه الصوت فى

---

(١٠٠) الأصوات اللغوية ١٧٤.

(١٠١) فقه اللغة للمبارك ص٤١.

(١٠٢) اللهجات العربية د. نجا ص٥١، ٥٢.

(١٠٣) الأصوات اللغوية ١٢٦.

(١٠٤) التجويد والأصوات ٢٩.

(١٠٥) الخصائص ٢/ ١٤٠، ١٤٥، ٢٢٧-٢٣٠ وغيرها.

تأثره بمـا يجاوره أن يفنـى فى الصوت المـجاور فلا يتـرك له أثرا»[١٠٦]، وقد قسـم علماء اللغة المحدثون هـذا التأثر إلى رجعى وتقدمى وذلك حسب الصوت المتأثر بالآخر.

(ب) المخالفة: الأحوال اللغوية مختلفة فقد يكـون الصوتان مقبولين فى موضع غير مقـبولين فى مـوضع آخر لاعتـبارات خاصة، ومـن ذلك أن الحرفـين المتمـاثلين قد تـبقى صورتاهما فى الـلفظ إذا كان ذلك لا يحتاج إلى مجـهود عضلى كبير، وقد يـقلب أحدهما إلى حرف آخر إذا احتـاجا إلى هذا المجهود توفيرا للـجهد وتحقيقا للسـهولة، فالأول مثل قطع وعلم بتـشديد العين، والثانى مثـل أملى وتظنى، فالأول مقبـول لأن إدغام الحرف فى الحـرف أخف عـليـهم من إظهـار الحـرفـين ألا ترى أن الـلسـان ينبـو عنـهمـا معـا نبـوة واحدة[١٠٧]، والمثلان فى غير الإدغام ثقيلان لما فى النطق بهما من تحرك اللسان ورجوعه إلى مكانه الأول فـهو شبيـه بمشى المقيـد كلما تحرك خـطوة رجع أخرى[١٠٨] فلا إنـكار للتخفـيف بإبدال أحد المتمـاثلين ياء[١٠٩]، ولأن الصـوت مع نقيـضه أظهـر منه مع قـرينه ولصيقه ولذلك كانت الكتابة بالسواد فى السواد خفية وكذلك سائر الألوان[١٠٧]، وإذا كان ذلك فى المثلين فالثلاثة أولى، وهذا هو معنى المخالفة التى أوضحها المحدثون، وقد أشار إليها سيـبويه فى (باب ماشذ فأبدل مكان الـلام ياء لكراهية التضعيف ولـيس بمطرد) ومثل لها بقولهم تـسريت وتظنيت وتقصيت.. وأصلها تـسررت وتقصصت[١١٠] ونبه ابـن جنى أيضـا على استـثقالـهـم المثـليـن حـتـى قلبـوا أحـدهمـا فـى نحـو أمـيلت - وأصلـها أمللت - وقولهم لا وربيك لا أفعل يريدون لا وربك لا أفعل[١١١] ويـرى الدكتـور أنيـس أن هـذه الـظاهرة قـد شاعت فـى كثـير من الـلغات الـسامية وليـست إلا تطـورا تاريخـيا للأصوات[١١٢] ويذكـر أن كثيـرا من الكلـمات التى تـشتـمل على صـوتين متـماثلـين كل المـمـاثلة يتـغير فـيها أحـد الصوتين إلـى صوت لين طويـل - وهو الغالـب - أو إلـى أحد الأصوات الشبيـهة بأصوات اللـيـن فى بعض الأحيـان ولا سيـما اللام والنـون وهو يرى - كذلك - أن المخالفة «لا تكاد تتم إلا حين يتجاور صوتان متماثلان من أصوات الإطباق أو الأصوات الرخوة، على أن المخالفة قد تـكون فى النادر من الأحيان بين الأصوات الشديدة مـثل (إجّـار) التى روى فـيهـا (إنجـار)[١١٣] وكـذلك (إجّـاص) روى فـيـهـا - أيـضـا -

(١٠٦) الأصوات اللغوية ص١٣٠. (١٠٧) الخصائص ٢, ٢٢٧.

(١٠٨) فقه اللغة د. العزازى ١٦٦-١٧١. (١٠٩) الخصائص ٢/ ٢٣٢.

(١١٠) الكتاب ٢/ ٣٠١. (١١١) الخصائص ٢/ ٢٣١.

(١١٢) الأصوات اللغوية ١٥٢.

(١١٣) بمعنى سطح المنزل، وفى حديث الهجرة واستقبل الناس النبى ﷺ على الأناجير.

إنجاص[114] فالمخالفة تجرى بين الحروف التى تحتاج إلى جهد عضلى وفى غير ذلك يبقى المثلان دون تغيير كاللامين والنونين فلا تتناولهما عملية المخالفة إلا فى النادر من الأحيان[114].

(جـ) **التناوب بين الأصوات:** تبين من ملاحظة ظواهر التطور فى مختلف اللغات الإنسانية أن الأصوات المتحدة النوع القريبة المخرج تميل بطبعها إلى التناوب وحلول بعضها محل بعض فكل صوت عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت لين آخر، وكل صوت ساكن عرضة بطبعه لأن ينحرف إلى صوت ساكن متحد معه فى مخرجه أو قريب منه[115] ففى العربية تناوبت أصوات اللين القصيرة (الفتحة - الكسرة - الضمة) فمثل (يعوم - يسمع - يلطم - يضرب - محمد - تعبان) تغيرت حركاتها الفصحى بأخرى فى العامية المصرية وحدث كذلك تناسخ فى أصوات اللين الطويلة نفسها وبخاصة فى الألف اللينة إذا أميلت فى لغات بعض القبائل العربية القديمة (ومنها قريش) وتمال الآن فى لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى بعض اللهجات فى بلاد الشرقية والأصوات الساكنة كذلك، ففى عاميتنا حلت الدال فى (دبور) محل الزاى فى (زنبور) الفصحى، والسين فى (يسدأ) محل الصاد فى (يصدق) الفصحى وهكذا، ومثل ذلك حدث فى اللغات الأوربية[116].

٢- **الاشتقاق:** قد تتفق كلمتان فى ظاهر أمرهما فى جميع الحروف إلا حرفا واحدا وأصلهما - فى الحقيقة - مختلف لأخذ كل منهما من أصل معين، وقد ضرب ابن جنى لذلك أمثلة متعددة كما فى حثثوا وحثحثوا وآديته وأعديته، فإذا أدركنا أصول الألفاظ على هذا النحو أمكننا تفسير ألفاظ كثيرة ظن أنها من الإبدال.

٣- **تغير المعنى:** تتغير معانى الألفاظ من آن لآخر تبعا للأحوال التى تمر بها اللغة. ويتطور المعنى بإحدى الصور الثلاث التى لا رابع لها (توسيع المعنى - تضييقه - انتقاله)[117] «وينحرف الناس - عادة - باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر غير مألوف حين تعوزهم الحاجة فى التعبير وتتزاحم المعانى فى أذهانهم أو التجارب فى حياتهم ثم لا يسعفهم ما ادخروه من الألفاظ وما تعلموه من كلمات[118]. ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفا ويعد حينئذ من الحقيقة وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ فى حدود ضيقة ويكون للفظ دلالتان أو استعمالان - وكلاهما من الحقيقة - غير أن إحدى الدلالتين تكون أكثر شيوعا من الأخرى بل قد يصل الأمر إلى أن تصبح الدلالة القديمة من الندرة

---

(١١٤) المصدر السابق ص ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥. (١١٥) فقه اللغة للدكتور وافى ١٣٦.

(١١٦) علم اللغة د· وافى ص٢٩٠ - ٢٩٣. (١١٧) دور الكلمة فى اللغة ١٦٥.

(١١٨) دلالة الألفاظ د· أنيس ص ١٢٦ واللغة والمجتمع د· وافى ص ١٧، ١٨.

وقلة الاستعمال بحيث تستدعى الانتباه وتكاد تعد بمثابة المجاز حين تقارن بالدلالة الجديدة الشائعة المألوفة(١١٨)، وفى هذه اللغة الشاعرة توجد كلمات كثيرة بقى معناها الحقيقى مع شيوع معناها المجازى على الألسنة حتى ليقع اللبس فى أيهما السابق وأيهما اللاحق فى الاستعمال(١١٩)، فالعزة يوصف بها المكان المنيع والرجل المنيع، فالعزيز فى الحالين غير السهل المباح(١٢٠)، وكلمة رأس التى تطلق على رأس الإنسان ورأس الجبل ورأس النخلة ثم أخيرا رأس الحكمة(١٢١)، وهكذا نرى أن المعانى تتجدد وتتطور وبخاصة فى لغتنا المبنية على المجاز، وهذا التطور المعنوى قد يتسبب فى مساواة لفظ بآخر فيتفق معه فى المعنى، وقد يتصادف أن تتفق - حينئذ - الكلمتان فى جميع الحروف إلا حرفا واحدا، وقد يكون أحد المعنيين مجازا إلا أنه عرف واشتهر فكأنه حقيقة بكثرة الاستعمال على ما سبق، وقد يكون من ذلك ما جزم به ابن جنى من اختلاف المعنى بين كلمتى ثوم وفوم وإن الفاء ليست بدلا من الثاء لاختلاف المعنى وتؤيده المعاجم فيما ذهب إليه(١٢٢)، ولو أن اللغويين حاولوا الفصل بين المعانى وبيان حقيقها ومجازيها وصلة هذه المعانى بعضها ببعض لأدى ذلك إلى تفسير قدر كبير من الألفاظ التى تدخل فى ظاهرة الإبدال.

٤- التصحيف والتحريف: هذا العامل يرجع إلى عصر تدوين اللغة وكتابتها(١٢٣) فإن الحروف العربية تنقسم إلى مجموعات متشابهة والتصحيف خاص بنقط الحروف المتشابهة فى الشكل مثل (ب ت ث - ج ح خ - د ذ - ر ز - س ش - ص ض - ط ظ - ع غ - ف ق)(١٢٤) فإن صور تلك الحروف واحدة ولا يفرق بعضها عن بعض فى الكتابة الحديثة إلا النقط ومقدارها والتحريف خاص برسم الحروف المتشابهة وشكلها مثل (د ر - د ل - ذ ز - ز ن) فى الحروف المتقاربة الصورة و(ل ع - م ق) فى الحروف المتباعدة الصورة(١٢٥).

والتصحيف قسمان تصحيف الخط وتصحيف السمع، فالأول ينشأ عن اختلاط نقط الحروف المتشابهة - كما سبق - ومن صور الإبدال التى يمكن فيها ذلك «رجل صلب وصلت» والدبر والدثر والكرت والكرب ورغاث ورغاب وجاص وجاض والنافجة

---

(١١٨) دلالة الألفاظ د. أنيس ص ١٢٦ واللغة والمجتمع د. وافى ص ١٧، ١٨.

(١١٩) اللغة الشاعرة ص٣٩. (١٢٠) المصدر السابق ص ٤١.

(١٢١) فى اللهجات العربية ص١٩٣. (١٢٢) سر الصناعة ١/ ٢٥٢ والقاموس ٤/ ١٠١، ١٨٧.

(١٢٣) التصحيف والتحريف (للعسكرى) ص٩.

(١٢٤) المزهر ١/ ٢٥٥-٢٦٧ واللغة العربية كائن حى ص٥٧.

(١٢٥) تحقيق النصوص ونشرها ٥٠ - ٥٢.

والنافحة»، وقد وقع أصحاب المعاجم فى كثير من هذا اللون من التصحيف(١٢٦)، والثانى ينشأ من نطق الأحرف المتقاربة مخرجا أو صفة وهى - غالبا - لا تتشابه رسما عند إهمال نطقها مثل (ء هـ - ب م - ت ط - ث س ف - ج ش - د ض - ذ ز ظ - س ص - ق ك) ومن صور الإبدال التى يتوهم فيها ذلك اتمأل واتمهل ومن كثب ومن كثم والأقتار والأقطار والوطث والوطس واللثام واللفام والوقيذ والوقيظ(١٢٧) وقد وقع التصحيف والتحريف من علماء ورواة أفذاذ أمثال الخليل والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وأبى زيد وأبى عبيد وغيرهم كثير(١٢٨)، وصرح ابن جنى بوقوع التصحيف والتحريف فى بعض أمثلة الإبدال في فصل التحريف(١٢٩) ومن كلامه فيه «قالوا لا بل ولا بن وقالوا: قام زيد فم عمرو، وكقولك ثم عمرو، وهذا وإن كان بدلا فإنه ضرب من التحريف(١٣٠) واعترف المحدثون بأن بعض ما وقع فيه الإبدال من ذلك كالدكتور الصالح(١٣١) والأستاذ جورجى زيدان(١٣٢) والدكتور أنيس(١٣٢) فليس من التجنى إذاً أن نرجح أن بعض الكلمات التى قيل لنا أن بينها إبدالا لا تمت للإبدال بأية صلة بل هى وليدة التصحيف(١٣٣) والتحريف.

٥- صنع الألفاظ واختلاقها: لقد حدث هذا الخلق والابتداع فى اللغة ولا سيما تراثها الأدبى وعلى رأسه الشعر فقد كانت قبائل العرب ذات عصبيات كثيرة ومفاخر وأمجاد فحاولت كل منها أن تظهر بشرف ومجد أعظم من الأخرى، ولذلك اخترع بعضها القصائد ونسبتها إلى أجدادها الأوائل تحقيقا لما تهدف إليه، يقول ابن سلام: «لما راجعت العرب فى الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت بالجهاد والغزو واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواية بعد فزادوا فى الأشعار التى قيلت وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم

(١٢٦) مما يمثل ظاهرة الإبدال فى المعاجم ويحتمل فيه التصحيف ما ورد فى باب الهمزة من القاموس مثل (جفأه وحفأه: صرعه، وخفأه: اقتلعه فضرب به الأرض، وجلأ بالرجل: صرعه وبثوبه : رماه، وحلأه بالأرض: صرعه وبالسيف: ضربه، وسأسأ وشأشأ: دعا الحمار ليشرب،ورأرأت الظباء: بصبصت بأذنابها، زأزأ والظليم: مشى مسرعا رافعا رأسه وذنبه إلخ.

(١٢٧) انظر المخصص باب البدل ١٣/ ٢٦٧ وما بعدها.

(١٢٨) المزهر ٢/ ١٨١ وما بعدها.

(١٢٩) الخصائص ٢/ ٤٣٦.

(١٣٠) المصدر السابق ٢/ ٤٤٠.

(١٣١) دراسات فى فقه اللغة ٢٦٨-٢٧١.

(١٣٢) اللغة العربية كائن حى ٥٦، ٥٧.

(١٣٣) من أسرار اللغة ٥٣- ٧٠.

فيشكل ذلك بعض الإشكال[١٣٤] ويفهم من نص ابن سلام السابق أن الرواة زادوا فى الآثار الأدبية واتهم بذلك خلف الأحمر وحماد الراوية[١٣٥] ولا ريب أن اللغة بألفاظها تعتمد على التراث الأدبى وبخاصة الشعر الذى كان يحتل الصدارة فى البيئة العربية ويسرى على الألسنة فى جميع الأصقاع فتنتشر لذلك الألفاظ ولو كانت فى أبيات مصنوعة، وقد قال الخليل «إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت»[١٣٦] وقد أورد السيوطى أمثلة كثيرة لكلمات مصنوعة فى أبواب متعددة من مزهره[١٣٧] ومن ذلك عنشج: ثقيل وخم وضهيد: الرجل الصلب والألظ: نبت[١٣٨] وغير ذلك كثير.

وقد ذكر الأستاذ السامرائى أن السعة التى أضيفت للمعجم العربى بطريقة الإبدال قد توسع فيها وربما دخلها شيء من التجوز والتوسع والكذب وذلك أنك تجد الكثير مما عرض له الإبدال كما نص عليه الأقدمون يفتقر إلى الشاهد الصحيح وضرب لذلك أمثلة - من المعاجم - منها بعير مبلند، ومكلند: إذا كان شديدا وقد ابلندى يبلندى ابلندادا واكلندى يكلندى اكلنداء إذا اشتد[١٣٩] ثم قال: وما أظن أن العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة[١٤٠] ويبدو لنا أن هذا حكم مطلق يجب تخصيصه بما روى عمن ليس من أهل الضبط والإتقان[١٤١] وبعد هذا نقول:لا يبعد أن تكون بعض الألفاظ المخترعة قد أضيفت إلى اللغة وكان لها أثرها فى ظاهرة الإبدال.

وهذه الأسباب التى عرضناها تعد أساسا صحيحا لتفسير ظاهرة الإبدال وبيان صلتها باللهجات العربية نشأة وظهورا وسنحاول تطبيقها على بعض ألفاظ هذه الظاهرة.

ويتسع الإبدال ليشمل مظاهر كثيرة لاختلاف اللهجات فبعض القبائل تفضل حرفا معينا، فى حين أن قبائل أخرى تفضل حرفا آخر.

وبعض القبائل تفضل حركة معينة فى حين أن غيرها يفضل حركة أخرى.

ولذا سنتكلم عن أهم مظاهر هذين النوعين فيما له مصطلح لهجى أو لغوى وما ليس له ذلك ونفسر قدرا صالحا مما ورد فى كتب اللغة من أمثلة لهما نراها جديرة بالدرس والبحث، ونحللها تحليلا علميا مبنيا على ما صح من المقاييس التى وضعها القدامى والمحدثون من علماء اللغة ونبين بالحجة والدليل الرأى الجدير بالاتباع.

---

(١٣٤) طبقات فحول الشعراء ٣٩-٤١ والمزهر ١/ ٨٦، ٨٧ ويقول ابن سلام أيضا: وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه. الطبقات ٥، ٦ والمزهر ١/ ٨٥.

(١٣٥) طبقات فحول الشعراء ٣٩-٤١. (١٣٦) العين ١/ ٥٩ والمزهر ١/ ٨٥.

(١٣٧) انظر مثلا ١/ ٥٢-٥٦، ٦٣، ٦٧ ,٨٥-٩١، ١٠٦ - ١١١، ١٢٠-١٢٤.

(١٣٨) المزهر ١/ ٦٣-٦٧، ١٢٠-١٢٤. (١٣٩) لسان العرب ٤/ ٦٥، ٣٨٥.

(١٤٠) التطور اللغوى التاريخى ١١٥.

أولا: الإبدال فى الحروف

(أ) ماله مصطلح لهجى أو لغوى

وقع الإبدال فى بعض الحروف عند القبائل المختلفة، وبعضه وضع له اللغويون مصطلحا لهجيا، أو مصطلحا لغويا.

وقد وصفت بعض هذه الظواهر الإبدالية بأنها من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ، وذلك بعد أن هذبت اللغة، وأطلقت العرب على النطق الحر والأسلوب المصفى[1].

ومن ذلك: الكشكشة والكسكسة والفحفحة والعنعنة والاستنطاء ونحو ذلك مما ذكره ابن فارس تحت عنوان (باب اللغات المذمومة)[2] وذكره السيوطى - نقلا عنه - تحت عنوان: (معرفة الردىء والمذموم من اللغات)[3].

الكشكشة

يجعل بعض العرب بعد كاف الخطاب فى المؤنث شينا فيقولون فى: رأيتك: رأيتكش، وفى بك: بكش، وفى عليك: عليكش[4] وهؤلاء الناطقون - كذلك - طوائف، فمنهم من يثبت الشين حالة الوقف فقط حرصا على البيان فإذا وصلوا حذفوا وهو الأشهر، ومنهم من يثبتها فى الوصل أيضا، ومنهم من يجعل الشين مكان الكاف، ويكسرها فى الوصل ويسكنها فى الوقف فيقولون فى مررت بك اليوم: مررت بكش اليوم، وفى مررت بك فى الوقف: مررت بش، قال الشاعر:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ... ولكن عظم الساق منش دقيق

وأنشد ابن الأعرابى:

علىَّ فيما أبتغى أبغيش ... بيضاء ترضينى ولا ترضيش

وتطبى ود بنى أبيش ... إذا دنوت جعلت تنبيش

(١) تاريخ آداب العرب ١/ ١٤٠. (٢) الصاحبى: ٣٥.
(٣) المزهر: ١/ ٢٢١. (٤) الجمهرة ١/ ١٥٣.

وأن نأيت جعلت تدنيش وإن تكلمت حنت فى فيش

حتى تنقى كنقيق الديش

وجاء قلب الكاف شينا فى غير كاف الضمير(٥) فى (الديك) لضرورة القافية قال ابن جنى بعد ذكره الأبيات: فشبه كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث(٦).

وقال الراجز:

أى غلام لش علود العنق ليس بكياس ولا جد همق

لش: لك، وهى لغة لبعض العرب(٧).

وعليها قرأ بعضهم ﴿قد جعل ربش تحتش سريا﴾(٨).

وتنسب الكشكشة لأسد وهوازن، وقال ابن فارس: هى فى أسد، ونسبها بعضهم إلى تميم وبعضهم إلى ربيعة ومضر(٩).

ويعد سيبويه من أوائل من ذكر هذه اللهجة، يقول:واعلم أن ناسا من العرب يلحقون الشين ليبينوا بها الكسرة فى الوقف، وذلك قولهم: أعطيتكش وأكرمتكش، فإذا وصلوا تركوها، وإنما يلحقون الشين فى التأنيث، لأنهم جعلوا تركها لبيان التذكير(١٠).

وإضافة الشين عند الوقف على المؤنث، لأن الكسرة تخفى عند الوقف فأرادوا بيانها بإبدالها شينا أو بزيادة شين بعد الكاف.

ويروى سيبويه - كذلك - قلب الكاف شينا فى الوصل مثل: أنش ذاهبة ومالش ذاهبة، يريد: أنك وما لك(١١) وقد نسبها إلى تميم وناس من أسد(١١).

وإلحاق الشين بعد الكاف أو إبدالها منها لتوافقها فى كثير من الصفات كالهمس والاستفال والانفتاح والإصمات مع تقارب المخارج، فالكاف من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى والشين من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى(١٢).

---

(٥) مجالس ثعلب ١/ ١١٦. (٦) سر الصناعة ١/ ٢١٧.

(٧) التهذيب ٢/ ٢١٦. (٨) مريم ٢٣.

(٩) الكامل ١/ ٣٧١ قال المبرد: إنهم التميميون الذين منهم عمرو بن تميم، والصاحبى ٢٤، والأساس ٨٢٢، والمحكم ٦/ ٣٩٧، ٣٩٨، وشرح المفصل ٩/ ٤٨، والمزهر ١/ ٢٢١ وانظر: سر صناعة الإعراب ١/ ٢١٦، ٢٣٥ وفقه اللغة للثعالبى ١٢٩.

(١٠) الكتاب ٤/ ١٩٩، ٢٠٠.

(١١) الكتاب ٤/ ١٩١ وانظر مجالس ثعلب ١/ ١١٧ وسر الصناعة ١/ ٢١٤.

(١٢) انظر كتابنا: أصوات اللغة العربية.

وبعض المحدثين يرى أنه لابد فى الكشكشة أو الكسكسة أن تحل الشين أو السين محل الكاف ليمكن أن تعد هذه الظاهرة من ظواهر اللهجات، إذ ليس هناك ما يسوغ أن تتصل الكاف بصوت آخر فى حالة الوقف، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحل صوت محل آخر (١٣).

ونرى أنه لا يتحتم ذلك مطلقا، إذ بعض اللهجات تزيد حرفا وبعضها تنقص، ولا شىء فى ذلك.

الكسكسة

يجعلون بعد الكاف أو مكانها فى خطاب المؤنث سينا كالكشكشة فيقولون أعطيتكس وأكرمتكس وأبوس وأمس فى (أعطيتك وأكرمتك وأبوك وأمك) وورد عن معاوية حين سئل: من أفصح الناس؟ قال: قوم تياسروا عن كسكسة بكر أى إبدالهم السين من كاف الخطاب حين يقولون: أبوس وأمس يريدون: أبوك وأمك وبعضهم يزيد السين بعد الكاف فى الوقف مثل: مررت بكس أى بك (١٤) والكسكسة لبكر وأسد وربيعة ومضر (١٥) ومنع الحريرى نسبتها إلى ربيعة ومضر (١٦)، وصاحب القاموس يذكر أنها لتميم (١٧)، وقيل نسبت لهوازن (١٨) ونرى أنها تنسب لهؤلاء جميعا.

ويحاول بعض المحدثين أن يفسر الكشكشة والكسكسة على أنها صوت مركب (ch) ثم قلبت الشين سينا فى الكسكسة يقول: فالأصل فى هذه الظاهرة أن تكون الكاف للمؤنث حتى تجتذب الكسرة الكاف إلى الأمام، فتقلب إلى نظائرها من أصول الثنايا فتصير (ch) أى شجرية، وبعد ذلك صارت (تس) وقلب الشين سينا مطرد فى اللغات

---

(١٣) فى اللهجات العربية د. أنيس: ١٢٢. (١٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ١٧٤.

(١٥) الكامل ١/ ٣٧١ وقد نسبها المبرد فيما يختص بقلب كاف الخطاب للمؤنث سينا إلى بعض بكر، ومثله فى فقه اللغة للثعالبى ١٢٩، وسر الصناعة ١/ ٢١٤، والصاحبى ٢٤، فيما يختص بزيادة سين بعد كاف المؤنث فى الوقف، والمفصل ٧/ ٩، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٣٨١، وفى التهذيب: الكسكسة لغة من لغات العرب تقارب الكشكشة ٩/ ٤٣٠.

(١٦) درة الغواص فى أوهام الخواص: ٣٥.

(١٧) ٢/ ٦٢٥، وانظر الاقتراح للسيوطى ٨٣، والمزهر ١/ ٢٢١.

(١٨) الخصائص ١/ ١٢ ومجالس ثعلب ١/ ٨١.

السامية، فضمير الغائب «شون» فى الأكادية و«سون» فى بعض اللغات العربية الجنوبية[١٩].

وادعى بعضهم أن قلب الكاف سينا أو شينا أو صوتا مركبا (تس - تش) يتمشى مع قانون الأصوات الحنكية الذى يقرر أن الأصوات تنتقل من أقصى الحنك (الطبق) إلى الشفتين، فالكاف على هذا التفسير تصير سينا[٢٠].

ونرى أن هذا غير صحيح، لأننا لم نسمع به مطلقا على طريقة النطق والكتابة، ولم يرد فى كتب القدماء، وإن شاع ذلك فى بعض النطق الحديث بالجزيرة العربية[٢١] ولا يفسر القديم بالحديث للخلل الواقع فى النطق الحديث بما أبعده عن الفصيح، ولا يحتج به فقد تغير نطق بعض الأصوات وشوه تشويها خطيرا، فقد تحول - مثلا - فى نطق أهل الرياض - صوت الكاف - أول الكلمة إلى (تس) مثل: كيف حالك (تسيف حالك) وفى وسط الكلمة كذلك، فكلمة (باكر) تنطق هناك (باتسر) فلا يعول على هذا النطق المحرف لتفسير الفصيح من كلام العرب.

ويرى بعضهم أن الكسكسة والكشكشة حدثتا نتيجة للتطور فى مرحلتين:

الأولى: انتقال الكاف إلى الصوتين المزدوجين: تس وتش.

والثانية: تطور الصوتين المزدوجين إلى السين الخالصة تارة والشين الخالصة تارة أخرى[٢٢] وهذا كلام لا يسنده الدليل العلمى أو التاريخى.

الشنشنة

ورد هذا اللفظ فى كتب اللغة ولكن ليس بالمعنى الاصطلاحى المعروف، ففى المعجمات أن الشنشنة: الطبيعة والخلق والسجية وفى المثل:

شنشنة أعرفها من أخزم   من يلق آساد الرجال يكلم[٢٣]

وفى الاصطلاح: جعل الكاف شينا مطلقا سواء كانت لمذكر أو لمؤنث[٢٤] وسواء كانت أصلية أو زائدة مثل: لبيش اللهم لبيش، فى لبيك[٢٥] والديش فى

---

(١٩) اللهجات العربية فى التراث ١/ ٣٦٤.   (٢٠) الأصوات اللغوية ص٧٩.

(٢١) فى منطقة الخليج والسعودية.   (٢٢) اللهجات العربية فى التراث ص١٢٣.

(٢٣) مجمع الأمثال ٢/ ١٥٥، واللسان ١٧/ ١١٠، والعين ٦/ ٢٢٠.

(٢٤) لهجات العرب لأحمد تيمور ص ١٢٣.

(٢٥) المزهر ١/ ٢٢٢، وتاريخ آداب العرب ١/ ١٤١، ومميزات لغات العرب ١٣.

الديك[٢٦] وقد سمع بعض أهل اليمن فى الحج يقول (لبيش اللهم لبيش). ويرى بعض المحدثين أن ما يسمى بالشنشنة هو صوت بين الجيم والشين أو هو الصوت المركب (تش) Ch المعروف فى الإنجليزية، ولأن العرب لا يعرفون طريقة كتابة هذا الصوت فإنهم كتبوه تارة بالكاف وثانية بالشين وقيل - أيضا - إن الكاف فى أى موضع من الكلمة حينما يأتى بعدها صوت لين أمامى فإنها تقلب إلى نظيرها من الأصوات الحنكية (أصوات وسط الحنك).

ونحن لا نرتضى هذين التفسيرين لمخالفتهما لطبيعة نطق الأصوات العربية وخصائصها؛ لأن العربية لا تعرف الحروف المتداخلة أو المركبة بين حروفها وقد ماتت الأصوات التى بين بين منها.

ونسبت فى العقد الفريد لتغلب ففيه فى خبر الرجل - من السماط - الذى كلم معاوية عن أنصح العرب قوم تيامنوا عن شنشنة تغلب[٢٧]، وتنسب أيضا إلى بكر بن وائل، وقد نسبها ابن دريد والقلقشندى إلى حمير[٢٨] ولكنها شائعة فى القبائل اليمنية وهى تنسب إلى أهل البداوة منهم، وما زالت حتى الآن فى اللهجة الشحرية والمهرية والقطرية وحضرموت.

العنعنة

ورد فى بعض كتب القدماء أن العنعنة قلب الهمزة عينا[٢٩]، ويقول ابن دريد: العنعنة حكاية كلام نحو قولهم: عنعنة تميم، لأنهم يجعلون الهمزة عينا[٣٠] ويقول السيوطى: إنهم يجعلون الهمزة المبدوء بها عينا[٣١] ومن ذلك قول الشاعر:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ... ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقال جران العود:

فما أبن حتى قلن يا ليت عننا ... تراب وعن الأرض بالناس تخسف

---

(٢٦) الجاسوس ١٨٣. (٢٧) ٢/ ٤٧٥، ٣/ ٣٢٠.

(٢٨) الجمهرة ١/ ٢٣٨، ٣/ ٧٧ وصبح الأعشى ١/ ١٦٠.

(٢٩) العين / ١٢١، وفقه اللغة للثعالبى ١٢٩، والأمالى للقالى ٢/ ٨١.

(٣٠) الجمهرة ١/ ١٦٠. (٣١) المزهر ١/ ٢٢٢.

وقال الآخر:

تعرضت لى بمكان حل تعرضا لم تأل عن قتلا لى[٣٢]

وقال:

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم غداة دعانا عامر غير معتلى[٣٣]

ومن ذلك: الأسف والعسف.

ومما ورد من ذلك مما وقعت فيه الهمزة عينا: كعص أى كأص بمعنى أكل يقال: كعصنا عند فلان وكأصنا أى أكلنا، قال أبو حاتم: هى همزة قلبت عينا لأن بنى تميم ومن يليهم يحققون الهمزة حتى تصير عينا[٣٤].

ومما ذكره الخليل فى العين: الخبع: الخبء فى لغة تميم يجعلون بدل الهمزة عينا[٣٥].

وحكى عن بنى تميم: هذه خباعنا، يريد خباؤنا، ويقال: خبع الرجل فى المكان إذا دخل فيه، وأحسب أن هذه العين همزة[٣٦].

ولا تزال هذه الظاهرة قائمة فى بعض اللهجات الدارجة فى صورها المشار إليها أولا ووسطا وآخرا.

ففى مدن تهامة يقولون: (عالة) فى (آلة) و(العمام) فى (الإمام)[٣٧] ومن ذلك فى لهجات صعيد مصر (اسعل وسعال) بدل (اسأل وسؤال) و(لع) مكان: (لا).

ويرى بعض الباحثين أن العنعنة تكون فى (أنْ وأنَّ) لكثرة استعمالهما وطولهما بالصلة[٣٨] وبعضهم كالفراء وابن فارس يخصها بالهمزة المفتوحة فى (أن) المشددة النون، ففى لسان العرب «لغة قريش ومن جاورهم (أن) وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف (أن) إذا كانت مفتوحة عينا يقولون: أشهد عنك رسول الله، فإذا كسروا

---

(٣٢) قال ابن جنى: يجوز أن يكون أراد (أن تتلالى) فأبدل الهمزة عينا (سر الصناعة ١/ ٢٣٧) ويجوز أن يكون أراد الحكاية كأنه حكى النصب الذى كان معتادا من قولها فى بابه أى كانت تقول: قتلا قتلا ثم حكى ما كانت تلفظ به، سر الصناعة ١/ ٢٣٦، ٢٣٧، واللسان ١٦/ ١٧٨.

(٣٣) الجمهرة ١/ ٢٣٨، ٣/ ٧٧، وسر الصناعة ١/ ٧٥، والخصائص ١/ ٤١١، والمزهر ١/ ٢٢٣.

(٣٤) الجمهرة ٣/ ٧٦. (٣٥) العين ١/ ١٤١.

(٣٦) الجمهرة ١/ ٢٣٧، ٢٣٨. (٣٧) فى اللهجات العربية: ١١١.

(٣٨) سر الصناعة ١/ ٢٣٤ وشرح المفصل ٨/ ١٤٩.

رجعوا إلى الألف[٣٩] وابن جنى يرى ذلك - أيضا - فيذكر أن بنى تميم يقولون فى موضع (أن): (عن) فيقولون: ظننت عن عبد الله قائم، وقال: إن مجىء النون فى العنعنة يدل على أن إبدالهم إياها هو فى همزة (أن) دون غيرها.

وقولهم: عنعنة مشتق من قولهم: عن عن فى كثير من المواضع[٤٠] إلا أن عالمنا ابن جنى يذكر أنهم أبدلوا الهمزة فى غير (عن)[٤١] سواء كانت أولا أو وسطا.

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن اشتراط البدء بالهمزة أو أن تكون مفتوحة ليس له ما يبرره[٤٢] من الناحية الصوتية، وإنما الذى يبدو أن يكون أقرب إلى الاحتمال هو أن هذه القبائل كلها من البدو، وكانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة فى السمع أيا كان موضعها من الكلمة وبأى حركة تحركت[٤٣].

ويتهم القدماء الذين قصروا العنعنة على الهمزة المبدوء بها بأن مبنى رأيهم على الرواة الذين استقرأوا أمثلة هذه الظاهرة استقراء ناقصا، والأمر فى كل رواية لا يعدو أن يكون حكما خاصا مبنيا على مثل خاص سمعه الراوى دون استقراء لباقى الحالات[٤٤].

ويبدو لنا أنه اتهم الرواة دون دليل، والقدماء لا ينكرون إبدال العين من الهمزة فى الأول والوسط والآخر، ونصوص القدماء السابقة تشهد لذلك وإن خصها بعضهم بالابتداء.

وقد نسب بعض العلماء العنعنة إلى تميم خاصة، ومنهم الخليل بن أحمد والأصمعى[٤٥] وابن فارس[٤٦] وابن جنى[٤٧] وجعلها ابن دريد فى تميم ومن يليهم[٤٨] وينسبها بعضهم إلى تميم وقيس وأسد[٤٩].

ولكن كثرة النصوص الواردة بالعنعنة ونسبتها إلى قبائل متعددة يؤدى بنا إلى القول بكثرة القبائل البدوية التى شاركت تميما فى قلب الهمزة عينا والإشارة إلى تميم، لأنها أكبر القبائل فى شرقى الجزيرة.

---

(٣٩) اللسان ٤/ ٣١٤٣ (عن)، والتهذيب ١/ ١٢٢، وشرح المفصل ١/ ١٩٨، ٨/ ١٤٩، وانظر الصاحبى ٢٤ والمغنى ١/ ١٣٠.

(٤٠) سر الصناعة ١/ ٢٣٧. (٤١) المصدر السابق ١/ ٣٤٠.

(٤٢) كذا بالأصل والصواب (يسوغه) مكان (يبرره).

(٤٣) فى اللهجات العربية: ١١. (٤٤) المصدر السابق: ١١.

(٤٥) سر صناعة الإعراب ١/ ٢٣٤. (٤٦) الصاحبى: ٣٥.

(٤٧) سر الصناعة: ١/ ٢٣٤. (٤٨) الجمهرة ١/ ١٦٠.

(٤٩) تهذيب اللغة ١/ ١١١، وتاج العروس ٩/ ٢٨٢.

والانتقال من الهمزة إلى العين ممكن لأنهما أختان تخرجان من الحلق فالهمزة من أقصاه والعين من وسطه[50].

وهى مناسبة لطبيعة البدو الذين يحتاجون إلى نبرة عالية، لاتساع الصحراء والعين مجهورة، أما الهمزة فهى - فى أدق الآراء - لا مجهورة ولا مهموسة أو هى مهموسة على رأى بعض المحدثين[51].

الفحفحة

هى قلب الحاء عينا مطلقا[52] سواء كانت حاء حتى أو غيرها، فى لغة هذيل يجعلون الحاء عينا فيقولون فى مثل: حلت الحياة لكل حى: علت العياة لكل عى، وعلى لغتهم قرأ ابن مسعود ﴿عتى حين﴾ فى قوله تعالى ﴿حتى حين﴾، ونقل صاحب النهاية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - بلغه أن ابن مسعود يقرئ الناس بلغة هذيل «عتى حين» فقال: إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش[53] وقال الزمخشرى: وفى قراءة ابن مسعود «ليسجننه عتى حين» وهى لغة هذيل، وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقرأ ﴿عتى حين﴾ فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن بلغة قريش فلا تقرئهم بلغة هذيل والسلام[54] وورد عنهم أيضا: وجلست عنده عتى الليل.

وبعض الباحثين يرى أن الفحفحة خاصة بحاء (حتى).

يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم نجا: المشهور فيها إبدال الحاء من حتى عينا، وذكر القراءة (عتى حين) ونقل عن فريق من الباحثين أن الإبدال ليس مقصورا على حاء حتى مثل: اللعم الأعمر إلخ، ثم يقول: وهذا النقل ضعيف لأنه لم يرد لنا من نصوص العرب وشواهدهم ما يجعلنا نقبل وجهتهم، ومع هذا فقد رأينا ابن مسعود قد اقتصر على إبدال الحاء من (حتى) ولم يبدلها من (حين) فلو كان الإبدال عاما لقرأ بالعين فى كلتا الكلمتين فدل ذلك على أن الفحفحة خاصة بحاء حتى[55].

ولكن يبدو لنا أن ظاهرة قلب الحاء عينا مطلقا ثابتة لورود ذلك فى أمثلة لغوية ضمنتها المعاجم اللغوية مثل بحثر وبعثر، وروى اللحيانى قولهم: عصد الرجل إذا مات،

---

(٥٠) الكتاب ٤/ ٤٣٣ وسر الصناعة ١/ ٥٢.

(١٥) الوجيز فى فقه اللغة للأنطاكى: ٢٠٠ وانظر كتابنا: أصوات اللغة العربية.

(٥٢) سر الصناعة ١/ ٢٤٦، والمزهر ١/ ٢٢٢، والأمالى ٢/ ٧٠.

(٥٣) النهاية ٣/ ١٨١. (٥٤) الكشاف ٢/ ٣١٩.

(٥٥) اللهجات العربية د. نجا ٨٢.

وحكى عن أبى ضبة قال: لغتنا ولغة الأكثر عصد[٥٦]. وهذا التبادل كثير مثل، الحبكة والعبكة وهى الحبة من السويق[٥٧] وضبحت الخيل وضبعت إلى غير ذلك.

ويرى بعض المستشرقين أن (عتى) - فى لغة هذيل - لها صلة بكلمة (عدى) الموجودة فى بعض اللغات السامية وفى العربية الجنوبية القديمة، وكذلك الكلمة العبرية (عد) بمعنى حتى فالحاء تقابل العين والتاء تقابل الدال، أى أننا أمام صورتين لكلمة واحدة إحداهما تشتمل على صوتين مهموسين والأخرى تشتمل على نظيريهما من المجهورات، وحينئذ يمكن تفسير هذا على أن الصورة المشتملة على المهموسات صورة حضرية وأن الأخرى صورة بدوية ولا تكون هناك فى هذه الحالة ظاهرة عامة تدعى الفحفحة[٥٨]، وقد روى عن العرب قلب الحاء عينا فى غير (حتى) مثل: علت العياة لكل عى وقولهم: (اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض) فى اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض)[٥٩] وتنسب هذه الظاهرة لهذيل أو بعض بطونها ولثقيف[٦٠] وقد وجد هذا القلب فى الآية فى مصحف ابن مسعود ومصحف الربيع بن خثعم.

والحاء والعين من مخرج الحلق ويتفقان فى صفات الاستفال والانفتاح والإصمات إلا أن العين مجهورة، والحاء مهموسة والحاء رخوة والعين صوت متوسط بين الشدة والرخاوة فأمكن تبادلهما، ولذا قال ابن جنى «لولا بحة فى الحاء لكانت عينا»[٦١] ويقول فى المحتسب مشيرا لظاهرة الفحفحة:

«العرب تبدل أحد هذين الحرفين من صاحبه لتقاربهما فى المخرج كقولهم بحثر ما فى القبور أى بعثر»[٦٢] وضبعت الخيل أى ضبحت وهو يحنظى ويعنظى إذا جاء بالكلام الفاحش، فعلى هذا يكون (عتى وحتى) لكن الأخذ بالأكثر استعمالا وهذا الآخر جائز وغير خطأ.

---

(٥٦) الإبدال لأبى الطيب ١/ ٢٤٦.

(٥٧) المزهر ١/ ٤٦٦.

(٥٨) فى اللهجات العربية د. أنيس ١٠٩.

(٥٩) مميزات لغات العرب: ١٣ وفى اللهجات العربية: ١٠٨.

(٦٠) انظر المصادر فى هذا الموطن وابن عقيل ٣/ ١٢ ط دار الفكر ولسان العرب ٢/ ٣٢٨. حيث يقول: فى (عتى) هذلية ثقفية.

(٦١) سر الصناعة ١/ ٢٤٦ وتكلم عن هذه القراءة فى (حتى) فيقول: أبدلت العين من الحاء فى بعض المواضع قرأ بعضهم (عتى حين) يريد: حتى حين.

(٦٢) المحتسب ١/ ٣٤٣.

والمعروف أن فى قبيلة هذيل ميلا إلى البداوة، إذ كانت مجاورة لبعض البدو على حين أن ثقيف من القبائل الحضرية، وربما نسبت لها لتأثرها بمن ينطقها لكن بعض المحدثين ينفى وجود هذه الظاهرة وبنى هذا النفى على أمور:

١- أن قصة قراءة ابن مسعود للآية (عتى حين) مشكوك فى صحتها فكيف ينهى عمر ابن مسعود عن القراءة بالعين مكان الحاء فى هذه الآية مع ما نقله عمر نفسه من استحسان الرسول ﷺ قراءة ابن مسعود حينما كان يسمر عند أبى بكر وكان عنده عمر فخرج رسول الله ﷺ وعمر وأبو بكر معه فإذا رجل قائم يصلى فى المسجد فقام رسول الله ﷺ يسمع قراءته فقال عمر: فلما كدنا أن نعرف الرجل قال: «من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد» (يعنى ابن مسعود).

٢- لم يسمع قلب الحاء عينا عن هذيل فى غير هذه القراءة المروية والمثال واحد لا يكفى لإثبات اللهجة، وهناك آيات أخرى كثيرة لم تبدل فيها الحاء عينا.

٣- نقل عن ابن مسعود القراءة بإبدال العين حاء فى بعض الآيات فى مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ قرأها (بحثر) بالحاء وهذا نقيض القراءة السابقة فى (حتى حين).

٤- وقوع القراءة بإبدال الحاء عينا فى (حتى حين) فى مصحف الربيع بن خثعم مما يدل على أن هذه الظاهرة ليست مختصة بهذيل.

٥- نسبة هذه الظاهرة إلى هذيل تبعا لابن مسعود لأنه قرأ بها نسبة غير مقبولة؛ لأن قراءة القارئ قد لا تعتبر لغة قومه، فابن محيصن وابن كثير يقرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ بياء واحدة وهى لغة تميم مع أنهما مكيّان فقد خالفا بذلك لهجة قومهما، وبذلك فإنه لا يتعين أن تكون قراءة ابن مسعود ممثلة للغة قومه الهذليين[٦٣] على أن قبيلة هذيل متصلة بالحجاز ومساكنها قريبة منها والفحفحة ظاهرة بدوية مما يبعد نسبة هذه اللهجة إلى تلك القبيلة.

٦- التسمية نفسها تحمل على الشك فى وصف القدماء لهذه الظاهرة، فكلمة الفحفحة إذا نظر إليها فى ضوء مصطلحات الكشكشة والعجعجة نرى أن الحرف الثانى فى كل من هذين المصطلحين هو الحرف المقلوب إليه وكان مقتضى هذا أن يكون معنى الفحفحة قلب العين إلى الحاء لا العكس[٦٤].

---

(٦٣) اللهجات العربية د. أنيس ١٠٨، ١٠٩ واللهجات العربية فى التراث ٣٧٢، ٣٧٣.

(٦٤) فى اللهجات العربية ١٠٨.

ولكننا نرى أن هذا النفى غير صحيح فالشك فى قراءة لا يؤدى إلى إسقاطها إلا إذا كان معتمدا على أوجه عدم صحة النقل وطرق الرواية وذلك لم يتوافر لصاحب النفى.

كما أن اعتداد الرسول بقراءة ابن مسعود يؤكد صحة الرواية وليس دليلا على نفيها وهو توجيه للقارئ للاتجاه إلى الصفة العامة الغالبة وإن صحت القراءة بغيرها أو يقرأ القرآن على وجوه كثيرة تبعا لتعدد القبائل وتيسيرا على الناطقين من المسلمين حسب لهجاتهم، لكن فى مقام التعليم يلجأ إلى الأقوى.

ولم يقتصر أمر هذه اللهجة على مثال واحد بل ورد غيره كما أن ما نقل عن ابن مسعود من القراءة بقلب العين حاء يؤكد صحة هذا النوع من التبادل ولا ينفى عكسه بل يؤيده من لجوء القبيلة إلى كل منهما لما بين الصوتين من تقارب يدعو إلى جذب أحدهما إلى صاحبه.

كما أن نسبة هذه الظاهرة إلى غير هذيل دليل على صحتها وعلى انتشارها فى مواطن عدة وهذا يثبتها ولا ينفيها.

ولذا نرى أن النفى دليل لا يعتد به.

العجعجة

هى جعل الياء المشددة جيما فيقولون فى تميمى تميمج، وكذلك الياء المخففة الواقعة بعد العين مثل: الراعج خرج معج فى قولهم: الراعى خرج معى[٦٥] وقال ابن فارس: وكذلك الياء المشددة تحول جيما فى النسب، يقولون: بصرج وكوفج[٦٦].

ويقول السيوطى: ومن ذلك العجعجة فى لغة قضاعة يجعلون الياء المشددة جيما يقولون فى تميمى:تميمج[٦٧]. وقال أبو عمرو بن العلاء: قلت لرجل من بنى حنظلة: ممن أنت؟ فقال: فقيمج قال: قلت: من أيهم؟ قال مرج، يريد: فقيمى ومرى، وقال يعقوب: بعض العرب إذا شددت الياء جعلتها جيما[٦٨]، وفى حديث ابن مسعود: فلما وضعت رجلى على مذمر أبى جعل قال: أعل عنج، أى تنح عنى[٦٩].

---

(٦٥) يقول الرضى: ويبدل ناس من بنى تميم الجيم مكان الياء فى الوقف شديدة، كانت الياء أو خفيفة. شرح الشافية ٣/ ٢٨٧.

(٦٦) الصاحبى ٣٧ وشرح المفصل ١٠/ ٢٠.

(٦٧) المزهر ١/ ٢٢٢ والتهذيب ١/ ٦٨.

(٦٨) سر الصناعة ١/ ٩٢ والإبدال لأبى الطيب ١/ ٢٥٧.

(٦٩) انظر النهاية ٣/ ٢٩٤ ولسان العرب ٦/ ٦١ ومذمر كمعظم القفا. القاموس (ذمر).

ومن ذلك قول الراجز: قال الأصمعي: حدثني خلف قال: أنشدني رجل من أهل البادية:

خالي عويف وأبو علج
المطعمان اللحم بالعشج
وبالغداة كسر البرنج
تقلع بالود وبالصيصج

أراد: علي - العشي - البرني - الصيصي[٧٠].

ومن ذلك ما أنشده ابن الأعرابي:

كأن في أذنابهن الشول ... من عبس الصيف قرون الأجل

يريد: الآيل.

وأنشد الفراء:

بكيت والمحترز البكج ... وإنما يأتي الصبا الصبج

يريد: البكي والصبي[٧١].

وفي الأمالي: ويمكن أن يكون (جار) لغة في (يار) كما قالوا: الصهاريج والصواب الصهاري وصهريج وصهري لغة تميم[٧٢].

وقد تقلب الياء المخففة جيما في مثل قول الشاعر:

يا رب إن كنت قبلت حجتج ... فلا يزال شاحج يأتيك بج

أقمر نهات ينزي وفرتج

فالأصل: حجتي - بي - وفرتي[٧٣].

وكذلك قول هميان بن قحافة السعدي:

يطير عنها الوبر الصهابجا

---

(٧٠) الأشموني ٤/ ٢٨١ وإبدال ابن السكيت ٩٥، ورواه ابن جني عمي بدل خالي، وروى غيره فلق وكتل وقطع مكان كسر وكلها بمعنى أجزاء الشيء، والبرنج بفتح الباء وسكون الراء: من أنواع التمر الجيد، والود: الوتد، والصيصي: جمع صيصة وهي القرن، والفعل تقلع مبني للمفعول. انظر: سر الصناعة ١/ ١٩٢.

(٧١) سر الصناعة ١/ ٩٣ ولهجات العرب لأحمد تيمور ١٨.

(٧٢) الأمالي ٢/ ٢١٧. (٧٣) سر الصناعة ١/ ١٩٣ وشرح شافية ابن الحاجب ٤/ ٥١٦.

يريد الصهابى - من الصهبة -[٧٤] فحذف إحدى الياءين وقلب الأخرى جيما للقافية[٧٥]، وبعضهم اشترط أن تجتمع الياء مع العين[٧٦] ولكن الظاهر فيما ورد من أمثلة عدم اشتراط ذلك.

كما أن الياء المشددة التى تبدل جيما يطلق عليها مصطلح (العجعجة) إذا وقعت آخرا لا وسطا، وقد خصها بعضهم بحالة الوقف دون الوصل وبعضهم جعلها فيهما معا فمن الأولين سيبويه والسيرافى وابن يعيش والرضى ومن الآخرين ابن جنى والقالى والزمخشرى[٧٧].

والمشهور نسبة هذه الظاهرة إلى قضاعة[٧٨] وناس من تميم أو ناس من بنى سعد من تميم ونسبها صاحب الأمالى وابن السكيت إلى فقيم وحنظلة[٧٩] ونسبها الفراء فى الياء المخففة إلى بنى دبير من بنى أسد ونسبها أبو زيد لأهل اليمن، والأصمعى إلى طيء فى الياء المشددة، وإلى بعض بنى أسد فى الياء المخففة[٨٠] ونسبت كذلك إلى هذيل، كما نقل عن ابن مسعود[٨١].

وهكذا نرى اختلاف القبائل فى طريقة قلب الياء جيما ومواطنه، ويعلل سيبويه لهذه الظاهرة بأن الياء خفية فأبدلوا من موضعها أبين الحروف[٨٢].

ويعد ذلك القدامى من الإبدال النادر أو القليل[٨٣] أو الشائع[٨٤] وقد ذكروا أن بين الياء والجيم علاقة صوتية، لأنهما من مخرج واحد هو وسط اللسان مع ما يحاذيه من

---

(٧٤) الوبر أو الشعر الصهابى: ما فيه شقرة.

(٧٥) سر الصناعة ١/ ١٩٣ والإبدال لابن السكيت ٩٥ وشرح الشافية ٤/ ٢١٦.

(٧٦) الصحاح ١/ ٣٢٨ والإبدال لابن السكيت ٩٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ١٩٧.

(٧٧) فى لسان العرب: والعجعجة فى قضاعة كالعنعنة فى تميم يجعلون الياء جيما مع العين ٨/ ٣٨ (عجج) وفى مادة (شجر) روى نسبتها لناس من بنى سعد فى الوقف خاصة فإذا وصلوا لم يبدلوا، وكذلك فى كتاب سيبويه ٣/ ١٨٢.

(٧٨) ٤/ ١٨٢ وشرح الشافية ٢/ ٢٨٧ واللسان (عجج).

(٧٩) الأمالى ٢/ ٨٩ والإبدال لأبى الطيب ونوادر أبى زيد ١٦٤.

(٨٠) الإبدال لأبى الطيب ١/ ٢٥٧، ٢٥٨.

(٨١) لسان العرب ٦/ ٦١.

(٨٢) يقول سيبويه: إنهم يبدلون الجيم مكان الياء لأنها خفية فأبدلوا من موضعها أبين الحروف. الكتاب ٤/ ١٨٢.

(٨٣) شرح التصريح ٣٦٧ والأشمونى ٤/ ٢٨١. (٨٤) الأشمونى ١/ ٢٨٢.

الحنك الأعلى أو أنهما قريبا المخرج وتشتركان فى بعض الصفات كالجهر والاستفال والانفتاح والإصمات، والجيم أدخل من الياء ولذا كان الانتقال من الياء إلى الجيم سائغا وفى الجيم بعض الشدة التى تتناسب مع البدو(٨٥)، ويجرى الوصل مجرى الوقف(٨٦).

وبهذا يتضح أن هذا الإبدال من خصائص بعض اللهجات البدوية، فطيئ تسكن أواسط نجد وحنظلة من أكبر القبائل التميمية تنسب إلى حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة ابن تميم، وفقيم بطن من دارم من تيم العدنانية، وبنو سعد من تميم، وبنو أسد من القبائل البدوية.

الوتم

قلب السين تاء عند أهل اليمن فيقولون فى الناس «النات»(٨٧).

قال الشاعر:

يا قاتل الله بنى السعلاة ... عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا أعفاء ولا أكيات

ويقال: إن إبدال السين تاء من قبيح البدل أو من قبيح الضرورة(٨٨) وبعضهم يقول أنه نادر(٨٩) أو على البدل الشاذ.

ولكن حكى عن أبى عمرو أن قلب السين تاء لغة، وذلك قد ورد فى قراءة الناس: النات فى قوله تعالى:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ وقال إنها لغة قضاعة(٩٠).

ويقول الرجل لعدوه: لا بأس عليك: تأمينا له وهذا فى اللغة العامة، وعند حمير يقال (لبات) وعليه قول الشاعر:

شربنا اليوم إذ غضبت غلاب ... بتسهيد وعقد غير مين

فنادوا عند غدرهم لبات ... وقد بردت معاذر ذى رعين(٩١)

---

(٨٥) انظر الكتاب لسيبويه باب الأدغام. (٨٦) شرح الشافية ٢/ ٢٨٧.

(٨٧) المزهر ١/ ٢٢٢. (٨٨) النوادر فى اللغة لأبى زيد: ٣٤٥، ٤٢٣.

(٨٩) شرح الشافية ٣/ ٢٢١.

(٩٠) مختصر فى شواذ القراءات لابن خالوية: ١٨٣.

(٩١) غلاب: قبيلة. ذى رعين: حميرى ذكره صاحب الأمالى فى الحديث عن غزو تُبَّع الحميرى بلاد العجم.

ولبات بلغتهم: لا بأس، قاله الأزهري[٩٢].

ويقال: الكرم من توسه وسوسه أي من خليقته، ورجل حفيتاً وحفيساً: ضخم البطن قصير[٩٣].

وأورد ابن جنى (ست) فى سدس والنات وأكيات فى الناس وأكياس وطست فى طس وختيت فى معنى خسيس، وبذلك يتبين أن السين أبدلت تاء فى أول الكلمة ووسطها وآخرها.

وأوضح ابن جنى رأيه فى أن السين قلبت تاء فيما ذكر، ففى المثال الأول قلبوها تاء لتقرب من الدال التى قبلها، والتاء مع ذلك حرف مهموس كما أن السين مهموسة فصار التقدير: سدت فلما اجتمعت الدال والتاء وتقاربتا فى المخرج أبدلوا الدال تاء لتوافقها فى الهمس ثم أدغمت التاء فى التاء فصارت (ست) كما ترى[٩٤]، وكذلك تحدث عن البواقى، ففى الناس وأكياس أبدلت السين تاء لموافقتها إياها فى الهمس والزيادة وتجاور المخرج، وفى ختيت أبدلوا السين تاء، وقد أكد الدكتور أنيس هذا التقارب الصوتى وقال: إنهما يكادان يكونان متماثلين فى المخرج كما أن كلا منهما صوت مهموس ولم يبق إذاً إلا أن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما فإذا افترقا سمعنا التاء وإذا لم يكن الالتقاء محكما فهى السين[٩٥].

ونحن نلمح بعدا بين الحرفين فبينهما فى المخرج الصاد والزاى ولكن اشتراكهما فى طرف اللسان ربما كان سببا لهذا التبادل، وإذا رجعنا إلى ما قاله علماء اللغة نجد أن هذا من قبيل اللغات المختلفة، فبعض العلماء يجعل ذلك الذى هو إبدال السين تاء لهجة تسمى بالوتم وتنسب إلى أهل اليمن[٩٦]، ونسبها بعضهم إلى خثعم وزبيد من قبائل اليمن البدوية[٩٧]، وهذا يؤكد أن ما ورد من هذه الأمثلة من اختلاف الناطقين إذ ليست العلاقة بين التاء والسين قوية تسوغ التبادل، وبالرجوع إلى المعاجم فى كلمتى ختيت وخسيس نجد أنهما من مادتين مختلفتين - اشتقاقا ومعنى- ففى مادة (خت): الخت الطعن مداركة وموضع والختت محركة الفتور فى البدن، والختيت الخسيس والناقص وأخت استحيا وفلانا أخس حظه[٩٨]، وفى مادة (خس) : وخس نصيبه جعله خسيسا دنيئا حقيرا،

---

(٩٢) التهذيب ١٣/ ١٠٩، ١١٠.
(٩٣) الأمالى ٢/ ٦٨.
(٩٤) سر الصناعة ١/ ١٧١-١٧٣.
(٩٥) فى اللهجات العربية ١٠٥.
(٩٦) انظر ما سبق ص ١٨١.
(٩٧) فى اللهجات العربية ١٠٥.
(٩٨) القاموس المحيط ١/ ١٤٧.

وخسست - بالكسر - خسة وخساسة إذا كان فى نفسه خسيسا، والخساسة بالضم علالة الفرس والقليل من المال وتخاسوه تداولوه وتبادلوه(٩٩) - فدلالة المادة الثانية على النقص والخسة والحقارة واضحة وحقيقية ودلالة المادة الأولى عليها من قبيل المجاز والتوسع المعنوى، ونظرا لاختلاف المعانى - كما ترى - لم يكن هناك إبدال وإنما هو اتفاق معنوى تطورى.

وقد ورد فى لسان العرب أن الطس والطسة بفتح الطاء وكسرها لغة فى الطست وقال: ومن العرب من يثقل الطسة ويظهر الهاء، وأورد صاحبه رأيا ثالثا نقله عن أبى عبيد فقال: قال أبو عبيد: ومما دخل فى كلام العرب الطست والتور والطاجن وهى فارسية كلها(١٠٠).

وعلى هذا فالواضح أن كلمة الطست كلمة أجنبية معربة هذبت على هذا الوضع ونطقها قوم طس وآخرون طست فلا إبدال فى الحقيقة بل اختلاف فى طريقة التعريب.

وفى موضع آخر أوضح ابن جنى أن التاء تقلب سينا عكس الأول - فى قول العرب:

استخذ فلان أرضا بمعنى اتخذ(١٠١)، وقد فسر ابن جنى هذا المثال على وجهين فقال:

وفى ذلك عندنا قولان:

أحدهما: أنه يجوز أن يكون أصله اتخذ بوزن افتعل من قوله عز وجل: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ثم إنهم أبدلوا التاء الأولى التى هى فاء افتعل سينا كما أبدلوا التاء من السين فى ست لأن أصلها سدس فلما كانت التاء والسين مهموستين جاز إبدال كل واحدة منهما من أختها.

والقول الآخر: أنه يجوز أن يكون أراد استتخذ أى استفعل فحذفت التاء الثانية التى هى فاء الفعل كما حذفت التاء الأولى من قولهم: تقى يتقى وأصله اتقى يتقى فحذفت التاء الأولى التى هى فاء.

ورأينا أن الإبدال غير مستساغ هنا لأن مخرجى التاء والسين مختلفان - كما عرفنا - وهما مختلفتان فى الشدة والرخاوة والصفير، وإن كان الدكتور أنيس أجاز وقوع الإبدال بينهما.

---

(٩٩) المصدر السابق ٢/ ٢١٠.

(١٠٠) لسان العرب ٧/ ٤٢٨، ٤٢٩.　　(١٠١) سر الصناعة ١/ ٢٠٩.

وعلى ما نرى فإما أن يكون استخذ لغة فى اتخذ، وتكون السين من خصائص البادية وتلحق بما يسمى (الوتم) أو نرجح القول الثانى لابن جنى.

الاستنطاء:

جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء، فأعطى يقال فيها: أنطى[١٠٢] ومنه فى قراءة شاذة قرأ بها الحسن وطلحة وابن محيصن وغيرهم وهى قراءة مروية عن رسول الله ﷺ: ﴿إنا أنْطَيْنَاكَ الكوثر﴾ ومنه قوله ﷺ - فى حديث الدعاء- «لا مانع لما أنطيت ولا منطى لما منعت» ومن كلامه ﷺ: «اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة»[١٠٣] وقوله ﷺ:«اليد المنطية خير من اليد السفلى» وكتب ﷺ إلى وائل بن حجر: «وأنطوا الثبجة» وقال عليه السلام لرجل: «أنطه كذا» يريد أعطه[١٠٤] وقال الأعشى[١٠٥]:

جيادك خير جياد الملوك تصان الحلال وتنطى الشعيرا[١٠٦]

وواضح أن هذه الظاهرة جاءت فيما وليت فيه الطاء العين، ولكن الدكتور أنيس يرى أن هذه الظاهرة وهى قلب العين الساكنة نونا ليست خاصة بذلك ولم يكن الأمر مقصورا على الفعل (أعطى) بل يتعلق بنطق كل عين سواء وليها (طاء) أو صوت آخر، فلعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نطقا أنفميا، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معا فتسمع العين ممتزجة بصوت النون وليست فى الحقيقة نونا بل هى (عين).

وفى زعمه أن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة فى الفعل (أعطى) فأشكلت عليهم ولم يصفوها لنا على حقيقتها[١٠٧].

---

(١٠٢) المزهر ١/ ٢٢٢ والاقتراح ٥٠٤ واللسان (نطا).

(١٠٣) البحر المحيط ٨/ ٥١٩.

(١٠٤) النهاية ٥/ ٧٦ والبحر المحيط ٨/ ٥٠٩ والفائق ٥/ ٧٦ (نطا) والإنطاء: الإعطاء. اللسان ٦/ ٤٦٥.

(١٠٥) من بنى قيس بن عامر.

(١٠٦) البحر المحيط ٨/ ٥١٩ والأمالى ١/ ٧٥ قال أبو على القالى: وقرأت على أبى بكر بن دريد فى شعر الأعشى: جيادك فى الصيف فى نعمة. انظر الديوان ص١٤٩.

(١٠٧) فى اللهجات العربية: ١٤٢.

ولكننا نرى أن هذا اتهام للقدماء من الرواة الموثوق بهم دون دليل، فهم وصفوا ما سمعوه، وما ادعاه الدكتور أنيس من حدوث الاستنطاء فى غير المروى دعوى بلا دليل ويكفى ما ورد من أمثلة ليكون هو الأساس الذى ينبنى عليه تحقق هذه الظاهرة.

إذا كان القلب فى الحروف إنما هو فيما تقارب منها مخرجا أو صفة[١٠٨] فإن العين والنون متباعدان مخرجا، ولكن بينهما تقارب فى بعض الصفات وهى الجهر والتوسط والاستفال والانفتاح، وعلى ضوء هذا يسوغ التبادل بينهما، لكننا لا ننظر إلى العلاقة الصوتية لاختلاف اللهجات،وربما كانت بقايا لهجية متخلفة بعد تهذيب اللغة.

ويرى الدكتور السامرائى أن «ملاك الأمر فى هذه النون أنها لم تكن مقابلة للعين فى أعطى وإنما جاءت من أن الفعل هو (آتى) بمعنى (أعطى) ثم ضعف فصار (أتى) بتشديد التاء، ومعلوم أن فك الإدغام فى العربية وفى غيرها من اللغات السامية يقتضى إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين كما تقول فى العربية (جندل) من (جدل) بتشديد الدال وهذا معروف[١٠٩].

ويرى أحد المستشرقين أن أنطى مقابل لفعل (نطا) العبرى بمعنى مد يده إلى فلان فقد صار الفعل على وزن (أفعل) فى العربية بزيادة الهمزة[١١٠].

ويرى الدكتور عبد الرحمن أيوب أن فى العربية الفعل (ناط) بمعنى أسند الأمر لإنسان ما ليقوم به، والفعل فى العبرية (ناتا) وهو فى الأمهرية مزيد عليه الهمزة كالفعل العربى (أعطى) ووجود النون فى العربية فاء للفعل والميم فى الأثيوبية دليل على أن المادة الأصلية للفعل العربى (نـ ط ى)[١١١].

وهى آراء لا يسندها واقع الكلمة العربية التى قرئ بها فى القرآن الكريم ناشئة عن الفعل (أعطى) فى البيئة العربية.

وقد نسب الاستنطاء إلى سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس[١١٢] والأنصار، وفى اللسان أنها لغة أهل اليمن، وفى البحر المحيط عن التبريزى[١١٣] أنها لهجة العرب

---

(١٠٨) سر الصناعة ١/ ١٩٧.

(١٠٩) دراسات فى اللغة د. السامرائى ٢١٧.

(١٠٠) فى اللهجات العربية د. أنيس ١٤٢ والمستشرق هو: رابين.

(١١١) العربية ولهجاتها ٥١.

(١١٢) لعلها بنو قيس بن عامر من القحطانية. معجم القبائل العربية لكحالة ٣/ ١٧٢.

(١١٣) المزهر ١/ ٢٢٢، وتاج العروس ٢٥٨، ٢٥٩، ومميزات لغات العرب: ١٥: ١٥.

العاربة[114] قال: إن (عنى) بالنون فى (أنطيناك) هذه اللغة مكان العين فحسن وإن (عنى) البدل الصناعى فليس كذلك بل كل واحد من اللغتين أصل بنفسه للتصرف فلا يقال الأصل العين ثم أبدلت النون منها.

وهى لهجة لا يزال بعض البدو ينطق بها فى الصحراء[115] كأعراب الفيوم الذين يرجعهم بعض الباحثين إلى أصل عربى وأنهم من بنى سعد[116] ولعلها تناسب بيئة البدو.

الطمطمانية

يذكر بعض اللغويين أن الطمطمانية معناها العجمة[117] أو أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم، قال الشاعر:

تبرى له حول النعام كأنها   حزق يمانية لأعجم طمطم[118]

وهى إبدال لام التعريف ميما.

ويقول الثعالبى: الطمطمانية تعرض فى لغة حمير كقولهم: طاب امهواء يريدون: طاب الهواء[119].

وفى حديث أبى هريرة: أنه دخل على عثمان وهو محصور فقال: الآن طاب امضرب أى حل القتال، أراد طاب الضرب فأبدل لام التعريف ميما وهى لغة عربية يمانية[120].

ويفرق ابن الأثير بين قلب النون الساكنة ميما مع الباء فى مثل عنبر وشنباء وأنبئهم وهو ما يسمى بالإقلاب - عند علماء الأداء - وبين قلب لام التعريف ميما فى مثل طاب الهواء وهى الطمطمانية، ويجعل النون لأهل اليمن فيقول: وفى كتابه ﷺ لوائل بن حجر: من زنى مم بكر فاصقعوه مائة أى اضربوه، وأصل الصقع الضرب على الرأس وقيل: الضرب بباطن الكف ومم بكر لغة لأهل اليمن ومثله مم ثيب إلخ...

---

(١١٤) البحر المحيط ٨/ ٥١٩ عند شرح قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾.

(١١٥) مميزات لغات العرب ١٥.   (١١٦) لغة هذيل ١١٥.

(١١٧) الفائق ٢/ ٤٥٩.   (١١٨) الكامل ١/ ٢٣٥.

(١١٩) فقه وسر العربية ١٢٩ ومجالس ثعلب ١/ ٧٣.

(١٢٠) النهاية ٣/ ١٥٠.

فقلب النون ميما أما مع بكر فلأن النون إذا سكنت قبل الباء فإنها تقلب ميما في النطق نحو عنبر وشنباء، وأما مع غير الباء فإنها لغة عربية يمانية كما يبدلون الميم مع لام التعريف[121]، وأهل اليمن على هذا يبدلون النون ميما في مثل مم بكر.

وروى عن شمر أنه سأل امرأة حميرية عن بلادها فقالت: النخل، قال: ولكن عيشتنا امقمح - امفرسك - امعنب[122] امحماط طوب أي طيب...

ويقول الحريري:

«وقد روى عن حمير أنهم يجعلون آلة التعريف (أم) فيقولون: طاب امضرب يريدون: طاب الضرب، وجاء في الآثار فيما رواه النمر بن تولب أنه ﷺ نطق بهذه اللغة في قوله: (**ليس من امبر امصيام في امسفر**)[123].

وأنشد أبو عبيد، ونسب إلى بجير بن عتيمة الطائي:

ذاك خليلي وذو يواصلني   يرمي ورائي بامسهم وامسلمة

أراد: بالسهم والسلمة وهي لغات من حمير[124].

فأم هي أداة التعريف بلغة أهل اليمن بمعنى الألف واللام، والألف فيها ألف وصل تكتب ولا تظهر إذا وصلت ولا تقطع كما تقطع ألف أم، وفي البيت السابق وصل الميم باللام ويقول الأزهري: والوجه ألا تثبت الألف في الكتابة لأنها ميم جعلت بدل الألف واللام للتعريف[125].

ويروى ثعلب عن الأخفش أنه سمع قائلا يقول: قام امرجل، يريد: قام الرجل. قال ثعلب: هذه لغة للأزد مشهورة[126].

ويقول الأشموني: مثل (أل) (أم) في لغة طيئ[127] وتبدل اللام في أداة التعريف ميما - سواء كانت (أل) شمسية أم قمرية كما ذكرنا في الحديث السابق ليس من امبر إلخ، وقام امرجل، فهذا الإبدال حادث في كلام اليمنيين فيما فيه (أل) مطلقا[128] ولكن ابن هشام في المغني يذكر أن بعض طلبة اليمن حدثه بأن اليمنيين لا يبدلون اللام ميما في (أل) الشمسية ويخصون ذلك بأل القمرية قال: (حكى لنا بعض طلبة اليمن أنه سمع في بلادهم

---

(١٢١) النهاية ٣/ ٤٢، ٤/ ٣٦٣.

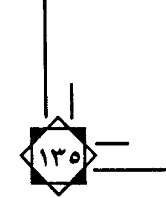
(١٢٢) المزهر ١/ ٢٣٩. وانظر التهذيب ١/ ٤٢٤ ولسان العرب ١٢/ ٣٦٣.

(١٢٣) درة الغواص ص ٢٤٩ والنهاية ٣/ ٣٠٣ والخصائص ١/ ٤١١.

(١٢٤) التهذيب ١٢/ ٤٤٧ واللسان (سلم).

(١٢٥) التهذيب ١٥/ ٦٢٥.   (١٢٦) مجالس ثعلب ١/ ٥٨.

(١٢٧) شرح الأشموني ١/ ٥٩.   (١٢٨) وانظر الهمع للسيوطي ١/ ٢٧٣.



من يقول: خذ الرمح واركب امفرس. ولعل ذلك لغة لبعضهم لروايتها فى امسهم وامسلمة، وفى الحديث ليس من امبر إلخ دخلت على النوعين)[١٢٩].

والثابت إبدالها فى الشمسية والقمرية على سواء، ورواية الطلبة ليست حجة لأنها تعبر عن طريقة اليمنيين المحدثين، وربما حدث تغير لغوى وتأثر بعرب الشمال ولا سيما فى هذه العصور المتأخرة.

وقد جعل ابن جنى إبدال اللام ميما شاذا لا يسوغ القياس عليه[١٣٠] لأنه لم يسمع غير الحديث: (**ليس من امبر امصيام فى امسفر**) وراوى الحديث هو النمر بن تولب الذى يقال: إنه لم يرو عن رسول الله ﷺ غير هذا الحديث[١٣١].

ونحن نرى تقاربا بين اللام والميم يسمح بالتبادل بينهما، ولكن لأنهما لهجة مخالفة للشائع عدت شاذة تحفظ ولايقاس عليها، لكن ما سمع منها يحكى على ما هو عليه، وقد نسبها إلى حمير[١٣٢] غير واحد من الباحثين القدامى والمحدثين، وبعضهم نسبها إلى أهل اليمن أو طيئ أو الأزد وكلها قبائل يمنية جنوبية[١٣٣]، لأن الأزد من قحطان وطيئ كذلك وهى قبائل كانت تسكن جنوب اليمن، ونسبتها إلى اليمن مشهورة.

وبعض المحدثين ينكر أن ينسب إبدال اللام ميما فى أداة التعريف إلى حمير لأن الحميريين لا يستعملون ذلك فى التعريف، وإنما أداة التعريف عندهم (ن) أو (ان) ويزعم

---

(١٢٩) مغنى اللبيب مع حاشية الأمير ١/ ٤٧.

(١٣٠) الخصائص ١/ ٤١١.

(١٣١) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ٨١ الوجهان، وربما بنى ابن جنى رأيه على بعد مخرجيهما، ولكن شيئا آخر يسوغ هذا التبادل، وقد ورد الحديث فى مسند الإمام أحمد بلهجة حمير وهو حديث كعب ابن عاصم الأشعرى: حدثنا عبد الله عن أم الدرداء عن كعب بن عاصم الأشعرى، وكان من أصحاب السقيفة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس من امبر... الحديث. مسند أحمد ٥/ ٤٣٤، وورد الحديث بلام التعريف فى فتح البارى ٩/ ٧، ١١ فى كتاب الجهاد والسير والمغازى، والصيغة الأولى ربما كانت فى التحدث إلى يمنيين، ولعل اختلاف الرواية لاختلاف المقام الذى قيلت فيه.

(١٣٢) انظر المغنى لابن هشام ١/ ٤٧ والهمع ١/ ١٧٩.

(١٣٣) النهاية ٣/ ١٣٩، والبيان والتبيين ٣/ ٢١٣، ومغنى اللبيب ١/ ٤٧، ٤٨، والهمع ١/ ٧٩، ودرة الغواص ٤٩، والأشمونى ١/ ٩٦، ٩٧، وشرح الشافية ٣/ ٢١٥، واللهجات العربية د. نجا ٤٨، وفى اللهجات العربية د. أنيس: ١٤٢. عزاها هؤلاء إلى طيئ، وعزاها ثعلب فى المجالس إلى الأزد، ونسبها ابن يعيش فى المفصل ٩/ ٢٠٠، وابن منظور فى اللسان ١٠/ ٨٣ إلى اليمن.

أن الحديث المروى فى ذلك ضعيف أو مكذوب وضعه اللغويون شاهدا على الطمطمانية، وأن الرسول تكلم بلسان حمير، ويرى أن تنسب هذه الظاهرة إلى بعض عشائر طيئ[134] ولكن ما رآه هذا المحدث غير صحيح، لأنه رمى الحديث بالضعف والكذب دون دليل من علم الحديث وبتجرؤ غير مقبول، مع أن الحديث صحيح روته الكتب المعتمدة، فقد ورد فى مسند الإمام أحمد بن حنبل[135] وفى موطأ الإمام مالك[136] وفى منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى[137] وللفقهاء استدلال بهذا الحديث فى شأن المسافر.

وقد نسبت الطمطمانية إلى حمير وإلى اليمن[138].

وزعم بعض الباحثين أن علماء العربية خلطوا بين اليمن وحمير، وربما أنهم فعلوا ذلك لعدم معرفتهم باللغة الحميرية فظنوا أنها هى اليمنية، والحق أن الحميرية شىء واليمنية شىء آخر[139].

والواقع أن هذا المدعى من التفريق بين حمير واليمن غير صحيح، فاليمنية تشمل الحميرية، وحمير كبرى الدول اليمنية وتنسب إليها اللهجات اليمنية فيقال اللهجات الحميرية أحيانا والسبئية أحيانا أخرى[140].

وبين اللام والميم نسب قريب إذ هما من الأصوات الذالقية والمخارج متقاربة، وبينهما اشتراك فى بعض الصفات كالجهر والتوسط بين الشدة والرخاوة - خلافا لسيبويه فى اللام فإنها شديدة عنده - والاستفال والانفتاح[141].

---

(١٣٤) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/ ٥٧٦.

(١٣٥) ٥/ ٤٣٤. (١٣٦) ٢/ ٩٨.

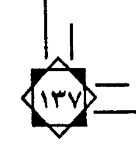
(١٣٧) هامش مسند أحمد ٣/ ٣٤٤.

(١٣٨) شواهد العينى على الأشمونى ١/ ٩٦، وشرح المفصل ٩/ ٢٠.

(١٣٩) اللهجات العربية فى التراث ١/ ٣٩٩ ودراسات فى اللغة العربية د. خليل نامى: ٤٥.

(١٤٠) انظر كتابنا: العربية خصائصها وسماتها.

(١٤١) انظر كتابنا: أصوات اللغة العربية.



الإمالة والفتح[1]

الإمالة: أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف إن كان بعدها ألف نحو الياء، وإلا فالممال الفتحة وحدها، مثل: نعمة وبسحر، ورأيت خبط رياح، ومن عمرو والفتى، والهدى، وملهى، وأرطى[2]،وباع، وعالم، وكاتب، والضحى، وشملال[3] وسربال (وإنا إليه راجعون)[4] ونحو ذلك[5].

هذا هو النوع المشهور بين القراء حتى ليكاد يفهم عند إطلاق اسم الإمالة لدى الباحثين فى القراءات واللغة.

وقد أضاف ابن جنى إلى ذلك ألوانا أخرى من الإمالة:

١- الفتحة الممالة نحو الضمة:

وهى التى تكون قبل ألف التفخيم نحو الصلاة والزكاة ودعا وغزا، وقام وصاغ وقال. كما أن الحركة أيضا هنا، قبل الألف، ليست فتحة محضة، بل هى مشوبة بشىء من الضمة، فكذلك الألف التى بعدها ليست ألفا محضة، لأنها تابعة لحركة هذه صفتها، فجرى عليها حكمها.

وإمالة الفتح إلى الضم لم يشتهر بين القدماء ولكن ابن جنى أوضحه على الصورة السالفة وقال: إن لمح الإمالة فيه هو الذى تسبب فى أنهم كتبوا الصلوة، والزكوة والحيوة،

---

(١) قد يسمون الإمالة الكسر والبطح والإضجاع، ويسمون الفتح النصب.

(٢) الأرطى: شجر من شجر الرمل. اللسان ط بيروت ١/ ٣٢٥.

(٣) الشملال والشمال واحد بمعنى اليد الشمال، والشملال: الناقة الخفيفة السريعة. اللسان ١١/ ٣٧١.

(٤) فإذا كانت الفتحة وحدها - بدون ألف - أميلت نحو الكسرة مثل نعمة وبسحر، وإن كانت مع الفتحة ألف - أى بعدها - ذهبت إلى جهة الياء كالفتى ونحوه، وسيأتى شرح الإمالة فى الأمثلة بعد.

(٥) سر الصناعة ١/ ٥٨، ٥٩، والأشمونى ٤ ,٢٠ - ٢٣٥، وأوضح المسالك مع المنار ٢/ ٣٥٠-٣٥٩، والنشر ١/ ٣٠.

بالــواو، لأن الألـف مالـت نحـو الــواو[٦] ويقـصـد بذلك كـتابتـهـا فــى المصحـف العثمانى[٧].

٢- الكسرة المشوبة بالضمة:

نحو: قيل، وبيع، وغيـض، وسيق، فكما أن الحركة، قبل هذه الياء، مـشوبة بالضمة، فالياء بعدها مشوبة بروائح الواو.

وهذا قـد تعـرض له القـدماء، عنـد حديثـهم عن بـناء الفـعل للمـجهـول، وسمـوه بالإشـمام، يقـول الأشمـونى شارحـا كلام ابن مـالك: (واكسـر أو اشمم فـا) فعـل (ثلاثى أعل٠ ٠ ٠ عينا) واويا أو يائيا، فقد قرئ: «وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء» بهما، والإشمام هو: الإتيان بحركة بين الضم والكسر، وقد يسمى روما.

ويقول الصـبان: الحركات ست: الثـلاث المشهورة، وحـركة بين الفتحـة والكسرة، وهى التى قبل الألف الممالة، وحركة بين الفتـحة والضمة، وهى التى قبل الألف المفخمة، فى قراءة ورش، نحو: الصلاة والـزكاة، والحياة، وحركة بين الكسرة والـضمة، وهى حركة الإشمام، فى نحو: قيل، وغيض، على قراءة الكسائى[٨].

والإشـمام فصيح وإن كان قليلا[٩] وقد قرئ بـه فى القرآن الكريم: «ولـما أن جاءت رسلنـا لوطا سىء بـهم» قرأ الـجمهـور (سىء) بكـسر السـين، وأشمـها نـافع وابن عـامر والكسـائى، وهكـذا: «سيئـت وجوه الذيـن كفروا» أشـمهـا بالضـم أبو جعـفر والحـسن، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة، وابن عامر، ونافع، والكسائى[١٠].

وعلى الرغم من حديث القدماء عن ذلك فإنهم لم يفصحوا عن الإمالة الموجودة فى هذا المسلك اللغوى، ولكن ابن جنى أوضحها.

---

(٦) غير أن ابن جنى يقول بإمالة نحو دعا وغزا (إلى الياء) لأنهـا تئول إليها عند البناء للمجهول نحو دعى وغزى - بضم الفاء وكسر العين - وهو عند سيبويه مطرد، وقال المبرد: إنه قبيح. أما الاسم ذو الواو مثل الصلاة والزكاة فلا يمال عندهم. انظر: الأشمونى ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣, ٢٣١.

(٧) سر الصناعة ١/ ٥٦، ٥٩، ٦٠.

(٨) الأشمونى مع الصبان ٣/ ٦٢، ٦٣.

(٩) المغنى فى تصريف الأفعال ٢٠٢.

(١٠) المصدر السابق ٢٠٣.

٣- الضمة المشوبة بالكسرة:

مثل: مررت بمذعور، وابن بور، نحوت بضمة العين، والباء نحو كسرة الراء، فأشممتها شيئا من الكسرة، وكما أن هذه الحركة قبل هذه الواو ليست ضمة محضة، ولا كسرة مرسلة فكذلك الواو، أيضا، بعدها، هي مشوبة بروائح الياء.

ومثل ذلك: الفعل المبنى للمجهول الأجوف فإن بنى فقعس، ودبير، يضمون أوله، فتقلب ألفه واوا، فيقال فى باع: بوع، وفى حاك: حوك. كقول الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ... ليت شبابا بوع فاشتريت

وكقول الآخر:

حوكت على نيرين إذ تحاك ... تختبط الشوك ولا تشاك

وبعض القبائل يميل الضمة فى الفعلين - وأمثالهما - نحو الكسرة، وليس ذلك من الشيوع والكثرة، كغيرها من اللهجات(١١).

وقد شرح ابن جنى الأسرار اللغوية الباعثة على حدوث الإمالة من الفتحة إلى غيرها من أخواتها، وهى الكسرة والضمة، دون العكس، بأن نحى بالكسرة والضمة نحو الفتحة.

وقد اعتمد حديثه على أن الفتحة هى أول الحركات، وأدخلها فى الحلق، والكسرة بعدها، والضمة بعد الكسرة، فعند النطق بالفتحة تمر بمخرج الياء، والواو، لأنهما فى طريقها، فجاز أن تشمها شيئا من الكسرة، أو الضمة، ولو تكلفت أن تشم الكسرة، أو الضمة، رائحة من الفتحة، لاحتجت إلى الرجوع إلى أول الحلق، فكان فى ذلك انتقاض عادة الصوت، بتراجعه إلى ورائه، وتركه التقدم إلى صدر الفم، والنفوذ بين الشفتين فلما كان فى إشمام الكسرة، أو الضمة، رائحة الفتحة، هذا الانقلاب والنقض، ترك ذلك فلم يتكلف ألبتة(١٢).

---

(١١) الأشمونى ٢/ ٦٣ واللهجات العربية د. نجا ٧٧.

(١٢) سر الصناعة ١/ ٦٠، ٦١، وقد بنى ابن جنى هذا التحليل الصوتى على ما لاحظه من أن الحلق، والفم ينفتحان مع الألف وأن الأضراس وجنبتى اللسان وظهره مع الحنك الأعلى تكون لها صورة خاصة، حال النطق بالياء، وأن الشفتين تستديران عند بروز صوت الواو، فلأجل ذلك جعلها مرتبة على الوضع المذكور، وعليه بنى إحساسه بالانتقاض لصعوبة تحقيق خصائص كل منها، حال الرجوع إلى الخلف.

وأما انتحاؤهم، بالضمة نحو الكسرة، وإن كان فيه رجوع إلى الوراء، فلأن بين الضمة والكسرة، من القرب، والتناسب ما ليس بينها وبين الفتحة، وهو - مع ذلك - قليل مستكره، ألا ترى إلى كثرة: قيل وبيع، وغيض، وقلة: نحو: مذعور وابن بور.

وهذا الدليل قوى؛ لأن الرجوع إلى الخلف صعب على اللسان، وجواز ذلك بين الضمة، والكسرة، راجع إلى اشتراكهما فى معنى الثقل، وطبيعة التكوين المخرجى، الأمر الذى يجعل كلا منهما يشبه الآخر من هذا الاتجاه، فيصير الجو مهيئا لاستقبال واسطة بينهما عن طريق الإمالة، فأما الفتحة، فهى حركة مستعذبة، وهى طريق آخر غيرهما، فامتنع الرجوع منهما إليها للبعد الصوتى، وعدم القدرة على مباشرة النطق على الهيئة المطلوبة، ومع جواز إمالة الضمة إلى الكسرة، فإنه أمر مستكره، على ما بينا.

وقد وصف القدماء ظاهرة الإمالة، وأوضحوا أسبابها، على نحو فتح الطريق أمام المحدثين، ليقولوا كلمتهم حسب نظريات علم الأصوات الحديث[١٣].

فقد ذكروا لها أسبابا عدة، وجعلوا السبب الرئيسى، منها: هو التناسب، يقول الأشمونى: (اعلم أن الغرض الأصلى منها هو التناسب، وقد ترد للتنبيه على أصل أو غيره، كما سيأتى[١٤] وذلك أن النطق بالفتحة، والألف، تصعد واستعلاء، وبالكسرة والياء، انحدار وتسفل، فإذا أملت الألف قربت من الياء، وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة، فتصير الأصوات من نمط واحد، فى التسفل والانحدار[١٥] وعبر عن ذلك ابن جنى بقوله: «لضرب من تجانس الصوت»[١٦] وجعل سيبويه هذا التقريب التماسا للخفة[١٧].

كما عللوا لذلك بسببين آخرين، أحدهما لفظى وهو: الياء، والكسرة، وثانيهما، معنوى وهو: الدلالة على ياء أو كسرة، وبينوا - من خلال ذلك - أن أسباب إمالة الألف ثمانية:

١ - انقلابها عن الياء مثل: الفتى، والهدى وهدى، واشترى.

---

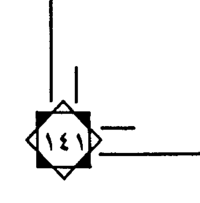
(١٣) انظر فى اللهجات العربية د٠ أنيس ٤-٥٩ وغيرها ورسالة الدكتور عبد الفتاح شلبى للماجستير عن الإمالة فى القراءات واللهجات العربية.

(١٤) الأشمونى ٤/ ٢٢٠، ٢٢١.

(١٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٠ ومنار السالك ٢/ ٣٥٠ والنشر ١/ ٣٥.

(١٦) سر الصناعة ١/ ٥٨ وشرح المفصل ٩/ ٥٤.

(١٧) الكتاب ٤/ ١١٧ وانظر المفصل - نقلا عنه - ٩/ ٥٤، ٥٥.



٢- مآلها إلى الياء، فى بعض التصاريف كـألف ملهى وأرطى وغزا لقولهم: ملهيان، وأرطيان، وغزى بالبناء للمفعول[١٨].

٣- كون الألف مـبدلة من عـين فعل يئـول عند إسناده إلـى التاء إلى قـولك (فلت) بكسر الفاء، سـواء كانت تلك الألف، منقلبة عن ياء، نـحو: باع، وكال، وهاب، أم عن واو مكسورة، كخاف وكاد.

٤- وقوع الألف بعد الياء، متصلة كبيان، أو منفصلة بحرف، كشيبان، وجادت يداه، أو بحرفين، أحدهما الهاء، نحو: دخلت بيتها.

٥- وقوع الألف قبل الياء كبايعته، وسايرته.

٦- وقوع الألف بعد الكسرة، منفصلة إما بـحرف، نحو: كتاب وسلاح، أو بحرفين، أحدهما هاء نحو: يريد أن يضربـها، أو ساكن نحو: شملال وسرداح[١٩] أو بهذين وبالهاء نحو: درهماك.

٧- وقوع الألف قبل الكسرة، نحو: عالم، وكاتب.

٨- إرادة التناسب، وذلك إذا وقعت الألـف، بعد ألف فى كلمتها، أو كلمـة قارنتها، قد أميلتا لسبب، فالأول كرأيت عمادا، وقـرأت كتابا ، والثانى كقراءة أبى عمرو والأخوين (والضحى) بالإمالة، مع أن ألفها عن واو الضحوة لمناسبة (سجى) وما بعدهما.

كما أن الفتحة تمال لوقوعها قبل حرف من ثلاثة:

١- الألف: وقد مضت، وشرطها: ألا تكون فـى حرف، ولا فى اسم يشبهه، «وذلك لأن الإمالة نوع من التصرف وهو لا يدخل الحرف ولا ما يشبهه».

٢- الراء: بشرط كـونها مكسورة، وكون الفـتحة فى غير يـاء، وكونهما، متـصلتين، نحو: من الكبر، أو منفصلتين بساكن غير ياء، نحو: من عمرو، ورأيت خبط رياح.

٣- هاء التأنيث: وإنما يكون هذا فى الوقف، خاصة، كـرحمة، ونعمة؛ لأنهم شبهوا هاء التأنيث بألفه[٢٠]، لاتفاقهمـا فى المخرج، والمعنى، والزيادة، والتـطرف والاخـتصاص

---

(١٨) لذلك مستثنيات معروفة فى فن الصرف.

(١٩) السرداح: الـناقة الطويلة، وقـيل: الكثيـرة اللحم، والسرداح المـكان اللين، وأرض سرداح: بعـيدة. والسرداح: الضخم أو القوى الشديد التام. اللسان ٢/ ٤٨٢.

(٢٠) أى بألف التأنيث مثل ذكرى ونحوها.

بالأسماء، وعن الكسائى إمالة هاء السكت - أيضا - نحو: (كتابيه) والصحيح المنع، خلافا لثعلب، وابن الأنبارى[٢١].

وقد نظر المحدثون إلى هذه الأسباب المختلفة، وفسروها تفسيرا يتناسب مع طبيعة التطور، الذى خضعت له اللغة العربية، كسائر اللغات، والكائنات فى تاريخها الطويل.

فالمعروف أن الإمالة اشتهرت عند قبائل شرقى الجزيرة ووسطها مثل: أسد، وعبد القيس، وتيم، وتغلب، وطيئ، وبكر بن وائل.

كما اشتهرت على ألسنة قراء الكوفة بالعراق، فى القرن الثانى الهجرى، أمثال: حمزة، والكسائى، وخلف.

كما كان لها تأثير واضح - أيضا - على ألسنة علماء الكوفة، وأهلها، واستمر ذلك حتى عصر أبى عمرو الدانى، فى القرن الخامس الهجرى، فقد قيل للكسائى: إنك تميل ما قبل هاء التأنيث، فقال: هذا طباع أهل العربية قال الحافظ أبو عمرو الدانى: أن الكسائى «يعنى بذلك[٢٢] أن الإمالة لغة أهل الكوفة، وهى باقية فيهم إلى الآن، وهم بقية أبناء العرب»[٢٣].

وهؤلاء وأولئك متأثرون بالقبائل العربية التى هاجرت إلى العراق من شرقى الجزيرة، ووسطها، وهم أرباب الإمالة السابقون.

وهذه القبائل بدوية، تميل إلى عدم وضوح الأصوات، والخلط بينها، ولا ريب أن الإمالة تخلط بين الصوتين، فهى تجعل الفتحة قريبة من الكسرة، والألف قريبة من الياء، وهكذا تقرب الأصوات، أو تتجانس، ويحدث التناسب بينها.

وهذا يساعد على سرعة النطق، وعدم بذلك مجهود عضلى كبير، وهو من خصائص البدو.

ويبدو أن الإمالة كانت شديدة لدى قبائل وسط الجزيرة؛ لتوغلهم فى البداوة وبعدها عن الحضر، على حين كانت خفيفة لدى قبائل شرقيها، لمتاخمتهم لمدن العراق[٢٤].

---

(٢١) انظر فى كل هذه الأسباب: الأشمونى وأوضح المسالك، واللفظ لابن هشام، وانظر كتب القراءات مثل النشر وإتحاف فضلاء البشر وغيرهما.

(٢٢) الإشارة إلى إمالة ما قبل هاء التأنيث.

(٢٣) النشر ٢/ ٨٢.

(٢٤) فى اللهجات العربية ٩٠, ٩١.

أما الفتح - كما يسمونه وهو عدم الإمالة - فإنه يؤدى إلى فصل الأصوات، وإعطاء كل منها حقه من النطق، وهذا يحتاج إلى جهد عضلى كبير، وهو من صفات المتحضرين الذين يميلون إلى الأناة، وعدم السرعة فى النطق، وحياتهم المستقرة تدعوهم إلى بذل مجهود أكبر، لإبراز الأصوات فى صورة واضحة، متناسقة.

ولذلك اشتهر الفتح عن قبائل غربى الجزيرة، من سكان الحجاز كقريش، وثقيف، وسعد بن بكر، والأنصار، وكنانة، وهوازن.

والإمالة والفتح، حركتان تدخلان ضمن أصوات اللين، سواء كانت الحركة قصيرة كإمالة الفتحة، أو طويلة، كإمالة الألف، والفرق بين القصيرة والطويلة، فى الأصوات اللينة، لا يعدو أن يكون فرقا فى المدة، التى يستغرقها النطق بكل منهما.

واللسان، مع الفتحة، يستوى فى قاع الفم، ومع الكسرة يرتفع إلى أقصى درجة فى الارتفاع بحيث لا يصدر حفيفا.

فعند استواء اللسان، فى قاع الفم توجد حالة الفتح، وعندما يرتفع ينشأ وضع الإمالة.

وتبعا لمقدار الارتفاع تكون الإمالة شديدة أو خفيفة.

فالذى يلاحظ أن وضع اللسان عند الحضرى يختلف عنه عند البدوى، فهو عند الأول مستو فى قاع الفم، وهو عند الثانى مرتفع فى اتجاه الحنك الأعلى، وهذا يحمل الإشارة بأن العرب كانت تتخير لنطقها ما يتفق مع طبيعتها الاجتماعية.

وقد قسم الدكتور إبراهيم أنيس الإمالة إلى نوعين مختلفين:

١ - صوت لين خالص، تكوّن من صوت لين مركب.

٢ - تغير فى مقياس صوت من أصوات اللين.

وقال: إننا «نلحظ الحالة الأولى، حين يكون صوت اللين طويلا، ومنقلبا عن أصل، من أصول الكلمة، يائيا كان أو واويا، ففى مثل الفعلين: باع، وقال، يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما (بيع وقول) ثم تطور الصوت الأول (ai) إلى (e) والصوت الثانى (au) إلى (o) أى أن فتحة فاء الكلمة فى الفعل الأول، قد أميلت إلى الكسرة، وأنها فى الفعل الثانى، قد أميلت إلى الضمة.

وعلى هذا إذا قيل لنا: إن من أسباب إمالة ألف المد، كون أصلها ياء، كما فى (باع) وجب أن نفهم من هذا أن الأصل اليائى، قد تطور أولا، إلى الإمالة، ثم تطورت الإمالة إلى الفتح، أى أن المراحل التى مر فيها مثل هذا الفعل (باع) هى (بيع) ثم (إمالة) ثم (فتح) فالصوت المركب (ai) قد تطور أولا إلى (a) ثم إلى (e) وهكذا يرجح الدكتور أنيس أن

بعض الكلمات العربية التى اشتملت على ياء أصلية، قد تطورت أولا إلى الإمالة، ثم إلى الفتح[25].

واستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التى عرف عنها الفتح، قد قطعت مرحلة أخرى، فى تطور لهجاتها، على حين أن بعض القبائل فى وسط الجزيرة، وشرقها قد احتفظت بمرحلة الإمالة، التى هى أقدم حين تكون الياء، أصلية فى الكلمات.

ويرجع السر فى احتفاظ البدو بهذه الظاهرة، إلى أنهم عرفوا بها، فتعصبوا لها.

وقارن بين هذا النطق الفصيح، وبين ما تطورت إليه بعض اللهجات الدارجة فى مصر فى مثل كلمات (ليه وإيه) ففى الفيوم يقولان لاه، وعشان آه (شىء) (ai) تطورت إلى (شىء) (e) بل يقولون: شاء عجيب[26].

أما حين تعرض الإمالة، لغير أصل من أصول الكلمة، كإمالة الفتحة أو إمالة ألف المد غير المنقلبة عن أصل، فليس هذا إلا نوعا من الانسجام بين أصوات اللين، لتقليل الجهد العضلى، وهو منسوب إلى القبائل البدوية أيضا، لأن الحضريين يميلون إلى وضوح الأصوات وفصلها[27].

وقد استنتج - بناء على هذا - أن كلمة (كتاب) - كما ينطق بها بغير إمالة - أقدم فى نسجها منها مع الإمالة.

ومن هنا انتهى إلى أن إمالة الفتح إلى الكسر، يجب فى الحقيقة أن تعزى إلى أحد عاملين:

١- الأصل اليائى.

٢- الانسجام بين أصوات اللين.

وجعل من الثانى الانتقال من الكسر إلى الفتح فى تلك الأفعال الثلاثية التى رويت لنا مرة، مثل: فرح، وأخرى مثل: فتح، دون تغير فى معناها مثل: خطف، خبط، قنط، وصورة فرح أقدم، وقد تطورت إلى صورة فتح، ليتحقق الانسجام بين الحركات[28].

---

(٢٥) للاقتصاد فى الجهد العضلى، والميل إلى السهولة التى يلجأ إليها الإنسان فى معظم ظواهره الاجتماعية.

(٢٦) فى اللهجات العربية ٥٤-٥٧.

(٢٧) المصدر السابق: ٩١.

(٢٨) المصدر السابق ص٥٧، ٥٨.

وتطور الأصوات، وانتقالها من حال إلى حال، لا يؤمن بها بعض القدماء، كابن جنى، فهو لا يعترف بأن ما قرروه أصلا، كان مستعملا فى زمن ما، يقول: هذا الموضع كثير الإيهام لأكثر من يسمعه، لا حقيقة تحته، وذلك قولنا: الأصل، فى قام، قوم، وفى باع: بيع، وفى طال: طول، وفى خاف ونام وهاب: خوف، ونوم وهيب، وفى شد: شدد، وفى استقام: استقوم، وفى يستعين: يستعون، وفى يستعد: يستعدد، فهذا يوهم أن هذه الألفاظ، وما كان نحوها، مما يدعى أن له أصلا، يخالف ظاهر لفظه، قد كان مرة يقال، حتى إنهم كانوا يقولون فى موضع: قام زيد: قوم زيد، وكذلك: نوم جعفر، وطول محمد، وشدد أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوه وليس الأمر كذلك، بل بضده، وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه، وتسمعه.

وإنما معنى قولنا: إنه كان أصله كذا: أنه لو جاء مجىء الصحيح، ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه (على ما ذكرنا) فأما أن يكون استعمل وقتا من الزمان كذلك ثم انصرف عنه، فيما بعد إلى هذا اللفظ، فخطأ، لا يعتقده أحد من أهل النظر(٢٩).

ولسنا مع ابن جنى فى كل ما قال،

فهو يدعى أن الأصول المتروكة لم تستعمل مطلقا، فى أى زمن مضى، ولو أنه حدد ذلك بما بعد عصر تهذيب اللغة، ونزول القرآن الكريم بها، لكان حكمه مقبولا.

أما وقد أطلق القول بذلك فى كل الأزمان دون تحديد، فإنه غير دقيق، إذ يختلف أمر اللغة، إبان نشأتها عنه بعد اكتمالها، ونزول القرآن الكريم بها.

فقد كانت الأصوات، والمفردات، والتراكيب، - فيها أول أمرها - غير ناضجة، ففيها الأصوات المتنافرة، والكلمات الحوشية، والتراكيب السقيمة، وقد تخلصت من كل ذلك بعد صراع اللهجات. بنشأة لغة عامة مهذبة تكلم بها العرب جميعا، ونزل بها كتاب الله العزيز.

ولو قبلنا رأى ابن جنى من بعض جوانبه فسلمنا له بأن بعض هذه الأصول لم يستعمل يوما ما، فإننا لا نستطيع أن نسلم له أن الأصول جميعها لم تستعمل مطلقا، إذ إن بعض هذه الأصول لم يزل يستعمل - بعد عصر تهذيب اللغة-، فهى بقايا تدل على أن أصولا أخرى كانت تستعمل كذلك ثم تغيرت واستقامت على منهج قويم.

ويعترف ابن جنى باستعمال بعض هذه الأصول القديمة قبل التهذيب فيقول: «اعلم - مع هذا - أن بعض ما ندعى أصليته، من هذا الفن، قد ينطق به على ما ندعيه من حاله، ومن ذلك: أطولت، وضننوا ونحوهما فإنها تخرج هكذا منبهة على أصل الباب، وشد

---

(٢٩) الخصائص ١/ ٢٥٦، ٢٥٧.

وضن، وفر، واستعد، واطمأن، الأصل فيها: اشدد، واضنن، وافرر، واستعدد، واطمأنن، فهذان الاستعمالان - بالإدغام والفك - كما يقول - لغتان حجازية وتميمية(٣٠).

فالذي نؤمن به أن التطور قد عمل عمله فى اللغة العربية، حتى تهذبت، واكتمل نموها، فى لغة عامة نزل بها القرآن الكريم.

وقد اعتقد ذلك الرأى الأستاذ عبد الله العلايلى الذى قال: «إن كل هذه التقديرات ليست إلا حيلة المتحيل، وأما هى من الوجه الحق، فليست بأكثر من كونها أثرا من آثار التطور العام، الذى تخضع له كل لغة، فى سيرها الارتقائى، وتبقى هذه البواقى، والمتخلفات، لأسباب مكانية وظرفية، أو لأن التطور لم يتم دورته، بما يكفى لأن يأتى على كل موائل الوجود المهضوم»(٣١).

ويقول أيضا: «ليس الإعلال من اصطناع النحاة، بقدر ما هو من عمل العربى، وعمل النحاة تصرف أسلوبى فقط، لأن الإعلال حقيقة راهنة، فى صميم اللغة، وهذا يدل على رقى عقلية العرب»(٣٢).

كما قرر التطور فى حركات الكلمة، وقال: إنه ليس افتراضا بل بقى فى العربية ما يدل عليه، ولذلك قيل: ليس فى كلام العرب (فعل) بكسر الفاء وضم العين إلا حبك، وشرح هذا المثال عندنا: أن أصله (حبك) بكسر الحاء وضم الباء، ولما قضت العربية باستثقال هذا البناء، وأماتته، نقلوا كلماته، بأحد وجهين، إما اتباع الفاء للعين (حبك) بضمتين، وأما اتباع العين للفاء (حبك) بكسرتين، ولما كان الاتباع فى الضم قليلا نظن بأن العربية قد قصدت أن تستقر عليها بالكسر، ويقول العلايلى : لكن الجمع بين الكسر والضم لازما حيث كان ينبو الطبع عنه، فأهمل(٣٣).

وهذا يؤيد وجهة النظر السابقة فى القول بالتطور اللغوى، بما فى ذلك تطور صيغ الإمالة فيما رآه الدكتور أنيس.

وقد بنى الدكتور أنيس تفسيره للنوع الأول من تلك الصيغ على أساس سكون الياء، أو الواو، فى الأصل، على حين يذكر القدماء أن الأصل فى مثل هذه الصيغ حركة العين.

---

(٣٠) الخصائص ١/ ٢٥٩، ٢٦٠. (٣١) مقدمة لدرس لغة العرب ١٧٩، ١٨٠.
(٣٢) المصدر السابق ٢١٦، ٢١٧. (٣٣) المصدر السابق ص١٨٢.

قال ابن جنى: «كان الأصل فى قام: قوم، وفى خاف: خوف، وفى طال: طول، وفى باع: بيع، وفى هاب: هيب، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة، وهى الفتحة، والواو، أو الياء، وحركة الواو، والياء، كره اجتماع ثلاثة أشياء متقاربة، فهربوا من الواو، والياء، إلى لفظ تؤمن فيه الحركة، وهو الألف وسوغها - أيضا - انفتاح ما قبلها[٣٤].

وإذا جاز هذا الاحتمال، فلعل العرب قد استثقلوا النطق، مع توالى أشياء متجانسة، فبعضهم تخلص من ذلك بالقلب ألفا، وبعضهم الآخر تخلص بالإمالة.

أما تفسيره للنوع الثانى، الذى قصد به التناسب، فهو مبنى على أن الإمالة مرحلة متأخرة فى بعض الكلمات.

ومع فقدان الدليل التاريخى، فى مثل هذه الأحوال، فإننا لا نمنع أن يكون شىء من التطور - لاختلاف بعض القبائل عن بعض فى النشأة وعوامل الاجتماع - قد اعترى اللغة، وموادها فى نشأتها الأولى، وقد صار ذلك اتجاها لهجيا فيما بعد، وقد استقرت الأولى لدى البدو. وانتشرت الثانية فى الحضر، ولجأت إليها اللغة النموذجية، للوضوح، والفصل بين الأصوات، ومخارج الحروف، والحركات، التى هى من أخص خصائص الحضارة ورقى الاجتماع.

وأما تجويز المتأخرين من النحاة، والقراء، للأمرين، - الإمالة والفتح - فى الألفاظ التى يمكن تحقيقها فيها، فذلك ليس راجعا إلى جوازه بين العرب الأولين، بحيث كان الواحد، أو الطائفة منهم، تنطق بالكلمة، طورا ممالة، وطورا آخر مفتوحة، لأنه ممتنع عليهم، كما بينا.

وإنما الجواز الذى أرادوه بالنسبة للسان العرب بعد أن أصبح لغة عامة، لا قبلية[٣٥] فمن الجائز لنا الآن أن ننطق بأى الصورتين، فكل منهما لهجة عربية صحيحة منذ بدايتها؛ ولذا لا يجوز أن نرمى المتأخرين بالخطأ فى قولهم بجواز الإمالة[٣٥].

---

(٣٤) سر الصناعة ١/ ٢٥.

(٣٥) الإمالة فى القراءات واللهجات العربية ١٠١، وجمع الجوامع ط ١٣٢٧ ج٢ ص٢٠٠.

الهمز والتسهيل

الهمزة: صوت يخرج من أقصى الحلق كما يقول علماؤنا القدامى ومن الحنجرة - على ما توصل إليه علم الأصوات - وهى صوت مجهور شديد عند القدماء، ولا مجهور ولا مهموس - على أرجح الآراء فى العصر الحاضر - وينطبق معها الوتران تماما ثم ينفرجان فيخرج صوت له دوى وانفجار وفرقعة شديدة، ولذا كانت تحتاج إلى مجهود عضلى كبير حال نطقها، ولذا وجدنا العرب يختلف بعضهم عن بعض فى نطقها والتمسك بها فى كلامهم، فوجدنا منهم من يحققها، ووجدنا منهم من يخففها بإبدالها بحرف من جنس حركة ما قبلها أو جعلها بين بين أو حذفها[1] والهدف من ذلك التخفيف فى هذا الصوت القوى بتحويله إلى أصوات لينة ليمكن نطقها بيسر وسهولة، ولكن فريقا من العرب تعود نطق الأصوات الصلبة فتمسك بها، ومع ما يبدو من هذا التبادل الشكلى لا توجد علاقة صوتية تسوغ ذلك:

١- فالألف صوت انطلاقى مجهور أى حركة أو مصوت على نقيض الهمزة.

٢- والهمزة من الحنجرة والواو من أقصى اللسان والياء من وسط اللسان مع ما يحاذى الموضعين من الحنك والأعلى.

٣- والهمزة صوت انفجارى شديد وهما انطلاقيان (لينان).

٤- والهمزة صوت ذو وجود صوتى وسياقى (فونوتيكى وفونولجى) أما هما فوجودهما انطلاقى سياقى (فونولوجى) فحسب مهما تكن أحوال وجودهما فى المادة اللغوية.

٥- الهمزة صوت مجهور أو لا هو بالمجهور ولا بالمهموس وهما مجهوران إلا فى حالة خاصة وهى حالة الوقف على مثل الصفو والسعى، حيث يمكن أن يتعرضا للهمس فى هذا الموقع، وهو ما يقع أحيانا لحركات أواخر الكلمات فى حالة ما سماه القدماء بالروم، وهى حالة من حالات الوقف[2].

وتبعا لهذه الفروق كان للمحدثين من العلماء نظرات أخرى إلى حوادث الإبدال بين الهمزة والواو والياء والألف، ومن هؤلاء (هنرى فليش) فقد ذكر أن سبب الإبدال هو

---

(١) المقتضب: ١/ ٥٢.

(٢) القراءات القرآنية: ص٤٨ والأصوات اللغوية ص٤٣.

الأحداث الصوتية التى تلتزم بها اللغة العربية الفصحى وتفسر جانبا من علم الصرف وأهم مبادئ هذه الأحداث ما يلى:

(أ) من ناحية المقطع: كراهة الاحتفاظ بصوت طويل أو مزدوج فى المقطع المقفل مثل: احمار - وقراءة (ولا الضألين) فهما فى الأصل: احمار - ولا الضالين - فتجنبت المقاطع المديدة بإبدال الألف همزة، وفى مثل وجوه ووسادة (wo) - (we) يتمكن الصوت المزدوج فيكره، ولذا تبدل الواو همزة فيقال: أجوه، أسادة.

(ب) من ناحية عدم التوافق بين الفونيمات: كراهة النطق بالصوامت الضعيفة مع مصوت من جنسها أو بعض ما يغايرها، والصوامت الضعيفة مع مصوت من جنسها تتمثل فى الواو مع الضمة والياء مع الكسرة ومع بعض ما يغايرهما كالواو مع الكسرة.

(ج) من ناحية طبيعة الأصوات الساكنة: ضعف الواو والياء بين المصوتات.

وقد طبق فليش قاعدته على حالات الإبدال ونرى ضعف هذه القاعدة لما يلى:

١- لم يفرق فليش - بمقياسه السابق - بين أنواع الإبدال الواجب والجائز والشاذ ولم يفصح عن سبب الوجوب وغيره.

٢- لم يستطع فليش تفسير إبدال الهمزة تفسيرا وافيا فهناك أمثلة كثيرة مثل: وعد ووفى والظبى والدلو وناى وآى (جمع آية) توجد فيها التراكيب المكروهة التى ذكرها وهى wi-yi-wu ومع ذلك لم تقلب همزة.

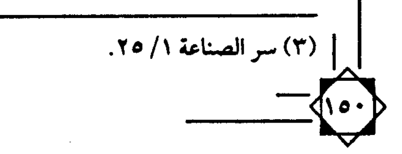
٣- اعتبر فليش ما سوى التراكيب الصوتية ayi awi - awu يقاس عليها، وفى ذلك يدخل التركيبان aya-awa وهما تركيبان خفيفان غير مكروهين، لولا أن القياس قد وحد النموذج اللغوى، وقد نص القدماء على كراهة العرب النطق بمثل هذه التراكيب أيضا وصرح بذلك ابن جنى فقال:

«وإنما كان الأصل فى قام قوم وفى خاف خوف وفى طال طول وفى باع بيع وفى هاب هيب، فلما اجتمعت ثلاثة أشياء متجانسة وهى الفتحة والواو أو الياء وحركة الواو والياء كره اجتماع ثلاثة أشياء متقاربة فهربوا من الواو والياء إلى لفظ تؤمن فيه الحركة وهو الألف وسوغها انفتاح ما قبلها»[٣].

وفى الأمثلة التى ذكرها ابن جنى يوجد التركيبان aya - awa وقد عدهما مكروهين، ولم يقل بالقياس على النموذج اللغوى وبذلك تقل الحاجة إلى منهج فليش بالقياس الموحد.

---

(٣) سر الصناعة ١/ ٢٥.



وكان ممن خرج على الأقدمين وثار على رأيهم من المحدثين الدكتور شاهين فقد قال: «القدماء أخطأوا فى تصور الإبدال فيما سبق لسبب بسيط هو عدم وجود العلاقة الصوتية المشروطة لحدوث الإبدال»[٤]. وعلى أساس هذه التخطئة حاول أن يفسر المسألة برأى جديد يقول: «وإننا لنقرر ابتداء أن أساس الحل فى رأينا لن يتأتى إلا من طريق التحليل الصوتى للعناصر المركبة أعنى تحليل المزدوج أولا إلى عناصره البسيطة، ومن طريق هذا التحليل نستطيع التعرف على ما تبقى من العناصر الصوتية وما حذف منها، كما نستطيع تحديد وظيفة الهمزة فى السياق الصوتى»[٥]، وقد أقام نظرية جديدة لتفسير إبدال الهمزة على أساس النبر وأوضح مبادئ تتعلق بالمشكلة وهى خصائص نطقية تكونت للسان العربى من أهمها ما يأتى:

١- الأصل والأغلب فى الوقف السكون ولكنهم لم يطبقوا ذلك منهجيا، بل اعتبروا حروف العلة وأشباهها سواكن لا حركات، ولئن جاز ذلك بالنسبة لأشباه حروف العلة فإنه لا يجوز بالنسبة لحروف العلة نفسها إلا لضرورة نحوية أو دلالية.

٢- قالوا: لا يبتدأ بساكن بل بمتحرك، ولكنهم لم يعتبروا الحركة إلا إذا كانت تابعة لحرف، وبدهى أنهم أخرجوا حروف العلة وأشباهها من جملة الحركات مع أننا نرى أن حروف العلة تكبير للحركات.

٣- العرب كانوا يكرهون النطق بمقاطع مفتوحة متوالية، وبذلك تفسر كراهيتهم لتوالى الحركات الذى يضعف النظام المقطعى[٦].

وعلى هذا يتضح رأى المؤلف فى أن الهمز كان لدى العرب ذا وظيفتين: الهروب من تتابع الحركات، والمبالغة فى النبر فيتحول بذلك نبر الطول إلى نبر توتر[٧] وعلى هذا الأساس قرر نظريته، ولتقريرها نقول:

الهمزة إما بدل من واو أو ياء أو ألف، فإذا كانت الواو أو الياء فى كلمة فإما أن تكون فى أولها أو وسطها أو آخرها كما قررنا، فإذا كانت فى آخرها مثل كساء وبناء يقول الدكتور شاهين إنه لا إبدال فى هذا بل إن العربى يكره الوقف على مقطع مفتوح ويريد إقفاله فأحل الهمزة محل صوت اللين لا على سبيل الإبدال بل من أجل تصحيح نهاية الكلمة[٨]، ويقرر أنه لا توجد واو ولا ياء وإنما هو ضمة أو كسرة، فبالتحليل الصوتى لكلمة كساء ترى kisaw ← kisau ← kisa ، ويتأكد ذلك بالنطق، فنحن نقول كساو

(٤) القراءات القرآنية ص٧٧. (٥) المصدر السابق ص٧٨.
(٦) المصدر السابق ص٧٨، ٧٩. (٧) المصدر السابق ص٨٠.
(٨) المصدر السابق ص٨٢.

فننطق ضمة بعد الألف وبناى فننطق كسرة بعد الألف فالمقطع مفتوح وإن بدا شكليا أو الواو والياء ساكنتان، والحقيقة أن الملتقى فتحصة طويلة + ضمة أو كسرة، وليست هناك واو أو ياء فالمقطع مفتوح، فلما أريد إقفاله للوقف حولت الحركة إلى همزة، وقد فسر ألف التأنيث الممدودة بذلك فقال إنها تحولت إلى همزة لكراهية العرب الوقف على مقطع مفتوح[٩]، وقد جعل الدكتور شاهين الوقف بالهمزة مثل حبلأ ورأيت رجلأ وهو يضربهأ، والوقف بهاء السكت مثل قه وارمه وغلامهوه وغلامكيه وواجعفراه، هربا من المقطع المفتوح، فالمقطع قد أقفل بصوت لا وظيفة له سوى الإقفال، وهما متشابهان الهمزة والهاء إذ هما من الأصوات الحنجرية، ويود الدكتور شاهين لو أطلق على الهمزة اسم السكت مثل الهاء[١٠]، وإذا كانت الواو أو الياء فى وسط الكلمة مثل قاول وبايع وقلايد وعجاوز ونبايف وسياود فإنه يفسر الإبدال فى ذلك بأنه أتى بالهمزة هربا من تتابع الحركات فقاول بالكتابة الصوتية qawil وبايع bayi ثم أصبحتا qauil bau فيتبين من ذلك التقاء ثلاث حركات متتابعة، ففى الأول (قاول) الفتحة الطويلة والضمة القصيرة والكسرة القصيرة، وفى الثانى (بايع)الفتحة الطويلة والكسرتان القصيرتان، ولذلك نبر المقطع الثانى بالهمز فصار qa,il قائل، ba,i بائع[١١] ويفسر الدكتور توالى الحركات أيضا بأنواع أخرى من النبر.

١- قول وبيع ليس فيهما موقع نبر.

٢- قول وبيع بتشديد العين - مزدوج اكتسب مناعة بالتشديد وهو توتر نبرى[١١].

٣- خطايا تغير النبر إلى طول الحركة وهذا عند من لا ينبرون[١١].

٤- وقد وصف نوعا من النبر لا تحول معه الواو أو الياء وسط الكلمة همزة وإنما يفصل بين عنصرى المزدوج بالهمز بعد أن كانا متصلين، وهذا من خصائص الناطق البدوى، وقد لجأ إلى ذلك نتيجة شعوره بأن الانزلاق بين العنصر الأول من عنصرى المزدوج إلى العنصر الثانى لا يحقق صورة النبر كما تعودها، فكان الهمز وسيلة إلى ذلك دون أن يسقط من المزدوج شيئا، وهذا يتأتى فى مثل الكلمات الآتية ونوضحها بالكتابة الصوتية هكذا:

خطوات ← خطؤات	xutuat ← xutuat
تفاوت ← تفاؤت	tafa' ut ← tafaut

---

(٩) المصدر السابق ص٨٤. (١٠) المصدر السابق ٨٥، ٨٦.

(١١) المصدر السابق ص٨٨، ٨٩.

أما ترينى ← ترئنى	turiannt	turi' annt ←
إنهم مايتون ← مائتون	maitun	ma'itun ←
درى ← درىء	durriun	durri' un ←
تيمموا ← تأمموا	ta - i - ammamu	ta' ammamu ←

وسقط فى المثال الأخير من الحركة الثلاثية عنصرها الثانى (i) من (aia) وهذا من أجل النبر[١٢]، أما إذا وقعت الواو فى أول الكلمة مثل وواصل ووعاء ووقتت ووجوه فقد فسره على أنه قد نبر إلى الهمز لعدم إمكان النطق بحركة فى بدء الكلمة ولو كتبنا الكلمة الأولى وواصل كتابة صوتية نجد أنها تبدأ بحركات يصعب نطقها وهى waw a sil، وتكتب عند التحليل إلى ua-ua-sil فنبر المقطع الأول فصارت كتابتها a- wasil[١٣] ومن هنا رد سبب الهمز فيما سبق ونحوه إلى الاتجاه العام السابق وهو كراهة أن تبدأ الكلمة فى العربية بحركة[١٤].

أما إبدالها من الألف فى مثل ولا الضالين وشابة ودابة ونحوها مما وقعت فيه حركة طويلة بعدها صوتان ساكنان فقد فسره على أساس النبر فيقول: ونفسرها نحن بما سبق أن قررناه من أن النبر فى لسان قبائل البادية يأخذ صورة التوتر، على حين يأخذ صورة الطول فى لسان غيرهم من الحضريين[١٥]، وفى مثل ساق وباز ويوقنون ونحوها مما وقعت فيه حركة طويلة بعد صوت ساكن أو لين مزدوج عند همزها يقرر أيضا نفس المبدأ فيقول لا يمكن تفسيره بغير النبر الذى تعودته ألسنة بعض بنى أسد، هذا هو اتجاهه العام، وإن كان قد تعرض إلى أن ما نحن بصدده من أمثلة الهمزة هو من الأحداث الصوتية اللهجية، فذكر أن مثل ولا الضألين لغة كما قال أبو حيان وأبو الفتح[١٦] ونسب بعض الهمز السابق إلى بنى أسد وهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها[١٧].

---

(١٢) المصدر السابق ص١٣٠، ١٣١. (١٣) المصدر السابق ص٩١.

(١٤) المصدر السابق ص١٢٩. (١٥) المصدر السابق ص ١٢٨.

(١٦) المصدر السابق ص١٢٦، ١٢٧ وقراءة: اشتروا الضلالة، لغة عند الكسائى، وهى عند البصريين لحن، فالظاهرة لهجية وإن لم تقبلها قواعد البصريين، ويزيد أمرها وضوحا نسبتها إلى قبيلة غنى من قبائل وسط الجزيرة (يهمزون ما لا يهمز) كما يقرره صاحب اللسان ١/١٧ ورثأت زوجى - لبأت بالحج،إلخ.

(١٧) المصدر السابق ص١٢٨.

نظراتنا حول رأى الدكتور شاهين :

لقد تناول الدكتور شاهين الموضوع وفسره على أنه لا إبدال فيه ولكن النبر هو الذى تسبب فى هذا التغيير، ولكن مقاييسه لم تف بالمطلوب من التفسيرات والتوجيهات:

١- وفيه ثلاث نقاط:

(أ) تحدث الدكتور شاهين عن الواو والياء فى آخر الكلمة وقال إن السبب فى إحلال الهمزة محلهما فى هذه الحال هو أن العربى يكره الوقف على مقطع مفتوح ويريد إقفاله، والواقع أن الكلمات لم توضع فى الأصل لتستعمل مفردة بل لتستعمل فى تراكيب تؤدى معنى مقصودا، وعلى هذا فالوصل هو طريق استعمال ألفاظ اللغة لا الوقف، فإذا قيل كساو الصيف خفيف وبناى البيت ثابت الدعائم مثلا فليس هنا وقف على مقطع مفتوح، وكذلك لو نطقنا كساو وبناى (بالتنوين) لم يوجد المقطع المفتوح أيضا.

(ب) ثم لماذا لم تقلب كل من الواو والياء همزة فى مثل غاى وراى وطاو وراو مع تحقق ما قال فيها لو فرضنا حالة الوقف؟ ولماذا لم يحدث ذلك فى مثل التراخى والفيافى والتسامى مع وقوع الياء طرفا ووجود المقطع المفتوح فى حال الوقف أيضا؟.

(جـ) على مقياس الدكتور شاهين لا نجد تفسيرا لاختلاف حالات التثنية والجمع المتعددة من وجوب بقاء الهمزة فى مثل قراء وقلبها واوا فى مثل صحراء، وترجيح أحدهما فى مثل كساء وبناء وعلباء، ولو سلمنا له بأنه يعلل للألفاظ المفردة فإنه قد علل لنحو حمراء بأنها نبرت لإقفال المقطع، وكان يمكن أن يقفل بطريق آخر مثل حبلاً فيقال حمراً مثلا؟ فلم اختص كل بطريق؟ على أنه قد تبع بروكلمان فى أن علامة التأنيث تطورت على النحو التالى ä - a - ah - at ومعنى ذلك أن العربى كان ينطق بها حمرت - ثم حمرة - ثم حمرى، ثم حمراء، وهذا التطور لا دليل عليه، ومع ذلك فلو تصورنا صحته لأمكن أن يقفل المقطع فيقال حمرت - أو حمرة بالرجوع إلى أصل سابق، وبهذا يتبين عدم دقة رأيه المذكور.

٢- وقد تحدث أيضا عن الواو والياء فى وسط الكلمة وسبب تغييرهما إلى همزة بأنه لتتابع الحركات، ورأيه ذلك ينطبق على نحو قاول وبايع، فعلى أمر، وهما مثل قائل وبائع اسمى فاعل فلماذا فرق بينهما؟، كذلك يماثل عجائز ونيائف جداول وقساور ومعاول ومقاول، فما الفرق الذى سبب القلب أولا ومنعه ثانيا؟، مع تحقق قانونه فيه وهو تتابع الحركات مما يستدعى الهرب منه إلى النبر بالهمزة ولم يحدث.

٣- على أنه لم يفرق بين ما يجب وما يجوز وما يمتنع من الهمز فى الألفاظ التى وجدت فيها واو أو ياء أولا، فبعضها يجب همزه مثل وواصل - وواق - وولى وبعضها يجوز مثل وسادة - وشاح - وجوه، وبعضها يمتنع مثل واصل - يواقيت - وورى.

ولست مع المحدثين فى اعتبار الواو والياء غير المدتين حركتين، فإن التقسيم المقطعى يؤكد اعتبارهما صوتين ساكنين مثل: يقع ويذر ووزن ووعد فكل من الكلمات السابقة مكون من ثلاثة مقاطع كل منها مكون من صوت ساكن + لين قصير، وفى مثل: وجوه لا يمكن الاعتراف بأن الواو مجرد حركة؛ لأنه إذا كانت كذلك فقد قلبت الضمة (u) على هذا الفرض همزة فى أجوه، ومن أين أتت ضمة الهمزة بعد القلب المذكور؟

وبذلك نتأكد أن طريقة الأقدمين أشمل وأضبط.

ولسنا نشك لحظة فى أن ما تعوده اللسان العربى فى معاملته للواو والياء وللهمزة ناشئ عن بعض الكراهات التى لم يألفها غير أن أسباب هذه الكراهات تحتاج فى الحقيقة إلى شيء من التحليل يكشف عن مدى ما تحتويه من ثقل أو تنافر يلجأ الناطق حياله إلى المخالفة أو التصرف بصورة ما هربا من هذا الذى يكرهه[١٨].

وتخفيف حرف العلة بالقلب همزة هو ما رآه الأقدمون وقالوا به وذلك متحقق أيضا فى تخفيف الهمزة وتحويلها إلى واو أو ياء أو ألف، وذكر ابن سيده أن شيوع إبدال الهمزة لشبهها بحروف العلة من جهات الحذف وجعلها بين بين وقلبها على حركة ما قبلها، ومن أجل أنها من أقصى الحلق، فإذا أبدلت أولا جرى اللسان إلى جهة القدام فهذا يطَّرد عليه الإبدال فلاجتماع الشيئين من مناسبة حروف العلة وأنها من أقصى الحلق يستمر بها اللسان لإخراج الحرف جاز أن تبدل من غيرها[١٩].

وقال أيضا إن حروف العلة تقلب لطلب الخفة والكثرة والمناسبة، وقد تحدث علماء الصرف عن هذا النقل حتى أنهم قالوا فى تعريف الإعلال:

تغيير حرف العلة بالقلب أو التسكين أو الحذف للتخفيف[٢٠].

وعدوا الهمزة من حروف الإعلال وقالوا: إنها حرف شديد مستثقل يخرج من أقصى الحلق؛ فلذلك الاستثقال شاع فيها التخفيف لنوع من الاستحسان[٢١]، ومن هنا منع وقوع الهمزة فى كلمة فاء وعينا معا أو عينا ولاما معا وعلل ذلك ابن جنى بثقل الهمزة فكيف

---

(١٨) المصدر السابق ٧٨.
(١٩) المخصص ١٣/ ٥٦٨.
(٢٠) شرح الشافية للحسينى ص ١٨٥.
(٢١) شرح الشافية للعصام ص١٥٠.

بالهمزتين معا، قال فى سر الصناعة: «وإنما لم تجتمع الفاء والعين ولا العين واللام همزتين لثقل الهمزة الواحدة لأنها حرف سفل فى الحلق وبعد عن الحروف وحصل طرفا فكان النطق به متكلفا، فإذا كرهت الهمزة الواحدة فهم باستكراه الثنتين ورفضهما - لاسيما إذا كانتا مصطحبتين غير مفترقتين فاء وعينا أو عينا ولاما - أحرى، فلهذا لم تأت فى الكلام لفظة توالت فيها همزتان أصلا ألبتة»(٢٢)، فلهذا كان الإبدال بين الهمزة وتلك الحروف الثلاثة، ولأجله أيضا خففت الهمزة بتسهيلها وجعلها بين بين وكل ذلك من ضروب التخفيف وألوانه.

والهمزة لأنها صوت حنجرى شديد مما يناسب البيئة البدوية وهى قبائل وسط الجزيرة وشرقها فهى أساسا من لهجات تميم وقيس وبنى أسد ومن جاورهم، والتسهيل فى أصله لهجة البيئة المتحضرة وهم أصل الحجاز وبخاصة قريش فى مكة والأوس والخزرج فى المدينة.

ولم يكن الحجازيون جميعا بعيدين عن تحقيق الهمز إلى تسهيله بل منهم من استهواه تحقيقه وهم من سماهم سيبويه (أهل التحقيق) فكانوا ينطقون بالهمز كإخوانهم من القبائل المخففة له.

يقول سيبويه: «وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبىء وبريئة وذلك قليل ردىء»(٢٣).

ومن قبائل الحجاز (عكل) التى هى من طابخة، وطابخة من خندف التى سكنت الحجاز ونسب إليها ابن جنى (ترقؤة) فقال إنها لغة لبعض عكل(٢٤).

ومما يدل على مناسبة الهمز للبدو لثقل الهمزة أن ابن جنى قال: إن بعض من تقوى لغته ويتعالى تمكينه وجهارته دون أن يطفى به طبعه ويتخلى به اعتماده ووطؤه يبدل من الألف همزة فيحملها الحركة التى كان كلفا بها ومصانعا بطول المدة عنها فيقول شأبة ودأبة(٢٥) وسمعها بعضهم من بنى كلاب(٢٦).

---

(٢٢) سر الصناعة ١/ ٨١.

(٢٣) الكتاب ٢/ ١٧٠ واللسان ١/ ١٤: أتى النبى ﷺ رجل فقال له: يا نبىء الله، قال الرسول ﷺ له: «إنا معشر قريش لا ننبر». التهذيب ١٥/ ٢١٥.

(٢٤) الخصائص ٣/ ٢٠٧.

(٢٥) المصدر السابق ٣/ ١٢٦.

(٢٦) اللسان ١/ ١٤.

وقد حاول ابن جنى تفسيرها بأنه كره اجتماع الساكنين الألف والحرف الأول من المضعف بعدها فحركت الألف لالتقائها فانقلبت همزة لأن الألف حرف ضعيف واسع المخرج لا يتحمل الحركة، فإذا اضطروا إلى تحريكه قلبوه إلى أقرب الحروف منه وهو الهمزة(٢٧).

وهو صورة من صور التوتر النبرى على لسان بعض البدو(٢٨).

وقد قال عيسى بن عمر: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا(٢٩).

والمراد بالنبر الهمز وقد كانت قبائل العرب يتأثر بعضها ببعض فى الهمز والتسهيل فيمكن أن نجد أمثلة قد سهلت فيها الهمزة فى بيئة نَجْد والعكس فى بيئة الحجاز، فقد قرأ أهل الكوفة قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً ﴾ بالياء والتخفيف(٣٠) (ومن يوت).

وكذلك قرئت هذه الآيات: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ أنبيهم - ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ - مستهزون - بغير همزة(٣١)، وتخفف بنو أسد لرؤف وأهل مكة من أهل الحجاز يحققون بعض الهمزات كبرىء ونبىء.

وهذا كله دليل على تأثر هذه القبائل بعضها ببعض فى الهمز والتسهيل بحيث انتشر ذلك على لسان القبائل ولا سيما بعد التوحد اللغوى.

(٢٧) سر الصناعة ١/ ٨٢.
(٢٨) القراءات القرآنية ١٩٨.
(٢٩) اللسان ١/ ٢٢، والكتاب ٣/ ٥٣.
(٣٠) مختصر الشواذ ص١٧.
(٣١) المصدر السابق ص٢ وما بعدها.

إبدال الهمزة من حروف العلة

الأمثلة التى تتبادل فيها الهمزة وحروف العلة لها صور منها ما يكون واجبا ومنها ما يكون جائزا ومنها ما يعد شاذا.

ومن أمثلة ذلك:

١ - أمثلة تبدل فيها الهمزة وجوبا: حمراء وصفراء وصحراء - علاء - كساء وقضاء وبناء - عباءة وصلاءة - عظاءة - علباء وحرباء - أولى.

٢ - أمثلة تبدل فيها الهمزة جوازا: أقتت ووقتت - أجوه ووجوه - إشاح ووشاح، إعاء ووعاء - إسادة ووسادة - أناة ووناة - أسماء ووسماء - ألل ويلل - رئبال وريبال - أده ويده.

٣ - أمثلة تبدل فيها الهمزة شذوذا: الضألين - جأن - شأبة - دأبة - اشعألّ - ادهأمت - ابيأض - المشتئق - أحب المؤقدان إلى مؤسى - العألم - الخأتم - نأر - قوقأت الدجاجة - حلأت السويق - رثأت المرأة زوجها - لبأ الرجل بالحج[1] - سواتهما، أفى السوتنتنة[2] - ربأ[3].

والذى يبدو أن هذا الإبدال لاتسوغه علاقة صوتية، وقد أوضح بعض المحدثين المفارقات بين حروف العلة الثلاثة وبين الهمزة من عدة وجوه كما ذكرنا.

ويقسم القدماء الهمز - كالأمثلة المذكورة - إلى واجب وجائز موافق للقياس فهو لذلك مطرد، وإلى مخالف له فلا يطرد، وقد اطرد عنهم قلب ألف التأنيث همزة، وإبدال الهمزة من الواو والياء منه ما يكون واجبا قياسيا ومنه ما يخرج عن القياس، وذلك فى موضعين: أحدهما: أن تقر الهمزة الواجب تغييرها فلا تغيرها، والآخر: أن ترتجل همزا لا أصل له ولا قياس يعضده، فمن أمثلة الأول: خطائئ ومنه قولهم: غفر الله له خطائئه ودريئة ودرائئ، ومن الثانى أمثلة كثيرة ذكر بعضها هنا كالعألم والسأسم والخأتم، وكلا

(١) ينظر فى هذه الأمثلة: سر الصناعة ١/ ٨٢ - ١١٥ والخصائص ٣/ ١٤٢-١٤٩ والمحتسب ٢/ ١٤٦، ١٤٧، ٣٣١ ومواضع أخرى متفرقة فيه، والمفصل ١٠/ ٩ وما بعدها.

(٢) المحتسب ١/ ٧٢. (٣) المصدر السابق ٢/ ٤٤.

النوعين غير مقيس[٤] وكله شاذ غير مطرد فى القياس[٥] وقال أبو العباس: قلت لأبى عثمان: أتقيس ذلك؟ قال: لا ولا أقبله[٦].

والتفسير الحق يجعل الأمثلة التى وصفت بالجواز والشذوذ من اختلاف اللهجات ولم يكن ذلك بعيدا عن فهم بعض القدماء، فقد نبه عليه ابن جنى بعبارات واضحة تفيد أن هذا التعبير أو ذاك لهجة عربية فيقول - معلقا على قراءة: ﴿ فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جأن ﴾ بالهمز - : حكى أبو العباس عن أبى عثمان عن أبى زيد قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) فظننته قد لحن حتى سمعت العرب تقول : شأبة ودأبة ويؤكد ذلك بشعر سمع عن العرب من مثل قوله:

وبعد انتهاض الشيب من كل جانب

على لمتى حتى اشعأل بهيمها[٧]

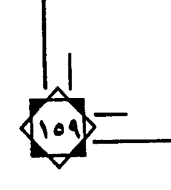
وهذا ليثبت وروده بأدلة واقعية تفيد أنه لهجة عربية يتكلم بها ويقول عن مثل العألم والخأتم أنه «قد حكى عنهم» فإلى من يعود الضمير؟ إنه لا شك عائد إلى العرب الذين يدأب على ذكر اسمهم فى هذا الموضوع، كأن يقول - فيما سبق هذا: فإن قيل: فلم قلبت العرب لام فعلى - بفتح الفاء إذا كانت اسما وكان لامها ياء - واوا إلخ، وقوله : فالجواب: إنهم إنما فعلوا ذلك إلخ[٨].

وهذا كلام يفصح عن أن هذا التحقيق للهمز وعدمه لهجتان عربيتان مسموعتان عن فريقين لكل منهم اتجاه فى النطق، غير أن ابن جنى لا يكاد يفصح عن اسمى الفريقين اعتمادا منه على أن قارئ كتبه على معرفة بلهجات العرب.

ويذكرالأزهرى أن عظاءة لغة فى عظاية وإعاء لغة فى وعاء[٩] ونسب صاحب البحر إلى هذيل قولهم فى (وعاء): (إعاء) عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾[١٠] قال: وقرأ ابن جبير (من إعاء) بإبدال الواو المكسورة همزة كما قالوا: إشاح وإسادة فى وشاح ووسادة، وذلك مطرد فى لغة هذيل يبدلون من الواو المكسورة الواقعة أولا همزة[١١] وتنسب أيضا لتميم[١٢] وكذلك همزها بنو عقيل، ومثلها الحؤت فى الحوت همز شاذ.

---

(٤) الخصائص ٣/ ١٤٢ وما بعدها.
(٥) سر الصناعة ١/ ١٠٢.
(٦) المصدر السابق ١/ ٨٣.
(٧) المصدر السابق ١/ ٤٧ والمحتسب ١/ ٤٧.
(٨) سر الصناعة ١/ ٩٩، ١٠٠.
(٩) التهذيب ٣/ ١١٨.
(١٠) يوسف ٧٦.
(١١) البحر ٥/ ٣٣٢.
(١٢) الإبدال لابن السكيت ص٥٦، ٥٧.



وينسب همز المشتق لبعض بنى سليم، نقل الأزهرى عن الفراء قال:سمعنا أعرابيا من بنى سليم ينشد:

فإنهـا حيـل الشيطـان يحتئـل

وقال: وغيره من بنى سليم يقول: يحتال بغير همز.

قال: وأنشد بعضهم.

يـا دار مـى بـدكـاديـك البـرق سـقيـا وإن هيـجت شـوق المشـتئق

وغيره يقول المشتاق[١٣].

وعد من همز التوهم همز ما لا همز فيه إذا ضارع المهموز، روى ذلك الفراء عن بعض العرب قال: وسمعت امرأة من غنى[١٤] تقول: رثأت زوجى بأبيات،كأنها لما سمعت: رثأ اللبن ذهبت إلى أن مرثية الميت منها قال: ويقولون: لبأت بالحج وحلأت السويق فيغلطون لأن حلأت يستعمل فى طرد الوارد عن الماء ومنعه منه يقال: حلأته عن الماء: طردته ومنعته وحلأ السويق: حلاه همزوا غير مهموز لأنه من الحلواء، وورد فى اللغة: لبأت - بتشديد الباء وتاء التأنيث - وقع اللبأ وهو أول اللبن - فى ضرعها، ويقال: لبأ بالحج - كلبى، فكأنه من اللبأ»[١٥].

وفى شأبة ودأبة نسب الهمز إلى بنى كلاب وعقيل وتميم وهذيل[١٦]،وعلى ذلك وصف بالشذوذ لخروجه على القواعد.

ونسب الهمز فى (جؤن) إلى عقيل، وهم فرع من تميم[١٧] وإلى تميم والكلمة بالواو لأهل الحجاز[١٨]، وبعضم يصف الكلمة بالواو بأنها خطأ يقولون: (جونة والصواب جؤنة وجمعها جؤن)[١٩].

وقال أبو بكر الأنبارى: الحدأ جمع الحدأة وهو طائر... وقال أبو حاتم: أهل الحجاز يخطئون فيقولون لهذا الطائر: الحديا وهو خطأ ويجمعونه الحدادى وهو خطأ، قال

---

(١٣) التهذيب ٥/ ٢٤١ (حال).

(١٤) غنى من قيس وهى من القبائل التى تميل إلى الهمز. جمهرة أنساب العرب ص٢٤٤.

(١٥) التهذيب ١٥/ ١٢٤، ٢٨٣، ٢٣٤ والقاموس ١/ ١٣، ٢٨.

(١٦) المصدر السابق ١٥/ ٦٩١ باب الهمز وتحقيقه، والدرر اللوامع ٢/ ٢٣٠، والمنصف ١/ ٢٨١.

(١٧) التهذيب ١١/ ٤ وقلائد الجمان ص٢١٠.

(١٨) المزهر ٢/ ٢٧٦.

(١٩) تثقيف اللسان ص٨٥.

الأزهرى: وروى عن ابن عباس أنه قال: لا بأس بقتل الحدو والأفعو للمحرم، فكأنه لغة فى الحدأ، والحديا تصغير الحدو[٢٠]. لكن لا يصح وصف ذلك بالخطأ لأنه لهجات.

وهى لغة أهل اليمن[٢١] وكذلك آخذه وواخذه لغة لأهل اليمن[٢٢]، والطائيون كانت مساكنهم باليمن قبل أن يجاوروا بنى أسد[٢٣] فانتقلت معهم الظاهرة بعد الرحيل، وأهل الحجاز أوصدت الباب إذا أطبقت عليه شيئا، وتميم تقول آصدت[٢٤].

إبدال حروف العلة من الهمزة

إبدال الواو:

١- من همزة أصلية كأن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها ضمة فتبدل تخفيفا مثل جون فى جؤن وسولة فى سؤلة وفى تخفيف: هو يضرب أباك: هو يضرب وباك، وفى تخفيف: هو يقتل أخاك: هو يقتل وخاك، فالواو هنا مخلصة وليس فيها شىء من بقية الهمزة[٢٥].

وتقول أيضا فى آخيت واخيت، فالواو بدل من الهمزة، لأن لام الكلمة واو فهى مأخوذة من الأخوة ولا توجد كلمة فاؤها ولامها واو، وقرأ ورش وأبوجعفر ﴿لا يواخذكم الله باللغو﴾[٢٦].

٢- من همزة مبدلة كقولك فى تخفيف: يملك أحد عشر هو يملك وحد عشر، وفى يضرب أناة: يضرب وناة، وذلك أن الهمزة فى أحد وأناة بدل من واو وأصله وحد؛ لأنه من الواحد وامرأة أناة من الونى وهو الفتور[٢٧].

٣- من همزة زائدة مثل أن تقول: غلام وحمد فى غلام أحمد وفى هو يكرم أصرم هو يكرم وصرم، فالهمزة فى أحمد وأصرم زائدة[٢٨].

---

(٢٠) التهذيب ١١/ ١٨٧، ١٨٨. (٢١) المصباح المنير ص٨، ٩.

(٢٢) المصدر السابق ص٦. (٢٣) معجم ما استعجم ١/ ٦٠ وقلائد الجمان ص٧٢.

(٢٤) المزهر ٢/ ٢٧٧.

(٢٥) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ص ١٠٩ وانظر التهذيب ١١/ ٢٠٤.

(٢٦) سورة البقرة الآية ٢٢٥. وانظر الاتحاف ١١٧.

(٢٧) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٠٩ وانظر التهذيب ١١/ ٢٠٤.

(٢٨) المصدر السابق (دار الكتب) ص ٢٩٥، ٢٩٦ والأزهر، الوجه الثانى من الورقة ص١٠٩ وانظر القاموس ٤/ ٤٣٩، ٤٦٧.

إبدال الألف:

١- إذا التقت همزتان الأولى مفتوحة والثانية ساكنة تبدل من الثانية ألف مثل آدم وآمين، وهذا الإبدال واجب.

٢- اجتماع الهمزتين المتحركتين فى أول الكلمة مثل أأنذرتهم يجوز تحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية وبألف بين الهمزتين وحذف الأولى منهما إذا فهم المعنى.

وفى هذه الآية اجتمعت همزة الاستفهام وهمزة القطع فى الفعل (أنذر) وفيها عدة أوجه(٢٩):

- قرأ بتحقيق الهمزتين عاصم وحمزة والكسائى وغيرهم، وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ورش من طريق الأصبهانى وابن كثير ورويس وغيرهم، ومعنى تسهيل الهمزة جعلها بين بين، يقول سيبويه:

«اعلم أن كل همزة مفتوحة كانت قبلها فتحة فإنك تجعلها إذا أردت تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة وتكون بزنتها محققة غير أنك تضعف الصوت ولا تتمه وتخفى لأنك تقربها من هذه الألف»(٣٠).

قرأ بألف بين الهمزتين ﴿أآنذرتهم﴾ ابن عباس وعبد الله بن أبى إسحاق وهشام فى أحد طرقه.

وقرأ بحذف الهمزة الأولى الزهرى وابن محيصن، وتحذف لدلالة المعنى عليها وثبوت ما عادلها وهو (أم)(٣١).

وهناك قراءة بحذف الهمزتين ﴿سواء عليهم نذرتهم﴾.

ونسب تحقيق الهمزتين إلى تميم وتسهليها بين بين إلى أهل الحجاز وإدخال ألف بينهما إلى بعض الحجازيين وإلى بعض تميم، وقال سيبويه:

«أهل الحجاز يخففونهما جميعا»(٣٢).

٣- إبدال الهمزة ألفا فى مثل رأس وقرأت وأخطأت واحبنطأت وشأمل فتصير ألفا تقول فيها: راس - قرات - أخطات - احبنطات - شامل. وفى الحديث: **(ارجعن مازورات غير ماجورات)** فأنت مخير - هنا بين التحقيق وعدمه - فى حالة سكون الهمزة وفتح ما قبلها وهو إبدال قياسى، ويرى الكوفيون فى الحديث أنه إنما أريد به ازدواج الكلام

---

(٢٩) الاتحاف ٤٤، ١٢٥، والنشر ٣٦٣.

(٣٠) الكتاب ٣/ ٥٤١، ٥٤٢ وشرح السيرافى، وسر الصناعة ١/ ٥٣.

(٣١) البحر ١/ ٤٨ والإتحاف ص٤٤.

(٣٢) البحر ١/ ٢٧، والكتاب ٣/ ٥٥٠، ٥٥١.

لقوله ماجورات(٣٣) وفى الهمزة المفتوحة المتحرك ما قبلها مثل ملأ يجوز تسهيلها بقلبها ألفا، وهو إبدال غير قياسي؛ لأن مخرج الهمزة وكثيرا من صفاتها تختلف عن الألف، ولذا يعد من باب اختلاف اللهجات.

إبدال الياء : وهو على أوجه:

١- واجب: إذا اجتمعت همزتان والأولى منهما مكسورة تقلب الثانية ياء مثل إيمان وإيلاف مصدرى آمن وآلف وهذا لون من الإبدال القياسى الواجب.

٢- جائز: يجوز فيه تحقيق الهمزة وتسهيلها بقلبها ياء وهو نوعان:

(أ) قياسي: يتحقق فى كل همزة سكنت وانكسر ما قبلها، فإذا أردت تخفيفها قلبتها ياء خالصة، فتقول فى تخفيف ذئب وبئر: ذيب وبير، وكما إذا انفتحت وانكسر ما قبلها مثل بئر ومئر بكسر الأول وفتح الثانى، تقول فيهما: بير ومير، وفى تصغير: أقؤس وأرؤس: أقيس وأريس.

(ب) غير قياسي: كما أبدلوا الهمزة ياء لغير علة طلبا للتخفيف مثل: قريت وتوضيت فى تخفيف قرأت وتوضأت، وكما قال زهير:

جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا وإن لا يبد بالظلم يظلم

أراد: يبدأ فأخرج الكلمة إلى ذوات الياء.

ومثله قوله الآخر:

وكنت أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجى

فأجراها وصلا ولو كانت همزة أو نويت همزة ما جاز أن يأتى بها وصلا. وكذلك قول الشاعر.

إن السباع لتهدا عن فوارسها والناس ليس بهاد شرهم أبدا

أبدل المهزة ياء ضرورة(٣٤).

ويخضع تخفيف الهمزة بإبدالها واوا لنظرة السابقة فهى تعود بنا إلى اللهجتين المشار إليهما.

---

(٣٣) سر الصناعة (الأزهر) ١٢٨، ١٢٩، وانظر اللسان ١/ ١٢٤، ١٢٨، ١٥٢، ١٩٠، ٣٦٣، ٣٦٤.

(٣٤) سر الصناعة (دار الكتب) ص٣٧٩، ٣٨٠.

والقدماء يفسرون ذلك على الإبدال، فالهمزة هي الأصل في الأسلوب العربي والواو التي أبدلت منها تعد دخيلة عليها، وكأنهم بذلك يعدون الهمز صفة من صفات اللغة المشتركة النموذجية لا صلة له باللهجات من قبل.

وتذكر معجمات اللغة هذا الاتجاه، يقول صاحب اللسان:

«ورجل سؤلَة: كثير السؤال وأصل السول الهمز عند العرب استثقلوا ضغطة الهمزة فيه فتكلموا به على تخفيف الهمزة[٣٥] وقال ابن برى: الهمز فى جؤنة وجؤن هو الأصل، والواو فيها منقلبة عن الهمزة فى لغة من خففها[٣٦]، وكان الفارسى يستحسن ترك الهمزة، وأصله الهمز[٣٧]، ولكن الهمز - كما ذكرنا - لون من ألوان النبر لجأت إليه القبائل البدوية كبنى تميم، وينسب التسهيل للقبائل الحضرية كبعض أهل الحجاز، وعلى هذا فلا إبدال بين الهمزة والواو ولا صحة لما يقال فى المعجمات وغيرها من أن الهمزة فى أناة بدل من الواو فى وناة[٣٨] وإنما يقال: إنهما لهجتان عربيتان غاية الأمر أن الواو لهجة أهل التخفيف من الحضر والهمز فى الأصل لهجة بنى تميم ومن على شاكلتهم، وعلى هذا قيل أحدت الله ووحدته ورجل أحد ووحد»[٣٩].

وفى إبدال الهمزة ألفا أو ياء نلحظ الاتجاه اللهجى فى مثل رأس وأخطأ وملأ وذئب وأفؤس وأرؤس ونحوها عند تسهليها وإن كان القدامى سموا بعضه إبدالا قياسيا - حال سكون الهمزة - وسموا بعضه الآخر إبدالا غير قياسى - حال تحريك الهمزة.

فأكثر العرب تحقق الهمزة الساكنة المتحرك ما قبلها ولكن تميما تميل إلى تخفيفها بإبدالها مدة من جنس حركة ما قبلها واستعمال التخفيف فى غير ذلك غير مقيس حقا، فإبدال الهمزة المفتوحة ألفا غير قياسى، وإبدال الهمزة ياء فى مثل قريت وتوضيت طلبا للخفة غير قياسى كذلك، ولذا ينص اللغويون على عدم جواز وضع ياء مكان الهمزة. يقول صاحب اللسان: «ولا تقل أخطيت وبعضهم يقوله»[٤٠] و«لا تقل توضيت وبعضهم يقوله»[٤١].

والقياس - كذلك - يمنع أن تحذف الهمزة كما فى (يبد) فى قول زهير، وقلبها ياء، حتى ساغ له أن يستخدمها وصلا فى قافية البيت، وقد قلبها الشاعر ياء ثم حذفها فى (هاد) فى البيت الأخير.

---

(٣٥) اللسان ١٢/ ٣٣٩.
(٣٦) المصدر السابق ١/ ٣٥٧.
(٣٧) القاموس ٤/ ٢٤٦.
(٣٨) اللسان ٢/ ٢٩٨.
(٣٩) المصدر السابق ٤/ ٤٦٥.
(٤٠) المصدر السابق ١/ ٥٩.
(٤١) المصدر السابق ١/ ١٩٠.

فهذه التصرفات غير قياسية ولا مطردة إذ لا تقلب فى هذه المواضع إلا بشروط خاصة تعرف فى فن التصريف، ولعل ذلك الموصوف بالشذوذ هو من سمات أصحاب التسهيل من القبائل العربية، ولعله لمخالفته القواعد العامة حدث من بعضهم دون بعض ويؤيده قول ابن سيده:

«إن قول العرب أخطيت ليس بتخفيف قياسي، وإنما هو تخفيف بدلى محض؛ لأن همزة أخطأ ساكنة قبلها فتحة، فصورة تخفيف الهمزة التى هذه نصبتها أن تخلص ألفا محضة فيقال: أخطأت كقولهم فى تخفيف كأس: كاس[٤٢].

وأما الأمثلة الأخرى فتخضع لقانون اللغة النموذجية المشتركة التى اتخذت الهمز من مبادئها.

إبدال حروف العلة بعضها من بعض

إبدال الواو من الألف والياء:

(أ) من الألف:

من ألف أصلية: مثل إلى ولدى (اسمى رجلين) تثنيتهما: إلوان ولدوان وإلوات (اسم امرأة جمعا) فألفاتها أصول غير زوائد ولا مبدلة[٤٣] ولما سمى بها انتقلت إلى حكم الأسماء[٤٤] وهذا هو القانون، وبه وصى التصريفيون[٤٤].

ومن ألف مبدلة: وهى على ثلاثة أضرب:

١- مبدلة من واو مثل عصوى وقنوى فى الإضافة إلى عصا وقنا.

٢- مبدلة من ياء مثل: فتوى وسروى فى النسب إلى فتى وسرى.

٣- مبدلة من همزة مثل: تصغير آدم على أويدم وجمعه على أوادم وأصله أأيدم وأأادم.

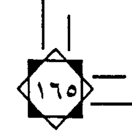
٤- من ألف زائد مثل: ضويرب وضوارب فى تحقير ضارب وجمعه جمع تكسير[٤٥].

(٤٢) المحكم ١/ ٩.

(٤٣) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ص١٠٦.

(٤٤) المصدر السابق (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ص١١٠.

(٤٥) المصدر السابق (دار الكتب) ٢٩٦-٣٠٠.



(ب) من الياء:

١- من ياء أصلية: مثل موقن وموسر (وكل ياء مفردة ساكنة قبلها ضمة) ومثل سيد وميت وغازية ومحنية، وقالوا: مقضو عليه ومنهو عن المنكر والحيوان أصل لامه ياء لأنه لا يوجد فى كلامهم كلمة عينها ياء ولامها واو، كما هو رأى الخليل وسيبويه خلافا لأبى عثمان المازنى.

٢- من ياء مبدلة: فأصل مصدر ضارب ضيراب لو سميت به ثم صغرته قلت ضويرب.

٣- من ياء زايدة: مثل بيطر وسيطر تقول عند بنائهما للمجهول: بوطر وسوطر[٤٦].

إبدال الألف من الواو والياء:

١- إبدالها منهما أصلين: نحو قام وغزا وباع ورمى وربما خرج شىء من ذلك على أصله تنبيها على أصل الباب نحو: حوكة وخونة وقود وصيد وحيد[٤٧].

٢- إبدالها منهما منقلبتين نحو (رحوى) اسم رجل إذا رخمته مثل يا حار (على لغة من ينتظر) قلت: يارحا - تحذف ياء النسب فتبدل الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فالألف حينئذ بدل من الواو، وهذه الواو بدل من ياء رحيان ومثله ترخيم ملهى على تلك اللغة، ونحو ذلك فى الياء المنقلبة مثل أعطى وأغزى قلبت الواو ياء إذ أصلهما (أعطو - أغزو) فصار (أعطى - أغزى)[٤٨] ثم قلبت الياء ألفا للسبب السابق، وكأن تبنى من قرأ على مثال (دحرج) فتقول: قرأى فالألف الأخير بدل من ياء هى بدل من همزة حسب مراحل معلومة فى فن التصريف.

٣- إبدالها منهما زائدتين، فمن الواو مثل أن تسمى رجلا (عنوق) ثم ترخمه على يا حار (لغة من ينتظر كما سبق) فتقول: يا عنا (إذ أصله يا عنو) إلا أن الواو تقلب ألفا لأنه لا يوجد فى العربية اسم آخره واو قبلها ضمة فالألف هنا بدل من الواو الزائدة ومن الياء مثل زميل اسم رجل تقول فى ترخيمه على يا حار: يا زما فتحذف إحدى ميميه وتقلب ياؤه

---

(٤٦) المصدر السابق ٣٠٠-٣٠٥.

(٤٧) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٢٩. والصيد: عدم الالتفات كبرا كما يفعل بعض الناس أو من داء كذلك الذى تصاب به الإبل فلا تستطيع أن تلوى أعناقها، والحيد: ما شخص من نواحى الشىء (أى: نتأ وبرز). وله معان أخرى. انظر: اللسان ٤/ ١٣٦، ١٣٧، ٢٥٠.

(٤٨) أغزى الرجل: حمله على أن يغزو أو أعطاه دابة يغزو عليها، وقال سيبويه: وأغزيت الرجل أمهلته وأخرت ما عليه من الدين. اللسان ١٩/ ٣٦٠.

الساكنة ألفـا، ومثله: سلقى وجعبى فى سـلقيت وجعبيت فالألـف هنا - كذلك - بدل من الياء الزائدة(٤٩).

ومن قلب اليـاء والواو ألفا قلبا غيـر قياسى القلب فى ييـأس إلى ياءس وفى يوجل، إلى ياجل ونحو ذلك من قول الشاعر:

تـبـت إلـيـك فـتـقـبـل تـابـتـى وصـمـت ربـى فـتـقـبـل صـامـتـى

أى توبتى وصومتى.

«قلبـوا فى ياءس ويـاجل وإن كانـت الواو واليـاء ساكنـة طلبـا للخـفة» وأمـا صوغ المضارع عـلى الطريقة السابـقة فهو اكتفـاء بأحد جزءى العلة وهـو لهجة عربيـة، ومسألة الإبدال فى ذلك غير متحققة لعدم توافق الألف والواو والياء مخرجا وصـفة، فهى لهجات وليست من باب الإبـدال فى شىء، فالواو طبيعة تخـتلف عن الألف تماما حتـى منع علماء العروض أن تتناوب الألف مـعها فى قافية القـصيدة الشعرية، وكذلك لا يمـكن تناوبها مع الياء - ردفين ويجوز ذلك بين الواو والياء للتقارب بـين صوتيهما الموسيقى، على أن علم اللغة الحديـث قد دعم ذلك ببراهين تثبت عـدم صحة التبادل بينهـما، وهذا يرجح أن تلك الاختلافات ترجع إلى اختلاف القبائل اللاهجة بها.

إبدال الياء من الألف والواو:

(أ) كل ألف انـكسر مـا قبلهـا أو وقعت قـبلها يـاء التحـقير تـقلب ياء مـثل قيـتال وضيراب مصدرى قاتل وضارب وحميليق ومفيتيح فى تصغير حملاق ومفتاح.

(ب) كل واو سكنت غير مدغمة وانكسر ما قبلها(٥٠) قلبت ياء مثل ميقات، وكذلك إذا سكنت فى المـفرد ووقع بعدها فى الجمع ألف وقـبل الواو كسرة واللام صحيـحة مثل ثياب وحياض، فإن اختلت هذه الشروط لم تـقلب كما فى مويزين وموازين وعرض وطول - لاختـلال القـاعدة الأولى - وطوال وزوج وزوجـة - بكسـر الزاى وفـتح الواو - ورواء وطواء جمعى ريان وطيان - لاختلال القاعدة الثانية.

(جـ) إذا قعت الواو لاما لفعلى وصفا مثل: عليا ودنيا(٥١).

---

(٤٩) سر الصناعـة (الأزهر) ١٣٠ وسلقه سلقا وسلقـاة: طعنه فألقاه على جنـبه، يقال: طعنته فـسلقته إذا ألقيته على ظهره، وربما قـالوا سلقيته سلقاء - بالكسر - يزيدون فيه الياء، كما قالـوا: جعبيته جعباء من جعبته أى صرعته. اللسان ٦/ ٢٦٠، ١٢/ ٢٨، ٣٣٠، والقاموس ٣/ ٢٥٥.

(٥٠) سر الصناعة (دار الكتب) ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧.

(٥١) المصدر السابق ص٣٧٨.

(د) إذا تطرفت الواو رابعة فصاعدا مثل: أعطيت، واستقصيت[٥٢].

كل ذلك هربا من الواو[٥٣].

(هـ) إذا اجتمعت الواو مع الياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء - بشروط أخرى - كما في سيد وميت (تقدمت الياء) وفي لية وطية (تقدمت الواو)، ومن الشروط الهامة لذلك القلب أن تكون كل منهما أصلية في موضعها[٥٤]، فإن كانت عارضة (غير لازمة) لم يحدث القلب والإدغام المذكوران، وذلك قولهم في بناء فاعل من سرت وبعت للمفعول فتقول: سوير وبويع لأن الواو ليست لازمة لزوالها بالرجوع إلى بناء الفعل للمعلوم، كذلك ديوان واجليواذ (في أحد استعمالاته) لأن الياء قبلها غير لازمة؛ لأنهم قالوا: دواوين لما زالت الكسرة على أن بعضهم قد قال: دياوين فأقر الياء مع زوال الكسرة وأجرى غير اللازم مجرى اللازم.

وعالم اللغة يرى في قلب الواو ياء - على الرغم من زوال الكسرة قبلها - اتجاها خاصا بلهجة أهل الحجاز فيما يسميه بأسلوب (المعاقبة) التي نتحدث عنها فيما يأتي.

---

(٥٢) المصدر السابق ص٣٧٩.

(٥٣) المصدر السابق (الأزهر) الوجه الثاني من الورقة ١٤١.

(٥٤)

إن يسكن السابق من واو ويا ... واتصلا ومن عروض عريا

فياء الواو اقلبن مدغما ... وشذ مُعطى غير ما قد رسما

التبادل بين الياء والواو (المعاقبة)

صنع ابن جنى كتابا فى التبادل بين الياء والواو وسماه التعاقب فقال: فى لحوت العود ولحيته: قشرت ما عليه من اللحاء: وقد ذكرت ذلك فى كتابنا الموسوم بالتعاقب[1] وقال أيضا: وأتيت - أيضا - فى كتابى الموسوم بالتعاقب على كثير من هذا الباب[2] وجعل لها ابن سيده موضعا فى المخصص[3]، وابن السكيت فى إصلاح المنطق[4] ونظم ابن مالك بعض ألفاظها فى تسعة وأربعين بيتا[5].

والمعاقبة هى: أن تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير علة، فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلة فليس من ذلك؛ لأنه قانون من قوانين التصريف[6].

ومن هذا التعريف يبدو أن المعاقبة لا تتحقق إلا بأمرين:

١ - أن يكون الانتقال من الواو إلى الياء والعكس ليس ناشئا عن علة صرفية موجبة فلا يدخل فى المعاقبة نحو ميزان وميقات من الوزن والوقت؛ لأن الواو قلبت ياء لعلة تصريفية هى سكونها وانكسار ما قبلها، وكذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ فإبدال الواو من الياء هنا خاضع لقاعدة صرفية هى أن (فعلى) إذا كانت اسما ولامها ياء تقلب الياء واوا مثل تقوى، أما إذا كانت فعلى صفة فإن ياءها تبقى دون تحول إلى الواو مثل (صديا) لاشتداد العطش.

وقد صرح بعض العلماء بانتفاء العلة التصريفية فى أمثلة المعاقبة، فقال ابن جنى: إن أهل الحجاز يقولون للصواغ: الصياغ، وفى ذلك دلالة على ما نحن بسبيله، ووجه الاستدلال فيه أنهم كرهوا التقاء الواوين - لا سيما فيما كثر استعماله - فأبدلوا الأولى من العينين ياء، فصار تقديره: الصيواغ، فلما التقت الواو والياء على هذا أبدلوا الواو للياء قبلها فصار (الصياغ)... وقلب الياء الثانية لا يستنكر؛ لأنه كان عن وجوب، وذلك لوقوع الياء ساكنة قبلها، فهذا غير بعيد ولا معتذر منه، لكن قلب الأولى - وليس هناك علة تضطر إلى إبدالها أكثر من الاستخفاف مجردا - هو المعتد المستنكر المعول عليه، المحتج به،

---

(١) الخصائص ١/١/ ٢٦٤. (٢) المصدر السابق ١/ ٢٦٦.

(٣) المخصص ١٤/ ١٩- ٢٦. (٤) إصلاح المنطق ١٣٥-١٤٥.

(٥) المزهر ٢/ ٢٧٩-٢٨٢. (٦) المخصص ١٤/ ١٩.

فلذلك اعتمدناه... و(فيه) تلعب بالحرف من غير قوة سبب، ولا وجوب علة، فأما ما يقوى سببه ويتمكن حال الداعى إليه فلا عجب منه، ولا عصمة للحرف وإن كان أصليا دونه[٧].

وقد يكون حلول الياء محل الواو أوالعكس ناشئا عن نسيانهم أصل اللفظ، يقولون (الديمة) بقلب الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها، فإذا زال الكسر عادت الواو، كما فى (دوموا) لانفتاح ما قبلها. قال الشاعر:

هو الجواد ابن الجواد ابن سبل

إن دوموا جاد وإن جادوا وبل

وقد ورد عن بعض العرب (ديموا) فى (دوموا)[٨] وذكر ابن جنى أن بعض العرب ظن أن الياء أصلية وليست منقلبة عن واو فلم يروها مع أن (دوموا) من الدوام، فالواو أصلية، وكان يجب الرجوع إليها بعد زوال الكسرة وفتح ما قبلها... وهذا من البدل يلتزمونه مع ذهاب العلة الموجبة له[٩].

٢- أن يكون المعنى واحدا فى الصيغة الواوية والصيغة اليائية، ولذا لا يعد من التعاقب ما اختلف معناه، فالكور: المبنى من الطين والكير الرق الذى ينفخ فيه[١٠] فلا معاقبة هنا.

وتأتى المعاقبة فى الألفاظ المفردة بصيغها المتعددة وتأتى فى المثنى وتأتى فى الجمع وتأتى فى الأفعال سواء كانت الواو والياء أصيلتين أم زائدتين:

١- فى المفردات بصيغها المتعددة مثل سريع الأوبة والأيبة وصيغة فعول مثل هذا الكذاب الأثوم والأثيم[١١] وجعلته على حنديرة عينى وحندورة عينى[١١].

وفى الحديث «ذات حوذان وعبيثران» هو نبت طيب الرائحة من نبت البادية ويقال عبوثران بالواو وتفتح العين وتضم[١٢].

٢- من المعاقبة فى المثنى: رحوان ورحيان[١٣].

٣- من المعاقبة فى الجمع ذو دغوات قُلَّب الأخلاق ودغيات[١٣].

---

(٧) الخصائص ٢/ ٦٥، ٦٦ بشىء من التصرف.

(٨) الخصائص ١/ ٣٥٥ والتصريف الملوكى ص٢١ وأدب الكاتب ص٩٧.

(٩) التصريف المملوكى ص٢٢. (١٠) المزهر ٢/ ٢٦٠.

(١١) المخصص ١٤/ ٢٥. (١٢) النهاية ٣/ ١٦٩.

(١٣) المخصص ١٤/ ٢٥.

٤- وفى الأفعال مثل: مالك تتحوز منى كما تتحوز الحية، وتحيزت إلى فئة وتحوزت وساغ الرجل طعامه يسيغه ويسوغه[١٤]، وسحوت الطين على الأرض وسحيته أى نشرته وكنوت الرجل وكنيته وحنوت العود وحنيته وعزوت الرجل وعزيته إذا نسبته إلى أبيه، ويقال: ساخت الأرض تسوخ وتسيخ، ورد ذلك فى حديث سراقة فى الهجرة[١٥] من باب فعل يفعل مثل حسب يحسب، وقيل هو من باب باع يبيع[١٦].

ومثله طاع له يطوع ويطيع فهو طائع إذا أذعن وانقاد[١٧].

ويرى اللغويون أن كل موضع تستعمل فيه الكسرة والضمة أو الياء والواو، فالأولى منهما للحجازيين والثانية للتميميين غالبا، وسموا ذلك (معاقبة) ومما ورد فى كتب اللغة من اختلاف الحركتين: رضوان ورضوان، قُنية وقنية، وأسوة وأسوة، وقدوة وقدوة، وصبية وصبيان، بكسر الحرف الأول وضمه، ومما ورد من اختلاف الحرفين: صيام وصوام، ونيام ونوام، وصياغ وصواغ، والمياثر والمواثر والمياثق، والمواثق، وحيث وحوث، وطغيت وطغوت، ويضيرنى ويضورنى، وعزيته وعزوته، ولغيت ولغوت، وإن بينهما لبينا وبونا والعجاية والعجاوة ودامت السماء تديم وديمت، ودامت تدوم ودومت والدوام.

ومن ذلك فى القرءات قراءة عمر بن الخطاب (الله لا إله إلا هو الحى القيام)[١٨] أصله القيوام فلما التقت الواو والياء، وسبقت الأولى بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء، وقد قرأ عمر على لهجة الحجاز لأنه قرشى[١٩] وقرئ ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾[٢٠] قواما.

وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾[٢١] وقد رسمت بالياء فى المصحف وأصلها دوارا.

وقرئ قوله تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان)[٢٢] يقال: طاف

---

(١٤) أدب الكاتب ٤٦٥، والمخصص ١٤/ ١٩، ٢٠.

(١٥) النهاية ٢/ ٤١٦.

(١٦) المصدر السابق ٣/ ١٤١.

(١٧) المصدر السابق ٣/ ١٤٢.

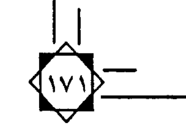
(١٨) سورة البقرة الآية ٢٥٥، والمحتسب ١/ ١٧٥ - ومختصر شواذ القراءات لابن خالويه ص ١١ ومعانى القرآن للفراء ١/ ١٩٠.

(١٩) تفسير الطبرى ٦/ ١٥٥.

(٢٠) المائدة ٩٧.

(٢١) سورة نوح الآية ٢٦.

(٢٢) سورة الأعراف الآية ٢٩.



يطيف ويطوف طيفا وطوفا فهو طائف، ثم سمى بالمصدر، ومنه طيف الخيال الذى يراه النائم(٢٣).

وفى الحديث **(فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدف)**.

بريد إعلان النكاح وذهاب الصوت والذكر به فى الناس يقال له: صوت، وصيت أى ذكر، والدف الذى يطبل به ويفتح ويضم(٢٤).

وفى حديث آخر: **(ما من عبد إلا وله صيت فى السماء)** أى ذكر وشهرة وعرفان(٢٥).

وفى الحديث: **(إن مما ينبت الربيع ما يغيل أو يغول)**. أى يهلك من الاغتيال وأصله الواو، ويقال غاله(٢٦) يغيله ويغوله، هكذا روى بالياء والواو وهما متقاربان.

وفى الحديث: **(كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)** أى من تلزمه نفقته، ويروى (من يقيت) على اللغة الأخرى(٢٧).

وورد أنه ﷺ كتب لوائل بن حجر: **إلى الأقوال العباهلة** وفى رواية الأقيال(٢٨).

وفى الحديث: **(أكذب الناس الصواغون)**(٢٩) وفى رواية الصياغون على لهجة الحجاز، وحديث عائشة **(أن عمر ديخ الكفرة)** يعنى أذلهم وقهرهم، ويقال دوخ وديخ بمعنى واحد(٣٠).

وبعض هذه الصيغ يكون أكثر استعمالا من الأخرى أو أكثر تصرفا(٣١) وكل ذلك وأشباهه مما تعاورت عليه الياء والواو ينسب ما هو بالياء إلى الحجازيين وما هو بالواو إلى التميميين غالبا(٣٢)، ومما يؤيد ذلك ما ورد فى حديث وفد تميم إلى النبى ﷺ الذى نزلت

---

(٢٣) النهاية ٣/ ١٥٣. (٢٤) النهاية ٣/ ٥٨.

(٢٥) المصدر السابق ٣/ ٦٤. (٢٦) المصدر السابق ٣/ ٣٩٤.

(٢٧) المصدر السابق ٤/ ١١٩. (٢٨) المصدر السابق ٤/ ١٢٢، ١٣٣.

(٢٩) المصدر السابق ٣/ ٦٤، صاغ الشىء: هيأه على مثال مستقيم، ويقال: صائغ وصياغ، وجعلوا أكذب الناس لمواعيدهم الكاذبة ومطلهم، وقيل: أراد الذين يزخرفون الحديث والكذب. القاموس ٣/ ١١٤. (٣٠) النهاية ٢/ ١٧٤.

(٣١) يقول ابن الأثير عند ذكر الحديث (وتديفون القطيفاء) أى تخلطون، والواو فيه أكثر من الياء النهاية ٢/ ١٧٤.

(٣٢) المخصص ٤/ ١٩، ٣٦، والمزهر ٢/ ٢٧٦، ٢٧٧، ١/ ٤١٣، ودراسات فى فقه اللغة ٩٦-١٠١.

فيه سورة الحجرات: «أرأيت المريض إذا حان فوظه» أي موته بالواو، هذا يدل على البداوة، وقد ذكر ابن الأثير أن المعروف أنه بالياء[٣٣].

ونسبت بعض الكلمات بالياء لتميم وبالواو للحجاز، ومما ورد من ذلك (قنيان) - عند تميم - وقنوان عند الحجاز[٣٤] و(قصيا) - عند تميم - و(قصوى) عند الحجاز[٣٥] - الهدايا جمع هدية ولغة أهل المدينة هداوى[٣٦] ونسبت المعاقبة إلى غير هؤلاء من العرب فقد نسبت إلى طيئ. أنشد ثعلب لرجل من طيئ.

نحن إلى الفردوس والشير دونها   وأيهات عن أوطانها حوث حلت

قال أبو العباس: هذه لغته[٣٧] وبعضهم نسب (حوث) إلى طيئ أو تميم[٣٨].

والكلوة لغة في الكلية نسبت لأهل اليمن[٣٩].

ويقال: عبوت المتاع عبوا: إذا عبيته لأهل اليمن[٤٠].

والنيرج والنورج[٤١]: لغتان الأخيرة لأهل اليمن[٤٢].

وقد وردت بعض النصوص التي نفهم منها حدوث المعاقبة في القبيلة الواحدة أو عند العرب جميعا.

من ذلك ما ذكره ابن سيدة من أن المعاقبة تحدث عند القبيلة الواحدة وعند القبيلتين قال: (وأرى كيف تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير المعاقبة عند القبيلة الواحدة وإما لافتراق القبيلتين في اللغتين)[٤٣].

ويذكر الأزهري: أنا أمحوه وأمحاه، وطيئ تقول: محيته محيا ومحوا[٤٤].

---

(٣٣) النهاية ٣/ ٤٨٥.

(٣٤) التهذيب ٩/ ٣١٥.

(٣٥) المصدر السابق ٩/ ١٢٩.

(٣٦) المصدر السابق ٦/ ٣٨٢، وقال أبو زيد: الهداوى لغة عليا معد ولغة سفلاها الهدايا، والمراد بعليا معد: أهل العالية أو عليا مضر وهم أهل الحجار، ومضر هو مضر بن نزار بن معد. وسفلاها: تميم أو أهل نجد. جمهرة أنساب العرب ص١٠.

(٣٧) المجالس ٢/ ٥٦٦.

(٣٨) المحكم ٣/ ٣٨٤ واللسان ٢/ ٤٤٤.

(٣٩) التهذيب ١/ ١٨٥ والمصباح ٢/ ٥٤٠.

(٤٠) الجمهرة ١/ ٣١٧.

(٤١) آلة من حديد وخشب يداس بها الطعام.

(٤٢) التهذيب ١١/ ٣٨ وديوان الأدب ٢/ ٣٦.

(٤٣) المخصص ١٤/ ١٩.

(٤٤) التهذيب ٥/ ٢٧٧ والمخصص ١٣/ ١٧.

وأهل اليمن يقولون للذئب القلوب والقليب قال شاعرهم:

أيا جحمتا بكى على أم واهب   قتيلة قلوب ببعض المذانب

وقال آخر:

أتيح لها القليب من أرض قرقرى

وقد تجلب الشر البعيد الجوالب[٤٥]

وظنى أن ذلك ناشئ من تأثر القبائل بعضها ببعض، فمن يجمع بين الاستعمالين جامع للهجة أخرى مع لهجته (وقد يجوز أن تكون لغته فى الأصل إحداها، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى، وطال بها عهده وكثر استعماله لها فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى)[٤٦].

وبعض هذه الصيغ يكون الأصل فيها الواو وبعضها يكون الأصل فيه الياء، يقال: يوجع وييجع وياجع وأصله من الواو[٤٧].

ويقال: وجلت توجل وتيجل من الواو[٤٨] ونسبت الصيغة اليائية لتميم لكراهة الواو مع الياء والواوية لأهل الحجاز[٤٩] وقد أبدلت ألفا فقيل: ياجل وياجع كراهة اجتماع الواو مع الياء - أيضا - كما يذكر سيبويه[٤٩] وكذلك كسايان وخبايان عند بنى فزارة الأصل الواو، ولذا جاء كساوان وخباوان[٥٠]، وعزيته إلى أبيه: نسبته. ويقول بنو أسد: عزوته إلى أبيه وأصله الواو[٥١].

والتيه قال فيه رجل من بنى كلاب: التوه وأصلها الياء[٥٢].

وبرى القلم يبريه بريا، وناس يقولون: يبرو القلم[٥٣] والأصل الياء.

والدهو والدهى: لغتان: الدهاء والأصل الياء[٥٤].

والطغيان والطغوان لغة فيه والفعل طغيت وطغوت والأصل الياء[٥٥].

---

(٤٥) العين ٥/ ١٧٢ والتهذيب ٩/ ١٧٥ والجمهرة ٢/ ٥٩، ٣/ ٣٧٥، ٤٢٣.

(٤٦) الخصائص ١/ ٣٧٢ باب فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا.

(٤٧) التهذيب ٣/ ٥١.

(٤٨) المصدر السابق ١١/ ١٩٠.

(٤٩) الكتاب ٤/ ١١١، والجيم ٣/ ٣٠٥.

(٥٠) التهذيب ١٥/ ٦٩٠.

(٥١) المخصص ١٤/ ٢٣.

(٥٢) التهذيب ٩/ ٣٩٦، والتكملة ٦/ ٣٣٧، والمصباح (تيه).

(٥٣) التهذيب ١٥/ ٢٦٧.

(٥٤) التهذيب ٦/ ٣٨٥ وإصلاح المنطق ١٣٩.

(٥٥) التهذيب ٨/ ١٦٧.

وقد حاول بعض اللغويين القدامى أن يفسروا هذا التعاقب على أنه من قبيل التبادل الذى لم يستوف شروط القلب لعلة فلسفية تدل على فنية هذه اللغة وموسيقيتها.

فسعة قواعد العربية جعلتنا نتلقى بالقبول صبية وصبيان بقلب الواو ياء وإن لم تقع بعد كسرة مباشرة؛ لأنهم اعتبروا الساكن غير حصين فكأن الكسرة مباشرة للواو فقلبت مناسبة لها ليتحقق التكامل الفنى الموسيقى.

ثم إننا رأينا فى اللغة صبية وصبيان - بضم الصاد - وهذا أيضا لم يمنع من استمرار الياء؛ لأن الداعى إلى القلب هو الخفة، وهو منهج البناء اللغوى العام وإلا لأبقيت الواو على أصلها.

ويقولون: أبيض لياح بكسر اللام فقلبوا الواو ياء مع عدم استيفائها شروط القلب إذ إنها ليست جمعا كرياض ولا مصدرا جاريا على فعل معتل كقيام وصيام وذلك القلب داع إلى رشاقة اللفظ وسلاسته؛ لأن الياء أخف من الواو وما أكثر جنوح العربية إليها.

وقالوا: رجل غديان وعشيان والأريحية، ورياح بفتح الراء.

وكذلك ميائق أبقوا الياء مع زوال الكسرة الموجبة للقلب والمعروف أن زوال السبب يؤدى إلى زوال ما ترتب على وجوده من أحكام، فقد كان المفرد مستحقا للإعلال (ميثاق) لوجود الكسرة سابقة للواو، ولكن الجمع لا تبقى فيه الكسرة، ومن هنا يقال فى جمعه (مواثيق) على الأصل.

ويحار اللغويون عندما يجدون الكلمة بالياء قد وردت فى كلام العرب نحو قولهم: فيما أنشده أبو زيد:

حمى لا يحل الدهر إلا بإذننا ... ولا نسأل الأقوام عقد الميائق

وكذلك يسمع اللغويون قول شاعر آخر:

عدانى أن أزورك أم عمرو ... دياوين تشقق بالمداد[٥٦]

فكلمة (دياوين) جمع ديوان وينطبق عليه ما قيل فى سابقه، وقد أبدى ابن جنى وجهة نظر فى هذه الصيغ وأثبت عمق اتجاهاتها وملاءمتها لفن اللغة وطابعها البنائى فيما يأتى:

١ - أن أكثر اللغة وشائع الاستعمال هو إعادة الواو عند زوال الكسرة مثل موازين وريح وأرواح.

(٥٦) الخصائص ١/ ١٤٣، ٣٥٠، ٣٥١، ٣/ ١٧٣، ١٥٨.



٢- الغرض من القلب هو طلب الخفة، فكأن القلب ليس ناتجا عن الكسرة بل لما تقدم من الاسترواح إلى انقلابها ودلالة على تمكن القلب فى الواحد حتى كأن الياء أصل فيه.

وتبعا لهذا الاعتبار صرح ابن جنى بأنه يمكن تصغير (ميثاق) بإبقاء الياء، فيقال: (مييثيق) على نمط الجمع الذى حمل على مفرده(٥٧).

وجاءت فى اللغة دامت السماء تديم ودومت السماء وديمت، ولكن المضارع جرى فى المثال الأول على هذا النسق وليس من باب فعل يفعل بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع بدليل المصدر (ديما) وليس لغة فى هذا الأصل بمنزلة ضاره يضوره ضيرا حيث لم يأت (الديام) مصدرا كـ (الدوام) الوارد فيه(٥٨) وهذا تطبيق لمذهب ابن جنى فى الاختلاف بين لفظتين فى حرف واحد، ومتى تعتبر كل منهما لهجة لقبيلة خاصة أو إحداهما منقلبة عن الأخرى، والمعروف أن أبا الفتح يبنى هذا على أساس تصرف كل منهما، فالأكثر تصرفا واستعمالا هى التى يليق بها أن تكون الأصل والثانية فرع، أما إذا تساوت اللفظتان تصرفا واستعمالا، فليست إحداهما منقلبة عن الأخرى بل هما لهجتان، وهنا يصرح ابن جنى بأن اليائية منقلبة عن الواوية لقصور التصرف بالنسبة للأولى وكيف يقبلون ويسلكون هذا الطريق مع عدم ما يقتضيه؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتحقق فى مناسبة القلب الهدف العام وهو التخفيف، ويبدو أن قانون (المعاقبة) قد لعب دورا أساسيا فى مثل هذه التغيرات، فهى فى الأصل لهجات إذ تذكر لنا كتب اللغة أن لكل من الضم والكسر والواو والياء طبيعة صوتية تختص بقبيل تبعا للثقل والخفة.

فاللغة نتاج اجتماعى ووليدة البيئة التى تحيا فيها، فالمجتمع المتحضر يفضل حركة معينة، على حين يفضل المجتمع البدوى حركة أخرى، وهنا بدا أن الكسرة مختصة بالحضر والضمة مختصة بالبدو فيما وصل إلينا من كلمات.

والياء امتداد للكسرة والواو امتداد للضمة، ولذا رأينا أن كلا منهما تختص بطائفة من العرب، فالياء للحجاز والواو لتميم، وعلى هذا وجدنا الكلمات السابقة تفسر على أساس لهجى فى بيئتين حجازية وتميمية(٥٩).

---

(٥٧) الخصائص ٣/ ١٦٠، ١٦١.

(٥٨) المصدر السابق ١/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(٥٩) معانى القرآن للفراء ١/ ١٩٠، والمحتسب لابن جنى ١/ ١٧٥، ومختصر شواذ القراءات لابن خالويه ١٩، واصلاح المنطق ١٣٧ والمزهر ٢/ ٢٧٦.

التبادل بين حروف العلة والصوامت

التبادل بين الألف والعين:

من أمثلة ذلك فى القراءات قوله تعالى ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ (ولا تصاعر) - بألف بعد الصاد وتخفيف العين - نافع وأبو عمرو والكسائى وخلف واليزيدى والأعمش، وقرأ الباقون (تصعر) - بتشديد العين بلا ألف.

والألف لا يصح إدغامها فى العين إذ هما من طبيعتين صوتيتين مختلفتين ولكن إدغامهما وعدمه فى هذه الآية - حسب القراءات السبعة الواردة فيها - يرجعان إلى طبيعة القبائل العربية.

فبعض القبائل تقلب الألف إلى عين حتى يتماثلا ثم تدغمهما للتقريب والسرعة فى النطق، وهذه طريقة تميل إليها القبائل البدوية، وجرى على الفصل بين الصوتين وعدم الادغام بعض العرب المتحضرين.

ونرى أن كلا منهما يمثل اتجاها لهجيا خاصا.

وعلى أساس مما وصل إليه علم الأصوات الحديث نرى أن الاتجاه الثانى يتطلب مجهودا عضليا، والأول لا يتطلب ذلك؛ لأنه ناجم عن السرعة فى النطق، ومن هنا استنتج علماء اللغة أن الإدغام ينسب إلى القبائل التى كانت تسكن وسط الجزيرة وشرقيها فمعظمها قبائل بدوية تميل إلى التخفف والسرعة فى النطق كتميم وأسد وغنى وعبد القيس وبكر بن وائل وكعب ونمير، كما ينسب الإظهار إلى بيئة الحجاز.

التبادل بين الألف والنون:

تكلم ابن جنى عن إبدال الألف من تنوين المنصوب ونون التوكيد الخفيفة ونون (إذًا) حال الوقف مثل: (رأيت زيدا) وقوله تعالى: ﴿لنسفعا﴾ وقولك: (أنا أزورك إذًا)[1].

التبادل بين الألف والهاء:

١ - قد وردت من أمكنه   من ههنا ومن هنه

إن لم أروها فمه

---

(١) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٣٠.

٢- أنه فى أنا حال الوقف(٢).

فى الأمثلة الأولى قال ابن جنى بالإبدال بين الألف والهاء على أن تكون الألف هى الأصل(٣) وقد أبدلت فى (هنا) الإشارية هاء فصارت هنه، وهذا موافق لعاميتنا وهو منسوب لقيس وتميم(٤) و(مه) فى الرجز السابق يحتمل وجهين: أن تكون الهاء بدلا من ألف (ما) وأن تكون (مه) اسم فعل بمعنى اكفف أى فاكفف عنى فلست أهلا للعتاب، أو فمه يا إنسان يخاطب نفسه ويزجرها(٥).

وفى (أنا) كذلك أبدلت الألف هاء فى الوقف.

وهذه كلها حالات للوقف قصد فيها بيان حركة الحرف المفتوح، فتارة تبين الحركة بالألف فيقال: هنا - أنا وتارة أخرى تبين بالهاء فيقال: هنه - أنه، ويميل بعض العرب إلى هذا وبعضهم الآخر إلى ذاك، فالأمر لمجرد بيان الحركة لا لأن أحدهما يبدل من الآخر. ومن هنا اقتصر الدمامنى فى (أنه) على الوجه الثانى، فقال فى باب الضمير من شرح التسهيل - بعد ذكره أن ثبوت الألف فى الوقف لبيان الفتحة ما نصه: «وقد تبين فتحتها بهاء السكت كقول حاتم: هكذا فزدى أنه»(٦).

التبادل بين الباء والواو:

وذلك فى أسلوب القسم مثل بالله، والله ونحو ذلك، قال ابن جنى: وإنما أبدلت الواو من الباء - فى ذلك لأمرين:

أحدهما: مضارعتها إياها لفظا والآخر مضارعتها إياها معنى، أما اللفظ فلأن الباء من الشفة كما أن الواو كذلك، وأما المعنى فلأن الباء للإلصاق والواو للاجتماع والشىء إذا لاصق الشىء فقد اجتمع معه(٧).

وبرهن على أن الباء هى الأصل والواو بدل منها بدليلين:

---

(٢) المصدر السابق (الأزهر) الورقات ١٠٥ - ١٠٧.

(٣) المصدر السابق الوجه الأول من الورقة ١٠٦.

(٤) اللهجات العربية د. نجا ٦٥، ٦٦.

(٥) سر الصناعة الورقة ١٠٦ الوجه الأول مخطوطة الأزهر، ولسان العرب ٢٠/ ٣٦١، وقال الأشمونى: أى أنها قد وردت من كل جانب وكثرت فإن لم أروها فلا تلمنى واكفف عنى ٤/ ٣٣٤.

(٦) انظر: المفصل ٩/ ٨٣، والأشمونى مع الصبان ٤/ ٣٣٤.

(٧) سر الصناعة ١/ ١٦٠.

أحدهما: أنها موصلة للقسم إلى المقسم به فى قولك: أحلف بالله كما توصل الباء الممرور إلى الممرور به فى قولك: مررت بزيد، فالباء من حروف الجر بمنزلة من وعن.

والآخر: أن الباء تدخل على المضمر كما تدخل على المظهر فتقول: بالله لأقومن وبه لأقعدن والواو لا تدخل على المضمر ألبتة، تقول: والله لأضربنك ولا تقول وه لأضربنك فرجوعك مع الإضمار إلى الباء يدل على أنها هى الأصل[٨].

وابن جنى فى رأيه السابق متأثر بموقف القدماء من مخرج الواو إذ يجعلونها من مخرج الباء يقول: ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو[٩] وهو متأثر فى ذلك برأى سيبويه. وهذا يصدق على الواو غير المدية التى يتحدثون عنها، أما الواو التى هى حرف مد فهى من ذوات المخرج المتسع على حد تعبير ابن جنى[١٠].

والدراسة الصوتية الحديثة تؤكد أن نظرة القدماء إلى الواو غير المدية لم تكن دقيقة فى تحديد مخرجها، فهى فى الحقيقة من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك غير أن الشفتين حين النطق بها تستديران أو بعبارة أدق تكمل استدارتهما... ولعل وضوح استدارة الشفتين مع الواو هو الذى جعل القدماء ينسبون مخرج الواو إلى الشفتين[١١].

فمخرج الباء إذا مختلف عن مخرج الواو إذ الأولى من الشفة والثانية من أقصى الحنك كما تثبت الدراسات الصوتية الحديثة. ويختلفان كذلك فى صفات كثيرة، فالباء صوت مجهور شديد مستفل منفتح ذلق مقلقل، والواو تتفق معها فى الجهر والاستفال والانفتاح فقط وتخالفها فيما عدا ذلك.

وهذا كله يمنع حدوث التبادل بينهما وكل ما يمكن قوله أن كلا منهما حرف يستعمل فى القسم - كما يستعمل فى غيره - إذ للباء خمسة عشر معنى ذكرها النحاة من بينها القسم[١٢] والواو لها معان كثيرة كالعطف والاستئناف، ومن بينها استعمالها فى القسم[١٣] وكما يقول النحاة: يمكن جعل هذا الاستعمال من قبيل التعويض لا الإبدال ولا يلزم فى المعوض أن يكون من جنس المعوض عنه أو أن تكون هناك علاقة صوتية بينهما إذ التعويض جعل حرف خلفا عن حرف آخر أو أكثر[١٤] ولا يشترط فيه التقارب.

وهنا استعمل اللغوى العربى القسم متخذا وسيلة من وسائله وهى الواو كما يصح أن يتخذ أداته الأخرى الأصيلة فيه وهى الباء، وقد صرح بذلك الصبان حين قال: - معللا

---

(٨) المصدر السابق ١/ ١٥٩.
(٩) المصدر السابق ص٥٣.
(١٠) المصدر السابق ١/ ٨.
(١١) الأصوات اللغوية ٤٤.
(١٢) الأشمونى ٢/ ٢١٩-٢٢٢.
(١٣) المصدر السابق ٣/ ٣٠٧ والتصريح ٢/ ١٧.
(١٤) القواعد والتطبيقات ص٤.

اختصاص الواو بالظاهر فى الجر - لأن بعضها عوض عن باء القسم لا أصل فيه[15] ويقول «إن الواو عوض من الباء والتاء عوض من الواو»[16].

والأدلة التى علل بها ابن جنى لإبدال الواو من الباء - وذكرتها سبقا - تشير إلى أن الباء أصلية فى استخدامها فى معنى القسم ولكنها لا تدل بحال على أن الواو بدل منها بالمعنى اللغوى بل على معنى أنه قد تقوم الواو فى الاستعمال فى القسم مقام الباء على سبيل التعويض لا الإبدال والذى جعلنا نذهب هذا المذهب عدم وجود العلاقة الصوتية المسوغة للتبادل كما اتضح من الدراسات الصوتية الحديثة، وأما اتفاقهما فى بعض المعانى فليس من مسوغات الإبدال إذ المعول عليه إنما هو المخرج والصفات.

التبادل بين التاء والواو:

١ - تراث - تقية فعلية من وقيت - تقوى - توراة - تولج - تخمة - تكأة - تيقور - تليد - تلاد - تترى - (فعلى من المواترة) - اتعد - اتلج.

٢- أخت - بنت - هنت - كلتا[17].

صرح ابن جنى بإبدال التاء من الواو فى الأمثلة الأولى فقال: وقد أبدلت التاء من الواو فاء إبدالا صالحا[18] وذكر الأمثلة السابقة وعلل ذلك بأصل الاشتقاق فى كل منها، فتراث فعال من ورث، وتقية فعلية من وقيت، وتوراة فوعلة من ورى الزند وأصلها وورية فأبدلت الواو الأولى تاء إلخ، وقال: إن التاء قريبة المخرج من الواو لأنها من أصول الثنايا والواو من الشفة فأبدلوها تاء[19] وقد جعل ابن جنى هذا الإبدال غير قياسى إلا فى افتعل وما تصرف منه فقال: وهذه الألفاظ التى جمعتها وإن كانت كثيرة فإنه لا يجوز القياس عليها لقلتها بالإضافة إلى ما تقلب واوه تاء... فأما ما نقيس عليه لكثرته فافتعل وما تصرف منه إذا كانت فاؤه واوا فإن واوه تقلب تاء وتدغم فى تاء افتعل التى بعدها[20]، وعلل لاطراد هذا الإبدال فى افعتل وما تصرف منه بأنهم لو لم يقلبوها تاء لوجب أن يقلبوها إذا انكسر ما قبلها ياء، وإذا انضم ما قبلها واوا وإذا انفتح ما قبلها ألفا فيقولوا ايتعد - موتعد - ياتعد، فلما كانوا لو لم يقلبوها تاء صائرين إلى قلبها مرة ياء ومرة ألفا ومرة واوا أرادوا أن يقلبوها حرفا جلدا تتغير أحوال ما قبله وهو باق بحاله، وهذا ما عبر عنه

---

(١٥) الأشمونى مع الصبان ٢/ ٢٠٧.

(١٦) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥ وحديثهم عن إبدالها كان للاتفاق فى المخرج كما تصوروا.

(١٧) سر الصناعة ١/ ١٦١ - ١٦٩، وقد ذكر سيبويه هذه الألفاظ. الكتاب ٢/ ٨٢، ٨٣.

(١٨) المصرد السابق ١/ ١٦١. (١٩) المصدر السابق ١/ ١٦٤.

(٢٠) المصدر السابق ١/ ١٦٣.

أستاذنا الدكتور نجا فى كتابه اللهجات العربية بقوله: أكثر العرب على إبدال الواو والياء تاء إذا وقعت فاء لافتعل حتى لا تكون عرضة لتلاعب الحركات فيقولون اتقى واتسر فى اوتقى وايتسر(٢١) وقد حكى ابن جنى الاتجاه العربى الثانى الذى لا يعبأ بتلاعب الحركات فيقول ايتعد - موتعد - ياتعد(٢٢) إلخ، ونسب اللغة الأولى لأهل الحجاز فقال: واللغة الأولى أكثر وأقيس وهى لغة أهل الحجاز وبها نزل القرآن(٢٣)

وأما عن الأمثلة الثانية فقد أوضح أن أصل هذا كله أخوة وبنوة وهنوة وكلوا فنقلوا أخوة وبنوة ووزنهما فعل بفتح الفاء والعين - إلى فعل - بضم الفاء وسكون العين - وفعل بكسر الفاء وسكون العين - وألحقوهما بالتاء المبدلة من لامها بوزن قفل وجلس فقالوا أخت وبنت وليست التاء فيهما بعلامة التأنيث كما يظن من لا خبرة له بهذا الشأن لسكون ما قبلها، هكذا مذهب سيبويه وهو الصحيح.

وأما هنت فيدل على أن التاء فيها بدل من واو قولهم فى الجمع هنوات، وأما كلتا فذهب سيبويه إلى أنها فعلى بمنزلة الذكرى والحفرى(٢٤) وأصلها كلوا فأبدلت الواو تاء

---

(٢١) المصدر السابق ص٦٧.

(٢٢) المصدر السابق ١/ ١٦٥ والدقة تقتضى نسبة الأولى إلى أكثر العرب والثانية إلى بعض الحجازيين. المفصل ١٠/ ٣٧، والأشمونى ٤/ ٣٣٠، واللهجات العربية ٦٨.

(٢٣) سر الصناعة ١/ ١٦٥ وقال الليث تاء الأخت أصلها هاء التأنيث كما قال الخليل ولكن ذلك ليس مقبولا وقد نقل صاحب اللسان رأى ابن جنى دون أن ينسبه إليه اللسان ١٨/ ٢٢، وقال الأستاذ برجستراسر أن الأخ والابن من الأسماء القديمة جدا التى مادتها مركبة من حرفين فقط لا من ثلاثة أحرف وأن التاء وإن لم تسبقها فتحة هى تاء التأنيث فهى فى غير اللغة العربية وخصوصا فى الأكدية والعبرية كثيرا ما لا فتحة قبلها مثال ذلك أن الخمسة فى الأكدية hamistu وفى العربية hmeset أصلها hamist كلها بشين ساكنة، وعلى هذا قرر عدم وجود إبدال للتاء من الواو (التطور النحوى ص٣٣) ولكن المقارنة غير سديدة لأنها بين لغات قديمة جدا وبين اللغة العربية التى بلغت نهاية تطورها بعد آماد طويلة على أن الحرف الثالث فى كلمة أخ وأب وحم وهى فى حال الأفراد ثابت فى بعض اللغات السامية الأخرى، فأب فى الأشورية والبابلية (أبو) وفى الأرامية (أبا) وأخ فى الأشورية والبابلية (أخو) وفى الحبشة ولغات جنوب الجزيرة (أخو) وحم فى الأشورية والبابلية (أمو) وفى الأرامية (حما). تاريخ اللغات السامية ٢٨٣،٢٨٦، والواو قد زالت لوجود التنوين وعند ذهابه تعود الواو مثل أبوك وأخوك. مدرسة الكوفة ١٩٠ فرأى القدماء أقرب إلى طبيعة اللغة العربية.

(٢٤) الحفرى: قيل: شجر ينبت فى الرمل، وقيل: ذات ورق وشوك صغير وزهر أبيض، ولا تنبت إلا فى الأرض الغليظة، الواحدة حفراة

كما أبدلت فى أخت وبنت[٢٥]، وذهب أبو عمر الجرمى إلى أنها فعتل وأن التاء فيها علم تأنيثها، ولكن ابن جنى رد عليه بأن تاء التأنيث يكون ما قبلها مفتوحا أو تكون قبلها ألف مثل طلحة وحمزة وسعلاة وعزهاة وكلتا مثنى بإجماع من البصريين، وعلامة التأنيث لا تكون وسطا[٢٦] وهذا الرد سديد إلا أن القول بالإبدال بين التاء والواو - إذا كان له مسوغ لدى القدماء لقرب مخرجيهما كما قال ابن جنى[٢٧] - فقد أثبتت الدراسات الصوتية بعده فالواو من أقصى اللسان كما ذكرنا والتاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا كما يقول علماء الأصوات ولا اتفاق بينهما فى الصفات أكثر من الاستفال والانفتاح والإصمات، وهذا لا يصح به إبدال، ويمكن أن نفسر هذه الكلمات على أنها استعملت بهذا الوضع فى لهجات خاصة وعلى سبيل التعويض.وقد صرح ابن جنى نفسه بأن هذا ليس أمرا مطردا فلا نقول قياسا على تقية فى وقية، ترير فى وزير ولا نقول فى وجيهة تجيهة ولا فى أوعد أتعد قياسا على أتلج، ولا فى ولهى تلهى قياسا على تترى[٢٨]، وعلى الرغم من اطراد الإبدال فى افتعل مما فاؤه واو فإن بعض العرب - كما قال ابن جنى - تنطق الصيغة - على الأصل بلا إبدال فيقولون فى اتعد اوتعد - موتعد ياتعد[٢٩]، فليس هذا إذًا من قبيل الإبدال وإنما هو من قبيل اختلاف اللهجات وفى أخت وأشباهها التاء عوض من الواو لا بدل منها على ما قدمنا.

التبادل بين الميم والواو:

فى كلمة (فم) جعل ابن جنى الميم بدلا من الواو وقال إن أصله (فوه) بزنة سوط حذفت الهاء تخفيفا كما حذفت من سنة فيمن قال ليست بسنهاء وعملت مسانهة، ومن شاة وشفة ومن عضة فيمن قال بعير عاضه، ومن است فصار التقدير (فو) فلما صار الاسم على حرفين الثانى منهما حرف لين كرهوا حذفه للتنوين فيجحفوا به فأبدلوا من الواو ميما لقرب الواو من الميم؛ لأنهما شفهيتان وفى الميم هوى فى الفم يضارع امتداد الواو[٣٠].
وبنى ابن جنى هذا الرأى على اعتقاده - كالقدماء - بأن مخرج الواو هو الشفة فبذلك يتحد مخرجهما وعليه يسوغ التبادل.

ولكننا أوضحنا أكثر من مرة أن الدراسات الصوتية الحديثة أثبتت أن الواو غير المدية من أقصى اللسان فبعد بذلك مخرجاهما فلا يسوغ الإبدال. وللقدماء رأى آخر - يجعل - الميم عوضا لا بدلا - يقول أبو الهيثم: لما حذفوا الهاء من فوه بقيت الواو

---

(٢٥) المصدر السابق ١/ ١٦٧، ١٦٨.
(٢٦) المصدر السابق ١/ ١٦٨.
(٢٧) المصدر السابق ١/ ١٦٨.
(٢٧) المصدر السابق ١/ ١٦٤.
(٢٨) المصدر السابق ١/ ١٦٣.
(٢٩) المصدر السابق ١/ ١٦٥.
(٣٠) المصدر السابق، مخطوطة الأزهر، الوجه الأول من الورقة ٨٠.

ساكنة فاستثقلوها وقوفا عليها فحذفوها فبقى الاسم فاء وحدها فوصلوها بميم ليصير حرفين حرف يبتدأ به فيحرك وحرف يسكت عليه فيسكن[٣١]. والميم حرف جلد يمكن الاعتماد عليه، ولا يعترف الأستاذ برجستراسر بأن الميم بدل من الواو ويدعى أنها ميم التمييم، الذى هو التنوين فى اللغة العربية، فكان الرفع fum والخفض fim والنصب fam والميم فيها لم تصر نونا مع سائر الميمات الانتهائية بل بقيت على حالها لأنهم كانوا يتلقونها كأنها أصلية فأضافوا إليها الإعراب والتنوين فصارت فم. فم. فما. فنقلت الميم من آخر الكلمة إلى وسطها، ومن أجل ذلك لم يجر عليها القانون الصوتى الذى بمقتضاه أصبحت الميم الانتهائية نونا فى اللغة العربية، ولكن لا دليل لبرجستراسر على دعواه، والاشتقاق يؤيد أن الأصل هو الواو (فاه يفوه فوها)، ولا يتصور أن الميم فيه بمنزلة التنوين وإلا فما أصل الكلمة حينئذ، وصور الإعراب التى ذكرها لا تطابق الواقع إذ الإعراب محله آخر الكلمة لا وسطها، وليست الكلمة (فم) من مادة (فوم) بل من مادة (ف و ه) كما يتضح بالاشتقاق، فالأولى أن تجعل الواو عوضا كما يقول بعض القدامى.

التبادل بين الهاء والواو:

١- وقد رابنى قولها ياهنا ه ويحك ألحقت شرا بشر

٢- قد وردت من أمكنه من ههنا ومن هنه

إن لم أروها فمه

جعل ابن جنى الهاء بدلا من الواو أو من الألف المبدلة منها فى (هناه) قال: «وأبدلوها (أى الهاء) من حرف واحد وهو قول امرئ القيس (وقد رابنى قولها ياهناه إلخ) فالهاء الآخرة فى هناه بدل من الواو فى هنوك وهنوات وكان أصله هناو فأبدلت الواو هاء قالوا: هناه هكذا قال أصحابنا[٣٢]، ولو قال قائل أن الهاء فى هناه إنما هى بدل من الألف المنقلبة من الواو الواقعة بعد ألف هناه إذ أصله هناو ثم صار هناء كما أن أصل عظاء عظاو ثم صار بعد القلب عظاء.. فلما صار هناء والتقت ألفان كره اجتماع الساكنين فقلبت الألف الآخرة هاء فقالوا هناه، كما أبدل الجميع من ألف (عظاا) الثانية همزة لئلا يجتمع ساكنان ولكان قولا قويا، ولكان أيضا أشبه من أن تكون قلبت الواو فى أول أحوالها هاء وذلك من وجهين: أحدهما أن من شريطة قلب الواو ألفا أن تقع طرفا بعد ألف زائدة وقد

(٣١) لسان العرب ١٧/ ٤٢١، وانظر الموضوع بأسره فى اللسان ١٧/ ٤٢١-٤٢٦.

(٣٢) هم البصريون كما فى اللسان ٢٠/ ٢٤٢.

وقعت هناه كذلك، والآخر أن الهاء إلى الألف أقرب منها إلى الواو بل هما فى الطرفين، ألا ترى أن أبا الحسن ذهب إلى أن الهاء مع الألف من موضع واحد لقرب مكانيهما، فقلب الألف إذاً هاء أقرب من قلب الواو هاء(٣٣).

وقد حكى ابن جنى رأى أبى زيد قال: «وكتب إلى أبو الحسن من حلب فى جواب شىء سألته عنه فقال: وقد ذهب أحد علمائنا إلى أن الهاء من هناه إنما ألحقت فى الوقف لخفاء الألف كما تلحق بعد ألف الندبة فى نحو وازيداه، ثم إنما شبهت بالهاء الأصلية فحركت فقالوا: يا هناه، ولم يسم أبو على هذا العالم فلما انحدرت إليه إلى مدينة السلم وقرأت عليه نوادر أبى زيد نظرت وإذا أبو زيد هو صاحب هذا القول» ثم قال ناقدا له: «وهذا من أبى زيد غير مرضى عند الجماعة، وذلك أن الهاء التى تلحق لبيان الحركات وحروف اللين إنما تلحق فى الوقف، فإذا صرت إلى الوصل حذفتها ألبتة فلم توجد فيه ساكنة ولا متحركة، وقد استقصيت هذا الفصل فى كتابى فى شعر المتنبى عند قوله (واحر قلباه ممن قلبه شبم) ودللت هناك على ضعف قول أبى زيد وبيت المتنبى جميعا.

وحكى ابن السراج عن الأخفش أن الهاء فى هناه هاء السكت بدليل قولهم يا هنانيه، واستبعد قول ابن جنى وأصحابه لأنه كان يجب عليه أن يقال يا هناهان فى التثنية والمشهور يا هنانيه(٣٤)، ورد ابن جنى عليه واضح فيما سبق، ودليل الأخفش غير مسلم به لاحتمال ألا تكون هنانيه مثنى لكلمة هناه بل لكلمة هن، وفرق بين الهاء فى هناه وهنانيه.

ونحن نرى أن مخرجى الحرفين الواو والهاء متباعدان على رأى الأقدمين ومنهم ابن جنى، فالواو من الشفة والهاء من أقصى الحلق وكان من الواجب إذن عدم القول بالإبدال(٣٥) ولكننا نرى أن المحدثين بينوا أن الواو من أقصى اللسان، وهذا يعطيها تقاربا أكثر من الهاء، ويمكن تفسير هذا التبادل بينهما بأنه وضع لحرف جلد يمكن الاعتماد عليه وإجراء الحركات معه، والهاء تتحمل ذلك أكثر من الواو وكل صور الإبدال بين الواو والياء والألف ووضع الهاء مكانها يمكن تفسيرها بأنها مرحلة من مراحل التطور اللغوى والانتقال من الإعلال إلى التصحيح ليقوى اللفظ ويبرز.

---

(٣٣) سر الصناعة. مخطوطة الأزهر. الورقة ١٠٧ واللسان ٢٠/ ٢٤٣، ٢٤٤.

(٣٤) اللسان ٢٠/ ٢٤٢.

(٣٥) لأن ابن جنى شرط التقارب بين الحروف.

التبادل بين الباء والياء:

ذكر ابن جنى أن الباء تبدل ياء فى نحو ثعالى وأرانى فى قول الشاعر - أنشده سيبويه:

لها أشارير من لحم تتمره ... من الثعالى ووخز من أرانيها

قال: أراد الثعالب والأرانب فلم يمكنه أن يقف الباء فأبدل منها حرفا يمكن أن يقفه فى موضع الجر وهو الياء، وليس أنه حذف من الكلمة شيئا ثم عوض منه الياء، هذا هو رأى سيبويه - كما حكاه ابن جنى - وهو يرى فيه رأيا آخر عبر عنه بقوله:

ويحتمل أن يكون الثعالى - عندى - جمع ثعالة وهو الثعلب، أراد أن يقول: ثعايل فقلب، فقال: (ثعالى) قالوا:

وكأن أولاها كعاب مقامر ... ضربت على شزن وهن شواعى[1]

أى: شوائع، ومن أبيات الكتاب:

تكاد أواليها تفرى جلودها ... ويكتحل التالى بمور وحاصب[2]

يريد أوائلها، وله نظائر.

ولكن ابن جنى يعود فيرجح الإبدال فيها - كما ذهب إليه سيبويه - وكما هو فى نظيرتها (أرانى) فيقول: إلا أن الذى ذهب إليه سيبويه أشبه بقولهم: أرانيها، ولأن الثعالة اسم جنس وجمع أسماء الأجناس ضعيف[3].

---

(١) وكأن أولاها إلخ فى رواية أخرى (وكأن صرعيها) وهما إبلان ترد إحداهما حين تصدر الأخرى لكثرتها. الكعاب: فصوص النرد واحدها كعب وكعبة وهو شىء يلعب به، فارسى معرب. واللعب بها حرام، الشزن: الكعب، شواعى مقلوب شوائع أى متفرقة، والشاعر يشبه أولى الإبل (التى يتحدث عنها) فى مجيئها متفرقة متعارضة بعض هنا وبعض هناك - لكثرتها - بكعاب المقامر التى تتضاد وتتفرق. اللسان ٢/ ٢١٥، ٤/ ٤٣١، ٥٨١٠، ٦٥، ٦٦، ١٧/ ١٠٢.

(٢) تفرى: تشق وتقطع - المور: الغبار بالريح - الحاصب: ريح شديدة تحمل التراب والحصباء، يقول: أن أوائل (ما يتحدث عنه من خيل أو إبل) تكاد لسرعتها ونفاذها لغرضها تشق جلودها ولا يبالى بعضها الآخر بما يدخل فى عيونها من تراب تثيره الريح. اللسان ١/ ٣١٠، ٧/ ٣٧، ٢٠/ ١١، ١٢.

(٣) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٢ واللسان ١/ ٣٣٢، ٤١٨، ٤١٩.

ولكننا لو بحثنا فى العلاقة الصوتية بين الباء والياء فإننا نجد تباعدا فى مخرجيهما وصفاتهما، ولذا نحكم بعدم التبادل فيهما بل هما لهجتان(٤).

ومن أمثلة ما قيل فى التبادل بين الباء والياء ما جاء فى المضعف مثل ديباج - لبيت - ولبيك (على قول يونس) - لا وربيك لا أفعل.

قالوا: (ديباج ودبابيج فدل قولهم: ديابيج بالياء على أن أصله: دباج وأنهم استثقلوا تضعيف الباء، ومثله لا وربيك لا أفعل، أى وربك)(٥).

وقال بعضهم: لبيت بالحج هو لببت فعلت - بتشديد العين - من قولهم: ألب بالمكان أى أقام به. قال مضر بن كعب:

فقلت لها فيئى إليك فإننى حرام وإنى بعد ذلك لبيت

أى ملب بالحج(٦).

ويزعم يونس أن لبيك اسم مفرد وأصله عنده لبب ووزنه عنده فعلل ولا يجوز أن تحمله على فعل - بتشديد العين - لقلة فعل للأسماء وكثرة فعلل فقلبت الباء التى هى اللام الثانية من لبب ياء هربا من التضعيف، وهذا كله منتزع من قول سيبويه والخليل: أن لبيك مأخوذ من قولهم: ألب بالمكان(٧).

وهذا يدل على أن الياء فى لبيت ولبيك بدل من الباء كراهية التضعيف الذى نشأ عنه الثقل فى كلتيهما، ولكن أهل الصنعة - وعلى رأسهم الخليل وسيبويه - خالفوا يونس فلم يقولوا بأن الياء فى لبيت ولبيك بدل من باء، بل الياء فيهما أصل، فكلمة لبيك اسم مثنى بمنزلة غلامى زيد وصاحبى سعيد، فالياء عندهم علم التثنية ووزنه على قولهم فعليك(٧) كما أن سعديك كذلك لا محالة «قال الخليل هو من قولهم دار فلان تلب دارى أى تحاذيها أى أنا مواجهك بما تحب إجابة لك، وحكى عنه - أيضا - أنه قال: هو مأخوذ من قولهم أم لبة أى محبة عاطفة ومعناه على هذا إقبالا إليك ومحبة لك وأنشد:

وكنتم كأم لبة طعن ابنها إليها فما درت عليه بساعد

وقال ابن الأعرابى: اللب الطاعة وأصله من الإقامة وقولهم لبيك: اللب واحد فإذا ثنيت قلت فى الرفع لبان وفى النصب والخفض لبين، وكان فى الأصل لبينك أى أطعتك

---

(٤) اللهجات العربية د. نجا ص٦٦.

(٥) سر الصناعة (الأزهر) ١٤٢ واللسان ٣/ ٨٦، ٧/ ٤٦٨، ١٨/ ١٦٧.

(٦) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٤٢، ١٤٣، وانظر الأشمونى ٢/ ٢٥٣.

(٧) المصدر السابق ص١٤٣.

مرتين ثم حذفت النون للإضافة أى أطعتك طاعة مقيما عندك إقامة بعد إقامة[8] فالياء على هذا للتثنية، ونقض أصحاب هذا المذهب رأى يونس بذلك وأبطلوا وجه الشبه الذى ادعاه بين لفظ لبيك وكلمات (عليك - إليك - لديك) واحتج سيبويه على يونس فقال: لو كانت ياء لبيك بمنزلة عليك وإليك ولديك لوجب متى أضفتها إلى المظهر أن تقرها ألفا كما أنك متى أضفت عليك وأختيها إلى المظهر أقررت ألفها بحالها فكنت تقول: لبى زيد ولبى جعفر كما تقول إلى زيد وعلى زيد ولدى سعيد، وأنشد قول الشاعر:

دعوت لما نابنى مسورا فلبى فلبى يدى مسور

قال: قوله: فلبى بالياء مع إضافته إياه إلى المظهر دلالة على أنه اسم مثنى بمنزلة غلامى زيد وصاحبى سعيد[9]، هذا عن الياء فى لبيك فهى ياء التثنية وليست بدلا من ياء - كما ذهب يونس - أما ياء لبيت بالحج فهى كذلك - عند أهل الصنعة - وليست بدلا من ياء بل هى الياء فى لبيك التى هى علم التثنية ذلك أنهم اشتقوا من الصوت فعلا فجمعوه من حروفه كما قالوا من سبحان الله: سبحلت، أى قلت سبحان الله ومن لا إله إلا الله هللت، ومن لا حول ولا قوة إلا بالله حولقت، ومن بسم الله بسملت ومن هلم هلممت. وكتب إلى أبو على من حلب فى شىء سألته عنه فقال: قال بعضهم سألتك حاجة فلاليت لى أى قلت لى لا، وسألتك حاجة فلوليت لى أى قلت لى لولا، قال: وقالوا: بأبأ الصبى أباه أى قال له يا أباه... وهذا كثير فكذلك أيضا اشتقوا لبيت من لفظ لبيك فجاء فى لبيت بالياء التى هى للتثنية فى لبيك، وعلى هذا قول سيبويه[10].

وقد رجح ابن جنى رأى أهل الصنعة حين قال: «والقول بعد ذلك قول سيبويه إلا أنه لا يمنع مع ذلك صحة رأى يونس حين قال: «ثم إن أبا على فيما بعد انتزع لنا شيئا يؤنس به قول يونس ولم يقطع به، وإنما ذكره وهو أنه قال: ليونس أن يحتج فيقول: قوله فلبى يدى إنما جاء على قول من قال فى الوصل هذه أفعى بسكون الياء عظيمة وعصى طويلة، فقد حكى سيبويه أنهم يقولون ذلك فى الوصل كما يقولونه فى الوقف، وهذا ليس عندنا معنفا وإنما فيه بعض التأنيس، ويرى الأب مرمرجى الدومنكى أن الفعل (لبى) ليس مرتجلا - كما فى الفصحى - من لفظة لبيك بل يراد به ساعد - أعان - أغاث، كما أن لفظة لبيك ليست بمثنى، وإنما يراد منها المعنى السابق للفعل لبى لأسباب:

---

(٨) لسان العرب ٢/ ٢٢٦، ٢٢٧ والأشمونى ٢/ ٢٥٢ والكتاب ١/ ٣٥٢-٣٥٤ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

(٩) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ١٤٣، والأشمونى ٢/ ٢٥٣.

(١٠) المصدر السابق، الوجه الثانى من الورقة ١٤٢.

١- تاريخ الكلمة يدل على أنها قديمة جدا ودالة على ما كان الساميون يجرونه من الأعمال فى غضون عبادتهم للقمر.

٢- أن قدماء العرب كانوا يعتقدون أن القمر فى الليالى الأخيرة من الشهر يقع فى ضيقة لشدة الضغط النازل عليه من قبل تهامة أى البحر، وهى الكلمة الأكدية التى استقرضتها العربية ولا سيما عربية الجنوب منذ القدم، كما أن هذه اللفظة ذاتها قد ولجت العبرية بصورة tehom فكان العرب يصرخون إذ ذاك لبيك لبيك موجهين الكلام إلى القمر كأنهم يقولون (ساعدك - أو أغاثك أو فليساعدك وليغثك الإله مروخ منجيا إياك من (تهامة) وقد استمرت هذه العادة القديمة بين بعض العامة الجهلة فى فرصة كسوف القمر لاعتقادهم الخرافى أن حوتا يبتلعه فيصرخون ويضجون بالدق والقرع على الأوانى النحاسية كالقدور والصوانى وغيرها تهويلا لهذا الحوت المزعوم فيضطر لخوفه إلى قذف القمر من فيه وبذلك يزول الكسوف على ظنهم ظن الغباوة.

٣- أن هذه الكلمة تتبعها لفظة أخرى وهى سعديك، وقد أشار سيبويه إلى ذلك بقوله «حدثنى أبو الخطاب أنه يقال للرجل المداوم على الشىء لا يفارقه ولا يقلع عنه: قد ألب فلان على كذا وكذا وقد أسعد فلان فلانا على أمره وساعده، والإلباب: المساعدة، وكما ورد عن البخارى فى جواب معاذ للنبى (لبيك) رسول الله وسعديك.

٤- أنها تشبه أهل واستهل أى رفع صوته، والإهلال بالحج ومن هذا الصوت صيغت الأفعال (هل - أهل - استهل).

ثم تطورت دلالتها فأصبحت تطلق على الإجابة والطاعة والتهليل والتسبيح والتعظيم، والنتيجة لكل ذلك أنه «يمكن القول بأن الصيغة (لبيك) ليست من باب التثنية والنصب كما هو الرأى السائد بل هى ضرب من اللفظ القديم بالإمالة على مثال الوارد فى اللهجات مثلا:ناديه - توفيه - استهويه - صريط - مشكيه - كيفرين (يقابلها فى الفصيح: ناداه - توفاه - استهواه - صراط - مشكاة - كافرين) وعلى تعاقب الأزمان ثبت فى الفصحى التلفظ بالفتحة المشبعة كقولك (رماه - وفاها - دعاك) وهكذا تكون لبيك وسعديك من الآثار اللغوية القديمة التى بقيت فى اللغة وسبقت لباك وأسعدك[١١].

والباحث يرى أن كل تلك الآراء قديمة وحديثة تجعل مادة (لب وألب) أصلا لاشتقاق (لبيت ولبيك) ومعناهما فى النهاية أنا مقيم على طاعتك[١٢]، وهذا الاشتقاق صحيح لموافقة المأخوذ للمأخوذ منه فى أصل المعنى والاتجاه، وبهذا يبدو أن القول

---

(١١) معجميات عربية سامية للأب مرمرجى الدومنكى ص١٧٠-١٧٣.

(١٢) اللسان ٢/ ٢٢٦.

باشتقاق (لبيت أو لبيك) أحدهما من الآخر أمر غير سديد، كما أن القول بأن لبيك اسم مفرد فيه كثير من التكلف والتعسف وهو رأى يونس وما يراه الأب مرمرجى الدومنكى من أن (لبيك) صيغة من صيغ الإمالة لا تؤيده البراهين اللغوية الواقعة، إذ لا يوجد ما يؤيد أن (لبيك) كانت تنطق بصيغة الإمالة، والمعهود أن تكون إمالة الألف نحو الكسرة مثل ﴿وجاء ربك والملك﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وما هنا لم يتحقق فيه ذلك بل الحرف السابق (للألف - حسب ما يراه) مفتوح فتحة صريحة لا صلة لها بالكسرة بحال وهى لا تتفق والأمثلة اللهجية آتى ذكرها، بل تلك النظائر أميلت فيها الألف نحو الكسرة على خلاف لبيك وسعديك، ويبدو أن رأى أهل الصنعة - وعلى رأسهم الخليل وسيبويه فى الذهاب إلى أن لفظ (لبيك) مثنى هو أكثر صوابا وقبولا، يدل لذلك القاعدة اللغوية المشهورة (الإعراب فرع المعنى) فمعناها (إجابة لك بعد إجابة وإقامة على طاعتك بعد إقامة) وهذا يؤكد أن اللفظ مثنى وأنه منصوب على المصدرية كقولك حمدا لله وشكرا وكان حقه أن يقال: لبا لك إلا أنه ثنى على معنى التوكيد أى إلبابا لك بعد إلباب وإقامة بعد إقامة[١٣] وأما القول بأن الياء فى (لبيت ولبيك) بدل من الباء فيمكن التفصيل فيه فالأقوى احتمالا أن تكون الياء فى الفعل بدلا من الباء تبعا لأصل اشتقاقه من لب أو ألب بالمكان بمعنى أقام به ولزمه، فالمتوقع فى الصياغة - تبعا للقواعد العامة أن يكون أصله (ل ب ب - لب ب ت) ثم أبدلت الباء الأخيرة ياء كراهية توالى الأمثال[١٤] وهو قانون بينا أنه منطق علم اللغة الحديث - والأقوى احتمالا - كذلك - ألا تكون الياء فى (لبيك) بدلا من باء - مع اعترافنا برجوعها إلى أصل المادة (ل ب ب) - فالمعروف أن (لبيك) كما رجحنا مثنى المصدر (لب) بحالة النصب وأصله (لبان) لك ولبين لك، فالظاهر أن الياء هنا علم النصب فى التثنية ولا صلة لها بحرف آخر كالباء، إذ الصيغة هنا من الثلاثى وهى ثلاثية أيضا بعكس صيغة الفعل (لبى) فهى رباعية ولابد لصياغتها من لب أن تكون هناك باء أخرى زيدت على الأصل الثلاثى ثم أبدلت منها الياء للمخالفة التى تحقق انسجام الأصوات فى الكلمة.

التبادل بين التاء والياء:

اتسر - اتبس: (من اليسر واليبس) - ثنتان - كيت وذيت.

ذكر ابن جنى أن الإبدال بين التاء والياء مقيس فى افتعل مما فاؤه ياء[١٥].

---

(١٣) اللسان ٢/ ٢٢٧.

(١٤) يقول صاحب اللسان لبيت بالمكان ولببت لغتان إذا أقمت به وهو أصل التلبية كما حكى أبو عبيد عن الخليل. اللسان ٢٠/ ١٠٤.

(١٥) سر الصناعة ١/ ١٦٤، ١٦٥.

وأما ثنتان فقال عنها: ويدل على أنه من الياء أنه ثنيت لأن الاثنين قد ثنى أحدهما عن صاحبه وأصله ثنى يدل على ذلك جمعهم إياه على أثناء، بمنزلة أبناء وآخاء فنقلوه من فعل - بفتح الفاء والعين - إلى فعل - بكسر الفاء وسكون العين كما فعلوا ذلك في بنت[١٦] والمثالان الأخيران أصلهما كية وذية ثم إنهم حذفوا الهاء وأبدلوا من الياء التى هى لام تاء كما فعلوا ذلك فى (ثنتان) والصيغة فيهما علم التأنيث كما كانت الصيغة فى (ثنتان) كذلك علم التأنيث وليست التاء فيهما منقلبة عن واو، وأن أصلهما كيوة وذيوة لأنه يؤدى إلى مثال ليس فى كلام العرب «لأنه ليس فى كلامهم لفظة عين فعلها ياء ولام فعلها واو» إلا إذا كان علما مثل رجاء بن حيوة لأنه قد يحتمل فى الأعلام ما لا يحتمل فى غيرها[١٧]، ويمكن أن نطبق على هذه الأمثلة ما ذكرناه فيما سبق وبخاصة أن الأشمونى يقول عن إعراب (ثنتان) ومثل اثنتين ثنتان فى لغة تميم[١٨] وقال قبل ذلك أنهما اسمان من أسماء التثنية وليسا بمثنيين حقيقة فليس لرأى ابن جنى مجال من جعلها تثنية (ثنى) وأنها من ثنيته[١٩]، ولا داعى للتفريق بينها وبين اثنتان على ما تصور ابن جنى، وكل ذلك يمكن اعتباره لهجات متعددة لا من قبيل الإبدال لعدم العلاقة الصوتية، ولا مسوغ للإبدال أو الاعتذار عن ابن جنى بعد أن استقر لدى القدماء مخرج الياء ووافقهم عليه المحدثون وهو وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى والتاء على ما سبق من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا وبينهما من الحروف - على رأى ابن جنى نفسه - ض - ل - ر - ن - ط - د، فالتفسير الصحيح لذلك أنه من اختلاف الناطقين، فبعضهم يقول اتسر والآخرون ايتسر وبعضهم يقول اثنتان وآخرون ثنتان وبعض يقول كية وذية وبعض آخر كيت وذيت وهكذا.

وذكر ابن جنى أن الياء تبدل من التاء مثل ايتصلت فقد أبدل الياء من التاء الأولى كراهية التضعيف[٢٠] إذ أصلها اتصلت قال: (وايتصلت بمثل ضوء الفرقد) وهذا يخالف ما ذكره ابن جنى فى مكان آخر إذ صرح بأن التاء هى التى أبدلت من فاء افتعل التى كانت واوا[٢١] خوفا من تلاعب الحركات بالواو فإنها لو تركت دون إبدال بالتاء حولتها الحركات المختلفة فيها إلى حروف مد من جنسها «فوجب أن يقلبوها إذا انكسر ما قبلها ياء فيقولوا ايتزن، ايتعد، ايتلج، فإذا انضم ما قبلها ردت إلى الواو فقالوا موتعد وموتزن وموتلج وإذا انفتح ما قبلها قلبت ألفا فقالوا ياتعد وياتزن وياتلج[٢٢]، وعلى هذا فالياء فى

(١٦) المصدر السابق ١/ ١٦٩.

(١٧) المصدر السابق ١/ ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

(١٨) الأشمونى ١/ ٧٨. (١٩) سر الصناعة ١/ ١٦٩.

(٢٠) المصدر السابق (الأزهر) الورقة ١٤٦.

(٢١) المصدر السابق ١/ ١٦٣. (٢٢) المصدر السابق ١/ ١٦٤.

ايتصل ونحوها ليست مبدلة من التاء - كما ذكر ابن جنى فى سر الصناعة حرف الياء بل إن الياء بدل من الواو حولت إليها لمناسبة الكسرة، وهذا التلاعب لهجة عربية اعترف بها ابن جنى نفسه[٢٣]، وقد شرحنا ذلك فيما مضى.

التبادل بين الثاء والياء:

يفديك يا زرع أبى وخالى ... قد مر يومان وهذا الثالى

وأنت بالهجران لا تبالى

أراد الثالث[٢٤] والواقع أن هذا لا يعد من الإبدال بل كل منهما لهجة وذلك لأنه لا تقارب بين الياء والثاء حتى يقع بينهما التبادل.

التبادل بين الجيم والياء:

ذكر ابن جنى أن الياء تبدل من الجيم كما فى كلمة شجرة فإنها تنطق أحيانا شيرة وقرئ (ولا تقربا هذه الشيرة)[٢٥] وقد عرض ابن جنى لرأيين فيها:

الأول: أن الياء ليست بدلاً من الجيم بل هى أصل مثلها فى لهجة من اللهجات، واستدل على ذلك بأمرين:

١ - ثبات الياء فى تصغيرها فى قولهم (شييرة) ولو كانت بدلاً من الجيم لكانوا خلقاء إذا صغروا الاسم أن يردوها إلى الجيم ليدلوا على الأصل.

٢ - أن شين شجرة مفتوحة وشين شيرة مكسورة والبدل لا تغير فيه الحركات إنما يوقع حرف موقع حرف (مثل أيل وأجل)[٢٦]. قال أبو الفتح: حكى أبو الفضل الرياشى قال: كنا عند أبى زيد وعندنا أعرابى فقلت له: إنه يقول الشيرة فسأله عنها فقلت له: سله عن تصغيرها فسأله فقال: شييرة، وأنشد الأصمعى لبعض الرجاز: (تحسبه بين الآكام شيرة)[٢٧] وقال صاحب البحر: «كره أبو عمرو هذه القراءة وينبغى ألا يكرهها لأنها لغة منقولة».

الثانى: أن تكون الياء بدلاً من الجيم - ببعض الصنعة - فالعرب إذا قلبت وأبدلت قد تغير فى بعض الأحوال مثل جاه مقلوب وجه، ألا ترى أنه بعد تقديم العين لم يسكن الواو بل حركها فقلبت ألفا، فكذلك غيرت فتحة الشين كسرة وزاد فى الأنس

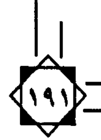
---

(٢٣) المصدر السابق ١/ ١٦٥. (٢٤) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٤٦.

(٢٥) سورة البقرة الآية ٣٥، والبحر ١/ ١٥٨.

(٢٦) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٤٦، واللسان (شجر) ٦/ ٦٢، ٦٣.

(٢٧) المحتسب ١/ ٧٣، ٧٤، وانظر اللسان ٦/ ٦١، والقاموس المحيط ٢/ ٥٦٦.



بالكسر أنه لو أقرت الفتحة لقلبت الياء ألفا فيقال شارة فكانت تبعد كثيرا عن شجرة، وليس كذلك كلمة (جاه) لأنه يشبه وجها لسكون ثانيه بخلاف شارة لأن ثانيه ساكن وثانى شجرة متحرك فعدلوا لذلك إلى كسر الشين وكان هذا أوفق وأليق[٢٨].

ويؤنس لهذا الوجه أيضا ما ذكره فى المحتسب «من أن بعض العرب تقول الشجرة (بكسر الشين) وقال ابن إسحاق لغة بنى سليم الشجرة[٢٩] - بكسر الشين - ويعقب صاحب اللسان بأن الواحد شجرة وشجرة - بفتح الشين وكسرها - وقالوا شيرة فأبدلوا، فإما أن يكون على لغة من قال شجرة - بسكر الشين - وإما أن تكون الكسرة لمجاورتها الياء[٣٠] والواقع أن البحث اللغوى الحديث يؤيد الإبدال بين الياء والجيم لاتفاقهما فى المخرج فكلاهما من (وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى) وكلاهما مجهور مستفل منفتح مصمت[٣١]، ولا مانع من نسبة كل منهما إلى حى من العرب وذات الجيم والشين المفتوحة تناسب الحضر لخفتها، على حين تناسب المكسورة الشين والمبدلة سكان البادية كبنى سليم وغيرهم من الأعراب.

ويقول ابن جنى بالتبادل كذلك بين الجيم والياء فى المضعف ويمثل لذلك بقولهم فى جمع ديجوج: دياج أصله: دياجيج فأبدلت الجيم الأخيرة ياء وحذفت - مع الياء قبلها - تخفيفا[٣٢]، ويقول صاحب اللسان: وجمع الديجوج دياجيج ودياج وأصله: دياجيج فخففوه بحذف الجيم الأخيرة، قال ابن سيده: التعليل لابن جنى[٣٣].

وليس من المعقول أن يكون قد حذف الجيم ابتداء بل الأمر يقتضى قلبها أولا إلى ياء للانسجام الصوتى ثم حذفت مع الياء قبلها زيادة فى تخفيف اللفظ، وبخاصة أنه قد ثقل بالجمع مع وجود الأصوات المتماثلة فى صعيد واحد.

قال الأحمر: بعير أزيم وأسجم - وهو الذى لا يرغو - قال شمر: الذى سمعت بعير أزجم بالزاى والجيم، وقال أبو الهيثم ليس بين الأزيم والأزجم إلا تحويله الجيم ياء وهى لغة تميم معروفة[٣٤].

---

(٢٨) سر الصناعة (الأزهر) ١٤٦ بتصرف.

(٢٩) المصدر السابق ١/ ٧٣، ٧٤. (٣٠) اللسان ٦/ ٦١.

(٣١) التجويد والأصوات ٤٩، ٥٠ والأصوات اللغوية ٦٤، ٦٥.

(٣٢) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٤٦. (٣٣) اللسان ٣/ ٨٩.

(٣٤) التهذيب ١٣/ ٢٧٥ (زيم) وفى اللسان إلا تحويله الياء جيما، وقد دعا ذلك بعض الباحثين إلى عدم نسبة هذه الظاهرة إلى تميم مع أن ذلك ثابت كما ورد عن الأزهرى، لغة تميم لضاحى عبد الباقى ص٨٥.

ونقـل عـن بنـى تميم أنـهم يـقولـون: الصـهـارى وصـهـرى فى الـصـهـاريج وصهـريج[٣٥].

التبادل بين الدال والياء:

من أمثلة ذلك (فعلت) من التصدية - وهـى التصفيق والصوت، قال الأزهرى: يقال صدى يصدى تصـدية إذا صفق[٣٦] وأصله صدد يصـدد فكثرت الدالات فقلـبت إحداهن ياء[٣٧]، ومنه الثلاثى صددت أصد وصددت أصد بكسـر الصاد وضمها فى المضارع وفى التنزيل: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون﴾ أى يعـجون ويضـجون، والاختـيار يصـدون بالكسـر، وهى قراءة ابن عـباس وفسـره يضجـون ويعجون.. قـال أبو منصور: فإذا كان المـعنى يضج ويعج فالوجه الجيد صـد يصد مثل ضج يضج[٣٨]، وأنكر أبو جعفر الرستمى هذا القول على أبى عبيدة وقال إنما هو من الصدى وهو الصوت فكيف يكون مضاعـفا؟، وقال أبو على: ليس ينبـغى أن يقال هذا خطأ لأنه قد ثبت بـقوله يصدون وقوع هذه الكلمة على الصوت وضرب منه، وإذا كـان كذلك لم يمتنع أن تكون تصدية منه ويكون تفعلة مـن ذلك أصلها تصددة مثل التـجلة والتعلة[٣٩] فلمـا قلبت الدال الثانـية من تصددة تخفيفا اختلف اللفظان فبطل الإدغام[٤٠].

التبادل بين الراء والياء:

شيراز - قيراط - تسريت.

أولا: شيراز[٤١] فيه عدة أوجه:

١ - أن تكون الياء بدلا من الراء وذلك من وجهين:

(أ) أن يكون أصـله شرازا والجـمع شراريز، وهـذا واضح فى إبدال اليـاء من الراء الأولى.

---

(٣٥) الإبدال لأبى الطيب ١/ ١٦١، والأمالى ٢/ ٢١٤.

(٣٦) سر الصناعة (الأزهـر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٥ ومنه قـوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ فالمكاء الصفير والتصـدية التصفيق وقيل للتصفيق تصدية لأن اليدين يـتصافقان فيقابل صفق هذه صفق الأخرى، وصد هذه صد الأخرى وهما وجهاها. اللسان ٤/ ٢٣٣.

(٣٧) اللسان ٤/ ٢٣٣.

(٣٨) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٥ واللسان ٤/ ٢٣٢.

(٣٩) إذ أصلهما تجللة وتعللة ثم أدغم.

(٤٠) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٥ والأول من الورقة ١٤٦.

(٤١) اللبن الـرائب المسـتخرج مـاؤه ج شواريز وشراريـز وشآريز فيـمن يقول: شـئراز انظر مـادة (شرز) القاموس: ٢/ ١٨٥.

(ب) أن يكون أصله شرازا والجمع شواريز، يقول ابن جنى وقد يجوز - أيضا - على هذا أن يكون أصل واحده شرازا إلا أنهم أبدلوا من الراء الأولى ياء - كما ذكرناه - ثم إنهم لما جمعوا أبدلوا الياء المبدلة عن الراء واوا لقرب ما بين الياء والواو.

٢- أن تكون الياء بدلا من الواو: قال ابن جنى: (فأما من قال فى شيراز شواريز فإنه جعل الياء فيه مبدلة من واو وكان أصله على هذا شورازا فلما سكنت الواو وانكسر ما قبلها قلبت ياء ثم إنه لما زالت الكسرة فى الجمع رجعت الواو فقالوا شواريز فإن قلت: فإن بناء فعوال ليس موجودا فى الكلام فمن أين حملت واحد شواريز عليه؟ فالجواب: أن ذلك إنما رفض فى الواحد لأجل وقوع الواو ساكنة بعد الكسرة فلم يمكن إظهارها، فلما لم يصلوا إلى إظهار الواو فى الواحد لما ذكرناه وكانوا يريدونها أظهروها فى الجمع ليدلوا على ما أرادوه فى الواحد ليعلموا أنها لم تزد فى الواحد ياء فى أول أحوالها وأنها ليست كديماس ودياميس ولا كديباج ودبابيج فيمن نطق بالباء بعد الدال والدليل، على كون الياء فى شيراز بدلا من الواو فى شوراز وأنها بمنزلة ياء ديماس ظهورها فى الجمع شواريز)(٤٢).

٣- أن تكون الياء غير مبدلة من راء ولا واو بمنزلة ياء ديماس قال ابن جنى: ويحتمل قولهم عندى شواريز قولا آخر على غير المذهب الأول وهو أن يكون شيراز فيعالا والياء فيه غير مبدلة من راء ولا واو بمنزلة ديماس، وكان قياسه على هذا أن يقولوا فى تكسيره شياريز كدياميس ولكنهم أبدلوا من الياء واوا لضرب من التوسع فى اللغة، وذلك أن الواو فى هذا المثال المكسر أعم تصرفا من الياء ألا ترى إلى كثرة نحو ضوارب وقواتل...وقلة صيارف وبياطر، فلما ألفيت الواو فى هذه الأمثلة المكسرة وكانت أعم تصرفا من الياء قلبت الياء أيضا فى شياريز واوا فى شواريز كما قلبت الواو أيضا فى نحو هذا من مكسر الأمثلة ياء لضرب من الاتساع فى الكلام، وقالوا فى جمع ناطل... نياطل ولم يقولوا نواطل مثل خواتم ودوانق، قال لبيد: (تكر عليهم بالمزاج النياطل)(٤٣) وقد رجح ابن جنى أن تكون غير مبدلة من راء ولا واو حيث يقول بعد حديثه عن الرأى الأول مشيرا إلى الرأى الثالث الذى معنا قد ذكره قبله - والقول الذى قبل هذا أشبه.

---

(٤٢) المصدر السابق (الأزهر) ٤٣.

(٤٣) الأزهر الوجه الثانى من الورقة ١٤٣، ١٤٤، وانظر المحتسب ١/ ١٥٧ والنياطل: جمع ناطل وهو القدح الصغير الذى يعرض فيه الساقى أنموذجه من الشراب على الندامى، وقال الجوهرى: أنه جمع نيطل لأن فاعلا لا يجمع على فياعل. اللسان ١٤/ ١٩٠.

ثانيا: قيراط: أصله قراط بالتشديد لأن جمعه قراريط فأبدل من إحدى حرفى تضعيفه ياء.. قال ابن دريد: أصل القيراط من قولهم: قرط عليه إذا أعطاه قليلا والياء فى قيراط بدل من الراء[٤٤].

ثالثا: تسريت: هذا الفعل مأخوذ من السرية[٤٥] بتشديد السين المضمومة وتشديد الراء المكسورة وقد اختلف فى اشتقاقها على الوجوه الآتية:

١- من سراة الشىء: وسراة الشىء أعلاه وما ارتفع منه[٤٦] وأصلها على هذا (فعيلة) سريوة لأن السراة من الواو ويظهر ذلك فى جمعها على سروات يقول الفرزدق:

وأصبح مبيض الصقيع كأنه ... على سروات النبت قطن مندف

فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء[٤٧].

٢- من السرو بمعنى المروءة والشرف يقال سرو يسرو سراوة وسروا أى صار سريا وله صلة بالمعنى السابق إذ الشرف والمروءة ارتفاع عن الدنايا، ومن هنا قال أبو العباس: السرى الرفيع فى كلام العرب ومعنى سرو الرجل يسرو أى ارتفع يرتفع فهو رفيع مأخوذ من سراة كل شىء ما ارتفع منه وعلا[٤٨] إلا أن سرية على هذا يكون أصلها فعولة من السرو وقلبت الواو الأخيرة ياء طلبا للخفة ثم أدغمت الواو فيها فصارت ياء مثلها ثم حولت الضمة كسرة لمجاورة الياء[٤٩].

٣- من السرور وبه قال أبو الحسن الأخفش يقول ابن جنى: والذى ذهب إليه أبو الحسن أنها فعلية من السرور؛ لأن صاحبها يسر بها، ودفع أبو الحسن ما سبق من الآراء، وقال إن الموضع الذى تؤتى المرأة منه ليس أعلاها ولا سراتها قال ابن جنى: والقول ما قال[٥٠].

---

(٤٤) القيراط معيار فى الوزن، وفى القياس، تختلف مقاديره باختلاف الأزمنة، ويقال القيراط والقراط بالتشديد. انظر القاموس ٢/ ٣٩٢، ٢٩٣، واللسان (قرط) ٩/ ٣٥٢ والمعجم الوسيط ٢/ ٧٢٧.

(٤٥) الجارية المتخذة للملك والجماع والأمة التى بوأتها بيتا.

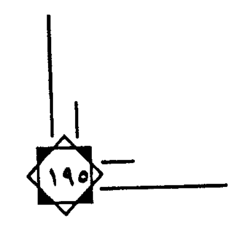
(٤٦) اللسان ١٩/ ١٠٠.

(٤٧) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول ورقة ١٤٥.

(٤٨) اللسان ١٩/ ٩٩، ١٠٠.

(٤٩) المصدر السابق ٦/ ٢٢.

(٥٠) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول ورقة ١٤٥.



٤- (أ) من السر بمعنى الجماع لأنه يكتم «وذلك أن صاحبها أبدا يخفيها ويسر أمرها من حرته وصاحبة منزله»[٥١] وهى فعلية بهذا الاشتقاق أيضا وضمت السين للفرق بين الحرة والأمة توطأ فيقال للحرة إذا نكحت سرا أو كانت فاجرة سرية - بكسر السين - وللمملوكة يتسراها صاحبها سرية - بضم السين مخافة اللبس[٥٢].

(ب) من السر بمعنى السرور وبه قال أبو الهيثم، ولعل هذا مأخوذ من رأى أبى الحسن الأخفش السابق.

٥- من السرى يقول ابن جنى: «ولو قال قائل إنها فعلية من سريت أى سرت ليلا إليها لأن فى ذلك ضربا من الإخفاء والستر لكان قولا»[٥٣].

ومن هذه الآراء يتلخص لنا أن وزنها إما فعلية - كما هو الرأى الثالث والرابع - وإما فعيلة - كما هو الرأى الأول والخامس - وإما فعولة - كما هو الرأى الثانى - وعلى أخذها من السرى لا يتحقق الإبدال فى شىء من الحروف؛ لأن الياء تكون أصلية فى موضعها، وعلى أخذها من السراة والسرو يكون الإبدال من الواو إلى الياء - كما هو مبين سابقا - وليس من بابنا الذى نتحدث عنه، ويتحقق ما أردناه إذا أخذت من السر أو السرور إذ تكون السرية من (مادة س ر ر) المكررة الراء ويكون تسريت أصله تسررت على تحويل التضعيف، فالراء أبدلت ياء لما توالى ثلاث راءات، ولذلك قال ابن جنى إن حملها على أنها فعلية أوجه لأمرين:

(أ) لأن فعلية أكثر فى الكلام من فعيلة.

(ب) معنى السر والسرور أظهر من معنى السراة والسرى[٥٤].

التبادل بين السين والياء:

قال الشاعر:

إذا ما عد أربعة فسال   فزوجك خامس وأبوك سادى

وقال الآخر:

بويزل أعوام أذاعت بخمسة   وتعتدنى إن لم يق الله ساديا

---

(٥١) المصدر السابق (الأزهر) ١٤٥.

(٥٢) اللسان ٦/ ٢٢.

(٥٣) سر الصناعة (الأزهر) ١٤٥.

(٥٤) المصدر السابق.

وقال ثالث:

مضى ثلاث سنين منذ حل بها   وعام حلت وهذا التابع الخامي

وقال:

عمر بن كعب بن عبد الله بينهما

وابناهما خمسة والحارث السادى(٥٥)

والواقع أنه لا إبدال بين السين والياء لعدم التقارب فى المخرج أو الصفة فكل منهما لغة لقوم، يقول ابن منظور فى لسانه: والسادى: السادس فى بعض اللغات وذكر البيت الأول(٥٦).

التبادل بين الصاد والياء:

يذكر ابن جنى من ذلك (قصيت أظافرى والأصل قصصتها) فقلبت إحدى الصادات ياء كراهية التضعيف(٥٧).

التبادل بين الضاد والياء:

وهذا مثل تقضى بمعنى انقض وأصله تقضض على وزن (تفعل) من الانقضاض. قال الشاعر:

تقضى البازى إذا البازى كسر

ويجوز أن يكون (تقضى البازى) تفعلا من قضيت بمعنى عملت وصنعت قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما   داود أو صنع السوابغ تبّع

أى عملهما.

وعلى ذلك يكون معنى تقضى البازى أى عمل البازى فى طيرانه، والوجه هو الأول(٥٧).

---

(٥٥) سر الصناعة (الأزهر) ١٤٢ وانظر اللسان ٣/ ٨٦، ٧/ ٤٦٨، ١٨/ ١٦٧.

(٥٦) ١٩/ ٩٩.

(٥٧) سر الصناعة (الأزهر) ١٤٥، والمحتسب ١/ ١٥٧ وانظر اللسان ١٧/ ١٤٤، ٢٠/ ٤٥. قال ابن جنى: وقد يجوز عندى أن يكون قصيت فعلت من أقاصى الشىء، لأن أقاصيه أطرافه والمأخوذ من الأظفار إنما هو أطرافها وأقاصيها فلا يكون فى هذا بدل.

التبادل بين العين والياء:

من ذلك قول الشاعر أنشده سيبويه:

ومنهل ليس به حوازق ... وللضفادى جمة نقائق

يريد للضفادع جمة فكره أن يسكن العين فى موضع الحركة فأبدل منها حرفا يكون ساكنا فى حال الجر وهو الياء(٥٨).

والواضح أنها لغة وليست من الإبدال فى شىء لعدم تقارب مخرجى الحرفين وصفاتهما.

وفى المضعف قالوا: تلعيت من اللعاعة وهى بقلة وأصله تلععت(٥٩)، ويقول صاحب اللسان:

واللعاعة أيضا بقلة من ثمر الحشيش تؤكل، وألعت الأرض تلع إلعاعا أنبتت اللعاع وتلعى اللعاع أكله وهو من محول التضعيف، يقال: خرجنا نتلعى أى نأكل اللعاع كان فى الأصل نتلعع مكرر العينات فقلبت إحداها ياء(٦٠).

التبادل بين الكاف والياء:

من ذلك «مكوك ومكاكى أصله مكاكيك مثل سفود وسفافيد(٦١) فأبدل كراهية التضعيف... وفى حديث أنس (**أن رسول الله ﷺ: كان يتوضأ بمكوك ويغتسل بخمس مكاكيك**)، وفى رواية بخمس مكاكى(٦٢).

التبادل بين اللام والياء:

من ذلك أمليت وأصلها أمللت وهما لغتان قال ابن جنى: قولهم أمليت الكتاب إنما أصله أمللت، فأبدلت اللام الآخرة هربا من التضعيف، فقد جاء القرآن باللغتين جميعا. قال الله عز وجل: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وقال ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٦٣) وفى

---

(٥٨) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ١٤٦ وانظر اللسان (ضفدع) ١٠/ ٩٤.

(٥٩) المصدر السابق الوجه الأول من الورقة ١٤٦.

(٦٠) اللسان ١٠/ ١٩٥.

(٦١) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٦.

(٦٢) اللسان ١٢/ ٣٨١.

(٦٣) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٥، والمحتسب ١/ ٥٧، واللسان ١٧/ ١٤٤، ٢٠/ ٤٥.

اللسان قال الفراء: أمللت لغة أهل الحجاز وبنى أسد وأمليت لغة بنى تميم وقيس[٦٤] وقرأ عكرمة (إيلا ولا ذمة) بياء بعد الكسرة خفيفة اللام[٦٥] وأصلها (إلا) تحولت اللام المضعفة إلى الياء، وقد أشار ابن جنى إلى حدوث الثقل باجتماع المثلين وأن ذلك يؤدى إلى تخفيفهما باتباع قانون المخالفة يقول (طريق الصنعة فيه أن يكون أراد (إلا) كقراءة الجماعة إلا أنه أبدل اللام الأولى ياء لثقل الإدغام وانضاف إلى ذلك كسرة الهمزة، وثقل الهمزة وقد جاء نحو هذا فى أحرف صالحة كدينار لقولهم دنانير وقيراط لقولهم قراريط وديماس فيمن قال: دماميس وديباج فيمن قال ديابيج وشيراز فيمن قال: شراريز[٦٥].

التبادل بين الميم والياء:

ديماس - يأتمى - يكموا - معمية.

(أ) قال سيبويه: من قال فى جمع ديماس دماميس فالياء فيه بدل من الميم إذ أصله حينئذ دماس فأبدل كراهية التضعيف[٦٦].

(ب) قال الشاعر: أخبرنا أبو على بإسناده عن يعقوب عن ابن الأعرابى أنه أنشده:

نزور امرأ أما الإله فيتقى   وأما بفعل الصالحين فيأتمى

أراد: يأتم فأبدل الميم الثانية ياء[٦٧].

(جـ) وقال فى قول الراجز: (بل لو رأيت الناس إذ تكموا... إلخ).

قالوا: أراد تكمموا من تكممت الشىء إذا سترته فأبدلت الميم الأخيرة ياء فصارت فى التقدير (تكميوا)، فأسكنت الياء وحذفت كما تقول: قد تولوا من وليت، وذكر ابن جنى احتمالا آخر فيه وهو أن يكون تكموا تفعلوا من كميت الشىء إذا سترته ومنه قولهم كمى وهو الذى تستر فى سلاحه فيكون تكموا على هذا مما لامه معتلة ولا يكون أصله من ذوات التضعيف[٦٨]، وقال ذو الرمة:

منطقة بالآل معمية به   دياجيرها الوسطى وتبدو صدورها

---

(٦٤) ١٤/ ١٥٣، ١٥٤.

(٦٥) المحتسب ١/ ٢٨٣، ٢٨٤، والخصائص ٢/ ٢٣١.

(٦٦) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٤٥ بتصرف، واللسان ٢/ ٣٩٠، ٣٩١.

(٦٧) المصدر السابق الورقة ١٤٥، واللسان ١٨/ ٤٨.

(٦٨) المصدر السابق (الأزهر) الورقة ١٤٥، وانظر اللسان ٥/ ٣٧٨، ١٥/ ٤٣٢، ٤٣٣، ١٧/ ١٤٣، ١٩/ ١٢٩.

قال ابن الأعرابى: أراد معممة فأبدل من الميم ياء، وجوز ابن جنى أن يكون مشتقا من العمى[٦٩] وعلى هذا لا إبدال فيه.

وكذلك قوله: أيما فى (أما) فأبدل من الميم المضعفة ياء[٧٠] استثقالا للتضعيف وحده، قال سعد بن قرط يهجو أمه:

يالـيتـما أمنا شالـت نعامتـها   أيـما إلى جنة أيـما إلى نـار

وقال عمر بن أبى ربيعة:

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأيما بالعشى فيخصر[٧١]

التبادل بين النون والياء:

(أ) دينار   (ب) لم يتسن   (جـ) نظنيت

(أ) أصله دنار والقول فيه كالقول فى قيراط لقولهم فى التكسير دنانير ولم يقولوا ديانير،وكذلك التحقير وهو دنينير، فقلبت إحدى النونين ياء كراهية التضعيف، ولئلا يلتبس بالمصادر التى تجىء على فعال - بتشديد العين - كقوله تعالى: ﴿وكذبوا بآياتنا كذابا﴾ إلا أن يكون بالهاء فيخرج على أصله مثل الصنارة والدنامة لأنه أمن الآن من الالتباس، ولذلك جمع على دنانير. قال أبو منصور: دينار وقيراط وديباج أصلها أعجمية غير أن العرب تكلمت بها قديما فصارت عربية، ويلاحظ أن العرب يخففون ما يجرى على ألسنتهم سواء كان عربيا أصيلا أو معربا كما هو واضح هنا.

(ب) لم يتسن: يقول ابن جنى «قرأت على أبى على بإسناده عن أبى عبيدة قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: لم يتسن: لم يتغير من قوله تعالى: ﴿من حمأ مسنون﴾ أى متغير، فقلت له: لم يتسن من ذوات الياء ومسنون من ذوات التضعيف فقال هو مثل تظنيت وهو من الظن فأصله على هذا القول لم يتسنن ثم قلبت النون الآخرة ياء هربا من التضعيف فصار يتسنى بسكون الياء ثم أبدلت الياء ألفا فصار يتسنى ثم حذفت الألف للجزم فصار لم يتسن.

---

(٦٩) المصدر السابق الوجه الثانى من الورقة ١٤٥.

(٧٠) الخصائص ٢/ ٦٥ والمحتسب ١/ ٢٨٣.

(٧١) المحتسب ١/ ٢٨٣.

(جـ) تظنيت أصله تظننت حولت إحدى النونات ياء. قال ابن جنى: ومن ذلك قولهم تظنيت وهو تفعلت من الظن وأصلها تظننت فقلبت النون الثالثة ياء كراهية التضعيف[72].

التبادل بين الهاء والياء:

(أ) صهصيت، يقال: صه القوم وصهصه بهم: زجرهم[73] وقالوا فى صهصهت بالرجل: إذا قلت له صه صه: صهصيت، فأبدلوا من الهاء ياء.

(ب) دهديت، قالوا: دهديت الحجر، أى: دحرجته وأصله دهدهته، ألا تراهم قالوا: دهدوهة الجعل لما يدحرجه، قال أبو النجم:

كأن صوت جرعها المستعجل   جندلة دهديتها فى جندل[74]

دهدهت الحجارة ودهديتها إذا دحرجتها فتدهده الحجر.

(جـ) هذه فى هذى - هنية فى تصغير هنة - زنادقة وفرازنة[75].

ويقول ابن جنى فى هذى وهذه: أبدلت الهاء من الياء بدليل التصغير ذيا فى تصغير ذا - ويكتفى به عن تصغير ذى - فكما لا نجد الهاء فى المذكر (ذا) أصلا فكذلك هى فى المؤنث بدل غير أصل، وليست الهاء فى هذه بمنزلة هاء طلحة وحمزة لأن الهاء فى طلحة وحمزة زائدة، والهاء فى هذه ليست بزائدة إنما هى بدل من الياء التى هى عين الفعل فى هذى، وأيضا فإن الهاء فى حمزة نجدها فى الوصل تاء والهاء فى هذه ثابتة فى الوصل ثباتها فى الوقف[76] ولم تترك ساكنة (هذه) مع أنها فى اسم غير متمكن لأنها شبهت بهاء

---

(72) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٤٥، وانظر اللسان ٥/ ٣٧٨، ١٥/ ٤٣٢، ١٣٣، ١٧/ ١٤٣، ١٩/ ١٢٩.

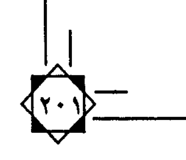
(73) اللسان ١٧/ ٤٠٦.

(74) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ١٤٢.

الجعل: - بضم الجيم وفتح العين - دابة سوداء من دواب الأرض، قيل: هو أبو جعران - بفتح الجيم - وجمعه جعلان - بكسر الجيم - وقيل: هو حيوان معروف كالخنفساء، ودهدوهة الجعل ما يدحرجه من الخرء (النتن) بأنفه، وجرع الماء: بلعه وكذلك تجرعه، وقال ابن الأثير: التجرع: شرب فى عجلة أو قليلا قليلا، الجندل: الحجارة، الواحدة: جندلة. اللسان ٩/ ٣٩٥، ١٣/ ١١٨، ١١٩، ١٣٦، ١٧/ ٣٨٢.

(75) سر الصناعة (الأزهر) الورقة ١٠٥-١٠٧.

(76) سر الصناعة الورقة ١٠٦ الوجهان بتصرف، ولسان العرب ٢٠/ ٣٣٧.



الضمير مثل مررت به وغلامه على أن منهم من يسكنها في الوصل على أصل القياس فيقول هذه هند ولكن يجب تحركها بالكسر إذا التقت مع ساكن مثل هذه المرأة والأشبه أن يكون صاحب لغة التسكين قد رجع إلى أصحاب لغة التحريك لما اضطر إلى تحريكها(77) وكما أن من قال هم قاموا فسكن الميم إذا احتاج إلى تحريكها رجع إلى لغة من ضمها في هم فقال: هم الذين يقولون... ومن قال هم قاموا فأسكن الميم من هم متى احتاج رد إليها الضمة التي في لغة من يقول: همو قاموا، وعلى هذا قراءة أبي عمرو وغيره «هم الذين يقولون» و«إنهم هم الفاسقون» ألا تراه يقرأ «وهم بدأوكم» و«إنهم كانوا كافرين» وغير ذلك مسكن الميم(78).

ومن إبدال الهاء من الياء قولهم في تصغير هنة هنيهة وأصلها الأول هنيوة لأن لام الفعل في تصريف هذه الكلمة واو لقولهم: على هنوات شأنها متتابع... فإنما الهاء في هنيهة بدل من الياء في هنية والياء في هنية بدل من الواو في هنيوة(79).

وقد صرح ابن جني بالتعويض في زنادقة وفرازنة فقال: فأما قولهم: الهاء في زنادقة وفرازنة بدل من الياء في زناديق وفرازين فليس يريدون بذلك البدل على حد إبدالهم الألف في قام وباع من الواو والياء، وإنما يعنون أن الهاء لما طال الكلام بها صارت كالعوض من الياء، كما صارت لطول الكلام من الفعل والفاعل في نحو حضر القاضي امرأة عوضا من تاء التأنيث في حضرت، وهذا باب واسع(80).

وقد حاول بعض اللغويين - أيضا - تسويغ الإبدال فقالوا في هذي حولت الهاء الأخيرة ياء لقرب شبهها بالهاء، ألا ترى أن الياء مدة والهاء نفس، ومن هنا صار مجرى الياء والواو والألف والهاء في روي الشعر شيئا واحدا نحو قوله: (لمن طلل كالوحي عاف منازله)، فاللام هو الروي والهاء وصل الروي، كما أنها لو لم تكن لمدت اللام حتى تخرج من مدتها واو أو ياء أو ألف للوصل نحو منازلي ومنازلو، ابن سيدة: وكذلك دهدهت ودهديت الياء بدل من الهاء، لأنها مثلها في الخفاء كما أبدلت هي منها في قولهم ذه أمة الله. وكذلك قال الجوهري(81).

---

(77) سر الصناعة ص106.

(78) المصدر السابق (مخطوطة الأزهر) الوجه الثاني من الورقة 106.

(79) المصدر السابق الوجه الأول من الورقة 107.

(80) المصدر السابق.

(81) اللسان 17/ 382.

والناظر فى هذه النصوص المعجمية يلاحظ أنها تسوغ التبادل بين الهاء والياء بوجود أوجه الشبه المذكورة ولكنها ليست بشىء فى نظر علماء اللغة المحدثين لبعد المخارج واختلاف الصفات، فالهاء تخرج من أقصى الحلق وهى صوت مهموس رخو مستفل منفتح مصمت (ضعيف)[٨٢] أما الياء (المذكورة) فتخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى وهى صوت مجهور مستفل منفتح مصمت قوى[٨٣]، فالاختلاف جذرى بينهما لأنه يتناول المخرج ومعظم الصفات القوية فلا مسوغ للتبادل بينهما ووضع حرف مكان آخر فى قافية البيت لا يعطى أهمية خاصة فى الإبدال إذ إن جواز حلول حرف فى القافية ومشاركة آخر له فى ذلك أمر عرف عن العرب مسموعا فى النظم فيتبع - لهذا فقط - أما الحكم بجواز التبادل بينهما على ذلك فلا مسوغ له؛ لأن تلك جهة أخرى والعلاقة منفصمة وإلا فإن الواو والألف تقعان وصلا أيضا كما تقع تلك الحروف، ومع ذلك قلنا بعدم التبادل بينهما، ولكن التوجيه الموفق لحلول الياء محل الهاء هو تخفيف نطق الكلمة بمنع وجود أصوات متماثلة فيها جريا على قانون المخالفة الصوتية، فالكلمات السابقة وأشباهها يحل فيها أحد الحرفين (الياء والهاء) محل الآخر بعد حذفه على سبيل التعويض وهى لغات[٨٤].

ملاحظات لغوية: نرى من النماذج السابقة أن تجاور الحرفين المتماثلين أو تقارب مكانيهما - كما هو مبين فى الفصل بينهما بياء مثل مكاكيك ودياجيج - يؤدى إلى تطور أحدهما إلى صوت مخالف هو الياء «وهذا التطور - كما ذكرنا آنفا - هو إحدى نظريات السهولة التى نادى بها كثير من المحدثين والتى تشير إلى أن الإنسان فى نطقه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التى لا تحتاج إلى جهد عضلى فيبدل مع الأيام بالأصوات الصعبة فى لغته نظائرها السهلة فنرى أحد المتماثلين المتجاورين يقلب إلى صوت لين أو ما يشبه أصوات اللين كالميم فى مثل الرمس والرس والنون فى مثل العنبسة: الأسد[٨٥]، وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف،ولعلهم كانوا يريدون بهذا أنه يحتاج إلى مجهود عضلى[٨٦]، ولكن هذا الرأى لم يرتضه الأستاذ العلايلى بل ذهب إلى عكسه تماما فادعى أن الأصل فى الكلمات المضاعفة (التى تحتوى على حرفين متماثلين) هو المخالفة بكون

(٨٢) التجويد والأصوات ص٥٥.
(٨٣) المصدر السابق ص٥١.
(٨٤) اللسان ٢٠/ ٣٣٧.
(٨٥) الأصوات اللغوية ١٥٤.
(٨٦) المصدر السابق ١٥٣.



أحد المتماثلين حرفا من حروف العلة وذلك فى إطار بحثه عن أصول الألفاظ فى اللغة العربية وأنها كانت ثنائية معلة ثم صححت فى مراحل تطورية متأخرة، وهذا الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ العلايلى لم يوافقه عليه المحدثون من علماء اللغة بل إنهم يؤيدون قانون المخالفة السابق وأن المضعف هو الأصل ثم إن التطور أدى إلى قلب أحد المتماثلين ياء كراهية التضعيف ولتقليل الجهد العضلى ، وهذه الظاهرة تنسب إلى القبائل البدوية كبنى تميم وعبد القيس، وهم بطن من أسد، وقد توطنوا شبه الجزيرة فى جوار تميم وبكر بن وائل[٨٧] وأن القبائل الحضرية - كأهل الحجاز - تميل إلى المضعف إلى الياء فى بعض البيئات الحضرية أو العكس فى البيئات البدوية فذلك على سبيل التأثر والتأثير.

---

(٨٧) النهاية للقلقشندى ص ٣٣٨.

(ب) ما ليس له مصطلح لهجى أو لغوى

سنحاول فى هذا البحث - إن شاء الله تعالى - تحليل قدر كبير مما ورد من ألفاظ قيل فيها بالإبدال مما لم يضع له العلماء مصطلحا لهجيا أو لغويا لنصل بشأنها إلى الرأى الحق والتفسير العلمى الصحيح المبنى على التحليل والفحص الدقيق، ولنبين أن الدراسة الواعية للألفاظ التى تحويها ظاهرة الإبدال يمكن إخراج الكثير منها عن دائرته، وعلى ضوء تلك الدراسة يمكن علاج هذه المشكلة اللغوية التى اضطربت فيها الآراء واختلفت فيها وجهات الباحثين قديما وحديثا.

وهأنذا أعرض بعض الكلمات التى قيل فيها بإبدال بعض حروفها من حروف أخرى مرتبا لها وفق الألفبائية ليكون ذلك أيسر فى ضبطها وسرعة الوصول إليها.

الهمزة والعين

يرد فى كتب اللغة أن الهمزة أبدلت من العين مع أن الأولى أثقل من الثانية، وقد اعتادت العرب الذهاب إلى الخفيف بإبدال الهمزة عينا ففى (آديته وأعديته) قيل: إن فيه إبدالا للهمزة من العين.

قال أبو على الفارسى: إن آديته أبدلت فيه الهمزة من العين وأصله أعديته، قال ابن جنى: وفيه وجه آخر غامض وهو أن يكون أراد أعديته، فأبدل العين همزة فصارت أأديته ثم أبدلت الهمزة ألفا لسكونها وانفتاح ما قبلها واجتماعها مع الهمزة التى قبلها فصارت: آديته.

ولكن ابن جنى ضعف هذا الرأى فقال: على أن فى هذا الوجه عندى بعض الضعف وإن كان أبو على قد أجازه لأنا لم نرهم فى غير هذا أبدلوا الهمزة من العين، وإنما رأيناهم لعمرى أبدلوا العين من الهمزة، فنحن نتبعهم فى الإبدال ولا نقيسه إلا أن يضطر أمر إلى الدخول تحت القياس والقول به[1].

---

(١) سر الصناعة ١/ ٢٤٦.

والرأى فى ذلك أن الهمزة ليست بدلا من العين أو العكس لاختلاف الاشتقاق أما (أعدى) فمن الإعداء ومنه العدو والعداوة لأنها لا تكون إلا مع القوة والشدة، وآديته أفعلته من الإداة لأن الأداة يتقوى بها الصانع على عمله، ويجوز أن يكون آديته على كذا أفعلته من الأدى - بسكون الدال - أى كنت له يدا عليه وظهيرا معه فيكون كقول النبى ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) فبعضهم يقوى بعضا... على أنا نعتقد فيه أنه إنما بنى أفعلته من لفظ الأدى بعد أن قلبت همزته عن يدى وإلا فالياء هى الأصل[٢].

وكذلك قولهم دأنى من دعنى: قيل إن الهمزة فيها أبدلت من العين ويبدو لنا العكس فالعين هى البدل وذلك بناء على أن شرط الإبدال اتحاد المعنيين على سبيل الحقيقة لا المجاز، فإذا استعرضنا مادتى الكلمتين وجدنا معنى الأول (دأنى) هو الأصل والثانى مجاز عنه فمادة (ودأ) تستعمل فيما يأتى:

ودأه: سواه، وبهم: غشيهم بالإساءة ، الودأ: الهلاك، تودأت عنه الأخبار: انقطعت كودئت، وعليه الأرض استوت أو تهدمت أو اشتملت أو انكسرت، وزيد على ماله: أخذه وأحرزه، والمودأة كمعظمة: المهلكة والمفازة[٣].

فهى بهذا تفيد الستر والإخفاء وما يتبعه من الترك والنسيان.

ومادة (ودع) لا تفيد هذا المعنى إلا من طريق المجاز فهى تفيد استقرار الشىء وهدوءه حقيقة، وتدل على الإخفاء وما يتبعه مجازا[٤].

فمادة (ودأ) فى رأينا هى الأصل فالعين بدل من الهمزة لا العكس.

ومن شروط الإبدال أيضا اتحاد الأصل الاشتقاقى، فإذا اختلف اعتبرت كل واحدة من الكلمتين أصلا.

ومن ذلك ما قد يظن فى أباب وعباب من إبدال الهمزة من العين.

قال ابن جنى: فأما ما أنشده الأصمعى من قول الراجز:

أباب بحر ضاحك هزوق

---

(٢) سر الصناعة ٢/ ٢٤٢-٢٤٥، وانظر لسان العرب ١٨/ ٢٧، ١٩/ ٢٦٦، والقاموس المحيط ٤/ ٣٤٦، ٤١٨.

(٣) القاموس (ودأ) ولسان العرب ١/ ١٨٦، ١٨٧ والمزهر ١/ ٢٢٢، والمخصص ١/ ٢٧٣.

(٤) لسان العرب ١٠/ ٢٦٠ - ٢٦٨.

فليست الهمزة فيه بدلا من عين (عباب) وإن كان بمعناه وإنما هو فعال من (أب): إذا تهيأ. قال الأعشى:

أخ قد طوى كشحا وأب ليذهبا

وذلك أن البحر يتهيأ لما يزخر به، فلهذا كانت الهمزة أصلا غير بدل من العين وإن قلت إنها بدل منها فهو وجه وليس بالقوى[٥].

وقد بنى ابن جنى رأيه فى هذا المثال على اختلاف الاشتقاق بين اللفظين إذ العباب من عب البحر إذا زخر بكثرة مياهه.

وقد تردد ابن جنى فى إنزهو وعنزهو فمرة قال: إن العين بدل من الهمزة وأخرى قال بعكس ذلك ومرة بالأصالة لكل منهما، قال فى عنزهو (جائز أن تكون العين بدلا من الهمزة وجائز أن يكونا أصلين)[٦] وفى موضع آخر قال: (ويجوز عندى فى إنزهو غير هذا وهو أن تكون همزته بدلا من عين فيكون أصله عنزهو: فنعلو من العزهاة وهو الذى لا يقرب النساء والتقاؤهما أن فيه انقباضا وإعراضا وذلك طرف من أطراف الزهو، قال:

إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا

فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا[٧]

والواضح فى كلا الاشتقاقين أنه أخذه من الزهو والأقرب أن تكون العين مبدلة من الهمزة للتخفيف لا العكس إذ إن ابن جنى نفسه صرح بأن إبدال الهمزة من العين لم تستعمله العرب إلا قليلا، ومن الجائز أن يكونا لهجتين لفريقين من العرب ما دام اشتقاق الكلمة من الزهو فنطقه بعضهم بالهمزة وآخرون بالعين.

وربما أبدلت الهمزة من العين فى بعض اللهجات مثل: يا أبد الله فى يا عبد الله فى لهجة أهل مكة[٨] وفى العامية ما يؤيد ذلك مثل وأهد الله فى وعهد الله إلا أن ذلك قليل، وقد يستعمل العرب ما غيره أخف منه[٩].

---

(٥) سر الصناعة ١/ ١٢١. (٦) المصدر السابق ١/ ٢٤١.

(٧) الخصائص ١/ ٢٢٩، وعلى هذا يصبح ملحقا بباب قنداو وسنداو وحنطاو، وعلى أن الهمزة هى الأصل يلحق بباب جردحل (انفعل). (٨) سر الصناعة: ١/ ١٢١.

(٩) فى الخصائص ينقل ابن جنى عن سيبويه قوله: واعلم أنه قد يقل الشىء فى كلامهم وغيره أثقل منه كل ذلك لئلا يكثر فى كلامهم ما يستثقلون ١/ ٦٨، ٦٩، وعبارة سيبويه فى الكتاب ٢/ ٤٠٤ مع اختلاف طفيف.

والواقع أن الإبدال يكون من الهمزة إلى العين كثيرا كما فى الأسن والعسن وكثأ اللبن وكثع وموت زؤاف وزعاف وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة؛ وذلك لأن العين أسهل من الهمزة، والإبدال عادة يتجه نحو السهولة لا العكس.

وإذا كانت اللغات تختلف فى إحساسها بالثقيل والخفيف فلكل قوم ولكل لغة أحوال واستعمالات تناسبها وتميل إليها، فربما خفت الهمزة على الإنجليزى وثقلت العين فأبدل الهمزة من العين حال نطقه كما يظهر من سقوط العين من الهجائية الإنجليزية واستبداله الهمزة بها عندما يلفظ ببعض الكلمات العربية التى تضم بين حروفها عينا مثل عمر ينطقها omar وعلى ينطقها Aly ونحو ذلك إلا أننا نقول:

إن خفة الهمزة على الإنجليزى وثقل العين عليه لا يعطى قانونا عاما للحروف ثقيلها وخفيفها، بل إن ذلك يرجع إلى طبيعة الناطق وإحساسه بالخفة والثقل وتعوده على ذلك تبعا لاختلاف البيئات والشعوب، فلا غرابة أن تكون العين ثقيلة على الإنجليزى خفيفة على العربى، وفى الهمزة بالعكس مما يؤثر على الوجود اللغوى للحرفين فى لغة كل من الشعبين ولا عجب أن يؤثر ذلك فى الإبدال اللغوى على ما رأينا.

الهمزة والنون

حكى ابن جنى عن بعض اللغويين إبدال النون من الهمزة فى وزن فعلان فعلى كغضبان وسكران، ولم يجزم ابن جنى برأى فى إبدال النون من الهمزة بل حكاه عن أصحابه اللغويين، وحكى غيره وحاول تسويغ الوجهين إلا أنه رجح عدم الإبدال وفسره على طريق التعويض، قال: «ذهب أصحابنا إلى أن النون فى فعلان فعلى نحو غضبان وسكران وحيران بدل من همزة فعلاء نحو حمراء وصفراء، وإنما دعاهم إلى القول بهذا أشياء منها أن الوزن فى الحركة والسكون فى فعلان وفعلاء واحد وأن فى آخر فعلان زائدتين زيدتا معا، والأولى منهما ساكنة كما أن فعلاء كذلك، ومنها أن مؤنث فعلان على غير بنائه إنما هو فعلى كما أن مذكر فعلى على غير بنائها إنما هو أفعل، ومنها أن آخر فعلاء همزة وهى علامة التأنيث، كما أن فى آخر فعلان نونا يكون فى فعلن نحو قمن وقعدن[10]، ويبين ابن جنى مسوغات الإبدال بين النون والهمزة - كما يراه - فيقول: وأبدلت النون همزة لأن للنون شبها بحروف اللين، فالغنة التى فى النون كاللين الذى فى

(١٠) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الوجه الأول من الورقة ٨١.

حروف اللين، ويعتقبان على المحل الواحد مثل شرنبث وشرابث وجرنفش وجرافش ويفصل بهما بين العينين مثل: عصنصر وعصيصر وعقنقل وعقيقل... إلخ، وتحذف النون مثل ملآن ولك اسقنى، ومثل حذف حروف اللين غزا القوم وتصبو المرأة، - واستعملت النون علامة للإعراب مثل حروف اللين كما فى إعراب الأفعال الخمسة والأسماء الستة والمثنى وجمع المذكر السالم، فلما ضارعت النون حروف اللين هذه المضارعة وكانت الهمزة قد قلبت إلى كل واحدة من الألف والياء والواو قلبوها أيضا إلى الحرف الذى ضارعهن وهو النون[11] «والذى يدل على أنهما (أى النون والهمزة فى فعلان فعلى وهمزة فعلاء) ليسا أصلين بل النون بدل من الهمزة قولهم فى صنعاء وبهراء لما أرادوا الإضافة إليهما صنعانى وبهرانى فإبدالهم النون من الهمزة فى صنعاء وبهراء يدل على أنها فى باب فعلان فعلى بدل من همزة فعلاء»[11] وحكى ابن جنى تأويلا آخر لبعض أصحابه فقال: «ومن حذاق أصحابنا من يذهب إلى أن النون فى صنعانى وبهرانى إنما هى بدل من الواو التى تبدل من همزة التأنيث فى النسب وأن الأصل صنعاوى وبهراوى وأن النون هناك بدل من هذه الواو كما أبدلت الواو من النون فى قولك من واقد وإن ونفت أنف ونحو ذلك»[12]، ثم قال: «وإذا ثبت ذلك فقد ينضاف إليه مقويا له قولهم فى جمع إنسان أناسى وفى جمع ظربان ظرابى... فالنون أيضا فى إنسان وظبيان بدل من الهمزة لقولهم ظرابى وأناسى كقولهم صلافى وخبارى[12].

ولكننا نرى أنه لا علاقة بين الهمزة والنون، فمخرجهما متباعد ولا يتفقان فى شىء من الصفات سوى الاستفال والانفتاح، وذلك لا يسوغ التبادل بينهما، وأما شبه النون بحروف اللين على النحو الذى ذكره ابن جنى فلا صلة له بالإبدال هنا بوجه من الوجوه؛ لأن الاعتماد فيه على العلاقة الصوتية المتمثلة فى قرب المخارج والصفات بين المتبادلين وقياسه لغضبان وسكران على صنعانى وبهرانى غير دقيق فقد ذكروا أن إقامة النون مقام الواو فى الكلمتين وضع لغوى شاذ، إذ إن الصرفيين يقولون: إن الهمزة إذا كانت للتأنيث قلبت - فى النسب - واوا كصحراوى، لكون الهمزة أثقل من الواو... وشذ صنعانى فى

(١١) سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨٤.

(١٢) نفسه الوجه الثانى من الورقة ٨٣.

النسبة إلى صنعاء اليمن وبهرانى فى النسبة إلى بهراء اسم قبيلة من قضاعة... ومن العرب من يقول صنعاوى وبهراوى على القياس»[١٣]، والشاذ لا يجوز اتخاذه دليلا، وإنسان وأناسى ليس بلازم أن يكون أناسى جمعا لإنسان بل يجوز أن يكون مفرده (إنسى)[١٤]، وظرابى ليس بلازم أن يكون مفرده ظربان بل يجوز أن يكون جمعا لظربى مفردا أو ظرباء بالمد[١٥]، وعلى هذا يمكن خروج ذلك من الإبدال بين النون والياء،وإذا كان ذلك فليس إلا على وجه ما قد يكون أقرب إلى التعويض، ولا يمكن وصف ما تقدم بأنه من باب الإبدال بل مجرد تعويض حرف من حرف آخر، وهذا ما مال إليه ابن جنى أخيرا ورجحه حينما شرح مذهب الحذاق من أصحابه فى نون صنعانى وبهرانى قال: «وكان يحتج من ذهب إلى هذا فى قولهم: إن نون فعلان بدل من همزة فعلاء فيقول: ليس غرضهم هنا البدل الذى هو نحو قولهم: فى ذئب ذيب وفى جؤنة جونة، إنما يريدون أن النون تعاقب فى هذا الموضع الهمزة كما تعاقب لام المعرفة التنوين،أى لا تجتمع معه فلما لم تجامعه قيل إنها بدل منه.

قال ابن جنى: وهذا مذهب ليس ببعيد أيضا[١٦] على أنه لا صلة بين الوصف الذى على فعلان وفعلاء مثل غضبان وحمراء ووجه الربط - على ما تصوره ابن جنى - لا يمت للإبدال بصلة ما بل لا يمكن أن يعتقد انقلاب النون فى فعلان عن همزة، إذ هذا من وادى المذكر وذلك من وادى المؤنث، ولكل منها صيغة لغوية خاصة، فالنون أصل فى بناء فعلان كما أن همزة التأنيث أصل فى بناء فعلاء ولا علاقة بينهما.

الهمزة والهاء

وذلك يبدو فى لهجة طيئ فى بعض المواضع كهمزة(إن) الشرطية فتقول (هن فعلت) تريد: إن[١٧] وأرقت الماء وهرقته وإياك وهياك، ونسبها اللحيانى إلى اليمن[١٨] ويقل ذلك فى طيئ أو من يجاورها. وفى همزة (إن) التى تسبقها اللام، يقول ابن منظور:

---

(١٣) التصريح ٢/ ٣٣١، والأشمونى ٤/ ١٨٨.

(١٤) لسان العرب ٧/ ٣٠٨، ٣٠٩. (١٥) نفسه ١/ ٥٩، ٦٠.

(١٦) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨٤.

(١٧) مجلة المجمع ١/ ٣٩٧.

(١٨) تاج العروس ١/ ٣٦٦، والإبدال فيها واقع لئلا يؤدى إلى وجود وزن ليس فى لغة العرب وهو (هفعل).

«ومن العرب من يبدل همزتها هاء مع اللام كما أبدلوها فى هرقت، فيقول: لهنك لرجل صدق، قال سيبويه: وليس كل العرب تتكلم بها، قال الشاعر:

ألا ياسنا برق على قلل الحمى　　لهنك من برق على كريم[19]

والإبدال فى لهنك سديد، لأن أصلها لأنك فأبدلوا الهمزة هاء مع اللام كما أبدلوها فى هرقت ونحوه ، وقلب الهمزة هاء لغة قوم رواها البصريون والكوفيون وحكاها ابن السكيت فى أمثلة كثيرة مثل: أرحت الدابة وهرحتها وأنرت له وهنرت لـه، واتمأل السنم واتمهل وإياك وهياك وغير ذلك، واللام للابتداء[20].

وقال سيبويه: مرجع الإبدال أنها كلمة تكلم بها العرب فى حال اليمين، واللام الداخلة عليها لام القسم[21] وادعى الفراء أنها منحوتة وأصلها والله إنك، ثم حذف حرف الجر ولام التعريف وقصرت اللام ثم حذفت همزة إنك، كما يقال الله لأفعلن، وحذفت لام التعريف كما يقال: لاه أبوك أى لله أبوك ثم حذفت الألف كما يحذف من الممدود إذا قصر، وكما يقال: الحصاد والحصد.. ألا لا بارك الله فى سهيل[22].

وحكى عن المفضل بن سلمة بن عاصم عن بعض الكوفيين أن أصله لله واللام للقسم[23].

ولكن ماذهب إليه الفراء وكذلك بعض الكوفيين يغرق فى التأويلات البعيدة وأولى الآراء بالقبول هو ما قرره ابن جنى من أن أصلها لأنك، فأبدلت الهمزة هاء وهذا منسوب لطيئ.

وقد وردت أمثلة للإبدال بين الهمزة والهاء مثل هياك فى إياك (وروى فتح الهمزة وإبدال الهاء منها) و﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ فى قراءة على أنه أراد: طأ الأرض بقدميك.

---

(١٩) اللسان ١٣/ ٣١.

(٢٠) المزهر ١/ ٢٢٢، والمخصص ٣٣/ ٢٧٤.

(٢١) الكتاب ١/ ٤٧٤.

(٢٢) شرح الرضى على الكافية ٢/ ٣٠٧، وخزانة الأدب ٤/ ٣٣١، واللسان ١/ ١١٨، ١١٩، وشرح المفصل ٨/ ١٦٣.

(٢٣) شرح المفصل ١٠/ ٤٣.

ويقال للصبا هير وأير وهيا فى أيا، وهرقت فى أرقت، وهزيد منطلق فى أزيد منطلق؟ وأل فعلت فى: هل فعلت؟ وآل فى أهل وماء وأمواه ورجل تدرأ وتدره للمدافع عن قومه، وجميع هذه الأمثلة ماعدا هيرا وأيرا حكم ابن جنى فيها بإبدال الهاء من الهمزة وأما هير وأير فقال: هما أصلان حتى تقوم الدلالة على الإبدال، وفسر قراءة (طه) على أنه طأ الأرض بقدميك، فالهاء بدل من الهمزة فى طأ.

ونحن لا نرى مانعا من حدوث التبادل بين الهمزة والهاء لتدانى المخارج إذ هما من حروف أقصى الحلق ويتفقان فى صفات الاستفال والانفتاح والإصمات ولكن لنا ملاحظات على بعض الأمثلة وتوجيه ابن جنى لها.

فنحن معه فى إبدال الهاء فى هياك وإياك وهيا وأيا والقول بالإبدال فى أرقت أمر مسلم به لئلا يؤدى عدم الإبدال إلى إحداث وزن ليس من الأبنية المعروفة وهو وزن هفعل (٢٤).

وأما قراءة (طه) التى فسرها ابن جنى على أن المراد بها طأ فأبدل الهمزة هاء فغير يقينية، والأمر فى تفسير معناها أمر ظنى، وكتب اللغة تذكر أن (طه) مجزومة بالحبشية يا رجل وجاء فى التفسير (طه) يا رجل يا إنسان، وقال قتادة: إن ذلك بالسريانية، وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هى بالنبطية يا رجل، وروى ذلك عن ابن عباس، قال الليث: وبلغنا أن موسى لما سمع كلام الرب عز وجل استفزه الخوف حتى قام على أصابع قدميه خوفا فقال الله عز وجل: طه أى اطمئن، وروى الأزهرى عن أبى حاتم قال (طه) افتتاح سورة ثم استقبل الكلام فخاطب النبى ﷺ فقال ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢٥).

والناظر فى هذه الأقوال يرى أنها كثيرة وبعضها يؤكد أعجمية الكلمة وأنها حبشية أو سريانية أو نبطية، وبعضها يشير إلى أنها من فواتح السور فهى رموز مثل: الٓمٓ - الٓر - حمٓ .. إلخ، وابن جنى يحاول تفسير قراءة (طه) على أنها مشتقة من الفعل طاء بمعنى وطئ الأرض بقدميه (٢٦) مع أن كتب اللغة لا تؤيده فى وجهة نظره، فهى تذكر - كما سبق- أنها

(٢٤) القواعد والتطبيقات ص١٠.

(٢٥) اللسان ١٧/ ٤٠٧.

(٢٦) ويوجهه بعض المفسرين على هذا بأن أصله طأ فقلبت همزتة هاء أو قلبت من يطأ ألفا كقوله (لا هناك المرتع) ثم بقى عليه الأمر وضم إليه هاء السكت، وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل طه طأها والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية الأرض.

بهذا الضبط كلمة حبشية بمعنى يارجل أو سريانية أو نبطية، وفسرت أيضا بمعنى اطمئن فتفسير ابن جنى بالمعنى الذى رآه أمر ظنى، حدث قيس عن عاصم عن زر قال: قرأ رجل على ابن مسعود (طهْ) فقال له عبد الله (طه) بكسرتين فقال الرجل أليس أمر أن يطأ قدمه؟ فقال له عبد الله هكذا أقرأنيها رسول ﷺ[27] وابن مسعود صحابى فلا يخفى عليه هذا المعنى ونحن نراه هنا يتوقف عن إبداء الرأى فيه وينقل ضبطا آخر للفظ كما سمعه من الرسول الكريم[28]. كما أنه غير مناسب لما يأتى بعده من آيات وهى ما أنزلنا عليك القرآن[29] إلخ، وربما كان مناسبا فى خطاب موسى - على ما سبق بيانه - وليس موضعه هنا فى القرآن، ولا يمكن قبول خطاب النبى بقول الله: تعالى له (يا رجل) على فرض أن هذا خطاب له، والكلمة أعجمية إذ ليس المقام مقام الخطاب الجاف على هذا النحو - الذى لا يليق به - فالله تعالى كثيرا ما يخاطبه بقوله: يا أيها النبى - يا أيها الرسول إلى غير ذلك من ألوان الخطاب المناسب لمقامه الرفيع، والأظهر كما نرى أن (طه) رموز مقطعة كنظائرها مما ورد فى السور الأخرى من مثل: الٓمٓ - حمٓ عٓسٓقٓ - إلخ وهى جميعها من فواتح السور على ما ذكره المفسرون، وربما كان اعتبارها من الحبشية أو غيرها ناشئا عن نوع من التوافق الصوتى بين المفرد (طه) فى غير العربية من ناحية وبين الرمز (طه) المستعمل فى القرآن من ناحية أخرى[30]، فالكلمة فى القرآن عبارة عن رمز لا يمت للكلمة الأعجمية (طه) بمعنى يا رجل بصلة، وتأويل ابن جنى ليس له عليه برهان.

والملاحظة العامة أن كثرة التصرف والاستعمال ليست بمقياس دقيق، ويمكن معرفة الأصل من الفرع هنا عن طريق الصعب والسهل، فالهمزة أصعب من الهاء؛ولذلك عدت أصلا؛ لأن - التطور الصوتى - غالبا - ما ينتقل إلى السهولة.

وهير وأير لا مانع من التبادل بينهما على أن بعض العرب نطقوا بإحداهما،وآخرون نطقوا بالثانية، وروى أن قبيلة طيئ هى صاحبة الهاء[31]، فالكلمات المذكورة التى ثبت فيها التبادل بين الهمزة والهاء ناشئة عن اختلاف اللهجات.

---

(٢٧) اللسان ١٧/ ٤٠٧.

(٢٨) على أن الكلمة لو كان مرادا بها طأها لكتبت فى القراءة الأخرى طاها بالألف دون طه على هيئة الحروف ولا معنى لأنه اكتفى بشطرى الكلمتين.

(٢٩) وتوجيه بعض المفسرين بأنه كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه لا يليق بمقام النبى ﷺ، انظر فيما تقدم تفسير القاضى ناصر الدين البيضاوى ص٤١٣.

(٣٠) القراءات القرآنية ص٣٧٤. (٣١) اللهجات العربية ص٥٦، ٦٦.

وقرر ابن جنى أن الهمزة أبدلت من الهاء فى (أل فعلت) وآل وماء وأمواه فروى عن قطرب عن أبى عبيدة أنهم يقولون أل فعلت ومعناه هل فعلت[٣٢] فالهمزة بدل من الهاء والعلاقة الصوتية مسوغة للتبادل، ومن ذلك قولهم آل كقولنا آل الله وآل رسوله إنما أصلها أهل ثم أبدلت الهاء همزة فصارت فى التقدير أأل فلما توالت الهمزتان أبدلوا الثانية ألفا، كما قالوا آدم وفى الفعل آمن وآزر[٣٣]، وقال:والذى يدل على أن أصل آل أهل قولهم فى التحقير أهيل ولو كان من الواو لقيل أويل كما يقال فى الآل الذى هو الشخص أويل ولو كان أيضا من الياء لقيل أييل[٣٤] ومن هذا يبدو أن ابن جنى اعتمد فى بيان الأصالة والفرعية على مبدئه وهو كثرة التصرف بوجود التصغير فى (أهيل) وهذا المقياس غير دقيق، فقد روى الفراء عن الكسائى أنه يقال فيه أويل أيضا حتى قال أبو العباس: إن الآل والأهل أصلان لمعنيين[٣٥].

وقد حاول ابن جنى أن يؤكد وقوع الإبدال بين الهمزة والهاء فى هذا اللفظ لا بين الهاء والألف بمعنى أن الهاء أبدلت همزة ثم قلبت الهمزة ألفا، وساق لتأييد رأيه ما يأتى:

١- الألف لو كانت منقلبة عن الهاء فى أول أحوالها دون أن تكون منقلبة عن الهمزة المنقلبة عن الهاء - على ما قدمنا - لجاز أن يستعمل آل فى كل موضع يستعمل فيه أهل[٣٦] فيقال انصرف إلى آلك كما يقال انصرف إلى أهلك ولقيل آلك والليل كما يقال أهلك والليل، وغير ذلك مما يطول ذكره، فلما كانوا يختصون بالآل الأشرف الأخص دون الشائع الأعم حتى لا يقال إلا فى نحو قولهم: القراء آل الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد... ولا يقال آل الخياط كما يقال أهل الخياط ولا آل الإسكاف كما يقال أهل الإسكاف دل ذلك على أن الألف فيه ليست بدلا من الأصل وإنما هى بدل من بدل من الأصل[٣٧].

٢- وقد شبه آل فى اختصاصها بالأشرف وكون الألف فيها بدلا من بدل من الأصل بالتاء فى القسم فقد اختصت بالأشرف من الأسماء وهو اسم الجلالة لأنها أيضا بدل من بدل فيقول: فجرى ذلك مجرى التاء فى القسم لأنها بدل من الواو فيه والواو فيه بدل من

(٣٢) سر الصناعة ١/ ١٢٠، ١٢١. (٣٣) نفسه التعليق ١/ ١١٤.
(٣٤) نفسه ١/ ١٢٠. (٣٥) اللسان ١٣/ ٣٩.
(٣٦) سر الصناعة ١/ ١١٤. (٣٧) نفسه ١/ ١١٥، ١١٦.

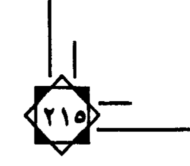
الباء فلما كانت التاء بدلا من بدل وكانت فرع الفرع اختصت بأشرف الأسماء وأشهرها وهو اسم الله، فلذلك لم يقل تزيد ولا تالبيت كما لم يقل آل الإسكاف ولا آل الخياط[٣٨] ثم يقول فهذا كله يؤكد عندك أن امتناعهم من استعمال آل فى جميع مواقع أهل إنما هو لأن الألف فيه بدل من بدل كما كانت التاء فى القسم بدلا من بدل فاعرفه فإن أصحابنا لم يشبعوا القول فيه على ما أوردته الآن وإن كنا بحمد الله بهم نقتدى وعلى أمثلتهم نحتذى[٣٩].

والمعانى - كما يجدها الباحث فى لسان العرب وغيره من المعاجم - تؤكد أن اللفظين يستعملان بمعنى أهل الرجل وعياله[٤٠] وربما بدا لى أن لفظ (الأهل) يستعمل فى الأشرف، فالله تعالى يقول مخاطبا نبيه نوحا عليه السلام فى شأن ولده ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ثم خصص الآل بالأشرف، وعلى هذا فقد اتحد معناهما الأصلى بما يؤكد التبادل بين الهمزة والهاء فيهما، ولعل الذى دعا ابن جنى إلى تكلف هذا الدفاع أن العلاقة واضحة بين الهمزة والهاء ولا علاقة بينها وبين الألف حتى يصح التبادل بينها.

ومن إبدال الهمزة من الهاء قولهم: ماء وأصله موه لقولهم أمواه فقلبت الواو ألفا وقلبت الهاء همزة فصار ماء كما ترى، وقد قالوا أيضا فى الجمع: أمواء فهذه الهمزة أيضا بدل من هاء أمواه[٤١] للتقارب بينهما فى المخرج والصفات كما ذكرنا، ونحن نوافقه على هذا الإبدال؛ لأن ضروب التصاريف والمعانى تدل على ذلك. كما يقول صاحبا اللسان والقاموس، فجمعه أمواه ومياه وتصغيره مويه،وكذلك يقال فى الفعل أماه فلان ركيته وقد ماهت الركية وهذه مويهة عذبة[٤٢] وموه الموضع تمويها صار ذا ماء والقدر أكثر ماءها والموهة الحسن وترقرق الماء فى وجه الجميلة ومهته بالكسر وبالضم سقيته[٤٣] وهمزة أمواء بدل من هاء أمواه - كما قال ابن جنى - على اعتبار أنها أبدلت منها مباشرة، ومن الجائز أن تكون همزة المفرد انتقلت إلى الجمع، فالإبدال إنما هو فى المفرد فقط[٤٤].

---

(٣٨) نفسه ١/ ١١٦. (٣٩) نفسه ١/ ١٢٠.
(٤٠) اللسان ١٣/ ٣٩. (٤١) سر الصناعة ١/ ١١٣.
(٤٢) اللسان ١٧/ ٤٤٠. (٤٣) القاموس ٤/ ٣٤٠.
(٤٤) سر الصناعة ١/ ١٢٠، ١٢١، واللسان ١/ ٦٤-٦٩، ١٧/ ٣٨٠، ٣٨١.



وقد جعل ابن جنى (تدرأ وتدره) مما لا إبدال فيه بل هما أصلان، يقال: درأ ودره[٤٥] وقال ابن سيده: الهاء فيه مبدلة من الهمزة[٤٦].

ونلاحظ قلة إبدال الهمزة من الهاء نظرا لسهولة نطق الهاء عن الهمزة؛ولذلك يجرى أغلبه فى الجوامد والأدوات كما رأينا[٤٧].

وقد ورد فى اللغة إبدال الهاء من الهمزة كثيرا مثل هرحت الدابة وهنرت الثوب وهردت الشىء واتمهل السنام إلى جانب ما ذكرناه من قبل مثل هياك وهير ونحوهما، وبلغ من شيوع ذلك أن سرى فى القراءات مثل أهعجمى- هأنذرتهم مما يشير إلى أن الهمزة هى الأصل وأن الهاء بدل منها.

ومع ذلك فالتبادل بين الهاء والهمزة أمر سائغ، ألا ترى لو أنك ألفت بين الهمزة والهاء فأمكن لوجدت الهمزة تتحول هاء فى بعض اللغات لقربهما[٤٨].

والهمزة أخت الهاء لأنهما حلقيان ويتقاربان فى بعض الصفات.

---

(٤٥) المخصص ١٣/ ٢٧٤.

(٤٦) جعل الأشمونى إبدال الهمزة من الهاء قليلا وذكر (ماء) وأل فعلت وألا فعلت بمعنى هل وهلا فعلت ٤/ ٢٩٦، ٢٩٧، وانظر شرح المفصل ١٠/ ٤٣.

(٤٧) الجمهرة ١/ ٩.

البـاء والتـاء

في ذعالت وذعالب[1].

لم يجزم ابن جـنى برأى هل ذلك من الإبدال أو من اختـلاف اللهجات فيقـول: فأما قول الأعرابى من بنى عوف بن سعد:

صـفـقـة ذى ذعـالـب سـمـول   بيع امرئ ليـس بمـسـتـقـيـل

وهو يريد الذعالت فينبـغى أن يكونا لغتين وغير بعيد أن تبـدل أيضا التاء من الباء إذ قد أبدلت من الـواو وهى شريكة الباء فى الشـفة، والوجه أن تكون التـاء بدلا من الباء؛ لأن الباء أكثر استعمالا، ولما ذكرناه أيضا من إبدالهم التاء من الواو[2].

ويبـدو من تردد ابـن جنى هـذا أنه كان يـحس ببـعد الـمادتـين من ناحـيـة المعـنى، والتقائهما على طريق المجاز أو لبعد فى العلاقة الصوتية، ولعل الأول كان مترجحا عنده إذ هو يعتقد القرابة بين التاء والواو فى مخرجـيهما وإن كان الأمر على خلاف معتقده، والذى يظهر لنا أن المخارج متباعدة - كما تثبت الدراسات الصوتية الـحديثة - فالواو من أقصى اللسان والتاء من طرفه مـع أصول الثنايا وشتان بين المخرجين، وفى الـصفات لا يشتركان إلا فى الشـدة والاستفـال والانفتاح والـترقيق، وهـذا كله لا اعتـبار له فى الإبدال مـادامت المخارج متباعدة، وبـمراجعة المعانى فى المعاجم نحس بأن التقـاءهما لم يكن على سبيل الحقيـقة - حتى يتأتى الإبـدال بين اللفظين - فمـادة (ذعت) تدل على ما يأتى: ذعتـه خنقه أشد الخنق ومـعكه فى التراب ودفعه عـنيفا[3] وفى ذلك معنـى الإضعاف والإنهاك فيـتفق بذلك مع معـنى الذعالت التى هى أخـلاق الثياب وإن كانت اللام غـير معروفة فـى معاجم اللغـة، فعلى هذا يلتـقى معنى الـذعالت بالتـاء مع الذعالب بالبـاء من طريق المـجاز الذى

(١) الذعـالـب جمـع ذعلب بكسـرتيـن بينهـما سـكون أو ذعلوب وهـو طرف الثـوب، اللسـان (ذعلب) ١/ ٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) سر الصناعة ١/ ١٧٣، ١٧٤.

(٣) القاموس المحيط (ذعت) ١/ ١٥٣ واللسان ٢/ ٣٣٧.



يمكن فهمه من الذعالت، فيكون جمعا بين حقيقة ومجاز وليس ذلك إلا نقضا للشرط الأساسى للإبدال الذى هو اتحاد المعنيين على سبيل الحقيقة فلا إبدال إذن بل ترادف حدث من تطور المعنى.

ولم ترد أمثلة أخرى للإبدال بين الباء والتاء اللهم إلا مثال واحد هو صلب وصلت[٤]، مع إمكان تأويله أيضا باتفاقهما المعنوى، فالصلب هو الرجل الشديد على سبيل التشبيه والصلت هو الرجل الماضى فى الحوائج ويفهم منه الشدة على طريق المجاز، ومن الممكن أن نقول بعدم الإبدال فى هذا اللفظ من طريق آخر هو عدم اتحاد الكلمتين فى البنية، فالضبط مختلف فيهما[٥] بما يؤكد عدم الإبدال ويمكن أن تكون هذه الألفاظ قد نشأت نتيجة التصحيف، أو لعل تصريح ابن جنى بأن الباء أكثر استعمالا يدلنا على أن الكلمة بالباء فى أصل الاستعمال والتاء تصحيف، وبخاصة أن مادة (ذعلت) باللام غير موجودة فى المعاجم وكذلك الصلت مصحف عن الصلب، فالأصل كلمة واحدة ونشأت الثانية عنها عن طريق التصحيف الذى يمكن حدوثه بين الحرفين من طريق الخط.

الباء والفاء

جاء عن اللحيانى: تمرٌ بذٌّ وقذّ: المتفرق الذى لم يكنز فلا يجتمع ولا يلتصق بعضه ببعض، ومن ذلك رجل بجباج وفجفاج إذا كان صياحا كثير الكلام، وفى حديث عثمان: إن هذا الفجفاج لا يدرى أين الله عز وجل - وهو المهماز المكثار من القول - ويروى البجباج وهو بمعناه أو قريب منه[٦] أو رجل جبس وجفس: جبان لا خير فيه، ولجفتا الباب: ولجبتا الباب: عضادتاه وجانباه[٧] وفى حديث **«أنه ذكر الدجال وفتنته ثم خرج لحاجته فانتحب القوم حتى ارتفعت أصواتهم فأخذ بلجفتى الباب فقال (مهيم)** لجفتا الباب عضادتاه وجانباه من قولهم لجوانب البئر ألجاف جمع لجف ويروى بالباء، ويذكر ابن الأثير أن رواية الباء وهم[٨]. وفى حديث بدر: **(اخرجوا إلى معايشكم وحرائبكم)** بالباء الموحدة

---

(٤) المزهر، فصل التصحيف، وانظر: اللغة العربية كائن حى ص ٥٦، ٥٧ واللسان ٢/ ١٥، ٣٥٨.

(٥) فالصاد فى صلب مضمومة، وفى صلت مفتوحة، انظر اللسان الموضع السابق.

(٦) النهاية ٣/ ٤٦٤ (فجفج).

(٧) الإبدال لأبى الطيب ٢١، ٢٣ والنهاية ٢/ ٢٣٢، ٤١٣.

(٨) النهاية ٤/ ٤٣٤ (لجف).

جمع حريبة وهو مال الرجل الذى يقوم به أمره، ويروى بالفاء واحدته حريفة وهى أنضاء الإبل وأصله فى الخيل إذا هزلت فاستعير للإبل وإنما فى الإبل أحرفناها بالفاء يقال: ناقة حرف أى هزيلة وقد يراد بالحرائف: المكاسب من الاحتراف بمعنى الاكتساب(٩).

وعكفت الطير وعكبت ويقال: طير عكوف وعكوب، ومن ذلك قول مزاحم العقيلى:

تظل نسور من شمام عليهم   عكوبا مع العقبان عقبان يذبل

والباء لغة فى بنى خفاجة من عقيل(١٠) والخزب: الخزف فى بعض اللغات والإسكاب لغة فى الإسكاف.

وينقل الأزهرى عن بعض الأعراب: «سمعت أعرابيا من بنى فزارة يقول لخادم له: ألا فارفع لى على صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل، فرفع له من الشهلة شبه دكان مربع قدر ذراع من الأرض يتقى بها من الهوام بالليل، وسمعت أعرابيا آخر من بنى حنظلة سماها المصطفة بالفاء(١١).

وقال ابن الأعرابى: الثفية والنفية: سفرة مدورة متخذة من خوص النخل وعوام الناس بالحجاز يسمونها الثبية(١٢).

وبنو فزارة من البدو، لكن كيف يستخدم بنو حنظلة - وهم من تميم - الفاء مع أنها صوت رخو ويتركون الباء الشديدة، وكيف يستخدم أهل الحجاز الباء مع مخالفتها لطبيعتهم الحضرية؟

والجواب أن ذلك يمكن أن يكون على سبيل التأثر والتأثير.

وإذا كانت بنو عقيل قد سمع فيها إبدال الباء فاء والعكس فإن ذلك ليس مظنة الظهور فى جيل واحد بل يمكن أن ينتسب إلى طوائف متعددة منهم أو فى أزمان مختلفة.

ونسبت الباء كذلك إلى أهل اليمن، ومن ذلك: البداء - بالكسر - لغة فى الفداء وتبدى: تفدى عند عامة أهل اليمن(١٣).

وجاء عكس ذلك منسوبا إلى حمير: السخاف: اللبن بالفاء حميرية، والشخاب بالباء

---

(٩) النهاية ١/ ٢٤ (حرب).

(١٠) العين ١/ ١٠٦، والترتيب ١/ ٣٢٣، واللسان.   (١١) التهذيب ١٢/ ١٣٢.

(١٢) نفسه ١٥/ ٤٧٦.   (١٣) تاج العروس ١٠/ ٣٣.

الموحدة التحتية شحرية[١٤] ولعل الفاء كانت عند القبائل المتحضرة من حمير، وجاءت بعض الألفاظ غير منسوبة إلى قوم معينين كما فى الخزب: الخزف المعروف فى بعض اللغات[١٥].

وبين الباء والفاء علاقة صوتية تسمح بالتبادل للتجاور فى المخرج فهما شفويان وتتفقان فى بعض الصفات كالانفتاح والاستفال والذلاقة، إلخ..

الباء والميم

وردت أمثلة لهذا التبادل منسوبة إلى مازن تارة وإلى قبائل أخرى أحيانا.

من ذلك ما ذكره الحريرى من أن الخليفة الواثق بالله أمر بإشخاص أبى عثمان المازنى ليسأله عن إعراب «رجل» فى العرجى:

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

قال أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال. ممن الرجل؟ قلت: من بنى مازن. قال: أى الموازن؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة؟ قلت: مازن ربيعة. فكلمنى بكلام قومى وقال لى: باسمك؟ - لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كانت فى أول الأسماء - قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر، فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدت وأعجب به... إلخ[١٦].

وفى إحدى الروايات قال المازنى: ومكر بالميم يشير إلى اسمه[١٧].

وقال أبو سوار الغنوى فيما نقله أبو على بإسناده إلى الأصمعى: باسمك؟ يريد ما اسمك[١٨].

ومن أمثلة هذا التبادل مما أوردته المعاجم اللغوية:

فى أول الكلمة: البرغ: لغة فى المرغ: العقاب.

---

(١٤) الجمهرة ١/ ٢٣٥، والتهذيب ٧/ ٨٩، والقاموس ٣/ ١٥٦، وتاج العروس ١/ ٣١، ٦/ ١٥٠.

(١٥) المزهر ١/ ٢١٧.

(١٦) درة الغواص ص٩٦، ٩٧.

(١٧) طبقات اللغويين والنحويين ص٩١، ٩٢ وللقصة روايات أخرى.

(١٨) الأمالى للقالى ٢/ ٥٢.

وفى حديث ابن مجاهد من أسماء مكة: بكة، قيل: بكة موضع البيت ومكة سائر البلد، وقيل هى اسم البلدة، وسميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها[١٩] أو لأن الناس يبك بعضهم بعضا فى الطواف أى: يزدحم ويدفع.

وتقول العرب: أحمق لا يجأى مرغه أى: لا يحبس ريقه[٢٠]، ومثله: ميد لغة فى بيد بمعنى غير.

وفى وسط الكلمة:

سبد رأسه وسمد، والتسبيد: ترك التدهن والغسل، وبعضهم يقول: التسميد[٢١].

وأغبطت عليه الحمى، وأغمطت[٢٢] والطبش لغة فى الطمش، الناس يقولون: ما فى الطبش مثله ولا فى الطمش، والخربشة والخرفشة: الإفساد والتشويش[٢٢]، ويقال: تساب فلان وفلان فأربى أحدهما إرباء، وأرمى إرماء أى: زاد على صاحبه[٢٣].

وفى حديث عبد الله بن عمر قال: جاء رسول الله ﷺ إلى دارى، فوضعنا له قطيفة ربيزة، أى: ضخمة من قولهم كيس ربيز، وصرة ربيزة، ومنهم من يقول: رميز بالميم، ويقول الجوهرى: كبش رميز أى: مكتنز مثل ربيس، وفى حديث عمر عن الزبير: ضرس ضميس، والرواية: ضبيس وهى بمعنى الصعب العسر[٢٤].

وورد فى الحديث «كان كتاب فلان مخربشا» أى: مشوشا فاسدا.

وفى آخر الكلمة:

صربى بوزن سكرى، من صربت اللبن فى الضرع: إذا جمعته ولم تحلبه، وكانوا إذا جدعوها أعفوها من الحلب إلا للضيف،وقيل: الصربى هى: المشقوقة الأذن مثل البحيرة أو المقطوعة، والباء بدل من الميم[٢٥].

ومنه، الشكب لغة فى الشكم: العطاء:

---

(١٩) النهاية ١/ ١٤٠، ٢/ ١١٩.

(٢٠) الجمهرة ١/ ٢٦٧.

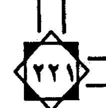
(٢١) التهذيب ١٢/ ٣٧١.

(٢٢) المصدر السابق ١٤/ ٤٠٧.

(٢٣) الجمهرة ١/ ٢٩١، والنهاية ٢/ ١٨٨.

(٢٤) الإبدال لأبى الطيب اللغوى ص٣٧.

(٢٥) النهاية ٣/ ١٠٠ ضبس.



وضربة لازب ولازم والباء اللغة الجيدة، قال النابغة[٢٦]:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

ولازم لغية[٢٧].

والظأب والظأم: سلف الرجل، وأنشد الأصمعى لأوس بن حجر:

مصوع عنوقها أحوى زنيم له ظأب كما صخب الغريم[٢٨]

وأوس بن حجر تميمى[٢٩].

وقحبة وقحمة للعجوز المسنة، والساسب والساسم شجر، وما عليه طحربة وطحرمة أى خرقة[٣٠].

والأثلب والأثلم، ومخرم ومخرب أى مثقوب، وفى حديث على: كأنى بجيش مخرب على هذه الكعبة أى: مثقوب الأذن.

وعصب الريق فاه وعصم: لصق به[٣١].

وفى حديث بدر: (لما فرغ منها أتاه جبريل وقد عصب رأسه الضبر أى ركبه وعلق به من عصب الريق فاه) وروى عصم بالميم.

وفى حديث رفاعة (قالت أخته أمية: هل تجد شيئا؟ قال لا. إلا توصيبا أو توصيما) أى فتورا[٣٢].

وقد نسب ابن الطيب الفاسى إبدال الميم باء إلى مازن[٣٣].

وفى نص الحريرى المتقدم ما يفيد أن إبدال الميم باء والباء ميما منسويان إلى مازن وهى من قضاعة.

ويقول حفنى ناصف: تبدل الميم باء والباء ميما فى لغة مازن يقولون: بات البعير أى مات، ومان البدر فى السماء: أى بان البدر فى السماء[٣٤].

---

(٢٦) النهاية ٣/ ٢٠ ضرب. (٢٧) الديوان ص٤٨، والقلب والإبدال ص١٤.

(٢٨) التهذيب ١٣/ ٢٥.

(٢٩) ظأب: صياح وهياج. القلب والإبدال ص١٦٠.

(٣٠) جمهرة أنساب العرب ٢١٠، وتاريخ الآداب العربية لكارلونا لينو ص٨٤.

(٣١) غريب الحديث لأبى عبيد ١/ ١٣٩.

(٣٢) النهاية ٢/ ١٨٨، ٣/ ٣٤٤ والجمهرة ١/ ٢٩٣.

(٣٣) النهاية ٥/ ١٩٠ (وصب). (٣٤) الصحاح ١/ ٤١٣.

وقد نسب إبدال الميم باء إلى بنى كلاب، قال أبو يوسف: سمعت أبا صاعد الكلابى يقول: تكبكب الرجل فى ثيابه أى: ترمل، حكاها أبو عمرو الشيبانى تكمكم[٣٥].

كما نسب التبادل بين الميم والباء - بنوعيه - إلى اليمن.

فقد وزد إبدال الميم - فى حرف الجر (من) - باء فى النقوش اليمنية كما فى (بن محرمن) أى من المحرم، و(بن مريب) أى: من مأرب[٣٦].

ونسب ابن دريد إبدال الباء ميما إلى اليمن يقول: مجح يمجح مجحا لغة فى بجح يبجح بجحا، فهو باجح وماجح، ورجل بجاح ومجاح وهو المتكثر بما لا يملك، لغة فيه[٣٧].

وفى التهذيب: الكحب والكحم: الحصرم واحدته كحبة يمانية[٣٨].

ولكن ليس من المعقول أن تنطق قبيلة واحدة بالشيء وعكسه، ولا توجد لهجة من لهجات اللغات فى العالم تلتزم قلب كل ميم إلى باء والعكس، ولذا يرى الدكتور أنيس أن يجعل قلب الميم باء لجماعة لغوية، وقلب الباء ميما لجماعة أخرى، أو أن أحد النطقين تطور عن الآخر[٣٩].

وقد عرض ابن جنى ما نسب إلى مازن وعده من قبيل الإبدال فى مثل باسمك فى ما اسمك، فالباء بدل من الميم.

كما عرض أمثلة لاحتمال التبادل بين الباء والميم.

ومن ذلك: (بعكوكة ومعكوكه) فالميم هى الأصل والباء بدل منها لأنها من الشدة وهى المعك[٤٠].

وبمراجعة المادتين فى المعاجم نرى ما يأتى:

---

(٣٥) مميزات لغات العرب ص١٥، ١٦ وانظر تاريخ آداب العرب للرافعى ١/ ١٤٤.

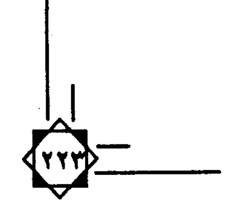
(٣٦) القلب والإبدال ص١٦:

(٣٧) المفصل للدكتور جواد على ١/ ١٠٢، ٧/ ١٣٠، ولهجات اليمن قديما وحديثا ص٣٠، ٣١.

(٣٨) الجمهرة ٢/ ٩٥.

(٣٩) ٢/ ١٩٨، ٤/ ١١٠، ١٥/ ٤١٢، وانظر اللسان.

(٤٠) فى اللهجات العربية ص١١٧.



مادة (معك): معكه فى التراب كمنعه ولكمه وبالقتال والخصومة لواه ودينه وبه مطله به فهو معك ككتف ومنبر ومماعك وككتف الألد والأحمق معك ككرم وتمعك تمرغ ومعكتها تمعيكا وإبل معكى كسكرى كثيرة ووقعوا فى معكوكاء ويضم فى غبار وجلبة وشر ومعكوكة الماء بالضم كثرته(٤١).

مادة (بعك): بعكوكة الناس بالضم مجتمعهم وبعكه بالسيف ضرب أطرافه، والبعك محركة الغلظ والكزازة فى الجسم، والباعك الأحمق والبعكوكاء الشر والجلبة وبعكوكة القوم وقد يفتح وبعكوكتهم آثارهم حيث نزلوا أو خاصتهم أو جماعتهم، وكذا من الإبل، ووسط الشىء وكثرة المال وغباره وازدحامه وبعكوكة الصيف والشتاء اجتماع حره وبرده، والبعكوكة الحر(٤٢).

والناظر يرى أن كل مادة لها تصرف واتساع معنوى وفى كل منهما معنى الشدة، وعلى هذا فلا مانع من أن تكون الباء هى الأصل والميم هى الفرع أو العكس، وقد صرح بذلك صاحب اللسان حين قال:

«حكاه يعقوب فى البدل كأن ميم معكوكاء بدل من باء بعكوكاء أو بضد ذلك(٤٣).

كما جوز ابن جنى إبدال الميم من الباء وأن تكون كل منهما أصلا فى (مخر وبخر) ومازالت راتما وراتبا ورأيته من كثم ومن كثب، وطابه الله على الخير وطامه، وبنى رأيه فى ذلك على أساس التصرف والاشتقاق فقال عن مخر وبخر قال الأصمعى: بنات مخر وبنات بخر: سحائب يأتين قبل الصيف بيض منتصبات فى السماء، قال طرفة:

كبنات المخر يمأدن إذا　　　أنبت الصيف عساليج الخضر

قال أبو على رحمه الله: كان أبو بكر يشتق هذه الأسماء من البخار، فالميم على هذا فى (مخر) بدل من الباء فى (بخر) لما ذكر أبو بكر وليس ببعيد عندى أن تكون الميم أصلا فى هذا أيضا، وذلك لقول الله سبحانه: ﴿**وترى الفلك فيه مواخر**﴾ أى ذاهبة وجائية، وهذا أمر قد يشاركها فيه السحاب، ألا ترى إلى قول الهذلى:

شربن بماء البحر ثم ترفعت　　　متى لجج خضر لهن نئيج

---

(٤١) سر الصناعة ١/ ١٣٥.

(٤٢) القاموس المحيط ٣/ ٣٦٨، ولسان العرب ١٢/ ٢٨٢.　(٤٣) القاموس المحيط ٣/ ٣٤٠.

فهذا يدل على مخالطة السحائب عندهم البحر وتركضها فيه وتصرفها على صفحة مائه، وعلى كل حال فقول أبى بكر أظهر[٤٤]. ويوضح ذلك قوله فى سر الصناعة: وذلك أن السحاب كأنها تمخر البحر لأنها فيما نذهب إليه عنه تنشأ ومنه تبدأ[٤٥].

وتؤكد هذا الاشتقاق المعاجم اللغوية التى تحدثت عن ثلاث مواد هى (بخر)[٤٦] من البخار و(بحر)[٤٧] من البحر وهو الماء الكثير والملح خاصة و(مخر)[٤٨] من قولهم مخرت السفينة كمنع مخرا ومخررا جرت أو استقبلت الريح فى جريها، والفلك المواخر التى يسمع صوت جريها أو تشتق الماء أو المقبلة والمدبرة بريح واحدة، وكل المواد الثلاث - كما نرى - يمكن أن تشتق منها (بنات مخر) ولكنها أقرب ما تكون إلى البخار المتصاعد من البحر، ومخرجهما واحد فهما شفويان ومتفقان فى الجهر والاستفال والانفتاح والذلاقة، وكل ذلك مسوغ للإبدال بينهما، وعليه فإما أن نقول بإبدال أحدهما من الآخر أو بأن كلا منهما أصل لاختلاف الاشتقاق، ومع قولنا بالإبدال فمن نطق بالميم كان حضريا ومن نطق بالباء كان بدويا، وعلى اختلاف الاشتقاق فلا إبدال بل كل من اللفظين وجد فى بيئة لغوية على الوضع المذكور للبدو الباء والحضر الميم كذلك فى مازلت راتما راتبا أجاز ابن جنى الإبدال لكثرة تصرف الباء قال: ظاهر من أمر هذه الميم أن يكون بدلا من باء راتب لأنا لم نسمع فى هذا الموضع رتم مثل رتب[٤٩] ثم أجاز مع ذلك كون كل منهما أصلا مستقلا عن الآخر، قال:ويحتمل الميم فى هذا عندى أن يكون أصلا غير بدل من الرتيمة وهو شىء كان أهل الجاهلية يرونه بينهم، وذلك أن الرجل منهم كان إذا أراد سفرا عمد إلى غصنين من شجرتين وقرب أحدهما من الآخر فعقد أحدهما بصاحبه، فإذا عاد ورأى الغصنين معقودين بحالهما قال إن امرأته لم تخنه بعده، وإن رأى الغصنين قد انحلا قال إن امرأته قد خانته.. والرتمة أيضا خيط يشد فى الأصبع ليذكر الرجل به حاجته وكلا هذين المعنيين تأويله الإقامة والثبوت فيجوز أن يكون راتم من هذا المعنى[٥٠].

---

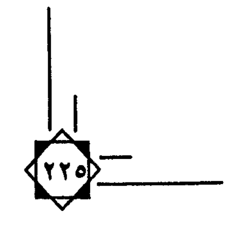
(٤٤) لسان العرب ١٢/ ٣٨٠. (٤٥) الخصائص ٢/ ٨٤- ٨٦.

(٤٦) سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ٨١.

(٤٧) القاموس المحيط ١/ ٣٠٩.

(٤٨) نفسه ٢/ ٣٦٧. (٤٩) نفسه ٢/ ١٣١.

(٥٠) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨١ (مخطوطة الأزهر).



والباحث في المعاجم يرى لكل من رتب ورتم معانى مستقلة بها، وقد حكى الفيروزابادى في مادة رتم القصة التى ذكرها ابن جنى وقال: ورتم فى بنى فلان نشأ، وأخذه غشى من أكل الرتم، وهم رتامى كسكارى ومارتم بكلمة ما تكلم(٥١) وغالبها يدور حول معنى الإقامة والثبوت حقيقة أو مجازا وكذلك مادة (رتب) رتب رتوبا ثبت ولم يتحرك وترتب كقنفذ وجندب: الشيء المقيم الثابت والمرتبة المنزلة(٥٢).

وإذا كان الأمر كذلك كان رأى ابن جنى صائبا إلا أننى أرى أنه لا داعى إلى اشتقاق الكلمة من الجامد (الرتيمة) مادام هناك تصرف آخر للمادة فيجوز أن تكون كل منهما بدلا من الأخرى خاصة بقوم دون قوم لاختلاف مادة الاشتقاق، وكذلك رأيته من كثم وكثب، رأيناهم يقولون: قد أكثب لك الأمر إذا قرب ولم نرهم يقولون قد أكثم، فالباء على هذا أعم تصرفا من الميم، فالوجه لذلك أن تكون الباء هى الأصل لا الميم، وقد يجوز أن تكون الميم أصلا أيضا لقولهم أخذنا على الطريق الأكثم أى الواسع، والسعة قريبة المعنى من القرب، ألا ترى أنهما يجتمعان فى تسهيل سلوكهما وأنه لا يتسع الطريق ولا يكثر سابلته إلا لأنه أقصد من غيره، والقصد - كما تراه - هو القرب فقد آلا إذًا إلى معنى واحد(٥٣) والمادتان موجودتان فى القواميس تشتركان فى معنى القرب الكثب الجمع والاجتماع والدخول، وكثب عليه حمله وكنانته نكبها، والكثبة بالضم القليل من الماء واللبن وكل مجتمع، وأكثبه دنا منه، وكاثبتهم دنوت منهم(٥٤) (كثم) القثاء ونحوه أدخله فى فيه فكسره، وكنانته نكثها، والشيء جمعه، وأكثمك الصيد قاربك(٥٥)، فالمادتان فيهما معنى القرب الذى جمع بينهما، وبهذا أمكن لكل منهما أن يكون بدلا من الآخر أو مستقلا بنفسه وليست الباء أكثر تصرفا من الميم وهذا كما تصور ابن جنى.

وفى طامه الله على الخير وطابه لم توجد مادة طام، والطينة هى الخلقة والجبلة يقال فلان من الطينة الأولى فالمادة موجودة بالنون(٥٦) ونغبا هى أصل (نغما) فى بيت الشعر السابق، وبذلك قرر ابن جنى إبدال الميم من الباء، ولكننا كررنا مرارا أن كثرة التصرف ليست مقياسا منضبطا، فمن الجائز إذًا أن تكون الميم أو الباء أصلا ويتصل قلب الباء ميما

(٥١) القاموس ٤/ ١١٦، ١١٧. (٥٢) نفسه ١/ ٧١، ٧٢.

(٥٣) سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ٨١ والوجه الأول من الورقة ٨٢.

(٥٤ القاموس ١/ ١٢١. (٥٥) نفسه ٤/ ١٦٩.

(٥٦) سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨٢، ولسان العرب ١٧/ ١٤٠.

بما سماه ابن جنى (إمساس الألفاظ أشباه المعانى) مثل حبس وحمس وعلب وعلم قالوا: حبست الشىء، وحمس الشر إذا اشتد والتقاؤهما أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازا فكان ذلك كالشر يقع بينهما، والعلب: الأثر والعلم: الشق فى الشفة العليا والباء أخت الميم وذلك مبين فى باب الاشتقاق وضروبه(٥٧).

ويبدو أن ظاهرة التبادل بين الباء والميم شائعة والأفعال وإن خصها بعضهم بالأسماء كالحريرى.

والتبادل ممكن بين الباء والميم، فالباء أخت الميم تبدل منها(٥٨) لكونهما من مخرج الشفتين. وبينهما تماثل فى الجهر، والاستفال والانفتاح والذلاقة، وإن كانت الباء شديدة والميم متوسطة.

ولا ريب أنه يمكن تفسير الباء على أنها من نطق البادية، أما الميم فمن نطق الحاضرة، فالباء لشدتها تناسب البدوى على حين أن الميم لتوسطها تناسب الحضرى.

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن هذه الظاهرة نشأت فى البيئات المنعزلة التى لا يجد فيها الطفل من يوجهه إلى النطق الصحيح، وإصلاح أخطائه، لانشغال أهله عنه، وأنها غير مختصة بقبيلة معينة كقبيلة مازن أو غيرها، بل هى منسوبة إلى أى قوم منعزلين، وأن نسبتها إلى قبيلة معينة هو من قبيل سماع الرواة لبعض أمثلتها فى هذه القبيلة دون تحقيق أو نظر(٥٩).

والواقع أن رأى هذا المحدث تخمين لا ينبنى على أساس علمى، ولا دليل تاريخى، وخطأ الأطفال ليس أمرا يحدث فى بيئات العرب الفصحاء، وإن صح حدوثه فى بيئات أخرى أو فى الأزمان المتأخرة.

التاء والثاء

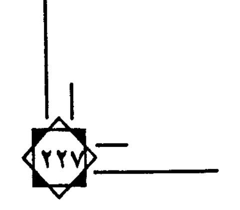
من ذلك فى مادة (خبت) فى اللسان:

ينفع الطيب القليل من الرز ... ق ولا ينفع الكثير الخبيت

سأل الخليل الأصمعى عن (الخبيت) فى هذا البيت فقال له: أراد (الخبيث) وهى لغة خيبر.

(٥٧) الخصائص ٢/ ١٤٧. (٥٨) الجمهرة ٢/ ٢٤١.

(٥٩) فى اللهجات العربية ص١٢٠.



وذكر ابن جني في اثرد واترد واثّار واتّار واثّنى واتّنى ما يفيد التبادل بين التاء والثاء يقول:

واعلم أن التاء إذا وقعت فاء في افتعل وما تصرف منه قلبت تاء وأدغمت في تاء افتعل بعدها، وذلك قولهم في افتعل من التريد اترد وهو مترد وإنما قلبت تاء لأن الثاء أخت التاء في الهمس فلما تجاورتا في المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد فقلبوها تاء وأدغموها في التاء بعدها ليكون الصوت نوعا واحدا(٦٠) ثم قال: هذا هو المشهور في الاستعمال، وهو أيضا القوى في القياس، ومنهم من يقلب تاء افتعل ثاء فيجعلها من لفظ الفاء قبلها فيقول: اثرد واثار واثنى كما قال بعضهم في ادكر اذكر وفي اصطلحوا اصلحوا(٦١).

ونحن نرى أن إبدال الثاء من التاء والعكس أمر مستقيم وذلك لقرب مخرجيهما إذ التاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا والثاء من طرف اللسان إلا أنه يحتك ويتصل بأطراف الثنايا العليا نفسها فالفرق طفيف جدا، وإذا كان بينهما من الحروف في الترتيب: ص - ز - س - ظ - ذ - فإن ذلك لا يعني فارقا كبيرا بينهما؛ لأن الخلاف غير كبير بين الثاء وما قبلها من الحروف الفاصلة والثاء - مع قرب مخرجها من التاء- تتفق معها في صفات كثيرة وهي الهمس والاستفال والانفتاح والإصمات، والثاء حرف يحتاج إلى مجهود عضلي في نطقه مما دعا إلى تسهيله ولا يمكن هذا التسهيل - للسرعة في النطق بتحويل الثاء إلى الذال، إذ هي مثلها في احتياجها إلى مجهود،وكذلك الطاء لأنها مطبقة، والزاي والصاد من حروف الصفير فما يناسبها فقط هو التاء، والنطق بالتاء سهل سريع مما جعله يتناسب مع أهل البادية كما يقول الدكتور أنيس وبخاصة أن البدو يميلون إلى الأصوات الشديدة على حين يميل الحضر إلى الأصوات الرخوة(٦٢) وقد تحولت الثاء إلى تاء في كثير من الكلمات العامية للتخفيف والسهولة مثل التار - تمر - تعلب - تعبان إلخ وقد تحول بعضها القليل إلى سين مثل ثابت فإنها تنطق سابت كما صرح أستاذنا الدكتور نجا بوقوع ذلك في اللهجة القاهرية(٦٣).

---

(٦٠) سر الصناعة ١/ ١٨٩. (٦١) نفسه ١/ ١٩٠.

(٦٢) في اللهجات العربية من ١٠٠-١٠٧.

(٦٣) اللهجات العربية ص٩٣.

ويمكن للباحث أن يتصور وقوع التصحيف بين التاء والثاء، ويحتمل أن تنشأ بعض ألفاظ هذه الظاهرة عنه ومن ذلك بعض الأمثلة التى جمعها العلماء مثل: مرثات - وفى لسانه رثة والصواب بالتاء - لث السويق وهى تاء - الثيثل: الوعل المسن والصواب بالتاء - الرثم - محركة نبت والصواب بالتاء - يحيى بن أكثم وهى بالتاء(٦٤)، فعلى الباحث أن يكون على وعى كبير ليميز بين ما كان من الإبدال وما حدث من وقوع التصحيف، وقد ذكر ابن جنى أن بعض العرب يقلب التاء ثاء وبعضهم يعكس ذلك فهذا صريح فى أن منشأه اختلاف اللهجات.

وقلب الثاء تاء - على المشهور - يدل على أن التطور الصوتى قد فعل فعله عند من احتاج إلى السرعة والتخفيف فى النطق وأن ذلك قد حدث فى تاريخ اللغة الطويل فى لهجة واحدة أو فى اللهجات المتعددة.

التاء والدال

من أمثلة ذلك:

التفتر لغة بنى أسد فى الدفتر(٦٥).

والترياق فارسى معرب شفاء للسم لغة فى الدرياق(٦٦).

والستى لغة فى سدى الثوب.

الدخريص من الثوب والأرض والدرع: التبريز والتخريص لغة فيه(٦٧)، التهتار من الحمق والجهل ولغة للعرب فى هذه الكلمة خاصة: دهدار ويقول الأزهرى: منهم (يعنى من العرب) من يقلب بعض التاءات فى الصدر دالا نحو الدرياق لغة فى الترباق والدخريص لغة فى التخريص وهما معربان(٦٨).

ومن ذلك جاءنا بعد هدأة من الليل وهتأة من الليل وسبنتى وسبندى للنمر، ومد فى

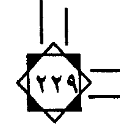
---

(٦٤) تثقيف اللسان ٤٨-٥٣ من باب التصحيف الذى يمتد إلى ص٨٣. وانظر: القاموس ١/ ١٥٣، ٣/ ٣٥٢: ٤/ ١١٨، ١٧١ ويحيى بن أكثم يقال بالتاء الفوقية كما نقله الخفاجى وجزم به فى الدرة وغيره، وهو قاض علامة تولى القضاء فى زمن الرشيد وكان من بحور العلم.

(٦٥) القلب والإبدال ص٥٤. (٦٦) التهذيب ٩/ ٥٤.

(٦٧) التهذيب ٧/ ٦٥٥.

(٦٨) التهذيب ١/ ٢٣٣، وشفاء الغليل ص٨٣، والمعرب ص١٤٢.



السير ومت[٦٩]، ومكبود ومكبوت بمعنى حزين، جاء في الحديث «رأى طلحة حزينا مكبوتا» أي شديد الحزن، قيل: أصله مكبودا بالدال فقلبت الدال تاء، وكبت الله فلانا أي أذله وصرفه[٧٠].

وفي الحديث «به لحادة ولحاتة من لحم حتى يلقى الله وما على وجهه لحادة من لحم» أي قطعة، قال الزمخشري : ما أراها إلا لحاتة بالتاء من اللحت وهو ألا يدع عند الإنسان شيئا إلا أخذه، وإن صحت الرواية بالدال فتكون مبدلة من التاء كدولجة في تولج»[٧١].

وقد ذكر ابن جني: ناقة تربوت وأصلها دربوت يقول: وقالوا: ناقة تربوت وأصلها دربوت وهي فعلوت من الدربة أي هي مذللة، فالتاء بدل من الدال[٧٠] ولا شك أن العلاقة الصوتية تسوغ التبادل فهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ويتفقان في صفات كثيرة هي الشدة والاستفال والانفتاح والإصمات، والباحث في المعاجم يحس بهذا الإبدال فمادة (درب) تدور حول المران على الشيء مثل دربه به وعليه حذاه والمدرب كمعظم المنجد المجرب والمصاب بالبلايا ومن الإبل المخرج المؤدب قد ألف الركوب وعود المشي في الدروب وقد دربته تدريبا وجمل وناقة دروب ودربوت محركة ذلول أو هي التي إذا أخذت بمشفرها ونهزت عينها تبعتك، والداربة العاقلة والحاذقة بصناعتها والتدريب الصبر في الحرب وقت الفرار[٧٢].

أما مادة (ترب) فكلها تتعلق بمعنى التراب المعروف والفقر من لوزامه، كما في أترب لزق بالتراب أو قل ماله وكثر ضد، وقد ذكر صاحب القاموس فيها تربوت وهي الناقة الذلول[٧٣] ولا علاقة له فيما أرى بهذه المادة بل هو متصل بمادة درب مع إبدال الدال تاء والعلاقة المسوغة موجودة، والتاء مما يناسب الحضر والذال للبدو،وقد ذكرت لهما أمثلة كثيرة في المخصص والمزهر[٧٤].

كما ذكر أمثلة أخرى لهذا التبادل في قلب تاء الافتعال دالا بعد الزاي مثل ازدجر وازدار وازدرد وازدلف إلخ[٧٥].

---

(٦٩) الإبدال لأبي الطيب ١/ ١٠١، ١٠٢، والمزهر ١/ ٤٦٤.

(٧٠) النهاية ٤/ ١٣٨ (كتب). (٧١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٦، ٢٣٧.

(٧٢) القاموس المحيط ١/ ١٧٤. (٧٣) نفسه ١/ ٤٦.

(٧٤) المخصص ١٣/ ٢٨٠، والمزهر ١/ ٢٢٤.

(٧٥) سر الصناعة ١/ ٢٠٠.

وهذا الإبدال واجب عند جميع العرب.

كما ذكر إبدال التاء دالا فى صيغة افتعل إذا وقعت بعد الجيم مثل اجدمعوا فى اجتمعوا، وقول الشاعر:

فقلت لصاحبى لا تحبسانا   بنزع أصوله واجدز شيحا

ويقال: دولج فى تولج.

ويعلل لذلك ابن جنى فيقول: إن الزاى لما كانت مجهورة وكانت التاء مهموسة وكانت الدال أخت التاء في المخرج وأخت الزاى فى الجهر قربوا بعض الصوت من بعض فأبدلوا التاء أشبه الحروف من موضعها بالزاى وهى الدال فقالوا: ازدجر وازدار(٧٦).

وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم فى بعض اللغات، وقد أبدلت الدال المجهورة بالتاء المهموسة لتقرب من الجيم المجهورة ولأنها من نفس مخرج التاء إذ التاء والدال من مخرج واحد(٧٧).

وقد أبدلوا الدال من تاء تولج فقالوا: دولج(٧٨) وهذا ما قال به سيبويه فالدال بدل من بدل إذ التاء بدل من الواو والدال بدل من التاء(٧٩).

واتحاد المخرج بين الحرفين والاتفاق فى صفات كثيرة مثل الشدة والاستفال والانفتاح والإصمات يبيح التبادل بين الحرفين والخلاف بينهما فى الجهر والهمس فإذا جهرت التاء صارت دالا وإذا همست الدال صارت تاء.

ولاريب أن الجهر من خصائص البدو والهمس من خصائص الحضر فلا مانع من أن يكون التطور الصوتى فى مثل اجتمعوا إلى اجدمعوا وتولج إلى دولج من خصائص بعض القبائل البدوية، والصيغ التى بالتاء من خصائص بعض الحضر وابن جنى صرح بأن ذلك من اختلاف اللهجات وهو رأى سوىّ.

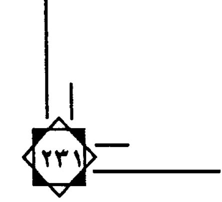
---

(٧٦) سر الصناعة ١/ ٢٠٠.

(٧٧) نفسه ١/ ٢٠٠، ٢٠١.

٧٨) نفسه ١/ ٢٠٢.

(٧٩) لسان العرب ٣/ ٢٢٤.



التاء والصاد

مثل: لصت ولصوت فى لص ولصوص.

والمخرج متقارب - على ما يرى القدماء - مع اختلاف فى موضع طرف اللسان فهو مع التاء يتصل بأصول الثنايا العليا ومع الصاد يتصل بأطراف الثنايا السفلى، ولكن الوارد مثال واحد قال فيه ابن جنى بالإبدال(٨٠). ويعلل ذلك الدكتور أنيس بأن التاء أخف من الطاء التى تناظر الصاد الرخوة فإذا نطق بعضهم الصاد شديدة فهى الطاء وإذا رققت فهى التاء فكان التطور هكذا ص - ط - ت، ولكن لماذا كان الوارد مثالا واحدا ما دام التقارب الصوتى موجودا؛ ألا كثرت أمثلة للتبادل؟ ربما كان من تلاعب بعضهم فى الاستعمال، وقد جعله صاحب المخصص من قبيل اختلاف اللغات، قال أبو عبيد: اللص واللصت وقال مرة اللص فى لغة طيئ وغيرهم اللصت وهم يقولون طس وغيرهم طست(٨١).

ولعل رأى الأستاذ برجستراسر بتعريب الكلمة مما يؤكد أن العرب لم يبدلوا التاء من الصاد فى شىء من الكلمات، وقد اشتبه على اللغويين أمر هذه الكلمة «فكلمة لص معربة من اليونانية بواسطة الآرامية أى السريانية وهو فى اليونانية Lestes وفى السريانية Lesta, Lastes فالصاد بعد التعريب مبدلة من التاء لا العكس، وهى كلمة أجنبية عن العربية(٨٢).

التاء والطاء

فى حديث غسل الحيض «نبذة من كُست أطفار» وهو القُسط الهندى: عقار معروف وفى رواية كسط - بالطاء - وهو هو والقاف والكاف يبدل أحدهما من الآخر(٨٣).

وفى حديث عبد الله بن مسعود (**لاغلت فى الإسلام**) والغلت فى الحساب كالغلط فى الكلام وقيل هما لغتان.

وفى حديث عمر (**لما مات عثمان بن مظعون على فراشه قال: هبّته الموت عندى منزلة حيث لم يمت شهيدا**) أى حط من قدره فى قلبى، وهبت وهبط أخوان(٨٤)

---

(٨٠) سر الصناعة ١/ ١٧٣. (٨١) المخصص ١٣/ ٢٨٠.

(٨٢) التطور النحوى. (٨٣) النهاية ٤/ ١٧٢ (كست).

(٨٤) نفسه ٥/ ١٣٨، وغريب الحديث لأبى عبيد ٤/ ١١٢، والقاموس ١/ ١٦٦.

وفى المزهر: الأقتار والأقطار: النواحى ورجل تبن وطبن ككتف وما أستيع وما أسطيع[٨٥].

ويقال: لتخه ولطخه - كمنعه -: لوثه، سكران ملتخ وملطخ أى مختلط العقل[٨٦] .

والعتعت والعطعط كبلبل: الجدى،والترفة والطرقة: ما خصصت به الإنسان من تحفة تتحفه بها[٨٧].

وجاء فى اللسان: أفلطنى الرجل إفلاطا مثل أفلتنى وقيل لغة فى أفلتنى تميمية قبيحة[٨٨].

وفى الأشمونى: أفلط أى أفلت فإن طاءه بدل من التاء لأن التاء أغلب فيه فى الاستعمال[٨٩] ولذا وصفت الطائية بالقبح لقلة استعمالها.

قال ابن جنى: وأما قولهم فى فسطاط فستاط فالتاء فيه بدل من الطاء لقولهم فى الجمع فساطيط ولم يقولوا فساتيط، فالطاء إذن أعم تصرفا[٩٠] وفى الخصائص أورد فيها ست لغات هى: فسطاط وفستاط وفستاط وبكسر الفاء أيضا، وقد حاول أن يرجح إبدال التاء فى فستاط من سين فساط على إبدالها من طاء فسطاط بأن قال:إنك إذا حكمت بأنها بدل من سين فساط ففيه شيئان جيدان أحدهما تغيير الثاني من المثلين وهو أقيس من تغيير الأول من المثلين لأن الاستكراه فى الثانى يكون لا فى الأول والآخر أن السينين فى فساط ملتقيتان والطاءين فى فسطاط منفصلتان بالألف بينهما واستثقال المثلين ملتقيين أحرى من استثقالهما مفترقين، وأيضا فإن السين والتاء جميعا مهموستان والطاء مجهورة[٩١] وقرب المخرج بين هذه الحروف مسوغ للتبادل، ولو فرض أن التاء أبدلت من سين فساط فإنها إما أن تكون أبدلت من الطاء أيضا أو أبدلت منها الطاء لأن اللسان إذا ارتفع مع التاء كانت طاء والحروف الثلاثة (ت - د - ط) لهما علاقة صوتية تجعلها وحدة متماسكة مما يسوغ

---

(٨٥) المزهر ١/ ٤٦٤ وتبن وطبن بمعنى فطن. القاموس ٤/ ٢٠٧، ٢٤٦.

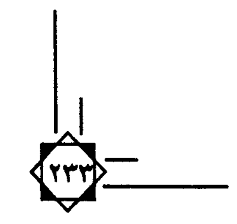
(٨٦) الإبدال لأبى الطيب ١/ ١٢٦، والقاموس ١/ ٣٧٨.

(٨٧) الإبدال لأبى الطيب ١/ ١٢٢، والقاموس ١/ ١٥٨، ٢/ ٣٨٧.

(٨٨) اللسان (فلط) ٥/ ٤٦١، والمزهر ٢٢٤.

(٨٩) ٢/ ٥٩٠. (٩٠) سر الصناعة ١/ ١٧٤.

(٩١) الخصائص ٢/ ٨٧.



التبادل بينها على أن كل حرف منها له موقعه الخاص المناسب للحدث الذى يلائمه، وقد فسر ذلك ابن جنى فى مثل: قتر - قدر - قطر[92] وبنى على ذلك رأيه فى الاشتقاق الأكبر الذى سماه إمساس الألفاظ أشباه المعانى[93].

وقال بعض العرب استاع يستيع بمعنى اسطاع يسطيع وبعضهم يقول أَسْطَاع يُسطيع بقطع الهمزة بمعنى أطاع يطيع، فالتاء بدل من الطاء لا محالة[94].

وقال صاحب اللسان: إنه قلب الطاء تاء ليشاكل بها السين لأنها أختها فى الهمس ولا ريب أن الطاء من خصائص البدو والتاء من خصائص الحضر لحاجة البدو إلى تفخيم الحروف والحضر إلى الترقيق، وعلى هذا النحو من إبدال التاء طاء ما أحدثه العربى فى صيغة (افتعل) فتاء افتعل إذا كانت فاؤه صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء تقلب طاء ألبتة،وذلك قولك من الصبر: اصطبر ومن الضرب: اضطرب ومن الطرد: اطرد ومن الظهر: اضطهر بحاجتى.. وأصل هذا كله: اصتبر واضترب واطترد واظتهر، ولكنهم لما رأوا التاء بعد هذه الأحرف والتاء مهموسة، وهذه الأحرف مطبقة والتاء مخفتة قربوها من لفظ الصاد والضاد والطاء بأن قلبوها إلى أقرب الحروف منهن وهو الطاء لأن الطاء أخت التاء فى المخرج وأخت هذه الأحرف فى الإطباق والاستعلاء وقلبوها مع الطاء طاء أيضا لتوافقها فى الجهر والاستعلاء وليكون الصوت متفقا[95].

وهذا التبادل نتيجة تأثر الأصوات بعضها ببعض إذ لا يمكن النطق بالتاء المهموسة المستفلة بعد الحروف المطبقة فدعا ذلك إلى نوع من التماثل والانسجام فحولت التاء إلى طاء لتماثل الصاد وأخواتها فى الإطباق والاستعلاء، وهذا ما أوضحه أستاذنا الدكتور نجا حين قال: «إذا رجعنا إلى كتب التصريف عند عرضها لصيغة افتعل وبنائها من كلمة مبدوءة بحرف مطبق وجدنا أن السياق والانسجام يدعوان إلى تحويل التاء وهى صوت مستفل إلى الطاء ليحصل التماثل ويتم الانسجام[96] وهو بهذه الصورة التى تحدث عنها ابن جنى يدعى فى الاصطلاح الحديث باسم المماثلة، وقد تحدثنا عن نوعيها التقدمى والرجعى[97]

---

(٩٢) نفسه ٢/ ١٦٢. (٩٣) نفسه ٢/ ١٥٢.

(٩٤) اللسان ١٠/ ١٠/ ١١٤، والقاموس ٣/ ٦٣.

(٩٥) سر الصناعة ١/ ٢٢٣.

(٩٦) الأصوات والتجويد ص٧٩.

(٩٧) انظر كتابنا: أصوات اللغة العربية ط٢ ص٢٧٦ وما بعدها.

وقلب تاء افتعل على الصورة السابقة من النوع التقدمى الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول وقد يقلبون التاء من جنس الحرف الأول مثل اعّبر واضّرب، واظّهر ومظّهر، وهذا من النوع التقدمى الذى يتأثر فيها الصوت الثانى بالأول أيضا ويروى فى اظطلم أربعة أوجه الأول هو السابق وهو تأثر تقدمى، ويقال فيها اظّلم وهو تقدمى كسابقه ويقال اطّلم بالطاء فتبدل الظاء طاء وتدغم الطاء فى الطاء وذلك لما بين الظاء والطاء من المقاربة فى الإطباق والاستعلاء(٩٨) وهذا التأثر رجعى تأثر فيه الصوت الأول بالثانى إلى حد أنه فنى فيه(٩٩) ويقال انظلم، وهو انفعل ويعرف فى علم الأصوات الحديث باسم المخالفة، وهى أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين(١٠٠) فلا يعدو الأمر أنه قد لجأ إلى عملية المخالفة ليخالف بين الظاءين المتجاورتين بأن استبدلت إحداهما نونا ليزيد النطق تيسيرا(١٠١)، وهذا النوع الذى أطلق عليه علماء الأصوات المحدثون اسم المماثلة قد طبقه اللغويون العرب على تاء فعلت فيقلبونها طاء حين يقع قبلها حرف من حروف الإطباق أيضا مثل فحصط برجلى إذ أصلها فحصت، وقول الشاعر:

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

ومن أمثلة ذلك فى القراءات قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ قرأ الجمهور: أحطت - بالطاء والتاء دون ادغام، وذلك لعدم توافر شروط الإدغام، وقرئ: أحط - بتحويل التاء إلى طاء، وإدغامها فيها لأن التاء ليست من بنية الفعل، كما يقول سيبويه، فالأجود بقاء التاء وعدم قلبها طاء يقول: وأعرب اللغتين وأجودهما ألا تقلبها طاء لأن هذه التاء علامة الإضمار وإنما تجيء لمعنى(١٠٢)- وذلك جائز فعند تجاور حرفين متقاربين يقلب بعض العرب أحدهما إلى صاحبه عند سكون الأول منهما مراعاة للخفة بالتماثل.

وهى لغة تميم كما يقول صاحب المخصص. قالوا فحصط برجلك يريدون فحصت وحصط يريدون حصت(١٠٣)، فالتميميون يفضلون الحرف الشديد المجهور وهو الطاء المفخمة على حين يفضل الحجازيون التاء المهموسة المستفلة، وقد تحدث ابن جنى عن

---

(٩٨) سر الصناعة ١/ ٢٢٤. (٩٩) الأصوات اللغوية ص١٢٩.

(١٠٠) الأصوات اللغوية ص١٥٢ وانظر ذلك فى الخصائص ٢/ ١٤١ وسر الصناعة ١/ ٢٢٥.

(١٠١) الأصوات اللغوية ص١٥٥. (١٠٢) الكتاب ٤/ ٤٧٢.

(١٠٣) المخصص ١٣/ ٢٧.

مبدأ المماثلة المذكور ودعاه بأنه تقريب الصوت من الصوت وسلكه فى باب الادغام(١٠٤).

التاء والكاف

ذكر ابن جنى أن الكاف لا تكون بدلا(١٠٥) ولكنه ناقض هذا القول حين ذكر أنها تبدل من التاء، وقال: أنشدنا أبو على:

يا ابن الزبير طالما عصيكا وطالما عنيتنا إليكا

أبدل الكاف من التاء لأنها أختها فى الهمس وكان سحيم إذا أنشد شعرا جيدا قال: أحسنك والله يريد أحسنت(١٠٦)، والواقع أن التاء والكاف متباعدان مخرجا فالكاف من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى والتاء من طرفه مع أصول الثنايا إلا أنهما - رغم ذلك - متفقتان فى جميع الصفات،وربما كان لذلك أثر فى تبادلهما.

ويفسر المحدثون إبدال الكاف من التاء بأن الصوت قد انتقل من مخرجه إلى مخرج آخر فقد انتقلت التاء من مخرجها متجهة نحو أقصى الحنك(١٠٧)، ونحن نعرف أن سحيما هذا الذى يقول أحسنك فى أحسنت كان ضعيف اللسان فعنده شىء من اللثغ كما قال ابن جنى سابقا(١٠٨)، وطريقة الأطفال تجرى عكس هذا النمط مثل تسب فى كسب وتله فى كله،ونحو ذلك لعدم تمكن جهازهم الصوتى من إخراج الكاف التى تصعب عليهم فيبدلون منها التاء(١٠٩) وعلى كل فالكاف أصعب من التاء ويبدو أن الناطقين بالكاف فى مثل ذلك كانوا من البداة، وقد وصف الأشمونى هذه الظاهرة بالاطراد(١١٠) ولعله يقصد بذلك اطرادها فى لهجة من اللهجات العربية لا الاطراد العام فى كل اللهجات.

---

(١٠٤) الخصائص ٢/ ١٣٩-١٤٥. (١٠٥) سر الصناعة ١/ ٢٨٠.

(١٠٦) نفسه ١/ ٢٨١.

(١٠٧) التجويد والأصوات ص٨٢، والأصوات اللغوية ص١٢٣.

(١٠٨) سر الصناعة ١/ ٢١٤.

(١٠٩) وقد أورد الدكتور أنيس أمثلة من لغتنا العامية لقلب الكاف تاء مثل (استنجرية) فى إسكندرية فانتقل مخرج الكاف متجها نحو أصول الثنايا فاستبدل بها التاء، الأصوات اللغوية ص١٣٣.

(١١٠) الأشمونى ٤/ ٢٨٢، ٢٨٣.

التـاء والهـاء

من ذلك مـا يحدث حال الوقف عـلى مثل جوزة وروى كـيف البنون والبنـاه وكيف الإخوة والأخواه، وذلك شاذ وأيضـا: التابوه فى التابوت وبعضهـم يقول: اللاه فى الوقف على اللات.

والمعروف أنه - كمـا ذكر ابن جنى - يوقف على تاء التأنيث بالهـاء فى مثل فاطمة وفاتـحة إلخ، وقد أجـرى بعض العـرب على ذلك شـذوذا الوقف على تـاء جمع المـؤنث السالم بقلبها هاء وهم قبيلة طيئ(١١١)، وقد سمع بعضهم يقول: (دفن البناه من المكرماه)، ولكن الدكتور أنيس يرى أن تاء التأنيث تنقلب هاء فى الوقف ويقول:

إن هذه الظاهرة لـيست فى الحقـيقة قلب صـوت إلى آخر بل هى حـذف الآخر من الكلمـة، وماظنه القدمـاء هاء متطرفـة هى فى الواقع امتـداد فى النفس حين الـوقوف على صوت اللـين، ويصدق ذلك عـلى الأسماء الـمؤنثة المـفردة التى تـنتهى بمـا يسمى بـالتاء المربوطة، فلـيس يوقف عليها بالهـاء كما ظن النحاة بل يـحذف آخرها ويمتد التـنفس بما قبلها من صوت لين قـصير (الفتحة) فيخيل للسامع أنـها تنتهى بالهاء(١١٢) ويؤيده فى رأيه السابق الدكتور عبد الصبور شاهين إذ ليس لـرأى القدامى ما يسنده من الناحية الصوتية فلا تقارب بين تاء التأنيث والهاء(١١٣)، ولكن الملاحظة الصوتية تثبت وجود الهاء حال الوقف على الاسم المؤنث بالتاء.

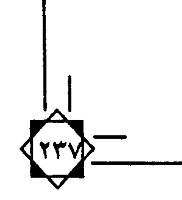
وقد أثـبت ابن جنـى لكلمـتى التـابوت والتـابوه أصلـين، فالأولـى من مادة (تـبت) والأخرى من مادة (تبـه) وأوضح - مع ذلك - أن الهاء بدل من التاء قـال: «أما ظاهر الأمر فأن يكون هـذان الحرفان من أصليـن أحدهما (ت ب ت) والآخر (ث ب هـ) ثـم من بعد هذا فالقول أن الهاء فى التابوه بدل من التـاء فى التابوت، وجاز ذلك لما أذكره وهو أن كل واحد من التاء والهاء حرف مهموس ومن حـروف الزيادة فى غير هذا الموضع، وأيضا فقد أبدلوا الهاء من التاء التى للتأنيث فى الوقف فقالوا حمزه وطلحه قائمه وجالسه وذلك منقاد مطرد فى هذه التـاء عند الوقف، ويؤكد هذا أن عـامة عقيل فيـما لا نزال نتلقاه مـن أفواهها

---

(١١١) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٠٧.

(١١٢) فى اللهجات العربية ص١٣٦.

(١١٣) القراءات القرآنية ص٨٣، والتعليق ص٣٩٦.



تقول فى الفرات الفراه بالهاء فى الوصل والوقف وزاد فى الأنس بذلك أنك ترى التاء فى الفرات تشبه فى اللفظ تاء فتاة وحصاة وقطاة فلما وقف وقد أشبه الآخر الآخر أبدل التاء هاء ثم جرى على ذلك فى الوصل(١١٤)، وذكر الجوهرى أن أصل تابوت تابوه مثل ترقوة وهى فعلوة، فلما سكنت الواو انقلبت هاء التأنيث تاء، قال ابن برى: التصريف الذى ذكره الجوهرى فى هذه اللفظة حتى ردها إلى تابوت تصريف فاسد. والمعاجم تنص على أن التاء لغة قريش والهاء لغة الأنصار، قال القاسم بن معن: لم تختلف لغة قريش والأنصار فى شىء من القرآن إلا فى التابوت، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء، وقال أبو بكر بن مجاهد التابوت بالتاء قراءة الناس جميعا ولغة الأنصار التابوه بالهاء(١١٥).

ويرى الدكتور شاهين أن الكلمة مشتركة بين العربية والعبرية وعلل ورود الوجهين بما يأتى:

١- تابوه وإن كان لغة للأنصار فهو لغة مأخوذة ولاشك من مخالطتهم لليهود بالمدينة وتأثير هؤلاء فى الحياة العربية فى المدينة قبل الإسلام معروف.

٢- تابوت يمكن تفسيره من حياة زيد بن ثابت نفسه فقد كان مهتما بتعلم السريانية والعبرانية بتأثير من النبى ﷺ وقد ذكر الخبر المروى فى ذلك أنه تعلم كلتيهما فى مدة وجيزة(١١٦). ويقول الدكتور شاهين: وإنما يعزز دعوانا بأن الأنصار أخذوا هذا النطق عن العبرية أن زيدا قرأ به وبما أثر عن النطق الآرامى من ناحية وأن العرب فى رسمهم للكلمة كانوا يحسون بأنها فى الواقع لا تشبه فتاة وحصاة وقطاة تلك الكلمات التى تكتب هاء وتنطق فى الوصل تاء، فهذه كلمات عربية خالصة، أما تلك ففيها رائحة أعجمية تميزها عنها والاحتجاج بأن عامة عقيل قالوا فى الفرات (الفراه) لا يعدو أن يكون وصفا للهجة بعيدة عن لغة الأنصار التى تعودت هذا الوجه فى كلمة بعينها مشتركة بين العبرية والعربية(١١٧).

ونحن لا نرى مانعا من عربية الكلمة فهناك العديد من الألفاظ المشتركة بين العربية وأخواتها الساميات ولا يقلل ذلك شيئا من عربيتها، ومع تسليمنا بجواز تأثر الأنصار باليهود

---

(١١٤) المحتسب ١/ ١٢٩، ١٣٠.

(١١٥) لسان العرب ١/ ٢٢٧، المحتسب ١/ ١٢٩.

(١١٦) سبع عشرة ليلة، انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ط بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م المجلد الثانى ص٣٥٨، ٣٥٩. وتوفى زيد سنة خمس وأربعين من الهجرة. المصدر السابق ٢/ ٣٦٠.

(١١٧) القراءات القرآنية ص ٣٩٥، ٣٩٦.

فى نطق تلك الكلمة نمنع وجود ذلك كلهجة عربية أصيلة فى مثل (الفراه) فى لغة عامة عقيل ووأد البناه من المكرماه، فى لغة طيئ ويمكن أن يكون ذلك جرى أولا فى حال الوقف ثم سرى إلى الوصل كما ذكر ابن جنى(١١٨)

وحديث ابن جنى عن كلمة (اللاه)، فى الوقف على اللات يؤكد أنه من باب اختلاف اللهجات فقد صرح بأن بعض العرب ينطق بذلك فى الوقف، وهذا الإبدال لهجة عربية يؤيدها لهجة طيئ السابقة، ولهجة عقيل، وربما كان نطق اللاه بهذا الوضع منسوبا إلى إحداهما، وقد ذكرت كتب اللغة أن (اللات) مشتقة من لويت عليه أى عطفت عليه وأقمت، وقيل: إنه مأخوذ من لاه الله الخلق: خلقه، وقيل غير ذلك(١١٩) وعلى الاختلاف فى اشتقاقها - بوجوهه المتعددة - اختلف فى التاء هل هى أصلية أو مبدلة من واو أو هاء والاحتمالات تجد على كل ما يسوغها.

الثاء والحاء

نفى ابن جنى أن يقع الإبدال بين الثاء والحاء، فأما قول من قال فى قول تأبط شرا:

كأنما حثحثوا حصا قوادمه … أو أم خشف بذى شث وطباق

إنه أراد: حثثوا فأبدل من الثاء الوسطى حاء فقد دفعه وقال: إنه مردود عندنا والعلة فى فساده أن أصل القلب فى الحروف إنما هو فيما تقارب منها، فأما الحاء فبعيدة من التاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها، وحثحث أصل ثلاثى وليس واحد منهما من لفظ صاحبه، إلا أن حثحث من مضاعف الأربعة وحثث من مضاعف الثلاثى فلما تضارعا بالتضعيف الذى فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما وهذا هو حقيقة مذهبنا(١٢٠) وقد مر ذلك.

وفى هذا تطبيق لمبدأ تقارب المخارج فقط، وأنه هو المعتمد لا تقارب الصفات، فالملاحظ أن الثاء والحاء متفقان فى الصفات التى هى الهمس والرخاوة والاستفال

---

(١١٨) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٠٧.

(١١٩) اللسان ٢٠/ ١٣٥ والقاموس ٤/ ٣٣٢، ٤٤٩ وقد ذكرها فى المواد الآتية: لوى، لوه، له، وقد ذكر فى (لتت) اللات مشددة التاء صنم قال: سمى بالذى كان يلت عنده السويق بالسمن ثم خفف ١/ ١٨٠.

(١٢٠) سر الصناعة ١/ ١٩٧، ١٩٨.

والانفتاح والإصمات ولكن ذلك لم يعتمده ابن جنى لبعد المخارج، وقد فسر المثال السابق بأن مادة اللفظتين مستقلة فى اشتقاقها عن الأخرى، فلا صلة بينهما إلا عند من لافطنة له بالاشتقاق وأصوله، وهذا يتضح بالرجوع إلى المعاجم اللغوية(١٢١).

ونحن مع ابن جنى فيما ذهب إليه؛ إذ لابد أن تكون المخارج متقاربة للحكم بالإبدال ولابد أيضا أن تكون الكلمتان متحدتين معنى واشتقاقا.

الثاء والذال

من ذلك:

جذوت وجثوت، قرأ فما تلعذم وما تلعثم، قَرَبٌ حذحاذ وحثحاث.

جعل ابن جنى كلا من الكلمتين فيما سبق من الأمثلة أصلا مستقلا بنفسه، وليس بدلا من صاحبه، وهذا على ما بدا له من تصرف كل منهما تصرف الآخر - بالنسبة للمثلين الأولين - وعلى ذلك فهما لغتان، يقول ابن جنى:

«وأما قولهم: جذوت وجثوت. إذا قمت على أطراف أصابعك، وقرأت على أبى على:

إذا شئت غنتنى دهاقين قرية　　　وصناجة تجذو على كل منسم(١٢٢)

فليس أحد الحرفين بدلا من صاحبه بل هما لغتان، وكذلك قولهم أيضا قرأ فما تلعثم وما تلعذم وقولهم قرب حذحاذ وحثحاث إذا كان سريعا وهو طلب الماء ليس أحدهما بدلا من صاحبه؛ لأن حثحاثا من قول تأبط شرا (كأنما حثحثوا حصا قوادمه... إلخ) أى أسرعوا به وحذحاذ من معنى الشىء الأحذ ويقال صريمة حذاء إذا كانت ماضية وحذحاذ وإن لم تكن من لفظ الأحذ فإنها قريبة منه(١٢٣).

ونحن نرى أنه لا مانع من التبادل لأن مخرجهما واحد وصفاتهما متحدة إلا فى الجهر والهمس،ولكن لنا ملاحظة على المثال الأول، فقد ادعى ابن جنى أن الجثو والجذو بمعنى واحد وهو القيام على أطراف الأصابع، وليس ذلك مسلما له ولا لمن تابعه بل إن الجثو يكون على الركب والجذو يكون على أطراف الأصابع، وبذلك اختلف معنى كل من

(١٢١) القاموس ١/ ١٦٤.

(١٢٢) دهاقين: بائع الخمر - صناجة: من تلعب بالصنج - منسم: أطراف الأصابع.

(١٢٣) سر الصناعة ١/ ٢٠٣، ٢٠٤.

اللفظين فلا إبدال بينهما، والباحث فى المعاجم يرى أن معنى جذا أعم من معنى جثا ففى مادة (جذو) يقول الفيروزابادى «جذا جذوا بالفتح وكسمو ثبت قائما كأجذى أو جثا أو قام على أطراف أصابعه»(١٢٤). فالتشابه حدث من قبيل الاتفاق فى بعض المعانى، وبهذا يعد كل منهما أصلا مستقلا لأن شرط الإبدال اتحاد المعنيين، ونحن مع ابن جنى فى المثال الثالث فقد اختلف المصدر الذى اشتق منه كل من اللفظين، فالاتفاق بينهما حدث - بعد مراحل الاشتقاق من قبيل المشاكلة اللفظية مع اختلاف أصل كل منهما، ويؤيد ذلك وجود كل من المادتين بمعان مستقلة فى قواميس اللغة.

مادة حث: حثه عليه واستحثه وأحثه وحثثه وحثحثه حضه فاحتث لازم متعد، والحثحوث الكثير والسليم والمنكرة من المعزى، والحثوث السريع أيضا وحثحث حرك والبرق اضطرب فى السحاب(١٢٥).

مادة (حذ) الحذ القطع المستأصل حذه قطعه قطعا سريعا مستأصلا، والحذذ السرعة والخفة وقيل للقطاة حذاء لقصر ذنبها مع خفتها، وسمى سقوط الوتد فى الكامل حذذا لأنه قطع سريع مستأصل وبذا قال ابن جنى: لما قطع آخر الجزء قل وأسرع انقضاؤه وفناؤه واليمين الحذاء السريعة بقتطع بها الحق(١٢٦). والأحذ الخفيف اليد والضامر والأمر الشديد المنكر(١٢٧). ففى كل من المادتين نرى اتجاها مختلفا عن الآخر، فالأولى يدور معناها حول التحاض والسرعة، والثانية حول القطع الذى قد يتسبب عنه الإسراع والخفة، فكل منهما أصل برأسه، وقد أصاب ابن جنى حين قال: إن الأولى مأخوذة من حثحث والثانية من معنى الشىء الأحذ، فاختلف الاشتقاق ولكنهما التقتا بمشاكلة لفظية على ما ترى.

الثاء والفاء

فى أول الكلمة: الفروة كالثروة - فى بعض اللغات - وهو الغنى، وثلغ رأسه وفلغه: شدخه، وفى الحديث: إذًا يفلغوا رأسي. ويروى يثلغوا رأسي، وفى حديث إسلام عمر: **(فأقبل شيخ عليه حبرة وثوب فُرْقُبِىّ)**، والفرقبية والثرقبية ثياب مصرية بيض من كتان،

---

(١٢٤) القاموس المحيط ٤/ ٣٦١، ٣٦٢.

(١٢٥) نفسه ١/ ٢٦٤. (١٢٦) اللسان ٥/ ١٥.

(١٢٧) القاموس ١/ ٣٥٢.

ويروى بقافين منسوب إلى فرقوب مع حذف الواو في النسب كسابرى في سابور[١٢٨] وغلام ثوهد وفوهد: تام[١٢٩].

ومن ذلك: ثروغ الدلو وفروغه، وفناء الدار وثناؤها وقام زيد ثم عمرو، وفم عمرو، وفوم وثوم[١٣٠].

وفي وسط الكلمة: جثلته الريح مثل جفلته، والحثالة والحفالة: أرذال الناس، وفي الحديث: **وتبقى حفالة كحفالة التمر**، أي رذالة من الناس كرديء التمر ونفايته وهو مثل الحثالة بالثاء[١٣١]. والمغافير والمغاثير، وفي حديث سحر النبي ﷺ: **«ودفن تحت راعوثة البئر»** والمشهور بالفاء وهي هي[١٣٢] والأرثة والأرفة: الحد بين الأرضين[١٣٣]. وعافور وعاثور ونفي ونثي لما نفاه الرشاء من الماء عند الاستسقاء[١٣٤].

وفي آخر الكلمة: أثاث وأثاف والجدف لغة في الجدث وهو القبر. وقد ذهب ابن جني إلى جواز وقوع الإبدال بين الثاء والفاء وأن تكون كل منهما أصلا، لكنه في بعض الأمثلة جعل الثاء هي البدل، وذلك في ثروغ الدلو وفروغه وأثاث وأثاف، وفي بعض الأمثلة الأخرى جعل الفاء بدلا من الثاء مثل: جدث وجدف وثم عمرو وفم عمرو وعافور وعاثور وفناء الدار وثنائها ونفي ونثي.

وقال بأصالة الحرفين حال اختلاف المعنى كما في ثوم وفوم. وفي المثال (ثروغ) كان واضح الرأي إذ يقول:

وقرأت على أبي علي بإسناده إلى يعقوب قال: يقال: هي فروغ الدلو وثروغها. فالثاء إذًا بدل من الفاء لأنه من التفريغ. وأما في المثال: (أثاث وأثاف) فلم يجزم بالإبدال على أساس الاحتمال الذي بدا له في الكلمتين فإذا كانت الكلمتان من مادة واحدة فلا مناص من القول بالإبدال، وإذا اختلفت المادتان فليس الإبدال أمرا محققا. قال ابن جني: «فأما قولهم في أثاف أثاث بالثاء فمن كانت عنده فُعْلِيّه فجائز أن تكون الثاء بدلا من الفاء

---

(١٢٨) النهاية ٣/ ٤٤٠ (فرقب).

(١٢٩) الجمهرة ٢/ ٣٠٤، والإبدال ١٨٢-١٨٤، والمزهر ١/ ٤٦٥.

(١٣٠) سر الصناعة ١/ ١٩١ وما بعدها.

(١٣١) النهاية ١/ ٢٣٤ (حثل).

(١٣٢) نفسه ٢/ ١٣٤.

(١٣٣) الجمهرة ٢/ ٣٣، ٦٧، والإبدال ١٨٦، والمحتسب ٢/ ٦٢.

(١٣٤) سر الصناعة ١/ ٢٤٩ وما بعدها، والمحتسب ٢/ ٦٢.

لقول النابغة: (وإن تأثفك الأعداء بالرفد) وجائز أن تكون من أث يئث إذا ثبت واطمأن؛ لأنهم يصفون الأثافى بالخلود والركود، والوجه أن تكون الثاء بدلا من الفاء أيضا لأنا لم نسمعهم قالوا أثية»[135].

ونحن نرى أن الفاء والثاء قريبا المخرج بل إن الفاء تلى الثاء فى ترتيب مخارج الحروف ويشتركان فى جميع الصفات ماعدا الذلاقة للفاء والإصمات للثاء، وهذا مما يسوغ التبادل بينهما، واللغويون يجعلون الفاء للحجازيين والثاء للتميميين[136]، وهو فى فروغ وثروغ كان موفقا إذ مادة فرغ هى الأصل والثاء بدل منها[137]، وبالبحث عن اشتقاق أثفية وجد أنها كما يقول ابن جنى: يمكن أن تكون من ثفاه يثفوه ويثفيه تبعه أو جاء فى إثره فتكون الفاء عين الكلمة ووزنها أفعولة ويمكن أن تكون من أثفت القدر فهى مؤثفة على حد قول النابغة السابق، وهو من قولك: أثفت الرجل أثفه إذا تبعته والآثف التابع، ويقال: أثف الرجل المكان إذا لم يبرحه، وتكون الهمزة فاء الكلمة والفاء لامها ووزن أثفية على هذا (فعلية) وأصلها (فعلوية) كما يقول الليث[138].وعلى أساس هذا الاشتقاق تتصل (أثاف) بـ (أثاث) أو تبتعد عنها، فعلى الاشتقاق الأول تكون أصول كلمة (أثاف) هى الثاء والفاء والياء (ثفى) واللام حذفت على حد الإعلال فى قاض ونحوه، وأما (أثاث) فإن العين (هى الثاء الأخيرة) وبهذا قد وضح إبدالها من الفاء التى هى أصل العين.

وأما على الاشتقاق الثانى (أثف) فالهمزة هى الفاء والثاء هى العين والفاء الأخيرة هى اللام، وعلى هذا الاشتقاق أيضا يتحقق الإبدال بين الثاء والفاء فى موقع لام الكلمة، على أننا عند التأمل يمكن أن نتصور أن كلمة (أثاث) ليست مشتركة مع أثاف بل هى من مادة أخرى وهى: أث يئث ويؤث إذا كثر والتف والمؤثث الموطأ الموثر[139].

وفى هذا معنى ثبات الشىء فى موضعه واستقراره فى مكانه مما يتناسب مع الأثافى التى هى الحجارة التى تنصب وتجعل القدر عليها[140] وفى ذلك معنى اطمئنان القدر

(١٣٥) سر الصناعة ١/ ١٩١.

(١٣٦) المزهر ٢/ ٢٢٤، والمخصص ١٣/ ٢٨٦.

(١٣٧) لسان العرب ١٠/ ٣٠٤.

(١٣٨) نفسه ١٨/ ١٢٢-١٢٤.

(١٣٩) القاموس ١/ ١٦١.

(١٤٠) لسان العرب ١٨/ ١٢٢.

الموضوعة على الحجارة وثباتها، وبهذا تختلف المادتان معنى واشتقاقا فلا إبدال بين الكلمتين، وربما أفاد هذا أن كلا منهما لهجة لطائفة من العرب فالأولى بالفاء حجازية والثانية بالثاء تميمية، ولكن ابن جنى على الرغم من ذلك يثبت جواز الإبدال أيضا بل يرجحه ولو مع بعد الاشتقاق؛ لأن المفرد معروف للأثافى وهو أثفية ولم يرد أثية عن العرب، ونقول له: إن ذلك ليس حجة لجواز أن تكون الكلمة التى تصور فقدانها موجودة فى الجزيرة العربية ولم يصل إليها الرواة[141].

ومن كل هذا نستطيع أن نقول: إنه إذا كانا من مادة واحدة فالإبدال مستساغ لقرب الحرفين، وأما إذا اختلفت مادة الاشتقاق فلا إبدال لأن الاتفاق حدث من التشابه بين الكلمتين فى الصورة مع اختلاف المعنى الأصلى للمادتين، ومن الأمثلة التى أوردها ابن جنى وغيرها تؤكد وقوع الإبدال بين الحرفين والثاء هى البدل، لأن المادة اللغوية عرفت فى كليهما بالفاء أو تكون كل منهما أصلا معروفا فى إحدى اللهجات العربية، فالفاء للحجاز والثاء لتميم.

وجعل ابن جنى الفاء بدلا من الثاء فى قام زيد فم عمرو وثم عمرو وجدف وجدث وقال عن الأول منهما: الفاء بدل من الثاء فى ثم، ألا ترى أنه أكثر استعمالا[142] وقال عن الثانى: والوجه أن تكون الفاء بدلا من الثاء لأنهم قد قالوا فى الجمع أجداث ولم يقولوا أجداف[143].

وقال فى المحتسب: وقد يجوز أن يكونا أصلين إلا أن أحدهما أوسع تصرفا من صاحبه[144].

وأما فناء الدار وثناؤها فقد جعلهما أصلين لاختلاف الاشتقاق فقال: وأما فناؤها فمن فنى يفنى لأنها هناك تفنى لأنك إذا تناهيت إلى أقصى حدودها فنيت وأما ثناؤها فمن ثنى يثنى لأنها هناك أيضا تنثنى عن الانبساط لمجىء آخرها وانقضاء حدودها[145].

---

(١٤١) اللهجات العربية «د» نجا ص ٥٧. (١٤٢) الخصائص ٢/ ٨٤.

(١٤٣) سر الصناعة ١/ ٢٥٠.

(١٤٤) ذكر السهيلى أن للجدف جمعا جاء فى شعر رؤبة قال:

لو كان أحجارى مع الأجداف ... تعدو على جرثومتى العوافى

ورجح السهيلى أن الجدف أصل. تاج العروس ٦/ ٤٥.

(١٤٥) سر الصناعة ١/ ٢٥٠.

وبذلك وجدنا لثاء من الاشتقاق ما وجدناه لفناء ألا ترى أن الفعل يتصرف منهما جميعا[(١٤٦)].

وهذا تفسير صحيح لأن المعنيين حينئذ قد التقيا بطريق الاتفاق والمجاز، وأما عافور وعاثور فقد جوز - كما ذهب يعقوب بن السكيت - أن تكون الفاء بدلا من الثاء، وجوز أن يكون قولهم وقعوا فى عافور فاعولا من العفر لأن العفر من الشدة أيضا، ولذلك قالوا: عفريت لشدته ويشهد لهذا قولهم: وقعنا فى عفرة أى اختلاط وشدة، وبذلك يكون كل منهما أصلا لاختلاف الاشتقاق/وجوز فى نثى ونفى الوجهين أيضا فقال: أما قولهم لما نفاه الرشاء عند الاستقاء نفى ونثى فأصلان أيضا لأنا نجد لكل واحد منهما أصلا نرده إليه واشتقاقا نحمله عليه. فأما النفى ففعيل من نفيت لأن الرشاد ينفيه ولامه ياء بمنزلة رمى وعصى، وأما النثى ففعيل من نثا الشىء ينثوه إذا أذاعه وفرقه لأن الرشاء يفرقه وينشره ولام الفعل واو لأنها لام نثوت وهو بمنزلة سرى ومضى/وقد يجوز أن تكون الثاء بدلا من الفاء[(١٤٧)]، ويؤنسك بجواز كون الثاء بدلاً من الفاء إجماعهم فى بيت امرئ القيس:

ومر على القنان من نَفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل

على الفاء ولم نسمعهم قالوا نثوانه[(١٤٨)].

والذى نراه أنه لا مانع من التبادل بين الفاء والثاء للعلاقة الصوتية بينهما فهما شفويان ومتفقان فى جميع الصفات ماعدا الذلاقة للفاء والإصمات للثاء والمعروف أن الحجازيين يميلون إلى الفاء على حين يميل التميميون إلى الثاء.

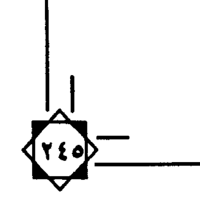
وتجويز ابن جنى للإبدال والأصالة فى المثالين السابقين أمر مقبول له ما يسوغه من الناحية اللغوية، أما حكمه بأن الثاء هى الأصل لأنها أكثر تصرفا، فقد أيده بعض المحدثين لعدم النطق بالثاء فى العبرية والآرامية[(١٤٩)]، ولكن هذه اللغات ليست حجة على العربية لحدوث تطور فيها، فيجوز أن تكون كل منهما هى الأصل أو أن كل لفظة منهما نشأت فى بيئة لغوية خاصة الفاء للحجاز والثاء لتميم فمقياسه السابق غير منضبط على ما شرحنا.

---

(١٤٦) نفسه ١/ ٢٤٨. (١٤٧) نفسه ١/ ٢٥١.

(١٤٨) نفسه ١/ ٢٥٢ وفى رواية: نثيانه.

(١٤٩) لغة تميم. د. ضاحى عبد الباقى ص١١٠، ١١١.



وأما الفوم والثوم فليست الفاء عنده بدلا من الثاء فقد قال: والصواب عندنا أن الفوم الحنطة وما يختبز من الحبوب يقال: فومت الخبز أى خبزته وليست الفاء على هذا بدلا من الثاء(١٥٠).

وكل ما ذكره ابن جنى عن هذه الأمثلة نقلته المعاجم العربية(١٥١) نصا. وقد روى ابن منظور عن الفراء أن الفوم مما يذكرون لغة قديمة وهى الحنطة والخبز معا قال: وهى فى قراءة عبد الله (وثومها)(١٥٢) بالثاء، قال: وكأنها أشبه المعنيين بالصواب؛ لأنه على ما يشاكل من العدس والبصل، والعرب تبدل الفاء ثاء فيقولون جدف وجدث للقبر، ووقعوا فى عافور شر وعاثور شر(١٥٣) ولكن اختلاف معنى اللفظين يؤكد عدم الإبدال كما ذهب إليه ابن جنى، ووجد فى معاجم اللغة ففيها: الفوم: الزرع أو الحنطة وأزد السراة يسمون السنبل فوما، وقال بعضهم: الفوم الحمص لغة شامية، والفوم الخبز أيضا. يقال: فوموا لنا أى اختبزوا(١٥٤).

وعن أبى زيد قال: تميم تقول: تلثمت على الفم وغيرهم يقول: تلفمت، وقال الفراء: إذا كان على الفم فهو اللثام وإذا كان على الأنف فهو اللفام(١٥٥).

وإذا صح النقل فالمعنى مختلف ولا إبدال بينهما ولا نتفق مع من قال من المحدثين بأنه لا يعتد فرقا فى الدلالة بينهما وإنما المسألة ترجع فى رأيه إلى اختلاف عادات القبائل بأن يكون التلثم على الفم أو الأنف(١٥٦) ويقول الفراء: وسمعت كثيرا من بنى أسد يسمى المغافير المغاثير(١٥٧) ويقول ابن السكيت: وأسد تقول مغثور(١٥٨) وكرثأ شعر الرجل. كثر والتف فى لغة بنى أسد(١٥٩).

---

(١٥٠) نفسه ١/ ٢٥٢.

(١٥١) انظر لسان العرب ٣/ ٤٣٣، ٦/ ٢١٣، ١٤/ ٣٤٨، ١٥/ ٣٥٨، ١٨/ ١٣٤، ٢٠/ ٢٤، والقاموس ٢/ ٨٥، ٩٢، ٣/ ١٢٢، ٤/ ١٠١، ١٨٧، ٤٣٦، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٦٠.

(١٥٢) سور البقرة الآية ٦١.

(١٥٣) لسان العرب ١٥/ ٣٥٨، وانظر التهذيب ١٥/ ٥٧٣.

(١٥٤) نفسه ١٥/ ٣٥٨ والقاموس ٤/ ١٧٨ والأستاذ برجستراسر يوافق الفراء فى إبدال الفاء من الثاء فى فوم وثوم لأن الثوم بالعبرية Sum وبالآرامية Tum بالشين والتاء الناشئتين عن الثاء - التطور النحوى ٢٣، ٢٤.

(١٥٥) التهذيب ١٥/ ١٠١، ١٥/ ٣٦٧، ٣٦٨. (١٥٦) لغة تميم ص١٣٣.

(١٥٧) معانى القرآن ١/ ٤١ وهو صمغ يسيل من شجرة الرمث وهو حلو يؤكل.

(١٥٨) القلب والإبدال ص٣٥.

(١٥٩) اللسان: كرثأ.

وقد جاءت النسبة بعكس ذلك فنسب الجدث بالثاء للحجاز فقد قرأ عبد الله بن مسعود ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[١٦٠] (من كل جدث) هو القبر بلغة أهل الحجاز والجدف بالفاء لتميم كما قال ابن جنى[١٦١].

ولا مانع - كما ذكرنا - من وقوع التبادل بين الثاء والفاء للقرب فى المخارج والاتفاق فى بعض الصفات، وتحديد صوت معين لقبيل خاص من العرب - فيما اتفق معناه واشتقاقه - غير دقيق فقد تصل لنا نسبة بعض الكلمات بالثاء للحجاز كما نسبت بعضها كذلك لتميم، فالأثافى مثلا فى لغة تميم الأثاثى فالثاء منسوبة لتميم والفاء للحجاز[١٦٢] وورد عكس ذلك، وبعض الكلمات الواردة بالثاء نسبت لكلا الفريقين، وعلى هذا فتحديد صوت معين بالحجاز أو تميم أمر غير دقيق والمسألة على الجواز بين الفريقين.

الجيم والحاء

من ذلك: حفأ به الأرض: ضربها به والجيم لغة وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد، ذهبوا وجاءوا، ودعاهم الجفلى والحفلى أى بجماعتهم والجيم أكثر، وأجمّ الأمر والفراق: دنا وحضر لغة فى أحمّ، والعلاقة الصوتية بعيدة بين الحاء والجيم فهما لغتان مع الربط بينهما لملابسة ما وربما دخل ذلك التصحيف[١٦٣].

الجيم والخاء

جلع وخلع: ترك الحياء وتكلم بالقبيح، وجلع ثوبة، وخلعه بمعنى[١٦٤].

الجيم والشين

من أمثلة ذلك: **(إذ ذاك إذ حبل الوصال مدمش)**.

صرح ابن جنى بأن أصل (مدمش) (مدمج) فالشين بدل من الجيم[١٦٥] واتحاد المخرج بينهما والاتفاق فى بعض الصفات إذ هما من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ومتفقان فى الاستفال والانفتاح والإصمات يبيح التبادل بينهما، ولكنهم قالوا: إنه لم يوجد مثال آخر لذلك، وقال ابن عصفور: إنه أبدل الجيم شينا لتتفق القوافى

---

(١٦٠) سورة الأنبياء الآية ٩٦.
(١٦١) المحتسب ٢/ ٦٦ والبحر ٦/ ٣٩.
(١٦٢) المزهر ١/ ٤٦٥.
(١٦٣) من أسرار اللغة ٥٢.
(١٦٤) اللسان ٨/ ٤٠٢، ٤٣٠.
(١٦٥) سر الصناعة ١/ ٢١٥.

ولا يحفظ غيره[١٦٦] ولم ينبه ابن جنى على ذلك، ولعل منه ما جاء فى المثل: شر ما أشاءك[١٦٧] أى ما أجاءك أى ألجأك واضطرك إلى المجىء فأشاءه: لغة فى أجاءه وتميم تقول: شر ما يشيئك إلى مخة عرقوب.

الجيم والقاف والكاف

من ذلك: القريث لغة فى الجريث وهو نوع من السمك[١٦٨]، وريح سيهك وسيهج:[١٦٩] شديدة ورجل عريض الكبهة والجبهة، ويقال فى عمك: عمج، ومن ذلك ما ورد فى حديث عائشة أنها **(استأذنت النبى ﷺ فى دخول أبى القعيس عليها فقال: ائذنى له فإنه عمج)** يريد عمك من الرضاعة، فأبدل الكاف جيما[١٧٠].

ويرى بعض اللغويين فى تفسير ذلك الإبدال أن هذه الجيم التى جاءت مكان القاف أو الكاف هى جيم عربية خالصة وأن إبدالها من الصوتين السابقين جائز لوقوعه فى بعض كلمات العربية ولتجاور مخرج الجيم ومخرجى القاف والكاف.

ويرى آخرون أن هذه الجيم هى أحد الحروف الفرعية التى مخرجها بين الجيم والقاف أو بين الجيم والكاف، وهى من الحروف غير المستحسنة التى لا تقع فى القرآن ولا فى الشعر الفصيح[١٧١].

وذكر ابن دريد أن للعرب حروفا لا تتكلم بها إلا ضرورة فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها مثل الحرف الذى بين القاف والكاف والجيم والكاف وهى لغة سائر اليمن[١٧٢].

وذكر ابن فارس أن هذه الحروف ترجع إلى اللغات فهى لغة لقوم[١٧٣]، واستأنس بعض المحدثين لذلك بوجود الجيم الكافية التى كانت – فى رأيهم – أصلا للجيم المعطشة كما نرى فى الجيم الشامية والجيم القاهرية[١٧٤]، وأساس هذا

---

(١٦٦) الأشمونى مع العينى ٤/ ٣٣٥.

(١٦٧) مجمع الأمثال ٢/ ١٥١، واللسان: (جيأ وشيأ).

(١٦٨) اللسان (قرث).

(١٦٩) القلب والإبدال لابن السكيت ص٣٨.

(١٧٠) النهاية ٣/ ٣٠٣ (عم).

(١٧١) الكتاب ٤/ ٤٣٢.

(١٧٢) مقدمة الجمهرة ٤، ٥.

(١٧٣) الصاحبى ص٣٧، ٣٨.

(١٧٤) الأصوات اللغوية ص٨٥.

الرأى ما ذكره المستشرق برجستراسر من أن الجيم - عند أكثر العرب - كانت بسيطة مجهورة شديدة مثل نطقها الآن عند المصريين، وأنها كانت تمثل الكاف التركية فى مثل كلمة: كاه(١٧٥).

وهذا فى رأيهم يسوغ التبادل بين الجيم والقاف والكاف، وفى رأينا أن الجيم العربية لها طابع خاص يختلف عما رأى برجستراسر ومتابعوه والدليل التاريخى غير متحقق بين أيدينا وإن كان القول بالتطور متمثلا فيما قبل عصر تهذيب اللغة.

وقد ذكر الخطابى أن إبدال الكاف جيما فى الحديث تصحيف من نقلة الحديث؛ لأن الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه اللهجات المضعوفة وإنما يتكلم باللغة العالية.

ونرى أنه لا مانع من نطقه بذلك كما يرى العلماء، فالرسول ﷺ كان يخاطب العرب بلغاتهم، كقوله: ليس من امبر امصيام فى امسفر وغير ذلك، وقد نسب هذا الإبدال - كما رأينا - إلى بعض العرب وهم طائفة من اليمن(١٧٦).

الحاء والخاء

من أمثلته: الرحم: القرابة والرخم بالكسر مثله، وذهب سيبويه إلى أن هذا مطرد فى كل ما ثانيه من حروف الحلق وهو لغة بكر، وكذلك رحمه رحمة، قال الليث: زعم أبو زيد الأنصارى أن من أهل اليمن من يقول: رخمته رخمة يعنى رحمته رحمة، ويقال: ألقى الله عليك رحمة فلان أى عطفه ورقته قال: وسمعت أعرابيا يقول: هو راخم له(١٧٧) ومنه: يتخوف مالى ويتحوفه: يتنقص ويأخذ من أطرافه، وقرأ يحيى بن يعمر وعكرمة وابن أبى عبلة ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سبحا طَوِيلاً﴾(١٧٨) بالخاء، وقال الفراء: إنه سأل أبا زيد الكلابى عن هذا الحرف فقال: أهل باديتنا يقولون: سبخ عنه: للمريض والملسوع ونحوه. ومن ذلك: الحلتيت بالحاء والخاء يقوله البحرانيون لصمغ يقال له الأنجزد(١٧٩) ويقول الليث:

---

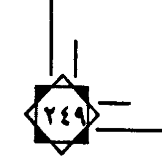
(١٧٥) التطور النحوى ص٩.

(١٧٦) النهاية ٣/ ٣٠٣.

(١٧٧) التهذيب ٧/ ٣٨١، ٣٨٢، واللسان ١٥/ ١٢٥، والصحاح ٥/ ١٩٢٩، ١٩٣٠.

(١٧٨) المزمل ٧، وانظر البحر ٨/ ٣٨٣، ومعانى القرآن ٣/ ١٩٧.

(١٧٩) التهذيب ٧/ ٢٩٨، ٢٩٩ (حلت).



الحلتيت الأنجزد، والذى حفظته عن البحرانيين الخلتيت[١٨٠] بالخاء، والحثرمة: الدائرة التى عند الأنف وسط الشفة العليا وسمعت - عن أبى حاتم - بالخاء وهما لغتان[١٨١].

ويقول الأزهرى: قال الليث: الفخيخ دون الغطيط تقول: سمعت له فحيحا والأفعى له فخيخ. قلت: أما الأفعى فإنه يقال فى فعله: فح يفح فحيحا بالحاء، ثم يعقب الأزهرى بقوله: ولم أسمع لأحد فى الأفعى وسائر الحيات فخيخ بالخاء، وهو عندى غلط، اللهم إلا أن تكون لغة لبعض العرب لا أعرفها، فإن اللغات أكثر من أن يحيط بها رجل واحد[١٨٢].

وقال ابن جنى: إن الحاء لا تكون بدلا أبدا إلا فيما شذ عنهم[١٨٣] مثل إبدالها من الخاء. أنشد ابن الأعرابى:

ينفحن منه لهبا منفوحا   لمعا يُرى لا ذاكيا مقدوحا

قال: أراد منفوخا فأبدل الخاء حاء قال: ومثله رؤبة:

غمر الأجارى كريم السنح   أبلج لم يولد بنجم الشّح

قال: يريد السنخ[١٨٤].

وقد بنى ابن جنى رأيه على عدم ورود أمثلة من هذا الإبدال ويقول العلماء: إن ذلك لم يرد إلا فى الشعر - شاذا - ليوافق الشاعر بين روى أبيات القصيدة إذا كانت حائية، فقد أراد الشاعر الأول ينفخن ومنفوخا بالخاء المعجمة فيهما فقالهما بالحاء المهملة ليوافق روى الرجز كله لأنه حائى، وأنا أرجح أن الإبدال غير واقع هنا على الرغم من قرب المخارج والصفات - لأن الضبط مختلف فينفخ بضم الفاء وينفخ بفتحها، فالأول من نفخ، والثانى من نفح، والنفح يناسب النار أيضا إذ منه يشتد اللهب ويقوى اشتعاله، ففى القاموس (نفح الطيب كمنع فاح والريح هبت) وهذا مما يناسب النار، ويقال نفخ بفمه أخرج منه الريح، فعلى هذا كل منهما مادة مستقلة وليست الحاء بدلا من الخاء على سبيل الشذوذ أو الضرورة[١٨٥] على أن الحاء تبدل من الخاء لتناسب المعانى كما فى النضح

(١٨٠) نفسه ٤/ ٤٤١ (خلت).

(١٨١) نفسه ٥/ ٣٣٣ (حثرم)، ٧/ ٦٨٩ (خثرم).

(١٨٢) التهذيب ٧/ ١٠.   (١٨٣) سر الصناعة ١/ ١٩٦.

(١٨٤) المصدر السابق ١/ ١٩٦، ١٩٧، وسنخ كل شيء أصله.

(١٨٥) ولكل من المادتين معان أخرى. القاموس ١/ ٢٩٩، ٣٢٠.

والنضخ[١٨٦]، ولا مانع من الناحية اللغوية لهذا الإبدال حيث توجد المسوغات ولكن الذى جعل ذلك شاذا - فى نظر العلماء - هو عدم استعمال كلمات من هذا النوع إلا أن الشعراء ربما اضطروا إلى هذا الإبدال كما حدث فى المثال الثانى على وجه التأكيد «فقد أبدل الحاء من الخاء لمكان الشح وبعضهم يرويه بالخاء لأنهما جميعا حرفا حلق»[١٨٧].

وقال ابن جنى إن الخاء لا تقع بدلا ونفى أن تكون الخاء فى خمص الجرح بدلا من الحاء فى حمص قال: فأما ما قرأته على أبى علىّ عن أبى بكر عن بعض أصحاب يعقوب من أن أبا زيد قال خمص الجرح يخمص خموصا وحمص يحمص حموصا وانخمص انخماصا. قال أبو على: وانحمص انحماصا، ذكره أبو زيد فى مصادره إذا ذهب ورمه فلا يكون الحاء فيه بدلا من الخاء ولا الخاء بدلا من الحاء، ألا ترى أن كل واحد من المثالين يتصرف فى الكلام تصرف صاحبه فليست لأحدهما مزية من التصرف والعموم فى الاستعمال يكون بها أصلا لصاحبه[١٨٨]، وقد طبق ابن جنى قاعدته التى قال بها فى الإبدال هنا وهى الاعتماد فى معرفة الأصل والفرع على كثرة التصرف وشيوع الاستعمال فلتساوى اللفظين عدهما من اختلاف اللهجات، وقد قلنا إن تلك القاعدة غير دقيقة فلابد من نظرة واعية لمعرفة صحة النتائج وعدمها، فالباحث فى المعاجم يرى لكل مادة منهما معانى مستقلة عن الأخرى فى بعض جوانبها، فمادة حمص هى: حمص الجرح: سكن ورمه حمصا وحموصا، والأرجوحة سكنت فورتها والقذاة أخرجها من عينه برفق، والحمص: أن يترجح الغلام على الأرجوحة من غير أن يرجح، وذهاب الماء عن الدابة، والأحمص: اللص يسرق الحمائص جمع حميصة وهى الشاة المسروقة، وحمص تحميصا: اصطاد الظباء نصف النهار، وانحمص: انقض وتضاءل[١٨٩]، فكل المعانى التى ذكرها - غير سكون الورم للجرح والانقباض والتضاؤل - لا تمت لمعنى التضاؤل بصلة إلا على سبيل التشبيه والمجاز، وهى كثيرة بل منها ما لا يمكن أن يمت بأية صلة، لذلك مثل ترجح الغلام واصطياد الظباء نصف النهار، ومادة (خمص) تدل كلها على معنى

---

(١٨٦) اللسان ٣/ ٥٠٤.

(١٨٧) انظر فى أقوال العلماء: شرح شافية ابن الحاجب للرضى ٣/ ١٢٠.

(١٨٨) سر الصناعة ١/ ١٩٩، لسان العرب ٨/ ٢٩٧.

(١٨٩) القاموس ٢/ ٢٩٩.

التضاؤل وأغلبها على سبيل الحقيقة لا المجاز، وهذه المعانى هى: خمص الجرح وانخمص: سكن ورمه والخمصة: الجوعة وبطن من الأرض صغير لين الموطئ والمخمصة: المجاعة وقد خمصه الجوع خمصا ومخمصة وخمص البطن مثلثة الميم: خلا، وخميص الحشا: ضامر البطن، وتخامص عنه: تجافى، والليل رقت ظلمته عند السحر والأخمص من باطن القدم: ما لم يصب الأرض(١٩٠).

فإذا كان لكل منهما معان مستقلة على هذا النحو فلا ريب أن كلا منهما لغة مستقلة فلا إبدال بينهما واتفاقهما من قبيل التوسع المعنوى إذ معنى التضاؤل والضمور واضح فى مادة (خمص) على سبيل الحقيقة، أما معانى مادة (حمص) من صيد الحمائص وسرقتها والتأرجح وغير ذلك فلا يمكن اتصالها بمعنى التضاؤل والضمور(١٩١) إلا من طريق بعيد وإذا اختلف معنى المادتين فأولى بهما ألا يكون للإبدال إليهما سبيل إذ الشرط التقاء المعانى على سبيل الحقيقة، وعلى فرض التسليم بوجود المادتين يمكن - أيضا - أن يكون التصحيف سرى إليهما فنشأت إحدى المادتين عن الأخرى.

وما نسب فى بعض الأمثلة إلى بنى بكر دليل على ذلك إن صح يدخل فى اختلاف اللهجات.

الحاء والعين

العرجلة: القطيع من الخيل وهى فى لغة تميم الحرجلة(١٩٢)، فالعين بدل من الحاء وقد يستعمل العربى ما غيره أقوى منه، فالتميميون استخدموا الحاء المهموسة، ويدعى بعض الباحثين أن الكلمة (حرجل) آرامية وأنها الصيغة القدمى(١٩٣) تظورت عند غير تميم.

---

(١٩٠) القاموس ٢/ ٣٠١.

(١٩١) ومع أخذ ابن جنى له من الشىء الخميص الضامر فى الأول والحمصة لأنها صغيرة مجتمعة فى الثانى فإننا نجاهد أن الاشتقاق الأول على سبيل الحقيقة لأن ضمور البطن قد يكون بعد التضخم أما الحمصة فإنها باقية على حال الضمور منذ بدء وجودها، سر الصناعة ١/ ١٩٩.

(١٩٢) التهذيب ٣/ ٣٢٠ (رباعى العين).

(١٩٣) الدخيل فى اللغة العربية بحث منشور بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة. م ١٠ ج ٢ص١٠٣.

ولست مع صاحب هذا الرأى لأن العربية أقدم من الآرامية. ومن ذلك أيضا بعثرت وبحثرت لغتان[١٩٤]. وقرأ عبد الله بن مسعود ﴿إذا بحثر ما فى القبور﴾ وقال الفراء: سمعت بعض أعراب بنى أسد يقرؤها (بحثر)[١٩٥].

وقد فضل التميميون الحاء هنا على العين خلافا للنظريات الحديثة التى تجعل البدو يفضلون الأصوات المجهورة والشديدة.

الخاء والغين

من أمثلة ذلك ما جاء من نحو: خمر الناس وخمرتهم وخمارهم: جماعتهم وكثرتهم، لغة فى غمر الناس وغمارهم والخمرة لغة فى الغمرة[١٩٦]. وأمرغ العجين: أكثر ماءه لغة فى أمرخه فلم ييبسه[١٩٧]. وخطر بيده يخطر وغطر يغطر.

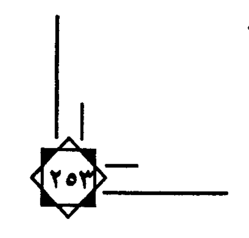
وقد تردد ابن جنى فى إثبات الإبدال بين الخاء والغين فأتى بلفظ (كأن) التى تدل على هذا التردد ولم يتبع مقياسه فى بيان الأصالة والفرعية المبنى على الشيوع والاستعمال، قال: (وقالوا: خطر بيده يخطر وغطر يغطر، فالغين كأنها بدل من الخاء لكثرة الخاء وقلة الغين، وقد يجوز أن يكونا أصلين إلا أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه)[١٩٨].

ونفهم من كلامه أنه متردد بين أن تكون الغين بدلا من الخاء أو تكون كل منهما أصلا فى إحدى اللهجات.

وقد أخل بمقياسه لحكمه بأن كلا من اللفظين لغة على الرغم من أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه.

وظاهر أن العلاقة الصوتية بين الخاء والغين تسوغ التبادل بينهما فكلاهما من حروف الحلق من أدناه وتتفق الخاء والغين فى الرخاوة والاستعلاء. ويبدو أن ذلك الاختلاف ناشىء عن اختلاف اللهجات فكل منهما لقبيل من العرب والغين للبدو لميلهم إلى الحروف المجهورة والمستعلية، والخاء للحضر وهو المشهور فى كتب اللغة.

(١٩٤) التهذيب ٣/ ٣٦٠ (رباعى العين).
(١٩٥) معانى القرآن للفراء ٣/ ٢٨٦.
(١٩٦) اللسان (خمر).
(١٩٧) السابق (مرغ).
(١٩٨) سر الصناعة ١/ ٢٤٧.



الخاء والقاف

ورد التبادل بين الخاء والقاف فى قولهم: المخصل: القطّاع من السيوف وغيرها لغة فى المِقصل ولعل بين الصوتين تجاورا فى المخارج، فالخَاء من أدنى حروف الحلق إلى الفم والقاف من أقصى اللسان وهما وإن اختلفا فى الجهر والهمس والرخاوة والشدة فالقاف مجهورة والخاء مهموسة والقاف قليلة الشدة والخاء رخوة، فإن بينهما تشابها فى بعض الصفات كالاستعلاء مما يسوغ التبادل بينهما.

ويمكن أن ينشأ التبادل لتداخل الصوتين وقرب مكانيهما أو لعدم تدقيق الناطق واحتراسه حال نطقه فسمع كذلك، أما احتمال التصحيف في ذلك فإنه مبنى على الكتابة، وهذا وإن كان جائزا فإنه لا ينبغى الأخذ به إلا بدليل.

ومع هذا فالناطق بالقاف قبيل من العرب ربما كان من البدو على حين أن الناطق بالخاء قبيل آخر ربما كان حضريا لهمس الخاء ورخاوتها.

الدال والذال

من ذلك: خردلت اللحم وخرذلته، - بالدال والذال - أى فصلت أجزاءه وقطعته.

وفى الحديث عن أهل النار **(فمنهم الموبق بعمله ومنهم المخردل)** والمقصود: المرمى المصروع أو المقطع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوى فى النار[199]. ويقال: داف الجريح ودفف عليه، أى أجهز عليه يروى بالدال والذال بمعنى، وفى حديث ابن مسعود أنه **(داف أبا جهل يوم بدر)** أى أجهز عليه وتمم قتله، وفى رواية: قعص ابنا عفراء أبا جهل ودفف عليه ابن مسعود[200]. وقال ﷺ لبلال: **(إنى سمعت دفّ نعليك فى الجنة)** أى صوتهما عند الوطء عليهما ويروى بالدال والذال[201]. ويقال: دوخه الأسر وهو المشهور وديّخه بالدال، وبعضهم يرويه بالذال المعجمة وهو لغة شاذة[202]، والذام: العيب يروى بالدال والذال، وقد قالت عائشة رضى الله عنها لليهود: **(عليكم السام والذام)**،

(١٩٩) النهاية ٢/ ٢٠.

(٢٠٠) المصدر السابق ٢/ ١٢٥، وقَعَصَه قَعْصًا: طعنه بالرمح طعنا سريعا، وقتله مكانه.

(٢٠١) المصدر السابق ٢/ ١٦٢ (ذفف). (٢٠٢) المصدر السابق ٢/ ١٤٧ (ديخ).

ويهمز ولا يهمز[٢٠٣]، والتدبيح - بالدال المهملة - وهو المشهور ويقال بالذال وفى الحديث: (نهى عن التذبيح) بالذال، هكذا جاء فى رواية[٢٠٤]، ومدكر - بالدال والذال - قرأ ابن مسعود: ﴿فهل من مذكر﴾ بالذال[٢٠٥]. و(شرد) رويت بالدال والذال، قرأ الأعمش: ﴿فشرذ بهم من خلفهم﴾[٢٠٦] بالذال[٢٠٧].

ونقل أبو الطيب اللغوى: وقال أبو عمرو: ما ذاق عدوفا وما ذاق عذوفا أى ما ذاق شيئا[٢٠٨].

وذبرت الكتاب أذبره ذبرا: إذا كتبته، وحكى اليزيدى دبرته أدبره دبرا بالدال غير المعجمة[٢٠٩]. ويقال: غلام جادل وجاذل إذا ترعرع وكبر[٢١٠] ومرد الخبز ومرذه: أى مرثه.

ويتضح مما سبق أن كلمات رويت بالوجهين الدال والذال، ويشير اللغويون إلى شهرة إحداهما وقلة الأخرى كأن يقال: (يروى بالذال وليس بالكثير) أو والمشهور بالدال أو يشار أحيانا إلى اختلاف الدلالة كأن يقال: والعدوف: العلف فى لغة مضر بالدال.

وربما كان للتصحيف أثر فى بعض هذه الكلمات المتبادلة، قال أبو حسان: سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول: ما ذقت عدوفة قال: وكنت عند يزيد بن مزيد الشيبانى فأنشد بيت قيس بن زهير:

ومجنبات ما يذقن عدوفة   يقذفن بالمهرات والأمهار

بالدال فقال لى يزيد: صحفت أبا عمرو وإنما هى عذوفة بالذال فقلت له: لم أصحف أنا ولا أنت. تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال[٢١١].

وينقل الأزهرى عن الليث عن أبى الدقيش (القشذة) - بالذال المعجمة-: الزبدة

---

(٢٠٣) المصدر السابق ٢/ ١٥١ (ذأم).

(٢٠٤) المصدر السابق ٢/ ١٥٤ (ذبح) ودبّح فى ركوعه بسط ظهره وطأطأ رأسه فكان أكثر انخفاضا من عجزه.

(٢٠٥) من الآية ١٥ من سورة القمر.

(٢٠٦) من الآية ٢٧ من سورة الأنفال.

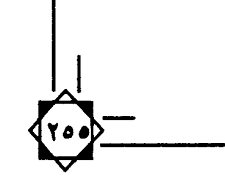
(٢٠٧) البحر ٤/ ٥٠٩، والإتحاف ٢٣٨.

(٢٠٨) الإبدال ١/ ٣٥٣.

(٢٠٩) المصدر السابق ١/ ٣٥٣.

(٢١٠) المصدر السابق ١/ ٣٥٤.

(٢١١) اللسان (عدف).



الرقيقة، ثم يقول الأزهري: وأرجو أن يكون ما روى عن أبي الدقيش صحيحا والمحفوظ عن الثقات (القشدة) بالدال ولعل الذال فيها لغة لم تبلغنا(٢١٢).

وقد نسبت الدال لكثير من القبائل البدوية والذال للمتحضرين كربيعة ومن تأثر بالحضر من البدو وكإياد والنمر(٢١٣) وبعض بنى أسد، فقد روى الفراء أن بعض بنى أسد يقولون (مذكر) فيقلبون الدال ذالا مشددة.

الدال والطاء

من ذلك قرمد الكاتب فى الكتابة، جعلها دقيقة متقاربة الحروف والسطور، وقرمط لغة فيه.

الوخد: سرعة السير والوخط لغة فيه.

الدحو: البسط والطحو لغة فيه.

سدح الناقة: أناخها ويقال: سطحها لغة فيه أو بدل.

وبين الطاء والدال علاقة فكلاهما من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وتتفقان فى بعض الصفات كالشدة مما يسوغ التبادل بينهما، والطاء للبدو لاستعلائها والدال للحضر لاستفالها.

الذال والظاء

أورد ابن جنى من أمثلة ذلك، تركته وقيذا ووقيظا.

وحكم بإبدال الظاء من الذال وحكمه بالتبادل صحيح لاتفاقهما فى المخرج والصفات ما عدا الاستعلاء والإطباق فى الأول والاستفال والانفتاح فى الثانى إلا أنه جعل الذال أصلح لأنها أعم تصرفا لقوله عز اسمه «والموقوذة» بالذال.

ولقولهم: وقذه يقذه ولم يسمع: وقظه ولا موقوظة(٢١٤).

---

(٢١٢) التهذيب ٨/ ٣١١.

(٢١٣) فى اللهجات العربية د. أنيس ص١٠١.

(٢١٤) سر الصناعة ١/ ٢٣٣.

وهذا معروف عنه من الحكم بالأصالة والفرعية تبعا للشيوع وعدمه، ولكنه غير دقيق فقد ذكر الفيروزابادي: وقظه كوعده: وقذه وعلى الأمر: دام ووقظ به رأسه بالضم كوقط بالطاء، والوقيظ المثبت الذى لا يقدر على النهوض(٢١٥).

فالمادة الثانية متصرفة أيضا، واللائق بالأمر أن تكون بالظاء فى بيئة بدوية تميل إلى التفخيم والأصوات المستعلية المطبقة وأن تكون الذال من خصائص بيئة حضرية تميل إلى الترقيق والأصوات المستفلة المنفتحة.

الراء والزاى

البزخ: الجرف وبلغة عمان هو البرخ بالراء.

الفزغز: الشدق فى بعض اللغات والراء لغة.

رغل الصبى يرغل: إذا أخذ ثدى أمه فرضعه مسرعا ويروى بالزاى لغة فيه.

أزمتهم السنة أزما: استأصلتهم،وقال شمر: إنما هو أرملتهم بالراء وأزمت الحبل والعنان والخيط وغيره آزمه أزما: أحكمت فتله وضفره بالراء والزاى جميعا والراء أعرف.

وكلا الصوتين من طرف اللسان إلا أن أحدهما - وهو الراء - مع اللثة العليا، والثانى - وهو الزاى - مع أصول الثنايا السفلى ويختلفان فى الصفات، فالراء تمتاز بالتكرير، والزاى بالصفير، ومع اتفاقهما فى بعض الصفات يبدو أن كلا منهما فى بيئة خاصة.

وجائز أن يكون للتصحيف أثر فى نشأة إحدى الصيغتين عن الأخرى، ولعل الراء هى الأصل كما يتبين من الروايات السابقة المرجحة لكون الكلمة بالراء على أنها الأعرف والأشهر.

الراء واللام

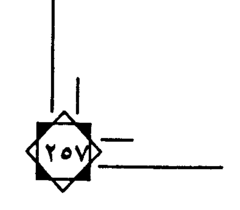
من الكلمات التى جاءت بالراء واللام: جرَف الخبز أو جلَفَه أى كسَره، وفى الحديث: **(ليس لابن آدم إلا بيت يكنه وثوب يواريه وجرف الخبز)** أى كسره والواحدة جرفة ويروى باللام بدل الراء(٢١٦).

ومن ذلك: يُزرّف ويُزلّف يعنى يَزيد.

---

(٢١٥) القاموس ٢/ ٤٠٠.

(٢١٦) النهاية ١/ ٢٦٢ (جرف).



وفى حديث قرة بن خالد (**كان الكلبى يُزرِّف فى الحديث**) أى يزيد فيه مثل يُزلِّف[217] وتعطّر النساء وتعطّلهن.

(**وكان ﷺ يكره تعطّر النساء وتشبّههن بالرجال**) أراد العطر الذى يظهر ريحه كما يظهر عطر الرجال، وقيل أراد تعطّل النساء باللام وهى التى لا حلى عليها ولا خضاب واللام والراء يتعاقبان[218].

والعاذر: العِرْقُ الذى يسيل منه دم الاستحاضة ويروى العاذل باللام.

وفى حديث ابن عباس: (**وسئل عن الاستحاضة فقال: ذلك العاذل يغزر**) أى يسيل، وذكر بعضهم العاذر بالراء، وقال: العاذرة: المرأة المستحاضة فاعلة بمعنى مفعولة من إقامة العذر، ولو قال العاذر العرق نفسه لكان وجها إلا أن المحفوظ العاذل باللام[219].

ويقال: سهم أمرط وأملط.

وفى حديث أبى سفيان (**فأمرط قُذَذُ السهم**) أى سقط ريشه[220].

ويقال: اعتكار الأمور واعتكالها: أى اختلاطها والتباسها[221].

ويقال: عيهر وعيهل للناقة[222]، وفرق وفلق والوجر والوجل وهو الفزع[223] وانخرعت كتفه وانخلعت[224].

وقد قال ابن جنى إن الراء لا تكون بدلا[225] ولكنه أتى بأمثلة يشتبه فى تصور الإبدال فيها بين الراء واللام وخرجها بحسب ما رأى - وأتى ببعض الأمثلة الأخرى يوضح بها مبدأ الاشتقاق الأكبر ومبناه على الإبدال كما نعلم بين الراء واللام أيضا وها هى ذى:

١- جربانة وجلبانة وقال: قرأت على أبى على لحميد بن ثور:

جلبانة ورهاء تخصى حمارها ... بفى من بغى خيرا إليها الجامد[226]

٢- نثرة ونثلة: للدرع عامة أو الواسعة منها[227].

---

(٢١٧) المصدر السابق ٢/ ٢٠١ (زرف).
(٢١٨) المصدر السابق ٣/ ٢٥٦ (عطل).
(٢١٩) النهاية ٣/ ٢٠٠ (عذل).
(٢٢٠) المصدر السابق ٤/ ٣٢٠ (ملط).
(٢٢١) المصدر السابق ٣/ ٢٨٤ (عكل).
(٢٢٢) المزهر ١/ ٥٥٨.
(٢٢٣) المصدر السابق ١/ ٥٥٩.
(٢٢٤) الصحاح ٢/ ١٤٤، والمزهر ١/ ٥٥٩.
(٢٢٥) سر الصناعة ١/ ٢٠٥.
(٢٢٦) المصدر السابق ١/ ٢٠٥.
(٢٢٧) المصدر السابق ١/ ٢٠٦.

٣- قرمة. قلمت أظفارى[٢٢٨]. بيضة عـرماء وقطيع أعرم - العلم والعـلامة - جبر وجبل[٢٢٩].

قال ابن جنى إنـه لا إبدال فى المثال الأول بل كل من الـكلمتين أصل، «فأمـا قولهم امرأة جربانة وجلبانة إذا كانت صخابة فليس أحـد الحرفين فيه بدلا من صاحبه، ويدل على أن جلبانة وجربـانة أصلان غير مبدل أحدهمـا من صاحبه وجودك لكل واحد مـنهما أصلا متصرفـا واشتقاقا صحيحـا، فأما جلبانة فمن الجلبـة والصياح لأنها الصخـابة، وأما جربانة فمـن جرّب الأمـور وتصرفـّ فـيها.. والـتجـريب والدربة وفق الـصخب لأنه ضـد الحيـاء والخفر.[٢٣٠] ولكن هذا الـكلام من ابن جنى غـير دقيق، فالـباحث يرى أن الكلـمة الأولى (جربانة) أبـدلت فيها الـراء من اللام فى الكلمة الـثانية (جلبـانة) وذلك لوضوح الاشـتقاق والمعنى الحقيقى فيها فجلبانة من مادة (جلب) التى تدور حول معنى إحداث ما يزعج مثل «جلبه يجلبه، واجتلبه: ساقه من مـوضع إلى آخر فجلب هو وانجلب والجلب - محركة - ما جـلب من خـيل أو غيـرها، واختـلاط الصوت كـالجلبـة وجلب لأهلـه: طلب واحـتال كأجلب، وعلى الفرس زجره ورعد مجلـب: مصوت وجلب الدم: يبس، وتوعد بشر، ومن معانى الجلبة شدة الـزمان والجوع والجلب الجناية..[٢٣١] إلخ، وهذا كله يتناسب حـقيقة مع معنى الصخب الذى يدل عليه لفظ جلبانة.

وأما مـادة «جرب» فلها مـعان كثيـرة ليس بينها مـعنى الصخب الـمشار إليه ومـنها: الجـرب معـروف، والجربـة - بالكسـر - المـزرعة والقـراح من الأرض والجـربيـاء: ريح الشمال أو بردها، والريح بيـن الجنوب والصبا والرجل الضعيف وجربان الـقميض بالكسر والضم جيبه وجربان السيف: حدّه أو شىء يجعل فيه وجربه تجربةً: اختبره[٢٣٢] إلخ.

فمن هذا يبدو أن اللام هى الأصل والراء بدل منها لوضـوح المعنى الحقيقى للفظين وأن المـادة الأولى هى أصـل الاشـتقاق والـدربة والمـران التى ادعى ابـن جنى مـوافقـتهـا

---

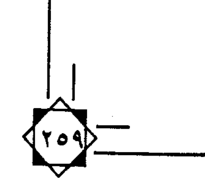
(٢٢٨) الخصائص ١/ ١٤٧.

(٢٢٩) المصدر السابق ٢/ ١٤٩.

(٢٣١) سر الصناعة ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢٣١) القاموس المحيط ١/ ٥٥.

(٢٣٢) المصدر السابق ١/ ٥٣.



للصخب غير مناسبة لسوء الخلق والصياح والجلبة(٢٣٣) وأما عن المثال الثانى فقد قال: «ينبغى أن يكون الراء بدلا من اللام لقولهم نثل عليه درعه ولم يقولوا نثرها فاللام أعم تصرفا، فهى الأصل»(٢٣٤).

ولكن مقياسه الذى بنى عليه رأيه وهو كثرة التصرف غير دقيق لم يعتمده العلماء لجواز أن تكون الكلمة التى تصور فقدانها موجودة ولكن الرواة لم يصلوا إليها.

والذى يرجع إلى مادتى (نثر - ونثل) يرى أن المعانى متقاربة فى كلتيهما فهى تدور حول التفريق ونقل الشىء من مكان إلى غيره، فمادة (نثر) معروفة فى التفريق، ومادة نثل أيضا يقال: نثل الركية ينثلها نثلا: أخرج ترابها واسم التراب النثيلة والنثالة، ونثل كنانته نثلا: استخرج ما فيها من النثل وكذلك إذا نفضت ما فى الجراب من الزاد، ونثل الفرس: راث، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيه مقطعا إلخ.. ويقال: قد نثل درعه ينثلها: صبها ونثلها: ألقاها عنه ولم يقولوا: نثرها وهذا ليس المقياس لتحديد الأصل من الفرع ولكن ربما يكون للمعنى دخل فى تحديده، فاللام هى الأصل لأن الدرع تتصل بمعنى النثل أكثر من اتصالها بالنثر إذ النثل فيه صفة تجمع الشىء واتصاله بعضه ببعض، وأما النثر فهو فصل لأجزاء الشىء بعضه عن بعض فالمعنى فى النثل حقيقى وقد اتصل بالثانى من طريق المجاز ولا مانع أن تكون الراء هى الأصل وقد نشأت الكلمة باللام للثغة فى اللسان أو نقول: إن كل كلمة أصل برأسها لأنها مشتقة من مادة تؤدى معنى الدرع ولبسها وخلعها عن بدن الإنسان فتكون من اختلاف اللهجات.

وأما الأمثلة الأخيرة ففيها مناسبة بين الحروف والمعانى فالقرمة هى الفقرة تحزّ على أنف البعير وقريب منه: قلّمت أظفارى لأن هذا انتقاص للظفر وذلك انتقاص للجلد والراء تعاقب اللام.

وقالوا بيضة عرماء وقطيع أعرم إذا كان فيهما سواد وبياض وإذا وقع ذلك بان أحد اللونين من صاحبه فكان كل واحد منهما أصلا لصاحبه واستعملوا تركيب جبر وجبل لتقاربهما فى موضع واحد وهو الالتئام والتماسك، منه الجبل لشدته وقوته، ومنه جبرت

---

(٢٣٣) ووصف صاحب اللسان (جلبانة) بقوله: مصوتة صخابة كثيرة الكلام سيئة الخلق صاحبة جلبة ومكالبة ١/ ٤٦٠، ٤٦١، كما ينقل ابن جنى نفسه عن ابن الأعرابى أنه قال: جاءك خاصى العير إذا وصف بقلة الحياء.. سر الصناعة ١/ ٢٠٥.

(٢٣٤) سر الصناعة ١/ ٢٠٦.

العظم ونحوه أي قويته، وعلى كل فالتبادل صحيح بين اللام والراء لاتحادهما مخرجا وصفة.

ومع ذلك يمكن أن تكون لهجات: يقول أبو عمرو بن العلاء: قيس «تقول للمريض: مبلسم وتميم تقول مبرسم[٢٣٥] والكلمة معربة أصلها بر: الصدر، وسام الموت[٢٣٦] أو ورم أو مرض ويقول أبو عمرو أيضا: سمعت بعض قيس تقول: سدل الرجل في البلاد وسدر: إذا ذهب فيها فلم يثنه شيء[٢٣٧].

ويقال: الرثغ لغة في اللثغ[٢٣٨] وفي لغة لهم: رعملك يريدون لعمرك[٢٣٩].

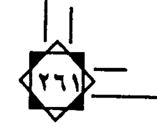
الراء والنون

من ذلك: كوّر، العمامة وكوّنها، وورد عنه ﷺ (أنه كان يتعوذ من الحور بعد الكور) أي من النقصان بعد الزيادة وكأنه من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها ويروى بالنون[٢٤٠]. ويقال: كار الفرس يكير: إذا جرى رافعا ذنبه ويروى: يكين[٢٤١]. وفي حديث المنافق كان (يكير في هذه مرة وفي هذه مرة) أي: يجري.والزور والزون: كل شيء يعبد ويتخذ إلها[٢٤٢]. ونرى أنّ قبيلة واحدة لا تنطق بذلك بل هو بينها وبين غيرها أو بين بعضها وبعض.

وقال ابن الفرج: سمعت بعض بني سليم يقول: قد رجع كلامي في الرجل ونجع فيه بمعنى:، ورجع في الدابة العلف ونجع: إذا تبين أمره[٣٤٣]. والراء والنون - كالراء - واللام - من حيز واحد بعضها أرفع من بعض وهي ذلقية[٢٤٤]. وهي أوضح الأصوات كما يقول المحدثون في السمع ومجرى الهواء متسع معها وتشيع في الكلام وهي لذلك تشبه أصوات اللين[٢٤٥] ولذا يمكن التبادل بينهما، ولا بأس أن ينسب ذلك إلى القبائل العربية على أنه من اختلاف اللهجات وقد ينسب بعضهم الاختلاف إلى قبيلة واحدة.

---

(٢٣٥) التهذيب ١٣/ ١٥٨. (٢٣٦) التهذيب ٢٥٧ (برسم) ولغة تميم ١٣٠.
(٢٣٧) المرجع السابق ١٢/ ٣٥٥. (٢٣٨) المرجع السابق ٨/ ٩١ (رثغ).
(٢٣٩) المرجع السابق ٢/ ٣٨٢ (عمر). (٢٤٠) النهاية ٤/ ٣٠٨ (كور).
(٢٤١) المصدر السابق ٤/ ٢١٧ (كير).
(٢٤٢) الإبدال لأبي الطيب ١٤٦ والقلب والإبدال لابن السكيت ص٦٥.
(٢٤٣) التهذيب ١/ ٣٦٨ (رجع). (٢٤٤) شرح المفصل ١٠/ ١٢٨-١٣٠.
(٢٤٥) الأصوات اللغوية ص٦٤.



الزاى والسين

من أمثلة ذلك: الزفت لغة الأزد فى السفت ويقولون: الزقف أى السقف[٢٤٦] وشرب وشسف وشسب بمعنى ضمر، ولا مانع من التبادل بين الصوتين لاتحاد المخارج فهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى.

وقد أوضح ابن جنى بناء على اتحاد معنى الكلمات الثلاث الأخيرة وأنها بمعنى ضمر أنه يوافق على أن الزاى فيها بدل من السين ولكننا نرى أنه حكى أيضا أن الأصمعى فصل فقال: الشازب الذى فيه ضمور وإن لم يكن مهزولا والشاسب والشاسف الذى فيه يبس، وقد حكم بأن إحداهما ليست بدلا من الأخرى ليس على اعتبار الخلاف فى المعنى ولكن على اعتبار تصرف الفعلين جميعا[٢٤٧].

ونحن نرى أن خلاف المعنى - إن صح - هو الذى يحسم النزاع ويجعل كلا من الكلمتين ذاتى الزاى والسين أصلا برأسه، إلا أن أصحاب المعاجم يخلطون بين المعنيين كقول صاحب اللسان فى شزب: الشازب الضامر اليابس من الناس وغيرهم[٢٤٨] وقول الفيروزابادى: الشازب الخشن والضامر اليابس[٢٤٩] وفرق بين ما هو يابس من أصله فى الوجود وبين ما كان غضا سمينا ثم هزل وضمر.

الزاى والصاد

من ذلك قولهم فى فُصد: فُصّد أو فى يصدر: يصدر بإشمام الصاد صوت الزاى - ومن العرب من يخلصها زايا فيقول: فُزْد ويَزْدر ومَزْدَر والتَّزْدير وازْدُقى فى اصدقى، وعليه قول العرب فى المثل: لم يُحْرَمْ من فُزْد له: فُصِد له ثم أسكنت العين على حد قولهم فى ضُرِب ضُرْب وقوله:

وَنُفْخُوا فى مَدائِنِهم فطاروا[٢٥٠]

---

(٢٤٦) العين ٥/ ٨١.
(٢٤٧) سر الصناعة ١/ ٥٦، ٥٧.
(٢٤٨) اللسان ١/ ٤٩٤، ٦/ ٣٧، ١١٧، ١٠/ ٧٠.
(٢٤٩) القاموس ١/ ١٠٣.
(٢٥٠) سر الصناعة ١/ ٥٧. والخصائص ٢/ ١٤٤.

يقول ابن جنى: ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم فى مصدر: مزدر وفى التصدير: التزدير، وعليه قول العرب فى المثل: لم يحْرم من فُزْد له ثم سكنت العين فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد وهى مهموسة الدال وهى مجهورة قُرّبتْ منها بأن أُشِمّتْ شيئا من لفظ الزاى المقاربة للدال فى الجهر.

وكذلك كل صاد ساكنة بعد الدال، ومن ذلك أيضا: زقر في صقر وزقعاء في صقعاء وصمصمة وزمزمة[٢٥١].

ونقول: لا مانع من التبادل بين الزاي والصاد لأنهما من مخرج واحد وهو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلي وتشتركان فيما بينهما في الرخاوة والصفير والإصمات، ومع ذلك يجوز أن يكون ذلك من قبيل اللهجات.

ونحن نعرف أن الصاد من المهموسات وما بعدها دال مجهورة، فهذا التجاور بينهما يقتضي تقريب الصاد المهموسة من الدال المجهورة وذلك بإشمام الصاد صوت الزاي المجهورة لتناسب الدال في الجهر، ولذلك جعل ابن جني هذا الصاد بمنزلة الزاي حين قال: (وأما الصاد التي كالزاي فهي التي يقل همسها قليلا ويحدث فيها ضرب من الجهر لمضارعتها الزاي)[٢٥٢].

إذ إنه «لما جاورت الصاد وهي مهموسة الدال وهي مجهورة قُرِّبت منها بأن أُشمَّتْ شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر»[٢٥٣].

وقد قلبها العرب زايا مخلصة لأنه لما سكنت الصاد ضارعوا بها الدال التي بعدها بأن قلبوها إلى أشبه الحروف بالدال من مخرج الصاد وهي الزاي لأنها مجهورة كما أن الدال مجهورة[٢٥٤].

ويشترط لهذا القلب أن تكون الصاد ساكنة وبعدها دال (فإن تحركت الصاد لم يجز فيها البدل وذلك نحو صَدَر وصَدَف لا تقول: زدر ولا زدف، وذلك أن الحركة قوت الحرف وحصّنته فأبعدته من الانقلاب بل قد يجوز فيها إذا تحركت إشمامها رائحة الزاي، فأما أن تخلص وهي متحركة زايا كما تخلص وهي ساكنة فلا، وإنما تنقلب الصاد زايا أو تشم رائحتها إذا وقعت قبل الدال فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها[٢٥٥].

وفي الزقر وزقعاء السين مهموسة والقاف مجهورة فأبدل السين زايا مجهورة والزاي أخت السين كما أن الصاد أختها[٢٥٦]، ويقول ابن جني: وروينا عن الأصمعي: اختلف رجلان من العرب في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين فتراضيا بأول من

---

(٢٥١) سر الصناعة ١/ ٢١٩، والمزهر ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

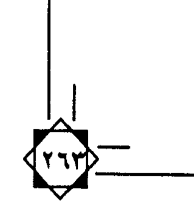
(٢٥٢) سر الصناعة ١/ ٥٦.

(٢٥٣) الخصائص ٢/ ١٤٤.

(٢٥٤) سر الصناعة ١/ ٥٧.

(٢٥٥) المصدر السابق ١/ ٥٧.

(٢٥٦) المحتسب ٢/ ١٦٩، ٢٨٣.



يقدم عليهما فإذا راكب فأخبراه ورجعا إليه فقال: ليست كما قلت ولا كما قلت إنما هو الزقر). إلخ.

وقد عدَّ ابن جنى كلا من صمصمة وزمزمة أصلا قائما برأسه فقال: «ليس أحد الحرفين بدلا من صاحبه؛ لأن الأصمعى قد أثبتهما معا ولم يجعل لأحدهما مزية على صاحبه[257]. ويؤيد رأى ابن جنى ما ورد فى معاجم اللغة فكل من اللفظين من مادة مستقلة لها معانيها الخاصة، فصمصمة مشتق من مادة (ص م م) التى تدور معانيها حول القوة والصلابة والمناعة، ومن ذلك: حجر أصم وصخرة صماء: صلب مصمت، والصماء: الناقة السمينة واللاقح والأرض الغليظة والداهية الشديدة، والأصم: الرجل لا يطمع فيه ولا يرد عن هواه والحية لا تقبل الرقى والصمة بالكسر: الشجاع والأسد وصم فى الأمر والسير: مضى كصمصم والسيف أصاب المفصل، والصمصام: السيف لا ينثنى وكزبرج: الغليظ القصير والجرىء الماضى وبهاء: وسط القوم ويفتح والجماعة، واشتمال الصماء، وهى كساء[258]، وزمزمة مشتقة من مادة (زمم) التى تدور معانيها حول إصدار الأصوات واختلاطها، ومن ذلك زم القربة: ملأها فزمت زموما امتلأت، والبعير: خطمه وتقدم فى السير وتكلم، والزمزمة: الصوت البعيد له دوى وتتابع صوت الرعد وهو أحسنه صوتا وأثبته مطرا وتراطن العلوج على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لسانا ولا شفة لكنه صوت تديره فى خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضها عن بعض وصوت الأسد وبالكسر: الجماعة أو خمسون من الإبل والناس وقطعة من الجن أو من السباع وجماعة الإبل ما فيها صغار.. إلخ[259].

ولا شك أن المعنيين قد التقيا على سبيل المجاز فضلا عن أن كلا من اللفظين قد انفرد عن الآخر ببعض المعانى الواضحة فى النص السابق كاستعمال الصمصمة فى اشتمال الصماء وهى كساء وفى وسط القوم واستعمالها فى الأكمة الغليظة التى كادت حجارتها أن تكون منتصبة[260]، واختصاص الزمزمة بالقطعة من الجن، وبتحديد العدد بخمسين على أنه عند فتح الحرفين المكسورين تبقى الصمصمة بمعناها وتنصرف الزمزمة

(257) سر الصناعة ١/ ٢١٩، وانظر فى الأمثلة المزهر ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(258) القاموس ٤/ ١٦٣.

(259) القاموس ٤/ ١٤٧.

(260) لسان العرب ١٥/ ٢٤١.

إلى الصوت البعيد الذى له دوى، وبهذا ترى أن اللفظين لم يتفقا من جميع الوجوه سواء المعنى أو الضبط والمطلوب تحققه فى الإبدال.

وهذا التأثر لون من ألوان الإدغام الأصغر الذى هو: تقريب الصوت من الصوت، وقد نبه ابن جنى على ذلك كثيرا إذ يقول:

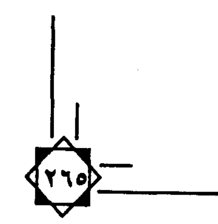
ومنه تقريب الحرف من الحرف[٢٦١]، ومنه[٢٦٢]، وهذا التقريب بين الحروف مشروح الحديث فى باب الإدغام[٢٦٣]، وهذا التقريب للحرف من الحرف باب طويل منقاد وهو فى فصل الإدغام وما أصنعه وما ألطفه وأظرفه[٢٦٤].

وقد ظهر لعلماء اللغة المحدثين أن الصوت المجهور أوضح فى السمع من الصوت المهموس، بل إن المجهور يسمع من مسافة قد يخفى عندها المهموس، فصوت السين يخفى عند مسافة معينة ربما استمر ظهور القاف - مثلا - بعدها بوقت والدال كذلك بالنسبة للصاد، وعلى هذا فالمجهور يتناسب مع حياة البدو لأن الصحراء الشاسعة تتطلب ارتفاع الأصوات على حين يتناسب المهموس مع حياة الحضر؛ لأنه يكتفى هناك بأقل الأصوات ارتفاعا فتبدّل الصوت المهموس بآخر مجهور يكون إذًا من خصائص القبائل الحضرية على حين يبقى المجهور من خصائص القبائل البدوية.

وقد نسب أبو حيان ظاهرة إشمام السين صوت الزاى إلى قبائل قيس وقلبها زايا خالصة إلى قبائل عذرة وكعب وبنى القين[٢٦٥] ونسبت فى العين للأزد[٢٦٦]، والأد قبائل وبطون كثيرة، ولعل تلك الظاهرة تنسب إلى البدويين منهم كأزد عمان المجاورين للشحر، وقيس معروفة ببداوتها، وعذرة قبيل اشتهرت بالعشق وهى بطن من قضاعة[٢٦٧] وهم بدو وكعب بطن عامر بن صعصعة[٢٦٨] من هوازن[٢٦٩]، كانت تسكن العروض[٢٧٠] مجاورة لبنى تميم، وبنو العنبر بطن من أسد[٢٧١] وهى بدوية على ما نعرف.

---

(٢٦١) الخصائص ٢/ ١٤٤.
(٢٦٢) المصدر السابق ٢/ ١٤٢، ١٤٣.
(٢٦٣) المحتسب ٢/ ١٦٨.
(٢٦٤) المصدر السابق ٢/ ٢٨٣.
(٢٦٥) البحر ١/ ٢٥.
(٢٦٦) والزقف لغة الأزد فى السقف.
(٢٦٧) نهاية (القلقشندى) ٣٥٩.
(٢٦٨) المصدر السابق ٤٠٦، ٤٠٧.
(٢٦٩) المصدر السابق ٣٣٠-٣٣٢.
(٢٧٠) صفة جزيرة العرب ١٥٩.
(٢٧١) نهاية (القلقشندى) ٧١.



السين والشين

من أمثلة ذلك: جعشوش، وجعسوس - تنسمت منه علما وتنشمت[٢٧٢] والسده والشده ورجل مسدوه فى معنى مشدوه[٢٧٣] قال:

فلو كنت وردا لونه لعسقتني ولكن ربى شانني بسواديا[٢٧٤]

وفى جعشوش وجعسوس جعل ابن جنى الشين بدلا من السين ألا ترى أن السين أعم تصرفا من الشين لوجودك إياها فى الواحد والجمع جميعا، قال فى خصائصه «قال الأصمعى:

يقال: جعشوش، وجعسوس وكل ذلك إلى قماءة وقلة، وصغر[٢٧٥]، ويقال هم من جعاسيس الناس ولا يقال بالشين فى هذا فضيق الشين مع سعة السين يؤذن بأن الشين بدل من السين، نعم، والاشتقاق يعضّد كون السين غير معجمة هى الأصل وكأنه اشتق من الجعس صيغة على فعلول، وذلك أنه شبه الساقط المهين من الرجال بالخرء لذله ونتنه[٢٧٦]، ولكن مقياس كثرة التصرف لا يعتمد عليه لجواز أن تكون مادة (جعش) موجودة إلا أن الرواة لم يصلوا إليها، ومن الجائز أن تكون الشين هى الأصل وقد نشأت السين عنها بطريق التصحيف، أو أنهما لغتان لقبيلتين مختلفتين، والذى دعانا إلى القول بذلك أن السين والشين وإن اتفقا فى كثير من الصفات كالهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات فهما متباعدان مخرجه فالأول من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى والثانى من وسطه مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى وبينهما فى ترتيب المخارج حروف كثيرة هى - على ما رأى سيبويه وابن جنى[٢٧٧] -ى - ض - ل- ر - ن - ط - د - ت - ص - ز - وقد صرح ابن جنى نفسه بأن اشتقاق جعسوس (من الجعس) إنما هو على التشبيه لا على سبيل الحقيقة وذلك مطلوب فى الحكم بالإبدال.

وأما تنسمت، وتنشمت فقد كان ابن جنى الحكم الفيصل فيهما برأى سديد فقد قال:

---

(٢٧٢) سر الصناعة ١/ ٢١٥. (٢٧٣) المصدر السابق ١/ ٢١٠.

(٢٧٤) المصدر السابق ١/ ٢١٤، وانظر ديوان سحيم ص٥٦.

(٢٧٥) فى سر الصناعة إلى قماء وصغر وقلة ١/ ٢١٥.

(٢٧٦) الخصائص ٢/ ٨٦، ٨٧.

(٢٧٧) على خلاف بينهما فى تقدم الضاد وتأخرها من الشين.

فأما قولهم تنسمت منه علما وتنشمت فليس واحد من الحرفين بدلا من صاحبه؛ لأن لكل واحد منهما وجها قائما، أما تنسمت فكأنه من النسيم كقولك استروحت منه خبيرا فمعناه أنه تلطف فى التماس العلم منه شيئا فشيئا كهبوب النسيم، وأما قولهم: تنشمت فمن قولهم: تنشمت فى الأمر أى ابتدأته ولم أوغل فيه، وكذلك تنشمت منه أى ابتدأت بطرف من العلم من عنده ولم أتمكن فيه(٢٧٨).

وبهذا أوضح اختلاف الاشتقاق فلا إبدال بينهما.

وأما السده والشده فقد قال ابن جنى: (ينبغى أن يكون السين فيه بدلا من الشين لأن الشين أعم تصرفا).

ولسنا معه فى مقياسه ولا فى وقوع الإبدال على هذا النحو لتباعد المخارج.

ويمكن أن يفسر ذلك بأنه ليس لغة بل لثغة تلحق النطق العربى عندما يتكلم بتلك الألفاظ - بالشين - شخص أجنبى، وهذا ما صرح به ابن جنى - بعد إنشاده البيت - قال: إنما قلب(٢٧٩) الشين سينا لسواده وضعفه من مقاربة الشين وليس ذلك باللغة وإنما هو كاللثغ، ويؤكد ذلك عدم وجود (سده) ولا (عسق) ولا(سان) فى قواميس اللغة(٢٨٠) وهو مما يظن - كذلك - أن يكون للتصحيف أثر فيه.

ومما ورد فى معجمات اللغة - بالسين والشين - على أنه من اختلاف اللهجات فى تشميت العاطس: يقال: شمّت وسمّت لغتان والشين أعلى فى كلامهم وأكثر(٢٨١).

والجرنفش للعظيم الجنبين والأنثى جرنفشة - بالسين والشين: لغتان.

وصرح بعض اللغويين بنقل ذلك الاختلاف عن بعض العرب كالباهليين فى شطأ الرجل المرأة - بالسين والشين قال ابن الفرج: سمعت الباهليين يقولون: سطأ الرجل

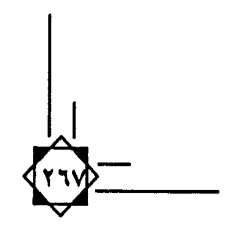
---

(٢٧٨) سر الصناعة ١/ ٢١٥، ٢١٦.

(٢٧٩) يعنى الشاعر وهو سحيم عبد بنى الحساس.

(٢٨٠) انظر أبواب القاف والنون والهاء فى القاموس ولسان العرب.

(٢٨١) غريب الحديث لأبى عبيد ٢/ ١٨٤.



المرأة أى: وطئها، قال أبو منصور: وشطأها بهذا المعنى لغة[٢٨٢] وفى البقلة التى يقال لها: الشبث معربة[٢٨٣] يقول الأزهرى: رأيت البحرانيين يسمونها سبث بالسين والثاء قلبوا الشين سينا والذال ثاء وهى بالفارسية يقال لها: شوذيلة بالذال المعجمة[٢٨٤]، والتبادل بين السين والشين وقع فى كلمات مشتركة بين العربية واللغات السامية الأخرى[٢٨٥].

السين والصاد

من أمثلة ذلك: اهدنا السراط والصراط - كأنما يساقون ويصاقون - مس سقر وصقر[٢٨٦] - سخر صخر - وأسبغ عليكم نعمه وأصبغ[٢٨٧] - سقت وصقت - سويق وصويق - والنخل باسقات وباصقات[٢٨٨] السماخ والصماخ وسمخنى بصوته وصمخنى والأسقح والأصقح - سلهب وصلهب[٢٨٩].

ولا مانع من التبادل بين السين والصاد لأنهما من مخرج واحد هو طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى بجانب اشتراكهما فى الهمس ومع ذلك فاحتمال اللهجات أمر قائم.

والواضح أن السين قد وقع بعدها أحد الحروف الآتية: الصاد - القاف - الغين - الخاء، والطاء من أصوات الإطباق ولذلك تأثرت السين بها فقلبت صادا لأنها من مخرج السين وتناسب الطاء فى الإطباق، وفى الأمثلة الأخرى يلاحظ أن السين من حروف الاستفال والقاف والغين والخاء من أصوات الاستعلاء فاقتضى هذا التجاور أن تقلب السين إلى صوت مشابه لأصوات الاستعلاء، وهذا ما لاحظه فيلسوف العربية ابن جنى يقول: الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف فأبدلت السين صادا لتقرب من القاف لما فى الصاد من الاستعلاء[٢٩٠]، ويقول - عند تعقيبه على قراءة (وأصبغ) بالصاد-: أصله السين إلا أنها أبدلت للعين بعدها صادا، كما قالوا فى سايغ صايغ وفى

(٢٨٢) شفاء الغليل ١٥٩.
(٢٨٣) اللسان ١/ ٨٨ وانظر أيضا ٩٤.
(٢٨٤) التهذيب ١/ ٣٣٧ (شبت).
(٢٨٥) التطور النحوى لبرجستراسر ص ٢٤، ٢٥.
(٢٨٦) سر الصناعة ١/ ٢٢٠.
(٢٨٧) المصدر السابق ١/ ٢٢، والمحتسب ٢/ ١٦٨.
(٢٨٨) المحتسب ٢/ ٢٨٣.
(٢٨٩) سر الصناعة ١/ ٢١٨.
(٢٩٠) المحتسب ٢/ ٢٨٣.

سالخ صالخ وفي سقر صقر وفي السقر الصقر ذلك أن حروف الاستعلاء[291] تجتذب السين عن سفالتها إلى تعاليهن والصاد مستعلية وهي أخت السين في المخرج وأخرى حروف الاستعلاء وقد نقل أبو حيان - عن أبي جعفر الرؤاسي- نسبة التأثر بالإطباق إلى قريش ويقول: إنه اللغة الجيدة[292] وكذلك ورد في اللسان (وهي بالصاد لغة قريش الأولين التي جاءت في الكتاب) وقد يكون ذلك صحيحا في الألفاظ التي يوجد فيها إطباق نحو يبسط وبمسيطر، أما أن قريشا كانت تذهب إلى الإطباق في باسقات وأسبغ وسقر فذلك ما لا نظنه؛ لأن البيئة الحضرية تميل إلى الأناة في الأداء بحيث تعطي كل صوت حقه فتنطقه بصفاته، ولعل هذه الظاهرة أن تنسب إلى البادية أجدر حيث عرفنا أن صوت الإطباق فيه من الوضوح ما يناسب البيئة الصحراوية[293]، وقد نسب ذلك إلى قوم من تميم يقال لهم: بلعنبر يقلبون السين صادا عند أربعة أحرف: الطاء والقاف والغين والخاء إذا كنّ بعد السين، وقال الفراء: ونفر من بلعنبر يصيرون السين إذا كانت مقدمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صادا فمن ذلك قولهم: الصراط والسراط.. إلخ[294] والصاق في الساق عنبرية، قال ابن سيده (وأراه ضربا من المضارعة لمكان القاف) (والصويق لغة في السويق المعروف لمكان المضارعة)[295]. ويقال: سمخني بحدة صوته وكثرة كلامه، ولغة تميم الصمخ[296]، والصماخ من الأذن: الخرق الباطن الذي يفضي إلى الرأس: تميمية، والسين لغة فيه[297]. وذكر ابن دريد: الأسقح والأصقح بالسين والصاد يمنية - الأصلع - والسقحة: الصلع يمانية[298].

وأما سلهب وصلهب فقد تردد ابن جني في رأيه فيهما قال: (يجوز أن تكون الصاد فيه لغة ويجوز أن تكون بدلا من سين سلهب لأنه أكثر تصرفا من صلهب[299] وعلى الرغم من عدم دقة مقياسه وهو الاعتماد على كثرة التصرف وشيوع الاستعمال، فإننا لحظنا اتجاه المعاجم اللغوية إلى التسوية بينهما في الاستعمال فصاحب اللسان يقول: الصلهب من الرجال الطويل وكذلك السلهب[300]. وصاحب القاموس يروي تصرفا

---

(٢٩١) المحتسب ٢/ ١٦٨.   (٢٩٢) البحر ١/ ٢٥.

(٢٩٣) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص١٥٠.

(٢٩٤) اللسان: سرط، وصرط.   (٢٩٥) المرجع السابق: سوق وصوق.

(٢٩٦) المرجع السابق: سمخ.   (٢٩٧) المرجع السابق: سمخ وصمخ ٣/ ٥٠٤، ٤/ ٤.

(٢٩٨) الجمهرة ٢/ ١٥٤، ١٦٣.   (٢٩٩) سر الصناعة ١/ ٢١٨.

(٣٠٠) اللسان ١/ ٥٣١.

للمادتين فيقول: الصلهب الرجل الطويل كالمصلهب والبيت الكبير والشديد من الإبل واصلهبّت الأشياء امتدت على جهتها[٣٠١] والسلهب الطويل أو من الرجال ج سلاهبة، ومن الخيل ما عظم وطال عظامه كالسلهبة وهى الجسيمة والسلهابة الجريئة كالسلهاب بكسرهما[٣٠٢].

والذى يبدو أن الكلمة بالسين لهجة وبالصاد لهجة أخرى وربما كانت الصاد متطورة عن السين فى لغة البدو لتلائم التفخيم الذى يلجأ إليه سكان الصحراء، فقد ذكر سيبويه (هذا باب ما تقلب فيه السين صادا فى بعض اللغات تقلبها القاف إذا كانت بعدها فى كلمة)[٣٠٣].

وصرح ابن جنى بأن الصاد تبدل من السين فقال: إذا كان بعد السين غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادا[٣٠٤] وهذا ينطبق على الأمثلة المذكورة.

وقد أجرى ابن جنى لونا من إمساس الألفاظ أشباه المعانى على ألفاظ وردت بالزاى والصاد مثل علوز وعلوص وبالسين والصاد مثل سعد وصعد وسد وصد وقسم وقصم والوسيلة والوصيلة، فالكلمة بالزاى أو السين تناسب معنى وبالصاد تناسب معنى آخر، وهذا مما يدخل فى نطاق ما يسميه اللغويون (الاشتقاق الأكبر).

الصاد والضاد

من أمثلة ذلك: نصنص لسانه ونضنضه: حركه - تصوك فى خرئه وتضوك[٣٠٥].

نرى أن بين الصاد والضاد بعدا فى المخرج فالصاد من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى والضاد من جانب اللسان أو من كلا الجانبين وبينهما من الحروف: ل - ب - ن - ط - د - ت - إلا أنهما يشتركان فى بعض الصفات كالإطباق والإصمات وذلك لا يصح به التبادل.

وقد ناقش ابن جنى هذين المثالين على أن كلا منهما لا إبدال فيه بل كل من اللفظين أصل إذ ليست الصاد أخت الضاد فتبدل منها[٣٠٦].

والباحث فى المعاجم يرى أن مادتى: نصنص ونضنض يتقاربتان معنى، فالأولى

(٣٠١) القاموس ١/ ١١٠، ١١١.
(٣٠٢) القاموس ١/ ٩٩.
(٣٠٣) الكتاب ٤/ ٤٧٩.
(٣٠٤) سر الصناعة ١/ ٢٢٠.
(٣٠٥) المصدر السابق ١/ ٢٢١.
(٣٠٦) القاموس ٢/ ٣١٩، ٣٢٠.

تدور حول الحركة والانتقال والحث، والثانية تدور حول الحركة والانتقال والحث والقلة، ومن الأول: نص ناقته: استخرج أقصى ما عندها من السير والحركة ونصنص غريمه: استقصى عليه ونص المتاع جعل بعضه فوق بعض(٣٠٧).

ومن الثانية: نض الماء سال قليلا أو خرج رشحا ونضاضة الماء وغيره بالضم بقيته، وأنض الحاجة: أنجزها، ونضنض فلانا: أقلقه أو استحثه(٣٠٨) فكل منهما على هذا مشتق من مادة مستقلة فهما لغتان.

ولا يستبعد أن يكون التصحيف قد تطرق إلى اللفظين وأصل المادة بالضاد أو بالصاد، وكذلك: تصوك فى خرئه وتضوك رواهما صاحب اللسان بمعنى واحد: تصوك فى عذرته تصوكا وبالضاد كذلك تلطخ رواهما اللحيانى عن زياد بالضاد المعجمة وعن الأصمعى بالصاد المهملة(٣٠٩).

ولعل ذلك من باب اختلاف اللهجات.

ومما ورد بالصاد والضاد منسوبا إلى بعض العرب أو على أنه لغات: الضئبل: الداهية ولغة بنى ضبة الصئبل والضاد أعرف كما يقول الكسائى(٣١٠).

وقد صرح الأزهرى بأنه لم يسمعه من غير أبى تراب مع أنه كان يسكن بين أبناء ضبة، وجاص لغة فى جاض، وحفص الشيء: ألقاه، قال ابن سيده: والضاد أعلى، وفلان ما ينوض بحاجة وما يقدر أن ينوص أى يتحرك بشيء والصاد لغة، والمناض: الملجأ عن كراع والصاد أعلى، وضاف السهم يضيف: إذا عدل عن الهدف ويقال فيه صاف بالصاد وهو لغة(٣١١)، وقال تعالى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾(٣١٢) - بالضاد - وقرأ أبىّ، وابن الزبير والحسن وغيرهم بالصاد فيهما(٣١٣).

---

(٣٠٧) القاموس ٢/ ٣٤٥، ٣٤٦.

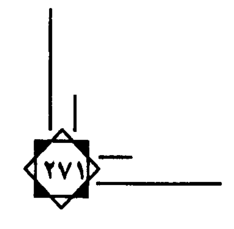
(٣٠٨) اللسان ١٢/ ٣٤٥، ٣٤٩.

(٣٠٩) التهذيب ١٢/ ١٠٢، ١٢/ ١٩٤، وبنو ضبة هم بنو ضبة بن الحارث بن فهر من ساكنى الحجاز. جمهرة أنساب العرب ١٧٦، ١٧٧.

(٣١٠) التهذيب ٢/ ٧٣.

(٣١١) التهذيب ٢/ ٧٣ (ضاف).

(٣١٢) طه ٩٦. (٣١٣) البحر ٦/ ٢٧٣.



الصاد والطاء

من أمثلة ذلك: الحصب: الحطب، أو ما يسجر به منه، أو ما يرمى به فى النار، فى لغة أهل اليمن(314)، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(315) هى بالصاد فى قراءة الجمهور، وقرأ أبى وعلى وعائشة وابن الزبير وزيد بن على: (حطب) بالطاء، وجاءت فى آية أخرى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾(316).

وقرئت (حضب) بالضاد، ونقلت هذه القراءة عن ابن عباس، وقد فسرت الكلمة بمعان مختلفة بحسب الصوت المنطوق به، فالحصب - بالصاد - هو ما رميت به فى النار، ولا يقال له حصب إلا وهو فى النار. وقال عكرمة: هو حطب جهنم بالحبشية(317) والحطب معروف، أما الحضب - الضاد - فهو كل ما هيّجت به النار أو أوقدتها به.

ويذكر بعض الباحثين أن الكلمة بالطاء هى الأصل، لورودها فى القرآن الكريم مرتين وورودها - كذلك - فى العبرية والحبشية، على حين وردت الكلمة بالصاد مرة واحدة فى القرآن(318).

وليست كثرة العدد دليلا على الأصالة، كما أن قلته ليست دليلا على الفرعية، فهذا المقياس غير منضبط، وقد وقعت الكلمة بالصاد فى الحبشية كما وقعت بالطاء فيها أيضا.

ولعل نطق الطاء فى (حطب) صادا أو ضادا (حضب) لم تكونا خالصتين بل كانت بين الطاء والصاد أو بينها وبين الضاد وهى ما يطلق عليه الضاد الضعيفة(319) وهى من الحروف غير المستحسنة.

ويقال للناقة إذا ألقت ولدها ولم يشعر(320) ملصت وملطت، وألقته مليصا ومليطا،

---

(314) القاموس 1/ 55 (حصب) وانظر معانى القرآن للفراء حيث نسب الكلمة بالصاد إلى أهل نجد، وتاج العروس 1/ 216، واللسان 1/ 311 (حصب)، وانظر بحثنا فى القراءات، وصلتها باللهجات العربية بمجلة منبر الإسلام، العدد 7 السنة 37 ص26.

(315) من الآية 98 من سورة الأنبياء.

(316) سورة الجن الآية 15.

(317) تاج العروس واللسان.

(318) لغة تميم ص111.

(319) الكتاب 4/ 432، وسر الصناعة 1/ 46.

(320) أى لم ينبت شعره.

وهى ناقة مملص ومملط، وإبل مماليص ومماليط، فإذا كان ذلك من عادتها قيل: مملاص ومملاط.

ويقال: اعتطت رحمها، واعتاصت وهما سواء إذا لم تحمل أعواما، وهى ناقة عائط والجمع عيط.

ولا يجوز التبادل بين الطاء والصاد أو الضاد لبعد المخارج واختلاف الصفات واختلاف المعنى، فلا يمكن نسبة الصور المتعددة للنطق هنا - إلى العرب جميعا، ولو كان ذلك على سبيل التطور الصوتى، فمن شروط الإبدال - كما عرفنا - تقارب المخارج أو الصفات بين الأصوات مع اتفاق المعنى بين ما وقع فيه البدل والمبدل منه، وذلك غير متحقق هنا، فالأولى أن يكون ذلك لهجات كما ذكر بعض اللغويين.

الضاد والظاء

من أمثلة ذلك: رجل ظالع: مائل وقيل: إن المائل بالضاد، وفى الحديث: **(أعطى قوما خاف ظلعهم)** بفتح اللام أى ميلهم عن الحق وضعف إيمانهم وأصل الظلع داء فى قوائم الدابة تغمز منه(٣٢١). وورد فى اللغة: ضحى - من الأضحية - بالضاد والظاء.

وروى أن رجلا سأل عمر: أيظحى بضبى؟ فقال عمر: وما عليك لو قلت أيضحى بظبى؟ قال الرجل: إنها لغة - بكسر اللام - فقال عمر: انقطع العتاب ولا يضحى بشىء من الوحش(٣٢٢).

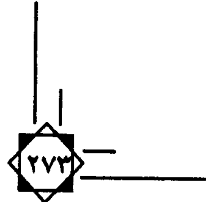
وذكر الجاحظ أن جارية تسمى ظمياء كان يناديها صاحبها يا ضمياء بالضاء(٣٢٣).
ومن ذلك: الفيض وهو الموت ويقال: فاضت نفسه أى لعابه الذى يجمع على شفتيه عند خروج روحه، ويقال: فاض الميت بالضاد وروى بالظاء أيضا.

وقد كثر ورود الكلمات بالتناوب بين الضاد والظاء وشاع إلى حد أن ألف بعض العلماء كتبا فى الألفاظ التى جاءت بالضاد والظاء ويخيشى اللبس بينهما وقال فى ذلك القاسم بن على الحريرى:

---

(٣٢١) النهاية ٣/ ١٥٩.   (٣٢٢) المزهر ٢/ ٥٦٣.

(٣٢٣) البيان والتبيين ٢/ ٢١١.



أيـهـا الـسـائلـى عـن الظـاء والضـاد لكيـلا تضلـه الألفـاظ
إن حفـظ الظاءات تعييك فاسمعها استمـاع امـرئ لـه استيقاظ
هى ظمياء والمظالم والإظـلام والظلـم والظبى واللحـاظ[٣٢٤]

وبين الضاد والظاء بعد فى المخارج، فالضـاد العربية من جانب اللسـان أو مـن كلا الجانبين والظاء من طرف اللسان مع أطراف الثنايا وبـينهما فى المخرج حروف كثيرة: ل - د - ن - ط - د - ت - ص - ز - س، ويزيد على ذلك عند سيبويه: ج - ش - ى.

ولكن بينهـما - مع هذا التبـاعد فى المخرج - تقـارب فى بعض الصفات كـالجهر والإطباق والإصمات.

ولكن يبـدو أن المعول عـليه فى القـول بالإبدال هو المـخرج، ولذا فهـذا اللون من التناوب بـين الضاد والظـاء يرجع - فى الراجح - إلـى اختلاف اللـهجات، والقـول بذلك أولى من التفسير على أنه من الإبدال.

وقد نسـبت الضاد والظـاء إلى بعض القبـائل العربـية، فنسبـت الضاد إلى بنى تـميم وقضـاعة - فى بعض الكـلمات - ونسبت الـظاء إلى أهل الحجـاز وطيئ. قال ابن سـيدة: فاضـت نفسـه: خرجـت، تميـمية، وفى حـديثه عـن (اضرورى). حكـى عن أبى عـمرو: (اطرورى) بالطاء ورواية أبى زيد (اظرورى) وأبو عمرو ثقة وأبو زيد أوثق منه، وقد سألت عنه بعض فصحاء الحـجاز فوافقوا أبا زيد[٣٢٥]، ويذكر ابـن منظور: أهل الحجـاز وطيئ يقولون: فاظت نفسه، وقضاعة وتميم وقيس يقولون: فاضت نفسه مثل فاظت دمعته.

ومما جاء من الشعر فى ذلك ما نسب لرؤبة بن العجاج من تميم:

والأزد أمـسـى شكـوهـم لفـاظـا لا يدفـنون مـنهم مـن فـاظا[٢٢٦]

وقال قطرى بن الفجاءة من تميم:

فلـم أر يومـا كان أكـثر مـعـقصـا يـسيح دمـا من فـائظ وكلـيم[٢٢٧]

والضاد الشديدة يفضلها التميميون والظاء الرخوة يفضلها الحجازيون.

وبعض العلماء يرى أن العرب ينطقون: فاضت بالـضاد إلا بعضهم كبنى ضبة. يقول

---

(٣٢٤) المزهر ٢/ ٢٨٦.
(٣٢٥) المخصص ٥/ ٨٠.
(٣٢٦) التهذيب ١٢/ ١٨٠ (فاظ).
(٣٢٧) اللسان (فيظ).

السيوطى: كل العرب تقول: فاضت نفسه بالضاد إلا بنى ضبة فإنهم يقولون: فاظت بالظاء.

وورد عكس ذلك من نسبة الظاء إلى العرب إلا بعضهم كبنى ضبة أو ناس من تميم ينطقونها بالضاد وقع ذلك فى رواية عن المازنى نقلا عن أبى زيد قال: إن العرب تقول: فاظت نفسه إلا بنى ضبة يقولونه بالضاد(٣٢٨).

وفى الغريب المصنف: فاظت نفسه تفيظ: مات، وناس من بنى تميم يقولون: فاضت نفسه تفيض(٣٢٩).

وورد اضطراب النسبة - إلى قيس، فعلى حين نقل عن الفراء نسبة الضاد إلى قيس والظاء إلى طيئ فى فاضت نفسه(٣٣٠) روى عن أبى زيد وأبى عبيدة نسبة الكلمة بالظاء إلى قيس وبالضاد إلى تميم.

وقد حاول بعض الكاتبين فى الفرق بين الضاد والظاء أن يوضحوا الفروق المعنوية بين الكلمات التى تقاربت فيها الضاد والظاء، ومن ذلك ما ورد فى حديث وفد تميم، وهو كلمة (أخفضهم) بمعنى: وضع منهم فى قوله **(فلما دخلوا المدينة بهش إليهم النساء والصبيان يبكون وجوههم فأخفضهم ذلك)** قال أبو موسى: أظن الصواب بالحاء المهملة والظاء المعجمة أى أغضبهم(٣٣١).

ومن ذلك عظّت الحرب بنى تميم، فالعض أخذ الشيء بالأسنان والشد بها عليه وبالظاء اشتداد الزمان والحرب.

ويبدو ذلك فى بعض القراءات كقوله تعالى: ﴿وما هو على الغيب بظنين﴾(٣٣٢).

قرأ زيد بن ثابت وعاصم وأهل الحجاز (بضنين)(٣٣٣) وهو حسن، وقرأ (بظنين) ابن كثير وأبو عمرو والكسائى(٣٣٤).

والمعنى مختلف على القراءتين، فالضاد على معنى أنه ليس بخيلا، والظاء على أنه ليس متهما على الوحى أو ليس ضعيفا(٣٣٥).

---

(٣٢٨) المرجع السابق ٥/ ٣٥٠١ فيض.

(٣٢٩) المزهر ٢/ ٢٨٦.

(٣٣٠) النهاية النهاية ٣/ ٤٨٥.

(٣٣١) المصدر السابق ٢/ ٥٤ (خفض).

(٣٣٢) التكوير ٢٤.

(٣٣٣) التهذيب ١١/ ٤٦٧، ٤٦٨ (ضنن).

(٣٣٤) السبعة لابن مجاهد ٦٧٣.

(٣٣٥) حجة القراءات لأبى زرعة ٧٥٢، ومعانى القرآن للفراء ٣/ ٢٤٢، ٢٤٣.

وأورد ابن جنى فى سر الصناعة:

إلى الله أشكو من خليل أودّه ثلاث خصال كلها لى غائض

أراد: غائظ.

وخرج ابن جنى المثال على وجهين: إبدال الضاد من الظاء أو «يكون غائظ غير بدل ولكنه من غاضه أى: نقصه فيكون معناه: أنه ينقصنى ويتهضمنى[336].

ومعنى البيت يحتمل التخريج الأول والثانى فربما يكون الشاعر من قوم يفضلون الضاد على الظاء وهم التميميون وأضرابهم، وعلى التخريج الثانى يمكن تفسير البيت بأن خصال الصديق تضر بالشاعر وتقضى على بعض حقوقه وتكون الكلمة من غاضه أى نقصه وتهضمه حقه[337] وحينئذ فلا إبدال، وبعض العلماء كان يخرج هذا التناوب على أنه من التصحيف ففى:

أنضج السنبل: إذا رؤى الدقيق فى حبه. يقول الأزهرى:

(الذى حفظناه وسمعناه من الثقات نضج السنبل وأنضج والظاء بهذا المعنى تصحيف إلا أن يكون محفوظا عن العرب فتكون لغة من لغاتهم)[338].

الطاء والظاء

من ذلك: مشطت يدُه تمشط مشطا وهو أن يمسّ الرجل الشوك والجذع فيدخل فيه يده، ويقال: مشظت يده بالظاء.

قال جرير: مشاظ قناة دورها لم يُقومَّ[339].

وقال سحيم بن وثيل الرياحى:

وإن قناتنا مشِظٌ شظاها شديد قدّها عتق القرين[340]

---

(٣٣٦) سر الصناعة ٣/ ٢٢٢.

(٣٣٧) اللسان ٩/ ٦٥، وقد نسب ابن منظور رأى ابن جنى إلى ابن سيدة وليس صحيحا لأن ابن جنى هو صاحب الرأى إذ هو المتقدم ولعل ابن منظور نقل ذلك من المحكم دون تأكد من صاحب الرأى.

(٣٣٨) التهذيب ٤/ ٤٥٨ (نظج). (٣٣٩) التهذيب ١١/ ٣١٩ (مشط).

(٣٤٠) المصدر السابق ١/ ٣٣٣ (مشظ). وإصلاح المنطق ٤٢٠. المشظة: قناة صلبة تمشظ بها يد من يتناولها، والقناة: الرمح الأجوف وكل عصا مستوية أو معوجة، والقدّ: الشق، والقِدّ السوط، والعتق: النجابة.

وذكر الأزهرى فى الموضع الأول أنهما لغتان:

ومن ذلك: ما أورده ابن جنى: البرطلة (ابن الظل) - ناطور ونواطير ومستنطر، قال ابن جنى: إن الظاء لا توجد فى كلام النبط وإذا وقعت فيه قلبوها طاء[٣٤١].

وقد ذكرت المعاجم اللغوية أن تلك الكلمات التى استشهد بها ابن جنى غير عربية حقيقة فلا توجد مادة (ن ط ر) فى اللغة العربية وإنما هى ما يقابل مادة (ن ظ ر) وقد فسر ابن جنى البرطلة بقوله (ابن الظل) وذلك لأن الأصمعى يقول: (بر) ابن والنبط يجعلون الظاء طاء فكأنهم أرادوا ابن الظل، والبرطلة: المظلة الصيفية نبطية، وقد استعملت فى لفظ العربية[٣٤٢]، والناطر والناطور من كلام أهل السواد: حافظ الزرع والتمر والكرم، قال بعضهم: وليست بعربية محضة[٣٤٣] وقال الفيروزابادى: والناطور حافظ الكرم والنخل أعجمى[٣٤٤] والإبدال لا يتأتى بين الطاء والظاء لاختلاف مخرجيهما؛ إذ بينهما من الحروف: د - ت - ص - ز - س، وبينهما اختلاف فى بعض الصفات فالكلمتان إذًا مستعملتان فى لغتين مختلفتين: عربية ونبطية، ولا إبدال بينهما كما ذكر ابن جنى، ولذلك أتى اللفظ على أصله بالظاء المعجمة فى قول الشاعر (أنشده ابن الأعرابى):

وشف فؤادى أن للعذب ناظرا   حماه وأنى لا أعيح بمالح[٣٤٥]

وفى المقارنة بين العربية وأخواتها الساميات نرى أن الطاء حلت محل الظاء فى بعض الكلمات مثل طليل أى ظليل ونطار بمعنى ناظر[٣٤٦].

وقد سمع من ذلك: بهطنى الأمر وبهظنى ووقيط ووقيظ.

وطلف على الخمسين زاد والظاء لغة فى كل ذلك.

العين والغين

ذكر ابن جنى أن الغين لا تكون بدلا[٣٤٧] وقد ناقش أمثلة وردت فى اللغة بالعين والغين ولم يجزم بالإبدال فى شىء منها وها هى ذى: لعنى ولغنى ورغنى - ارمعل وارمغل

---

(٣٤١) سر الصناعة ١/ ٢٣٢.

(٣٤٢) اللسان ١٣/ ٥٤.

(٣٤٣) اللسان ٧/ ٧١.

(٣٤٤) القاموس ٢/ ١٤٤.

(٣٤٥) سر الصناعة ١/ ٢٣٣.

(٣٤٦) الكنز اللغوى ٢٣٦، ٢٤٩.

(٣٤٧) سر الصناعة ١/ ٢٤٧.

- علث الطعام وغلثه - النشوع والنشوغ.

قبحت من سالفة ومن صدغ كأنها كُشْيةُ ضَبٍّ فى صقغ

حتى إذا ما هوت كفّ العلام لها

طارت وفى كفه من ريشها بتك(348)

وقد تردد ابن جنى فى إثبات الإبدال فى بعض هذه الأمثلة وعبارته تنم عن هذا التردد فتارة يأتى بلفظ (كأن) وتارة أخرى بكلمة (ينبغى) وثالثة ينسب القول بالإبدال إلى غيره فيأتى بكلمة (أراد) أى فلان غيره وهكذا.

قال: ينبغى أن يكون الغين فيه بدلا من العين لسعة العين فى الكلام وكثرتها فى المعنى وقلة الغين(349) وفى (ارمعل وارمغل وعلث الطعام وغلثه والنشوع والنشوغ قال: إنها لغات كلها لاستوائها فى الاطراد والاستعمال، وفى صقغ حكى القول بالإبدال عن أبى محمد بن الحسن بن مقسم - أحد شيوخه - فقال: أراد صقع بالعين فأبدلها غينا، وفى المثال الأخير أوضح ابن جنى أن الغلام بالغين معروف والعلام بالعين الصقر، وعلى هذا فلا إبدال لاختلاف المعنى على كل(350).

ونحن نلمح عدم جزمه بالإبدال فى المثالين الأولين وإخلاله بمقياسه - كثرة الشيوع والاستعمال - فى المثال الأول لحكمه بأن كلا من اللفظين لغة على الرغم من أن أحدهما أقل استعمالا من صاحبه، وظاهر أن العلاقة الصوتية بين العين والغين تسوغ التبادل، فكلها حروف حلقية وتتفق العين والغين فى الجهر والانفتاح والإصمات.

ويبدو أن لعنى ورغنى لهجات لقبائل عربية فالغين للبدو لميلهم إلى الحروف المجهورة والمستعلية، والعين للحضر وهو المشهور فى كتب اللغة، وارمعل وارمغل قد وردا فى القواميس العربية متساويى الاستعمال بألفاظهما ومعانيهما يقال: ارمعل الثوب: ابتل، وقيل: كل ما ابتل فقد ارمعل وارمعل الدمع وارمعن: سال فهو مرمعل

---

(348) المصدر السابق 1/ 247، 248، ولسان العرب 15، 315.

(349) سر الصناعة 7/ 247.

(350) المصدر السابق 1/ 248.

ومرمعن، وارمعل الشيء: تتابع وقيل: سال فتتابع وارمغل مثله تماما في التصرف السابق(٣٥١).

وكذلك علث وغلث - يقال: علث الشيء يعلثه علثا وأعلثه: خلطه وطعام عليث وغليث، ومادة (غلث) على نحو من هذا(٣٥٢)، ولعل إحداهما ناشئة عن الأخرى بطريق التصحيف، والمثالان بعد ذلك عرفت مادة كل منهما بالعين في القواميس دون الغين، فالنشع انتزاعك الشيء بعنف إلخ.

وورد النشوع والنشوغ بمعنى السعوط والوجور الذي يوجره المريض أو الصبي، والسعوط في الأنف والوجور في الفم، ويقال نشع الطيب شمه(٣٥٣) ولم يعرف نشغ، ومادة صقع معروفة صقعه كمنعه: ضربه، وصقع الديك: صاح وبه الأرض: صرعه والصاقعة: الصاعقة(٣٥٤) والصقع: ناحية الأرض والبيت(٣٥٥) ولم تعرف صقغ بالغين.

فالظاهر أن المادتين بالعين، والغين فيهما ناشئة بطريق التصحيف ولذلك تردد ابن سيدة في المثال الثاني (صقغ) فقال: فلا أدرى أهو هربٌ من الإكفاء أم الغين في (صقغ) وضع (أي وضع لغوى مسموع) وقد رواها - كذلك - أبو عمرو وقال ابن جني:

فإذا كان الأمر على ما رواها أبو عمرو فالحال ناطقة بأن في (صقع) لغتين العين والغين جميعا وأن يكون إبدال الحرف للحرف.

وهذا تردد من ابن جنى في قبول صقغ، بالغين إلا أنه أذعن للقبول لأن راويه أبو عمرو وهو من الثقات.

والحقيقة أنه من التصحيف ولا يجرح ذلك ثقة العلماء من أمثال أبي عمرو لأن التصحيف نشأ بعد تدوين اللغة، وربما لم يروه أبو عمرو إلا بوجه واحد عرض له التصحيف فيما بعد، ومن الجائز - أيضا - أن تكون رواية الغين صحيحة وقد حول الشاعر العين غينا لإصلاح الشعر.

وأما النشوغ فالتصحيف ظاهر فيه، ويدل على عجيب أمر التصحيف وقربه، في مثل ذلك ما رواه ابن جنى في كلمة (العلام) في بيت الشعر السابق إذ إن الكلمة بالعين لا غير لأن البيت في وصف قطاة يطاردها صقر وما قبله وما بعده من الأبيات في وصف الصقر

---

(٣٥١) لسان العرب ١٣/ ٣١٧ القاموس المحيط ٣/ ٤٤٦.

(٣٥٢) اللسان ٢/ ٤٧٤، ٤٧٨. (٣٥٣) اللسان ١٠/ ٢٣٢.

(٣٥٤) القاموس المحيط ٣/ ٥٠. (٣٥٥) اللسان ١٠/ ٧٠.

الذى يطارد القطـاة، وإذًا فلا معنى لأن تكون الكلمة هنا بالغين إلا أن التصحيف تطرق إليها.

ومن هنا تعجب ابن جنى كيف ترد مثل هذه الكلمة بالغين فى هذا البيت من الشعر وقال: وهذا من طريف الرواية وغريب اللغة(٣٥٦) وليس بين مادتى (علم) و(غلم) أية مناسبة أو قرب(٣٥٧).

ومن ذلك الغوهق: الغراب بالعين والغين(٣٥٨) وذكر مرة أخرى الغيهق بالغين محفوظ صحيح والـغيهقة قال الأزهرى(٣٥٩): لا أحفظهما لغير الليث ولا أدرى أهى لغة حفظت عن العرب أم العين تصحيف.

والسرغ - بالغين - لغة فى السرع بمعنى الغضب ويقال سروغ الكرم قضبانُه الرطبة الواحد سرغ، وقال الليث: هى السروع - بالعين، والغين لغة معروفة(٣٦٠).

جرح نعار: يسيل منه الدم ويقال نغّار بالعين والغين، وقد صحتا معا(٣٦١).

وفى بطنه معص ومغص قاله بعض الأعراب(٣٦٢) والغين أصل.

ومنه ممعط وممغط: طويل ولا يبعد أن يكونا لغتين(٣٦٣).

اللغوس: الذئب واللعوس هو الذئب الحريص على الشىء وأنشد لذى الرمة:

وماء هتكت الليل عنه ولم يرد   روايا الفراخ والذئاب اللغاوس

ويروى اللعاوس، ولا ينكر أن تكون العين لغة(٣٦٤)، وذو الرمة له صلة بتميم لأنهم من قبيلة ذات صلة قرابة بالتميميين(٣٦٥).

والعلاقة الصوتية بين العين والغين - كما ذكرنا - تسوغ التبادل بينهما ولكن السماع هو الذى يجعلنا نحكم بورود الوجهين أو ورود أحدهما ونسبة ذلك إلى بعض القبائل.

---

(٣٥٦) سر الصناعة ١/ ٢٤٨.

(٣٥٧) القاموس ٤/ ١٣٨، ١٨٢.

(٣٥٨) التهذيب ٥/ ٣٨٦، ٣٨٧ (رباعى الغنى).

(٣٥٩) المصدر السابق ١/ ١٢٤ (عهق).

(٣٦٠) المصدر السابق ٨/ ٣٤ (سرع).

(٣٦١) التهذيب ٢/ ٢٦٩، ٨/ ٨١.

(٣٦٢) المصدر السابق ٨/ ٣٢. (مغص).

(٣٦٣) المصدر السابق ٢/ ١٩٣ (معط).

(٣٦٤) المصدر السابق ٢/ ٩٨ (لعس).

(٣٦٥) جمهرة أنساب العرب ٢٠.

العين والقاف

قال الخليل: البالوقة والبالوعة، طوقت له نفسه: لغة فى طوعت بمعنى رخصت وسهلت، وليس بين الصوتين تقارب فى المخرج أو الصفات، فالعين حلقية من وسط الحلق والقاف من أقصى اللسان، والعين متوسطة على حين أن القاف شديدة وهذا من قبيل اللهجات.

الغين والقاف

عسّ الليل وغسّ: أظلم، ويقال: قسّ أيضا.

ولعل ذلك من باب التصحيف وذكر صاحب اللسان أن ذلك لغة تميم.

الفاء والقاف

الزحلوفة آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل وهى لغة أهل العالية وتميم تقوله بالقاف(٣٦٦) ونسب ابن السكيت القاف إلى هوازن أيضا، وابن دريد عكس فنسب القاف للحجاز والفاء لتميم(٣٦٧).

والقرزوم - بالقاف - الخشبة التى يحذو عليها الحذاء وجمعها قرازيم وقال ابن السكيت: هو الفرزوم بالفاء، وفى شعر الطرماح يصف النساء:

إلى الأبطال من سبأ تكمت ... مناسب منه غير مقرزمات

أى غير لئيمات وهما لغتان(٣٦٨).

وينقل بعض الباحثين رأى بعض الغربيين وهو: دى كورتنال الذى عرضه سنة ١٨٩٣ وملخصه أن الأصوات التى فى الحنك تتقدم فى اتجاه مقدم الفم إلى الأسنان والشفتين.

وقرر أن القاف التميمية هى كاف قافية تميمية تطورت إلى الفاء عند أهل العالية.

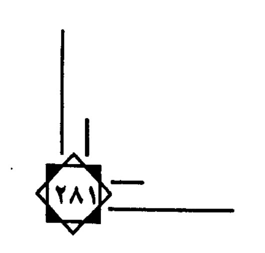
كما ذكر هذا الباحث أنه يمكن تفسير زحلوفة بالفاء والقاف وفق قانون المغايرة

---

(٣٦٦) التهذيب ٥/ ٣٠٤.

(٣٦٧) القلب والإبدال ٦٤، والمزهر ١/ ٥٥٤.

(٣٦٨) التهذيب ٩/ ٣٩٩، ٤٠٠.



الذى يلجأ إلى تغيير أحد المتماثلين إلى حرف آخر بغية التخفيف فأصل (زحلوفة) وزحلف من (زحف) - بتضعيف الحاء - فنقلت إلى زحلف - بإبدال إحدى الحاءين لاما للتخفيف - كما أن الكلمة بالقاف أصلها (زلّق) فأبدل مكان إحدى اللامين قافا.

وكلا الرأيين فى نظرنا لا دليل عليه بل إننا نرى أن الإدغام ربما يكون ناشئا عن تحويل الحروف المختلفة إلى حروف متماثلة وإدغامها طلبا للإسراع فى النطق وعدم تكلف المجهود العضلى(٣٦٩).

وقانون الأصوات الحنكية مقيد كما يقول: (يسبرسن) بأن يلى الصوت المحول صوت اللين الأمامى وهو الكسرة القصيرة أو الطويلة إلى جانب أن القاف والفاء متباعدتان فى الصفات كالجهر والهمس والاستعلاء والاستفال والشدة والرخاوة بخلاف ما حول فى المعاجم.

وعرض هذا الباحث تفسيرا لنشأة القاف والفاء عن طريق النحت بناء على مذهب ابن فارس فى نحت ما زاد على ثلاثة أحرف من الألفاظ الرباعية والخماسية المجردة فقال: إن زحلف منحوتة من (زحف) و(زلف) أو (زحل) و(زلق) أو إن الكلمة بالفاء والقاف ترجع إلى مادة واحدة هى (زحل) زيدت عليها الفاء عند أهل العالية والقاف عند تميم، ومما يقوى ذلك عنده ورود زحاليل بمعنى زحاليق فظهرت اللام ولكن أصلها (زحل)، وهذا الرأى الذى قال به ابن فارس لم يسلم من النقد عند علماء اللغة فقوله بنظرية النحت قول غير مطرد فمعرفة الأصلين للكلمة المنحوتة لم يكن أمرا واضحا على الدوام بل خفى الأصل الثانى فى معظم الأحيان.

وعند معرفة أصل واحد دون الآخر رأى أن الحرف الذى لم يعرف أصله زيد للمبالغة دون دليل واضح، وأحيانا خفى على ابن فارس معرفة الأصلين معا فقال - حينئذ - إن ذلك مما وضع وضعا وليس منحوتا كالزخرف والخندريس وغير ذلك مما يؤيد ضعف نظريته وضعف ما بنى عليها(٣٧٠)، ويكفى أن نقول: إنها لهجات دون معرفة أصلها

---

(٦٩) انظر كتابنا: أصوات اللغة العربية ص٢٤٢ وما بعدها.

وكتابنا: أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى ص١٩٠ وما بعدها عن رأى مشابه لهذا فى بعض الصيغ ومناقشته.

(٣٧٠) انظر كتابنا: العربية خصائصها وسماتها ط٤ ص٣٠٣ وما بعدها.

التطورى أو إن ذلك نشأ بطريق التصحيف، وقد وضع السيوطى: الزحلوفة والزحلوقة فى باب (معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف)[٣٧١].

القاف والكاف

من أمثلة ذلك: كشطت وقشطت ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ فى قراءة عبد الله (قشطت) بالقاف[٣٧٢] والمعنى واحد - أمتك الفصيل ما فى ضرع أمه وامتق.

وقد عد ابن جنى المثال الأول من اختلاف اللهجات ورجح الإبدال فى الثانى يقول عن الأول: أخبرنى أبو على قراءة عليه عن أبى بكر عن بعض أصحاب يعقوب عنه قال: قال الفراء: قريش تقول كشطت وقيس وتميم تقول قشطت بالقاف وليست القاف فى هذا بدلا من الكاف لأنهما لغتان لأقوام مختلفين[٣٧٣]، ويقول عن الثانى: الأظهر فيه أن تكون القاف بدلا من الكاف لما ذهب إليه أبو على لأنه قال: من هذا أخذ اسم مكة لأنها كالمجرى للماء فهو ينجذب إليها... فقول الجميع مكة ولم يقولوا مقة يقوى أن الكاف هى الأصل[٣٧٤]، والناظر فى العلاقة الصوتية بين الحرفين يراها قوية فكلاهما من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ويتفقان فى الانفتاح والإصمات والهمس - على رأى المحدثين فى القاف بأنها مهموسة - فلا مانع من التبادل بينهما وقد فضلت تميم، القاف لاختيارها للأصوات المستعلية القوية وفضلت الحجاز الكاف لاستفالها ورقتها.

أما تقدير ابن جنى بأن الكاف أصل فى امتك اعتمادا على كثرة تصرفها واشتقاق مكة منها بالمعنى الذى نقله عن أستاذه، وبذلك تكون مادتها أكثر تصرفا من مادة (مق) فغير مسلم له من نواح:

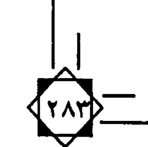
١ - أن ما نقله عن أستاذه ليس «إلا وجها واحدا من وجوه كثيرة قيلت فى التعليل لتسمية مدينة البيت الحرام بهذا الاسم (مكة) فقد قيل: سميت بذلك لقلة مائها وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أى يستخرجونه، وقيل: سميت مكة لأنها كانت تمك من ظلم فيها

(٣٧١) المزهر ١/ ٥٣٧.

(٣٧٢) سورة التكوير الآية ١١، وانظر التهذيب ١٠/ ٦، والمعنى: نزعت فطويت.

(٣٧٣) سر الصناعة ١/ ٢٧٨، واللسان ٩/ ٢٥٥.

(٣٧٤) سر الصناعة ٨/ ٢٧٨، ٢٧٩.



والحد أى - تهلكه[٣٧٥] ولا صلة للتسمية الثانية المعلل بها بمعنى امتك الفصيل ضرع أمه فلا تفضل بذلك (مق) لأن (مق) لها معان أخرى غير المعنى المشترك بينهما وهو الامتصاص.

٢- وكما أن (مك) تستخدم فى غير معنى الامتصاص كالإهلاك والازدحام كذلك استعملت (مق) فى معان أخرى مثل: مققت الشيء أمقه فتحته، ومقق الرجل عياله: إذا ضيق عليهم فقرا أو بخلا[٣٧٦] وبهذا لا نجد فرقا فى الاستعمال بين المادتين فلا مانع إذًا أن تكون الكاف مبدلة من القاف أو العكس.

على أننا لو قدرنا القاف هى الأصل لكان أقرب إلى تسهيل النطق إذ من العادة أن الإبدال يكون للتخفيف والسهولة والكاف أسهل نطقا من القاف، بل إن القاف عندما تنحدر إلى مقدم الفم فى مخرجها تنقلب كافا.

وأيًّا كان الأمر فإن التبادل بينهما ظاهرة لهجية.

اللام والنون

من ذلك: الدمان والدمال - بالفتح وتخفيف الميم - فساد التمر قبل إدراكه حتى يسود.

وفى الحديث: (**كانوا يتبايعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها فإذا جاء التقاضى قالوا: أصاب التمر الدمان**)، وإذا طلعت النخلة عن عفن وسواد قيل: أصابها الدمان، النون واللام بمعنى[٣٧٧].

ومن ذلك الضميلة أو الضمينة: الزمنة ليبس وجسوّ فى ساقيها ويروى بالصاد مكان الضاد.

وفى حديث معاوية (**أنه خطب إليه رجل بنتا له عرجاء فقال: إنها ضميلة فقال: إنى أريد أن أتشرف بمصاهرتك ولا أريدها للسباق فى الحلبة**).

---

(٣٧٥) اللسان ١٢/ ٣٨٠.

(٣٧٦) المصدر السابق ١٢/ ٢٢٣. وإذا كانت هذه المعانى لا تتصل بالمعنى الأول (الامتصاص) فإن معنى الإهلاك وتفسير مكة عليه (وربما كان هو المعقول) لا صلة له أيضا بالمعنى الأول، وإذا كانت له صلة مجازية فإن صلة المعنى الذى رويناه من تضييق الرجل على عياله مجازية مثل تلك الصلة فى (مك) فلا فرق إذًا بين المادتين. انظر سر الصناعة ١/ ٢٧٩، ولسان العرب فى الموضعين السابقين.

(٣٧٧) النهاية ٢/ ١٣٥ (دمن).

ويقول الزمخشرى: إن صحت الرواية بالضاد فاللام بدل النون من الضمانة وإلا فهى بالصاد المهملة(٣٧٨).

ومن ذلك: العلاك والعلك: شجر ينبت بناحية الحجاز ويروى بالنون، وسئل جرير عن منزله ببيشة فقال: سهلٌ دكداك وحمض وعلاك(٣٧٩).

ويقال: كلاز وكناز لمجتمع الخلق الشديد واكلأزّ: إذا انقبض وتجمع، قال حميد ابن ثور: نَحْمِل الهمَّ كِلازاً جلعدا(٣٨٠).

ويقال: هتلت السماء وهتنت، وسحائب هتّل وهتّن وعُلوان الكتاب وعنوانه ولهزته ونهزتُه: دفعته وضربته وأسود حالك وحانك(٣٨١).

وذكر ابن جنى بعض الأمثلة التى تبدل فيها اللام من النون كقول النابغة الذبيانى:

وقفت فيها أصيلالا أسائلها أعيت جوابا وما فى الربع من أحد(٣٨٢)

والنون من مخرج اللام وهو طرف اللسان مع اللثة العليا وبينهما الراء فى ترتيب الحروف إلا أنها من مخرجهما(٣٨٣).

والللام والنون تتفقان فى جميع الصفات وهذا يسوغ التبادل بينهما، ولكن الصرفيين جعلوا إبدالهما فى المثال السابق شاذا أو نادرا ولا وجه للشذوذ فيه إذ إنه متفق مع قوانين الإبدال الصوتية وربما كان للمخالفة التى تدعو إلى تغيير أحد المثلين أثر فى ذلك التبادل وبخاصة أن الحاجز بينهما غير حصين وهو الألف.

ومن الأمثلة التى أوردها ابن جنى مما يصح فيه التبادل: رعن ورعل (أنف الجبل) خامن وخامل - لعن ولعل - بن وبل - هتنت السماء وهتلت.

والعلاقة بين النون واللام قوية تسوغ التبادل فهما متحدان مخرجا وصفة، ولكن ابن

---

(٣٧٨) المصدر السابق ٣/ ١٠١ (ضمل). (٣٧٩) المصدر السابق ٣/ ٣٩٠ (علك).

(٣٨٠) المصدر السابق ٤/ ١٩٦. (٣٨١) المزهر ١/ ١٦٥.

(٣٨٢) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ٦١.

(٣٨٣) ينظر الصناعة ١/ ٥٠، ٥٢ وأصيلالا تصغير أصيل على غير قياس وقيل جمع أصيل على أصلان مثل بعير وبعران، ثم صغّروا الجمع فقالوا: أصيلان، ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا: أصيلال والأول أولى. التصريح ٢/ ٢٨.

جنىَ جعل لكل من رعل ورعن - وهو (أنف الجبل)- اشتقاقا، فرعن بالنون مشتق من الرعن وهو الاضطراب قال الشاعر:

ورحلوهـا رحلـة فيهـا رعـن

أما رعل باللام فمن الرعلة والرعيل وهو قطعة من الخيل، والخيل توصف بالحركة والسرعة[٣٨٤] وبذلك يلتقى المعنيان على سبيل المجاز فهما أصلان، ورأى ابن جنى فى هذا سديد على أنه لا مانع من التبادل، وقد حكم بأن هتلت السماء وهتنت وسكر طبرزل وطبرزن أصلان لأنهما متساويان فى التصرف والاستعمال[٣٨٥]، ولا مانع من التبادل - كما ترى - لأن مقياس التصرف غير دقيق، وفى خامل الذكر وخامن قال: النون فيه بدل من اللام ألا ترى أنه أكثر وأن الفعل عليه تصرف وكذلك قولهم: خمل خمولا[٣٨٦] ولكن الباحث يرى أنه يمكن اشتقاق خامن من مادة (خمن) ولذا يقال: خمّان للرمح الضعيف ومن الناس رديئهم والخمن محركة النتن[٣٨٧] ولهذا صلة بمعنى خامن الذكر فيمكن اشتقاقه منه فلا إبدال بينهما إذًا، ولكن العلاقة الصوتية تسوغ التبادل[٣٨٨] كما حكم ابن جنى بإبدال النون من لام لعل، وفى بل عمرو وبن عمرو قال ابن جنى: النون بدل من اللام ألا ترى إلى كثرة استعمال بل وقلة استعمال بن والحكم على الأكثر لا على الأقل، هذا هو الظاهر من أمره، ولست مع هذا أدفع أن يكون (بن) لغة قائمة برأسها[٣٨٩].

وهنا نرى ابن جنى يتشكك فى مقياس كثرة التصرف والاستعمال ويعتبره أمرا ثانويا، وفى كل هذه الأمثلة نقول: إن إحداهما أبدلت من الأخرى فى لغة فريق ويبدو أن اللام من خصائص الحضر والنون من خصائص البدو لميلهم إلى غموض الأصوات على حين يميل الحضريون إلى الأناة وفصل الأصوات والإبانة عنها واضحة جلية.

وقد نسبت النون فى بعض الكلمات لبنى سعد وكلب وباهلة، قال الفراء: والعرب

---

(٣٨٤) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨٤.
(٣٨٥) الخصائص ٢/ ٨٢.
(٣٨٦) المصدر السابق ٢/ ٨٤.
(٣٨٧) القاموس ٣/ ٤٧٧، ٤/ ٢٥٥.
(٣٨٨) لسان العرب ١٣/ ٢٣٤.
(٣٨٩) الخصائص ٢/ ٨٤.

تقول: لابن بمعنى لابل[٣٩٠]، وبنو سعد هم بنو سعد بن قيس عيلان بن مضر، والباهليون هم بعض بنى سعد لأنهم أبناء مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان[٣٩١].

وبعض الأعلام الأعجمية جاءت باللام والنون مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وجاءت بالنون كذلك وهى الأصل فى هذه الأعلام، وقد نسبت اللام لكثير من اللهجات كأهل الحجاز وتميم وقيس وكثير من أهل نجد والنون نسبت إلى بنى أسد[٣٩٢].

ويقال: العلوان لغة فى العنوان[٣٩٣] ويقول ابن السكيت: حكى عن بعض كلب عنيان الكتاب[٣٩٤].

الميم والنون

يقال: طانه الله على طينته أى خلقه الله على جبلته، وطينة الرجل خلقه، وأصله مصدر من طان، ويروى طين عليه وطيم بمعنى أى جبل عليه[٣٩٥].

ويقال: قمح البعير يقمح إذا رفع رأسه من الماء بعد الرى ويروى بالنون.

وفى حديث أم زرع: (أشرب فأنقمح) أى حتى تروى وترفع رأسها[٣٩٦].

ومتّ ونتّ، ففى حديث عمر **(أن رجلا أتاه يسأله قال: هلكت قال: أهلكت وأنت تمتُّ متَّ الحميت؟)** أى ترشح من السمن ثم يقول: وروى بالنون[٣٩٧].

ويتعذر نسبة هذه الكلمات إلى أصحابها.

ويقال للريح الشمالية مسع ونسع والغيم والغين للسحاب وامتقع لونه وانتقع والحزن والحزم: ما غلظ من الأرض، وأسود قاتم وقاتن[٣٩٨].

---

(٣٩٠) التهذيب ١٥/ ٣٩٤ قال الفراء وهى لغة بنى سعد ولغة كلب قال: وسمعت الباهليين يقولون: لابن بمعنى لابل. لسان العرب ١٣/ ٧٣. ويذكر جواد على أن (بن) كانت تستخدم عند أهل اليمن حرف جر بمعنى (من) و(عن) بلغة الشمال وأنها وردت كذلك فى كتابات المسند. المفصل ١/ ١٠٢، ٧/ ١٣٠.

(٣٩١) جمهرة أنساب العرب ٢٤٤، ٤٨١.

(٣٩٢) البحر ١/ ٢١٨.

(٣٩٣) فى التهذيب لغة غير جيدة ١/ ١١٣.

(٣٩٤) القلب والإبدال ٨.

(٣٩٥) النهاية ٣/ ١٥٣.

(٣٩٦) المصدر السابق ٤/ ١٦ (قمح).

(٣٩٧) المصدر السابق ٤/ ٢٩٤ (مقت).

(٣٩٨) سر صناعة الإعراب ١/ ٢١٩، ٢٢٠، المزهر ١/ ٤٦٨.

ومما أورده ابن جنى للتبادل بين الميم والنون: دهنج البعير ودهمج: إذا قارب الخطو وأسرع، وبعير دهانج ودهامج وقاتم اللون وقاتن، ففي المثال الأول حكم بأن كلا من الكلمتين أصل بناء على التساوى فى التصرف والاستعمال(٣٩٩).

وقال: ذهب أبو عمرو الشيبانى فى قول الطرماح:

كطوف متلى حجة بين عبقب   وقرة مسودٌ من النسك قاتن

إلى أنه أراد قاتم أى أسود فأبدل الميم نونا قال: وقد يمكن غير ما قال،وذلك أنه يجوز أن يكون أراد بقوله: قاتن فاعلا من قول الشماخ:

وقد غرقت مغانيها وجادت   بدرتها قرى حجن قتين

والقتين: الحقير الضئيل، فإذا كان كذلك لم يكن بدلا(٤٠٠).

والناظر فى العلاقة بين الميم والنون يرى أن المخارج متباعدة، فالميم حرف شفوى والنون من طرف اللسان مع اللثة العليا وبينهما حروف: ط - د - ت - ص - ز - س - ظ - ذ - ث - ف - ق وليس هنا ما يدعو إلى انتقال المخرج فلا يسوغ التبادل، اللهم إلا إذا اعتبرنا اتحاد الصفات أمرا يدعو إليه ويسوغه بالإضافة إلى وجوه التقارب والشبه الأخرى التى ذكرناها سابقا.

والواقع أن تخريج كل مثال مما سبق على أنه لهجة يستعملها فريق من العرب أمر معقول، وذلك واضح فى المثال الأول وفى المثال الثانى كذلك إلا أنه يجوز فيه أن تكون كل كلمة مشتقة من مادة تختلف عن الأخرى فقاتم من قتم بمعنى أسود على ما نعرف وقاتن من القتن وهو الحقير الضئيل ويكون معنى بيت الطرماح أن المشبه به رجل يطوف بين هذين الصنمين (عبقب وقرة) وأن هذا الرجل مسود من النسك حقير للضرر والجهد الذى يبذله(٤٠١).

وهذا ما عناه ابن جنى وهو سديد، وعلى هذا فلا إبدال بينهما لاختلاف الاشتقاق.

وأورد ابن جنى أمثلة للتبادل بين النون والميم منها: قنبر - عنبر - قنبلة (قمبر - عمبر - قمبلة)، وقول الشاعر:

---

(٣٩٩) الخصائص ٢/ ٨٣.

(٤٠٠) سر الصناعة الوجه الثانى من الورقة ٨٤.

(٤٠١) اللسان ١٧/ ٢٠٨، والقتين فى البيت اسم للقراد ويسمى بذلك لقلة دمه أو لقلة طعمه لأنه يقيم المدة الطويلة من الزمان لا يطعم شيئا، وقد جعل الشاعر عرق هذه الناقة قوتا للقراد.

يا هال ذات المنطق التمتام   وكفك المخضب البنام

فتبدل الميم من النون إذا وقعت بعده: باء وهى ساكنة مثل: قنبر - عنبر - قنبلة،وإنما قلبت لما وقعت ساكنة قبل الباء من قبل أن الباء أخت الميم، وقد أدغمت النون مع الميم نحو: من معك ومن محمد، فلما كانت تدغم النون مع الميم التى هى أخت الباء أرادوا إعلالها أيضا مع الباء إذ قد أدغموها فى أختها الميم(٤٠٢).

فوجود الباء فى هذا النوع من الأمثلة استلزم انتقال النون من مخرجها إلى مخرج الباء، وترتب على هذا الانتقال أن استبدل بالنون صوتا نظيرا لها فى المخرج الجديد، وأقرب أصوات هذا المخرج الجديد إلى النون هو الميم؛ لأن كلا منهما من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين فضلا عن أن النون والميم صوتان أنفيان(٤٠٣).

وفى هذا يقول ابن جنى: ولما كانت الميم التى هى أقرب إلى الباء من النون لم تدغم فى الباء مثل أقم بكرا لا تقول: أقبكرا ولا فى قم بالله: قبالله كانت النون التى هى من الباء أبعد منها من الميم أجدر بألا يجوز فيها الإدغام فى الباء ، فلما لم يصلوا إلى إدغام النون فى الباء أعلوها دون إعلال الإدغام فقربوها إلى الباء وهو الميم(٤٠٤). وكلمة (البنام) أبدلت فيها الميم من النون لروى الأبيات ولما فيها من الغنة والهوى، وقد عد هذا الإبدال شاذا(٤٠٥) لأن المخارج متباعدة وليس هناك داع لانتقال مخرج الصوت، فالميم حرف شفوى والنون من طرف اللسان مع اللثة العليا بيد أنهما متحدان فى جميع الصفات، وقد يكون ذلك - مع وجوه الشبه السابقة - مسوغا لهذا التبادل وقد تكون تلك لهجة بدوية.

قال أبو عمرو: الدمدم: أصول الصليان المحيل فى لغة بنى أسد وفى لغة بنى تميم: الدندن(٤٠٦).

---

(٤٠٢) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨١.

(٤٠٣) الأصوات اللغوية ١٣٣.

(٣٠٤) سر الصناعة (الأزهر) الوجه الأول من الورقة ٨١.

(٤٠٥) لعدم وجود الباء بعد النون وهى متحركة لا ساكنة، الأشمونى ٤/ ٣١٩.

(٤٠٦) التهذيب ١٤/ ٨٢. والقلب والإبدال لابن السكيت ٢٢، والصليان: نبت والمحيل الذى أتى عليه حول.

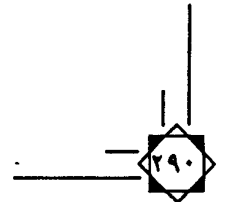
تعقيب:

عرضنا - بالبحث والتحليل - ظاهرة الإبدال اللغوى فى الحروف الصامتة، وشرحنا آراء اللغويين القدامى والمحدثين فى أسباب هذه الظاهرة وسبل علاجها، ورأينا اشتجار الآراء فى إدخال اللفظ فى نطاقها، أو إخراجه منها وفق ما ارتأى أصحاب هذه الآراء من أدلة، ووجهات نظر مختلفة.

ومن خلال دراستى لها على أسس ومعايير دقيقة استطعت - بتوفيق الله وعونه- أن أبين وجه الحقيقة فى انتماء اللفظ إلى الإبدال أو خروجه من دائرته، بالتحليل الواعى المستند إلى الأدلة، والبراهين العلمية واللغوية الصحيحة، واتضح - من خلال البحث- أن معظم كلمات هذه النوع ليست من الإبدال، وأنها تنتمى إلى بيئات لغوية متعددة، وأن بعضها نشأ نتيجة الحاجة إلى التنوع فى الأصوات لتجدّد المعانى، أو لتطورها التاريخى صوتيا ودلاليا.

وبذلك يمكن الحكم الصحيح على هذا العدد الكبير من الكلمات، التى تتنوع صورها اللفظية باختلاف بعض الحروف فيها وكيفية ردّها إلى أصلها، وبذلك لا تمثل عبثا على المعجم العربى ويتبين أن العربية ليس فيها فضول، بل هى لغة اللفظ والمعنى على سواء، ويتجلى بذلك أن لغة العرب فيها من الدقة مالا يتوافر لغيرها من اللغات.





ثانيا: الإبدال فى الحركات

(أ) ما له مصطلح لهجى أو لغوى

ذلك يتنوع بين ما يتصل ببنية الكلمة وما يتعلق ببنائها ونذكر صورا من ذلك.

الوكم

هو كسر كاف الخطاب فى الجمع عند فريق من العرب، فالمشهور أن جمهور العرب يضم كاف الخطاب للجمع مطلقا دون نظر إلى الحرف أو الحركة التى تسبقها.

ولكن ربيعة أو بكر بن وائل يكسرون هذه الكاف إذا سبقت بياء أوكسرة فى مثل (عليكم) و(بكم) وذلك مناسبة للياء أو الكسرة قبلها.

وسيبويه يصف هذه اللهجة بالرداءة فيقول عند الحديث عن كسر الكاف فى (أحلامكم) من قول الشاعر:

وإن قال مولاهم على جل حادث
من الدهر ردوا فضل أحلامِكِمْ ردوا

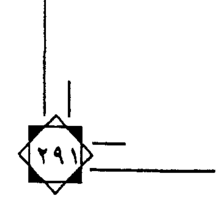
وإنما كسرت الكاف من (أحلامكم) ونحوه تشبيها لها بهاء (أحلامهم) لأنها أختها فى الإضمار ومناسبة لها فى الهمس وذلك ضعيف؛ لأن أصل الهاء الضم والكسر عارض عليها بخلاف الكاف فحمل الكاف عليها بعيد لأنها أبين وأشد[(١)].

وقد وصفها المبرد بأنها غلط فاحش قال: وناس من بكر بن وائل يجرون الكاف مجرى الهاء، إذا كانت مهموسة مثلها. وكانت علامة إضمار كالهاء وذلك غلط فاحش منهم، لأنها لم تشبهها فى الخفاء الذى من أجله جاز ذلك فى الهاء، وإنما ينبغى أن يجرى الحرف مجرى غيره إذا أشبهه فى علته، فيقولون: مررت بكم وينشدون هذا البيت: وإن قال مولاهم... إلخ[(٢)].

---

(١) الكتاب ٤/ ١٩٧ بتصرف.

(٢) المقتضب ١/ ٢٦٩، ٢٧٠.



وبعض العلماء نسب هـذه اللهجة لربيعة وناس من بكر معـا، وربما تسرب ذلك من الآرامية والعبرية اللتين كانتا مجاورتين لسكان الطائفتين قريباً من العراق.

الـوهـم

المعروف أن هاء ضمير الغيبة للجمع تـكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة في مثل قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ﴾، وقوله عـز وجل:﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، وقوله جـل وعلا: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾.

وتضم الـهاء في غيـر ذلك كمـا في قوله تعـالى:﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وبنو كلب يكسرون هاء ضمير الجمع الغائب مطلقا سواء سبقت الهاء بياء أو كسرة أو لا فيقولون: فيهم - عنهم - بينهم. قال سيبويه: واعلم أن قوما من ربيعة يقولون (منهم) أتبعوها الكسرة، ولم يكن المسكن حاجزا حصينا عندهم، وهي لغة رديئة، فإذا فصلت بين الهاء والكسـرة فالزم الأصل، لأنك قد تجرى عـلى الأصل ولا حاجز بينهمـا، فإذا تراخت وكان بينهـما حاجز لم تلتق المشـابهة، ألا ترى أنك إذا حركت الصاد فـقلت: صدق، كان من يحقق الصاد أكثر لأن بينهما حركة، وإذا قال: مصادر، فجعل بينهما حرفا ازداد التحقيق كثرة، فكذلك هذه[٣]، وبعضهـم - وهـم بعض ربيعة أو كلب بن وبرة من قضاعة - يضمون هاء (هم) دائما سـواء تقدم عليهـا ياء أو كسرة أو لم يتقـدم، وتسمى هذه اللهـجة الأخرى بالوهـم.

تلتلة بهراء

هي كسـر حرف المضارعة عـدا الياء[٤]، وهذا في الأفـعال الـتي زادت على ثـلاثة أحرف، ومن ذلك ما ذكره ابـن فارس في كتابه الصاحبي، قال في (بـاب القول في اختلاف لغات العرب):

«اختلاف لغات العرب من وجوه، أحدها: الاختلاف في الحركات كقولنا (نستعين)

---

(٣) الكتاب ٤/ ١٩٦ وانظر المزهر نقلا عنه ١/ ٢٢٢.

(٤) القاعـدة عند أكثر العـرب أنهم يفتحـون حرف المضارعـة في جميع الأفـعال إلا الرباعي منهـا فإنهم يحركونه بالضم.

و(نِستعين) بفتح النون وكسرها. قال الفراء: هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد وغيرهم يقولونها بالكسر»[٥].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، قال أبو حيان فى البحر: «وفتح نون نستعين قرأ بها الجمهور وهى لغة الحجاز وهى الفصحى، وقرأ عبيد بن عمير الليثى وزيد بن حبيش ويحيى بن وثاب والنخعى والأعمش بكسرها وهى لغة قيس وتميم وأسد وربيعة، وكذلك حكم حرف المضارعة فى هذا الفعل وما أشبهه»[٦].

أما فى الثلاثى فإذا كان الفعل أجوف أو ناقصا أو مضاعفا وكان الماضى مكسور العين فلغة غير الحجازيين كسر حرف المضارعة إلا الياء.

يقول سيبويه: «هذا باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للأسماء كما كسرت ثانى الحروف[٧] حين قلت فعِل وذلك فى لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز وذلك قولهم: أنت تعلم ذاك وأنا إعلم وهى تعلم ونحن نِعلم ذاك، وكذلك كل شيء فيه فعِل من بنات الياء والواو التى الياء والواو فيهن لام أو عين والمضاعف، وذلك قولك شقيت فأنت تشقى وخشيت فأنا إخشى، وخلنا فنحن نخال، وعضِضتن فأنتن تعضِضنَ وأنت تعضِّينَ»[٨].

وقال ابن جنى: «وأما تلتلة بهراء فإنهم يقولون تِعلمون وتفعلون وتِصنعون[٩] بكسر أوائل الحروف» وقال ابن منظور فى اللسان: «وتلتلة بهراء كسرهم تاء تفعلون يقولون يِعلمون وتشهدون ونحوه»[١٠].

وعليها جاء قول الشاعر:

لو قلت ما فى قومها لم تيثم ... يفضلها فى حسب وميسم[١١]

وقال الرضى فى شرح الكافية:

---

(٥) الصاحبى: ٢٨.

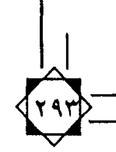
(٦) البحر المحيط ١/ ٢٣، ٢٤.

(٧) وذلك للتنبيه على حركة عينه فى الماضى. و(فعل) - فى النص - يضبط بكسر العين.

(٨) الكتاب ٤/ ١١٠ وفى ط بولاق ٢/ ٢٥٦، ٢٥٧.

(٩) الخصائص ٢/ ١١، وسر الصناعة ١/ ٣٣٥.

(١٠) اللسان ١/ ٤٤٢. (١١) شرح التصريح ٢/ ١١٨.



«وكسر حروف المضارعة إلا الياء غير الحجازيين إذا كان الماضى مكسور العين، ويكسرون الياء أيضا إذا كانت بعدها ياء أخرى»[١٢].

وذكر أبو حيان أن أبا عمرو قرأ ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بكسر التاء على لغة تميم[١٣] ويقول ابن جنى: فى تخريج قراءة (فتمسكم) بكسر التاء: «هذه لغة تميم أن تكسر أول مضارع ما يأتى ماضيه مكسور العين نحو علمت تعلم وأنا إعلم وهى تعلم ونحن نركب، وتقل الكسرة فى الياء نحو يعلم ويركب استثقالا للكسرة فى الياء وكذلك ما فى أول ماضيه همزة وصل نحو ينطلق ويوم تسود وجوه وتبيض وجوه فكذلك فتمسكم النار»[١٤].

وقال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ قرأ الجمهور (أعهد)- بفتح الهمزة والهاء - وقرأ طلحة والهذيل بن شرحبيل الكوفى بكسر الهمزة. قال صاحب اللوامع: وهذا الكسر فى النون والتاء أكثر من بين حروف المضارعة يعنى نِعهد وتعهد، وقال ابن عطية: وقرأ الهذيل بن وثاب (ألم اعهد) بكسر الهمزة وفتح الهاء وهى لغة من كسر أول المضارع سوى الياء[١٥].

وفى الحديث: **كأنك وهمت؟ قال: وكيف لا إيهم** فالأصل: أوهم - بالفتح والواو - فكسروا الهمزة لأن قوما من العرب يكسرون مستقبل فعل - بكسر العين - مثل أعلم ونعلم وتعلم فلما كسروا همزة (أوهم) انقلبت الواو ياء[١٦] ومن هذه النصوص فهمنا أن المضارع المبدوء بالياء لا يكسر لثقل الياء والكسرة فهو مفتوح فى الثلاثى وغيره عند العرب جميعا، إلا إذا توالت الياءات فقد سمع الكسر مثل ييجل مضارع وجل.

كما أننا علمنا كذلك من كتب اللغة كسر أوائل المضارع عند الحجاز لا فرق فى ذلك بين الهمزة أو التاء أو النون ولا بين الثلاثى وغيره، ويدخل فى ذلك كسر الهمزة فى (أعهد) التى نقلنا تفسيرها عن البحر المحيط، وكذلك كسر همزة (أخال) فى قول العباس ابن مرادس:

قد كان قومك يحسبونك سيدا   وإخال أنك سيد معيون[١٧]

---

(١٢) شرح الكافية ٢/ ٢٢٨ ونسب هذا الكسر فى الياء إلى بعض بنى كلب يقولون: هل يعلم. البحر ٧/ ٣٤٣.
(١٣) البحر ٥/ ٢٦٩.
(١٤) المحتسب ١/ ٣٣٠.
(١٥) البحر المحيط ٧/ ٣٤٣.
(١٦) النهاية ٥/ ٢٣٤.
(١٧) لسان العرب (خال).

وقول زهير:

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء[١٨]

وبعض اللغويين عكس الأمر فى الفعل (أخال) فنسب الكسر للحجاز والفتح لغيرهم.

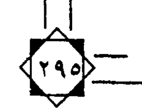
وبعضهم قصر التلتلة على كسر التاء فقط، ولكن كتب اللغة تنطق بخلاف ذلك وأن الأمر شائع فى غير الياء. وهى شائعة فى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها كأسد وتميم وقيس وإن اشتهرت نسبتها إلى بهراء التى هى بطن من تميم أو من قضاعة[١٩].

وقد فشت نسبتها إلى قبائل أخرى من أهل الحجاز وغيرهم فيذكر ابن عطية أن ذلك نسب إلى قريش عند شرح قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وقد ذكر أن (تأمنه) بكسر التاء لغة قرشية[٢٠]، ويذكر أبو حيان أنها لغة فاشية فى العرب كقيس وتميم وأسد وربيعة وهذيل[٢١] وفى اللسان: وتقول: أنت تتقى الله وتتقى الله على لغة من قال: تعلم وتعلم بفتح التاء وكسرها وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب، أما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون: تعلم بفتح التاء والقرآن عليها[٢٢].

وفى المخصص أنها لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، وكذلك ذكر سيبويه[٢٣] ويذكر السيوطى فى تستعين ونحوه أن الفتح لغة قريش وأسد، وغيرهم يكسرها[٢٤] .

وهذا يؤكد انتشار الكسر فى قبائل كثيرة على سبيل التأثر والتأثير وإلا فالمشهور أن الكسر فى حروف المضارعة عند أرباب البادية من القبائل المشار إليها، فبهراء من قضاعة كانوا يقطنون ناحية الشام قريبا من العراق[٢٥] وربيعة مسكنها الحيرة وأسد كانت تسكن

(١٨) شرح ديوان زهير ٧٣.
(١٩) جمهرة أنساب العرب، وخزانة الأدب ٤/ ٤٩٥، ٤٩٦، وصفة جزيرة العرب ١٣٢.
(٢٠) البحر ٢/ ٤٩٩.
(٢١) البحر ١/ ٢٣، ٢٤.
(٢٢) اللسان ١/ ١٤١، ٤/ ٤٩٣.
(٢٣) المخصص ٤/ ٢١٦، ٢١٧.
(٢٤) المزهر ١/ ٢١١.
(٢٥) صفة جزيرة العرب ١٣٢.



قبل الكوفة بخمس مراحل[٢٦] وتميم من قبائل شرقى الجزيرة بالقرب من العراق وهذيل من سكان الحجاز[٢٧] وهذه القبائل بدوية - كما نرى من البيئة التى تعيش فيها ما عدا هذيل المضرية - وقد فسر الدكتور أنيس ميل بعض قبائل المدن إلى كسر حرف المضارعة بأن «بعض القبائل التى تأثرت بحياة الحضر قد آثرت صوت اللين الأمامى الذى نسميه الكسرة»[٢٨] وحاول أن يفسر وجود تلك الظاهرة عند قبيلة بهراء بهذا المعنى فقد تأثرت لغتها بما فى الشام من لغات كالآرامية والعبرية لوضوح كسر حرف المضارعة باطراد فيهما.

والواقع أن ذلك ليس أمرا مؤكدا ولا مانع من تأثر بعض قبائل المدن بما انتشر عند إخوانهم العرب فى البوادى فهم على صلة بهم يلاقونهم ويتعاملون معهم[٢٩].

ويرى بعض الباحثين أن (هذه الظاهرة سامية قديمة توجد فى العبرية والسريانية والحبشية) وزعم أن الفتح فى أحرف المضارعة حادث فى العربية القديمة بدليل عدم وجوده فى اللغات السامية الأخرى، وبدليل ما بقى من الكسر فى بعض اللهجات العربية القديمة واستمراره فى اللهجات الحديثة كلها ولم يبق فتح حرف المضارعة فى اللهجات الحديثة فيما يعلم هذا الكاتب إلا فى لهجة نجد[٣٠].

ونسى هذا الباحث أن العربية هى اللغة السامية التى بقيت فى الجزيرة بعد هجرة أخواتها الساميات، فالفتح ليس حادثا فيها بل إنه الأصل والكسر هو الذى حدث بعد اختلاط الساميين بغيرهم.

---

(٢٦) البحر ١/ ٢٣.

(٢٧) صفة جزيرة العرب ١٣١.

(٢٨) فى اللهجات العربية ٧٤.

(٢٩) كسر حرف المضارعة منتشر فى لهجاتنا العامية.

(٣٠) فصول فى فقه العربية ص١٢٥.

التخفيف في بعض اللهجات

- بالإتباع. - بالإسكان (أو حذف الصوائت).

- باجتماع التغيير والحذف. - السكون والحركة فى الصوامت الحلقية.

أولا: بالإتباع:

فاء فعيل وفعل

يميل التميميون[٣١] إلى كسر فاء فعيل - بكسر العين - إذا كانت عينه حرفا حلقيا مثل شعير وبخيل ولئيم وشهيد ورغيف، وكذلك ما كان على وزن فعل بكسر العين وهو حلقيها مثل فخذ وضحك ولعب ووهم، وقرأ أبو السمال:﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ بكسر باء بهيمة[٣٢]، فالتميميون يتبعون الفاء للعين فى حركتها إذا كانت حلقية مكسورة[٣٣] وسواء كان ذلك فى اسم أو فعل.

ونقل عن تميم إتباع الفاء للعين فى فعيل ولو لم تكن العين حرف حلق، يقول ابن مكى: (وزعم الليث أن من العرب قوما يقولون فى كل ما كان على فعيل فعيل - بكسر أوله - وإن لم يكن حرف حلق فيقولون: كثير وكبير وخليل وما أشبه ذلك)[٣٤].

ويقول ابن منظور:

«لغة تميم شهيد - بكسر الشين - يكسرون فعيلا فى كل شىء كان ثانيه أحد حروف الحلق، وكذلك سفلى مضر يقولون فعيلا أى بالكسر، قال: ولغة شنعاء يكسرون كل فعيل، والنصب اللغة العالية[٣٥] وعلل سيبويه لعدم تأثير الفاء فى العين بقوله: «ولم تفتح هى أنفسها هنا[٣٦] لأنه ليس فى الكلام فعيل بفتح الفاء والعين وكراهية أن يلتبس فعل بكسر العين بفعل بفتحها فيخرج من هذه الحروف فعل بكسر العين، فلزمها الكسر ههنا، وكان أقرب الأشياء إلى الفتح وكانت من الحروف التى تقع الفتحة قبلها»[٣٧].

---

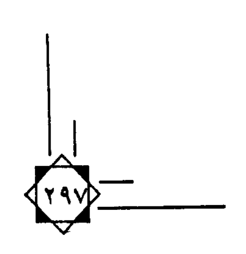
(٣١) تنسب أحيانا بلفظ سفلى مضر (وهم بنو تميم ومن يجاورهم من سكان نجد) وتنسب إلى قيس وأسد وتميم، التهذيب ٧/ ١٢٢.

(٣٢) سورة المائدة الآية (١) ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه: ٣١.

(٣٣) الكتاب ٤/ ١٠٧، ١٠٨. (٣٤) تثقيف اللسان ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٣٥) اللسان (شهد) وانظر التهذيب ٢/ ٣٧٧ حيث قال: الفتح أفصح اللغتين.

(٣٦) يقصد بعض حروف الحلق. (٣٧) الكتاب ٤/ ١٠٧، ١٠٨.



وقد جعل ابن جنى إيثار الكسر فى شعير ورغيف ونحوهما ضربا من تقريب الصوت من الصوت فسلكه فى باب الإدغام الأصغر ولكنه صرح بأن أكثر ما يكون ذلك مع حروف الحلق فقال: ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شعير وبعير ورغيف، وسمعت الشجرى غير مرة يقول: زئير الأسد يريد الزئير، وحكى أبو زيد عنهم: (الجنة لمن خاف وعيد الله) بكسر الواو فى وعيد وفى النقيذ، شبهت القاف بالخاء لقربها منها فيما حكاه أبو الحسن، كما شبهت الخاء والغين بحروف الفم حتى أخفيت النون معهما فى بعض اللغات وهذا فى فعيل مما عينه حلقية مطرد، وكذلك فعل بكسر العين نحو نغر ومحك وضحك و﴿إن الله نعما يعظكم به﴾[38] ولا يقول على هذا فى ظريف ظريف ولا فى قتيل قتيل بكسر الفاء لأنه لا حرف حلق فيه)[39].

والانسجام الصوتى بتتابع الحركات تتطلبه السرعة فى النطق التى هى من خصائص أهل البادية، ولذا نسبت هذه اللهجة إلى بنى تميم على أنه لون من التخفيف والتفريع[40].

وهذه الظاهرة تتحقق فى الأسماء والصفات والأفعال: فالأسماء مثل بعير والصفات مثل شهيد والأفعال مثل مخض فإذا أرادت الناقة أن تضع قيل: مخضت، وعامة قيس وتميم وأسد يقولون: مخضت بكسر الميم ويفعلون ذلك فى كل حرف كان قبل أحد حروف الحلق فى (فعلت) وفى فعيل (يقولون): بعير وزئير وشهيق ونهلت الإبل وسجورت منه[41].

صور من الإتباع

ومن الإتباع ما يذكره اللغويون - عن بعض العرب - فى (الحمد لله) ولذلك صور هى:

١ - اتباع الدال للام فى الكسر: الحمد لله (قرأ بها الحسن) فمن خفض الدال قال: هذه كلمة كثرت على ألسنة العرب حتى صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع فى اسم واحد من كلامهم ضمة بعدها كسرة أو كسرة بعدها ضمة،ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان فى الاسم الواحد مثل (إبل) فكسروا ليكون على المثال من أسمائهم[42].

---

(٣٨) الخصائص ١/ ١٤٣، ٢/ ٣٣٦.
(٣٩) المنصف ٢/ ٢٢٤.
(٤٠) فقه اللغة د. نجا ٤/ ٣١.
(٤١) التهذيب ٧/ ١٢٢.
(٤٢) معانى القرآن للفراء ١/ ٣.

وقال الزجاج: «لا يلتفت إلى هذه اللغة ولا يعبأ بها»[43] ويعلل الأخفش لهذا الإتباع بقوله: «قال بعض العرب (الحمد لله) فكسره، وذلك أنه جعله بمنزلة الأسماء التى ليست بمتمكنة، وذلك أن الأسماء التى ليست بمتمكنة تحرك أواخرها حركة واحدة لا تزول عنها»[44].

وهذه لهجة لبنى تميم ونسبت إلى بعض غطفان[45].

٢- إتباع اللام لضمة الدال: (الحمد لله)، (قرأ بها إبراهيم بن أبى عبلة) قال الفراء: أما الذين رفعوا اللام فإنهم أرادوا المثال الآخر من أسماء العرب الذى يجتمع فيه الضمتان مثل: الحلم والعقب[46]، وقال الزجاج: من قرأ: الحمد لله، أى برفع اللام إتباعا لحركة الدال فى غير القرآن فهى لغة رديئة[47] وهذه اللغة لبعض ربيعة[48] وأصحاب هذه اللهجات من البدو[49].

٣- والقراءة المشهورة هى (الحمد لله) برفع الدال وكسر اللام، قرأ بها الجمهور، وقال ابن خالويه بعد أن ذكر صور القراءات فى هذه الآية: لا يقرأ بشىء من ذلك إلا بما عليه كل الناس فى كل مصر (الحمد لله) بضم الدال وكسر اللام[49].

٤- وهناك قراءة أخرى: (الحمد لله) بنصب الدال، وعليها فالحمد ليس باسم إنما هو مصدر يجوز لقائله أن يقول: أحمد الله، فإذا صلح مكان المصدر (فعل أو يفعل) جاز فيه النصب، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ يصلح مكانها فى مثله من الكلام أنت تقول: فاضربوا الرقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ يصلح أن تقول فى مثله من الكلام: نعوذ بالله، ومنه قول العرب: سقيا لك ورعيا، يجوز مكانه: سقاك الله ورعاك[50].

وقال أبو حيان - فى النهر الماد - قرئ بالنصب على إضمار فعل، قيل من لفظه، تقديره: حمدت الحمد لله، فتخصص الحمد تخصيص فاعله وأشعر بالتجدد والحدوث،

---

(٤٣) اللسان: حمد.

(٤٤) معانى القرآن للأخفش ١/ ٩.

(٤٥) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس.

(٤٦) إعراب ثلاثين سورة: ١٩.

(٤٧) اللسان: حمد.

(٤٨) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس.

(٤٩) إعراب ثلاثين سورة: ١٩.

(٥٠) معانى القرآن للفراء: ١/ ٣.

ويكون من المصادر التى حذف فعلها وأقيمت مقامه، وذلك فى الاختيار نحو قولهم شكرا لا نكرا، وقيل التقدير: اقرأوا الحمد لله أو الزموا الحمد لله.

واللام فى قراءة الرفع للاستحقاق، وفى قراءة النصب للتبيين فيتعلق بمحذوف تقديره: لله أعنى نحو قولهم: سقيا لزيد(٥١)، و(الحمد لله) فى الوجهين الأولين - بالإتباع - عده ابن جنى من باب تقريب الصوت من الصوت فيقول: وجميع ما هذه حاله مما قرب فيه الصوت من الصوت(٥٢).

والإتباع كثير من هذا النوع مثل: أنا أجوءك وأنبؤك وهو منحدر من الجبل - بضم الميم والدال-(٥٣).

فهذا لون من تجانس الصوت وانسجامه يؤدى إلى الإسراع والخفة فى النطق، وقد ضعف ابن جنى الإتباع بكسر الدال، وقراءة أبى جعفر فى قوله تعالى: ﴿للملائكة اسجدوا﴾ بضم التاء فى الملائكة مع أنها مجرورة تبعا لضمة الجيم بعدها إذ الحاجز غير حصين لخلل ذلك بالإعراب.

ومن أمثلة الإتباع قراءة أبى السمال (قم الليل)(٥٤) بضم الميم إتباعا لضمة القاف وهى لغة بلعنبر وكذلك:

اضرب الساقين إمك هابل

بكسر همزة (أم) المضمومة اتباعا لكسرة النون قبلها.

ومن ذلك يتضح أن الإتباع تارة يكون للأول وأخرى يكون للثانى، وهذا اللون من الانسجام وتأثر الأصوات اعترف به اللغويون المحدثون وأطلقوا على كل من قسميه اسما خاصا فإذا تأثر الصوت الأول بالصوت الثانى سمى تأثرا رجعيا وإذا تأثر الثانى بالأول سمى تأثرا تقدميا، ويلاحظ أن هذا التقريب فى نطق الأصوات قد أثر عن أهل البادية كنجران(٥٥) وبلعنبر وأزد شنوءة(٥٦) إذ إنه يساعد على سهولة إخراج بعض الأصوات وقلة المجهود العضلى، وهذا بخلاف أهل المدن الذين يعمدون إلى إيضاح الأصوات وفصل كل منها عن الآخر.

---

(٥١) النهر الماد على البحر المحيط ١/ ١٨.
(٥٢) الخصائص ٢/ ١٤٥.
(٥٣) الخصائص ٢/ ١٤٣.
(٥٤) المحتسب ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦، ٧٢.
(٥٥) حكى أبو عمرو أن أهل نجران يقولون فى براءة من الله، يجرون الميم والنون. المحتسب ١/ ٢٨٣.
(٥٦) البحر ١/ ١٥٢.

ثانيا: بالإسكان (أو حذف الصوائت) واجتماع التغيير والحذف:

يسكن بعض العرب كبنى تميم وغيرهم المتحرك فى بعض الأوزان المستعملة فى الأسماء والأفعال رغبة فى التخفيف، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جنى فى بعض كتبه:

١- ﴿فى قلوبهم مرض﴾ بسكون الراء.

٢- قرأ ابن عباس بخلاف ﴿وحرم﴾ بفتح الحاء وسكون الراء والتنوين ويخرج ابن جنى القراءة فيقول: وأما (حرم) بفتح الحاء وتسكين الراء فمخفف من حرم على لغة بنى تميم فهو كبطر من بطر وفخذ من فخذ وكلمة من كلمة بسكون الثانى فى الكلمة الأولى وكسره فى الثانية[٥٧].

٣- وفى باب الساكن والمتحرك فى الخصائص يذكر من المتحرك الذى أسكن وهو متصل «ما كان ثلاثيا مضموم الثانى أو مكسوره فلك فيه الإسكان تخفيفا، وذلك كقولك فى علم علم وفى ظرف قد ظرف وفى رجل رجل وفى كبد كبد بتحريك الحرف الثانى من الكلمة الأولى وسكونه فى الثانية، وسمعت الشجرى وذكر طعنة فى كتف فقال الكتفية بفتح الكاف وسكون التاء[٥٨].

٤- قرأ أبو الحسن بخلاف وأبو رجاء ومجاهد فيما روى عنه ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ قال أبو الفتح: أما فنظرة بسكون الظاء فسكنه للتخفيف من نظرة كقولهم فى كلمة كلمة وفى كبد كبد بتحريك الحرف الثانى فى الكلمة الأولى وتسكينه فى الثانية لغة تميمية[٥٩].

٥- وبنو تميم يقولون كلمة وكلم ككسرة وكسر[٦٠] والصيغة الحجازية بفتح الكاف وكسر اللام[٦١] وعند بنى تميم تخفف بإسكان اللام كسدرة[٦٢] وفى لغة ثالثة بفتح الكاف وسكون اللام، يقول الأشمونى: «ومنها ثلاث لغات: كلمة على وزن نبقة وكلمة على وزن سدرة وكلمة على وزن تمرة»[٦٣].

والأعلى هى الحجازية وقرئ بلهجة تميم فى القراءات الشاذة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قرأ أبو السمال: كلمة[٦٤]، وكذلك

---

(٥٧) المحتسب ٢/ ٦٥، ٦٦.

(٥٨) الخصائص ٢/ ٣٣٨.

(٥٩) المحتسب ١/ ١٤٣.

(٦٠) الخصائص ١/ ٢٦.

(٦١) تاج العروس ٩/ ٤٩.

(٦٢) المصباح ٣٩.

(٦٣) شرح الأشمونى ١/ ١٠.

(٦٤) آل عمران ٦٤، وانظر: مختصر شواذ القرآن ٢١.

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ قرأ أحمد بن موسى كلمة[٦٥] بكسر الكاف وسكون اللام.

٦- وعند تخريج ابن جنى لقراءة الحسن ﴿ عضدك ﴾ يقول: «فيها خمس لغات ضم الضاد وتسكينها مع فتح العين وضمها وكسر الضاد مع فتح العين وأفصحها وأعلاها عضد بوزن رجل وعضد مسكن الضاد مع فتح العين وعضد منقول الضمة من الضاد إلى العين وعضد بالضمتين جميعا كأنه تثقيل عضد بضم العين وسكون الضاد، وقد شاع عنهم نحو ذلك كقولهم فى تكسير أحمر: حمر بضمتين إلخ[٦٦].

٧- روى عن الحسن أنه قرأ ﴿ الحبك ﴾ بكسر الحاء ووقف الباء قال ابن جنى: وأما الحبك فمخفف منه (أى من الحبك) كإبل وإطل بسكون الحرف الثانى فى إبل وإطل[٦٧].

٨- روى ابن جنى عن ابن مجاهد قال: قال ابن عباس: سألت أبا عمرو عن ﴿ يعلمهم الكتاب ﴾ فقال: أهل الحجاز يقولون: يعلمهم ويلعنهم ولغة تميم يعلمهم ويلعنهم بسكون آخر الفعل، ومثله:

فاليوم أشرب غير مستحقب   إثما من الله ولا واغل[٦٨]

تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

وقد كثر إسكان الياء فى موضع النصب كقوله:

يا دار هند عفت إلا أثافيها

وهو كثير جدا وشبهت الواو فى ذلك بالياء كما شبهت الياء بالألف قال الأخطل:

إذا شئت أن تلهو ببعض حديثها   نزلن وأنزلن القطين المولدا

ومثل ذلك كثير، وعليه قراءة ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ بإسكان الهمزة[٦٩].

٩- قرئ ﴿ كطى السجل ﴾ بكسر السين ساكنة الجيم خفيفة اللام - وقد قرر ابن جنى أن إسكان الجيم فى السجل بعد حذف حركتها وتخفيف اللام لغة لأهل مكة - وذكر

---

(٦٥) مختصر شواذ القرآن ٦٨.   (٦٦) المحتسب ٢/ ١٥٢.

(٦٧) المصدر السابق ٢/ ٢٨٦، ٢٨٧.   (٦٨) المصدر السابق ١/ ١٠٩، ١١٠، ٢٠٥، ٢/ ٦٧.

(٦٩) الخصائص ٢/ ٣٤٠-٣٤٣.

أن إسكان الراء فى (مرض) لغة[٧٠] كما صرح فى نظير لـها وهو قراءة حرم بإسكان الراء بأنها لغة تميمية كـما يقولون فى رسل رسل وكتب كتب[٧١] بإسكان الحرف الثانى، ويبدو أن بنى تميم ومن على شـاكلتهم يحسون ثقلا فى هذه الأوزان فى مجال الأسـماء وما يشبه بعضها من الأفعال (فعل - فعل) - بفتح الفاء مع كسر العين وضمها-، و(فعل) بضم الفاء والعين، و(فـعل) بكسر الفاء والـعين، فيلجأون إلـى تخفيفهـا لأنهم يميلون إلى الانـسجام الصوتى بعيـدا عن تنوع الحركات وتجاورها، فقـد كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم مـن المفتوح إلى المكسور، والمفـتوح أخف عليهم فكرهوا أن ينتقلـوا من الأخف إلى الأثقل، وكذلك كرهوا الضمة بعد الفتحة فيما كان على (فعل) بفتح الفاء والعين، ويكرهون تتابع الضمتين كالواوين، وتتابع الكسرتين تتابع الياءين، وكرهوا الكسرة بعد الضمة كما يكرهون الياء مع الواو فى مواضع[٧٢].

فالوزن (فعل) بفتح الفـاء وكسر العين إذا كان حلقى العين فالمـشهور عنهم - كما يقول أستاذنا الدكتور نجا - «تخفيفه وتفريعه بإسكان عينه مع بقاء حركة الفاء فيصير فعلا، أو إسكان عينـه بعد نقل حركتـها إلى الفاء وذهاب حـركة الفاء فيصـير فعلا، ويتـجه فريق منهم إلى بقاء حركة العين ولكنهم يتبعون حركـة الفاء لها فيصير فعلا، وإن كان غير حلقى العين اقتصـروا فى تخفيفه على الوجهـين الأولين ككتف يقولون فيه كـتف وكتف بإسكان التاء مع فتح الكاف وكسرهـا وفعل كعضد وفعل كحرم وعنق وفعل كإبل يقـتصرون فيهما على الوجه الأول، ولا تزال بعض هذه اللهجات موجـودة فى بعض جهات جمهورية مصر العربية[٧٣]، ولكن الحجازيين ينـطقون بتلك الكلمات دون تغيير ولا يعبأون بثقل أو خفة، وفى بعض صيغ الأفعـال مثـل ظرف وكرم وعلم والمبـنى للمجهول يحدث هذا التخفيف عندهم لما ذكرنا.

وفى النص السابق كقراءة ﴿ويـعلمهم﴾ بإسكان الميم ما يفيد اعتـرافه بنسبة ذلك إلى تميم وهم للتخفيف يسكنون أواخر الكلمـات التى تتوالى فيها الحركات كما فى أأشرب- تعرف - أثافى، ويحسب بعض العلماء ذلك مـن ضرورات الشعر إلا أن الثابت عن الثقات أنه سائغ فى حال السعة لأنه لغة[٧٤].

---

(٧٠) المحتسب ١/ ٥٣، ٥٤. (٧١) المحتسب ١/ ٢٠٥. (٧٢) الكتاب ٤/ ١١٤.

(٧٣) اللهجات العربية د. نجا ص٥٩ وفقه اللغة له ص٣٠، ٣١. (٧٤) الضرائر ص٧٠.

ومن التخفيف: تسكين شين عشرة - حال التركيب - في لغة الحجاز، وجاءت عليها قراءة ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٧٥] ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[٧٦].

وهذا فى لفظ عشرة وما تركب معه إلى تسع عشرة إذا كان فى التأنيث، وقد سكنوا العين لما طال الاسم وكثرت الحركة[٧٧]، وقد ورد فيها كسر الشين فيقال (عشِرة) عند بنى تميم، وبها وردت بعض القراءات.

قال أبو حيان: قرأ الجمهور ﴿عشرة﴾ بسكون الشين، وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى ويحيى بن أبى وثاب وابن أبى ليلى ويزيد بكسر الشين، وروى ذلك نعيم السعدى عن أبى عمرو - مشهور عنه الإسكان - وتقدم أنها لغة تميم، وكسرها لها نادر فى قياسهم، لأنهم يخففون فعلا يقولون فى نمر: نمر - بإسكان الميم مع فتح النون وكسرها[٧٨].

فسبيلهم التخفيف، ولغة أهل الحجاز (عشرة) وسبيلهم التثقيل[٧٩]. فبنو تميم يفتحون العين ويكسرون الشين ويجعلونها بمنزلة (كلمة) وأهل الحجاز يسكنون الشين ويجعلونها بمنزلة (ضربة) وهذا عكس ما عليه لغة أهل الحجاز وبنى تميم، لأن الحجاز فى غير العدد يكسرون الثانى، وبنو تميم يسكنون.

فيقول الحجازيون: نبقة وفخذ ويقول التميميون: نبقة وفخذ بالسكون فلما ركب الاسمان فى العدد استحال الوضع، فقال بنو تميم: إحدى عشرة وثنتا عشرة إلى تسع عشرة - أى بكسر الشين - وقال الحجازيون: عشرة بسكونها[٨٠]. ونسب الكسر - كذلك - إلى أهل نجد، وهو أوسع من تميم، أو يعبر بها عن سكان هذه المنطقة لأنها أكبرها.

وفى فائدة ذكرها السيوطى فى الإتقان نقلا عن كتاب (تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث فى القرآن) فى قوله تعالى: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٨١] قرئ بسكون الشين، وهى لغة تميم وكسرها، وهى لغة الحجاز، وفتحها وهى لغة[٨٢] فنسب الكسر للحجاز والتسكين

---

(٧٥) البقرة الآية: ٦٠. (٧٦) الأعراف ١٦٠.

(٧٧) شرح الأشمونى ٤/ ٦٧، والمزهر ٢/ ٢٧٥، وشرح المفصل ٦/ ٢٧.

(٧٨) البحر المحيط ١/ ٢٢٩. (٧٩) إعراب القرآن للنحاس.

(٨٠) المحتسب ١/ ٨٥ وشرح المفصل ٦/ ٢٧. (٨١) سورة البقرة. الآية ٦٠.

(٨٢) الإتقان ٢/ ٢٧٧.

لتميم وهو عكس المشهور المعروف فى ذلك، وكتب النحو واللغة تجمع على أن الأفصح التسكين، وهو لغة الحجاز، هذا فيما كان فيه لفظ عشر مؤنثا.

ورويت فيه لغة أخرى وهى فتح الشين وقرأ بها ابن المفضل الأنصارى والأعمش، وروى عن الأعمش الإسكان والكسر أيضا. قال الزمخشرى: الفتح لغة، وقال ابن عطية: هى لغة ضعيفة، وقال المهدوى: فتح الشين غير معروف ويحتمل أن تكون لغة(٨٣)، ونسب بعضهم الفتح إلى بنى تميم(٨٤). أما إذا استعمل لفظ عشر مركبا للمذكر فالشين مفتوحة، وقد تسكن عين عشر فيقال (أحد عشر) وكذا أخواته إلى (تسعة عشر) لتوالى الحركات، وبها قرأ أبو جعفر، وقرأ هبيرة صاحب حفص﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾(٨٥) وفيها جمع بين ساكنين(٨٦)، واستثنى بعضهم (اثنى عشر) فإن العين لا تسكن لسكون الألف والياء قبلها(٨٧).

وهذا التخفيف وإن لم ينطبق على أهل مكة والحجاز بعامة لأنهم حضريون (فلعلهم تركوا لهجتهم ومالوا إلى التخفيف فى كلمة (السجل) وعشرة المركبة) وبخاصة أن ابن جنى يذكر أن بعض التميميين فى بعض الألفاظ كانوا يتركون لهجتهم إلى لهجة الحجازيين وأن هؤلاء يفعلون ذلك أحيانا(٨٨) وبذلك تسقط دعوى ابن جنى أن قراءة (بارئكم) بالإسكان غير واردة في العربية حتى خطأ بها القراء يقول «ألا ترى إلى قراءة أبى عمرو» ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ مختلسا لا محققا، وكذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، مخفى لا مستوفى وكذلك قوله عز وجل: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ مختلسا غير ممكن كسر الهمزة حتى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادعى أن أبا عمرو يسكن الهمزة. والذى رواه صاحب الكتاب اختلاس هذه الحركة لا حذفها ألبتة وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رووه ساكنا، ولم

---

(٨٣) البحر المحيط ١/ ٢٢٩. (٨٤) المزهر ٢/ ٢٧٥.

(٨٥) سورة التوبة الآية: ٣٦. (٨٦) شرح الأشمونى ٤/ ٢٧.

(٨٧) اللسان: عشر.

(٨٨) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص١٢٠، ومما أورده ابن جنى من ذلك تحويل الحجازيين كسر الشين فى عشرة المفردة إلى سكونها عند التركيب فقالوا إحدى عشرة إلى تسع عشرة على حين عكسها التميميون فكسروا الشين حال التركيب مع أنهم يسكنون فى الإفراد وهم يعكسون فى نظائره من فخذ ونحوه، المحتسب ١/ ٨٥.

يؤت القوم فى ذلك من ضعف أمانة لكن أتوا من ضعف دراية(٨٩)، والواقع أن ابن جنى سها فى توجيهه لهذه القراءة، فتسكين المرفوع فى نحو يشعركم لغة لتميم وأسد باعترافه كما ذكرنا فلا وجه للإنكار من جهة الرواية كما يقول أستاذنا الشيخ النجار(٩٠) ولعل هذا الطعن ناشئ عن سوء الظن الذى عرف بين النحاة والقراء(٩١) فى هذه الآونة من التاريخ بحيث كان القراء لا يعتدون بكلام النحاة على حين تظهر ردود فعل لذلك فى إنكارهم لبعض القراءات.

الضميران: هو وهى

هو للواحد المذكر، وهى للواحدة المؤنثة.

والأصل أن تضم هاء هو، وتكسر هاء هى، وأن تكون الواو والياء مفتوحتين وهى اللغة الشائعة عند العرب، كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وقد تسكن الواو والياء، عند بعض القبائل كأسد وتميم(٩٢) وقيس، قال الشاعر:

أدعوته بالله ثم قتلته ... لو هو دعاك بذمة لم يخفر

وقال عبيد بن الأبرص:

وركضك لولا هو لقيت الذى لقوا ... فأصبحت قد جاوزت قوما أعاديا

وقال ثالث:

إن سلمى هى التى لو تراءت ... حبذا هى من خلة لو تراعى

وبعضهم وهم همدان يشددون الواو والياء، وهذا هو الأصل فيهما، إذ الأصل أن يكون كل منهما ثلاثى الأحرف مثل أنت فيقولون: هو وهى، قال شاعرهم:

وإن لسانى شهدة يشتفى بها ... وَهُوَّ على من صبه الله علقم

---

(٨٩) الخصائص ١/ ٧٢، ٧٣.
(٩٠) التعليق ١/ ٧٣.
(٩١) البحر ٤/ ٢٧٢، ٣٦٢.
(٩٢) اللسان: ها.

وقال:

والنفس ما أمرت بالعنف آبية   وهى ما أمرت باللطف مأتمر

ويجوز تسكين الهاء فى هذين الضميرين إذا وقعا بعد الفاء والواو واللام وثم، وكما تسكن همزة الاستفهام وكاف الجر اضطرارا وذلك عند قيس وأسد[٩٣] ومن أمثلة ذلك:

وكنا إذا ما كان يوم كريهة   فقد علموا أنى وهو فتيان[٩٤]

وقرأ بعضهم ﴿فَهْيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٩٥] بإسكان الهاء وبعضهم بكسرها، وذلك أن لغة للعرب فى (هو وهى ولام الأمر) إذا كان قبلهن واو أو فاء أسكنوا أوائلهن ومنهم من يدغمها[٩٦].

ومثله:

فقمت لطيف مرتاعا فأرقنى   فقلت أهى سرت أم عادنى حلم

أراد: أهى سرت، فلما كانت (أهى) كقولك (بهى) خفف على حد قولهم فى (به): (بهى) وفى علم (علم) بسكون اللام.

وقد تحذف الواو والياء - عند بعض العرب - كقول أبى خالد الأسدى:

(إذاه لم يؤذن له لم ينبس)

وقول الآخر:

(ديار سعدى إذه من هواكا)

السكون والحركة في الصوامت الحلقية

١ - قرئ: قرح[٩٧] - جهَرة - زهَرة[٩٨] - يوم البعث-[٩٩] وهنًا على وهن[١٠٠] - الضأن[١٠١] - كَل شىء فى القرآن محركا.

---

(٩٣) الأشمونى بحاشية الصبان ١/ ١١٣، ١١٤.

(٩٤) اللسان: ها.

(٩٥) سورة البقرة الآية: ٧٤.

(٩٦) معانى القرآن للأخفش ١/ ١٠٧.

(٩٧) المحتسب ١/ ١٦٦.

(٩٨) المصدر السابق ١/ ٨٤.

(٩٩) المصدر السابق ٢/ ١٦٦.

(١٠٠) المصدر السابق ٢/ ١٦٧.

(١٠١) المصدر السابق ١/ ٣٣٤.

٢- قال الشجرى: محموم - يعدو - تغذو - وقال غيره من بنى عقيل: اللحم - نحوه[١٠٢] - بفتح حرف الحلق فى الأمثلة كلها.

اختلف القدامى فى فتح حرف الحلق الساكن، فيرى البصريون أنه لهجة عربية، فمذهبهم (فى كل شيء من هذا النحو مما فيه حرف حلقى ساكن بعد حرف مفتوح أنه لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالزهرة والنهر - بسكون الهاء وفتحها - والشعر - بسكون العين وفتحها - فهذه لغات عندهم كالنشر - بسكون الشين وفتحها - والحلب - بسكون اللام وفتحها والطرد - بسكون الراء وفتحها[١٠٣] وليس قياسا عندهم[١٠٤] لكن الكوفيين والبغداديين قد قاسوه.

فمذهب الكوفيين أنه يحرك الثانى لكونه حرفا حلقيا، فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوا كالبحر - بسكون الحاء وفتحها - والصخر- بسكون الخاء وفتحها[١٠٥].

وابن جنى كان فى أول أمره يوافق أصحابه البصريين، ففى الخصائص يذكر ما ينم عن موافقته لمدرسة البصرة كما يفهم من قوله: «وسمعت الشجرى أبا عبد الله غير دفعة يفتح الحرف الحلقى فى نحو: يعدو، وهو محموم، ولم أسمعها من غيره من عقيل، فقد كان يرد علينا من يؤنس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته، ولا أظن الشجرى إلا استهواه كثرة ما جاء عنهم من تحريك الحرف الحلقى بالفتح إذا انفتح ما قبله فى الاسم على مذهب البغداديين... لكن مثل يعدو وهو محموم لم يرو عنهم فيما علمت، فإياك أن تخلد إلى كل ما تسمعه».

وقد أيد رأى البصريين فى المنصف يقول: «فأما أصحابنا فلا فصل عندهم بينه وبين ما ثانيه حرف غير حلقى... فلا فصل بين نشز ونشر- بسكون الشين وفتحها - وشعر وشعر - بسكون العين وفتحها - فهذان لغتان كما أن هذين لغتان» ويدافع عن رأى البصريين فيقول: «إن حروف الحلق لا تحرك ساكنا، ولا تسكن متحركا، بل لعمرى إنه يراد فيها الإتباع وتجانس الصوت، فأما تسكين متحرك أو تحريك ساكن فلا يجب لها»[١٠٦].

ولكننا نلاحظ - أيضا - مما ذكره فى المحتسب ما ينم عن موافقته للكوفيين

---

(١٠٢) المصدر السابق ١/ ٨٤. (١٠٣) المصدر السابق ١/ ٨٤ وانظر ٢/ ١٦٦.

(١٠٤) الخصائص ٢/ ١٠. (١٠٥) المحتسب ١/ ٨٤ وانظر ٢/ ١٦٦.

(١٠٦) الخصائص ٢/ ١٠ والمنصف ٢/ ٣٠٥-٣٠٧.

والبغداديين بقياسية فتح حرف الحلق الساكن إذ يقول عن - رأى الكوفيين -: «وما أرى القول من بعد إلا معهم، والحق إلا فى أيديهم».

ويقول: «لا أبعد من بعد أن تكون الحاء لكونها حرفا حلقيا يفتح ما قبلها كما تفتح نفسها فيما كان ساكنا من حروف الحلق نحو قوله فى الصخر الصخر - بفتح الخاء - ولعمرى أن هذا عند أصحابنا ليس أمرا راجعا إلى حرف الحلق لكنها لغات، وأنا أرى فى هذا رأى البغداديين فى أن حرف الحلق يؤثر هنا من الفتح أثرا معتدا معتمدا، فلقد رأيت كثيرا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم نحوه - بفتح الحاء - يريد نحوه - بسكونها، وهذا لا توقف فى أنه أمر راجع إلى حرف الحلق؛ لأن الكلمة بنيت عليه ألبتة»(١٠٧).

وهو بهذا يخرج على مذهب البصريين الذين يعدون ذلك لغات لا يصح القياس عليها.

ولا تناقض بين هذين الموقفين من ابن جنى، فالثابت أنه ألف المحتسب فى آخر حياته، وذلك يعطينا أمرين:

١- أنه سمع كثيرا من عقيل لا يحصيهم تفتح حرف الحلق الساكن وقبل ذلك لم يكن سمع مثله من غير الشجرى كما يتبين من نص كلامه.

٢- كان لاستقراره الذهنى(١٠٨) أثر كبير فى تعليل هذه الظاهرة وغيرها بحيث أدرك أن لحرف الحلق أثرا معتدا معتمدا فى تحويل سكونه فتحة كما هو نص كلامه - أيضا - وقد أكد ابن جنى ذلك حين قال: وأنا أرى، وأن الحق مع البغداديين وفى أيديهم، وأنه أمر راجع إلى حرف الحلق لأن الكلمة بنيت عليه.

وبذلك يبعد أن يكون توثيق ابن جنى للقراءات الشاذة هو السبب فى هذين الموقفين المتعارضين على ما ذهب إليه الدكتور عبد الفتاح شلبى من أنه «استعان بالمذاهب الأخرى ووجد فيها مقنعا ومحتجا»(١٠٩).

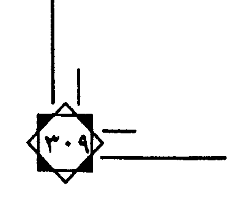
ويؤيد علم اللغة الحديث هذه الظاهرة الصوتية فـ (حرف الحلق بعد صدوره من مخرجه يحتاج إلى اتساع مجراه فى الفم، ولذلك ناسبه من أصوات اللين أكثره اتساعا

---

(١٠٧) المحتسب ١/ ١٦٧.

(١٠٨) أبو على الفارسى د. شلبى ص٣٧٢.

(١٠٩) المصدر السابق ص٣٧١.



وهو الفتحة)[١١٠] وذلك أيضا موجود فى أخوات العربية كالعبرية نحو baal (بعل)- naal (نعل) وكذلك الصامت الذى قبله، فالفعلان الماضيان shamar، (سمع) patah (فتح) كان ينبغى أن يكون مضارعاهما عـلى قياس الثلاثى الصحيح YashmoA (بضم الميم)، -Yep toh (بضم التـاء) لكن العـين فيهـما تفـتح لصوت الحـلق الواقع لاما بـعدها: - Yeptah .YeshmaA

وقد نسب ابن جـنى هذه اللهجة - وهى فتـح حرف الحلق الساكن إلى بنـى عقيل، وبين أنه فاش فيهم، فإلى جانب ما نقلناه من قبـل عنه يقول أيضا: سمعت عامة عقيل تقول ذاك ولا تقف فيـه سائغا غيـر مستكره، حتى لـسمعت الشجـرى يقول: أنا محمـوم - بفتح الحاء - وليس أحد يدعى أن فى الكلام مفعولا - بفـتح الفاء- وسمعته مرة أخرى يقول - وقد قال لـه الطبيب: مص التـفاح، وارم بثفلـه - والله لقد كنت أبغى مـصه وعليتـه تغذو - بفتح الغين - ولا أحد يـدعى أن فى الكلام يفعل - بفتح الفاء - وسمعـت جماعة منهم - وقد قيل لهم قد أقيمت لكم أنزال[١١١] من الخبز - قالوا: فاللحم - بفتح الحاء - يريدون اللحم - بسكونها - وسمعت بعضهم وهو يقول فى كلامه نحوه بفتح الحاء)[١١٢].

ويعترف ابن جنى بكثرة ذلك عن بنى عقيل[١١٣].

ومن ذلك يتضح أن فـتح حرف الحلق الساكن مـن خصائص لهجة عـقيل، وينسب أبو حيان تلك الظاهـرة إلى بعض بنى بكر بن وائل[١١٤] وتثبت كتب البـلدان أن بنى عقيل كانوا يسكنون البحرين[١١٥] وأن بنى بكر بن وائل كانوا يسكنون اليمامة إلى البحرين[١١٦] ومن هذا نفهم (سر التشابه بين القبيلتين)[١١٧].

---

(١١٠) فى اللهجات العربية ص١٣٥.
(١١١) هو ما يهيأ للنزيل.
(١١٢) المحتسب ١/ ٨٤.
(١١٣) الخصائص ٢/ ٩.
(١١٤) البحر ٣/ ٢٤٧.
(١١٥) نهاية الأرب ص٣٦٥، ٣٦٦.
(١١٦) صفة جزيرة العرب ص١٦٩ ونهاية الأرب ص١٧٨.
(١١٧) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص١١٣.

(ب) ما ليس له مصطلح لهجى أو لغوى

تتنوع الحركات وتختلف على المكان الواحد فى الكلمة الواحدة بما يؤدى إلى اختلاف بنيتها اللغوية دون أن يضع العلماء لذلك مصطلحا، ويمكن أن يرجع هذا التنوع إلى اختلاف اللهجات والبيئات اللغوية عند العرب من منطقة إلى أخرى.

ونذكر أمثلة مما ورد توضح ذلك.

أ- الفتح والضم:

فى أحيان كثيرة ينسب الضم لتميم والفتح للحجاز وقد يأتى العكس فى النسبة وربما يأتى فى بعض مصادر اللغة غير منسوب، ومما جاء من الأمثلة بنسبة الفتح للحجاز والضم للقبائل البدوية كتميم وأسد ما يلى:

(قرح) - بفتح القاف وضمها - فى قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[1] نسب الفتح فى (قرح) للحجاز والضم لتميم[2] و(زعم) - بفتح الزاى وضمها - فى قوله سبحانه: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[3] نسب الفتح للحجاز والضم لأسد[4] وقال أبو حيان: الفتح فى المصدر والضم فى الاسم[5] و(ينعه) - بفتح الياء وضمها - فى قوله سبحانه: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[6] نسب الفتح لكنانة والضم لتميم[7].

وقد نسب عكس ذلك لهذه القبائل فنسب الضم للحجاز والفتح للقبائل البدوية كتميم ومن أمثلة ذلك: (ضعف) - بفتح الضاد وضمها - فى قوله جل ثناؤه: ﴿وعلم أن فيكم ضعفا﴾[8] والفتح منسوب لتميم والضم منسوب للحجاز.

---

(١) آل عمران ١٤٠ . ٥٥ ، ٥٦، التهذيب ٢/ ١٥٨.

(٢) اللغات فى القرآن على هامش الجدولين ١، ٦ والمصباح ١/ ٤٩٦ شرح.

(٣) مختصر شواذ القرآن لابن خالدون.

(٤) الصلاح ١٠/ ٣٨٧. (٥) البحر المحيط ٥/ ١١٥. (٦) الأنعام: ٩٩.

(٧) اللغات فى القرآن ٢٦. (٨) البحر المحيط ٤/ ٥١٨.

و(كسالى) - بفتح الكاف وضمها - فى قوله سبحانه ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾[9] عزى الفتح لتميم والضم للحجاز[10].

و(حوب) فى قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[11] بضم الحاء للحجاز وفتحها لتميم[12]. ونسب ابن الأثير الفتح فى (حوب) لأهل الحجاز والضم لتميم فى (اغفر لنا حوبنا) أى إثمنا قال: تفتح الحاء وتضم والفتح لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم[13].

وفى الحديث **(ما غُزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا)**، عقر الدار لغة أهل نجد وبفتحها لغة أهل الحجاز وهو أصلها.

ويأتى الفتح والضم غير منسوبين وبلا ترجيح فى مثل:

(بهلة) فى الحديث: **(من ولى من أمور الناس شيئا فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة من الله)**، أى لعنة الله، وتضم باؤها وتفتح. والمباهلة الملاعنة وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا فى شىء فيقولون: لعنة الله على الظالم منا[14].

و(دجر) فى حديث عمر: **(اشترلنا بالنوى دَجْراً)** الدجر: - بفتح الجيم وضمها -: اللوبياء[15].

و(مملكة) فى حديث الأشعث أنه **(خاصم أهل نجران إلى عمر فى رقابهم فقالوا: إنما كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قِنّ)** المملكة بضم اللام وفتحها أن يغلب عليهم فيستعبدهم وهم فى الأصل أحرار والقِنّ أن يملك هو وأبواه[16].

و(الدلجة) كما فى الحديث: **(عليكم بالدُّلجة)** بضم الدال وفتحها من أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل وادَّلج بالتشديد إذا سار من آخر الليل والاسم الدلجة.

و(مشربة) كما فى الحديث: **(أنه كان فى مشربة له)** فالمشربة بضم الراء وفتحها: الغرفة[17].

---

(٩) النساء ١٤٢. (١٠) البحر المحيط ٣/ ٣٣. (١١) النساء ٢.

(١٢) البحر ٣/ ٦١ والإتحاف ١٨٦ والمصباح: حوب.

(١٣) النهاية ١/ ٤٥٥ حوب، ٥/ ٣٧٠ والصحاح ١/ ١١٦ (حوب) والقاموس ١/ ٦٠ حوب واللسان ١/ ٣٢٦ حوب.

(١٤) النهاية ١/ ١٦٢ (بهل) واللسان (بهل) ١٣/ ٧٤.

(١٥) النهاية ١/ ٤٥١ والتهذيب ٥/ ٣٣١، والقاموس ١/ ٥٨، واللسان ١/ ٣٢٦.

(١٦) النهاية ٤/ ٣٥٨ (ملك) والتهذيب ١٠/ ٢٦٩، ٢٧٠، والقاموس ٣/ ٣٣١، واللسان ١٢/ ٣٨١.

(١٧) النهاية ٢/ ٤٥٥ (شرب) والقاموس ١/ ٨٩ واللسان ١/ ٤٦٩.

و(شرب) في قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[18] قرأ أبو عمرو (شرب) بفتح الشين وهو تميمي، ويقول ابن الأثير: والفتح أقل اللغتين.

وفي بعض الأحيان نجد ترجيح حركة على أخرى بالصحة والكثرة والقلة وغيرها من ذلك و(بطحان) كما في حديث الصداق «لو كنتم تغرفون من بطحان ما زدتم» بُطحان اسم واد بالمدينة والبطحانيون ينسبون إليه وأكثرهم يضمون الباء، ولعله الأصح فيما نقله ابن الأثير[19].

و(اللطف) جاء في حديث الإفك: **(ولا أرى منه اللطف الذي كنت أعرفه)** أي الرفق والبر ويروى اللَّطف بفتح اللام والطاء لغة فيه[20].

و(أتاوى) كما جاء في حديث عثمان **(إنا رجلان أتاويان)** أي عربيان. قال أبو عبيدة: الحديث يروى بضم الهمزة في (أتاوى) وكلام العرب بالفتح يقال: سيل أتي وأتاوى جاءك ولم يجئك مطره، ومنه قول المرأة التي هجت الأنصار:

أطعتم أتاويّ من عندكم   فلا من مراد ومن مذجح

وأرادت بالأتاوى النبي ﷺ[21].

و(أنفة) كما في الحديث: **(لكل شيء أنفة وأُنفة الصلاة التكبيرة الأولى)** أنفة الشيء ابتداؤه، هكذا روى بضم الهمزة، وعن الهروي أن الفتح هو الصحيح[22].

وقد يوصف الفتح بالقلة مثل: (شغر) كما في حديث سعد بن الربيع: **(لا عذر لكم إن وصل رسول الله ﷺ وفيكم شُفْرٌ يطرف)** الشفر بالضم وقد يفتح حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر[23].

وأحيانا يوصف الضم بأنه قليل والفتح شائع مثل العوار في حديث الزكاة **(ولا يؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عَوار)** العوار بالفتح: العيب وقد يضم[24].

---

(18) الواقعة ٥٥. والبحر ٨/ ٢١٠ والكشف عن وجوه القراءات. وعللها لابن أبي طالب القيسي، والنهاية ٢/ ٤٥٤ (شرب).

(19) النهاية ١/ ١٣٥ (بطح) والقاموس ١/ ٢٢٣، واللسان ٣/ ٢٣٦.

(20) النهاية ١/ ٤٥٥ (حوب)، ٥/ ٣٧٠، والصحاح ١/ ١١٦، واللسان ١/ ٣٢٦.

(21) النهاية ١/ ٢١ (أتى) والصحاح ٦/ (أتى) والقاموس ٤/ ٢٩٩ (أتو) واللسان ١٨/ ١٥ (أتى).

(22) النهاية ١/ ٧٥ (أنف) والتهذيب ١٥/ ٤٨٢ (أنف) والصحاح ٤/ ١٣٢، والقاموس ٣/ ١٢٣، واللسان ١٠/ ٣٥٤.

(23) النهاية ٢/ ٤٨٤ (شغر) والتهذيب ١١/ ٣٥٠، والقاموس ٢/ ٦٣، واللسان ٦/ ٧٦.

(24) النهاية ٣/ ٣١٨ (عور) والتهذيب ٣/ ٧٠ (عار) والقاموس ٢/ ١٧٠ (عور) واللسان ٦/ ٢٩٠.

وفى صفته ﷺ **(كث اللحية)** الكثاثة فى اللحية أن تكون غير رقيقة ولا طويلة وفيها كثاثة يقال للرجل كث اللحية بالفتح وقوم كث بالضم(٢٥).

ب - الفتح والكسر:

جاء منسوبا وغير منسوب فى بعض مصادر اللغة.

ومن المنسوب ما عرف أن الفتح للحجاز والكسر لتميم وأضرابهم مثل:

- أهل الحجاز يقولون: برأت من المرض وسائر العرب: برئت(٢٦).

- يسمى الفرد (الوتر) بالفتح عند أهل الحجاز وأهل نجد وتميم يكسرون الواو(٢٧) وذكر ابن دريد أن الكسر للحجاز والفتح لغة نجدية(٢٨).

وفى الحديث: **(إن الله وِتر يحب الوتر فأوتروا)**(٢٩).

و(نعجة) فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾(٣٠) نعجة جاءت بكسر النون عند تميم(٣١).

والفرية بالفتح وبالكسر لغة يمانية ومن ثم اجتمعوا فى جمعها على الفُرَى فحملوها على لغة من يقول: كسوة وكُسى.

ووردت أمثلة رجح فيها بعض العلماء الفتح على الكسر أو العكس من ذلك (رشدة) فى الحديث: **(من ادعى ولدا لغير رشدة فلا يرث ولا يورَّث)** يقال: هذا ولد رشدة إذا كان لنكاح صحيح، كما يقال فى ضده ولد زِنية. وابن رِشدة، وقد قيل: زَنية ورَشْدَة والفتح أفصح اللغتين(٣٢).

ومن غير المنسوب: (مأكمة) كما فى الحديث: **(إذا صلى أحدكم فلا يجعل يديه على مأكمتيه)** هما لحمتان فى أصل الوركين، وقيل بين العجز والمتنين وتفتح كافها وتكسر(٣٣).

---

(٢٥) النهاية ٤/ ١٥٢ (كث) والقاموس ١/ ١٧٩، واللسان ٢/ ٤٨٤.

(٢٦) اللسان ١/ ٢٢.

(٢٧) اللسان ٧/ ١٣٥، ١٣٦، والبحر ٨/ ٤٦٧، والإتحاف ٤٣٨.

(٢٨) الجمهرة ٢/ ١٤.

(٢٩) النهاية ٥/ ١٤٧ (وتر) والقاموس ٤/ ١٥٧، والبحر ٨/ ٤٦٧ والإتحاف ٤٣٨.

(٣٠) سورة ص ٢٣. (٣١) البحر ٧/ ٩٩٢.

(٣٢) النهاية ٢/ ٢٢٥ (رشد) والتهذيب ١١/ ٣٢١، والصحاح ٣/ ٤٨٤، والقاموس ١/ ٣٠٥، واللسان ٤/ ١٥٦.

(٣٣) النهاية ٢/ ٥٩ (أكم) والقاموس ٤/ ٧٦، واللسان ١٤/ ٢٨٦.

و(الإلب):

فى الحديث: **(إن الناس كانوا علينا إلبا واحدا)** الإلب بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان وقد تألبوا عليه أى تجمعوا(٣٤).

- البداوة: تفتح باؤه وتكسر أى الخروج إلى البادية(٣٥).

و(بسأ) بفتح السين وكسرها.

وفى الحديث: أن النبى ﷺ قال يوم بدر: **«لو كان أبو طالب حيا لرأى سيوفنا وقد بسئت بالمياثل»**، وبسئت وبسأت بفتح السين وكسرها أى اعتادت واستأنست. والمياثل والأماثل كأنه من المقلوب(٣٦).

و(الحصاد) ورد فى الحديث: **«أنه نهى عن حصاد الليل»** الحصاد بالفتح والكسر: قطع الزرع وإنما نهى عن ذلك ليلا من أجل المساكين أو لأجل الهوام أن تصيب الناس إذا حصدوا ليلا(٣٧).

و(رسعت) فى حديث عمرو بن العاص: **(بكى حتى رسعت عينه)** أى تغيرت وفسدت والتصقت أجفانها، وتفتح سينها وتكسر وتشدد أيضا(٣٨).

(الرطانة) بكسر الراء ورواه الجوهرى مفتوحا: كلام العجم أو كلام لا يفهمه الجمهور(٣٩).

و(البضع) فى العدد بالكسر وقد يفتح: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل البضع واحد إلى عشرة(٤٠).

و(السبر): حسن الهيئة، وفى الحديث: **(يخرج رجل من النار قد ذهب حِبْره وسِبْرُه)** السِّبْر حسن الهيئة والجمال، وقد تفتح السين(٤١).

---

(٣٤) النهاية ١/ ٥٩ (ألب) والصحاح ١/ ٨٨، والقاموس ١/ ٣٨، واللسان ١/ ٢٠٩.

(٣٥) النهاية ١/ ١٠٨، ١٠٩ (بدا) والتهذيب ١١/ ٢٠٣، والصحاح، والقاموس ٤/ ٤٠٣، واللسان ٨/ ٦٩.

(٣٦) النهاية ١/ ١٢٦ (بسأ) والصحاح ١/ ٣٦، والقاموس ١/ ٨، واللسان ١/ ٢.

(٣٧) النهاية ١/ ٤٥٠ واللسان ٤/ ١٢٨ (حصد).

(٣٨) النهاية ٢/ ٢٢١ (رسع) والتهذيب ٢/ ٩٢، والقاموس ٣/ ٣٠، والصحاح ١/ ٤٨٠، والقاموس ٩/ ٤٨٢.

(٣٩) النهاية ٢/ ٢٣٣ (رطن) والتهذيب ١٣/ ٣١٨، والصحاح ٣/ ٤٨٩.

(٤٠) النهاية ١/ ١٣٣ (بضع) والتهذيب ٣/ ١١٨٦، والقاموس ٣/ ٥، واللسان ٩/ ٣٥٩.

(٤١) النهاية ٢/ ٣٣٣ (سبر) والتهذيب ١٢/ ٤٠٩، والصحاح ١/ ٥٦٣.

و(الضعـة): الذل والهوان والـدناءة وقد وضُع ضَـعَة فهـو وضيع والهـاء عوض من الواو المحذوفة وقد تكسر الضاد(٤٢).

وكذلك: (دحـية)، وفي الحـديث: **(كان جبـريل عليه السـلام يأتيه في صـورة دحية الكلبي)** وهو دحية بن خليفـة أحد الصحابة كان جميلا حسـن الصورة، ويروى بكسر الدال وفتحها. الدحية رئيس الجند ومقدمـهم وكأنه من دحاه يدحوه إذا بسطه ومهده لأن الرئيس له البسط والتمهيد إلا أن الأصمعي أنكر فيه الكسر(٤٣).

- (السحنة): بشرة الوجه وهيـئته وحاله وهي مفتوحة السين وقد تـكسر ويقال فيها: السحناء بالمد(٤٤).

- وفي حديث علي: **(كلما أطل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه)**.

المَنْسَر وبكسر السـين وبعكسـهـما: القطعة مـن الجيش تمر قـدام الجيش الكبـير، والميم زائدة. والمنسر في غير هذا للجوارح كالمنقر للطير(٤٥).

- وفي صـفتـه ﷺ: **(جليل المُشَـاش والكتد)**، الكتـد بفتح التاء وكـسرها: مجـتمع الكتفين وهو الكاهل(٤٦).

- وقال كعب:

ترمي الغيوب بعيني مفرد لهن

بفتح الهاء وكسرها في (لهن): الأبيض والمفرد: الثور الوحشي شبهها به(٤٧).

- ومن ذلك مجنة في قول الشاعر:

وهـل أردن يومـا مـيـاه مـجـنـة   وهل يـبـدون لي شـامـة وطـفـيل

مجنة: موضع بأسفل مكة على أميال وهي عند الحديبية وكان يقام للعرب بها سوق، وبعضهم يكسر ميمها والفتح أكثر وهي زائدة(٤٨).

---

(٤٢) النهاية ٤/ ٢٧ (وضع) والقاموس ٣/ ٥٩، واللسان ١٠/ ٢٧٦.

(٤٣) النهاية ٢/ ١٠٧ (دحا) والقاموس ٤/ ٣٢٩، والصحاح ١/ ٣٩٠ واللسان ١٨/ ٢٧٥.

(٤٤) النهاية ٢/ ٣١١.

(٤٥) النهاية ٥/ ٤٧ (نسر) والتهذيب ١٢/ ٣٩٦، ٣٩٧ والقاموس ٤/ ١٤٦ واللسان ٧/ ٥٩.

(٤٦) النهاية ٤/ ١٤٩ (كتد) والتهذيب ١/ ١٠٦ والقاموس ١/ ٣٣٤ واللسان ٤/ ٣٨٠.

(٤٧) النهاية ٤/ ٢٨٢ (لهق) والتهذيب ٥/ ٤٠٥ والقاموس ٣/ ٢٩١ واللسان ١٢/ ٢٠٨.

(٤٨) النهاية ٤/ ٣٠١ (مجن) والقاموس ٤/ ٢١٣ (جنّ) واللسان (جنّ) ١٦/ ٢٤٤.

- وفى الحديث: (**ملاك الدين الورع**) المَلاك بفتح الميم وكسرها: قوام الشيء ونظامه وما يعتمد عليه[٤٩].

- وفي الحديث أيضا: «**ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعته سوى ثوبي مهنته**» أي خدمته وبذلته والرواية بفتح الميم وقد تكسر[٥٠].

جـ - الضم والكسر:

جاءت كلمات حركت بعض حروفها بالحركتين: الضمة والكسرة لاختلاف القبائل، وغالبا ما ينسب الضم للبدو والكسر للحضر، وقد يرد عكس ذلك وقد يرجح أحدهما على الآخر، ونسب ذلك فى بعض الأحيان ولم ينسب أحيانا أخرى.

فمما نسبا فيه دون ترجيح:

- قرئ ﴿ربيون﴾ بضم الراء وينسب المضموم للتميميين فيقولون (رُبيون) بضم الراء تميمية والكسر أيضا لغة[٥١].

- صنوان: بالضم لتميم وقيس وبالكسر لأهل الحجاز. وقرأ عبد الرحمن السلمى ﴿صنوان﴾ بالضم وقراءة غيره ﴿صنوان﴾ بالكسر[٥٢].

- قنوان: بالكسر للحجاز وبالضم لقيس[٥٣].

- و(قبل) كما فى قوله تعالى:﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾[٥٤] قبل بضم القاف والباء لتميم والكسر لكنانة[٥٥].

- وروى السيوطى عن اليزيدى أن تميما تضم أوائل غدوة وعشوة وأسوة وقدوة[٥٦]، قرأ عاصم والأعمش ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٥٧] بضم الهمزة وهى لغة قريش وتميم والباقون بكسرها لغة أهل الحجاز[٥٨].

---

(٤٩) النهاية ٤/ ٣٥٨ (ملك) والتهذيب ٧/ ٢٧٠، والقاموس ٣/ ٣٣١، واللسان ١٢/ ٣٨١.

(٥٠) النهاية ٤/ ٣٧٦ (مهن) والتهذيب ٦/ ٣٣٠، والقاموس ٤/ ٢٧٥، واللسان ١٧/ ٣١٣.

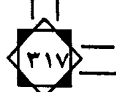
(٥١) المحتسب ١/ ١٧٣، ٣٤١.

(٥٢) البحر ٥/ ٣٥٧، والمحتسب ١/ ٣٥١.

(٥٣) المصباح ٢/ ٧٩٨. (٥٤) الأنعام ١١١.

(٥٥) اللغات فى القرآن ٢٦. (٥٦) المزهر ٢/ ٢٧٧.

(٥٧) الأحزاب ٢١. (٥٨) إبراز المعانى، والإتحاف ٣٥٤.



- (رضوان) بضم الراء لغة قيس وتميم[٥٩] وذكر أن الضم لبنى تميم والكسر لأهل الحجاز[٦٠].

- و﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ بالكسر عند الكلابيين وبالضم عند غيرهم، يقول ابن سيدة: (الكلابيون يقولون: شواظ من نار بالكسر وغيرهم يقول: شواظ بالضم)[٦١].

وجاءت النسبة بعكس ما تقدم فى العدوة، فى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾[٦٢]، قرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر العين والباقون بضمها، ونقل عن أبى عبيدة أن الضم أعرب اللغتين[٦٣].

وفى الحديث: **«لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عُدْوتان»** العُدوة بالضم والكسر: جانب الوادى[٦٤].

وأحيانا يترجح الكسر على الضم أو العكس:

ومن ذلك: الكدنة: بكسر الكاف وقد تضم: غلظ الجسم وكثرة اللحم ويقال: (إنك لحسن الكدنة)[٦٥].

و(المرار) المشهور فيها ضم الميم وبعضهم بكسرها وهى عند الحديبية[٦٦] ومما لم (ينسبا) فيه:

(تجار) ففى الحديث: **(التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبرّ وصدق)** سماهم فجارا لما فى البيع والشراء من الأيمان الكاذبة والغبن والتدليس، وجمع التاجر تجار بالضم والتشديد وتجار بالكسر والتخفيف[٦٧].

---

(٥٩) المصباح ١/ ٣٥٢.

(٦٠) إبراز المعانى ٢٦٧.

(٦١) المخصص ١٥/ ٨٦، وإصلاح المنطق لابن السكيت نقلا عنه - ١٠٦.

(٦٢) الأنفال ٤٢.

(٦٣) إرشاد المريد على إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة ٣٣٤.

(٦٤) النهاية ٣/ ١٩٤ (عدا) والقاموس ٤/ ٣٦٢، واللسان ١٩/ ٢٥٧.

(٦٥) النهاية ٤/ ١٥٦ (كدن) والتهذيب ١/ ١٢١، والقاموس ٤/ ٢٦٤، واللسان ١٧/ ٢٣٥.

(٦٦) النهاية ٤/ ٣١٨ (مرر) والقاموس ٢/ ١٣٧، واللسان ٧/ ١٠.

(٦٧) النهاية ١/ ١٨١ (تجر) والصحاح ٢/ ٦٠٠، والقاموس ٢/ ٣٤٣، واللسان ٥/ ١٥٦.

و(الحبوة) ففى الحديث: (الاحتباء حيطان العرب) أى ليس فى البرارى حيطان فإذا أرادوا أن يستندوا احتبوا لأن الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصير لهم ذلك كالجدار يقال: احتبى يحتبى احتباء، والاسم: الحبوة بالكسر والضم[68].

و(الحشوة) ففى حديث المبعث: (ثم شقَّا بطنى وأخرجا حِشوتى) الحشوة بالضم والكسر: الأمعاء[69].

و(الخيلاء) ففى الحديث: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، الخيلاء: بالضم والكسر: الكبر والعجب،يقال: اختال فهو مختال وفيه خيلاء ومخيلة: كبر[70].

و(سوار) بكسر السين وضمها[71].

- (الرشوة) بكسر الراء وضمها[72].

- (الحظوة) بكسر الحاء وضمها[73].

- و(شجنة) فى الحديث (الرحم شجنة من الرحمن) أى قرابة مشتبكة العروق مشتملة بذلك مجازا واتساعا، وأصل الشجنة بالكسر والضم شعبة من غصن من غصون الشجرة[74].

- (الطبى) بضم الطاء وكسرها يقال للأخلاف من الخيل والسباع، والجمع أطباء، كما يقال فى ذوات الخف والظلف: الضروع، وقيل: يقال لموضع الأخلاف خِلف وضرع[75].

(٦٨) النهاية ١/ ٣٣٥، ٣٣٦ (حبا) والقاموس (مثلثة) ٤/ ٣١٦، واللسان ١٨/ ١٧٢.

(٦٩) النهاية ١/ ٣٩٢ (حشا) والتهذيب ٥/ ١٣٨، والصحاح ٦/ ٣١٣، والقاموس ٤/ ٣١٩، واللسان ١٨/ ١٩٤.

(٧٠) النهاية ٢/ ٩٣ (خيل) والتهذيب ٧/ ٥٦٤، والصحاح ١/ ٣٨٢، والقاموس ٣/ ٣٨٣، واللسان ١٣/ ٢٤٠.

(٧١) النهاية ٢/ ٤٢ (سور) والتهذيب ١٣/ ٥١، والقاموس ٢/ ٥٥، واللسان ٦/ ٥١.

(٧٢) النهاية ٢/ ٢٢٦ (رشا) والتهذيب ١١/ ٤٠٦، والقاموس ٤/ ٣٣٦، واللسان ١٩/ ٣٧.

(٧٣) النهاية ١/ ٤٠٥ (حظو) والتهذيب ٥/ ٢٠٣، والصحاح ٦/ ٣١٥، والقاموس ٤/ ٣٦٩، واللسان ٥/ ٢٧٨.

(٧٤) النهاية ٢/ ٤٤٧ (شجن) والتهذيب ١/ ٥٣٨، والقاموس ٤/ ٢٤٠، والصحاح ١/ ٦٥٠، واللسان ١٧/ ٩٧.

(٧٥) النهاية ٣/ ١١٥ (طبى) والقاموس ٤/ ٣٥٨، واللسان ١٩/ ٢٢٦.

- و(الضبنة) فى الحديث: «**اللهم إنى أعوذ بك من الضبنة فى السفر**»، الضبنة: ما تحت يدك من مال وعيال ومن تلزمك نفقته سموا ضبنة لأنهم فى ضبن من يعولهم، والضبن ما بين الكشح والإبط تعوذ بالله من كثرة العيال فى مظنة الحاجة والسفر، وقيل تعوذ من صحبة من لا غناء فيه ولا كفاية من الرفاق إنما هو كلٌّ وعيال على من يرافقه(٧٦).

- وفى حديث صلاة الخوف (**وطائفة وجاه**) أى مقابلهم وحذاءهم وتكسر الواو وتضم(٧٧).

- (القرطم): حب العصفر، (الفسطاط) المدينة التى فيها مجتمع الناس، روى كل منهما بكسر الفاء وضمها(٧٨).

د - بين الحركات الثلاث: الفتح والضم والكسر:

- من ذلك: ﴿غلظة﴾

قال تعالى: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، قرأها الأعمش والمفضل بن عاصم بالفتح، وقرأها السلمى وابن أبى عيلة بضمها وتكسر، فالفتح للحجازيين والكسر لهجة بنى أسد وقيس والضم لهجة بنى تميم(٧٩).

(زعم) - بكسر الزاى وفتحها وضمها - نسب أبو حيان الكسر لتميم وبعض قيس والضم لبنى أسد والفتح للحجاز(٨٠)، وذكر ذلك الفيومى(٨١)، وفى بعض المصادر اكتفى بنسبة الضم والفتح(٨٢).

- (غواث): هو كالغياث بالكسر من الإغاثة، روى بالضم والكسر، ويقول ابن الأثير: والفتح فيها شاذ(٨٣) وربما جاء الشذوذ لأن ما دل على صوت يكون على وزن فُعال كنباح إلخ.

---

(٧٦) النهاية ٣/ ٧٣ (ضبن) والقاموس ٤/ ٢٢٤ واللسان ١٧/ ١٢٠.

(٧٧) النهاية ٥/ ١٥٩ (وجأ) والتهذيب ٦/ ٣٥١، والقاموس ٤/ ٢٩٦، واللسان ١/ ١٨٥.

(٧٨) التهذيب ٩/ ٤٠٩ و١٢/ ٣٤٠ والقاموس، ٢/ ٣٩١، ٤/ ١٦٥.

(٧٩) سورة التوبة ١٢٣، والبحر المحيط ٥/ ١١٥ ، ٤/ ٢٢٧، مختصر شواذ القرآن ٥٥, ٥٦.

(٨٠) البحر ٤/ ٢٢٧.

(٨١) المصباح ٢٥٣ (زغم).

(٨٢) الإتحاف ٢١٧، واللسان (زعم) ١٥/ ١٥٦.

(٨٣) النهاية ٣/ ٣٩٢ (غوث) والتهذيب ٨/ ١٧٧، والقاموس ١/ ١٧٧، واللسان ٢/ ٤٧٩.

- (قينقاع): بطن من بطون يهود وردن بضم النون وقد تكسر وتفتح[٨٤].

- (حلاوة) وفى حديث المبعث: **(فسلقنى لحلاوة القفا)** أى أضجعنى على وسط القفا، لم يمل به إلى أحد الجانبين وتضم حاؤه وتفتح وتكسر[٨٥].

- (المطرف) بكسر الميم وفتحها وضمها: الثوب الذى فى طرفيه عَلَمان والميم زائدة[٨٦].

- (العرام): الشدة والقوة والشراسة وقد عرم بالضم والفتح والكسر[٨٧].

- (المهل والمهلة): وفى حديث أبى بكر: **(ادفنونى فى ثوبىّ هذين فإنما هما للمُهل والتراب)**. ويروى للمهلة بضم الميم وكسرها وفتحها وهى ثلاثتها: القيح والصديد الذى يذوب فيسيل من الجسد ومنه قيل للنحاس الذائب: مُهل[٨٨].

ومن هذا يفهم أن الضم لهجة للقبائل البدوية، أما الفتح والكسر فهو لهجة أيضا ولكن للحضريين من أهل الحجاز، وهذا تخريج تسوغه القوانين الصوتية الحديثة (فالفتحة تلائم البيئة الحضرية لما فيها من خفة، على حين تناسب الضمة أهل البادية لثقلها)[٨٩] وكذلك حيث تكون الضمة والكسرة تنسب الأولى إلى البدو والثانية إلى الحضر[٩٠].

وإن كنا نرى أن ذلك ليس مطردا فقد يأتى عكس ما قيل فى النسبة - كما رأينا - وهذا يؤكد التأثر والتأثير بين البيئات اللغوية بدوها وحضرها.

---

(٨٤) النهاية ٤/ ١٣٦ (قنع) والقاموس ٣/ ٧٩.

(٨٥) النهاية ١/ ٤٣٦ والتهذيب ٥/ ٣٣٦، والصحاح والقاموس ٤/ ٣٢١، واللسان ٨/ ٢٠٨.

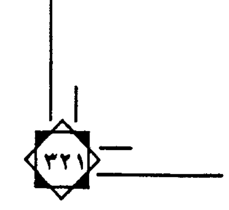
(٨٦) النهاية ٣/ ١٢١ (طرف) والقاموس ٣/ ١٧٢.

(٨٧) النهاية ٣/ ٢٢٣ (عرم) والقاموس ٤/ ١٥٠، واللسان ١٥/ ٢٨٨.

(٨٨) النهاية ٣/ ٣٧٥ (مهل) والقاموس ٤/ ٥٤، واللسان ١٤/ ١٥٥.

(٨٩) اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص٢٥.

(٩٠) السابق.



الفصل الثانى

التغيير فى بعض الصيغ اللغوية وتعدد الأوجه النحوية

إبدال الياء ألفا فى بعض الأفعال الثلاثية

المعروف فى كتب التصريف أن الواو والياء تقلبان ألفا إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما مثل: دعا وسعى، فإن سكنت الواو والياء أو لم ينفتح ما قبلهما لم يقلبا ألفا مثل: بيت وعين وصم ونوم والسعى والظبى ويقوم ويبيع... إلخ. وقد نقل عن بعض العرب مثل بلحارث بن كعب أنهم يقلبونها ألفا دون تحقق الشروط السابقة فيقلبون الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفا، فالحرفان (على) و(إلى) - من حروف المعانى - وبعض الظروف إذا اتصلت بالمضمر قلبت ألفها ياء فنقول: عليك وإليك ولديك، وقال سيبويه إن ذلك القلب ليفرقوا بين الظاهر والمضمر لأن المضمر لا يستقل بنفسه بل يحتاج إلى ما يتوصل به إليه.

وبنو الحارث بن كعب وخثعم وكنانة يقلبون الألف لا فرق عندهم بين المظهر والمضمر: وكذلك كل ياء ساكنة مفتوح ما قبلها يقلبونها ألفا فيقولون: إلاك وعلاك ولداك[1] وقالوا: السلام علاكم[2] وأنشد لبعض أهل اليمن:

أى قلوص راكب تراها ... طاروا علاهن فطر علاها[3]

وقد قلبت الواو ألفا لغير علة فى قول الشاعر:

تبت إليك فتقبل تابتى ... وصمت ربى فتقبل صامتى

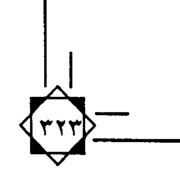
وقد شرحنا ذلك فى إبدال حروف العلة بعضها من بعض.

---

(١) الكتاب ٣/ ٤١٢، ٤١٣، والمصباح (الى) ١/ ٢١.

(٢) النوادر لأبى زيد ٢٥٩، ٢٦٠.

(٣) الخصائص ٢/ ٢٦٩، وشرح شواهد العينى ١/ ١٢٧، ١٢٩، ٢/ ٥٨٥، ٧٨٦.



وقد يلتبس ذلك حال القلب التباسا لفظيا بأسماء وأفعال مثل (ألاه) فى (إليه) يلتبس بلفظ (إله) ومثل (علاه) يلتبس بالفعل (علا) فى مثل: علا زيد ثوب وعلاه ثوب بمعنى (عليه)[٤].

وقد اشتهر أن قبيلة طيئ تقلب الياء الواقعة بعد الكسرة ألفا فى بعض الأفعال الثلاثية - مخالفة القاعدة العامة التى أشرنا إليها من قبل - سواء أكانت الكسرة والياء أصليتين أو عارضتين للبناء للمجهول فيقولون فى: فنى، فنى: وفى بقى: بقى، بكسر العين وفتحها وفى المبنى للمجهول: هدى زيد: وبنى البيت: هدى وبنى بضم الفاء وفتح العين. قال زيد الخيل الطائى:

أفى كل عام مأتم تبعثونه ... على محمر[٥] منكم أثيب ومارضا

رضى بضم الراء وفتحها.

وقال المستوفز بن ربيعة:

هل ما بقى إلا كما قد فاتنا ... يوم يكر وليلة تحدونا

وقال امرؤ القيس:

لها متنان حظاتا كما ... أكب على ساعديه النمر

يريد: حظيتا.

وقال آخر:

ثم عذت بباقاة لحى ... ولا أحد على الدنيا بباق

وقال:

وما الدنيا بباقاة علينا

يريد: بباقية[٦].

وقال:

(غير باناة على وتره)

أى: غير بانية.

وعليها جاءت بعض القراءات الشاذة كقراءة الحسن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾، - بفتح قاف بقى - وقراءة الأعمش: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ بفتح السين فى نسى.

---

(٤) انظر اللسان (علا) ١٩/ ٣٢٢.

(٥) المحمر كمنبر: الذى لا يعطى إلا على الكد واللئيم. القاموس ٢/ ١٤.

(٦) الجمهرة ٢/ ٤٣، شرح المفصل ٢/ ١١.

وفى المزهر: أن ما بنته جماهير العرب على فعل مما لامه واو كشقى أو ياء كفنى فطيئ تبنيه على فعل - بفتح العين - يقولون: شقى يشقى وفنى يفنى[٧].

ويبدو أن قبيلة طيئ فعلت ذلك فيما تطرفت فيه الياء، وعلل الرضى لذلك بأن الطرف محل التغيير والتخفيف، فإن توسطت الياء بسبب التاء اللازمة نحو: ناصاة فى ناصية ونحوها فقليل[٨].

قال الأزهرى: لغة طيئ فى الناصية: الناصاة حكاه أبو عبيد وأنشد:

لقد آذنت أهل اليمامة طيئ   بحرب كناصاة الحصان المشهر[٩]

وعلى ذلك فإن هذه اللهجة شائعة فى الفعل الماضى الثلاثى المكسور العين قليلة فى غيره.

والظاهرة منسوبة لطيئ[١٠] وقد رويت بعض شواهدها منسوبة لغير طيئ كتميم وأسد وقيس وفريق من سكان نجد من قبائل اليمن وقد تأثرت نجد بطيئ حينما هاجروا إلى شمالى الحجاز، وكذلك نسبت إلى بلحارث بن كعب وغيرها.

قلب ألف المقصور ياء

المقصور: هو الاسم المعرب الذى آخره ألف لازمة قبلها فتحة، ومنه القياسى والسماعى، ذكر الرضى أن ألف المقصور تقلب ياء فى الوقف، قال: (وأما إذا وقفت عليها - (أى الألف) - فتخفى غاية الخفاء... ولهذا يبدلونها فى الوقف حرفا من جنسها أظهر منها)[١١].

وسئل ابن عباس عن قتل المحرم الحيات فقال: لا بأس بقتل الأفعو ولا بأس بقتل الحدو فقلب الألف فيهما واوا حسب لغته[١٢].

ونقل عن ابن يعيش أن هذا القلب ياء يكون فى الوقف والوصل، يقول: وقوم من العرب يبدلون هذه الألف ياء فى الوقف فيقولون: هذه أفعى وحبلى، وهى لغة فزارة وناس من قيس.

---

(٧) ٢/ ٣٨.   (٨) شرح الشافية ٣/ ١١١.   (٩) التهذيب ١٢/ ٢٤٥.

(١٠) المقاييس ١/ ٢٧٦، والمخصص ٦/ ٤٠، واللسان ٤/ ١٨٤، والمزهر ١/ ٢٣٧.

(١١) شرح الشافية ٢/ ٢٧٦.   (١٢) التهذيب ٣/ ٢٣٣.

وقال: وطيئ يجعلونها (أى الألف) ياء فى الوصل والوقف[١٣] وبعض طيئ يقلبونها واوا لأن الواو أبين من الياء والقصد البيان[١٤].

وتقلب ألفه همزة فى الوقف أيضا فيقال فى أفعى: أفعأ، وحبلى: حبلأ، يقول السيوطى: وربما قلبت الألف الموقوف عليها همزة أو ياء أو واوا نحو هذا أفعأ - أفعى - أفعو فى هذه أفعى وهذه عصأ وعصى وعصو فى هذه عصا، الأولى والأخيرة لبعض طيئ والثانية لغة فزارة[١٥]» وكذلك فى شرح التصريح[١٦]. ويعلل لها القدماء بأن الألف أخفى من الهمزة، والهمزة إذا كان ما قبلها متحركا كانت أبين من الألف، والألف قريبة من الهمزة لأن الألف تهوى وتنقطع عندها[١٧].

وقد نسبت هذه اللهجات إلى بعض طيئ وفزارة كما عند سيبويه والرضى[١٨] والسيوطى.

وقد تعددت صور النطق بألف المقصور فى الوقف كما رأينا فى أفعى وعصا وليس من المعقول أن ينسب ذلك إلى قبيلة واحدة فى مدة زمنية واحدة، بل المعقول أن تكون كل صورة من الصور المذكورة فى بعض بطونها دون بعض أو أنه حدث فى أزمان مختلفة.

«فيرجح أن بطنا من طيئ كانت تنطق بالهمزة تارة وبطنا أخرى بالألف وثالثة بالياء، أو ربما أن هذه اللهجات حدثت فى فترات متباينة، وقد جمع النحاة هذه الاستعمالات دون توضيح أو بيان»[٢٠].

ونسبها ابن دريد إلى أهل اليمن قال: قوم من أهل اليمن يسمون العصا عصو[٢١] والمسألة فى رأينا مسألة نبرة شديدة تتضح عند القبائل البدوية.

---

(١٣) شرح المفصل ٩/ ٧٧ وانظر المحتسب ١/ ٧٧.

(١٤) اللسان نقلا عن ابن الأثير فى النهاية ١/ ٥٥، وفى كتاب سيبويه (وزعموا أن طيِّئا تقول أفعو) الكتاب ٢/ ٢٨٧، ويقول السيرافى: ومنهم - أى من طيئ كما يقول ابن يعيش - من يجعل الألف واوا (السيرافى على سيبويه ٥/ ٤٤، وشرح المفصل ٩/ ٧٧)، والواو والياء دون ريب أظهر وأبين من الألف، ولهذا قلبت إليهما وكثيرا ما يبدل أحد أصوات اللين من صاحبه.

(١٥) الهمع ٢/ ٢٠٦.

(١٦) شرح التصريح ٢/ ٣٣٩.

(١٧) شرح التصريح ٢/ ٣٣٦، والهمع ٢/ ٢٠٦.

(١٨) الكتاب ٤/ ١٨١، وشرح الشافية ٢/ ٢٨٦.

(١٩) ٢/ ٢٠٦.

(٢٠) اللهجات العربية فى التراث ص ٤٩٦ ٣.

(٢١) الاشتقاق ٥٤.

وتبقى ألف المقصور على حالها عند إضافتها إلى ياء المتكلم كالعصا والفتى والرضا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، هذا عند جمهور العرب.

وهذيل(٢٢) تقلب ألف المقصور ياء عند إضافته إلى ياء المتكلم فيقولون: عصى وفتى، ورضى عوضا عن كسرة الحرف الذى قبل الياء، قال أبو ذؤيب الهذلى:

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع

وقال الآخر:

فأبلونى بليتكم لعلى ... أصالحكم وأستدرج نويا

فهوى: أصله هواى، ونوى: أصله نواى فقلب الألف ياء وأدغمها فى ياء المتكلم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قرئ (هدى) بقلب الألف ياء وإدغامها فى ياء المتكلم(٢٣).

وقوله تعالى ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾، قرئ (بشرى)(٢٤).

وينسب السيوطى قلب ألف المقصور ياء عند إضافته إلى ياء المتكلم لهذيل وغيرهم(٢٥) ونسبها بعضهم إلى طيئ(٢٦) وحكى عيسى بن عمر هذه اللغة عن قريش(٢٧).

أما إذا ثنى الاسم المقصور فتبقى ألفه حال الإضافة إلى ياء المتكلم مثل فتيان تقول: فتياى، إذ لا موجب لقلبها ياء(٢٨).

---

(٢٢) شرح التصريح ٢/ ٦١، وشرح الشافية ١/ ٢٩٤، والبحر المحيط ١/ ١٦٩، ٤/ ٢٣٩، ٥/ ٢٩٠، والمحتسب ١/ ٧٦، ٣٣٦ والخصائص ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣٣) البحر المحيط ١/ ١٦٩، والمحتسب ١/ ٧٦ عن عاصم الجحدرى وعبد الله بن أبى إسحاق وعيسى ابن أبى عمر ونسبت إلى النبى ﷺ.

(٢٤) البحر المحيط: ٥/ ٢٩٠، والمحتسب ١/ ٣٣٦، ونقلت هذه القراءة عمن قرأوا (هدى).

(٢٥) الهمع ٢/ ٥٣. (٢٦) شرح التصريح ٢/ ٦١، واللسان ٢٠/ ٥٥.

(٢٧) شرح الأشمونى ٢/ ٢٨١، ٢٨٢.

(٢٨) شرح التصريح ٢/ ٦١ والأشمونى ٢/ ٢٨١، ٢٨٢ والهمع ٢/ ٥٣.

أما الحروف مثل: على وإلى، والظروف مثل لدى فإنها إذا اتصلت بياء المتكلم قلبت ألفها ياء وأدغمت فى ياء المتكلم مثل على وإلى ولدى بتشديد الياء.

تصحيح اسم المفعول من الثلاثى الأجوف

التصحيح: إبقاء حرف العلة على حاله دون التعرض له بأى تغيير. والإعلال: تغيير حرف العلة بالقلب أو الحذف أو الإسكان[29] واسم المفعول من الثلاثى الأجوف يعل عند الحجازيين واويا كان أو يائيا، فيقال فى اسم المفعول من قال وباع: مقول ومبيع، ولكن التميميين يعلون الواوى ويصححون اليائى فيقولون: مبيوع ومديون ومعيون ومغيوم ومطيوب[30] من ذلك قول علقمة بن عبدة التميمى فى طائر:

حتى تذكر بيضات وهيجه يوم رذاذ عليه الدجن مغيوم

وقال عباس بن مرداس:

قد كان قومك يحسبونك سيدا وإخال أنك سيد معيون

ومما أنشده أبو عمرو بن العلاء:

(وكأنها تفاحة مطيوبة)[31]

وقد ورد التصحيح فى الواوى حكاية عن البغداديين من أن بعضهم يقول ثوب مصوون وفرس مقوود ومسك مدووف ورجل معوود فى مرضه قال: (والمسك فى عنبره مدووف)[32].

وقال سيبويه: «ولا نعلمهم أتموا فى الواوات، لأن الواوات أثقل عليهم من الياءات ومنها يفرون إلى الياء فكرهوا اجتماعها مع الضمة»[33].

---

(٢٩) شرح الشافية ٢/ ٦٧.

(٣٠) الخصائص ١/ ٢٦٠، وشرح المفصل ١٠/ ٧٨، وشرح الشافية للرضى ٣/ ١٤٧، والمقتضب ١/ ١٠١.

(٣١) الخصائص: ١/ ٢٦١، وشرح المفصل ١٠/ ٨٠.

(٣٢) الخصائص: ١/ ٢٦١ واللسان (قود).

(٣٣) الكتاب ٤/ ٣٤٩.

ونقل ابن منظور تعليل هذا الإتمام فقال: وذلك لثقل الضمة على الواو، والياء أقوى على احتمالها منها، فلهذا جاء ما كان من بنات الياء بالتمام والنقصان نحو ثوب مخيط ومخيوط[٣٤].

وقد جعل ابن جنى التصحيح فى الواوى من الشاذ فى القياس والاستعمال جميعا.

قال: والرابع الشاذ فى القياس والاستعمال جميعا وهو كتتميم مفعول فيما عينه واو نحو ثوب مصوون ومسك مدووف، وحكى البغداديون فرس مقوود ورجل معوود من مرضه، وكل ذلك شاذ فى القياس والاستعمال فلا يسوغ القياس عليه ولا رد غيره إليه[٣٥].

وقد أجاز المبرد الإتمام فى ذوات الواو - مخالفا بذلك النحويين - قياسا على ما ورد فيها، وقال: ليس بأثقل من سرت سوورا وغارت عينه غوورا، لأن فى (سوور) و(غوور) واوين وضمتين، وليس فى (معوود) مع الواوين إلا ضمة واحدة[٣٦].

وقد قال: (لست أراه ممتنعا إلا عند الضرورة)[٣٧].

ويرى بعض المحدثين أن الصيغة التميمية هى الأصل والحجازية فرع عنها تبعا لنظرية السهولة والاقتصاد فى الجهد العضلى والانسجام الصوتى فى الصيغة الحجازية يجعلها أحدث من التميمية[٣٨] وفى كتاب سيبويه ما يفيد أن الصيغة التميمية أقدم من الحجازية[٣٩].

بعض الأسماء المقصورة والممدودة

تستعمل أولاء اسم إشارة للجمع مذكرا ومؤنثا بصيغة المد عند الحجازيين مثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ولكن بنى تميم، وبعض القبائل الأخرى مثل قيس وربيعة وأسد وغيرهم من أهل نجد يستعملون اسم

(٣٤) اللسان (دوف).

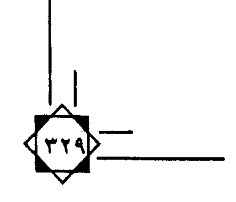
(٣٥) الخصائص ١/ ٩٩.

(٣٦) الممتع لابن عصفور ٢/ ٤٦١.

(٣٧) المقتضب ١/ ١٠٢.

(٣٨) فى اللهجات العربية ٦٧، ٦٨.

(٣٩) الكتاب ٤/ ٣٤٨ والخصائص ١/ ٢٦٠، ٢٦١.



الإشارة للجمع مقصورا فيقولون (أولى) ويقرر النحاة أن الممدود يمتنع اقترانه بلام البعد فلا يقال (أولاء لك) ويجوز أن تلحق المقصور فيقولون (أولالك) قال الشاعر:

أولا لك قومى لم يكونوا أشابة — وهل يعظ الضليل إلاأولالكا[٤٠]

وقد وردت كلمات مقصورة وممدودة حسب اختلاف القبائل.

من ذلك السدى والسداء ممدود البلح بلغة أهل المدينة[٤١] والحجا والحجاء لغة فيها[٤٢].

والشقا والشقاء والبكا والبكاء - بالمد والقصر[٤٣].

قال حسان:

بكت عينى وحق لها بكاها — وما يغنى البكاء ولا العويل

وأوضح اللغويون أن المد فى (البكاء) للصوت المعبر عن الحزن والقصر فى (البكا) للتعبير عن نفس الحزن[٤٤].

وذكر ابن دريد أن القصر والمد كثير فى الشعر الفصيح[٤٥].

ولا بأس عند اللغويين أن يستعمل القصر والمد فى لهجة واحدة أو قبيلة واحدة بنفس المعنى لكن مع اختلاف الأزمان والبيئات، والمد أقيس وأكثر فى أسماء الأصوات.

وقد نسب المقصور من هذا وأمثاله إلى أهل نجد واليمن أو يغلب القصر على لسانهم، على حين يكثر المد عند الحجازيين، وهذا لا يمنع من العكس بوجود المد فى بيئة نجد والقصر فى بيئة الحجاز، فقد روى: السدى والسداء ممدود: بلغة أهل المدينة كما ذكرنا من قبل.

---

(٤٠) الأشمونى ١/ ٣٩، وشرح التصريح ١/ ١٢١، والهمع ١/ ٧٥.

(٤١) التهذيب ١٣/ ١٠٠ ونسب إلى أهل اليمن. اللسان ١٤/ ٢٧٦ «سدا».

(٤٢) التهذيب ٥/ ١٣١، ١٣٢.

(٤٣) الجمهرة ٣/ ٦٧.

(٤٤) المخصص - حكاية عن الخليل - ١٣/ ١٤٠، والأصول فى النحو لابن السراج ٢/ ٤١٦.

(٤٥) الجمهرة ٣/ ٢١٠.

كلا وكلتا

تتحدث قواميس اللغة عن لفظة «كلا» مذكرا ومؤنثا وتشير إلى الآراء الواردة فى معناها وتركيبها وأحوالها الإعرابية وتتلخص فيما يأتى.

أما عن معناها فيتفق العلماء على أنها كلمة مصوغة للدلالة على اثنين ولكنهم يختلفون فى بيان كونها مفردا أو مثنى.

فابن جنى وسيبويه وابن سيده يقررون أنها اسم مفرد يفيد معنى التثنية كما أن «كلا» مصوغة للدلالة على الجمع. وكذلك يتفق مع هؤلاء العلماء الجوهرى فهو يقول: كلا فى تأكيد الاثنين نظير كل فى المجموع وهو اسم مفرد غير مثنى[٤٦]. ويقف فى الجانب الآخر ابن الأنبارى وأبو الهيثم.

فابن الأنبارى يحكى لنا أن طائفة من العرب لا تميلها، وعلى هذا تكون ألفها للتثنية كألف «غلامان وذوا» وواحد «كلتا» على هذا الرأى كلت وألف التثنية لا تمال.

كما يحكى لنا أن طائفة أخرى من العرب تميلها وعلى هذا تكون اسما واحدا عبر به عن التثنية وهو بمنزلة شعرى وذكرى.

وأما أبو الهيثم فيروى لنا الأزهرى عنه أن «كلا» أصلها «كل» بالتشديد فخففت اللام وهو رأى الفراء، وكذلك كلتا ولا يتكلم منهما بواحد، ولو تكلم به لقيل كل وكلت وكلان وكلتان واحتج بقول الشاعر:

فى كلت رجليها سلامى واحده　　　كلتاهما مقرونة بزائده[٤٧]

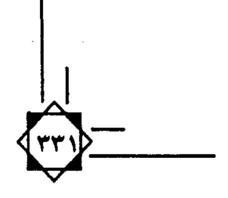
هذه هى الآراء عن كونها مفردا أو مثنى.

وأصحاب الرأى الأول يقولون بأن ألفها للتأنيث وهى على وزن فعلى كذكرى هذا بالنسبة لـ «كلتا» فأما كلا فوزنها «فعل» بكسر الفاء وسكون العين ولامها معتلة بمنزلة حجا ورضا وألفها منقلبة عن واو وبدليل التاء فى «كلتا» لأن بدل التاء من الواو أكثر من بدلها من الياء وألفها للتأنيث كما ذكرت ولذلك تمنع الصرف معرفة ونكرة.

---

(٤٦) اللسان ج١٥ ص٢٢٧.

(٤٧) المصدر السابق ج١٥ ص٢٢٨.



ولكن أبا عمر الجرمى يقول: إن التاء فيها علم التأنيث والألف لام الكلمة فوزنها فعتل، وعلى هذا تصرف نكرة لأن أقصى أحوالها عنده أن تكون كقائمة وقاعدة[48].

ونحن نرى إصابة الرأى الأول الذى قال به سيبويه واعتمده ابن جنى وذلك لضعف الآراء الأخرى ونشير إلى أدلة ضعفها فيما يأتى:

ضعف أهل البصرة كون هذين اللفظين مثنى لأنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن تنقلب ألفها فى النصب والجر ياء مع الاسم الظاهر. ولأن معنى «كلا» مخالف لمعنى كل لأن «كلا» بتشديد اللام للإحاطة وكلا يدل على شيء مخصوص، وأما «كلت» فى قول الشاعر السابق فمحمولة على الضرورة؛ لأنه اعتبر الألف زائدة لما استدعاه الوزن الشعرى لذلك فلا يعتبر حجة[49].

أما معاملة هذين اللفظين معاملة المثنى من زاوية إعرابية خاصة حال إضافتهما إلى المضمر فليس دليلا على أنهما مثنيين لأن هذه المعاملة ملحوظ فيها شبه آخر، ولذلك لزما الألف حال إضافتهما إلى الظاهر وحتى حال إضافتهما إلى المضمر عند الرفع.

أما نصبهما وجرهما بالياء فمبنى على شبههما بعلى ولدى فى لزومهما الإضافة ونحوها، ولذلك اقتصر فى هذا التشبيه على النصب والجر لأن على لا تقع إلا منصوبة أو مجرورة، ولا تستعمل مرفوعة فبقيت كلا فى الرفع على أصلها مع المضمر لأنها لم تشبه بعلى فى هذه الحال.

وإنما أبدلت التاء من الواو فى «كلتا» لأنها تنوب عن الألف إذا صارت ياء مع المضمر ففى هذا الإبدال تأكيد للتأنيث.

وينقض رأى أبى عمر الجرمى وهو أن الفاء علم التأنيث ووزن «كلتا» فعتل ينقض ذلك ما ساقه ابن جنى من أن الفاء لا تكون علامة للتأنيث إلا إذا انفتح ما قبلها كحمزة وفاطمة أو أن يكون قبلها ألف مثل سعلاة وعزهاة واللام فى «كلتا» ساكنة.

ووجه آخر هو: أن علامة التأنيث لا تأتى إلا آخرا والفاء ههنا متوسطة، وأيضا: فلا يوجد وزن «فعتل» فى الكلام حتى يحمل ذلك عليه.

---

(٤٨) المصدر السابق ج١٥ ص٢٢٧.

(٤٩) المصدر السابق ج١٥ ص٢٢٨.

وقد قيل فى الـرد على أبى عمر أيضا لو كان الأمـر كما ادعى لقيل فى النـسب إليها كلتوى ولكنهم لم يـقولوا ذلك بل قالوا كلوى كما قالوا فـى النسب إلى أخت أخوى فدل ذلك على أن التاء مبدلة من واو.

وقد عارض الدليل الأخيـر ابن برى حين قال: كلوى قياس من النحـويين إذا سميت به رجلا وليس ذلك مسموعا فيحتج به على الجرمى.

وأيا ما كان الأمـر فالأدلة الأخرى تدحض رأيه وتعـضد رأى الجمهور الـسابق. فلم يبق لنا إلا أن نعترف برأى الجمهور الذى عضده ابن جنى بالدليل.

هيهـات

يدور معنى هذه الكلمة فى معاجم اللغة حول البعد وفيها مناقشات مختلفة.

أولها يـتعلق بحـركة التـاء - ثانيها يـتعلق بأصـالة التاء أو انقـلابها - ثالـثها يتـعلق بإفرادها أو جمعها.

أما حـركة الـتاء فـقد وردت على أوضـاع متـنوعة فـقد وردت مـفتـوحة بلا تـنوين ومكسورة بلا تنوين أيضا ومنونة فتحا وكسرا، وحاول اللغويون القدامى تفسير هذه الأوجه فمن قال هـيهات بفتح التـاء بغير تنوين شـبه التاء بالهـاء ونصبها على مـذهب الأداة لأنها معرفة فى هذه الحال، ومن قال بالفتح والتنوين شبهه بقول تعالى: ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ ومن قال هيهات بالكسر بلا تنوين شبهه بحذام وقطام ومن قال هيهات بالتنوين شبهه بالأصوات كقولهم غاق وطاق(٥٠) وقد سـمى ابن الأنبارى كل ذلـك لغات(٥١) وأضاف إليـها ورود الضم فيها فتكون كالكسر بلا تنوين وأورد فيها الضم مع التنوين أيضا وهى فى هذا الوضع مشبهة بتاء الجمع فى عرفات، وأنا أميل إلى اعـتبار اختلاف حركة التاء راجعا إلى اختلاف اللهجات كما ذكر ابن الأنـبارى وتعليلات اللغويين القدامى تتجه ناحيـة الفلسفة والمنطق أكثر من ارتباطها باللغة من ناحية كونها ظاهرة اجتماعية.

وأما عن أصالة التاء أو انقلابها فهنا آراء.

يقول بعض اللغويين: إن التاء أصلها الهاء بل يحكى ابن منظور فى لسانه اتفاق أهل اللغة على ذلك، ويروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه يوقف علـيها بالهاء مثل: هيهات هيهاه

---

(٥٠) المصدر السابق ج١٣ ص٥٥٣.

(٥١) أشار إليها ابن جنى فى الخصائص ج٣ (باب فى تسمية الفعل).

قال ذلك في قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾. وهذا دليل لذلك، وهذا الرأى يقابلـه رأى آخـر يقول بأصالـة التاء وأنها ليسـت منقلبة بل هى تاء التأنيث، وأما عن إفرادها فيقول العلماء إن المتحركة بغير الكسر تعتبر اسما مفردا فإذا كانت مكسورة منونة أو غير منونـة فهى جمع ومفردها علـى ذلك هيهة[٥٢] وممن قال بذلك سـيبويه وأبو على، وفى قول آخر لأبـى على أن مفردها هيهـات، والمعروف فيـها أنها اسم فعل مـاض بمعنى بعد[٥٣] ولكن أبا علـى الفارسى كان يقـول فيها أنا أفـتى مرة بكونهـا اسما سمى بـه الفعل كصه ومه وأفتى مرة بـكونها ظرفا على قدر ما يحضرنى فى الحـال.وقال مرة ثالثة: إنها وإن كانت ظرفا فغير ممتنع أن تكون مع ذلـك اسما سمى به الفعل كعندك، وروى ذلك عنه ابن جنى.

ويكون معـناها على الظرفيـة فى البعد فمـعنى هيهات مـا تقول: فى البعد مـا تقول، وهذا الرأى سبق به المبرد فى المقتضب كما يقول الأستاذ النجار محقق الخصائص.

ويروى ابن جنى أنها من الألـفاظ الرباعية المكررة فاؤها ولامهـا الأولى هاء وعينها ولامها الثانية ياء، فهى لذلك بمنزلة صيصية وقد حذفت اللام لأنها فى اسم غير متمكن.

قال ابن سيدة: أنشد ابن جنى قول العجاج.

هيهات من منخرق هيهاؤه

ولم يفسره قال: ولا أدرى ما معنى هيهاؤه.

ولكن بالبحث عن مـعناه نجد أنه البعـد والشىء الذى لا يـرجى وهو يدل على كون هيهات من مضاعف الأربعة[٥٤] وألف هيهاؤه هى ألف فعلال بعكس ألف هيهات[٥٥].

ونحن لا نرتـضى الآراء التى تتحـدث عن إفرادها وجـمعهـا فالذى نعرفـه من واقع كتب اللغـة أنها وضعت هكذا اسم فـعل ماض بمعنى بعد فـلا تتصرف، فأما كـون مفردها هيهة أو هـيهات فذلك من غرائب الـلغة لأن هيهة لم نعـرف لها أثرا فى المعاجـم اللغوية، وأما من قال إن مفردها هيهات فلم يأت بجديد.

---

(٥٢) اللسان ج١٣ ص٥٥٣. (٥٣) الأشمونى مع الصبان ج٣ ص١٩٧.
(٥٤) اللسان ج١٣ ص٥٥٤، ٥٥. (٥٥) الخصائص (باب فى تسمية الفعل) ج٣.

أما معنى الظرفية الذى لمسه فيه أبو على الفارسى ورجحه ابن جنى وادعى أن ذلك من عند الله فربما استفيد من معنى الفعل واسمه فبعد بحسب أصلها يتضمن معنى الظرفية ولكن أبا على لم يعطنا رأيا صريحا بل اضطرب بين روايات ثلاث كما سبق، أما قول ابن جنى بأنها رباعية مكررة فهذا أمر مقبول.

هلم

تستعمل عند الحجازيين اسم فعل أمر بطريقة واحدة، فلا تلحق بها الضمائر البارزة، وإنما يستتر فاعلها، مفردا أو مثنى، أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا، فتقول: هلم يا زيد، وهلم يا زيدان، وهلم يا زيدون، وهلم يا هندان، وهلم يا هندات.

وبنو تميم(٥٦) يجعلونها فعل أمر تتصل بها الضمائر للمفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا، فيقولون: هلم يا زيد، وهلمى يا هند، وهلما يا زيدان ويا هندان، وهلموا يا زيدون، وهلممن يا هندات.

وجاءت (هلم) في القرآن بلهجة الحجاز، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾، ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

ولذا رجح النحاة لهجة الحجاز(٥٧) وذكر الرازى أنها أفصح(٥٨).

ويرى الخليل أن (هلم) مركبة من (ها) التى للتنبيه و(لم) بمعنى: اجمع شملك إلينا، وحذفت الألف تخفيفا لكثرة الاستعمال، يقول سيبويه، وزعم (أى الخليل) أنها (لم)

---

(٥٦) ينسب الخليل لهجة غير الحجازيين إلى بطن من تميم هم بنو سعد (العين ٤/ ٥٦، والصحاح) (هلم) ونسبها الأزهرى إلى تميم وبنى سعد (التهذيب ٦/ ٤٣٧) ونسبت أيضا إلى تميم وبعض نجد (تاج العروس ٩/ ١٠٨) وإلى أهل نجد (المصباح ص٦٤٠) وفيه أن أبا زيد قال: (استعمالها بلفظ واحد للجميع من لغة عقيل وقيس وإلحاق الضمائر من لغة تميم وعليها أكثر العرب)، لكن وقوعها فى القرآن بلغة الحجاز وعدم قراءتها - ولو شذوذا - باللغة التميمية دليل على أن أكثر العرب على لهجة الحجاز لا لهجة تميم. انظر لغة تميم د. ضاحى عبد الباقى ص٤٨٩.

(٥٧) الكتاب (باب ما لا يجوز فيه نون خفيفة ولا ثقيلة وذلك الحروف التى للأمر والنهى وليست بفعل نحو إيه وصه ومه وأشباهها) ٣/ ٢٥٩، والمقتضب ٣/ ٢٠٢، ٢٠٣، وشرح المفصل ٤/ ٤١ والأشمونى ٣/ ٢٠٦ واللسان (هلم).

(٥٨) مختار الصحاح ص ٦٩٨.

- بضم اللام وتشديد الميم المفتوحة - لحقتها ها للتنبيه وإنما حذفوا الألف لكثرة استعمالهم هذا فى كلامهم[٥٩]. وعند الأخفش أنها مركبة من (هل) التى للاستحثاث و(لم).

ويرى الفراء أنها مركبة من (هل) و(أم) بمعنى اقصد، ثم حذفت الهمزة تخفيفا، وبناء على وجود الفعل فى تركيبها قال التميميون بفعليتها، وقد وردت صيغة للمضارع منها: حكى الأصمعى أن الرجل يقال له: هلم فيقول: لا أهلم[٦٠].

ويقول النحاة: أن (هلم) لما غير معناها بعد التركيب صارت كسائر أسماء الأفعال المنقولة عن أصلها عند الحجاز، ولذا لم تتصرف عندهم، على حين يصرفها بنو تميم نظرا لأصلها[٦١].

هذا هو الرأى القديم فى (هلم) اسم فعل أمر وفعلا مركبا، ولكن بعض المحدثين يميلون إلى القول ببساطتها على ضوء اللغات السامية، فالكلمة فى العبرية هى halom كلمة واحدة ليست مركبة، وهو أقرب إلى القول.

إلحاق الفعل علامة التثنية والجمع

إذا كان الفعل اسما ظاهرا مفردا جاء الفعل بصيغة الإفراد عند العرب جميعا[٦٢].
أما إذا كان الفاعل اسما ظاهرا مثنى أو جمعا مذكرا أو مؤنثا فإن جمهور العرب يفردون الفعل فلا يلحقون به علامة تثنية أو جمع فتقول: قام أخواك وقام إخوتك وقام أختاك وقامت أخواتك وقال قومك فحذفوا العلامة اكتفاء بما أظهروا[٦٣] وعلى ذلك تجرى الفصحى، وفى القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.. إلخ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾.. إلخ.

---

(٥٩) الكتاب ٣/ ٢٥٩.

(٦٠) شرح المفصل ٤/ ٤٣) وانظر فى اعتبارها فعلا - عندهم - الأشمونى ٣/ ٢٠٦، والبحر المحيط، ٤/ ٢٣٥، والهمع ٢/ ١٠٧.

(٦١) شرح الكافية ٢/ ٧٢، ٧٣، والحجة للفارسى ١/ ١٤٦، ١٤٧.

(٦٢) شرح درة الغواص للخفاجى ١٥٢، وشرح التصريح ١/ ٢٧٥، ٢/ ١١٠، وهمع الهوامع ١/ ١٦٠، والجنى الدانى للمرادى ١٧١.

(٦٣) شرح الأشمونى ٢/ ٤٨.

ولكن بعض العرب ومنهم قبيلة طيئ وبلحارث بن كعب، وأزد شنوءة[٦٤] وهي قبائل يمنية كانت تلحق الفعل - إذا كان فاعله ظاهرا مثنى أو جمعا - علامة التثنية وعلامة الجمع فيقولون: قاما أخواك وقاموا إخوتك وقمن نسوتك، يقول سيبويه:

(واعلم أن من العرب من يقول: ضربوني قومك وضرباني أخواك وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث، قلت: مررت برجل أحمران أبواه تجعله اسما، ومن قال أكلوني البراغيث قال: من قال: أكلوني البراغيث أجرى هذا على أوله فقال: مررت برجل حسنين أبواه ومررت بقوم قرشيين آباؤهم، وكذلك أفعل نحو أعور وأحمر فتقول: مررت برجل أعور أبواه وأحمر أبواه فإن ثنيت قلت: مررت برجل أحمران أبواه تجعله اسما، ومن قال أكلوني البراغيث قلت على حد قوله: مررت برجل أعورين أبواه[٦٦].

ووردت بعض آيات القرآن الكريم - ظاهرها - يشير إلى هذه اللغة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ وقوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[٦٧] فبعض النحاة يجعل الاسم الظاهر (كثير) و(الذين ظلموا) فاعلا على اللغة السابقة بيد أن جمهور النحاة والمفسرين يحاولون تخريج الآيتين على اللغة المشهورة التي عليها جمهور العرب فيعربون «كثير» على أنه بدل من (الواو) التي يجعلونها ضميرا فاعلا في عموا وصموا، كما تقول: رأيت قومك ثلثيهم أو يضمرون فعلا آخر ارتفع به الاسم الظاهر، والتقدير (عمي وصم كثير منهم) أو «كثير» خبر لمبتدأ محذوف ويكون التقدير (العمى والصم كثير منهم)[٦٨].

ويعربون (الذين ظلموا) بدلا من الواو في (أسروا) العائد إلى الناس قال المبرد: وهو كقولك: إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو في انطلقوا أو يعرب (الذين ظلموا) خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: هم الذين ظلموا أو مبتدأ وما سبقه خبر الذين ظلموا وهو (وأسروا النجوى) أو منصوبا بفعل محذوف أي أعني الذين ظلموا وأجاز

---

(٦٤) المصدر السابق ٢/ ٤٨. (٦٥) الكتاب ١/ ٢٣٦.

(٦٦) المصدر السابق ١/ ٢٣٧ ط بولاق.

(٦٧) من المائدة الآية ٧١ ومن الأنبياء الآية ٣.

(٦٨) تفسير القرطبي ٦/ ٢٤٨، وانظر الكتاب ١/ ٢٣٦ بولاق، ٢/ ٤١ هارون قال سيبويه (وأما قوله جل ثناؤه ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ فإنما يجيء على البدل وكأنه قال: انطلقوا فقيل له من؟ فقال: بنو فلان، فقوله جل وعز ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ على هذا فيما زعم يونس.

الفراء أن يكون خفضا بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم[٦٩] وهذا التأويلات عدها بعض العلماء تعسفا وتكلفا مستغنى عنه فإن تلك اللغة (إلحاق علامة الجمع للفعل) مشهورة ولها وجه من القياس واضح[٧٠].

وجاءت تلك اللغة فى بعض الأحاديث كقوله ﷺ: (**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**)[٧١] والحديث رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة وتكملته: **(يتعاقبون فيكم ملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يخرج الذين باتوا فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)**[٧٢].

فذكر الواو إلى جانب الاسم الظاهر (ملائكة) وأول الحديث على أنه جزء من حديث طويل وأصله: **(إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)** [٧٣].

وقد قال أبو حيان: إن الراوى قد تصرف فى الحديث بعبارته مستندا إلى رواية البزار - عن أبى هريرة - بلفظ **(إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم)** الحديث[٧٤] والواو - على هذه الرواية - ضمير الفاعل ولا شاهد فيه.

وأيد السيوطى رأى أبى حيان قائلا (وتوارده جماعة من شراح الحديث ومعهم ابن مالك على أن الحديث جاء على (لغة أكلونى البراغيث)، والحق ما قاله جماعة آخرون منهم أبو حيان أن الحديث تصرف فيه الراوى)[٧٥].

ولكن - كما قال ابن حجر - هذا الحديث ورد بلفظ **(يتعاقبون فيكم ملائكة)** فى الصحيحين فالعزو إليهما أولى[٧٦].

---

(٦٩) تفسير القرطبى ١١/ ٢٦٨، ومعانى القرآن للفراء ١/ ٣١٦، وشرح التصريح ١/ ٢٧٠، ٢٧٧، ومغنى اللبيب ٢/ ٣٦٥.

(٧٠) فتح البارى ٣/ ٢١٨.

(٧١) شرح الأشمونى ٢/ ٤٨.

(٧٢) فتح البارى ٣/ ٢١٨-٢٢١ رواه الشيخان والنسائى والإمام مالك فى الموطأ، تنوير الحوالك شرح للسيوطى على موطأ مالك ١/ ١٨٤.

(٧٣) الفائق للزمخشرى ٣/ ٧٣، والنهاية ٣/ ٣٩٧، ولسان العرب ٤/ ٣٩٧.

(٧٤) فتح البارى ٣/ ٢١٨.

(٧٥) تنوير الحوالك ١/ ١٨٤.

(٧٦) فتح البارى ٣/ ٢١٩.

ومن أقوال التابعين قول الحسن البصرى (قد أوكدتاه يداه وأعمدتاه رجلاه) أى صيرتاه عميدا وهو المريض الذى لا يستطيع أن يثبت على المكان حتى يعمد من جوانبه لطول اعتماده فى القيام عليهما يقال: عمدت الشيء وأعمدته جعلت تحته عمادا، وقوله: وأعمدتاه رجلاه على لغة من قال: أكلونى البراغيث وهى لغة طيء(٧٧).

ومن الشعر الذى جرى أصحابه على هذه اللغة قول عمر بن ملقط الطائى:

ألفيتا عيناك عند القفا ... أولى لك ذا واقية(٧٨)

بدلا من: ألفيت عيناك.

وقول أمية بن الصلت:

يلومونني فى اشتراء النخيل أهلى فكلهم يعذل(٧٩)

بدلا من يلومنى أهلى.

وقول عبد الرحمن العتبى:

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى ... فأعرضن عنى بالخدود النواضر

بدلا من: رأت الغوانى.

وقال الفرزدق:

ولكن ديافى أبوه وأمه ... بحوران يعصرن السليط أقاربه(٨٠)

بدلا من: (يعصر أقاربه).

وقول عبد الله بن قيس الرقيات:

تولى قتال المارقين بنفسه ... وقد أسلماه مبعد وحميم(٨١)

---

(٧٧) النهاية ٣/ ٣٩٧.

(٧٨) شرح شواهد المغنى ١١٣، وأمالى ابن الشجرى ١/ ١٣٢.

(٧٩) ديوان أمية بن الصلت ١٦، والدر اللوامع ١/ ١٤٢، وأمالى ابن الشجرى ١/ ١٣، وشرح التصريح ١/ ١٧٦، والهمع ١/ ١٦٠.

(٨٠) الكتاب ٢/ ٤٠ والشاعر يهجو عمرو بن عفراء الضبى، ودياف: قرية بالشام، وحوران من مدن الشام، والسليط: الزيت.

(٨١) ديوان ابن قيس الرقيات ٢/ ٣٥، ١٩٦، وأمالى ابن الشجرى ١/ ١٣١، وشرح التصريح ١/ ٢٧٧، والهمع ١/ ١٦٠.

وبعض العلماء من القدامى حكم بأنها غير فصيحة أو قليلة وبعضهم أشار إلى أنها لغة فاشية أو لغة حسنة(٨٢) وأصحاب هذه اللهجة طيئ وبنو الحارث بن كعب وأزد شنوءة وأضرابهم من العرب - كما أشرنا من قبل.

وهذه اللهجة ظلت على بعض الألسنة حتى عصر الحريرى المتوفى (سنة ١٦هـ) وعدها لحنا لكنها لهجة عربية ليست بلحن كما قال الشهاب الخفاجى فى شرح الدرة، وهى شائعة فى اللهجات الدارجة الآن فى مصر مثل (لامونى الناس) إلخ، وقد اتخذ المجمع قرارا بجوازها فقال: «يجوز إذا كان الفاعل اسما ظاهرا أو مثنى أو مجموعا جمعا لمذكر أو مؤنث أو ما يدل على أحدهما أن يلحقوا الفعل المسند إلى أحدهما علامة التثنية أو علامة الجمع»(٨٣).

وربما كان إلحاق العلامة شائعا إبان نشأة اللغة ثم تطورت إلى ترك العلامة بعد عصر تهذيب اللغة بما استقرت عليه الفصحى.

فعال للمؤنث

يختلف العرب فى إعراب ما جاء على (فعال) علما لمؤنث، فالحجازيون يبنونه على الكسر مطلقا رفعا ونصبا وجرا سواء كان آخره راء أو لا، مثل حذام وقطام ولكاع، ومن ذلك قول لجيم بن صعب بن بكر بن وائل:

إذا قالت حذام فصدقوها　　　فإن القول ما قالت حذام(٨٤)

ويفرق التميميون بين ما كان آخره راء وما ليس آخره كذلك فإن كان آخره راء فمعظم التميميين يبنونه على الكسر كالحجازيين فيقولون: هذه ظفار ودخلت ظفار ونزلت بظفار، وعليه قول الشاعر:

متى ما ترد يوما سفار تجد بها　　　أديهم يرمى المستجيز المعاورا(٨٥)

وقليل منهم يعربه إعراب ما لا ينصرف فيرفعه بالضمة وينصبه ويجره بالفتحة فيقول: هذا سفار ورأيت سفار وشربت من سفار.

وإن لم يكن آخره راء فالتميميون يعربونه إعراب ما لا ينصرف فى جميع أحواله فيقولون: هذه حذام ورأيت حذام ومررت بحذام. وبناء (فعال) - علما لمؤنث - على

(٨٢) انظر الكتاب ٢/ ٤٠، وفتح البارى ٣/ ٢١٨، والبحر ٦/ ٢٩٧، والقرطبى ٦/ ٢٤٨.
(٨٣) فى أصول اللغة ٢/ ٢١٠.　　(٨٤) الأشمونى ٣/ ٢٦٨، وشرح التصريح ٢/ ٢٢٥.
(٨٥) شرح التصريح ٢/ ٢٢٥ والشذور ٨٠.

الكسر مبنى على شبهه بفعال اسم الفعل لاشتراكهما فى الصيغة والتأنيث والتعريف والعدل يشبهون الشىء بالشىء[٨٦].

ومذهب التميميين فى إعرابه إعراب ما لا ينصرف هو القياس لأن ذلك شأن الأعلام المعدولة[٨٧].

الاسم الموصول

يستعمل (الذى) و(التى) اسمين موصولين للمفرد والمفردة، وفى المفرد لغات: (الذى) و(الذ) بحذف الياء، ومثناهما: اللذان واللتان بتخفيف النون عند جمهور العرب، وبعض العرب - تميم وقيس - يشدد النون فى التثنية فيقولون: اللذانّ واللتانّ بتشديد النون المكسورة.

ويرى الكوفيون أن تشديد النون يكون فى حالات الإعراب الثلاث الرفع والنصب والجر، لكن البصريين يرون جواز التشديد فى حالة الرفع، وقد وردت بعض القراءات بتشديد النون فى أحوال الإعراب كلها[٨٨]، ويعلل النحاة لجواز تشديد النون فى المثنى المذكر بأنه للتعويض عن الياء المحذوفة فى المفرد: الذى والتى أو لتأكيد الفرق بين صيغة المبنى والمعرب[٨٩] وبلحرث بن كعب وبعض ربيعة تستعمل المثنى المذكور بحذف النون حالة الرفع مثل قول الفرزدق:

أبنى كليب إن عمى اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقول الأخطل:

هما اللتا لو ولدت تميم ... لقيل فخر لهم عميم

ومنه:

هما اللتا أقصدنى سهماهما[٩٠]

وهذا الحذف لتقصير الموصول لطوله بالصلة لكونهما كالشىء الواحد وأمن الالتباس بالمفرد، ولهذا لا يجوز حذف النون من اسمى الإشارة (ذان - تان) للالتباس بالمفرد ولعدم الطول[٩١] ويرى بعض الباحثين أن بلحرث قبيلة يمنية وأكثرهم

(٨٦) الكتاب ٣/ ٢٧٨، وشرح التصريح ٢/ ٢٢٥. (٨٧) الكتاب ٣/ ٢٧٧.

(٨٨) الأشمونى ١/ ١٤٨، ١٤٨، وشرح التصريح ١/ ١٣٢.

(٨٩) شرح التصريح ١/ ١٣٢. (٩٠) اللسان ٢٠/ ٣٤٣.

(٩١) شرح التصريح ١/ ١٣٢، وخزانة الأدب ٢/ ٥٠٣، وشرح المفصل ٣/ ١٥٤.

بدو، وربيعة بعضها حضرى والآخر بدوى وتلك الظاهرة تناسب البدو من ربيعة[٩٢].

وهذا فى رأينا كلام جزافى، فمرة يقول هذا الكاتب: قبائل اليمن ومنهم بدو وهنا يقول: وأكثرهم بدو، وربيعة يجعل بعضها بدوا وبعضها حضرا وكأن المسألة فى يده يصنع ما يشاء بالقبائل فيصيرها بدوا أو حضرا إخضاعا لما يريده من التعليلات للهجات وهذا لا دليل عليه.

أما الاسم الموصول لجماعة الذكور (الذين) فيلزم الياء فى جميع حالات الإعراب عند جمهور العرب، وقد تحذف نون الجمع فيقال: (الذى) كما قال الأشيب بن بديلة:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

ومنه ما أورده ثعلب:

فإن ظفر القوم الذى أنت فيهم ... فآبوا بفضل من سناء ومن غنم[٩٣]

وقيل: إنها تحذف على لغة من يعرب الذين بالواو رفعا قال:

قومى الذو بعكاظ طيروا شررا ... من رأس قومك ضربا بالمصاقيل[٩٤]

ولكن كيف قصروا ذلك على المرفوع مع أن سبب الحذف كما يتحقق حال الرفع يتحقق حالى النصب والجر وصورة اللفظ واحدة فيها جميعا؟

وبعض العرب كهذيل وعقيل يعربون (الذين) إعراب جمع المذكر السالم بالواو رفعا وبالياء نصبا وجرا، قال أحد شعراء بنى عقيل أو رؤبة:

نحن الذون صبحوا الصباحا ... يوم النخيل غارة ملحاحا[٩٥]

وذكر بعض النحويين أن بعض العرب ومنهم هذيل يستعمل (اللاءون) اسما موصولا لجماعة الذكور بالواو حال الرفع وبالياء (اللائين) حالى النصب والجر وعليها قول الشاعر الهذلى:

هم اللاءون فكوا الغل عنى ... بمر السابحات وهم خصاص[٩٦]

وهذا على غير المشهور من استعمال (اللاء) اسما موصولا لجماعة الإناث.

---

(٩٢) اللهجات العربية فى التراث ٢/ ٦٦٢.   (٩٣) مجالس ثعلب ٢/ ٣٦٥.

(٩٤) شرح المفصل ٣/ ١٥٦ وخزانة الأدب ٦/ ١٤، ١٧.

(٩٥) الهمع ١/ ٨٣ والأشمونى ١/ ١٤٩ وشرح المفصل ٣/ ١٤٤ والمغنى ٢/ ٤١٠ وابن عقيل ١/ ١٤٤.   (٩٦) المغنى ٢/ ١١٠، والهمع ١/ ٨٣.

إعراب المثنى

المشهور أن المثنى يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء عند جمهور العرب، فيقولون: جاء أخواك ورأيت أخويك ومررت بأخويك، وبعض العرب: بلحرث بن كعب، وخثعم، وكنانة وبلعنبر، وبطون من ربيعة، وبكر بن وائل وزبيد وهمذان وعذرة(٩٧) يلزمون المثنى الألف مطلقا - رفعا ونصبا وجرا - قال الشاعر:

إن أباها وأبا أباها ... قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال الآخر:

أعرف منها الجيد والعينانا ... ومنخرين أشبها ظبيانا

وفى رواية: أعرف منها الأنف.

وقال الآخر:

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ... مساغا لناباه الشجاع لصمما

وقال هوبر الحارث:

تزود منا بين أذناه طعنة ... دعته إلى هابى التراب عقيم(٩٨)

وقد ورد ذلك فى بعض القراءات كما فى قراءة: ﴿إن هذان لساحران﴾ بتشديد النون فى بعض قراءات السبعة كنافع وابن عامر وحمزة والكسائى(٩٩)، وعليها قراءة: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَانِ﴾(١٠٠) وقول الرسول ﷺ: (لا وتران فى ليلة)(١٠١) وفى نوادر أبى زيد أن الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها تقلب ألفا - فى المثنى وغيره - وعلى هذا جرى أصحاب هذه اللهجة فى المثنى فهم يقولون: أخذت الدرهمان بدلا من الدرهمين، وفى عليها يقولون: علاها، وفى السلام عليكم: السلام علاكم لانفتاح ما قبل الياء الساكنة فتقلب ألفا وهذا عند بلحرث ابن كعب(١٠٢).

---

(٩٧) الهمع ١/ ٤٠، وليس فى كلام العرب ٣٢٤، والصاحبى ٢٩.

(٩٨) الصاحبى ٢٩، وشرح المفصل ٣/١٢٨، ١٢٩، والأشمونى ١/ ٧٩.

(٩٩) السبعة لابن مجاهد ٤١٩. (١٠٠) البحر المحيط ٦/ ١٥٥.

(١٠١) الترمذى ١/ ٢٩٣. (١٠٢) النوادر ٥٨.

ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة إعراب المثنى بالألف فى الحالات الثلاث يمكن تفسيرها وفق قانون السهولة، وذلك لانكماش الصوت المركب (Diphtong) أى ai فيحول إلى كسرة طويلة سالمة كالذى نلاحظه فى نطق المثنى فى عاميتنا المصرية مثل ولدين (uala den) بدلا من (ولدين) ثم تحولت هذه الكسرة الطويلة السالمة إلى فتحة طويلة وهو شبيه بتحويل الإمالة فيما أصله ياء إلى الألف عند الحجازيين، ولهذا التحول نظائر فى عاميتنا مثل (فإن) - عند بعض سكان مصر - المتطورة عن (فين) والتى أصلها (فين) اختصار (فأين) كما أن له نظائر فى العربية القديمة مثل (عاب) و(باع) المتطورين عن (عيب) و(بيع).

ويرى أن هذه اللهجة تمثل الطور الثالث لصوت اللين المركب وقد اتخذت اللغة النموذجية أحوال المثنى من لهجات مختلفة ثم خصص النحاة حالة الياء بالنصب والجر وحالة الألف بالرفع(١٠٣).

ونقول لهذا الكاتب: إن التحول يمكن إذا كانت الألف لم توجد فى اللهجات العربية الأخرى لكنها واقعة فى بعض جوانب الإعراب وهو حالة النصب فلسنا بحاجة إلى هذا التحليل الغريب الذى لا دليل عليه.

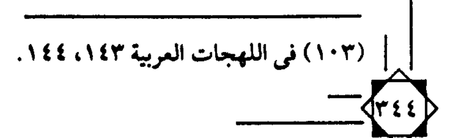
وكذلك أخذ أوجه الإعراب من لهجات متعددة لا دليل عليه أيضا وليس من عمل النحاة كما ادعى هذا الكاتب.

ما الحجازية والتميمية

ترد (ما) نافية وهى من الحروف غير المختصة التى تدخل على الأفعال والأسماء، والمعروف أن أصل العمل أن يكون للأفعال لأن كل فعل لابد له من فاعل إلا ما استعمل زائدا مثل (كان) أو فى معنى الحرف مثل (قلما) أو تركب مع غيره مثل (حبذا) وما يعمل من الأسماء فإنما ذلك لشبهه بالفعل كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة إلخ.

والحروف نوعان: نوع مختص بما يدخل عليه ولم ينزل منزلة الجزء منه فيعمل فيه.

ونوع لم يختص أو اختص ولكن تنزل منزلة الجزء منه فهذا لا يعمل لأن جزء الشىء لا يعمل فى الشىء.



(١٠٣) فى اللهجات العربية ١٤٣، ١٤٤.

و(ما) حرف غير مختص ولها شبهان:

أحدهما عام: راعاه بنو تميم.

والثانى خاص: وهو شبهها بليس فى كونها للنفى وداخلة على المبتدأ والخبر وتخلص المحل للحال كما أن ليس كذلك، وراعى هذا الشبه أهل الحجاز فأعملوها عملها فرفعوا بها المبتدأ اسما لها ونصبوا الخبر خبرا لها(١٠٤).

وقد أعملها الحجازيون - عمل ليس - بشروط:

١- ألا ينتقض النفى بإلا.

٢- ألا تزاد بعدها إن النافية فإن زيدت بطل عملها مثل:

بنى غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

٣- ألا يتقدم خبرها فإن تقدم بطل عملها، نحو ما قائم زيد، خلافا للفراء وغيره إلا إذا كان جارا ومجرورا أو ظرفا.

وجاء على ذلك قوله تعالى: ﴿ما هذا بشرا﴾(١٠٥)، ﴿ما هن أمهاتهم﴾(١٠٦) وقرئ ﴿أمهاتهم﴾ - بالرفع على لغة تميم - واللغة الأولى أقيس والثانية أفصح وبها ورد الكتاب العزيز(١٠٧) كما تقدم.

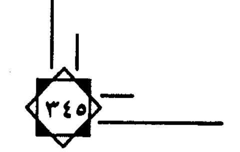
زيادة الباء فى خبرها:

وتزاد الباء فى خبر (ما) عند الحجازيين قياسا على (ليس) فى الراجح من الآراء، يقول ابن يعيش: «والأصل فى زيادة الباء فى النفى مع ليس وحملت (ما) الحجازية على ليس إذ كان خبرها منصوبا كخبر ليس»(١٠٨).

وذهب قوم إلى أن أصل دخول الباء إنما هو مع (ما) لضرب من التقابل، وذلك أن القائل يقول: إن زيدا قام فيقول النافى لذلك الخبر: ما زيد قائما فيدخل (ما) بإزاء (إن) فإذا قال: إن زيدا لقائم قال النافى: ما زيد بقائم فتأتى الباء لتأكيد النفى كما أتى باللام لتأكيد

---

(١٠٤) همع الهوامع ١/ ١٢٣.
(١٠٥) سورة يوسف الآية ٣١.
(١٠٦) سورة المجادلة الآية ٢.
(١٠٧) شرح المفصل ١/ ١٠٨.
(١٠٨) المصدر السابق ٢/ ١١٥، ١١٦.



الإيجاب فصار الحرفان بإزاء الحرفين[١٠٩] ومن أمثلة زيادة الباء فى خبر (ما) قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[١١٠] ودخلت الباء لتأكيد النفى.

زيادة (من) مع اسمها:

وتزاد (من) كذلك مع المبتدأ أو اسم (ما) فى مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[١١١] (من ولى) (من) هى التى للاستغراق إذا كانت تميمية.

وكذلك إذا كان «ولى» اسم (ما) فتزاد (من) لما ذكر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[١١٢].

فتوجه (من شىء) على ما تقدم، فتكون (ما) تميمية أوحجازية على جواز تقدم الخبر إذا كان جارا ومجرورا أو ظرفا.

الوقف على تاء التأنيث

إذا كان الاسم مفردا مختوما بتاء التأنيث ففى الوقف عليه طريقتان:

الأولى: الوقف بالهاء فتقول: فاطمة وطلحة.

الثانية: الوقف بالتاء عند طيئ[١١٣] فيقولون: فاطمت، طلحت وهذه أمت فى (أمة) وسمع بعضهم يقول: يا أهل سورة البقرت فقال مجيب: ما أحفظ منها ولا آيت، وعليها أنشد قطرب لراجز من حمير أو أبى النجم:

والله أنجاك بكفى مسلمت ... من بعدها وبعدما وبعدمت
صارت نفوس القوم عند الغلصمت ... وكادت الحرة أن تدعى أمت[١١٤]

وقد وقف بعض القراء على بعض الكلمات بالتاء موافقة لرسم المصحف فى مثل قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾، وعلى هذا رسمت فى المصحف العثمانى بعض التاءات

---

(١٠٩) المصدر السابق ٢/ ١١٦.

(١١٠) سورة البقرة ٨.

(١١١) سورة البقرة ١٠٧.

(١١٢) الأنعام ٦٩.

(١١٣) نسبت أيضا إلى حمير وأهل اليمن.

(١١٤) شرح المفصل ٥/ ٨٩، والهمع ٢/ ٢٠٩، والأشمونى ٤/ ٢١٤، والتصريح ٢/ ٣٤٤.

المفتوحة وهى للتأنيث، قال سيبويه: «وزعم أبو الخطاب الأخفش أن ناسا من العرب يقولون فى الوقف: طلحت كما قالوا فى تاء الجمع قولا واحدا فى الوقف والوصل»(١١٥) وهى لغة فاشية(١١٦) وهذا كله إجراء للوقف مجرى الوصل خوفا من الخفاء لأن التاء أظهر من الهاء.

هذا فيما إذا كان قبل التاء متحرك، أما إذا كان ما قبلها ساكنا صحيحا مثل: بنت وأخت فالوقف عليها بالتاء فقط.

وإذا كان ما قبل التاء ساكنا مثلا - فى غير جمع المؤنث - مثل الصلاة، فالأرجح الوقف عليها بالهاء، وقد يوقف عليها بالتاء مثل الصلات.

أما جمع المؤنث السالم فيوقف عليه بالتاء مثل: البنات والأخوات.

وقد أجرى بعض العرب الجمع مجرى المفرد شذوذا، فوقفوا عليه بالهاء وهم قبيلة طيئ(١١٧) يقول الشيخ خالد الأزهرى: ومن الوقف بالإبدال هاء قولهم: كيف البنون والبناه، وكيف الإخوه والأخواه، وقولهم: (دفن البناه من المكرماه) حكاه قطرب عن طيئ بإبدال تاء الجمع هاء فى الوقف، تشبيها بتاء التأنيث الخالصة، وقال إن الراجح فى تاء الجمع الوقف عليها بالتاء، وإنما كان الأرجح الوقف عليها بالتاء لأنهم لما أرادوا أن يكون فى جمع المؤنث السالم زيادتان لم يكفهم أن يزيدوا الواو ولا الياء مع الألف لأنهم لو زادوهما لانقلبتا همزة فزادوا التاء معه لأنها تصير بدلا من الواو كما فى تخمة فصارت علامة التأنيث وأغنت عن أن يقال فى مسلمة: مسلمات، فلما أفادت هذه التاء الجمع والتأنيث وأغنت عن علامة التأنيث الملحقة بالواحد أثبتت فى الوقف ولم تبدل هاء وعاملوا ما ألحق بالجمع معاملته لأنهم لما أجروه مجراه فى الإعراب أجروه مجراه فى غيره(١١٨).

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن تاء التأنيث تنقلب هاء فى الوقف ويقول: «إن هذه الظاهرة ليست فى الحقيقة قلب صوت إلى آخر، بل هى حذف الآخر من الكلمة، وما ظنه القدماء هاء متطرفة هو فى الواقع امتداد فى النفس حين الوقوف على صوت اللين

---

(١١٥) الكتاب ٤/ ١٦٧. (١١٦) شرح المفصل ٥/ ٨١.

(١١٧) سر الصناعة (مخطوطة الأزهر) الوجه الثانى من الورقة ١٠٧.

(١١٨) شرح التصريح ٢/ ٣٤٣، والمفصل ١٠/ ٤٥ وقد وقف على بعض التاءات الأصلية بالهاء مثل التابوت واللات والعنكبوت وهيهات، نسب ذلك إلى اليمن وطيئ والأنصار من الأزد اليمانية ممن هاجر قبل الإسلام. وقرأ الكسائى والبزى: ﴿هيهاه﴾ فى القرآن (المؤمنون ٢٦) والنشر ٢/ ١٣١.

الطويل أو كما يسمى عند القدماء ألف المد، ويصدق ذلك على الأسماء المؤنثة المفردة التى تنتهى بما يسمى التاء المربوطة فليس يوقف عليها - كما ظن النحاة - بحذف آخرها، ويمتد التنفس بما قبلها من صوت لين قصير (الفتحة) فيخيل للسامع أنها تنتهى بالهاء.

ويؤيده بعضهم بأنه ليس لرأى القدماء ما يسنده من الناحية الصوتية فلا تقارب بين تاء التأنيث والهاء ولكن الملاحظة الصوتية تثبت وجود الهاء حال الوقف على الاسم المختوم بالتاء.

مطابقة المصدر لموصوفه

المشهور أن المصدر لا يطابق الموصوف، فيأتى بالإفراد والتذكير للواحد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا، فتقول: رجل عدل، وامرأة عدل ورجلان عدل وامرأتان عدل ورجال عدل، ونساء عدل.

وهذا لأن الوصف بالمصدر من قبيل الوصف بالجنس، فالمصادر أجناس للمعانى[١١٩] كما أن غيرها أجناس للأعيان كرجل وفرس.

فالتذكير والإفراد أقوى فى اللغة، وأعلى فى الصيغة، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾، وقال جل ثناؤه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

وإنما كان التذكير والإفراد أقوى من قبل أنك لما وصفت بالمصدر أردت المبالغة بذلك، فكان من تمام المعنى وكماله أن تؤكد ذلك بترك التأنيث والتثنية والجمع للمصدر، ألا ترى أنك إذا أنثت، أو ثنيت أو جمعت سلكت به مذهب الصفة الحقيقية التى لا معنى للمبالغة فيها، نحو قائمة ومنطلقة وضاربات ومكرمات،فكان ذلك يكون نقضا للغرض أو كالنقض له، فلذلك قل حتى وقع الاعتذار لما جاء منه مؤنثا أو مجموعا[١٢٠].

وذلك جرى على الأصل للمصادر من الإفراد والتذكير[١٢١].

وقال الزجاج: يقال: رجل جنب ورجلان جنب وقوم جنب وامرأة جنب كما يقول

---

(١١٩) الخصائص ٢/ ٢٦.

(١٢٠) المصدر السابق ٢/ ٢٠٧.

(١٢١) شرح التصريح ٢/ ١١٣.

رجل رضا، وقوم رضا، وإنما هو على تأويل ذوو جنب لأنه مصدر والمصدر يقوم مقام ما أضيف إليه(١٢٢).

ويقول الأستاذ العقاد - عن الوصف بالمصدر - فإذا وضع المصدر موضع الصفة فهو واحد فى مدلوله، لأن معنى المصدر لا يتغير مع الفاعل المذكر أو الفاعل المؤنث، ولا مع الواحد أو الكثير، فإن (العدل) - مثلا - عدل واحد فى صفته على جميع الحالات، فلا ضرورة لعلامات التأنيث أو الجمع إذا أراد المتكلم أن يستغنى عنها، ولا يختلف المعنى إذا قيل: رجل عدل وامرأة عدل ورجال عدل ونساء عدل؛ لأن الأسماء هنا فى حكم المضاف والمضاف إليه من جهة المعنى(١٢٣).

فالوصف بالمصدر على معنى عادل وعادلة وذو عدل وذات عدل وذوا عدل وذواتا(١٢٤) عدل وذوو عدل وذوات عدل.

وبعض العرب يجيز تثنية المصدر وجمعه وتأنيثه، وهذا قليل، يقول الزجاج: من العرب من يثنى ويجمع ويجعل المصدر بمنزلة اسم الفاعل، وإذا جمع جنب قلت: فى الرجل جنبون، وفى النساء جنبات، وللاثنين جنبان(١٢٥) .

ويقول سيبويه: وأما فعل - بضم الفاء والعين - فهو فى الصفات قليل، وهو قولك: جنب - بضم الجيم والنون - فمن جمع من العرب قال أجناب، كما قالوا: أبطال(١٢٦).

ويقول الأزهرى: وأما قول العرب رجل ضيف، ورجال أضياف وضيوف وضيفان وامرأة ضيفة فقليل(١٢٧).

---

(١٢٢) معانى القرآن وإعرابه ٢/ ١٦٩.

(١٢٣) مجلة الأزهر: عدد رجب سنة ١٣٨١هـ - ديسمبر ١٩٦١م من مقال بعنوان (الصفة فى اللغة العربية) ص٧٨٩.

(١٢٤) كان القياس أن يقال ذاتا مثنى ذات بمعنى صاحبة ولكن عين الكلمة ردت وهى الواو فقيل ذواتا اتباعا لأسلوب القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ذواتا أفنان ﴿٤٨﴾﴾. انظر النهر الماد من البحر على هامش البحر المحيط لأبى حيان ج٨ ص١٩٤.

(١٢٥) انظر نص الزجاج السابق وشرح التصريح ٢/ ١١٣.

(١٢٦) معانى القرآن للزجاج ٢/ ١٦٩.

(١٢٧) الكتاب ٣/ ٦٢٩.

وجعل ذلك المبرد مخالفا الوجه الأقوى فقال: ليس بالوجه رجلان جنبان وامرأة جنبة وقوم أجناب[128].

وجاء فى الحديث عن عائشة (**كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ونحن جنبان**)[129].

وجاء مثل ذلك فى الشعر كما فى قول الخنساء:

ابكى أخاك لأيتام أراملة
وابكى أخاك إذا جاورت أجنابا[130]

ولكن اللهجة الأولى هى الأقوى والأفصح[131] وقد جرى القرآن على الأكثر الأفصح كما ذكرنا من قبل.

---

(١٢٨) الكامل ٣/ ١٥.

(١٢٩) صحيح مسلم ١/ ٢٥٦.

(١٣٠) ديوانها.

لهجات يلفقها النحاة

قبل وبعد

لعلك تقرأ فى كتب النحو أن لقبل وبعد أربع حالات:

١ - حالة ذكر المضاف إليه مثل: قبلهم وبعدهم.

وتعربان حينئذ.

٢- حالة حذف المضاف إليه ونية لفظه.

٣- حالة قطعهما عن الإضافة لفظا ومعنى.

وفى هاتين الحالتين يعرب اللفظان.

٤- حالة حذف المضاف إليه ونية المعنى وهنا يبنى اللفظان.

والحالات الثلاث الأخيرة - كما ترى - قسمها النحاة - فى حكمها النحوى - إلى موقفين: موقف تعرب فيه قبل وبعد، وموقف تبنيان فيه وهذه الحالات الثلاث ليست فى رأيى إلا تصويرا لحالة واحدة، وهى حالة حذف المضاف إليه فقط ويبدو لى - كذلك - أن هذه الحالة كان العرب يقفون حيالها مواقف مختلفة.

فبعض العرب يعربون اللفظين - حينئذ-، وبعضهم يبنيهما ولا شىء غير ذلك.

وفى الحقيقة أن النحاة لفقوا طرائق العرب فى إعرابها، وبنائها وجعلوا منها قاعدة يجوز فيها الوجوه التى ذكروها.

ويبدو لك عدم جدوى هذه العلل النحوية من تصويرهم لحال حذف المضاف إليه، بأنه تارة يقصد اللفظ، وتارة يقصد المعنى، وتارة يحذف، ولا يقصد.

ولا يبدو الفرق على وجه التحديد بين نية اللفظ، ونية المعنى، فما الفرق بين أن أقصد تقدير لفظ معين وهو الغلب - مثلا - فى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وبين أن أقصد لفظا عاما دون تحديد كالغلب أو النصر أو الفوز أو التفوق أو نحو ذلك؟ إن هاتين الحالتين - فى نظر المتكلم والسامع - سواء لا فرق بينهما فالمهم أن المضاف إليه ملحوظ بما يؤدى المعنى المراد.

ثم إن الحالة الثالثة التى ادعوا فيها أن المضاف قد حذف وقطعت الكلمتان - قبل وبعد - عن الإضافة لا يبدو أنها كما تصوروا، فالملاحظ أن ذهن المتكلم أو السامع - فى تلك الحالة نفسها - لا ينصرف عن المضاف إليه المقدر، وتأمل معنى هذا البيت الذى يدعون فيه أن لفظ (قبل) فيه قد قطع عن الإضافة:

فساغ لى الشراب وكنت قبلا   أكاد أغص بالماء الفرات

ألا ترى أن المعنى: وكنت قبل أخذ الثأر الذى يرمز الشاعر إليه، وقيل البيت فى مناسبته، أو أن (قبلا) إذا لم يكن تقدير المضاف إليها ذلك أو نحوه فماذا يكون المقصود قبل أى شىء؟ إذ لابد من شىء محذوف مقدر لحظه المتكلم فى نفسه، ويلحظه السامع كذلك، وإن لم يذكر صراحة.

ويدل لذلك أيضا أن الآية الكريمة السابقة قرئت بالأوجه الثلاثة فإذا لم يكن المقصود واحدا بالنسبة للمضاف إليه المقدر فعلام تصح هذه الأوجه؟ وفيما يبدو أنها أوجه لطرائق النطق العربية التى أشرنا إليها.

ففى نظرى أن قول النحاة أن قبل وبعد تقطعان عن الإضافة نهائيا قول غير مسلم، وأن الكلمتين وأشباههما من الظروف المبهمة كأسماء الجهات لا تكون إلا فى حالتين:

١ - إضافة ظاهرة.   ٢ - إضافة مقدرة.

وأنها في حالة ظهور المضاف إليه معربة لا محالة.

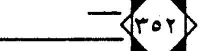
وفى حالة المضاف إليه تختلف لهجات العرب فيها فمن معرب لها ومن بان ولا شىء غير ذلك.

وتكون عملية نية المعنى، ونية اللفظ والقطع عن الإضافة لا تعدو أن تكون حديثا فلسفيا محضا لا داعى إليه عند تدريس مثل هذه القواعد الراجعة إلى اختلاف اللهجات.

لا النافية للجنس

يذكر النحاة فى باب (لا) النافية للجنس أن الصفة التى تتبع اسم (لا) المبنى على الفتح مثل (لا رجل ظريف فى الدار) يجوز فيها ثلاثة أوجه:

١ - البناء على الفتح، بتركيب الصفة مع الموصوف تركيب خمسة عشر ودخول (لا) عليهما بعد التركيب.



٢- النصب، باعتبار محل اسم (لا) لأنه فى محل نصب، لأنها - كما نعلم - تعمل عمل (إن).

٣- الرفع، باعتبار محل (لا) مع اسمها، لأنهما معا فى موقع المبتدأ، والمبتدأ - كما نعلم - يكون مرفوعا.

كما يذكر النحاة - أيضا - أن (لا) إذا كررت فى مثل: (لا حول ولا قوة إلا بالله) جاز فى الاسم الأول (حول) وجهان: (البناء على الفتح والرفع)، فإذا فتح الاسم الأول جاز فى الاسم الثانى (قوة) ثلاثة أوجه:

١- البناء على الفتح، باعتبار (لا) الثانية عاملة عمل «إن».

٢- النصب، عطفا له على محل اسم (لا) الأولى و(لا) الثانية مهملة.

٣- الرفع عطفا له على محل (لا) الأولى مع اسمها.

وإذا رفع الاسم الأول جاز فى الاسم الثانى وجهان:

١- البناء على الفتح - كما سبق -.

٢- الرفع عطفا على الاسم الأول، لأنه مبتدأ مرفوع[1].

ويلفت نظر الباحث هنا أن النحاة يجيزون كل هذه الوجوه، فهى فى رأيهم سائغة الاستعمال، فيجوز استعمال هذا وذاك كما يشاء المتكلم.

ولئن صح أن يحدث ذلك لنا فإنه لم يكن يسوغ للعرب، إذ إن القبيلة العربية الواحدة، أو قبائل العرب كلها لم تكن تنطق بهذا وذاك كما يشاء لها الحديث، ومجالاته، وإلا كانت اللغة ضربا من الفوضى التى لا يوقف فيها عند حد، والعربى حكيم يسير وفق طريقة يرتئيها ولا يحيد عنها.

فالمعروف أن العربى كان يتمسك بلهجته، فلا يتنازل عنها حتى فى أحرج الأحوال، لأن لسانه قد طبع عليها، ونشأ منذ نعومة أظفاره، ويؤكد لنا ذلك القصص المروية عن الأعراب فى عصر فصاحة اللغة، ومن تلك الروايات ما حكاه ابن جنى فى خصائصه من أن أبا حاتم - الراوية اللغوى المعروف - أقرأ أعرابيا بالحرم الآية الكريمة ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ

(١) انظر شذور الذهب ط١١ (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م) ص١٢١ - ١٢٤.

وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ - وكان الأعرابى هذا ممن ينطق كلمة (طوبى) بالياء بدل الواو (طيبى)، فقال له أبو حاتم: (طوبى) فنطق الأعرابى (طيبى)، فكرر أبو حاتم (طوبى) وأعاد الأعرابى (طيبى) حتى ضجر أبو حاتم وتألم فقال: (طوطو)، فقال الأعرابى، (طى طى)[٢].

ولئن كان فى تلك القصة ما يدل على تعنت الأعرابى وتشدده فى عدم مطاوعة أبى حاتم على ما يريد ، فإنه يدل دلالة قاطعة على أن العربى لم يكن يتنازل عن لهجته، وعدم التنازل عن اللهجات لأنها أمر مركوز فى طبع الإنسان لايزال حتى يومنا هذا، اللهم إلا بعد كثير من عناء التغيير والممارسة.

وأريد من ذلك أن أقول: إن جواز مثل هذه الأوجه المتعددة فى الأمثلة التى ذكرتها يدل على أن تلك الأوجه كان كل منها عند فريق من العرب وطائفة منهم، ثم إن النحاة جمعوا الأمثلة التى تحمل هذه الظواهر الإعرابية المتعددة فى إطار واحد، وقالوا لنا: يجوز هذا ويجوز ذاك.

ويمكن أن نجد لكلامنا دليلا واضحا فى ذكرهم بعض الشواهد لتحقق هذه الظواهر الإعرابية، فقد رووا لنا لكل وجه منها شاهدا من القرآن أو الشعر وهو بلا ريب يحمل وجها واحدا فقط لا عدة أوجه مما يؤكد كلامنا فى أن هذه الأوجه ترجع إلى اختلاف اللهجات.

ويبدو ذكر اللهجات واضحا فيما كتب السابقون من النحاة فى هذا الباب كقول سيبويه (والدليل على أن لا رجل - بفتح اللام - فى موضع اسم مبتدأ وما من رجل - فى موضع اسم مبتدأ فى لغة بنى تميم قول العرب من أهل الحجاز: لا رجل أفضل منك)[٣].

ولذا فإن تعليلات النحاة لبعض هذه الوجوه كانت مجرد فلسفة عقلية محضة كتعليلهم لوجه رفع الصفة ورفع الاسم بعد (لا) الثانية - مع بناء الاسم الأول على الفتح - فإنهم يعللون ذلك - كما ذكرنا - بالعطف على محل (لا) مع اسمها، وهذا شيء لم يكن يعرف العربى عنه شيئا، كذلك فإن مسألة تركيب الاسم والصفة، وبنائهما كما تركب خمسة عشر لم يكن فى ذهن العربى عند نطقه بتلك العبارة على هذه الصفة.

---

(٢) انظر الخصائص ١/ ٣٨٤.

(٣) الكتاب ٢/ ٢٧٥، ٢٧٦.

الفصل الثالث

الفك والإدغام

الفك والإدغام فى الفعل الثلاثى المضعف

مضعف الثلاثى[1] هو: ما كانت عينه ولامه من جنس واحد[2].

ولهذا الفعل من حيث الفك والإدغام أحوال:

فتارة يكون ترك الإدغام - بإبقاء كل حرف على حاله - وهو الفك - ملتزما عند العرب.

وأخرى يكون إدغام العين واللام ملتزما كذلك عندهم جميعا إلا ما خالف ذلك مما عد شاذا.

وثالثة يختلف العرب فى فكه وإدغامه.

فيلتزم الفك فى الماضى منه والمضارع والأمر حال الإسناد إلى ضمائر الرفع المتحركة.

فمن الصد والجد تقول فى الماضى صددت وجددت وصددنا وجددنا، وصددن وجددن، وفى المضارع والأمر[3] يصددن ويجددن واصددن واجددن، وقال تعالى: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ وقال عز حكمه: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾.

---

(١) الفعل المضعف نوعان: ثلاثى وهو ما نتحدث عنه، ورباعى وهو ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس، وعينه ولامه الثانية من جنس مثل زلزل ووسوس، وهذا النوع يأخذ حكم الفعل السالم فلا يعتريه تغيير عند إسناده إلى الضمائر أو الاسم الظاهر لأن الحرفين المتماثلين فيه غير متجاورين.

(٢) فيخرج منه مضعف العين مثل كبر ومضعف اللام مثل أبيض واقشعر واطمأن واستعد واجتر واحمر وضار، ويعامل مضعف اللام معاملة المضعف الثلاثى، أما الأول فلا يحدث فيه تغيير عند الإسناد إلى الضمائر أو الاسم الظاهر.

(٣) يسند إليهما - من الضمائر المتحركة - نون النسوة فحسب.

ويلتزم الإدغام عند إسناد المضعف - بأنواعه الثلاثة الماضى والمضارع والأمر - إلى ضمائر الرفع الساكنة كألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة(٤) فتقول: فى الماضى - صدا وجدا وصدوا وجدوا، وفى المضارع المرفوع: يصدان ويجدان ويصدون ويجدون ويصدوا ويجدوا وتصدى وتجدى وفى الأمر: صدا وجدا وصدوا وجدى، وجدى.

وكذلك يجب الإدغام فى الماضى المضعف إذا أسند إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر أو لحقته تاء التأنيث فتقول: جد خالد وصد على، ومحمد جد، وجدت آلاء.

وكذلك يجب الإدغام فى المضارع المضعف إذا أسند إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر فى حالتى الرفع والنصب فتقول يشب الطفل على ما عوده أبواه والطفل يشب على الجد، ولن يشب الطفل أو الطفل لن يشب على غير الجد.

وهذه الحالات التى يجب فيها الفك أو الإدغام تكون عند العرب جميعا.

وهناك حالات يجوز فيها الفك والإدغام فى الفعل الثلاثى حسب اختلاف القبائل.

وذلك فى المضارع المسند إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر فى حالة الجزم لاغير فتقول: لم يصد على ولم يصدد ولم يجد أحمد ولم يجدد وعلى لم يجد ولم يجدد.

وكذلك فعل الأمر المسند إلى ضمير الواحد - وهو المبنى على السكون مثل: كف واكفف وجد واجدد وصد واصدد، وقد نسب الفك إلى الحجازيين، والإدغام إلى التميميين.

ففى شرح الشافية: أهل الحجاز لا يدغمون فى المضاعف الساكن للجزم أو الوقف نحو اردد ولم تردد، لأن شرط الإدغام تحريك الثانى، وبنو تميم وكثير من غيرهم لما رأوا أن هذا الإسكان عارض للوقف أو الجزم وقد يتحرك وإن كانت الحركة عارضة فى نحو (اردد القوم) لم يعتدوا بهذا الإسكان وجعلوا الثانى كالمتحرك، فسكنوا الأول ليدغم فتخفف الكلمة بالإدغام(٥).

وقال الأزهرى: إن بنى تميم - أدغموا فى المضارع المجزوم بالسكون وفعل الأمر

---

(٤) فى المضارع والأمر.

(٥) ٢/ ٢٣٩.

المبنى على السكون اعتدادا بتحريك الساكن فى بعض الأحوال نحو لم يردد القوم، واردد القوم وأهل الحجاز لا يعتدون بذلك[٦].

ويذكر السيوطى أن الفعل المضاعف إن سكن للجزم أو البناء فالحجازيون يفكون وغيرهم من العرب يدغم لعدم اعتدادهم بالعارض[٧].

وفى حالة الإدغام - هنا - يفتح آخر الفعل - مضارعا كان أو أمرا - للتخفيف عند من يدغم من التميميين وأهل نجد بصفة عامة سواء وليه ضمير الغائب المذكر أو الغائبة أو وليه ساكن أو لا نحو رده ولم يرده ولم يردها ورد المال ولم يرد المال ورد ولم يرد وروى عن قبيلة كعب وغنى ونمير - وكلها بطون من قيس - الكسر مطلقا على أصل التخلص من التقاء الساكنين.

ونقل عن بنى أسد الفتح حين لا يقع بعد المدغم حرف ساكن، أما إذا وقع بعده ساكن فإنهم يكسرون المدغم لالتقاء الساكنين فيكسر فى مثل رد المال ولم يرد المال ويفتح فيما عداه.

ونقل عن بعضهم اتباع آخر الفعل لأقرب الحركات إليه نحو رد - بالضم - وعض - بالفتح - وفر - بالكسر - إلا مع ضميرى المذكر الغائب والمؤنثة الغائبة فيحرك بحركة الضمائر فيقال: عضه - بالضم - وردها - بالفتح وإلا فيما بعده ساكن من كلمة أخرى كلام التعريف أو غيرها فيجوز عند بعضهم الفتح وعند آخرين الكسر وهو أجود كما يقول سيبويه مثل فغض الطرف ورد ابنك - بكسر آخر الفعل وفتحه-.

يقول سيبويه: اعلم أن منهم من يحرك الآخر كتحريك ما قبله، فإن كان مفتوحا فتحوه، وإن كان مضموما ضموه وإن كان مكسورا كسروه، وذلك قولك رد وعض وفر يا فتى[٨] فإن جاءت الهاء والألف فتحوا أبدا، وسألت الخليل لم ذاك؟ فقال: لأن الهاء خفية فكأنهم قالوا: ردا وأمدا وغلا - إذا قالوا: ردها وغلها وأمدها - (كلها أفعال أمر)، فإن جئت بالألف واللام وبالألف الخفيفة كسرت الأول كله لأنه كان فى الأصل مجزوما؛ لأن الفعل إذا كان مجزوما فحرك لالتقاء الساكنين كسر، وذلك قولك: اضرب الرجل، فلما

---

(٦) شرح التصريح ٢/ ٤٠١.

(٧) همع الهوامع ٢/ ٢٢٧.

(٨) بالضم فى الأول والفتح فى الثانى والكسر فى الثالث على الاتباع.

جاءت الألف واللام والألف الخفيفة رددته إلى أصله؛ لأن أصله أن يكون مسكنا على لغة أهل الحجاز، ومنهم من يفتح إذا التقى ساكنان على كل حال إلا فى الألف واللام والألف الخفيفة، فزعم الخليل أنهم شبهوه بأين وكيف وسوف وأشباه ذلك وفعلوا به إذا جاءوا بالألف واللام والألف الخفيفة ما فعل الأولون وهم بنو أسد وغيرهم من بنى تميم، وسمعناه ممن ترضى عربيته، ومنهم من يدعه إذا جاء بالألف واللام على حاله مفتوحا يجعله فى جميع الأشياء كأين، وزعم يونس أنه سمعهم يقولون: غض الطرف إنك من نمير(٩).

وقد جاءت آيات كثيرة بالإدغام والفك واختلفت القراءات فى الآيات كما جاء ذلك فى بعض الأحاديث النبوية تبعا للهجات العربية، فمما جاء من المضارع الفعل (تضار) فى قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبان عن عاصم (لا تضار) - بالرفع - أى برفع الراء المشددة(١٠) على الإخبار(١١).

وقرأ باقى السبعة (لا تضار) - بفتح الراء على الجزم جعلوه نهيا(١٢) وقرأ الحسن بكسر الراء المشددة على النهى والجزم(١٣).

وروى عن ابن عباس (لا تضارر) بفك الإدغام وكسر الراء الأولى وسكون الثانية - مبنيا للمعلوم - وقرأ ابن مسعود - كذلك - بفك الإدغام لكن بفتح الراء الأولى وسكون الثانية - مبنيا للمجهول - وكلتا القراءتين على الجزم والنهى(١٤).

---

(٩) الكتاب ٣/ ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، وانظر نحو ذلك فى الكامل للمبرد ١/ ٣٣٩، ٤٣٠، والهمع ٢/ ٢٢٧، وانظر أيضا شرح التصريح ٢/ ٥٠١، والمصباح ٦٨٦.

(١٠) هذا الفعل - فى هذه القراءة ونظائرها - من ضار - بتشديد الراء لا من ضار بتخفيفها، وانظر البحر ٢/ ٢١٢، ٢١٤.

(١١) الكشاف ٢/ ٣٧٠، ٣٧١، وهى خبرية لفظا إنشائية - على النهى - معنى.

(١٢) سكنت الراء الأخيرة للجزم وسكنت الراء الأولى للإدغام فالتقى ساكنان فحرك الأخير منهما بالفتح لموافقة الألف التى قبل الراء لتجانس الألف والفتحة.

(١٣) فى هذه الحالات الثلاث التى جاءت فيها الراء مشددة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة يجوز أن يكون الفعل مبنيا للمعلوم، وأصله (تضارر) بكسر الراء الأولى - أو مبنيا للمفعول وأصله (تضارر) بفتح الراء الأولى.

(١٤) فى حال البناء للمعلوم يكون ما بعد الفعل - والدة ومولود - هو الفاعل والمفعول محذوف والتقدير: لا تضارر والدة زوجها بأن تطالبه بما لا يقدر عليه من رزق وكسوة وغير ذلك من =

والإظهار فى هذا ونحوه لغة الحجاز والفك لغة تميم.

والفعل (يغر) فى قوله سبحانه: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾، قرأ الجمهور بالفك - وهى لغة أهل الحجاز - وقرأ زيد بن على وعبيد بن عمر (فلا يغرك) بالادغام مفتوح الراء وهى لغة تميم(١٥).

والفعل (يضر) فى قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾(١٦) قرأ الكوفيون وابن عامر بالادغام، وقرأ أبى: (لا يضرركم) بفك الادغام، وقرأ عاصم - فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه - بضم الضاد وفتح الراء المشددة نحو، لم يرد زيد، والفتح هو الكثير المستعمل، والفك لغة أهل الحجاز، ولغة سائر العرب الادغام(١٧).

وكذلك الفعل (يمس) فى قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾(١٨) قرئ يمسكم بالادغام - ويمسسكم بالفك.

وجاء الفعل (يرتد) - مجزوما - بالفك والادغام فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾(١٩).

= وجوه الضرر، ولا يضارر مولود له زوجته بمنعها ما وجب لها من رزق وكسوة وأخذ ولدها مع إيثارها إرضاعه وغير ذلك من وجوه الضرر.

وإذا كان مبنيا للمجهول فما بعده نائب فاعل، والمراد النهى عن أن يلحق الوالدة الضرر من قبل الزوج وأن يلحق الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد.

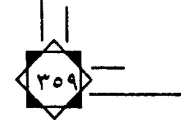
(١٥) سورة غافر من الآية ٤، وانظر البحر ٧/ ٤٤٩.

(١٦) آل عمران من الآية ١٢٠ واختلف أحركة الراء إعراب فهو مرفوع أم حركة إتباع لضمة الضاد، وهو مجزوم، فخرج الرفع على التقديم، والتقدير لا يضركم إن تصبروا، ونسب هذا القول إلى سيبويه، وخرج أيضا على أن (لا) بمعنى (ليس) مع إضمار الفاء والتقدير: فليس يضركم. قاله الفراء والكسائى.

(١٧) البحر ٣/ ٤٣.

(١٨) سورة آل عمران. الآية ١٤٠، والبحر ٣/ ٦٢ وانظر ص٤٣ أيضا.

(١٩) سورة البقرة. الآية ٢١٧ ولم تقرأ هنا بادغام المثلين. البحر ٢/ ١٥٠.



وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قرأ نافع وابن عامر (من يرتدد) بدالين مفكوكا وهى لغة الحجاز، والباقون بواحدة مشددة وهى لغة تميم[20].

كما جاء الفعل (يشاق) - مجزوما - كذلك فجاء بالفك فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[21].

كما جاء بالادغام والفك فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[22] قرأ الجمهور بالادغام وقرأ طلحة بالفك[23].

والفعل (يحب) فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، قرأ الجمهور (تحبون ويحبيكم) من أحب، وقرأ أبو رجاء العطاردى بفتح التاء والياء من حب - وهما لغتان، وقرئ (يحبكم) بفتح الياء والادغام.

وأيضا الفعل (يحل) فى قوله المولى تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

والفعل (تمنن) فى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾﴾ قرأ الجمهور بالفك والحسن وأبو السمال بشد النون[24].

ويستعف فى قوله سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[25].

---

(٢٠) سورة المائدة الآية ٥٤، وانظر الكتاب ٢/ ٤١٧، ٤٧٣، والسبعة لابن مجاهد ص٢٤٥، والبحر ٣/ ٥١١.

(٢١) سورة النساء الآية ١١٥ والبحر ٣/ ٣٥٠.

(٢٢) سورة الأنفال الآية ١٣ أجمعوا على فك المثلين اتباعا لخط المصحف. البحر ٤/ ٤٧١.

(٢٣) سورة الحشر الآية ٤ والبحر ٨/ ٤٤.

(٢٤) آل عمران الآية ٣١، وطه الآية ٨١ والمدثر الآية ٦، وانظر البحر ٢/ ٤٣١، ٦/ ٢٦٣، ٨/ ٣٧١، ٣٧٢.

(٢٥) النور الآية ٣٣ وانظر: النهر الماد على البحر ٦/ ٤٥٠.

ومما جاء من ذلك في الحديث ما وقع في حديث لأبي ذر «**فلم أتقار أن قمت**» بالادغام أي لم ألبث، وأصله أتقارر فأدغمت الراء في الراء[٢٦].

ومما جاء من صور الأمر قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[٢٨] الحجازيون يقولون: اغضض وأهل نجد يقولون غض بالادغام.

وفي الحديث **(اللهم اشدد وطأتك على مضر)**[٢٩] جاء هذا بالفك وكذلك **(ثم قال لإنسان يصب: اصبب فصب على رأسه)**[٣٠].

وفي حديث آخر **(خذ يا جابر فصب على)**[٣١] بالادغام.

وكذلك **(فمن جاءك منا فاقصص عليه)**[٣٢] بالفك، وجاء بالادغام في قوله: **(من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له)**[٣٣].

ومما ورد في الشعر قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ويقول المبرد: أهل الحجاز على القياس الأصلي: اردد واغضض وكل ذلك من قولهم التميميين قياس مطرد بين[٣٤].

فأهل الحجاز لا يدغمون لئلا يؤدي الادغام إلى التقاء الساكنين إذ يحتاج إلى تسكين الأول والثاني ساكن فيلتقي ساكنان نحو: إن تردد أردد وأشدد وغيرهم يدغم حملا للمجزوم على غيره مثل يفر وحمل ما سكونه بناء على ما سكونه للجزم للمشابهة بينهما كحذف آخر الفعل المعتل للجزم وللبناء مثل اغز ولم تغز[٣٥].

هذا هو المشهور عند العرب.

---

(٢٦) النهاية ٤/ ٣٨.   (٢٧) سورة طه الآية ٢٧، وانظر البحر ٦/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢٨) سورة لقمان الآية ١٩ ولم يقرأ هنا بادغام المثلين.

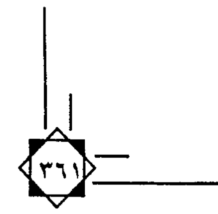
(٢٩) صحيح مسلم ١/ ٤٦٧.   (٣٠) المصدر السابق ٤/ ٣٠٦.

(٣١) المصدر السابق ٤/ ٣٠٨.   (٣٢) المصدر السابق ٣/ ٤٢٣.

(٣٣) المصدر السابق ٤/ ٧٧٩.

(٣٤) اللسان (غض) والبحر ٢/ ٤٤٣، والكامل للمبرد ١/ ٣٤٠.

(٣٥) الممتع ٢/ ٦٥٦، ٦٥٧.



وقد جاءت بعض الروايات عن بعض العرب بالادغام فى الماضى والمضارع والأمر المسندة إلى ضمائر الرفع المتحركة فيقولون: ردت - بضم التاء وفتحها للمتكلم والمخاطب - وردن - بالإسناد إلى نون النسوة - فى الماضى - ويردن وردن - بإسناد المضارع والأمر إلى نون النسوة والمشهور عند العرب الفك بأن يقال: رددت بضم التاء للمتكلم وفتحها للمخاطب - ورددن ويرددن واردن (كأنهم قدروا وجود الادغام قبل دخول تاء الضمير أو نونه)(٣٦) وكأن اتصال الضمير أمر عارض(٣٧).

وعليه فى الحديث (رأيت فى رؤياى هذه أنى هززت سيفا) الرواية بالفك وعند السمرقندى هزت سيفا بزاى مشددة(٣٨).

وفى حديث أحد (حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل) أى يعدون جاء الفعل يشتددن بالفك - على الأصل، وجاءت فيه رواية أخرى هى (يستدن) - بالسين المهملة والنون - أى: يصعدن فيه.

وعلى ذلك جاءت قراءة ابن أبى عبلة والوليد بن مسلم وأبى جعفر وشيبة ونافع - فى بعض الروايات عنهم - فى قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾(٣٩) قرأوها بتشديد الياء من غير إشباع فى الثانية، ووجهها ابن خالويه فى الشواذ بأنها من ادغام الياء فى الياء فى الماضى عيى وهى مفتوحة قبل لحاق ضمير المتكلمين به، فلما أدغم ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ولم يفك الادغام(٤٠).

وعليه ما جاء فى الحديث (حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها) كذا الرواية عند السجزى ، وعند أبى بحر: (هشنا) بفتح الهاء وتشديد الشين على الادغام ولغة بعض العرب فى نقل الحركة ثم ادغامها(٤١).

---

(٣٦) الممتع ٢/ ٦٦٠.

(٣٧) شرح الشافية ٢/ ٢٤٦.

(٣٨) شرح مسلم للنووى ١٥/ ٣٢.

(٣٩) الآية ١٥ من سورة ق، قرأ الجمهور (أفعيينا) بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة وهو الماضى (عيى) كرضى أسنده إلى ضمير المتكلمين.

(٤٠) انظر: البحر ٨/ ١٢٢، ١٢٣.

(٤١) صحيح مسلم ٢/ ١٠٤٧.

وهذا الادغام مخالف للمعهود فى اللغة وقد وصفه بعض شراح الحديث بأنه صحيح[٤٢] وقيل إنه شاذ قليل[٤٣] أو تركيب قبيح فى العربية[٤٤]، وذلك لأن الادغام إنما جاز فى المضعف لسكون الأول وتحرك الثانى، وعند الإسناد إلى ضمير الرفع المتحرك يلزم الفك، لأن ما قبل الضمير المتحرك يسكن لتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة فيلتقى ساكنان (الحرف الأول من المدغم والمدغم فيه بعد التسكين) فيحرك الأول ويفك الادغام.

ونسب الادغام هنا إلى بكر بن وائل أو أناس منهم وهى لهجة ضعيفة[٤٥] كما ذكر الخليل وسيبويه، قال الرضى: اعلم أنه إذا اتصل النون وتاء الضمير بالمضاعف نحو رددت ورددنا فإن بنى تميم وافقوا فيه الحجازيين فى فك الادغام للزوم سكون الثانى، وزعم الخليل وغيره أن أناسا من بنى بكر بن وائل وغيرهم يدغمون نحو ردت نظرا إلى عروض اتصال الضمائر فيحركون الثانى بالفتح للساكنين، قال السيرافى: هذه لغة رديئة فاشية فى عوام أهل بغداد[٤٦].

كما جاء الفك فى الماضى المسند إلى ضمائر الرفع الساكنة شذوذا فى قول الشاعر:

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى   أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

وكذلك فى الأمر فى قول البوصيرى:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا   وما لقلبك إن قلت استفق يهم

كما جاء الفك فى الفعل الماضى المسند إلى الاسم الظاهر أو الضمير المستتر منسوبا إلى هذه القبيلة السابقة أيضا.

ومن ذلك الحديث **(فازحفت عليه بالطريق فعيى بشأنها)**[٤٧] الرواية بكسر الياء الأولى من العىِّ والعجز، وفى رواية بعضهم فعى بتشديد الياء وادغام الأولى فيها على اللغة السابقة.

---

(٤٢) النووى فى شرح مسلم ١٥/ ٣٢.   (٤٣) شرح الشافية للرضى ٣/ ٢٤٥.

(٤٤) اللسان ٤/ ٢٢٠.

(٤٥) شرح التصريح ٢/ ٤٠٣، والأشمونى ٤/ ٣٥١، ٣٥٢، والممتع لابن عصفور ٢/ ٦٦٠، ٦٦١، والكتاب لسيبويه ٣/ ٥٣٥، والبحر عند الحديث عن الآية (أفعيينا) إلخ.

(٤٦) شرح الشافية ٢/ ٢٤٦.

(٤٧) صحيح مسلم ٢/ ٩٦٢.

وفي كتب اللغة: عى بأمره وعيي والادغام أكثر، نقله الأزهري، وذلك عند بعض العرب[48] يقال: عيي من باب تعب وقد يدغم الماضي فيقال عى[49].

صيغة أفتعل

يجري فيها تقريب الصوت من الصوت لأجل الادغام، فقد أراد العرب التخفيف حين تتجاور تاء الافتعال المهموسة الشديدة مع بعض الأصوات المجهورة أو الرخوة كالدال والذال والزاي لصعوبة النطق بها دون حدوث تغيير صوتي.

فالتاء المهموسة لا تتناسب مع الدال المجهورة، والذال والزاي مع جهرهما رخوان فتقلب تاء الافتعال دالا فتقول في افتعل من دان: ادان ومن ذكر اذدكر ومذدكر ومن زان ازدان ومن زجر ازدجر.

وبعض العرب - في غير المتماثلين كالذال والزاي - يزيد من قوة التماثل فيحول الدال صوتا من جنس فاء الافتعال ويدغمها فيها فيقول من ذكر: اذكر ومذكر ومن زان: ازان، ومن زجر: ازجر.

وبعضهم يقلب فاء الافتعال إذا كانت ذالا من جنس الدال بعدها ثم يدغمها فيها فيقول: ادكر، ومدكر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وقرأ بعضهم (واذكر) بالذال[50]، وعلى ذلك جاء في الحديث (وعليه جمازة فاذرع منها يده) أي أخرجها، هكذا رواه الهروي وغيره واذرع افتعل من ذرع بمعنى مد ذراعيه ويجوز ادرع أيضا[51].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[52] وفي حديث أصحاب المائدة **(امروا ألا يدخروا فادخروا)** أصل الادخار: اذتخار افتعال من الذخر يقال ذخر واذتخر فقلبت التاء إلى ما يقاربها من الحروف وهو الدال لأنهما من مخرج واحد ولتناسب الذال في الجهر فقيل اذدخر، وفيها طريقتان أخريان:

إحداهما: قلب الذال المعجمة دالا وادغامها فيها فتصير دالا مشددة ادخر - وهذا هو الأكثر.

والثانية: قلب الدال المهملة إلى ذال وادغامها فيها فتصير اذخر وهذا هو الأقل[53].

---

(٤٨) اللسان والصحاح والقاموس (عيى). (٤٩) المصباح ٤٤١.

(٥٠) سورة يوسف الآية: ٤٥. (٥١) النهاية ٢/ ١٥٨ (ذرع) وسر الصناعة ١/ ٢٠٢، ٢٠٤.

(٥٢) سورة آل عمران من الآية ٤٩.

(٥٣) النهاية ٢/ ١٥٥، ١٥٦، وسر الصناعة ١/ ٢٠٠، ٢٠٢.

وأراد العربي التخفيف - أيضا - حين تكون فاء الافتعال من أصوات الإطباق (الصاد والضاد والطاء والظاء)، لأن تاء الافتعال مستفلة، وهذه الأصوات مستعلية مطبقة مما يسبب ثقلا في النطق بها متجاورة مع التاء بعدها، فيحول العربي التاء إلى صوت من مخرج التاء له صفة الاستعلاء والإطباق وهو الطاء لينتقل اللسان من صوت مطبق إلى نظير مطبق أيضا فيسهل النطق ويحقق الانسجام فيقول: من صبر: اصطبر ومصطبر.

ومن ضجع: اضطجع ومضطجع.

ومن طلع: اطلع ومطلع.

ومن ظعن: اظطعن ومظطعن.

وقد قرب العربي التاء المستفلة من الفاء المستعلية المطبقة ولم يدغم، أما مع الطاء فيجب الادغام لاجتماع المثلين والأول منها ساكن.

وأحيانا يزيد بعض العرب التخفيف والتقريب فيقلب الطاء المبدلة من تاء الافتعال إلى جنس الصوت الذي هو فاء الافتعال ثم يدغم فيه فيقول: في اصطبر: اصبر، وفي مصطبر: مصبر.

قال تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾(٥٤) قرأ الجحدري: (أن يصلحا) بتشديد الصاد ويقول في اضطجع: اضجع، وفي اظطعن: اظعن بتشديد الفاء.

وأحيانا أخرى نجد بعض العرب يقلب فاء الافتعال من جنس الطاء التي حلت مكان التاء فيقول في اضطجع: اطجع وفي اضطره: أطره. قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٥٥)، قرأ ابن محيصن: أطره بتشديد الطاء.

وكان أصل (يصلحا) هو يصتلحا لأنه يفتعل من صلح فقلبت تاء الافتعال طاء ليتحقق التماثل والانسجام في أصوات اللفظ لأن التاء صوت مستفل والصاد مستعل فحولت التاء إلى مستعل مناسب وهو الطاء فصار اللفظ (يصطلحا) وهذا نوع من تقريب الصوت دون ادغام ثم حولت الطاء من مخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا إلى مخرج الصاد من طرف اللسان مع أطراف الثنايا السفلى لتتفق معها في الرخاوة ويسمح للهواء بالمرور، وعندئذ يتحد الصوتان فيدغمان نتيجة لذلك فصار اللفظ على ما هو عليه الآن (يصلحا)، وعلى هذا النمط تفسر اصبر، أما قراءة (أطره) فقد كان أصل اللفظ أضتره ثم لاستفال التاء واستعلاء الضاد قلبت التاء طاء لتناسب الضاد فصارت أضطره ثم إن

---

(٥٤) النساء الآية ١٢٨. (٥٥) البقرة الآية ١٢٦.

الضاد انتقلت إلى رخاوة الطاء فقلبت صوتا مماثلا ثم أدغمت فيها، ويعتبر ابن جنى هذه لغة مرذولة أعنى ادغام الضاد فى الطاء، وذلك لما فيها من الامتداد والفشو فإنها من الحروف الخمسة التى يدغم ما يجاورها فيها ولا تدغم هى فما يجاورها وهى: (ش - ض - ر - ف - م) ويجمعها (ضم شفر) وقد أخرج بعضهم الضاد من ذلك وجمعها فى قولهم (مشفر)[56].

وهذه الحروف يدغم بعضها فى بعض ويحول بعضها إلى بعض لقرب المخارج فأصوات الإطباق أخوات ومن قبلها الدال والذال والزاى كلهن من الثنايا وطرف اللسان[57] فكلهن من حيز واحد.

أما إذا بنيت (افتعل) من واوى الفاء أو يائيه فالعرب يختلفون، فالحجازيون لا يعبأون بتلاعب الحركات التى قد تقلب الواو ياء أو ألفا أو تقلب الياء واوا أو ألفا ففى افتعل من (ورث) يقولون: ايترث، ياترث، موترث ومن ينع: ايتنع، ياتنع، موتنع. وأما التميميون فيبدلون الواو أو الياء تاء ويدغمونها فى تاء الافتعال حتى لا تتعرض لتلاعب الحركات بها فيقولون فيما سبق: اترث يترث فهو مترث، واتنع يتنع فهو متنع.

تفاعل وتفعل

تأتى كل من الصيغتين بإظهار التاء دون إدغامها فيما بعدها، وإذا كانت الفاء فيهما من طائفة الحروف التى تخرج من أصول الثنايا العليا أو السفلى أو مما بين الثنايا (ط د ت - ظ ذ ث - ص - س - ز) أو من حروف وسط اللسان (ج ش) اختلفت قبائل العرب.

فبعضهم يظهر التاء فيها دون ادغام لها فى الفاء بعدها وبعضهم يدغم.

فمن الإظهار فى صيغة تفاعل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[58] ومن الادغام قوله عز حكمه﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[59ط] وقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[60] وقوله: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾[61].

ومما جاء بعدة أوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾[62] قرئ يتشابه بالياء والتاء دون ادغام وقرئ (يشابه) بالادغام[63].

---

(56) المحتسب 1/106.
(57) الكتاب 4/ 462 - 464.
(58) سورة القلم من الآية 49.
(59) سورة البقرة من الآية 72.
(60) سورة النمل من الآية 66.
(61) سورة التوبة من الآية 38.
(62) سورة البقرة من الآية 70.
(63) تفسير أبى السعود 1/ 112.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾(٦٤) قرئ: تظاهرون بحذف إحدى التاءين وبادغام التاء الثانية فى الظاء(٦٥).

ومن الإظهار فى صيغة تفعل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾(٦٦) وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾(٦٧) وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾(٦٨).

ومن الادغام قوله عز حكمه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾(٦٩) فأصل ازينت: تزينت فأدغم، وقرئ على الأصل(٧٠) وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾(٧١) أصله يتسمعون، والبيان عربى حسن لاختلاف المخرجين(٧٢).

وقوله جل ثناؤه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(٧٣).

أصل يصعد، يتصعد، وقرئ يصاعد وأصله يتصاعد(٧٤).

قوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٧٥) أصله: يتصدعون على معنى يتفرقون فمنهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار.

وفى حديث الزكاة: **«لا يؤخذ فى الصدقة هرمة ولا تيس إلا أن يشاء المصدق»**(٧٦) - بضم الميم وتشديد الصاد والدال معا مع كسر الدال وهو صاحب المال وأصله: المتصدق فأدغمت التاء فى الصاد.

---

(٦٤) سورة الأحزاب الآية ٤. (٦٥) تفسير أبى السعود ٧/ ٩٠.

(٦٦) سورة النجم الآية ٨. (٦٧) سورة محمد (ﷺ) الآية ٢٤.

(٦٨) سورة النازعات الآية ٣٥. (٦٩) سورة يونس الآية ٢٤.

(٧٠) الإتحاف ٢/ ١٠٨. (٧١) سورة الصافات الآية ٨.

(٧٢) الكتاب ٤/ ٤٦٣. (٧٣) سورة الأنعام من الآية ١٢٥.

(٧٤) تفسير أبى السعود ٣/ ١٨٣. (٧٥) سورة الروم الآية ٤٣.

(٧٦) النهاية ٣/ ١٥ الهرمة وذات العوار لا تؤخذ فى الصدقة إلا إذا كان المال كله كذلك عند بعضهم، وقد نهى عن أخذ التيس فى الصدقة لأنه مضر برب المال إلا أن يسمح به.

ومما لا ريب فيه أن وضوح الأصوات وفصل بعضها عن بعض يتطلب بذل مجهود عضلى كبير حتى لا تختلط، ولا تشوه صورها، وهذا خاص بالبيئة المدنية التى تتسم بتلك السمات، أما غموض الأصوات ودخول بعضها فى بعض فإنه ناجم عن السرعة فى إخراجها، وعدم التأنى فيها، وذلك هو اتجاه قبائل البادية.

ومن هنا استنتج علماء اللغة أن الادغام ينسب إلى تلك القبائل التى كانت تسكن وسط شبه الجزيرة وشرقيها فمعظمها قبائل بادية تميل إلى التخفيف، والسرعة فى الكلام كتميم وأسد وغنى وعبد القيس، وبكر بن وائل وكعب ونمير(٧٧).

كما ينسب الإظهار إلى بيئة الحجاز المتحضرة وهى تمثل التأنى فى الأداء بحيث تظهر كل صوت فيه(٧٨) وقد نسب سيبويه هذه الظاهرة إلى قبائلها فى مواطن من كتابه.

وليس معنى هذا أن كل قبائل الحجاز لا تدغم فى كل حال، بل إن بعض قبائل الحجاز ربما تأثرت بمجاوريها من أرباب الادغام، فتميل إليه كهذيل، فهى قبيلة مدنية، وقد ثبت أنها تدغم ياء المتكلم فى ألف المقصور بعد قلبها ياء. وقد تقدم شرح ذلك(٧٩).

وهذه الظاهرة تسمى عند علماء اللغة المحدثين (المماثلة assimilation وتدرس أحيانا تحت اسم التضعيف doubling).

وهى تخضع لنظرية السهولة، وكأن الادغام ظاهرة حادثة، والفك هو الأصل قبل التطور.

---

(٧٧) اللهجات العربية والقراءات القرآنية ١٣٣.

(٧٨) فى اللهجات العربية د. أنيس ٥٦.

(٧٩) انظر ص٣٢٧ من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

نقص بعض الحروف وزيادتها

حذف نون من

تحذف بعض قبائل زبيد وبنى خثعم من اليمن نون (من) الجارة إذا وقع بعدها حرف ساكن، ونسب بعضهم ذلك إلى هذيل وبعضهم نسبه إلى تميم[1].

قال الشاعر:

أبلغ أبا دختنوس مألكة   غير الذى قد يقال م الكذب

وقال الآخر:

لقد ظفر الزوار أقفية العدا   بما جاوز الآمال م الأسر والقتل

وقال أبو صخر:

كأنهما ملآن لم يتغيرا   وقد مر للدارين من بعدنا عصر[2]

واختلفت آراء الباحثين القدامى فى ذلك فيرى ابن عصفور: أن حذف نون (من) من باب الضرورة، ويرى ابن مالك أنه قليل، وقال أبو حيان: إنه كثير ويجوز فى سعة الكلام، وطالما بنى النحويون الأحكام على بيت واحد أو بيتين فقد جوز حذف نون (من) فى هذه الحالة، وقد جاءنا منه مالا يخفى كثرة ويمكن تتبع ذلك فى دواوين العرب[3] وكلام أبى حيان يمكن أخذه على اعتبار أنه يميل إلى رأى الكوفيين.

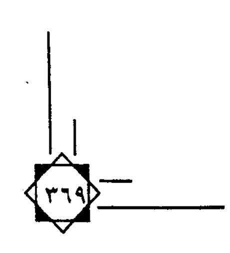
أما البصريون الذين لا يقننون للظاهرة إلا مع كثرة الشواهد فيعدون ذلك قليلا أو من الضرورات.

---

(١) الشعر والشعراء تحقيق أحمد شاكر ١/ ٤١٣.

(٢) الخصائص ١/ ٣٠١.

(٣) شرح التصريح ٢/ ٢٦، والهمع ٢/ ٢٠٠.



حذف ألف (على) الجارة ولامها

تحذف بلحرث بن كعب الألف من (على) الجارة وتحذف معها لامها إذا تلاها اسم معرف بأل قال الشاعر:

فما سبق القيسى من سوء سيرة ولكن طغت علماء غرة خالد

وروى الشطر الأول (وما غلب القيسى من ضعف قوة).

وقال آخر:

غداة طغت علماء بكر بن وائل وهاجت صدور الخيل شطر تميم[٤]

فأصل علماء على الماء. حذفت همزة الوصل من (الماء) لأنها تسقط فى الدرج وحذفت ألف (على) لالتقائها ساكنة مع لام المعرفة الساكنة ثم حذفت لام على كراهة اجتماع المثلين. ونظير ذلك حذف النون من بنى الحارث وبنى العجلان حين قالوا: بلحارث وبلعجلان لأن النون قد اجتمعت مع اللام وهى مقاربة لها فلأن يحذفوا اللام مع أختها بطريق الأولى[٥].

اللخلخانية

هى اللكنة فى الكلام والعجمة، ويقال رجل لخلخانى وامرأة لخلخانية إذا كانا لا يفصحان.

وقيل إنها منسوبة إلى لخلخان وهى قبيلة وقيل هى موضع[٦]. وورد فى حديث معاوية: أى الناس أفصح؟ فقال رجل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق[٧]. واللخلخانية تعرض فى لغات أعراب الشحر وعمان كقولهم: مشا الله كان - يريدون: ما شاء الله كان[٨]، وهم بذلك يحذفون بعض الحروف اللينة[٩].

وسبب هذا الحذف أن بعض الناطقين يميلون إلى تقصير الحركات تقليلا للجهد

---

(٤) شرح المفصل ١٠/ ١٥٥، وشرح الشافية ٤/ ٤٩٨. (٥) شرح المفصل ١٠/ ١٥٥.

(٦) اللسان ٥/ ٤٠٨، وخزانة الأدب ٤٠/ ٥٩٦، النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٤٤.

(٧) اللسان ٤/ ٢٠.

(٨) فقه اللغة وسر العربية ١٢٩، والمزهر - نقلا عنه ١/ ٢٢٣.

(٩) تاريخ آداب العرب ١/ ١٤٣.

العضلي، وفى العربية الفصحى المنطوقة الآن تقصير للحركات على لسان الناطقين فلا نجد الآن ناطقا ينطق حروف المد على طبيعتها كما حددها علماء التجويد.

وفى العاميات - اعتراها كثير من التغيير لما ذكر العلماء من شيوعها فى اللغات وما يعتريها من البلى الصوتى.

وربما انتشر ذلك أول الأمر فى البدو فعرفت اللخلخانية عند الأعراب وقد نسبت إلى الفرات أو العراق أو الشحر وعمان[١٠].

القطعة

هى قطع اللفظ قبل تمامه مثل: يا أبا الحكم تقول طيئ: يا أبا الحكا فتقطع كلامها[١١] وقد ورد مثل ذلك من قطع نهاية الكلمات فى غير لهجة طيئ مثل قول عبيد بن الأبرص:

ليس حى على المنون بخال

يقصد بخالد.

وقول لبيد بن ربيعة:

درس المنا بمتالع فأبان[١٢]

يريد المنازل ولم يسما يريدون لم يسمع[١٣].

ولعل ما جعله بعض النحاة من ترخيم المنادى يدخل فى هذا النوع من اللهجات كما ورد عن ابن أحمر من قوله:

وعمار وآونة أثالا

يريد: أثالة[١٤].

---

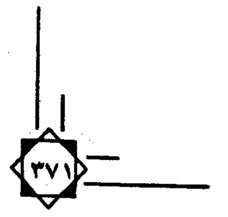
(١٠) البيان والتبيين ٣/ ٢١٢، وفقه اللغة للثعالبى ١٠٧، وتاج العروس ٢/ ٢٧٧.

(١١) يقول الخليل فى العين (قطع): القطعة فى طيئ كالعنعنة فى تميم ١/ ١٥٦، ونقله الأزهرى فى التهذيب ١/ ١٩٦.

(١٢) الخصائص ١/ ١٨١، واللسان: أبن.

(١٣) مميزات لغات العرب ٣١.

(١٤) الكتاب ٢/ ٢٧٠.



وقول جرير:(١٥)

ألا أضحت حبالكم رماما وأضحت منك شاسعة أماما

يريد: أمامة.

وبعض أمثلة القطعة تظهر فيها إطالة الحرف الأخير بعد الحذف خلافا لما يحدث في الترخيم.

والقطعة وإن كانت حذفا لأواخر الكلمات فإنها تختلف عما يسمى في علم النحو (الترخيم) إذ للترخيم شروطه لأنه حكم خاص بالنداء فيكون في آخر الاسم المنادى ويكون بحذف حرف أو حرفين مثل أفاطم في فاطمة ومثل يا سلم ويا منص ويا مسك في سلمان ومنصور ومسكين(١٦).

ولكن الحذف هنا في القطعة ليس خاصا بالأسماء بل يمكن أن يدخل الاسم والفعل كما يمكن أن يكون حذفا لحرف أو أكثر دون شروط.

وإذا كان قطع الكلمات هنا ورد في بعض الأبيات الشعرية فإن بعض العلماء كسيبويه يعد ذلك من الترخيم في غير النداء للضرورة، لكن يمكن أيضا أن يكون منسوبا إلى اللهجات التي كانت تقطع أواخر الكلمات، ويؤكد ذلك أن كلا الشاعرين: عبيد بن الأبرص الذي ينتسب إلى قبيلة أسد ولبيد الذي ينتمي إلى بني عامر من قبيلتين كانتا تعيشان على مقربة من ديار طيئ ويمتد ذلك إلى اليمن ولذا نسبت هذه الظاهرة إلى أهل اليمن ويمكن أن يمتد ذلك إلى غيرهم تأثرا بهم.

والأصل في نطق الكلمات أن تتم فيه الحروف كاملة بذلا للمجهود العضلي المطلوب، ولكن بعض الناطقين يختصر نطق الكلمات جريا على قانون السهولة الذي شاع في البدو والحضر على سواء وإن خص بعضهم بالبدو.

وبعض المحدثين يرجع حذف أواخر الكلمات إلى الأخطاء السمعية التي تنجم عن ضعف بعض الأصوات، وقد ينشأ عن ذلك سقوطها من الكلام الصوتي على مر الأجيال عند انتقال اللغة من جيل إلى آخر.

---

(١٥) وجرير من قبيلة تميم. انظر جمهرة أنساب العرب ٢٢٥.

(١٦) الكتاب ٢/ ٢٣٩ - ٢٧٤.

فعل وأفعل

المعروف أن حروف الزيادة التي تدخل الأفعال يكون لكل منها زيادة في المعنى وفقا للقاعدة التي تقول: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

فكل حرف يزاد على الصيغة الفعلية تقابله زيادة في المعنى، وهذا واضح في الأفعال التي تعتريها هذه الزيادة.

ولكن قد تجيء عدة صيغ فيها بعض حروف الزيادة مع اتحاد المعنى وهذا قد يرجع إلى اختلاف اللهجات.

من ذلك: فعلت وأفعلت التي ألف فيها بعض العلماء كتبا كالزجاج في كتابه (فعلت وأفعلت) أحيانا مع اتفاق المعنى وأخرى مع اختلافها، وكذلك لابن دريد كتاب في هاتين الصيغتين على ما يقال.

فقد يجيء فعلت وأفعلت والمعنى فيهما واحد إلا أن اللغتين اختلفتا، زعم ذلك الخليل فيجيء به قوم على فعلت، ويلحق قوم فيه الألف فيبنونه على أفعلت(١٧).

ويقول ابن درستويه: لا يكون فعل وأفعل بمعنى واحد كما لا يكونان على بناء واحد إلا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد(١٨).

وذكر ذلك ابن جني في خصائصه (باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعدا)(١٩) مثل سقى وأسقى في قول الشاعر:

سقى قومي بني مجد وأسقى ... نميرا والقبائل من هلال

ووفى وأوفى في قول آخر:

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته ... كما وفى بقلاص النجم حاديها

وفي القرآن الكريم: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾(٢٠) ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً

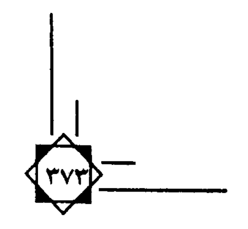
---

(١٧) الكتاب ٤/ ٦١.

(١٨) المزهر ١/ ٣٨٤.

(١٩) الخصائص ١/ ٣٧٠، والحجة لابن خالويه ٢١٢.

(٢٠) سورة الإنسان الآية ٢١.



غَدَقًا ﴾(21) ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾(22) ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ قرئ وفى بالتخفيف ثلاثيا عند ابن محيصن(23).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾(24) قرئ (لا يحزنك) من أفعل(25). وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾(26) قرئ (لا يحزنهم) من أفعل. وقوله سبحانه: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾(27) بضم الياء قرأ حفص وحمزة والكسائى. لغة نجد وتميم، وبفتح الياء قرأ الباقون لغة الحجاز(28).

وفى الحديث: **«الوليمة فى الإعذار حق»** الإعذار: الختان، ورد عذرته وأعذرته، ويقال للطعام الذى يعد فى الختان إعذار(29)، وفى حديث عمر **(أطردنا المعترفين)** أى المقرين على أنفسهم بما يوجب الحد عليهم، وقد ورد: **أطرده** السلطان وطرده، أى: أخرجه من بلده وأبعده(30)، وفى حديث خديجة: **(إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم)** يقال: كسب وأكسب فلانا مالا. أى: أعانه على كسبه وجعله يكسبه(31)، وحديث الإيمان: **(أدناها إماطة الأذى عن الطريق)**، أى: تنحيته، يقال مطت الشىء وأمطته وقيل: مطت أنا وأمطت غيرى، وماط وأماط بمعنى واحد(32).

وقد جمع الرسول الكريم بين فعل وأفعل فى قوله: **(يرد من صدقة الجانف فى مرضه ما يرد من وصية المجنف عند موته)** يرد بضم الياء وتشديد الدال المضمومة، ويقال: جنف وأجنف إذا مال وجار، فجمع بين اللغتين، وقيل: الجانف يختص بالوصية، والمجنف المائل عن الحق(33).

ويقال: بشرت الرجل بخير وأبشرته(34). وجنه الله وأجنه(35)، وألاته عن وجهه(36) بمعنى حبسه وصرفه عند تميم، ويقال: لاته بمعناه عند الحجاز(37).

---

(21) سورة الجن الآية 16. (22) سورة الفتح الآية 10.

(23) سورة النجم الآية 37، والإتحاف 403.

(24) سورة آل عمران الآية 176. (25) الإتحاف 182 (قراءة نافع).

(26) سورة الأنبياء الآية 102 والجمهور يحزنهم - من حزن - وهى لغة قريش.

(27) سورة طه الآية 61. (28) الإتحاف 304.

(29) النهاية 3/ 196. (30) المصدر السابق 3/ 17.

(31) المصدر السابق 4/ 171. (32) المصدر السابق 4/ 222 والصحاح (ماط).

(33) النهاية 1/ 307 ومختار الصحاح 113.

(34) كتاب فعلت وأفعلت للزجاج ص 130. (35) المصدر السابق 135.

(36) المزهر 2/ 276 والقاموس 1/ 163. (37) الاتحاف 398.

وقال ابن منظور: (فعل وأفعل كثيرا ما يتعاقبان على المعنى الواحد نحو: جد فى الأمر وأجد، وصددته عن كذا وأصددته، وقصر عن الشىء وأقصر، وسحقه الله وأسحقه ونحو ذلك[٣٨].

ولابن دريد باب ما اتفق عليه أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعى يشدد فيه ولا يجيز أكثره مما تكلمت به العرب من فعلت وأفعلت[٣٩].

وقد ألف كتاب فعلت وأفعلت ومنها ما اتفق معناه وجمع منها أحد الباحثين ستة ومائتى فعل[٤٠].

والهمزة هنا ليست للتعدية، والنقل على ما هو مشهور فيها فى مثل ذلك لكنها لتأكيد المعنى إن صح هذا الاعتبار كما ورد عن بعض اللغويين ونقله صاحب الإتحاف[٤١].

وقد اضطربت أقوال الباحثين فى نسبة كل من الصيغتين إلى بيئة لغوية، فبعضهم يرى أن (فعل) - بغير همز - للحجاز وبالهمز (أفعل) لتميم، ففى قوله تعالى: ﴿ فأسر بأهلك ﴾ يقول الفراء قوله:(فأسر بأهلك) قراءتنا من أسريت بنصب الألف وهمزها، وقراءة أهل المدينة (فاسر بأهلك) من سريت[٤٢].

ويقول أيضا: قرأ أهل الحجاز (فاسر بأهلك) موصولة من سريت وقراءتنا (فأسر بأهلك) من أسريت، وقال الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾وهو أجود[٤٣].

وقال لبيد بن ربيعة:

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ... قضى عملا والمرء ما عاش عامل

ويذكر بعض اللغويين أن أسرى بالألف لغة أهل الحجاز[٤٤]. ولعل الفعل بالهمزة قد تأثر به أهل الحجاز وقد جمعهما حسان فى قوله:

---

(٣٨) اللسان ١٥/ ٢٣٣. (٣٩) الجمهرة ٣/ ٤٣٤.

(٤٠) فى بحث بمجلة مجمع اللغة العربية ج٣٦ ص١١٦.

(٤١) الإتحاف ٣٩٨. التميميون يميلون إلى تأكيد المعنى وتقويته فأدخلوا الهمزة التى للتعدية مبالغة فى تأكيد المعنى.

(٤٢) معانى القرآن ٢/ ٢٤.

(٤٣) وفى حديث جابر رضى الله عنه «قال له: ما السرى يا جابر؟ أى ما أوجب مجيئك فى هذا الوقت؟ والسرى السير بالليل وسرى وأسرى لغتان (النهاية ٣/ ٣٦٤ سرى).

(٤٤) ديوان الأدب ٤/ ١٠١، والمصباح ١/ ٢٧٥، واللسان ١٤/ ٣٨١.

إن النظيرة ربة البيت أسرت إليك ولم تكن تسرى[٤٥]

وقال الفراء - أيضا -: فتن لأهل الحجاز وأفتن لأهل نجد[٤٦] وجاء أعشى همدان باللغتين فى قوله:

لئن فتنتنى لهى بالأمس أفتنت سعيدا فأمسى قد قلا كل مسلم

وقال أبو حيان فى فتن وأفتن: لغة الحجاز فتن ولغة تميم وربيعة: أفتن رباعية[٤٧] وقرأ عيسى بن عمر (لا تفتنى) بضم التاء من أفتن وقرأ الباقون بفتح التاء من (فتن)[٤٨].

وكان الأصمعى يعد (أفتن) ليس بثبت وأبى إلا (فتنت) ولما أنشد بيت أعشى همدان السابق قال: هذا أخذ عن مخنث وليس بثبت[٤٩].

وقد عد ابن دريد (فتنت) الصيغة الراجحة فقال: اختلف أهل اللغة فى (فتنت) و(أفتنت) فقال قوم: لا يقال إلا فتنه فهو مفتون، وهى اللغة الكثيرة، وقال آخرون: أفتنه فهو مفتن، وذكر رأى الأصمعى السابق. وقد ذكر الخليل والأصمعى: رابنى هذا الأمر يريبنى: أى أدخل على شكا وخوفا، أو رأيت منه ما أكره. وفى لغة رديئة نسبت إلى هذيل: أرابنى[٥٠] ويقال: ضاء السراج يضوء وأضاء يضىء والأخير أقوى[٥١]، وقد يصفونها بأنها لغة قليلة، تقول: غار إذا أتى الغور، وأغار أيضا وهى لغة قليلة، وذكر صاحب المصباح أنه لا يقال أغار، وأن الفراء زعم أنها لغة[٥٢].

وفى الحديث: **(فوقع الجبل على باب الكهف فأوطده)** أى: سده بالهدم هكذا روى، يقول ابن الأثير: وإنما يقال: وطده وأوطد قليلة فى وطد[٥٣].

وفى كتابه ﷺ لأهل نجران **(وألا يغتر واقف من وقيفاه)** يذكر ابن الأثير: الواقف خادم البيعة لأنه وقف نفسه على خدمتها، والوقيفى بالكسر والتشديد والقصر: الخدمة وهى مصدر كالخصيصى والخليفى يقال: وقفت الشىء أقفه وقفا: ولا يقال أوقفت إلا

---

(٤٥) ديوانه / ٢٢٤.

(٤٦) معانى القرآن للفراء ٢/ ٣٩٤.

(٤٧) البحر المحيط ٣/ ٣٣٩، والخصائص ٣/ ٣١٩ ويراد سعيد بن جبير.

(٤٨) البحر ٥/ ٥١. (٤٩) الجمهرة ٢/ ٢٤، ٢٥.

(٥٠) العين ٨/ ٢٨٨.

(٥١) التهذيب ١٢/ ٩٦، ١٥/ ٢٥٢، ٢٥٣.

(٥٢) النهاية ٣/ ٣٩٣. والمصباح (غور). (٥٣) النهاية ٥/ ٢٠٤.

على لغة رديئة[٥٤] وذكر الخليل أن (أوفى) بالألف - من (وفى) - هي فى أهل تهامة[٥٥].

وقد أشار المبرد إلى أن الأفصح هو (أوفى) لمجيء القرآن بها فى مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٥٦] وأشار بعضهم إلى فصاحة اللغتين.

وفى (هبط) و(أهبط) ذكر ابن دريد أنهما لغتان فصيحتان[٥٧] وعند المبرد أن (أهبط) لغة تميم [٥٨] ويقال فرزت الشيء وأفرزته لغتان جيدتان[٥٩] وقال الأصمعى فى (غسا) و(أغسى) يقال: غسى الليل وأغسى، وغسى إذا اسود قال العجاج:

من مر أيام وليل مغسى

فهذا من (أغسى) وسمعت رجلا من باهلة منذ خمسين سنة ينشد:

كأن الليل لا يغسى عليه إذا زجر السبنداة الأمونا[٦٠]

ونرى أن اللغويين - أحيانا - يؤكدون فصاحة اللغتين، وأحيانا فصاحة إحداهما دون الأخرى تبعا للسماع والورود عن العرب وفى القرآن الكريم، وبعضها يأتى مع نسبته إلى أصحابه، وأحيانا لا ينسبون بعضها، يقول الله تعالى فى الحديث القدسى: **«أسمحوا لعبدى كإسماحه إلى عبادى»** الإسماح لغة فى السماح يقال: سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء[٦١].

وفى الحديث: **(إن أكثبكم القوم فانبلوهم)** وفى رواية: **(إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل)** يقال: كثب وأكثب إذا قارب والكثب القرب[٦٢].

---

(٥٤) المصدر السابق ٥/ ٣١٦.

(٥٥) العين ٨/ ٤٠٩.

(٥٦) سورة البقرة من الآية ٤٠، وانظر الكامل ٢/ ١٨٧.

(٥٧) الجمهرة ١/ ٣١١، ٣/ ٤٣٨.

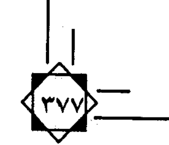
(٥٨) الكامل ١/ ٣٧٥.

(٥٩) التهذيب ١٢/ ٩٦.

(٦٠) السبندى: الطويل الجرىء ومؤنثه: السبنداة وناقة أمون: وثيقة الخلق. انظر القاموس ١/ ٣١٠، ٤/ ١٩٩.

(٦١) النهاية ٢/ ٣٩٨.

(٦٢) المصدر السابق ٤/ ١٥١.



وفى خطبة عائشة (**وأنجح إذا أكديتم**) يقال نجح فلان وأنجح إذا أصاب طلبته وأنجحت وأنجحه الله(٦٣).

وفى حديث ابن مسعود (**كان يصلى الظهر والجنادب تنقز من الرمضاء**) أى تقفز وتثب من شدة حرارة الأرض وقد نقز وأنقز: إذا وثب(٦٤).

وفى حديث ابنى مليكة: (**إن أمنا حين رعد الإسلام وبرق**) إلخ. أى جاء بوعيده وتهديده يقال: رعد وبرق وأرعد وأبرق(٦٥).

وفى الحديث: (**سألت ربى ألا يسلط على أمتى سنة فترمدهم فأعطانيها**) أى تهلكهم يقال رمده وأرمده إذا أهلكه(٦٦).

وفى حديث رافع بن خديج: (**وسئل عن كراء الأرض البيضاء بالذهب والفضة فقال: لا بأس إنما نهى عن الإرماث**) من قولهم رمثت الشىء بالشىء إذا خلطته وقولهم رمث وأرمث: إذا زاد(٦٧).

والذى عليه جمهور اللغويين أن (فعل) للحجاز و(أفعل) لتميم، وجرى على ذلك المحدثون من علماء اللغة وإن جاء عكس ذلك فقد ورد عن بنى تميم: جبره وبقية العرب تقول: أجبره(٦٨).

قال اللحيانى: تميم تقول: جبرته على الأمر أجبره جبرا وجبورا بغير ألف قال الأزهرى: وهى لغة معروفة وكثير من الحجازيين يقولونها إلا أن بعض اللغويين فرق بينهما فى المعنى فجعل جبر لجبر العظم بعد كسره وجبر الفقير بعد فاقته والإجبار للإكراه(٦٩) وعندبنى تميم (هلك) وغيرهم (أهلك) قال العجاج وهو تميمى:

ومهمه هالك من تعرجا ... هائلة أهواله من أدلجا

يعنى (مهلك) وهى لغة تميم(٧٠).

---

(٦٣) النهاية ٥/ ١٨.
(٦٤) المصدر السابق ٥/ ١٠٥.
(٦٥) المصدر السابق ٢/ ٢٣٤.
(٦٦) المصدر السابق ٢/ ٢٦٢.
(٦٧) المصدر السابق ٢/ ٢٦١.
(٦٨) اللسان ١/ ٥٣٤.
(٦٩) التهذيب ١١/ ٦٠.
(٧٠) اللسان: (هلك).

وتقول تميم: خلا فلان على اللبن وعلى اللحم إذا لم يأكل معه شيئا ولا خلطه به وكنانة وقيس يقولون: (أخلى)[٧١].

ونسبت (فعل) إلى قيس مثل (فتئ).

قال أبو زيد: تميم تقول: أفتأت وقيس وغيرهم: فتئت[٧٢]، وقيس قبيلة بدوية وربما قصد بغيرهم أهل الحجاز.

وتنسب صيغة (فعل) للكلابيين في تعس وأتعس يقال: تعس بنفسه وأتعسه الله وروى تعس بفتح العين[٧٣]. وهذا يدل على أن بعض القبائل تتأثر بالأخرى للاتصال بينها.

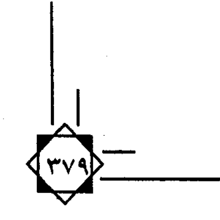
فعل وافتعل

جاءت صيغ من هذا النوع من الثلاثي وغيره بمعنى وهي - دون ريب - ترجع - في معظمها - إلى اللهجات وإن لم يسم أصحابها في كتب اللغة. ومن ذلك: فرى فريا وافترى افتراء إذا كذب وهو افتعال من الفرى، وفي القرآن الكريم عن بيعة النساء ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ وجاء مثله في الحديث[٧٤].

وجاء القود بمعنى القصاص، وقاده به وأقاده قتل القاتل بدل القتيل واستقاد الحاكم سأله أن يقيده واقتاد منه يقتاد افتعال منه، وفي الحديث: **(من قتل عمدا فهو قود)** ويقال: قاد البعير واقتاده: جرى خلفه[٧٥] ويقال: مك الفصيل ما في ضرع الناقة وامتكه إذا مص كل ما فيه من اللبن[٧٦] ومن ذلك: نضا السيف من غمده وانتضاه: أخرجه، ومن افتعل جاء انتضى في حديث على حين ذكر عمر فقال: (تنكب قوسه وانتضى في يده أسهما) على معنى استخرجها من كنانته[٧٧].

ويقال: نظرت فلانا وانتظرته: إذا ارتقبت حضوره، ومن الأول (الثلاثي) ما ورد في حديث أنس قال: **(نظرنا النبي ﷺ ذات ليلة حتى كان شطر الليل)**[٧٨]، ومن ذلك: همط ماله وطعامه وعرضه، واهتمطه أخذه مرة بعد أخرى من غير وجه.

(٧١) المصدر السابق (خلى).
(٧٢) التهذيب: ١٤/ ٣٣٠.
(٧٣) المصدر السابق ٢/ ٧٨.
(٧٤) النهاية ٣/ ٤٤٣.
(٧٥) المصدر السابق ٤/ ١١٩.
(٧٦) المصدر السابق ٤/ ٣٤٩.
(٧٧) المصدر السابق ٥/ ٧٣.
(٧٨) المصدر السابق ٥/ ٧٨.



وفى الحديث أنه ﷺ **(سئل عن عمال ينهضون إلى القرى فيهمطون الناس فقال: لهم المهنأ وعليهم الوزر)**[79].

ويقال: قص الأثر واقتصه إذا تتبعه، وجاء فى الحديث عن غسل دم الحيض: (فتقصه بريقها) على معنى تزيله من الثوب بأسنانها وريقها ليذهب أثره كأنه من القص[80].

ضميرا الخطاب

نلاحظ أن التاء والكاف تستعملان ضميرين لخطاب المذكر، والمؤنث، فمع المذكر يفتح كل منهما، ومع المؤنث يكسران تقول: حضرت وحضرت، وشاهدتك وشاهدتك، وهذا شائع عند جمهور العرب.

وقد تشبع فتحة المخاطب المذكر فتنشأ عنه ألف، وتشبع كسرة المخاطبة المؤنثة فتنشأ عنها ياء فيقال: حضرتا - حضرتى - شاهدتكا - شاهدتكى - وهذا ينسب لربيعة وتجرى عليها اللهجة العامية فى مصر.

وبهذه النماذج المتعددة للهجات نتأكد من وجود لهجات عديدة فى الجزيرة وإن كانت القرشية قد سيطرت وأصبحت اللغة العامة للعرب جميعا.

ولو أن الرواة اهتموا بهذه اللهجات لنقلوا لنا فيضا كبيرا كنا قد استفدنا منه لكنهم - لخوفهم على القرآن الكريم ولغته - اهتموا باللغة العامة ولم يأبهوا لهذه اللهجات فنسى معظمها وتاه فى الجزيرة وقضى عليه، على حين أننا نشاهد بقايا هذه اللهجات يظهر واضحا فى كتب النحو التى تحاول أن تخلط اللهجات، وتستخلص القواعد منها وتدافع عنها بالفلسفات كما نرى ذلك عند إعراب المثنى بحاليه اللذين أشرنا إليهما وعند إعراب قراءة (إن هذان لساحران) وقراءة **(فكان أبواه مؤمنان)** فتذكر كتب النحو كثيرا من الآراء، ومن الممكن أن نكتفى بتعليل واحد قريب وواقعى، وهو أن هاتين القراءتين جاءتا حسب لهجة عربية تلزم المثنى الألف فى جميع أحوال إعرابه، وبهذا نريح التفكير العقلى من أن يضل فى متاهات النحاة.

---

(٧٩) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤.

(٨٠) المصدر السابق ٣/ ٤٧٧.



الباب الخامس

القراءات وصلتها باللهجات العربية

أولا: صلة القراءات بالأصوات العربية
وائتلافها ولهجات العرب فى ذلك

اهتم المسلمون - منذ ظهور الدين الإسلامى - بالحفاظ على القرآن الكريم ولغته - خوف التحريف والتغيير - حتى لا تنبهم معانيه على أهله، وكان ذلك بدافع دينى، فقد نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ دستورا للأمة الإسلامية لقراءته، واتباع ما جاء به، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾[1] وقال سبحانه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ⑲﴾[2].

وما خوطب به النبى ﷺ هو خطاب للمجتمع الإسلامى كله.

والمطلوب من المسلم ترتيل القرآن الكريم: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[3] ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[4] وهذا يعنى إتقان النطق الصحيح لحروفه مفردة ومركبة، والتحرى والدقة فى النطق لهما أهمية فى صيانة القرآن الكريم، وحفظه على مر الأيام لتتحقق نبوءة القرآن الكريم بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[5].

وهذا الإتقان، وتلك الإجادة فى النطق تبعد بالمسلم عن اللحن، والتحريف، وذلك لا يكون إلا بالتلقى والمشافهة، والتدرب والرياضة، وفق قواعد مرسومة متلقاة - بصفة خاصة - عن أئمة القراءة المتصلة بالرسول ﷺ.

---

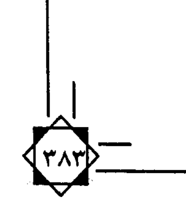
(١) الآيات ١-٥ من سورة العلق.

(٢) الآيات ١٦ - ١٩ من سورة القيامة.

(٣) من الآية ٤ من سورة المزمل.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الزمر.

(٥) الآية ٩ من سورة الحجر.



وقد لمس العلماء ذلك منذ الصدر الأول، فوضعوا الضوابط لقراءته، وتحديد نطقه تحديدا سليما، فيعطى كل حرف حقه فى مخرجه وصفته، سواء كان مفردا أم مركبا مع غيره، وأى بعد عن هذا المنهج المرسوم يعد خروجا على القراءة الصحيحة ولحنا يؤدى بصاحبه إلى الوقوع فى الإثم والضلالة.

فلو نطق ناطق (الحمد لله) بقلب الحاء عينا، أو نطق (الدين) بإبدال الدال تاء، أو (المغضوب عليهم) بتحويل الغين إلى خاء كان ذلك لحنا صراحا، وعدت قراءته باطلة[٦] ومعنى هذا أن عدم إعطاء (الحاء) و(الدال) والغين) حقوقها الصوتية بنطقها وفق مخارجها، كل ذلك لحن لا شك فيه.

ومن هنا قام علم التجويد والقراءات على أساس وصف مخارج الحروف، حرفا حرفا، بتحديدها تحديدا دقيقا فى قواعد تهدى الناطق، وترشده إلى التمثل الصحيح للأصوات العربية وطريقة نطقها فى القرآن الكريم، كما حددت - فى هذا العلم أيضا - صفات الحروف وعرفت أنواعها من جهر وهمس، وشدة ورخاوة وتوسط، وانفتاح واستعلاء وإطباق، إلى غير ذلك، وما يترتب عليها من قوة الحرف أو ضعفه[٧].

ومعنى هذا أن الاعتدال على إجادة هذه المخارج والصفات واجب الاتباع لتحقيق النطق الفصيح المجود للقرآن الكريم.

وهذا النطق يمثل الحروف الهجائية التى استوت - عند العرب - على أحسن وجه وأكمله، وتخلصت من الحروف المستقبحة والسقيمة التى كانت تستعمل عند بعض القبائل وتخلصت منها العربية النموذجية بفضل تهذيبها ونزول القرآن الكريم بها.

ومن ذلك:

١ - الباء التى كالميم: وهى فى لهجات مازن[٨] وهى قولهم: باسمك؟ فى ما اسمك؟

---

(٦) ابن الجزرى: النشر فى القراءات العشر ١/ ٢١١، ٢١٢.

(٧) ابن الجزرى: النشر ١/ ١٩٨، ١٩٩ ومحمد مكى: نهاية القول المفيد فى علم التجويد ص ٣١، ٣٢، وانظر أساس ذلك فى الخليل: العين ١/ ٥٣، ٦٤ وما بعدها، وسيبويه: الكتاب ٢/ ٤٠٤، ٤٠٥ وما بعدها، وابن جنى: سر صناعة الإعراب ١/ ٥٠، ٥١ وغيرهما.

(٨) ابن جنى: سر صناعة الإعراب ١/ ٥١.

٢- الجيم التى كالكاف: وكانت شائعة فى اليمن وهى موجودة بكثرة عند أهل البحرين مثل: رجل وجمل يقولون فيهما: ركل وكمل(٩).

٣- الصاد التى تنطق كالسين: مثل قولهم فى (صالح): (سالح) وهى من لغة بنى العنبر (وليس في حسن إبدال الصاد من السين، لأن الصاد أصفى فى السمع من السين، وأصغر فى الفم)(١٠).

٤- الكاف التى بين الجيم والكاف: وهى مثل الجيم المصرية فى النطق مثل (جافر) فى نطق (كافر) وهى من لغات اليمن وبغداد(١١).

٥- حرف بين الكاف والقاف، وقد ذكره ابن دريد وابن فارس ، قالا: فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف فيقولون: (الكوم) يريدون (القوم) فتكون القاف بين الكاف والقاف، وهى لغة معروفة فيهم، قال الشاعر:

ولا أكول لكدر الكوم كد نضجت   ولا أكول لباب الدار مكفول

يريد فى كل ذلك القاف(١٢).

ويمكن أن ندرج تحت التحولات الصوتية لبعض الحروف تلك الظواهر التى نسبت لبعض القبائل كالعنعنة، وهى قلب الهمزة المصدرة عينا وأصحابها هم تميم وأسد وقيس وذلك مثل (أن) يقولون فيها: (عن) كقول الشاعر:

أعَنْ تَرَسَّمتَ من خرقاءَ منزلةً   ماءُ الصبابة من عينيكَ مَسْجُوم

وقول الآخر:

فما أُبْن حتى قُلْنَ يا ليت عنَّنَا   تُرابٌ وعنَّ الأرضَ بالناس تُخْسف

وقلب العين الساكنة نونا - وهو ما يسمى بالاستنطاء - مثل: اليد المنطية خير من اليد السفلى، وهى من لهجات سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار، وقلب الكاف - فى خطاب المؤنثة شينا - فيما يسمى (الكشكشة) مثل: منش وعليش وهى فى ربيعة

---

(٩) ابن دريد: الجمهرة ١/ ٥ وابن فارس: الصاحبى ص٣٦، ٣٧ وابن يعيش، المفصل ١٠/ ١٢٧.

(١٠) ابن يعيش: المفصل ١٠/١٢٨.

(١١) سيبويه: الكتاب ٢/ ٤٠٤ وشرحه للسيرافى، وابن جنى: سر الصناعة ١/ ٥١ وابن يعيش: المفصل ١٠/ ١٢٧، ١٢٨ والرافعى: تاريخ آداب العرب ص١٠٠، ١١١.

(١٢) ابن دريد: الجمهرة ١/ ٥ وابن فارس: الصاحبى: ص٣٦، ٣٧ وابن يعيش: المفصل ١٠/ ١٢٧.

ومضر، وقلب الكاف - مطلقا - شينا مثل: لبَّيْشَ اللهم لبَّيْش، وتسمى الشنشنة وتنسب لأهل اليمن.

وإبدال السين تاء كقول الشاعر:

يا قاتل الله بنى السعلاة   عمرو بن يربوع شرار النات

وتسمى (الوتم) وهى لأهل اليمن أيضا(١٣).

وإن مخارج الحروف وصفاتها المشار إليها إما أن تتباعد، وإما أن تتقارب أو تتجانس.

فالمتباعدان: هما الحرفان المختلفان مخرجا وصفة، كالحاء والباء.

والمتماثلان: هما الحرفان المتحدان فى المخرج والصفة كالتاءين والراءين وغير ذلك.

والمتجانسان: هما المتفقان فى المخرج المختلفان فى الصفة كالتاء والطاء والسين والصاد.

والمتقاربان: هما الصوتان اللذان بينهما تقارب فى المخرج أو الصفة أو فيهما، كالدال والسين أو الشين، والذال والزاى واللام مع الراء(١٤).

ولا شك أن الأصوات المفردة التى تحدثنا عنها تجتمع لتكون الكلمات، ويذكر علماء الأصوات أن تأليف الكلمات من الحروف المتباعدة المخارج يكون أحسن ليختلف الصديان فيعذبا بتراخيهما(١٥).

وتنفر اللغة العربية من تركيب الكلمات من حروف متقاربة، فقرب مخارج الحروف يمنع من تأليف بعض الكلمات لثقلها على اللسان، فالقاف والكاف لا تأتلف منهما كلمة واحدة، فلا يقال: (قك) و(كق)(١٦)، وقد قال ابن جنى: إن حروف أقصى اللسان لا تتجاور ألبتة.

وكذلك لا يقال: سص ولا طس وظث وضس وشض، وهذا حديث واضح لنفور

---

(١٣) السيوطى: المزهر ١/ ٢٢١، ٢٢٢ وانظر كتابنا (العربية - خصائصها وسماتها) ص٧٢، ٨٦، ٨٧.

(١٤) البنا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ص٢١، والشيخ على محمد الضباع: شرح الشاطبية ص٣٥.

(١٥) ابن جنى: سر الصناعة مخطوطة دار الكتب المصرية ص ٤١٥ -٤١٨.

(١٦) ابن دريد: الجمهرة ١/ ٤ -١١.

الحس عنه، والمشقة على النفس لتكلفته وحروف الحلق - أيضا - أقل الحروف ائتلافا(١٧).

وقد يلجأ العرب إلى تقريب الصوت من الصوت - مخرجا أو صفة - حينما تقع فى الكلمات بعض الحروف المتجانسة أو المتقاربة، ويتضح ذلك فى صيغة (افتعل) مما فاؤه صاد أوضاد أو طاء، أو ظاء، أو دال أو ذال أو زاى حيث تقرب تاء الافتعال مما قبلها بقلبها إلى صوت يناسبه مخرجا أو صفة، ومعظم صور هذا التقريب واجبة لاتفاق الصوتين فى المخرج واختلافهما فى الصفة.

أما بناء (افتعل) من واوى الفاء أو يائيها فللعربى فيه مسلكان:

أحدهما: ألا يقلب أحد الصوتين الواو والياء تاء قبل تاء الافتعال بل يتركان بحالهما يتأثران بالحركات السابقة عليهما، وهو لهجة الحجازيين الذين لا يعبأون بتلاعب الحركات، فيقولون فى (افتعل) من (وسم) و(وحد): ايتسم وايتحد - وأصلهما: اوتسم واوتحد - ومن (يبس) و(يئس): ايتبس وايتأس.

أما المسلك الثانى فهو قلب الواو أو الياء تاء وإدغامها فى تاء الافتعال حتى لا تتأثر كل منهما بالحركات السابقة عليها، وهذا لهجة التميميين، فيقولون فيما سبق: اتسم - اتحد - اتبس - اتأس.

وقد يجتمع فى كلمة صوتان تباعد مخرجاهما، واختلفا فى بعض الصفات- سواء كانا متجاورين أو فصل بينهما فاصل - فيختلف العرب بعضهم عن بعض فى تقريب الصوت من صاحبه.

ومن ذلك تجاور الصاد الساكنة مع الدال فى (يصدر ومصدر) ونحوهما، فبعض العرب - من أهل البادية - يشمون الصاد صوت الزاى وبعضهم يقلبها زايا خالصة، لما بين الدال والصاد من التنافر، فالصاد مهموسة، والدال مجهورة، ويقتضى الانسجام جعلهما معا مجهورين.

وكذلك اجتماع السين مع الطاء أو القاف أو الغين فى مثل: سراط - يساقون - أسبغ، فأهل البادية - أيضا - يقلبون السين صادا، إذ السين صوت مستفل، وهذه الأصوات مستعلية فأبدلت السين صادا لتقرب منها بالاستعلاء(١٨).

---

(١٧) انظر كتابنا (أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى) ص١٠، ١١.

(١٨) سيبويه: الكتاب ٢/ ٤٢٦ وابن جنى: الخصائص ٢/ ٤٤، ١٦٨، وسر الصناعة ١/ ٥٦، ٥٧، والمحتسب ٢/ ٢٨٣.

وكما يكون التأثر بالمجاورة بين الأصوات الساكنة يكون بين أصوات اللين ومن ذلك تأثر الكسرة بالضمة فى مثل: (الحمد لله) - بضم الدال واللام-، وقراءة (للملائكة اسجدوا) بضم التاء، وتأثر الضمة بالكسرة فى قراءة (الحمد لله) بكسر الدال واللام، وقراءة (فلإمه الثلث) بكسر همزة (إمه) ومثل: (اضرب الساقين إمك هابل) بكسر همزة وميم (إمك) وتأثر الفتحة بالكسرة فى قراءة (براءة من الله) بكسر نون (من)[19].

وقد يلجأ العرب إلى الإدغام، وعرفه ابن جنى بأنه: تقريب صوت من صوت[20] ولكن علماء القراءات يقولون: الإدغام إدخال حرف فى حرف بحيث يرتفع بهما اللسان ارتفاعة واحدة[21].

وقسمه الفراء إلى صغير وكبير، فالصغير هو ما سكن فيه الحرف الأول، والكبير ما تحرك فيه[22].

ويجرى فى المتماثلين والمتجانسين والمتقاربين.

فإذا سكن الأول وتحرك الثانى فى المثلين فالإدغام واجب، ولقاء المثلين متحركين يوجب الإظهار - إلا عند السوسى الذى أجاز الإدغام فى مثل: ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ - فى البقرة- و﴿ما سلككم﴾ - فى المدثر - وهذا فى كلمة واحدة، وفى كلمتين مثل: ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ - ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[23].

ولقاء المتجانسين والمتقاربين مجال خصب لتأثر أحد الصوتين بالآخر، ومن ذلك فى المتجانسين إدغام القاف فى الكاف مثل ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ والطاء فى الصاد فى مثل: اصّبر وفى الضاد مثل: اضّغَنَ ونحو ذلك، هذا فى كلمة واحدة، وفى كلمتين كإدغام التاء فى الطاء مثل ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ﴾، والذال فى الظاء مثل: ﴿إذ ظَّلَمْتُمْ﴾ واللام فى الراء مثل:

---

(19) ابن جنى: الخصائص ٣/ ١٤٤، ١٤٥ والمحتسب ١/ ٧١، ٢٤٠، ٢٧٣، ٢/ ٢١.

(20) ابن جنى: الخصائص ٢/ ٢٣٧.

(21) محمد مكى: القول المفيد ص ١٠٤.

(22) محمد مكى: القول المفيد ١٠٥، ١٠٧، ١١١ والبنا الدمياطى: الإتحاف ص ٢٢ والضباع: شرح الشاطبية ص٣٥.

(23) البنا الدمياطى: الإتحاف ص٢١، ٢٢ ومحمد مكى: القول المفيد ص١٠٥، ١٠٧ وابن جنى: الخصائص ٣/ ١٢٧: جيب بكر - ثوب بكر ونحوهما.

﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ والقاف في الكاف مثل ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ والسين في الزاى مثل ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ ﴾[٢٤].

ومنه في المتقاربين ادغام النون في الميم في (امحّى) و(امّاز)، والتاء في الثاء نحو (اثاقل) هذا في كلمة، وفي كلمتين مثل إدغام الدال في الذال أو الزاى أو الظاء كقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ ذَرَأْنَا - وَلَقَدْ زَيَّنَّا - لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ وكإدغام التاء في الثاء مثل ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ والدال في الثاء مثل ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ والذال في السين مثل ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾[٢٥].

ومن هنا بدا لنا أن المطلوب من القارئ إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله من غير إسراف ولا تعسف، وكذلك إعطاؤها صفاتها الواجبة لها.

وندرك من ذلك - أيضا - أن الصوت يأخذ وضعا خاصا حال تركبه مع غيره، فلذلك سمات وخصائص ينبغي للقارئ أن يلم بها، فقد تتجاور الحروف المتماثلة أو المتجانسة أو المتقاربة، والقوى منها أو الضعيف، والمفخم أو المرقق، فيجذب القوى الضعيف، ويقلب المفخم المرقق، ولذا فإن هذا يحتاج إلى رياضة شديدة للنطق حال التركيب[٢٦].

وقد ساق ابن الجزرى - رحمه الله - أمثلة كثيرة لذلك وكيفية تحديد النطق أو عدمها في حالات من تجاور بعض الحروف مع مجانسها أو مقاربها، وحروف القلقلة، وتكرير الحروف وغير ذلك.

فالحاء - مثلا - تجب العناية بإظهارها إذا وقع بعدها مجانسها أو مقاربها، لاسيما إذا سكنت نحو ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ و﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ فكثيرا ما يقلبونها في الأول عينا، ويدغمونها كذلك، وكذلك يقلبون الهاء في (سبحه) حاء لضعف الهاء وقوة الحاء فتجذبها فينطقون بحاء مشددة، وكل ذلك لا يجوز إجماعا.

والذال يعتنى بإظهارها إذا سكنت وأتى بعدها نون نحو ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ﴾، وكذلك يعتنى بترقيقها وبيان انفتاحها، واستفالها، إذا جاورها حرف مفخم، وإلا ربما

---

(٢٤) الضباع: شرح الشاطبية ص٤، ٤١، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٥ وانظر: الدمياطى الإتحاف ص٢١-٢٧.

(٢٥) الدمياطى: الإتحاف ص٢١.

(٢٦) ابن الجزرى: النشر ١/ ٢١٤، ١٥ بتصرف كبير.

انقلبت ظاء نحو ﴿ذرهم﴾ - ﴿ذره﴾ - ﴿أنذرتكم﴾ - ﴿الأذقان﴾ - ولا سيما في نحو: ﴿المنذرين﴾ - ذللنا - لئلا تشتبه بنحو: ﴿المنظرين﴾ - ﴿ظللنا﴾، وبعض العجم يجعلها زايا.

والزاي يتحفظ ببيان جهرها، لا سيما إذا سكنت نحو (تزدرى) و﴿أزكى﴾ و﴿رزقا﴾ و﴿مزجاة﴾ و﴿ليزلقونك﴾ و﴿وزرك﴾، ولكن التحفظ بذلك إذا كان مجاورها حرفا مهموسا أكد، لئلا يقرب من السين نحو ﴿ما كنزتم﴾.

والسين يعتنى ببيان انفتاحها واستفالها إذا أتى بعدها حرف إطباق لئلا تجذبها قوته فتقلبها صادا نحو ﴿بسطه﴾ - ﴿مسطورا﴾ - ﴿تستطيع﴾ - ﴿أقسط﴾.

ويتحفظ ببيان همسها إذا أتى بعدها غير ذلك نحو (مستقيم) - (مسجد) فربما ضارعت الزاي وهكذا.

والفاء يجب إظهارها مع الباء عند أكثر القراء نحو ﴿نخسف بهم﴾.

والمشافهة هي التي تكشف حقيقة ذلك، والرياضة والدربة تؤديان إليه[٢٧].

---

(٢٧) ابن الجزري، النشر ١/٢١٨-٢٢٤ بتصرف.

ثانيا: تنوع القراءات والتأليف فيها والاحتجاج لها وصلة ذلك بالأحرف السبعة

مع اختلاف اللهجات داخل الجزيرة العربية، واختلاف اللغات خارجها تنوعت القراءات وتعددت.

والمعروف أن المصاحف التى كتبها عثمان - رضى الله عنه - أرسل بها إلى الأمصار، وقرأ كل مصر بما فى مصحفهم، وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه من (فى) رسول الله ﷺ، ووجد فى تلك الأمصار - فيما بعد - من يقوم فى أمر القراءة مقام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

وقد قام بذلك كثير منهم فى الأمصار الإسلامية كالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام(٢٨).

ثم برز أعلام للقراءة تجردوا للأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية، حتى صاروا فى ذلك أئمة يقتدى بهم، ويرجع إليهم، ويؤخذ عنهم(٢٩) وربما كان عددهم كثيرا إلا أن الذين اشتهروا منهم فى نهاية القرن الثانى الهجرى سبعة عرفوا بالعدالة والضبط والإتقان، وهم: عبد الله بن كثير(٣٠) وكان بمكة، ونافع بن عبد الرحمن(٣١) وكان بالمدينة، وعبد الله ابن عامر(٣٢) وكان بالشام، وأبو عمرو بن العلاء(٣٣) ويعقوب بن إسحاق الحضرمى(٣٤) وكانا بالبصرة، وحمزة بن حبيب الزيات(٣٥) وعاصم بن أبى النجود(٣٦) وكانا بالكوفة.

ثم جاء ابن مجاهد(٣٧) فسبع السبعة وشذذ ما عداها، وكانت كتبه التى ألفها فى القراءات محورا لدراسات كثيرة فى القراءات، وتوالت مؤلفات العلماء فى القراءات والاحتجاج لها(٣٨).

وفى غضون كتب النحو والتفسير نجد احتجاجا للقراءات ككتاب سيبويه، والبحر المحيط لأبى حيان وغيرهما.

---

(٢٨) المصدر السابق ١/ ٩. (٢٩) المصدر السابق ١/ ٨.

(٣٠) ت ١٢٠ هـ. (٣١) ت ١٦٩ هـ. (٣٢) ت١١٨ هـ.

(٣٣) ت١٥٤ هـ. (٣٤) ت ٢٠٥ هـ. (٣٥) ت ١٥٦ هـ.

(٣٦) ت ١٢٧ هـ. (٣٧) ت ٣٢٤ هـ.

(٣٨) يقصد بالاحتجاج هنا بيان سبب اختيار القراءة أو بيان قوتها أو ضعفها وتوجيهها.

أ- تفسير الحديث المشهور فى إنزال القرآن على سبعة أحرف.

الواقع أن الاحتجاج للقراءات ينبغى أن يقوم على أساس اللهجات العربية، فهى تمثل القسم الأعظم من هذه القراءات.

ولتوضيح ذلك نسوق الحديث المشهور فى هذا الصدد، ونورد الآراء فى تفسيره، ونرجح ما نميل إليه بما يؤيد هذا الرأى الذى يجعل اللهجات أساسا للقراءات القرآنية.

فقد «روى أن أبى بن كعب - رضى الله عنه - قال: دخلت المسجد أصلى، فدخل رجل فافتتح النحل، فقرأ فخالفنى فى القراءة، فلما انفتل من صلاته قلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، ثم جاء رجل فقام يصلى، فقرأ وافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى، فلما انفتل من صلاته قلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، قال: فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، فأخذت بأيديهما فانطلقت بهما إلى النبى ﷺ فقلت: استقرئ هذين فاستقرأ أحدهما وقال: أحسنت، فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، ثم استقرأ الآخر وقال: أحسنت، فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كنت فى الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ صدرى بيده وقال: أعيذك بالله يا أبى من الشك، ثم قال: إن جبريل عليه السلام أتانى فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين، فقلت اللهم خفف عن أمتى، ثم عاد فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف»(٣٩).

وقد اضطربت أقوال العلماء فى تأويل هذا الحديث وتفسيره، وبيان الأوجه السبعة التى نزل عليها القرآن وزادها السيوطى تفصيلا فى كتابه (الإتقان).

ومن ذلك ما ذهب إليه ابن قتيبة والرازى والباقلانى، وابن الجزرى من أن المراد من الحرف: الوجه وبالأحرف السبعة: أوجه سبعة من الاختلاف لا تخرج عنها هى:

١- الاختلاف فى الحركات بلا تغير فى المعنى أو الصورة نحو ﴿قرح﴾(٤٠) - بضم القاف وفتحها - و﴿البخل﴾(٤١) بضم الباء مع سكون الخاء، وبفتح الباء مع سكون الخاء أو فتحها.

---

(٣٩) صحيح مسلم ٦/ ١٠١ - ١٠٤ والنسائى ١/ ١٤٩، ١٥٠ والبخارى ١٩/ ٢٠، ٢١ والنشر ١/ ٢٠.

(٤٠) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

(٤١) الآية ٣٧ من سورة النساء.

٢- اختلاف الحركات مع تغير فى المعنى فقط نحو ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٤٢] - القراءة المشهورة بضم الهمزة وتشديد الميم - أى مدة طويلة، وقرئ: بعد أمه بفتح الهمزة والميم المخففة وهاء - بمعنى النسيان.

٣- اختلاف الحروف بتغير فى المعنى لا الصورة نحو ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[٤٣]، قرأها حمزة والكسائى بتاءين من (التلاوة) أو (التلو)، قال الأخفش: تتلو من التلاوة أى تقرأ كل نفس ما أسلفت، وقال آخرون: تتبع أى تتبع كل نفس ما أسلفت[٤٤].

والقراءة المشهور بالتاء والباء أى تختبر كل نفس ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن، أنافع أم ضار، أمقبول أم مردود، كما يتعرف الرجل الشيء باختباره.

٤- اختلاف الحروف بتغير فى الصورة لا المعنى نحو ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[٤٥] رسمت بالصاد وقرئت بالصاد والسين.

٥- اختلاف الحروف مع تغير الصورة والمعنى نحو ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٤٦] قرئ: (فامضوا إلى ذكر الله).

٦- الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[٤٧]. قرأ أبو بكر وابن مسعود (وجاءت سكرة الحق بالموت).

٧- الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[٤٨] قرئ (وأوصى بها)[٤٩].

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالأوجه السبعة القراءات السبع، وهذا وهم ربما نشأ عن اختيار ابن مجاهد سبع قراءات فقط فأشكل ذلك على العامة، ووهم من قل نظره أن هذه القراءات السبع هى المقصودة فى الحديث النبوى[٥٠].

---

(٤٢) الآية ٤٥ من سورة يوسف.

(٤٣) الآية ٣٠ من سورة يونس وابن الجزرى: النشر ٢/ ٢٨٣.

(٤٤) أبو زرعة: حجة القراءات ص ٣٣١.

(٤٥) الآية ٦٩ من سورة الأعراف. (٤٦) الآية ٩ من سورة الجمعة.

(٤٧) الآية ١٩ من سورة ق. (٤٨) الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

(٤٩) يلاحظ أن قراءة (وادكر بعد أمه) بفتح الهمزة والميم وهاء مكسوره منونة وقراءة (وجاءت سكرة الحق بالموت) وقراءة (فامضوا إلى ذكر الله) من القراءات الشاذة التى ليست قرآنا فلا تحل القراءة بها. وانظر الأوجه السبعة المذكورة فى النشر ١/ ٢٦.

(٥٠) ابن الجزرى: النشر ١/ ٣٦، ٣٧ بتصرف.

ولعل هذا التفسير مبنى على الموافقة فى العدد (سبع) مع أن ذلك خلط بيّن، لأن القراءات السبع هى تلك الصفات التى وردت عليها القراءات النموذجية التى نسبت إلى أشهر القبائل العربية، واشتهرت فى العصور الإسلامية الأولى، ولا شك أن هناك الكثير غيرها من الوجوه التى تنسب إلى القبائل العربية الأخرى لم تدون فى كتب القراءات، أو دونت ولكنها لم تأخذ الاهتمام بمثل ما أخذته تلك المشهورات، ولذلك فإننا نجد بعض العلماء يذكر أن القراءات عشر أو أربع عشرة.

«ويقول الشيخ الإمام المجتهد أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية - رحمه الله-:

لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة التى ذكر النبى ﷺ أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التى أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده، واعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبع هى الحروف السبعة أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهذا قال بعض من قال من أئمة القراء: لولا أن ابن مجاهد سبقنى إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمى إمام جامع البصرة، وإمام قراء البصرة فى زمانه فى رأس المائتين، ثم قال العلامة ابن تيمية: ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبعون من السلف والأئمة فى أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة فى جميع أمصار المسلمين، بل من ثبتت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة، أو قراءة يعقوب الحضرمى ونحوهما كما ثبتت عنده قراءة حمزة والكسائى فله أن يقرأ بها، بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الإجماع والخلاف.

بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبى جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح المدنيين، وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب وغيرهم على قراءة حمزة والكسائى، وللعلماء الأئمة فى ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء، ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة والأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون فى ذلك الكتب، ويقرأونه فى الصلاة، وخارج الصلاة، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم»[٥١].

فليس المراد - إذًا - بالأحرف السبعة تلك القراءات السبع وذلك باتفاق علماء السلف والخلف[٥٢].

---

(٥١) ابن الجزرى، النشر ١/ ٣٩، ٤٠.

(٥٢) المصدر السابق ١/ ٤٠.

ويبدو أن المراد بالسبع أوسع مما هو مدون فى كتب القراءات عن السبع المعروفة، وليس معنى الاتفاق فى لفظ العدد (سبع) أنها سبعة أوجه على التحديد، فلفظ (سبع) فى الحديث لا مفهوم له، فهو يعنى الكثرة المطلقة، لأن هذا العدد يدل على الكثرة فى اللغات السامية. يقول ابن الجزرى:

«ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد السعة والتيسير، وأنه لا حرج عليهم فى قراءته بما هو من لغات العرب من حيث إن الله تعالى أذن لهم فى ذلك، والعرب يطلقون لفظ (السبعين والسبعمائة) ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة، والمبالغة من غير حصر، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ﴾(٥٣) وقال: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(٥٤) وقال ﷺ فى الحسنة: **(إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة)**(٥٥).

ولذا فإننا نلاحظ أن القراءات أوسع من هذه السبع المعروفة فى كتب القراءات، وهناك قراءات كثيرة وصفت - أحيانا - بالشذوذ لعدم تواترها أو لعدم توافر شروط الصحة فيها حسب ما يذكره المحققون للقراءات، وفى كتاب المحتسب لابن جنى كثير من تلك القراءات التى حاول وصلها بالعربية.

ويرى أكثر العلماء أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات أو لهجات وهى - فيما رأى بعضهم - قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن، وقيل غير ذلك. وفسر ذلك بعضهم بأن أصول قبائل العرب تنتهى إلى سبعة، أو أن اللغات (اللهجات) الفصحى سبع لا أقل ولا أكثر(٥٦).

وتحديد العدد بسبع فقط تعسف، فالواضح أن العدد لا مفهوم له على ما ذكرنا، والمراد السعة والتيسير كما يذكر ابن الجزرى.

فاللغة عادة اجتماعية من الصعب التنازل عنها، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وقد تستعصى على القارئ بعض النواحى الصوتية التى لا تتوافر فى لهجته، فجاء هذا الحديث ليؤكد صحة القراءة حسب لهجة القارئ، على ما تعود لسانه فى بيته.

ونحن نعلم أن القبائل العربية كثيرة، وبيئاتها مختلفة، وطرائق النطق عندهم متفاوتة، فأتيح لكل منهم أن يقرأ بطريقته الخاصة، وأن يؤدى النطق على ما تعود، يقول ابن الجزرى:

(وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أومن حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم

---

(٥٣) الآية ٢٦١ من سورة البقرة. (٥٤) الآية ٨٠ من سورة التوبة.

(٥٥) ابن الجزرى: النشر ١/ ٣٦. (٥٦) ابن الجزرى: النشر ١/ ٢٤، ٢٥.



لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج، لاسيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتابا كما أشار إليه ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع(٥٧)، فالواضح أن المراد بالأوجه السبعة هنا اللهجات العربية المتعددة ولا يطلب تكلف الخروج عليها.

وبهذا يتضح أن القراءات القرآنية لها صلة قوية باللهجات العربية وفقا لشرحنا للحديث المشهور **(أنزل القرآن على سبعة أحرف)**.

ب- تدوين القرآن فى المصاحف وعلاقة ذلك بالأحرف السبعة:

ويقتضينا المقام أن نبين أمر تدوين القرآن فى المصاحف وعلاقة ذلك بالأحرف السبعة، وما تتضمنه من اللهجات، وعلاقة القراءات التى بين أيدينا اليوم بذلك أيضا.

وهنا نقول:

يذهب بعض العلماء من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية - التى كتبت على يد عثمان رضى الله عنه وأرسلت إلى الأمصار الإسلامية - تضم جميع الأحرف السبعة بما ذكر لها من تفسيرات، إذ يدعو الحديث المشار إليه آنفا إلى حفاظ الأمة على تلك الأوجه، لأنها منقولة مأثورة عن النبى ﷺ، وقد تناقلتها الصحابة، وأن تلك المصاحف التى أرسلت إلى الأمصار نقلت من الصحف التى كتبها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، ولو ترك شيء من هذه الأوجه لكان تركا لبعض الوجوه المروية التى نزل عليها كتاب الله العزيز(٥٨).

ولعل المراد بالسبعة عند هؤلاء - وهو ما لا نراه مرادا - من أنها سبعة أوجه لغوية أو سبع لهجات، لعل ذلك هو الذى سوغ لهم هذا الرأى.

أما على ما نراه من أن الأوجه السبعة يقصد بها اللهجات العربية - لأن العدد لا مفهوم له - على ذلك فإن اعتبار المصاحف العثمانية مشتملة عليها جميعا اعتبار غير مقبول، إذ إن اللهجات كثيرة إلى حد غير محتمل التحقيق فى كتاب الله العزيز بتلك الصورة الواسعة.

فالقرآن ليس كتابا أعد للمبارات باللهجات، وإنما يضم الفصيح الواسع الانتشار منها.

ولعل الرسم الخطى فى تلك المصاحف يؤكد ما نذهب إليه؛ فالكتابة العثمانية التى

---

(٥٧) المصدر السابق ١/ ٢٢.

(٥٨) ابن الجزرى: النشر ١/ ٣١ بتصرف.

دونت بها تلك المصاحف تشتمل على صور لهجية يمكن تمثيلها بالنطق المنقول على لسان القراء.

ولذا فالرأى الدقيق والمعقول هو أن المصاحف العثمانية تشتمل على بعض الأوجه السبعة دون بعض، وهو ما نفسره عمليا ببعض اللهجات العربية دون البعض الآخر، والمعروف أن جبريل - عليه السلام - كان يأتى إلى النبى ﷺ فيدارسه القرآن، ويروى أن النبى ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل كل عام مرة، وعرضه فى عامه الذى قبض فيه مرتين، وفى تلك العرضات كانت بعض الآيات تتناول بالنسخ أو التبديل، حتى استقر الأمر على ما كتبت عليه صورته الأخيرة التى ضمتها المصاحف العثمانية.

وإذًا فهذه المصاحف تتضمن ما عرضه النبى ﷺ فى العرض الأخير، وما تحققت صحته عنه ﷺ مما لم ينسخ(٥٩).

فمثلا: أسلوب الإمالة والفتح مما اختلفت فيه قبائل العرب. والإمالة، هى أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، فتميل الألف إن كان بعدها ألف نحو الياء، وإلا فالممال الفتحة وحدها مثل: الفتى، والهدى، وملهى، وأرطى، وباع، وهاب، وعالم، وكاتب، والضحى، ورأيت خبط رياح، ومن عمرو، ونعمة(٦٠).

وقد اشتهرت الإمالة عند قبائل شرقى الجزيرة ووسطها، مثل: أسد، وعبد القيس، وتميم، وتغلب، وطيئ وبكر بن وائل.

كما اشتهرت على ألسنة قراء الكوفة بالعراق فى القرن الثانى الهجرى أمثال حمزة والكسائى وخلف، كما كان لها تأثير واضح أيضا على ألسنة علماء الكوفة، وأهلها، واستمر ذلك حتى عصر أبى عمرو الدانى فى القرن الخامس الهجرى، حيث قال: (إن الكسائى يعنى بذلك(٦١) أن الإمالة لغة أهل الكوفة وهى باقية فيهم إلى الآن، وهم بقية أبناء العرب)(٦٢).

أما الفتح فاشتهر عند قبائل غربى الجزيرة من سكان الحجاز كقريش وثقيف وسعد ابن بكر والأنصار وكنانة وهوازن.

---

(٥٩) ابن الجزرى: النشر ١/ ٨، ١٤، ٢١، ٣٢.

(٦٠) ابن جنى، سر الصناعة ١/ ٥٨ والأشمونى ٤/ ٢٢٠ وابن هشام: أوضح المسالك مع المنار ٢/ ٣٠٠، وابن الجزرى: النشر ٢/ ٣٠.

(٦١) الإشارة إلى إمالة ما قبل هاء التأنيث. (٦٢) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٨٢.

واشتهر الفتح عند قراء الحجاز كنافع وأبى جعفر من قراء المدينة وابن كثير من قراء مكة.

وهذا الأسلوب - بطريقتيه - واضح فى خط المصاحف العثمانية فقد كتب فيها بالياء نحو: هدى والهدى ويحيى وموسى ويغشيها وسويها وجليها وآتيكم... مما يمثل صورة الإمالة، وورد فى خط المصاحف أيضا أمثال هذه المواضع مكتوبة بالألف كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٦٣] ومما يؤكد ذلك كتابة ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ بطريقتى الإمالة والفتح فى موضعين مختلفين، ففى سورة البقرة (الآية ٢٧٣) ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ كتبت بالياء على طريقة الإمالة، وفى سورة الفتح (الآية ٢٩): ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ كتبت بالألف على طريقة الفتح.

ولذلك نظائر كثيرة مما يتوضح فى خط المصاحف العثمانية كالإظهار والإدغام والمد والقصر، والتخفيف، والتشديد، وإبدال أحرف من أخرى.

ولذا فكل ما جاء موافقا لرسم المصحف يعد من الأوجه السبعة التى نزل بها القرآن الكريم إذا صح سنده واستقام وجهه فى العربية[٦٤].

أما ما جاء مخالفا للمصاحف العثمانية فإنه يعد منسوخا أو من قبيل التفسير الذى يكتب مع النص أو خبر آحاد لا يثبت به قرآن[٦٥]، ومن ذلك بعض ما أورده ابن قتيبة ورفاقه فيما ذكرناه فى الوجه الخامس عندهم، كقراءة (فامضوا إلى ذكر الله) بدل ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ والوجه السادس عندهم كقراءة (وجاءت سكرة الحق بالموت) مكان ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾، والوجه كقراءة (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة[٦٦] صالحة) ونحوه مما يعد تفسيرا ألحق بالنص كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه مما سبق.

جـ - القراءات وتمثيلها للأوجه السبعة:

ونحب أن نشير فى هذا الصدد إلى القراءات التى بين أيدينا اليوم من حيث تمثيلها للأوجه السبعة أو بعضها، والقول الفصل فى هذا الموضوع ينبنى على ما ذكرناه من أن المصاحف العثمانية تشتمل على بعض الأوجه السبعة، وهى التى وافقت الرسم الذى

---

(٦٣) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم. (٦٤) ابن الجزرى: النشر ١/ ٣١، ٤٤.

(٦٥) ابن الجزرى: النشر ١/ ٣٢، وانظر: الأستاذ عبد الوهاب حمودة: القراءات واللهجات ص٤٣.

(٦٦) الآية ٧٩ من سورة الكهف.

جاءت عليه تلك المصاحف، وأما ما عدا ذلك فيعد منسوخا أو خبر آحاد، فالقراءات تجرى على هذا المنوال.

والقراءات ليست على درجة واحدة، فمنها المقبول والمردود وقد وضع العلماء قواعد لذلك:

فتعد القراءة صحيحة إذا توافرت لها ثلاثة عناصر:

١- أن توافق القراءة العربية ولو بوجه كقراءة ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئْكُمْ ﴾(٦٧) - بإسكان همزة بارئكم - على لهجة تميم وأسد الذين يحذفون بعض الحركات عند تواليها، وكقراءة أبى جعفر ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا ﴾(٦٨) - بضم تاء الملائكة مع أنها مجرورة - تبعا لضمة الجيم بعدها، إذ الحاجز غير حصين وهو السين الساكنة.

٢- أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا كأن يثبت رسمها فى بعضها دون البعض الآخر كقراءة ابن عامر (وبالزبر وبالكتاب المنير) فى سورة آل عمران(٦٩) بإثبات الباء فى (الزبر) و(الكتاب) فهذا موجود فى مصحف الشام، وكقراءة ابن كثير ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فى آخر سورة براءة(٧٠) - بزيادة (من) فهذا ثابت فى المصحف المكى، والمراد بكلمة (ولو احتمالا) أن يوافقها تقديرا، وذلك كمخالفة صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك فلا يعد خلافا إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة مستفاضة ألا ترى أنهم لم يعدوا إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء (تسئلنى) فى الكهف(٧١) وقراءة(وَأَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ)(٧٢) والظاء من (بِضَنِينٍ)(٧٣) ونحو ذلك من مخالفة الرسم المردود فإن الخلاف فى ذلك يغتفر إذ هو قريب يرجع إلى معنى واحد، وذلك بخلاف زيادة كلمة ونقص أخرى وتقديمها أو تأخيرها حتى ولو كانت حرفا واحدا من حروف المعانى فإن حكمه فى حكم الكلمة لا يسوغ مخالفة الرسم فيه(٧٤).

---

(٦٧) الآية ٥٤ من سورة البقرة.
(٦٨) الآية ٣٤ من سورة البقرة.
(٦٩) الآية ١٨٤.
(٧٠) الآية ١٠٠.
(٧١) الآية ٧٠.
(٧٢) المنافقون الآية ١٠.
(٧٣) الآية ٢٤ من سورة التكوير.
(٧٤) ابن الجزرى: النشر ١/ ١٢، ١٣.

٣- أن يصح سندها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعنى (صحة السند) أن يرويها العدل الضابط عن مثله (كذا) حتى تنتهى مع الشهرة.

يقول ابن الجزرى فى ذلك:

(كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحتمل إنكارها، والمراد بالوجه ما كان من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا، مجمعا عليه أو مختلفا فيه، اختلافا لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، وأئمة القراءة لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة، والأقيس فى العربية، بل على الأثبت فى الأثر، والأصح فى النقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة»[٧٥].

وعلى هذا فما روى من قراءات فى القرآن ثلاثة أقسام:

١- قسم يقرأ به اليوم: وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهن: أن ينقل عن الثقات عن النبى ﷺ، ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغا ويكون موافقا لخط المصحف.

٢- القسم الثانى: ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه فى العربية، وخالف لفظ خط المصحف، فهذا يقبل ولا يقرأ به، لا فى الصلاة ولا فى غيرها.

٣- والقسم الثالث: ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له فى العربية، فهذا لا يقبل، وإن وافق خط المصحف[٧٦].

وعلى هذا فالقراءات التى بين أيدينا تمثل بعض الأوجه السبعة، وهى تلك التى توافق خط مصاحف الأمصار سوى ما وقع فيه الخلاف من الحروف اليسيرة أما ما عدا ذلك فلا يدخل فى الأحرف السبعة ولا يمثلها مما أشرنا إلى أنه من المنسوخ أو مما ألحق بالنص، مما يعد تفسيرا له.

فلا ريب أن القراءات الصحيحة لا تمثل - كما قلنا - كل لهجات العرب - التى تفسر بها الأوجه السبعة - بل تمثل بعضها، وذلك ما أكدته النصوص القرآنية والرسم العثمانى الذى وردت عليه.

---

(٧٥) ابن الجزرى: النشر ١/ ٩-١١ بتصرف. (٧٦) المصدر السابق ١/ ١٤، ٤٤.

ثالثا: منهج اللغويين والنحاة فى معالجة القراءات والأساس الصحيح لتفسيرها

وتدفعنا النتائج التى توصلنا إليها فيما سبق أن نتناول - بالبحث والتحليل - منهج اللغويين والنحاة فى معالجة القراءات القرآنية وموقفهم منها، ونبين أن الأساس الصحيح لتفسيرها يقوم على اعتبار صلتها باللهجات العربية، حيث يثبت عدم وفاء المنهج النحوى بالتفسير المطلوب.

وبين يدى القارئ والباحث المتأمل نذكر أن لكل لغة أنماطا معينة ترسم طريق توليد الصيغ، وارتباط الألفاظ بالمعانى فيها، وليس بمستطاع المتحدث باللغة أن يضع لفظا لكل معنى يرد على خاطره، كما أنه لا يستطيع أن يستعمل صيغة لكل غرض، أو تركيبا لكل حديث.

وإذا كان هذا شأن اللغات - فإن لغتنا العربية بلغت الذروة فى دقتها، وتناسقها، ووضوح طرق استعمالها. فأمام المتحدث بها منهج مرسوم يسير وفقه فى توليد الألفاظ من المواد اللغوية، وقواعد ونظم موروثة فى استعمالها، وتراكيبها اللغوية، فليس عليه إلا أن يسمع ما يقوله العربى، ويسير على منواله.

وهذا هو القياس الذى يؤدى إلى الاقتصاد فى المجهود الذى يتجنب إثقال الذاكرة بمتاع غير مفيد(٧٧) ويحفظ للغة قواعدها وينمى ألفاظها.

وأساس القياس هو المسموع عن العرب وهو يتمثل فى الآتى:

١ - **القرآن الكريم**: فلا ريب أنه يحمل طابع الاستعمالات العربية الأصيلة، وهو موثوق به غاية الثقة، ويعد أقوى النصوص التى يجب اتخاذها أصلا للقياس عليها.

وتعتبر قراءات القرآن الكريم - التى ثبتت صحة روايتها - مصدرا مهما للقياس لأنها تعبر عن لهجات عربية صحيحة.

٢ - **الحديث الشريف**: يعد مصدرا يحتج به فى اللغة، ويقاس على ما ورد من ألفاظه، واستعمالاته؛ لأن الرسول ﷺ أفصح العرب، - كما قال -: **(أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش)**، وقد أوتى جوامع الكلم كما قال عليه الصلاة والسلام.

---

(٧٧) فندريس: اللغة ص ٢٠.

والذى تجدر الإشارة إليه هو عدم اهتمام اللغويين والنحاة بالاستشهاد على الظواهر اللغوية، وقوانينها بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اهتماما واسعا، فالباحث يرى أنهم يأتون بالشواهد من مأثور الكلام شعرا ونثرا، وربما اعتمدوا فى تقعيد قواعدهم على شاهد واحد - كما هو معروف عند الكوفيين - وربما لم يعرف قائله، وقد يكون مصنوعا، فقد أجاز الكوفيون دخول اللام فى خبر (لكن) واستشهدوا بهذا الشطر الذى لا تعرف له تتمة:

ولكننى من حبها لعميد[78]

وورد صريحا أن «سيبويه» سأل اللاحقى: هل تعدى العرب (فَعِلا) - بفتح الفاء وكسر العين - قال: فوضعت له هذا البيت:

حذر أمورا لا تضير وآمن   ما ليس منجيه من الأقدار[79]

ومع ذلك لم يهتموا بالاستشهاد بالقرآن الكريم، وفى القليل يعرجون على نصوص منه، فيستشهدون بآية بدلا من هذا البيت المجهول، أو هذه العبارات السقيمة، أو تلك التراكيب المصنوعة، ولو أنهم استشهدوا بالقرآن لرجعوا إلى النص الصحيح الأقدم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[80].

كذلك جرى جمهور النحاة على عدم الاحتجاج بالحديث الشريف فى تقرير الأحكام العربية، لروايته بالمعنى، وكان الأولى بهم أن يعتبروه حجة فى اللغة، وبخاصة بعد أن دون (وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول حين كان أولئك الرواة الذين يتصرفون فى ألفاظ الحديث - على تقدير تصرفهم - ممن يوثق بهم، ويحتج فى أحكام الألفاظ بعباراتهم)[81].

وقد أدى عدم اهتمام اللغويين والنحاة بهذين المصدرين فى الاحتجاج إلى وجود مشكلات لغوية كثيرة، وتأويلات معقدة، وربما كان من السهل التخلص منها بالرجوع إلى هذين الأثرين اللذين يمثلان اللغة فى صورتها المثالية.

٣- ما ورد إلينا فى اللغة النموذجية، ألفاظا ونصوصا.

---

(٧٨) العينى: شرح شواهد الأشمونى ١/ ٢٨٠.

(٧٩) المصدر السابق ٢/ ٢٩٨ وسيبويه: الكتاب،الأستاذ عبد السلام هرون ١/ ١١٣.

(٨٠) عبد المجيد عابدين: المدخل إلى دراسة النحو العربى فى ضوء اللغات السامية ص٩٦، ٩٧.

(٨١) الإمام محمد الخضر حسين: القياس فى اللغة العربية ص٣٢، ٣٣ بتصرف.

٤- ما ورد من لهجات العرب، فقد جمعت ألفاظ واستعمالات لغوية تنسب إلى قبائل متعددة فى الجزيرة وتعد كلها حجة.

ويعتمد فى ذلك على ألفاظها، وشواهدها نثرا وشعرا.

ويشترط - فيما نقل عن العرب - للقياس عليه أن يكون مما قاله العرب الذين عاشوا خلال فترة الاحتجاج، وقد حددها المجمع اللغوى فى القاهرة بنهاية القرن الرابع الهجرى - فى البادية - وبمنتصف القرن الثانى الهجرى فى الحضر، فلا يحتج بما ورد بعد ذلك فى مكانه بدوا أو حضرا.

والملاحظة ترينا أن سيلا عارما من اللهجات قد ذاب فى الإطار اللغوى العام، وأصبح داخلا فيه، فاللغة النموذجية التى صارت لغة للعرب جميعا قبل الإسلام بحوالى قرن ونصف أو قرنين من الزمان - وإن ادعى بعض الباحثين أنها تتمثل فى لهجة قريش - كانت تحوى عناصر أخرى من لهجات كثيرة غيرها.

وقد ثبت - باعتراف الباحثين - أن لهجة قريش استمدت من اللهجات الأخرى ما رأته حسنا ومقبولا من أصوات، ومفردات وتراكيب.

ولما جاء عصر التقنين اللغوى استنبط علماء العربية القواعد من كل ما وصلوا إليه دون تمييز بين ما هو عام، وما هو خاص، وبذلك صنعوا بناء لغويا متكاملا لم يفرقوا فيه بين ما هو أصلا لغة عامة للعرب، وما هو إحدى اللهجات المنزوية.

وكانت مقاييسهم - فى هذا الصدد - صارمة، وقد فلسفوا لها، وعدوا ما خرج عليها شاذا أو مؤولا.

وكان لهم - فى هذه المقاييس - منهج معروف يتسم بالتحكم العقلى، فهم يدخلون الشواهد (العينات اللغوية) فى بوتقة واحدة، ويصهرونها حتى تلائم ما وضعوه من قواعد مناسبة لها.

وقد طبقوا هذا المنهج على القراءات، وإن كان بعيدا عن السلوك اللغوى للظواهر اللهجية المتمثلة فى القراءات، فقد أدخلوها أو حاولوا إدخالها فى إطار النسق العام للقواعد المستنبطة، وأخضعوها لمقاييسهم.

فنراهم عند الاحتجاج لها يسلكونها فى هذا المسلك، ويؤصلونها بهذا التأصيل، سواء فى المجال الصوتى أو مجال التقنين، ووضع القواعد المعيارية.



ولو وقفنا أمام بعض القراءات لنرى رأيهم فيها لبدا لنا ذلك واضحا فى مجالات متعددة:

أ - المجال الصوتى:

١ - الاختلافات الصوتية وهى - كما تعلم - الظاهرة الواسعة التى تمثل لنا أهم اتجاهات القراءات.

والمعروف أن الأصوات العربية نوعان:

حركات وسواكن أو كما يسميها الباحثون المحدثون: صوائت وصوامت، فالحركات أو الصوائت هي الألف والواو والياء - إذا كانت مدا والحركات القصار: الفتحة والكسرة والضمة، أما السواكن أو الصوامت فهى بقية حروف الهجاء.

ونلاحظ أن بعض القراءات تأخذ صورا متعددة فى هذا الإطار الصوتى بنوعيه، وتبدو كما يلى:

١ - قراءات تفضل حركة معينة: فتحة - كسرة - ضمة.

٢- قراءات تثبت حركة أو تحذف.

٣- قراءات تبدل حرفا من آخر.

٤- قراءات تقرب صوتا من آخر بما يحقق الانسجام والتماثل. ومن خلال عرضنا لبعض القراءات فى هذه المجالات التى أشرنا إليها وتحليلنا لها نبين أن التخريج اللهجى هو السائد وأنه هو الذى تؤيده البراهين العلمية والصوتية قديما وحديثا.

ووفقا للتقسيم المشار إليه نرى أن بعض القراءات يفضل فيها القارئ حركة على أخرى وأحيانا صوتا صامتا على آخر. فتفضيل حركة على أخرى يتمثل فى النطق بفتحة فى موقع معين على حين يفضل قارئ آخر النطق بكسرة أو ضمة.

فمن المفاضلة بين الفتحة والكسرة ما ورد فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[٨٢] قرئ (براء) وقرأ بعضهم (برئ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[٨٣] قرأ الحسن بن هرمز (نعجة) - بكسر النون - وقرأ الباقون بفتحها.

---

(٨٢) الآية ٢٦ من سورة الزخرف. (٨٣) الآية ٢٣ من سورة ص.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾(٨٤) قرأ الجمهور (غلظة) - بكسر الغين- والأعمش، وأبان بن تغلب والمفضل - كلاهما عن عاصم بفتحها.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾(٨٥) قرأ الجمهور (عسيتم) بفتح السين وقرأها نافع بكسر السين وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾(٨٦) بفتح سين عسيتم وكسرها.

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾(٨٧) قرأ (قرن) - بفتح القاف - نافع وعاصم وأبو جعفر، وقرأها الباقون بكسر القاف.

ومن المفاضلة بين الضمة والكسرة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾(٨٨) قرأ (يصدون) - بضم الصاد - نافع وابن عباس والكسائي وأبو جعفر وخلف ووافقهم الحسن والأعمش، وقرأها الباقون بكسر الصاد.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾(٨٩).

قرأ أبو بكر - عن عاصم - (رضوان) بضم الراء هنا، وفي جميع القرآن إلا في سورة المائدة، فقد نقل عنه كسر الراء، وقرأ الباقون بكسر الراء.

وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾(٩٠).

قرأ الجمهور: (شواظ) - بضم الشين - وقرأها ابن كثير والحسن وابن محيصن والأعمش - بكسر الشين.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾(٩١) قرئ (العدوة) بضم العين وكسرها.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾(٩٢) نسب إلى الكسائي ضم الميم

---

(٨٤) الآية ١٢٣ من سورة التوبة.
(٨٥) الآية ٢٢ من سورة محمد.
(٨٦) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.
(٨٧) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.
(٨٨) الآية ٥٧ من سورة الزخرف.
(٨٩) الآية ٨ من سورة الحشر.
(٩٠) الآية ٣٥ من سورة الرحمن.
(٩١) الآية ٢٤ من سورة الأنفال.
(٩٢) الآيتان ٥٦، ٧٤ من سورة الرحمن.

من (يطمثهن) – فى الآيتين – ونسب كذلك إلى أبى الحارث، ومعظم القراء بكسر الميم وقرأ أبو هريرة ﴿وَيَوْمَ نَحْشِرُهُمْ جَمِيعًا﴾[٩٣] بكسر الشين.

ولو راجعنا تحليل هذه القراءات فى كتب اللغة لوجدنا النظرة إليها من خلال القوانين المعيارية، والتفسيرات النحوية والصرفية، وكأن المسألة لا تعدو أن تكون نطقا صادرا عن اختيار القارئ، وعلى أساس من علمه بالقوانين اللغوية، وليس منبعثا عن الفطرة، والسليقة وما تقتضيه البيئة التى عاش فيها.

فالفراء – وغيره – يحللون قراءة الفتح فى (براء) على أن الكلمة مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنت، والمفرد وغيره، فلا يؤنث، ولا يثنى، ولا يجمع كالمصادر فى الغالب، أما (برىء) فهو مفرد، وهو مؤنث، ويثنى ويجمع.

وقراءة ﴿عَسِيتُم﴾ بكسر السين يعرضها الفراء وغيره على مقاييس معيارية بعيدة عما يقتضيه المقام من النظر إلى القراءات فى ظلال صحة الرواية والنقل، ولذا نرى الفراء يشك فى صحة القراءة بالكسر، ويقول: لو كان كذلك لقال (عسى) – بكسر السين – فى موضع (عسى) بفتحها –، وبناء على ذلك اتهم العرب بأنهم غيروا ما لا يصح تغييره، وعلى حد قوله: (ربما اجترأ العرب على تغيير بعض اللغة، كما قالوا: لستم – بضم اللام، يريدون، لستم – بفتحها، لأنه فعل لا يتصرف ليس له (يفعل)، وكذلك (عسى) ليس له (يفعل) فلعله أجترئ على (عسى) كما اجترئ على (لستم)[٩٤].

ومع ذلك يعد كسر السين لهجة نادرة.

ويوافقه أبو عبيد الذى يقول: (القراءة عندنا هى الفتح لأنها أعرف اللغتين، ولو كان لستم لقرئت (عسى ربنا) وما اختلفوا فى هذا الحرف)[٩٥].

فلم يقم هذا التحليل على أساس لهجى أو علمى بقدر ما هو قائم على أساس قواعد مرسومة فى الذهن لا ينبغى وفق رأى الفراء ألا تتعدى، ومن هذا المنطق يتهم الفراء العرب بالجرأة على التغيير، وكأن ذلك إجراء من غير موجب، ومن غير من يملك التصرف اللغوى، مع أنه صادر من العرب أصحاب اللغة الذين يعد كلامهم حجة.

وقراءة (قرن) – بفتح القاف أوكسرها – يحللها الفراء فى ضوء القواعد الصرفية

---

(٩٣) الأنعام: ٢٢.

(٩٤) البحر ٤/ ٩٤.

(٩٥) حجة القراءات لأبى زرعة ص ١٣٩، ١٤٠.

المألوفة، فالقراءة بالفتح أصلها (اقررن) - بفتح الراء الأولى وسكون الثانية وهى مأخوذة من (قر يقر) - بكسر الراء الأولى فى الماضى، وفتحها فى المضارع، وقراءة كسر القاف أصلها (اقررن) - بكسر الراء الأولى وسكون الثانية- وهى مأخوذة من (قر) بفتح الراء الأولى فى الماضى، وكسرها فى المضارع.

ويجوز أن تكون مأخوذة من الوقار، تقول للرجل: قد وقر فى منزله يقر - بفتح القاف فى الماضى وكسرها فى المضارع - وقورا.

وفى قراءة (يصدون) بضم الصاد - و(يصدون) - بكسرها - يذكر الفراء أن العرب تقول: يصد بضم الصاد وكسرها، مثل يشد - بضم الشين وكسرها - وكأن المسألة لا تتعدى جواز الأمرين معا عند العرب لا أنهما لهجتان لطائفتين مختلفتين بحيث كانت كل طائفة من القبائل الناطقة لا تستعمل النطق الخاص بصاحبتها إلا على سبيل العدوى اللغوية، ومعروف أن العربى كان يتمسك بلهجته لا يفارقها تعصبا لها فى معظم الأحيان كما تثبت كتب اللغة ذلك.

وقد حاول بعضهم أن يوجد فرقا فى المعنى بين (يصدون) بضم الصاد وكسرها فمعناها بضم الصاد يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل، ومعناها - بكسر الصاد - يصيحون وترتفع لهم حمية بضرب المثل[٩٦].

والواقع أنهما لغتان (لهجتان).

وأغرب من هذا أن بعضهم فسر القراءتين فى (رضوان) - بكسر الراء وبضمها - على أنه للتفريق بين الاسم والمصدر، وذلك أن اسم خازن الجنة (رضوان) - بكسر الراء - كذا جاء فى الحديث، (ورضوان) بضم الراء - مصدر (رضى، يرضى رضا ومرضاة ورضوانا) - بضم الراء فى (رضوان) ففرق بين الاسم والمصدر[٩٧].

ونحن نسأل: كيف يكون المعنى مقبولا فى الآية على قراءة الكسر اعتمادا على أساس هذا التفريق؟ الواقع أن ذلك لا يمكن قبوله فى تفسير الكسر والضم.

والأولى أن يؤخذ باعتبار كل منهما لهجة، والكلمة مصدر وردت بلغتين معروفتين، فالمصدر يأتى - وفقا لهما - مرة على (فعلان) - بكسر الفاء - ومرة أخرى على (فعلان) - بضم الفاء - من الفعل رضى[٩٨].

---

(٩٦) البحر ٨/ ٢٥. (٩٧) حجة القراءات لأبى زرعة ص ١٥٧.

(٩٨) المصدر السابق ص١٥٧.

ويفسر الفراء قراءة (شواظ) بضم الشين - و(شواظ) بكسرها على جواز النطق بالوجهين، فالعرب تقول: صوار بكسر الصاد وضمها، وهو فى هذا التحليل يجرى فى فلك معيارى قياسى، فكما نقول هذا وذاك بجوز النطق بهما معا، والقارئ يتمثل الوارد فى ذلك.

وقراءتا ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ - بضم الميم تارة وكسرها تارة أخرى - يعتبرهما الفراء من الأمور الجائزة، فضم الميم أو كسرها وارد عن العرب، والقارئ الذى قرأ الكلمة بضم الميم قرأها كذلك بكسرها، وكأن القضية ليست قضية رواية، وتدقيق فى التثبت فيهما بقدر إرادته أن يطبق عليها ما عرفه من قواعد، فطالما أنه سمع من العرب الضم والكسر فالقارئ أراد أن يتمثل الناحيتين معا، فنطق الكلمة بالكسر والضم وكأن القارئ ليس أكثر من مقلد لا أنه عربى ينطق بفطرته.

والواقع أن القضية ليست معيارية بهذا المعنى، وأن التحليل الأصيل يجرى فى فلك لهجى، إذ إن الناطقين العرب - فى المناطق المختلفة - كانت لهم أحوالهم المكانية والزمانية والاجتماعية التى كانت تجعلهم يتجهون اتجاهات نطقية مناسبة لطبيعة البيئة التى يعيشون فيها، فتفضيل حركة على أخرى ليس أمرا مشتركا بين جميع العرب، بل إن من يفضل الفتح فى موضع معين لا ينطق بالكسر فيه، ومن يفضل الضم لا يستعمل الكسر كذلك، وليست المسألة فوضى يستعمل كل واحد ما يستعمل الآخر، وهذا واضح فى دراسة الفصحى والعاميات على سواء.

ولذا فإن المتأمل فى كتب اللغة والقراءات يلمح ما يهديه إلى التحليل الصحيح، ففى بعضها ينسب الفتح أو الكسر أو الضم أحيانا إلى بعض قبائل العرب، وقد تشير بعض تلك الكتب إلى أن هذا النطق أو ذاك من اللغات (اللهجات) ويلاحظ أن الضم نسب للقبائل البدوية كتميم وأسد وأهل البادية من العالية ونجد، أما الفتح أو الكسر فهو لهجة أيضا للقبائل الحضرية من أهل الحجاز.

وهذا الذى تنقله تلك الكتب تؤيده قوانين علم الأصوات الحديث كما ذكرنا من قبل فى حديثنا عن تبادل الحركات لا اللهجات العربية.

ولعلنا لو تأملنا قراءة ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، نجد كيف يدور التحليل القديم فى إطار معيارى، والصواب أن توجه فى إطار لهجى.

قرئ (بمصرخى) بفتح ياء المتكلم، وقد كسرها حمزة والأعمش ويحيى بن وثاب، وحمدان بن أعين، وجماعة من التابعين.

وأهل النحو يلحنون من قرأها بالكسر - حمزة ومن معه - قالوا: وذلك أن ياء الإضافة (أى ياء المتكلم) إذا لم يكن قبلها ساكن حركت إلى الفتح، تقول: هذا غلامى قد جاء - بفتح ياء المتكلم - وذلك أن الاسم المضمر لما كان على حرف واحد، وقد منع الإعراب حرك بأخف الحركات، كما تقول:هو قام ويجوز إسكان الياء، لثقل الياء التى قبلها كسرة، فإذا كان قبل الياء ساكن حركت - إلى الفتح لا غير مثل هداى ومحياى لأن أصلها أن تحرك ولا ساكن قبلها فإذا كان قبلها ساكن صارت حركتها لازمة لالتقاء الساكنين فتقول: (ما أنتم بمصرخى) بالفتح(٩٩).

وكغيره من النحاة نقل الفراء القراءتين فى (مصرخى) بالفتح والكسر، وسوغ قراءة الفتح بأن ياء المتكلم يجوز أن تسكن إذا تحرك ما قبلها مثل كتابى وغلامى، فإذا سكن ما قبلها ردت إلى الفتح الذى كان لها مثل هداى ومحياى، والياء من (مصرخى) ساكنة، وياء المتكلم بعدها ساكنة فحركت بحركة قد كانت لها، فهذا مطرد فى الكلام، والياء المدغم فيها تفتح أبدا.

وبناء على هذه القاعدة المعيارية لاحظنا أنه نظر إلى قراءة كسر الياء على أنها خارجة عن القاعدة، وعدها وهما - على حد تعبيره - يقول: (ولعلها من وهم القراء طبقة يحيى، فإنه قل من سلم منهم من الوهم، ولعله ظن أن الباء فى (بمصرخى) خافضة للحرف كله، والياء من المتكلم خارجة من ذلك).

وقد حاول بعض النحويين أن يوجهها - كذلك - فى إطار القواعد فقال: إن الياء حركت بالكسرة للتخلص من التقاء الساكنين، وأصله: (بمصرخين) حذفت النون للإضافة فالتقى ساكنان ياء الإعراب، وياء الإضافة - وهى ياء المتكلم - وأصلها السكون، فكسرت للتخلص من الساكنين.

وقال أبو زرعة: وأما حمزة فليس لاحنا عند الحذاق، لأن الياء حركتها حركة بناء، لا حركة إعراب، والعرب تكسر لالتقاء الساكنين كما تفتح(١٠٠).

ولعل هؤلاء النحاة قد تناسوا اللهجات العربية، وأنها تخضع للبيئات، وأن القواعد التى وضعوها قد صيغت - أحيانا - بعيدة عن المنهج الذى ينبغى اتباعه، واتجهت إلى غير

---

(٩٩) حجة القراءات لأبى زرعة ص ٣٧٧. (١٠٠) حجة القراءات ص ٣٧٧، ٣٧٨.

الواقع، فنطق ياء المتكلم مكسورة هنا لهجة لبعض العرب، وهم بنو يربوع، وإذا ثبتت صحة القراءة، وكان لها سند لهجي لا يجوز الطعن فيها، وهذه القراءة بكسر الياء متواترة صحيحة، فالطاعن فيها غالط، والنفي لسماعها لا يدل على عدمها، فمن سمعها مقدم عليه إذ هو مثبت.

فإذا انتقلنا إلى مجال آخر وهو حذف الحركات وإثباتها وجدنا أن بعض القراء يثبت حركة معينة في مكان معين على حين أن غيره يحذفها.

فقد ورد في بعض القراءات حذف الفتحة والألف، كما نقل حذف الضمة أيضا إذا توالت الحركات.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾، قرأ (قال سلام) - بسين مفتوحة وألف جمهور القراء نافع وابن كثير، وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف، وقرأ (قال سلم) بسين مكسورة وبلا ألف - يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي وحمزة والكسائي، وذكر عن النبي ﷺ أنه قرأ بها.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ قرأ الجمهور (وحرام) - بفتح الحاء والراء والألف - وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش و(حرم) بكسر الحاء وسكون الراء بلا ألف.

وكان تحليل بعض اللغويين للقراءات هنا معياريا أيضا، فقراءتا حذف الألف في سلام وحرام أو ذكرها - في رأي الفراء - جائزتان وواردتان عن العرب، فيقال: حل وحلال وحرم وحرام، لأن التفسير جاء (سلموا عليه فر وعليهم) فمعنى سلم وسلام وحرم وحرام واحد، وأشار الفراء - مع ذلك - إلى أن كلا الاستعمالين لهجة عربية، فالقراءة بذكر الألف لأهل المدينة، وهي الأفشى، وكان الأنسب والأجدر به أن يقرر أن الأمر ليس على سبيل الجواز بهذه الصورة الواسعة، بل إنه محدود في إطار النطق الذي يلهج به فريق من العرب دون آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(١٠١) قرأ نافع وابن عامر (قيما) بغير ألف، وقرأ الباقون (قياما) بألف. فالواضح في هاتين القراءتين الاتجاه اللهجي، فقيما وقياما لهجتان والمعنى واحد، وهو ما يقيم شأن الناس ويعيشهم(١٠٢).

---

(١٠١) الآية ٥ من سورة النساء.

(١٠٢) حجة القراءات ص ١٩٠، ١٩١.

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾[١٠٣] قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو (أكلها) بسكون الكاف، وقرأ الباقون بضم الكاف.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾[١٠٤] وقرأ (أكل) بضم الكاف ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وأبو جعفر، والأعمش وخلف، وأبو عمرو ويعقوب، واليزيدى والحسن، وقرأها بسكون الكاف نافع وابن كثير.

ولم يفكر الفراء فى توجيه قراءتى (أكل) بضم الكاف وسكونها ولكنه فكر فى توجيه تنوين (أكل) وعدم تنوينها، وجرى ذلك فى فلك النحو للبرهنة على صحة التنوين وعدمه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[١٠٥] قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع (هزوا) ساكنة الزاى، وقرأ الباقون بضمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[١٠٦] قراء نافع وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر والبزى (خطوات) بتسكين الطاء، والباقون بضمها.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[١٠٧] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (نشرا) بضم النون والشين، والباقون بضم النون وسكون الشين.

فقراءة (رسل) بتسكين السين وضمها و(هزوا) بتسكين الراء وضمها لهجتان التخفيف لتميم والتثقيل لأهل الحجاز، فكل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فمن العرب من يثقله ومنهم من يخففه، فمن خفف طلب التخفيف لأنه استثقل ضمتين فى كلمة واحدة، والمستعمل فى العربية هو الضم فى (خطوات) وقد تخفف[١٠٨]، وكذلك من قرأ (نشرا) - بسكون الشين - قد خفف مثل (رسل)[١٠٩].

---

(١٠٣) الآية ٢٦٥ من سورة البقرة. (١٠٤) الآية ١٦ من سورة سبأ.

(١٠٥) الآية ٦٧ من سورة البقرة. (١٠٦) الآية ١٦٨ من سورة البقرة.

(١٠٧) الآية ٥٧ من سورة الأعراف.

(١٠٨) حجة القراءات ص ١٠٤، ١٠٦، ١٢٠، ١٢١.

(١٠٩) المصدر السابق ص ٢٨٥، ٢٨٦.

فالإطار الذى تذكر فيه هذه القراءات والذى يجب أن يحتذى هو ما يوجه إليه من اختلاف البيئة والأحداث اللغوية المحيطة بها.

فالملاحظ من تتبع الروايات اللغوية أن توالى الحركات (الصوائت) من لهجة الحجاز، وأن التخفيف وحذف الحركات من لهجات بنى تميم وأسد وبعض نجد، وذلك يكشف عما تميل إليه البيئة الحضرية من التأنى فى النطق بحيث تعطى كل صوت حقه، كما أن القبائل البدوية تميل إلى السرعة والاقتصاد فى الجهد العضلى، وهذا الحذف يوفر لهم ذلك، وقد يحدث العكس أحيانا فيحذف بعض الحضريين الحركات ويثبتها بعض البدويين، وهذا محمول على تأثر الفريقين أحدهما بالآخر، وقد ذكر ابن جنى أن الحجازيين يستبدلون كسرة الشين فى عشرة المفردة بسكونها عند التركيب فقالوا: إحدى عشرة إلى تسع عشرة بكسر الشين - مع أنهم يسكنون فى الإفراد وهم يعكسون فى نظائره من (فخذ ونحوه).

وباستعراضنا للقراءات الواردة فى قوله تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١١٠) نلاحظ تعدد النطق بكلمة (الصراط)، فهى بالصاد - عند أكثر القراء - وبالسين والصاد - عند ابن كثير - وبهما وبالمضارعة بين الزاى والصاد - أى إشمام الصاد صوت الزاى - عند أبى عمرو وحمزة - وبالزاى الخالصة - عند أبى عمرو - أيضا - كما رواه الأصمعى(١١١).

وفى كتاب الحجة لأبى على الفارسى بيان لاحتجاج أبى بكر بن السراج لهذه القراءات المتعددة فى الآية السابقة.

فقراءة الكلمة بالسين جاءت - فى رأيه - على الأصل، إذ إن السين هى الصوت الأساسى فى هذه الكلمة والصاد بدل منه، «ولا ينقل عن الأصل إلى ما ليس بأصل»(١١٢).

وقراءة الصاد لها - أيضا - وجه، إذ هى أخف على اللسان لاتفاق الصاد مع الطاء فى الاستعلاء والإطباق.

---

(١١٠) أبو على الفارسى: الحجة فى علل القراءات السبع. ط دار الكاتب العربى ١/ ٣٦ وإلينا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ص١٢٣.

(١١١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

(١١٢) أبو زرعة: حجة القراءات ط. بيروت.

وهو يرجح القراءة بالصاد على القراءة بالسين لهذا الانسجام الصوتى، فالسين مستفلة منفتحة، والطاء مستعلية مطبقة، والانتقال بينهما صعب، فلما قلبت السين صادا زالت تلك الصعوبة وأمكن النطق بسهولة.

وقراءة الزاى لها وجهة أيضا، لاتفاق الزاى مع الطاء فى الجهر، ولكنها - فى رأيه - ضعيفة، وروايتها عن أبى عمرو غير دقيقة، ولعل أذن الأصمعى قد خانته فى السماع الصحيح.

وكما قال: «إن الأصمعى غير نحوى، وأحسب أنه سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة للزاى فتوهمها زايا»(١١٣).

وقراءة المضارعة - عنده - تستند إلى مبدأ الخفة، والبعد عن الالتباس، بجعلها زايا خالصة، أو صادا خالصة.

ولكنه يضعفها أيضا، لما فى صورة النطق بها من صعوبة إذ فيها (تكلف حرف بين حرفين، وليس هو بحرف يبنى عليه الكلم، ولا هو من حروف المعجم)(١١٤).

ويأتى بعد ذلك احتجاج أبى على الفارسى لهذه القراءات فيتفق مع صاحبه - ابن السراج - فى بعض الوجوه، ويختلف معه فى بعضها الآخر.

فقراءة السين صحيحة، وقراءة الصاد أقوى منها، ويعلل أبو على لذلك بما علل به ابن السراج مع زيادة فى الإيضاح لظاهرة الانتقال الصوتى.

فالانتقال من السين إلى الطاء انتقال من المستفل إلى المستعلى، وفى ذلك لون من صعوبة النطق على حين أن الانتقال من الصاد إلى الطاء انتقال من مستعل إلى نظير مستعل آخر وذلك سهل.

وقد أورد لذلك نظائر قياسية كإبدال السين المستفلة صادا قبل القاف المستعلية للتناسب، وكمنع إمالة الألف فى (واقد) ونحوها لأنها مجاورة للقاف المستعلية بعدها، والسبب فى المنع كراهة أن يصعدوا بالمستعلى بعد التسفل بالإمالة.

وإذا كان التصاعد أمرا صعبا فإن النزول من المرتفع إلى المستفل أسهل، وذلك واضح فى أن العربى أجاز ذلك لسهولته على اللسان فقال: قست وقسوت بقاف مستعلية

(١١٣) أبو على الفارسى: الحجة ١/ ٣٧.

(١١٤) المصدر السابق ١/ ٣٨.



بعدها سين مستفلة وأمال (قادر) ونحوها مما وقعت فيه الألف بعد حرف القاف المستعلى (لأنه الآن ينحدر بعد الإصعاد، وهذا يستخف ولا يستثقل كما استثقل عكسه)[115].

وعلى هذا فإبدال السين صادا يؤدى إلى تشاكل الصوتين وتجانسهما.

ينساق أبو على إلى نقطة أخرى وهى: كيف يترك الأصل وهو السين فى (صراط) إلى ما ليس بأصل وهو الصاد؟.

ويجيب على هذا التساؤل بأن ذلك مبنى على أصول كلام العرب، وليس مستغربا ، إذ إنهم فى مواضع أخرى تركوا ما هو أصل فى كلامهم إلى ما ليس بأصل، طلبا لاتفاق الصوتين.ألا تراهم قالوا: شمباء، وممبك، فلم يبينوا النون التى هى الأصل فى الشنب، ومن عامر لما أرادوا أن يوفقوا بين الصوتين.

ويضعف أبو على القراءة بالزاى بعدة نظائر قياسية: **أولها:** أن السين هنا نظير الصاد المتحركة التى لا يبدلها العرب زايا، فكلمة (صراط) فى نظره شبيهة بكلمة (صدرت)، وكلمة (صدقت) ونحوهما، فالسين نظير الصاد، والطاء نظير الدال، وكما أن الصاد فى الكلمتين الأخيرتين لا تبدل زايا لتحركها فلذلك السين فى (سراط) لا تبدل زايا لتحركها.

ثانيها: بعد موقع السين عن موقع الطاء فى الكلمة لوجود الفاصل بينهما - وهو الألف - مما يضعف القول بالإبدال، إذ الحاجز يمنع إبدالها زايا.

ونظير ذلك تحقيق الصاد وعدم قلبها زايا لوجود الفاصل بينها وبين الدال من حركة أو حرف، مثل: صدق ومصادر كما ذكر سيبويه.

وكذلك الإدغام، فالمتقاربان إذا وقعا فى كلمة واحدة، وفصلت الحركة بينهما لم يدغما، وذلك نحو (وتد) فكما لم يقو الإدغام، ولم يكثر مع حجز الحركة كذلك لا يقوى البدل مع الحركة.

أما قراءة المضارعة فيقويها أبو على باعتبارات معيارية.

أولها: أن وجود الفاصل يحسن المضارعة فالصاد فى (صدقت) و(مصادر) والصاد فى (صراط) امتنع إخلاصها زايا، ولكن ينطق بها بين الصاد والزاى على سبيل المشاكلة.

---

(115) أبو على الفارسى: الحجة 1/ 38.

ثانيها: نقل عن العرب أنهم يشربون الشين والجيم صوت الزاى - على سبيل المضارعة - إذا وقعتا قبل الدال فى مثل: (أشدق) و(أجدر) فإشراب الصاد فى (صراط) صوت الزاى أولى وأجدر، فالصاد والزاى من مخرج واحد، ومتقاربان فى الصفات، على حين أن الشين أو الجيم والزاى متباعدة مخرجا، وإن تقاربت فى بعض الصفات.

ثالثها: أن أهل مكة قرأوا بالمضارعة، وقد وازن بينها وبين قراءة إخلاص الصاد وتحقيقها وأعمل فكره المعيارى فى الاحتجاج لاختيار الصاد. فالصاد الخالصة أولى من وجوه:

الأول: أن الصاد منقلبة عن السين، وهذا نوع من الإعلال، فإذا ضورع بها فقد أعلت مرة أخرى، والعرب يكرهون إعلال حرفين متواليين، ولذلك نلاحظ أنهم لم يحذفوا النون من بنى النجار مع توالى النونات حيث كانت اللام قد أعلت بالقلب لئلا يتوالى إعلالان، الحذف والقلب، وإن كانا فى كلمتين مختلفتين، فإذا كره فى هذا النحو كان توالى إعلالين فى حرف واحد أبعد.

والثانى: قياس على الإدغام، فالمضارعة تشبه الإدغام فى أنه تقريب الحرف الأول من الثانى، وكما أن الصاد لا تدغم فى الطاء لانتقاض صوتها بذلك فكذلك لا ينبغى أن يضارع بها لأن هذه المضارعة فى حكم الادغام(١١٦).

ونلاحظ من استعراض هذا الاحتجاج للقراءات المتعددة فى (الصراط) ومقارنته باحتجاج ابن السراج السابق أن كلا منهما مبنى على إعمال المقاييس المعيارية التى توصل إليها العلماء آنذاك وتحكموا بها فى النصوص المروية، ولم يميلوا إلى جانب الرواية والأثر بقدر ما كانوا يضربون فى النواحى العقلية، ومن هذا الاتجاه رأينا أن كلا منهما يضعف إحدى القراءات اعتمادا على هذا المنهج دون الاعتبار للنقل والرواية، وكانت النتائج التى توصل إليها كل منهما مختلفة لابتنائها على اعتبارات منطقية بحتة، فقد ادعى ابن السراج - بناء على مقاييس منطقية صرفة - أن الأصمعى لم يكن نحويا، وأن ذاكرته قد خانته فى السماع، وأن تكلف حرف بين حرفين غير معروف فى حروف المعجم، والمناقشة الموضوعية تجعل هذا الاحتجاج ضعيفا.

---

(١١٦) ينظر فى كل ما تقدم: أبو على الفارسى: الحجة فى علل القراءات السبع جـ١ ص٣٦ - ٤٢ بتصرف.

كما أن القول بأن الحرف بين الحرفين غير معروف فى الأبجدية مبنى على ما وصلت إليه الأبجدية العربية من رقى وفصاحة - بعد تهذيبها - ولم يلاحظ ابن السراج بقاء مثل هذه الحروف عند قبيل من العرب، ولذا فإن تعقيبه بقوله (ولست أدفع أنه من كلام الفصحاء من العرب)(١١٧) يرد عليه.

ومعظم ما استند إليه أبو على من أصول ونظائر ليؤكد بها اطراد ظاهرة قلب أحد الصوتين إلى الآخر بعيد عن الاتجاه المنهجى فى الاستدلال، وكأنه يريد بذلك أن يجعل هذا الإبدال ظاهرة عامة يراها العرب جميعا، ويسلكون مسالكها حتى إنها تجرى وفق حكمتهم وما اقتضت طبيعتهم فى كل مكان.

وذلك يجرى فى فلك ما وضعوه من أصول وقواعد يريدون لها الاطراد.

ولكن علم اللغة الحديث يبين أن هذه الاستعمالات المتعددة ليست شائعة عند العرب جميعا، بل هى تعدد لألوان النطق وفقا لاختلاف الناطقين، وما يناسب بيئاتهم التى يعيشون فيها، والمؤثرات الحضارية، والثقافية، والنفسية، وغيرها.

وفى إطار التحليل اللهجى للقراءات، والذى نحبذه ونعضده نستطيع - بإذن الله - أن نحتج لهذه الألوان المختلفة من القراءات فى ضوء البيئة العربية، وظروفها الاجتماعية.

فليست قراءة السين أصلا، وقراءة الصاد فرعا - كما توهم المحتجون من اللغويين - إذ إن ذلك كان يتأتى لو أن الناطقين بالصاد هم الناطقون بالسين فى عصرين متتاليين مثلا.

لكن الواقع أن السين لجماعة، والصاد لجماعة أخرى، والزاى لغيرها، والمضارعة لفريق غير هؤلاء، ولعلنا نلمح أن تلك جميعها لهجات من القصة المشهورة التى رواها الأصمعى، وهى قوله: اختلف رجلان فى الصقر، فقال أحدهما بالسين، وقال الآخر بالصاد، فتحاكما إلى ثالث فقال: أما أنا فأقول: الزقر، فدل على أنها ثلاث لغات (لهجات)(١١٨).

---

(١١٧) أبو على الفارسى: الحجة ١/ ٣٨.

(١١٨) ابن جنى: المحتسب ٢/ ١٦٩، ٢٨٣، والسيوطى: المزهر ١/ ٢٩٩.

ونخلص من ذلك إلى أن الفكر القياسى الذى انتهجه بعض اللغويين والنحاة القدامى لم يصل إلى المطلوب فى تفسير القراءات، وأن وصلها باللهجات هو الحل العلمى المنهجى السليم.

وفى ضوء علم اللغة الحديث يمكن تخريج القراءات فى الآية المذكورة.

فالمعروف أن العرب فريقان: بدو وحضر، ولكل منهما طرائق خاصة بالنطق، ويثبت علم اللغة الحديث أن البدو يميلون إلى الأصوات الواضحة أو الأكثر وضوحا، على حين أن الحضر يميلون إلى الأصوات الخافتة، ولذا يفضل البدو الأصوات المجهورة، أوالمستعلية المطبقة لشدة وضوحها وعلوها المناسب لخلاء الصحراء التى يضيع فيها الصوت ما لم يكن عاليا، على حين يفضل الحضريون الأصوات المهموسة أو المستفلة المنفتحة لمناسبتها لخفض الصوت اللازم للبيئة الحضارية ذات المساكن والجدران التى تحجز الصوت، وتنقله دون أن يتبدل، فلا تحتاج إلى علو الصوت، بل تدعو إلى خفوته.

وتنقل لنا كتب اللغة أسماء بعض القبائل التى تنسب إليها تلك الطرائق النطقية من استعمال السين أو الصاد أو الزاى أو المضارعة.

وقد نسب أبو حيان ظاهرة إشمام السين صوت الزاى إلى قبائل قيس، وقلبها زايا خالصة إلى قبائل عذرة(١١٩)، وكعب، وبنى القين، وقيس معروفة ببداوتها، وعذرة قبيلة اشتهرت بالعشق، وهى بطن من قضاعة وهم بدو، وكعب بطن عامر بن صعصعة من هوازن، وكانت تسكن العروض مجاورة لبنى تميم، وبنو القين بطن من بنى أسد(١٢٠)، وهى بدوية على ما نعرف.

ولعل ظاهرة الإطباق أيضا تنسب إلى أهل البادية حيث عرفنا أن صوت الإطباق فيه من الوضوح ما يناسب البيئة الصحراوية(١٢١).

ومن خلال هذا المنهج الذى اتسم بالتحكم العقلى وفق ما صاغه اللغويون والنحاة من مبادئ ومحاولتهم أن يدخلوا اللهجات فى إطارها كانوا يقفون من بعض القراءات

---

(١١٩) أبو حيان: البحر المحيط ١/ ٢٥.

(١٢٠) القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص٧١، ٣٥٩، ٤٠٦، ٤٠٧ والهمدانى: صفة جزيرة العرب ص١٥٩.

(١٢١) د. عبده الراجحى: اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص١٥٠.

موقفـا بعيدا عن المنهج الـعلمي الموضوعي، فـرموها بالغلط - في بعـض الأحيان - ولو كانت القراءة صحيحة الرواية أو سبعية.

٢- إثبات صلة ضمير الغائب المذكر وحذفها:

فقد وردت بعض القراءات بحذف صلة الضمير (الهاء) واوا كانت أو ياء.

فمن قراءات حذف الواو - مع اختلاس[١٢٢] حركة (الهاء) وإسكانها:

١- ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[١٢٣].

قـرأ حـمزة ونـافع ويـعـقوب وحـفـص باختـلاس ضمـة الـهـاء، وقرأ الـسـوسى بإسكانها[١٢٤].

٢- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾[١٢٥].

قرأ يعقوب وابن وردان باختلاس ضمة الهاء والباقون بإثبات الواو[١٢٦].

٣- ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[١٢٧].

قرئ (نحشره) بإسكان الهاء.

ومن قراءات حذف الياء مع اختلاس الحركة وإسكانها:

١- ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾[١٢٨].

قرأ قالون ونقل عن هشام - مع الخلاف - باختلاس كسرة الهاء[١٢٩].

وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر بإسكانها[١٣٠].

---

(١٢٢) الاختلاس: أن يأتي القارئ بثلثى الحركة ولا يكملها. شرح الضباع على الشاطبية ص١٩٢.

(١٢٣) الآية ٧ من سورة الزمر.

(١٢٤) البنا الدمياطى: الإتحاف ٣٧٥ وابن الجزرى.

(١٢٥) الآية ٧ من سورة البلد.

(١٢٦) البنا الدمياطى، الإتحاف ٤٤٩ وابن الجزرى: النشر ٢/ ٤٠١.

(١٢٧) الآية ١٢٤ من سورة طه.

(١٢٨) الآية ٧٥ من سورة آل عمران.

(١٢٩) البنا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ١٧٦.

(١٣٠) أبو زرعة: حجة القراءات ص١٦٦ - ١٦٧.

٢- ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(١٣١).

قرأ يعقوب وقالون باختلاس كسرة الهاء.

وقرأ أبو عمرو وحمزة وهشام وأبو بكر بإسكانها(١٣٢).

٣- ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾(١٣٣).

حكى اختلاس كسرة هاء (ألقه) عن أبى عمرو، وقرأ بالاختلاس - أيضا - قالون وهشام، فيما نقل عنه مع الخلاف، والحلوانى.

وقرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بالإسكان.

وقرأ الباقون بإثبات الياء(١٣٤).

والمعروف أن هاء الضمير المذكر يلحق بها واو أو ياء زائدة صلة لها كما تزاد الألف فى المؤنث فى مثل قولك: ضربتها ومررت بها وضربته ليستوى ضربته المذكر والمؤنث فى باب الزيادة(١٣٥).

وقد تحذف هذه الصلة حسب اتجاهات القبائل، ويتوقف ذلك على ما يسبقها من حروف وحركات أو سكون.

فإذا سبقت بحرف لين (ألف - واو - ياء ساكنة) فبعض العرب يحذف صلة الضمير (الهاء) فى حال الوصل، وبعضهم يثبتها ويرى سيبويه أن الأجود الحذف(١٣٦) على حين يرى المبرد أن إثبات الواو أو الياء صلة للضمير عربى حسن، وأنه هو الأصل(١٣٧) وهذا فى مثل قولك: يداه تجودان بالخير - أكرموه فإنه جدير بالإكرام - عليه ثوب قشيب.

وتجرى على ذلك القراءة فى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(١٣٨) ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾(١٣٩) ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾(١٤٠).

---

(١٣١) الآية ١٤٥ من سورة آل عمران.

(١٣٢) البنا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ١٧٩ وأبو حيان: البحر المحيط ٣/ ٧١.

(١٣٣) الآية ٢٨ من سورة النمل.

(١٣٤) البنا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ٣٣٦ وابن الجزرى: النشر ٢/ ٣٣٧ وأبو حيان: البحر ٧/ ٧٠.

(١٣٥) سيبويه: الكتاب ٢/ ٢٩١ وأبو زرعة، حجة القراءات ١٦٦، ١٦٧.

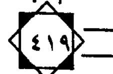
(١٣٦) سيبويه: الكتاب ٢/ ٢٩١.

(١٣٧) المبرد: المقتضب ١/ ٢٦٦.

(١٣٨) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

(١٣٩) الآية ٢٠ من سورة يوسف.

(١٤٠) الآية ١٧٦ من سورة الأعراف.



ويعلل اللغويون لحذف صلة الهاء بأن قبلها حرف لين وهى خفية وبعدها يقع حرف لين، فكرهوا اجتماع حرفين ساكنين كلاهما لين وليس بينهما إلا حرف خفى.

وإن سبقت بحرف ساكن غير لين فالأجود عند سيبويه إثبات صلة الهاء، والأجود عند المبرد الحذف، وذلك فى مثل أصابته جائحة، وقوله تعالى: ﴿ من آيات محكمات ﴾[141].

وقد عللوا لذلك أيضا بما عللوا به لسابقه، وهو أنهم كرهوا حرفين ساكنين بينهما حرف خفى.

وإن سبقت الهاء بحرف متحرك، فالأجود إثبات صلتها كما تثبت الألف مع المؤنث.

وحذف صلة الضمير - مع إبقاء الحركة واختلاسها أو مع حذف الحركة وإسكان الضمير - يعده هؤلاء اللغويون - كسيبويه والمبرد - ضرورة لا تجوز إلا فى الشعر.

ويعلل المبرد للحذف مع اختلاس الحركة بأن الشعراء يفعلون ذلك لأن الصلة - واوا كانت أو ياء - ليست بأصل، وإنما هى زائدة فيحذفونها كما يحذفون سائر الزوائد، ومن ذلك قول الشاعر:

وما لهُ من مجد تليد وماله   من الريح حظ لا الجنوب ولا الصبا

وحذف الحركة وإسكان الضمير يعد من أشد الضرورات، وجاز ذلك أيضا لأنها زيادة، كما فى قول الشاعر:

فظلت لدى البيت العتيق أخيله   ومطواى مشتاقان له أرقان

ويتفق ابن جنى مع العالمين السابقين فى اعتبار حذف صلة الهاء، واختلاس الحركة ضرورة كما فى قول الشماخ:

له زجل كأنهُ صوت حاد   إذا طلب الوسيقة أو زمير

فيطبق المنهج العقلى المعيارى حين يقول:

ينبغى أن يكون ذلك ضرورة وصنعة لا مذهبا ولغة، لأنا لا نعلم رواية حذف هذه الواوا وإبقاء الضمة قبلها لغة، وكذلك يجب عندى وينبغى ألا يكون لغة لضعفه فى

(١٤١) الآية ٧ من سورة آل عمران.

القياس، ووجه ضعفه أنه ليس على مذهب الوصل، ولا مذهب الوقف، أما الوصل فيوجب إثبات واوه (كلقيتهو أمس) وأما الوقف فيوجب الإسكان (كلقيته وكلمته) فيجب أن يكون ذلك ضرورة للوزن لا لغة.

وانشدنى الشجرى لنفسه:

وإنا ليرعَى فى المخُوف سوامُنا   كأنهُ لم يشعر به من يحاربه

فاختلس ما بعد هاء (كأنه) ومطل ما بعد هاء (بهى)، واختلاس ذلك ضرورة وصنعة على ما تقدم القول به.

بيد أن ابن جنى اعتبر حذف صلة الهاء وإسكانها لغة، لأنها سمعت، ووصل ذلك إلى علمه فقد نقل بيت يعلى الأزدى، وهو:

فظلت لدى البيت العتيق أخيلهو .. إلخ.

ثم قال: فهاتان لغتان أعنى إثبات الواو فى (أخيلهو) وتسكين الهاء فى قوله (له) لأن أبا الحسن زعم أنها لغة لأزد السراة، وإذا كان كذلك فهما لغتان، وليس إسكان الهاء فى (له) عن حذف لحق بالصنعة الكلمة لكن ذلك لغة(١٤٢).

والنحويون لعدم درايتهم - أحيانا - باللهجات أو تناسيهم لها يضعون النصوص الواردة تحت مقاييسهم ويخضعونها لها فإذا اتفقت معها أجازوها وإلا منعوها، وحذروا من استعمالها.

فحذف صلة الضمير - بعد الحرف المتحرك - قد اعتبروه ضرورة لا تجوز إلا فى الشعر، وابن جنى لما لم يثبت عنده اختلاس الحركة على أنه لغة ضعفه فى القياس، على حين أجاز إسكان الهاء لأنه نقل عن الأخفش أنه لغة لبعض العرب.

ومن هذا المنطلق وجدنا بعض اللغويين والنحاة القدامى يحيفون على بعض القراءات الواردة بالاختلاس وبالإسكان للضمير بعد الحرف المتحرك، فوجدناهم يرمونها بالغلط، لأنهم جعلوا ذلك من باب الضرورات الشعرية التى لا تجوز فى النثر، ومن باب أولى - عندهم - لا تصح فى القرآن.

وبهذا أنكروا قراءات متواترة أو سبعية، منها بعض القراءات السابقة.

فهذا هو الزجاج قد غلط أبا عمرو فيما روى عنه من كسر هاء الضمير فى (فألقه) مع اختلاس الحركة، أو مع إسكانها، وكذلك فى كل ما أشبهه من قراءات فى مواضع أخرى.

---

(١٤٢) ابن جنى: الخصائص ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

وفى قراءة ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[١٤٣] باختلاس حركة الهاء - قال أبو حاتم: هو غلط[١٤٤].

وهذا التغليط مبنى على تحكيم المنهج النحوى فيما يستعمله العرب من طرق صوتية خاصة.

ولعل سيبويه والمبرد عدا ذلك من باب الضرورة التى لا تجوز إلا فى الشعر لأنه لم يصلهما أنها لهجات كما وصلهما ذلك عن حذف الصلة إذا كان ما قبل الهاء ساكنا.

ومن هنا وجدنا ابن جنى يصرح بأنه لا يعلم ذلك، فلم يصله أن اختلاس الحركة مع حذف الصلة لغة لأى قبيل من العرب.

وأنا أعجب منه لأنه نقل شعرا لابن الشجرى - وهو أعرابى من عقيل - وقد ورد عنهم أنهم يختلسون حركة الضمير فكيف لم يتنبه ابن جنى لذلك؟

فبعض العلماء نقل لنا أن اختلاس الحركة وإسكان هاء الضمير لهجة بنى عقيل وكلاب فى مثل هذه الحالة التى قرر السابقون أنها ضرورة. قال الكسائى: سمعت أعراب عقيل وكلاب يقولون ﴿لربه لكنود﴾[١٤٥] بالجزم و(لربه لكنود) بغير تمام، ولهُ ولهْ مال، وغير عقيل وكلاب لا يوجد فى كلامهم اختلاس ولا سكون فى (له) وشبهه إلا فى الضرورة[١٤٦].

وقد أجاز ذلك الفراء وحكى أنه لغة لبعض العرب[١٤٧]، وهذا ابن جنى ينقل عن أبى الحسن الأخفش أن إسكان الهاء لغة لأزد السراة.

ونقل أبو حيان ذلك أكثر من مرة[١٤٨] ومن هنا نعى على الزجاج تغليطه لما نقل عن أبى عمرو من اختلاس حركة الهاء وإسكانها لأن القراءة سبعية، وهى تجرى وفق إحدى لهجات العرب، قال: (وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الكسر غلط ليس بشىء، إذ هى قراءة السبعة، وهى متواترة وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبى عمرو بن العلاء فإنه عربى صريح، وسامع لغة، وإمام فى النحو، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا)[١٤٦].

---

(١٤٣) الآية ٧م سورة الزمر. (١٤٤) أبو حيان: البحر ٧/ ٤١٧.

(١٤٥) الآية ٦ من سورة العاديات. (١٤٦) أبو حيان: البحر ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٠.

(١٤٧) الفراء: معانى القرآن ١/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(١٤٨) انظر الموضع السابق وانظر أيضا: ٦/ ٢٨٧.

ونرى أن التهجم على القراءات، وعدم الاعتداد بشقة النقل والرواية منهج غير سديد، لأنه إذا ثبتت صحة الرواية والنقل فينبغى أن تخضع القوانين والقواعد لها لا العكس، فإذا ثبت أن ذلك من لهجات العرب كان النقد غير بناء.

وليست القضية قضية قياس منطقى، لأن اللغة ليست منطقا بل هى ظاهرة اجتماعية.

وعلم اللغة الحديث يفسر ظاهرة إثبات صلة الضمير وحذفها وتنوع اللهجات فى ذلك.

فالمعروف أن العرب الحضريين يميلون إلى التأنى فى النطق وإعطاء كل صوت حقه، فإذا كان الضمير - الهاء - موصولا بزائدة من واو أو ياء أثبتوها، على حين أن قبائل البادية تميل إلى سرعة النطق بالأصوات، وهذا يؤدى إلى الحيف على بعض أصوات اللين بحذفها تارة، وتقصيرها تارة أخرى.

وبنو عقيل وكلاب من القبائل البدوية التى تميل إلى اختصار أصوات اللين ولا تأبه بالتأنى فى النطق.

ومعروف أن أصوات اللين عرضة لتغيرات كثيرة فى اللهجات العربية المختلفة، ولما كثر فيها هذا النوع من التغيرات لجأ علماء اللغة إلى وضع القوانين الضابطة لطريقة نطقها، وإعطائها حقها من المد وغيره، ولاسيما عند مجاورتها لأصوات يُخشى عليها أن تذوب فيها، أو تفقد بعض خصائصها الصوتية، ونحن نلاحظ - فى اللهجات الدارجة - تغيرا واسع النطاق فى أصوات اللين جره عليها عدم الاهتمام بها وتركها خاضعة للتطور.

٣- حركة هاء ضمير الغائب المذكر:

وهذه قراءة ابن عامر (أرجئه)[١٤٩] بالهمز وكسر الهاء من غير إشباع تتعرض لتهجم النحاة عليها.

«قال أهل النحو: هذا غلط لأن الكسرة لا تجوز فى الهاء إذا سكن ما قبلها نحو (منهم) بكسر الهاء، وإنما يجوز كسر الهاء، إذا كان ما قبلها ياء أو كسرة فتكسر الهاء من أجلهما[١٥٠].

---

(١٤٩) الآية ١١١ من سورة الأعراف. (١٥٠) أبو زرعة: حجة القراءات ٢٨٩.

ونحن نعلم أن هاء ضمير الغائب تحرك بالضم إذا لم تسبق بياء ساكنة أو كسرة مثل (له - يعلمه - منه) ونحو ذلك، فإذا سبقت بياء ساكنة أو كسرة فللعرب فيها طريقتان، فبعضهم يبقيها على أصل الضم، وهم الحجازيون فيقولون عليهُ وبهُ، وقرئ بها فى قوله تعالى: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللَّه﴾[151] ﴿فخسفنا بهو وبدارهو الأرض﴾[152] ﴿فقال لأهلهُ امكثوا﴾[153].

وبقية العرب يكسرون الهاء لمناسبة الياء والكسر فيقولون: عليهِ - به.

وبناء على هذا فإن اللهجات تتعدد فيما سبق بياء ساكنة أو كسرة.

وربما كانت هناك لهجات فيما هو ساكن من غير الياء مثل (منه) ويؤيده تلك القراءة التى معنا (أرجئه) لكن النحويين يجعلونها من باب الغلط.

وبعضهم يفسرها بأن كسرة هاء الضمير ليست محولة عن ضمتها وإنما هى كسرة التخلص من التقاء الساكنين، فقد سكنها القارئ وفقا لبعض اللهجات التى تحذف صلة الضمير والهمزة الساكنة قبله فاضطر إلى تحريك الهاء بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين[154].

ولكن لماذا يذهبون إلى أن القارئ سكن أولا ثم تخلص بالكسر؟ وما الداعى له إلى ذلك؟ ألم يكن من الممكن أن يبقى الضمة طالما أنه يريد التحريك؟

ولماذا لا تعد هذه القراءة دليلا لورود كسر هاء الضمير عن العرب إذا سبقت بساكن غير الياء؟ إن هذا أولى من مثل هذه التخاريج التى لم تكن فى ذهن القارئ حال قراءته، ولا يمكن أن تطرأ فى ذهن عربى ينطق بفطرته.

ويظهر أن بعض النحاة كان يعتبر القراءة اجتهادا ورأيا، فهذا الفراء يعرض لقراءة حمزة فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾[155] - بكسر الواو فى ولايتهم - ثم يقول: «يريد من ميراثهم، وكسر الواو أعجب إلى من فتحها لأنه إنما

---

(١٥١) الآية ١٠ من سورة الفتح.

(١٥٢) الآية ٨١ من سورة القصص.

(١٥٣) الآية ١٠ من سورة طه.

(١٥٤) أبو زرعة: حجة القراءات ٢٨٩ - ٢٩٣.

(١٥٥) الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

يفتح أكثر ذلك إذا كانت فى معنى (نصرة) قال: فكان الكسائى يفتحها، ويذهب بها إلى النصرة، ولا أراه علم التفسير»[١٥٦].

فالفراء يفضل الكسر، ويتهم الكسائى بعدم المعرفة بعلم التفسير مما أوقعه فى هذا الاختيار، وكأن الأمر جائز له أن يختار هذا أو ذاك دون رواية مأثورة، وليس الأمر كذلك.

٤- تخفيف مضارع «رأى» وأمره:

ولقد قرئ الفعل (أرنا) - بسكون الراء - فى هذه الآيات: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾[١٥٧] - ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾[١٥٨] - ﴿ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾[١٥٩].

وكذلك الفعل (أرنى) فى قوله تعالى: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾[١٦٠] و﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾[١٦١].

قرأها بسكون الراء ابن كثير ويعقوب، وفى بعضها قرأ أبو بكر وابن ذكوان وورد الخلاف فى ذلك عن أبى عمرو.. وقرأ الباقون بكسر الراء فى جميعها[١٦٢]. ومثلها الفعل (تر)[١٦٣].

قال الزمخشرى عن هذه القراءة إنها استرذلت، لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة، وهى دليل عليها فإسقاطها إجحاف[١٦٤].

وتعليل الزمخشرى لرأيه سبق به ابن جنى فى حديثه عن قراءة أبى عبد الرحمن ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾[١٦٥] قال أبوالفتح: هذا السكون إنما بابه الشعر لا القرآن لما فيه من استهلاك الحرف والحركة قبله[١٦٦].

وذكر أبو على الفارسى أن بعض الناس أنكر القراءة بإسكان الراء فى (أرنا) ونحوها، من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيقبح حذفها، ثم رد هذا الإنكار والتمس

---

(١٥٦) أبو زرعة: حجة القراءات ص ٣١٤.
(١٥٧) الآية ١٢٨ من سورة البقرة.
(١٢٨) الآية ١٥٣ من سورة النساء.
(١٥٩) الآية ٢٩ من سورة فصلت.
(١٦٠) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.
(١٦١) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(١٦٢) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٢٢٢، والبنا الدمياطى: الإتحاف ١٤٨.
(١٦٣) انظر البقرة: الآيتين ٢٤٣، ٢٥٨ والنساء. الآيتين ٤٣، ٤٩ وإبراهيم الآية ١٩ والفيل الآية١.
(١٦٤) الزمخشرى: الكشاف ١/ ١٨٨.
(١٦٥) الآية ١ من سورة الفيل.
(١٦٦) ابن جنى: المحتسب ٢/ ٣٧٣٣.

لصحة القراءة وجها مناسبا أيضا فقال: «ما قاله هذا القائل - يعنى منكر القراءة - ليس بشيء، ألا تراهم أدغموا فى ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ (١٦٧)، فالأصل (لكن أنا) ثم نقلوا الحركة وحذفوا ثم أدغموا، فذهاب الحركة فى (أرنا) ليس بدون ذهابها فى الإدغام»(١٦٨).

والواقع أن التعليل المنهجي لهذه القراءة يقوم على ربطها باللهجات العربية، لا على هذه الوجوه القياسية التى فرضها اللغويون والنحاة، وجعلوها أساس أحكامهم، حتى أنكر بعضهم هذه القراءة، وهى متواترة منقولة عن القراء الموثوق بهم.

فهذا الطعن غير لائق، ولا سيما إذا عرفنا أن بعض العرب كبنى تميم يميلون إلى التخفيف بحذف بعض الحركات المتوالية كما فى فخذ وكتف ورسل.

وأكثر لغات العرب - كما يقول ابن جنى تخفف المضارع والأمر من الفعل (رأى) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء قبلها على عادة التخفيف فى نحو ذلك(١٦٩).

وزادت بعض القبائل هذا التخفيف بإسكان الراء على حد فخذ وكتف، وقد نقل أبو حيان أن هذا من لغة بنى تميم(١٧٠) وله شواهد عربية تدل عليه كقول الشاعر:

أرْنا إداوة عبد الله تملؤها ... من ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا

وأنشد أبو زيد فى نوادره:

قالت سليمى اشترْ لنا دقيقا ... واشترْ فعجل خادما لبيقا(١٧١)

وعلم الأصوات الحديث يفسر هذه الظاهرة الصوتية التى تميل إليها قبائل البادية، فالمعروف أن البدو يميلون إلى عدم النطق بالحركات المتوالية - وبخاصة إذا كانت مختلفة من فتحة وكسرة ونحوهما - فيخففون ذلك بإسكان الوسط منها، ولا بأس أن تنسب تلك الظاهرة لنبى تميم، ولا داعى إلى قياسها على الإدغام كما فعل أبو على، ولا على إجراء الوصل مجرى الوقف ونحو ذلك مما يحاول النحاة ربط هذه الظاهرة به، فكل ذلك بعيد عن التفسير الحقيقى لطريقة النطق العربى.

---

(١٦٧) الآية ٣٨ من سورة الكهف. (١٦٨) أبو حيان: البحر ١/ ٣٩٠، ٣٩١.

(١٦٩) ابن جنى: المحتسب ١/ ١٢٨، ١٢٩. (١٧٠) أبو حيان: البحر ٨/ ٥١٢.

(١٧١) ابن جنى: المحتسب ٢/ ٣٧٣ وأبو حيان: البحر ٢/ ٢٤٩.

٥- السكون والحركة فى الصوامت الحلقية:

ولنتأمل بعض صور التسكين والحركة فى الصوامت الحلقية وكيف يحاول اللغويون تفسيرها بمنطقهم الخاص البعيد عن المنهج السوى.

ففى قوله تعالى: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾(١٧٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (من المعز) بفتح العين، وقرأها الباقون ساكنة العين.

ونلاحظ هنا أن الفتح جاء مع حرف العين فى (المعز) ولم يجئ مع الهمزة فى (الضأن) وهذا جعل بعض علمائنا القدامى يعتبرون أن تسكين العين هو الأصل وأن الفتح فرع عنه، يقول أبو زرعة: الأصل تسكين العين لأنه جمع (ماعز) مثل: تاجر وتجر، وصاحب وصحب، وحجتهم إجماع الجميع على تسكين الهمزة فى (الضأن) وهو جمع (ضائن) كماعز.

ويعللون لعدم القراءة بفتح همزة (الضأن) بقولهم: «إن الهمزة أثقل من العين، لأنها تخرج من أقصى الحلق، وتحريكها أثقل من تحريك العين، ولذلك فرق بينها»(١٧٣).

وهذا كلام غير واقعى، فاعتبار التسكين أصلا، والفتح فرعا غير سديد، لأن الأصالة والفرعية لا تتأتى إلا عند طائفة واحدة من العرب فى عصرين متتاليين، والثابت تاريخيا ولهجيا أن الفتح لبنى عقيل وأضرابهم.

يقول ابن جنى: (لقد رأيت كثيرا من عقيل لا أحصيهم يحرك من ذلك ما لا يتحرك أبدا لولا حرف الحلق، وهو قول بعضهم نحَوه يريد نحوه، وهذا ما لا يتوقف فى أنه أمر راجع إلى حرف الحلق، لأن الكلمة بنيت عليه ألبتة(١٧٤).

وأبو حيان ينسب تلك الظاهرة إلى بعض بنى بكر بن وائل(١٧٥) وتثبت كتب البلدان أن بنى عقيل كانوا يسكنون البحرين(١٧٦) وأن بنى بكر بن وائل كانوا يسكنون اليمامة إلى البحرين(١٧٧) ومن هذا نفهم (سر التشابه فى اللهجة بين القبيلتين)(١٧٨).

---

(١٧٢) الآية ١٤٣ من سورة الأنعام. (١٧٣) أبو زرعة: حجة القراءات ٢٧٥، ٢٧٦.

(١٧٤) القلقشندى: نهاية الأرب ص٣٦٥، ٣٦٦.

(١٧٥) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص١٦٩ والقلقشندى: نهاية الأرب ١٧٨.

(١٧٦) د٠ عبده الراجحى: اللهجات العربية ص١١٣.

(١٧٧) ابن جنى: المحتسب ١/ ١٦٧. (١٧٨) أبو حيان: البحر ٣/ ٢٤٧.

فليس الفتح فرعا عن التسكين كما يقولون.

والتعليل لعدم تحريك الهمزة بأنها أثقل من العين غير مسلم، فإن أبا زرعة ينقل أن التحريك جائز فيها لأن كليهما (العين والهمزة) من حروف الحلق، والعرب تفتح إذا كان في الكلمة حرف حلقي ساكن مثل: النهْر والنهَر والزهْر والزهَر والطعْن والطعَن.

ومع هذا فإن إطلاقه الفتح عند العرب دون تحديد لبعضهم يقتضي أن الأمر جائز، فيسكن حروف الحلق أو يفتح عند العرب جميعا، مع أن الواقع غير ذلك، فكل منهما لقبيل من العرب كما عرفت.

وهذا يؤكد عدم دقة المنهج المعيارى فى تحليل القراءة والنظر إليها.

ويثبت علم اللغة الحديث. ما أثبته علم اللغة القديم - من حب حرف الحلق للفتحة، قال ابن جنى: فى التعليل لقراءة (البخل) بفتح الباء والخاء[179] (لا أبعد أن تكون الخاء لكونها حرفا حلقيا يفتح ما قبلها كما تفتح هى نفسها فيما كان ساكنا من حروف الحلق نحو قولهم فى الصخْر الصخَر)[180].

ويقول المحدثون: «إن حرف الحلق بعد صدوره من مخرجه يحتاج إلى اتساع مجراه فى الفم، ولذلك ناسبه من أصوات اللين، أكثرها اتساعا وهو الفتح»[181].

٦- تحقيق الهمز وتسهيله:

ويعلل اللغويون والنحاة بعض الظواهر الخاصة بتحقيق الهمز وتسهيله تعليلا معياريا لا يتسق والمنهج اللهجى المطلوب لتفسير القراءات وبيان اتجاهاتها.

ففى سورة قريش ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾[182] قرأ يحيى عن أبى بكر: (إئلافهم) - بهمزتين الثانية منهما ساكنة - وروى عن الأعشى: (إإيلافهم) بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء.

ولقد حكم النحويون المقاييس المعيارية فى هاتين القراءتين فقالوا: إن تحقيق الهمزتين فى (إإلافهم) لا وجه له.

---

(١٧٩) الآية ٢٤ من سورة الحديد.

(١٨٠) ابن جنى: المحتسب ١/ ١٦٧.

(١٨١) د. أنيس: فى اللهجات العربية ط٢ ص١٥٨.

(١٨٢) الآيتان ١/ ، ٢.

وذلك لأن القاعدة تقول: إذا اجتمعت همزتان فى أول الكلمة والأولى منهما متحركة، والثانية ساكنة، قلبت الثانية مدة من جنس حركة ما قبلها، مثل: آمن - آلف - إيمان - إيلاف - أُومِنَ.

وأكثر منه بعدا - فى نظرهم - ما روى عن الأعشى (من تحقيق الهمزتين وزيادة ياء بعدهما) لأنه حقق الهمزتين وألحق ياء لا مذهب لها ولا وجه.

وقد جرت بعض المحاولات لتفسير تحقيق الهمزتين فى هاتين القراءتين بأنه على سبيل التشبيه بهمزة الاستفهام وهمزة الضمير الملتقيتين فى (أأنت؟) ووجه الشبه أن الثانية منهما أصيلة، والأولى داخلة عليها، وليست بأصل، فالمصدر (إإلافهم) أصله من الفعل (ألف) دخلت همزة فى أول المصدر لم تكن موجودة من قبل(١٨٣).

واعتراض النحويين وعلماء الصرف قائم على أساس القواعد التى وضعوها، ولو رجعوا إلى طبائع العرب فى الهمز لوجدوا أن بعضهم يهمز، ويبالغ فى الهمز - أحيانا - إلى هذا الحد وغيره، وهذا عند أصحاب الطباع البدوية، وزيادة الياء - كما يحكى ابن الجزرى «على لهجة المشبعين من العرب الذين يقولون: الدراهيم والصياريف - فى الدراهم والصيارف - وليست ضرورة بل هى لهجة مستعملة»(١٨٤).

فإذا أتت بعض القراءات بذلك فلا بأس من الاعتداد به، وقبوله، أما أن تحكم القواعد فى القراءات فينسب إليها الضعف لخروجها على قواعدهم فهذا لا ينبغى أن يكون، بل يجب أن توضع القواعد وفقا للقراءات الثابتة الرواية.

واللغويون - فى بعض الأحيان - يرمون العرب بالغفلة وعدم الحكمة كما نلحظ ذلكَ عند توجيههم قراءة ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾(١٨٥) - بهمز (سأقيها) فيدعون أن العرب تهمز ما لا يهمز تشبيها بما يهمز، فالكلمات (كأس - يأس - ساق) وزنها واحد، ولذا يشتبه بعضها ببعض، فيهمزونها جميعا، مع أن الواجب التفريق بين ما يستحق الهمز وما لا يستحقه - والعرب تقول: حلأت السويق - والأصل حليت - تشبيها بـ(حلأتَ الإنسان عن المال والإبل)(١٨٦).

---

(١٨٣) أبو زرعة: حجة القراءات ص ٧٧٣، ٧٧٤.

(١٨٤) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٢٩٩ عند تخريجه لقراءة (أئنيدة).

(١٨٥) الآية ٤٤ من سورة النمل. (١٨٦) بمعنى طرد . أبو زرعة: حجة القراءات ص ٤٧٠.

والواقع أن الأمر ليس كما تصوروا، وأن العربى لم يكن غافلا إلى حد أن تختلط عليه الكلمات بعضها ببعض فلا يميز بين ما يصح همزه وما لا يصح.

وقد يفسر عالم اللغة الهمز بعيدا عن الاتجاه الصحيح كقراءة أبى جعفر وخالد بن إلياس وأبى عمرو - فى رواية - (وربأت)(١٨٧) - بالهمزة -(١٨٨).

قال ابن جنى: «المسموع فى هذا المعنى (ربت) لأنه من (ربا - يربو) إذا ذهب فى جهاته زائد، وهذه حال الأرض إذا ربت.

وأما الهمز فمن (ربأت القوم) إذا أشرفت مكانا عاليا لتنظر لهم، وتحفظهم، وهذا إنما فيه الشخوص والانتصاب وليس فيه دلالة على الوفور والانبساط، إلا أنه يجوز أن يكون ذهب به إلى علو الأرض لما فيه من إفراط الربو، فإذا وصف علوها دل على أن الزيادة قد شاعت فى جميع جهاتها، فلذلك همز، وأخذه من ربأت القوم أى كنت طليعة لهم»(١٨٩).

والتفسير العلمى الصحيح لذلك مبنى على أساس لهجى، فبعض الأعراب كانوا يهمزون ما لا يهمز مثل (شأبة ودأبة) و(جأن) فى شابة ودابة وجان، ويقولون: (حلأت) فى (حليت) مبالغة فى الهمز(١٩٠)، بما يناسب بيئتهم التى يعيشون فيها، ولم يكن هذا غفلة منهم أو التباسا لبعض الكلمات ببعض.

ونقل ابن الجزرى أن ذلك على لغة (لهجة) من همز الألف على حد قول أبى حية النميرى:

أحب المؤقدين إلى مؤسى

وقال أبو حيان، بل همزها لغة فيها، قال ابن الجزرى: وهذا هو الصحيح والله أعلم(١٩١).

ونلاحظ - أيضا - أن اللغويين القدامى يجعلون الهمز جائزا فى صور من الكلمات وردت عن العرب مهموزة تارة، وغير مهموزة تارة أخرى، فعند قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائى فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاؤُشُ﴾(١٩٢) بهمز (التناؤش) ينقل أبو زرعة

---

(١٨٧) الآية ٥ من سورة الحج والآية ٣٩ من سورة فصلت.

(١٨٨) أبو حيان: البحر ٦/ ٣٥٣. (١٨٩) ابن جنى: المحتسب ٢/ ٧٤، ٧٥.

(١٩٠) انظر: أبو حيان: البحر من كلام للزمخشرى عن هذه اللغة ١/ ١٨٥.

(١٩١) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٣٣٨.

(١٩٢) الآية ٥٢ من سورة سبأ.

(أنهم يجوزون أن يكون من (التناوش) فهمزوا الواو لأن الواو مضمومة، وكل واو مضمومة ضمتها لازمة إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت لم تبدل مثل: ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾[193].

وابن جنى - كغيره من قدامى اللغويين - يعد ذلك لونا من ألوان التصرف، فالكلمات واوية الفاء أو يائيتها تعتريها - فى نظره - تصرفات متنوعة، إذ تأتى مفتوحة ومكسورة ومضمومة، وقد يؤدى الكسر والضم إلى قلبها همزة مثل إسادة، وأجوه ويعصر وأعصر ويُسر وأُسر[194].

ويقولون فى مثل: (جُوَن): جُؤَن، وكذلك كل همزة مفتوحة قبلها ضمة، فإنك إذا خففتها قلبتها واوا مثل لا يواخذكم الله[195] والمولفة[196].

وما سماه هؤلاء تصرفا وتبدلا يعد لونا من ألوان اللهجات المتعددة، فتحقيق الهمز لتميم ومن على شاكلتهم، والتسهيل بالواو أو الياء للحجازيين، وقد اتضح ذلك فى القراءات[197].

فعلى هذا ليس الأمران جائزين، لأن كل فريق من العرب كان له اتجاه خاص، لا يمكن أن يذهب إلى غيره، أو يذهب إليه غيره، اللهم إلا إذا كان هذا الجواز للمستعربين الذين ليسوا من أهل اللغة بالفطرة والسليقة، أو كان ذلك على سبيل العدوى اللغوية بالتأثر والتأثير بين القبائل المختلفة نتيجة الاحتكاك والاتصال بينها.

٧- الادغام والفك:

وهذا أبو عثمان المازنى يصف قراءة نافع وأبى عمرو: (عاد لولى)[198] موصولة مدغمة بأنها سيئة.

قال أبو عثمان: أساء عندى أبو عمرو فى قراءته، لأنه أدغم النون فى لام المعرفة، واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليست بحركة لازمة، والدليل على ذلك أنك تقول: (الأحمر) فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام تقول فى (الأحمر): (الحَمْر) ولم تحذف ألف الوصل لأنها ليست بحركة لازمة.

---

(١٩٣) الآية ١١ من سورة المرسلات. (١٩٤) ابن جنى: الخصائص ٣/ ١٨٣.

(١٩٥) الآية ٢٢٥ من سورة البقرة. (١٩٦) الآية ٦٠ من سورة التوبة.

(١٩٧) انظر كتابنا (أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى) ص٥٢، ٥٣.

(١٩٨) الآية ٥٠ من سورة النجم.

ثم يناقض المازنى نفسه فيروى عن أبى الحسن ما يفيد صحة هذا الإدغام لروايته عن العرب، فبعضهم يقول: (هذا لحمر قد جاء) وهذا يعنى أن الحركة أصبحت بعد النقل لازمة، ودليل ذلك أنك حذفت ألف الوصل ولو لم تكن لازمة لما حذفت، وهذا حجة لقراءة أبى عمرو.

وحصر الجواز فى قضية لزوم الحركة وعدم لزومها حصر يقوم على المعيارية فى نطاقها المحدود، وعلى أساسه يخطئ أبو عثمان القراءة، ويصف صاحبها بالإساءة، ولكن كيف يمكن أن يقبل حكمان متناقضان فى آن واحد؟

فمرة يزعم المازنى أن قراءة أبى عمرو خطأ إذا اعتبرت الحركة المنقولة غير لازمة.

ومرة أخرى يزعم أن قراءة أبى عمرو صحيحة إذا اعتبرت الحركة المنقولة لازمة.

فكيف يصح ذلك؟ وكيف يؤخذ بمثل هذه الأحكام التى لا تنطلق من النصوص ولا ترجع إلى لهجات العرب وطرائقهم فى الاستعمال؟

لقد نقل الزجاج أن للعرب طرائق عدة فى استعمال كلمة الأولى فأجودها وأعلاها: سكون اللام وإثبات الهمزة، والثانية التى تليها فى الجودة: ضم اللام وطرح الهمزة، فمن العرب من يقول: (لولى) فيطرح همزة الوصل لتحرك اللام، وعليها وردت القراءة[(١٩٩)].

والإدغام والفك - كما نعلم - يرجعان إلى طائفتين كبيرتين من العرب، فالحجازيون يفضلون الفك، والتميميون يميلون إلى الإدغام.

وكما يبرهن علم اللغة الحديث نرى أن الفك يقتضى مجهودا عضليا أكبر فى تحقيق الأصوات، وفصل بعضها عن بعض، على حين تؤدى السرعة فى النطق إلى إدخال الأصوات وخلط بعضها ببعض، وهذا يستدعى مجهودا عضليا أقل من سابقه، فيكون الإدغام أسرع للنطق عند سكان البادية.

ألا ترى بعد هذا التطواف فى المجال الصوتى أن التفسير اللهجى هو الذى يبعدنا عن تجريح القراءات المتواترة أو صحيحة السند؟ وفى الوقت نفسه يريح عقولنا من الجرى وراء أمور نظرية بعيدة عن التفسير العلمى الصحيح؟

---

(١٩٩) أبو زرعة: حجة القراءات ص ٦٨٧.

ب- مجال الإعراب ونسق الجمل:

ونعرض نماذج أخرى لتحكم النحاة فى مجال الإعراب، ونسق الجمل، ونبين كيف أعملوا العقل والمنطق فى توجيه القراءات ومحاولة إخضاعها للقياس اللغوى الذى استقر فى فكر النحاة، ونبين - كذلك - الرأى الصائب فى التوجيه والتحليل وهو الاتجاه اللهجى.

فقد لاحظنا أن طائفة كبيرة من النحويين يتجهون إلى فرض القيود المعيارية على القراءات، ومن ذلك ما لاحظناه فى كتب النحو من توجيهات لها فى مجال الإعراب وتركيب العبارة.

١- إلزام المثنى الألف:

ومن أمثلة ذلك الآية الكريمة: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾(٢٠٠). فتذكر كتب النحو القراءات الواردة فيها ثم تعلل لها بمنطق عقلى مجرد.

يقول ابن هشام: اجتمع النصب بالياء والرفع بالألف فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾.

وفى هذا الموضوع قراءات إحداها هذه - وهى تشديد النون من (إنَّ) و(هذين) بالياء وهى قراءة أبى عمرو، وهى جارية على سنن العربية. [لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء لغة فصحاء العرب، وأبو عمرو مستغن عن إقامة دليل على صحتها].

والثانية: (إن) - بالتخفيف - و(هذان) بالألف فـ(إن) مخففة مهملة [وجعلها بعضهم بمعنى (ما) النافية واللام بمعنى (إلا) والتقدير: ما هذان إلا ساحران](٢٠١).

والثالثة: (إنَّ) - بالتشديد - و(هذان) بالألف وهى مشكلة.

وقد أجيب عنها بأوجه أحدها: أن لغة (لهجة) بلحرث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة وآخرين استعمال المثنى بالألف دائما، قال:

تزود منا بين أذناه طعنة [دعته إلى هابى التراب عقيم](٢٠٢)

---

(٢٠٠) الآية ٦٣ من سورة طه.

(٢٠١) ولكن جعلها مخففة أولى لوجود اللام، والقراءة بالألف مكتوبة هكذا فى الإمام (مصحف عثمان).

(٢٠٢) حكى ذلك أبو عبيدة عن أبى الخطاب، وهو رأس رؤساء الرواة. أبو زرعة: حجة القراءات ص٤٥٥، ٤٥٦.

وقال آخر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

الثانى: أن (إنَّ) بمعنى (نعم) [قال المبرد: إنه أحسن ما قيل فى تخريج القراءة على حد قول الشاعر:

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه .

ومثلها فى ذلك ما حكى أن رجلا سأل ابن الزبير شيئا فلم يعطه فقال: لعن الله ناقة حملتنى إليك، فقال: إنَّ وراكبها، أى نعم ولعن الله راكبها.

و(إنَّ) التى بمعنى (نعم) لا تعمل شيئا كما أن (نعم) كذلك فهذان مبتدأ، مرفوع بالألف و(ساحران) خبر المبتدأ محذوف أى لهما ساحران، والجملة خبر (هذان) ولا يكون (لساحران) خبر (هذان) لأن لام الابتداء لا تدخل على خبر المبتدأ [وقيل: اللام للتوكيد دخلت فى خبر المبتدأ كما تقول، زيد لأخوك. قال الشاعر:

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى. (أجل) فيكون المعنى - والله أعلم- فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، قالوا: (أجل) تصديقا من بعضهم لبعض ثم قالوا، هذان لساحران].

الثالث: أن الأصل: (إنه هذان لهما ساحران) [كما تقول، إنه زيد منطلق ثم تقول: إن زيدٌ منطلق] فالهاء ضمير الشأن، وما بعدها مبتدأ وخبر، والجملة فى موضع رفع على أنها خبر (إنَّ) ثم حذف المبتدأ وهو كثير، وحذف ضمير الشأن كما حذف من قوله ﷺ: **(إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون)** ومن قول بعض العرب: (إن بك زيد مأخوذ).

الرابع: أنه لما ثنى (هذان) اجتمع ألفان، ألف (هذا) وألف التثنية، فوجب حذف واحدة منهما لالتقاء الساكنين، فمن قدر المحذوفة ألف (هذا) والباقية ألف التثنية قلبها فى الجر والنصب ياء، ومن قدر العكس لم يغير الألف عن لفظها [وقال الفراء: إنهم زادوا فى (هذان) النون للتثنية، وتركوها على حالها فى الرفع والنصب والجر كما فعلوا فى (الذى) فقالوا (الذين) فى الرفع والنصب والجر.

الخامس: أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد وهو (هذا) جعل كذلك في التثنية، فيكون المثنى كالمفرد، لأنه فرع عنه(٢٠٣).

ولعلنا ندرك أن النحويين لما وجدوا هذه القراءة تخالف - من حيث الظاهر- القواعد التي وضعوها حاولوا أن يسلكوها تحتها بتأويلات كثيرة فيها ضرب من التحكم.

ونلمح هذا التحكم واضحا في جعل اسم (إن) ضمير شأن محذوفا أو أن المحذوف ألف التثنية، أو إجراء المثنى مجرى المفرد لأنه فرع عليه، فكل تلك الأوجه اعتبارات لا تؤيدها ظواهر اللغة التي بنيت على أساس اجتماعي، واقعي، بعيد عن الفلسفة والخيال.

واعتبار (إن) بمعنى (نعم) لا يؤيده سياق الآية فضلا عما ترتب عليه من فساد في الإعراب، إذ اعتبر (لساحران) خبرا لمبتدأ محذوف، والأصل (لهما ساحران) وقد ألجأهم إلى ذلك وجود لام الابتداء وهي لا تدخل في خبر المبتدأ، وهذا دليل فساد هذا الوجه، وخياليته التي لا تلائم السياق المعنوي أو التركيبي.

ولو أنهم اكتفوا في التخريج بالوجه الأول - وهو أنها لهجة لبعض العرب الذين يلزمون المثنى الألف لأراحوا عقولنا من هذه المتاهات الفرضية المجردة.

ولقد جنى المنهج النحوي على بعض القراءات حين تأتي القراءة مخالفة لما جرى عليه النحاة من قواعد، فإن أفلحوا في ربطها بالتأويل والفلسفة فبها ونعمت، وإلا فإنهم يرمونها بالضعف أو الرداءة أو اللحن.

فقد رمى بعضهم القراءة المذكورة ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ - بتشديد (إنّ) - باللحن(٢٠٤)، قال العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية - رحمه الله - «قد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إنّ هذان) لحن، وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه.

والمحققون من العلماء على أنه لا يتوجه إليها الطعن لأنها قراءة سبعية ثابتة في

---

(٢٠٣) ابن هشام: شذور الذهب بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ ص٤٦ - ٤٩ وما بين الأقواس ينظر فيه: أبو زرعة: حجة القراءات: ٤٥٥ ، ٤٥٦.

(٢٠٤) سيبويه: الكتاب بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون: ٢/ ١٠٧، ٣١٧، ٤/ ١٩٦، ١٩٧، ٣٣٨، وابن هشام: شرح ذور الذهب ص٥٠.

النقل، والقراءة سنة متبعة[٢٠٥] ثم إنه قد ثبتت صحة وجهها فى العربية بما ذهبنا إليه من توجيه لهجى مدعم بالشواهد والنصوص.

٢- عطف الظاهر على المضمر المخفوض من غير إعادة الخافض:

ومما نحن بصدده فى اعتراض النحاة على ما يخالف قواعدهم من قراءات ما ورد من قراءة (الأرحام) - بالخفض - فى قوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ ﴾[٢٠٦]. قرأها حمزة - أحد السبعة - وغيره كقتادة والأعمش وابن عباس والحسن.

وقد وصف البصريون هذه القراءة بأنها لحن لا تحل القراءة به[٢٠٧]، هكذا قال رؤساؤهم - كما ينقل القرطبى[٢٠٨] - وقد نقل الحريرى عن المبرد قوله: «لو أنى صليت خلف إمام فقرأ بها لقطعت صلاتى»[٢٠٩] أو كما ينقل القرطبى: (لو صليت خلف إمام يقرأ (والأرحامِ) لأخذت نعلى، ومضيت)[٢١٠].

وإنما اعتبر البصريون هذه القراءات لحنا لمخالفتها للقاعدة المشهورة وهى أنه: لا يجوز العطف على المضمر المخفوض إلا بإعادة الخافض[٢١١] وهو الكثير الشائع كقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾[٢١٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[٢١٣].

ولا يجوز مخالفة ذلك إلا فى الشعر كما قال الشاعر:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب[٢١٤]

---

(٢٠٥) ابن هشام: شرح شذور الذهب ص ٥٠، ٥١.

(٢٠٦) الآية الأولى من سورة النساء.

(٢٠٧) الأشمونى ٢/ ١١٥.

(٢٠٨) القرطبى ط الشعب ص١٥٧٢.

(٢٠٩) الحريرى: درة الغواص ٨٣.

(٢١٠) القرطبى ص ١٥٧٣.

(٢١١) يقول أبو على الفارسى: إن عطف الظاهر على المضمر بالباء ضعيف فى القياس لأن الضمير قد صار عوضا مما كان به متصلا بالاسم من التنوين فقبح أن يعطف عليه كما لا يعطف الظاهر على التنوين. أبو زرعة: حجة القراءات. التعليق ص١٨٨.

(٢١٢) الآية ١١ من سورة فصلت.

(٢١٣) الآية ٨٠ من سورة غافر.

(٢١٤) سيبويه: الكتاب ٢/ ٣٨١، ٣٨٢ وأبو زرعة: حجة القراءات ص ١٨٨.

وبناء على خروج القراءة على القاعدة التى وضعوها كان الحكم عليها عنيفا كما رأيت وهو رميها بأنها لحن.

ونقل الزجاج إجماع النحويين على قبح النسق باسم ظاهر على اسم مضمر إلا بإظهار الخافض، وقال المازنى: الثانى فى العطف شريك للأول، فإن كان الأول يصلح أن يكون شريكا للثانى وإلا لم يصلح أن يكون الثانى شريكا له، فكما لا تقول: مررت بزيد وك فكذلك لا تقول: مررت بك وزيد[٢١٥].

بل أكثر من ذلك اعتبر الزجاج هذه القراءة خطأ عظيما فى أصول الدين، فقد رتب على فساد الإعراب الذى لا تسنده القاعدة فساد المعنى، فالمعنى على العطف - كما يرى الزجاج - يؤدى إلى جواز القسم بالله وبالرحم مع أن القسم لا يجوز إلا بالله كما فى الحديث (لا تحلفوا بآبائكم).

ولكن هذا التحيف على القراءة غير مسلم، إذ إن بعض الشواهد العربية جاءت مماثلة لها، وبعضها شعرى ذكره سيبويه وغيره، وبعضها أيضا من النثر، ومنه آيات من القرآن الكريم لا يفهم معناها إلا على هذا العطف كقوله تعالى: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[٢١٦] فالمسجد الحرام - بالجر - معطوف على الضمير المجرور بالباء فى (بهِ) دون إعادة الجار.

ومن هنا رأينا فريقا من النحاة - وهم الكوفيون ويونس، والأخفش - يقرر جواز العطف على الضمير المجرور وإن لم يتكرر الجار مع المعطوف، ويتخذ من تلك الشواهد أدلة على صحته وجرى على هذا الرأى ابن مالك حين قال:

وعود خافض لدى عطف على ... ضمير خفض لازما قد جعلا
وليس عندى لازما إذ قد أتى ... فى النظم والنثر الصحيح مثبتا[٢١٧]

وعطف (الأرحام) على الضمير لا يفسد المعنى - كما توهم الزجاج - فليس المراد الحلف فى هذا المقام بل المراد معان أخرى ذكرها القرطبى[٢١٨].

وبعض المعتدلين من النحاة واللغويين يرون تخريج القراءة تخريجا يتفق والمذهبين

---

(٢١٥) انظر المصدر السابق لأبى زرعة.

(٢١٦) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

(٢١٧) الأشمونى ٣/ ١١٤، ١١٥.

والمنكر الذى لا يجوز من النسق هو أن يعطف الظاهر على المضمر الذى لم يجر له ذكر.

(٢١٨) القرطبى ص١٥٧٣، ١٥٧٤.

البصرى والكوفى، فالأرحام مجرورة بحرف جر محذوف لدلالة المتقدم عليه، وقد ذكر ابن جنى ذلك، قال: «وعلى نحو من هذا تتوجه - عندنا - قراءة حمزة - وهى قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ ليست هذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها وذهب إليه أبو العباس[219] بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب وأخف وألطف، وذلك أن لحمزة أن يقول لأبى العباس: إننى لم أحمل (الأرحام) على العطف على المجرور المضمر، بل اعتقدت أن تكون فيه باء ثانية حتى كأنى قلت: وبالأرحام ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها، كما حذفت لتقدم ذكرها فى نحو قولك: (بمن تمرر أمرر) و(على من تنزل أنزل) ولم تقل: أمرُر به ولا أنزل عليه، لكن حذفت الحرفين لتقدم ذكرهما، وإذا جاز للفرزدق أن يحذف حرف الجر لدلالة ما قبله عليه مع مخالفته له فى الحكم فى قوله:

وإنى من قوم بهم يتقى العدا ورأب الثأى والجانب المتخوف

أراد: وبهم رب الثأى فحذف الباء فى هذا الموضع لتقدمها فى قوله: بهم يتقى العدا وإن كانت حالاهما مختلفين، ونظائر هذا كثيرة - كان حذف الباء من قوله: (والأرحام) لمشابهتها الباء فى (به) موضعا وحكما أجدر»[220].

والقول الفصل الذى يوافق معتقدنا فى الرد على من رمى هذه القراءة باللحن هو ما أشار إليه الإمام القشيرى حين قال: «هذا الكلام مردود عن أئمة الدين، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواترا يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شىء عن النبى ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبى ﷺ، واستقبح ما قرأ به وهذا مقام محظور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو، فإن العربية تتلقى من النبى ﷺ، ولا يشك أحد فى فصاحته»[221] وكل ما يمكن أن يقال - حينذاك - أن بعض الظواهر اللهجية أكثر من بعض، فهذه الظاهرة شائعة وتلك قليلة الشيوع فى النصوص التى نقلها لنا رواة اللغة.

٣- تسكين حركة الإعراب:

ومن ذلك - أيضا - إسكان راء (بارئكم) فى قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئْكُمْ﴾ ، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئْكُمْ﴾[222] وتسكين راء الأفعال المعربة المرفوعة فى

(٢١٩) يقصد المبرد.

(٢٢٠) ابن جنى: الخصائص ١/ ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢٢١) القرطبى ص١٥٧٤.

(٢٢٢) الآية ٥٤ من سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أن تذبَحوا بقرةً﴾[٢٢٣] و﴿وإن يخذُلْكُمْ فمن ذَا الَّذي ينصُرُكُم مِّنْ بعْده﴾[٢٢٤]، ﴿وما يُشعِرُكُمْ أنَّها إذا جاءت لا يُؤمِنُون﴾[٢٢٥] و﴿يَأْمُرُهُم بالْمَعْرُوف﴾[٢٢٦]، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بهَذَا﴾[٢٢٧].

فقد روى - فى كل ذلك - تسكين الراء عن أبى عمرو[٢٢٨].

ولم يعترف سيبويه بصحة الرواية بالإسكان، وقال: إن أبا عمرو قرأ بالاختلاس ولكن الراوى لم يضبط عن أبى عمرو لأنه اختلس الحركة فظن أنه سكن.

وقد جعل سيبويه التسكين خاصا بالشعر، كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

وطعن المبرد فى الإسكان ومنعه، وزعم أن قراءة أبى عمرو بذلك لحن.

والواقع أن الطعن على الراوى بأنه لم يضبط غير مقبول «فإن من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة، ولا توقيف فقد ظن بهم ما هم منه مبرءون، وعنه منزهون».

وهذا يبطل قول من زعم أن الراوى عن أبى عمرو أساء السمع، إذ كان أبو عمرو يختلس الحركة فى (بارئكم) ونحوها فتوهمه الإسكان الصحيح فحكاه عنه، وكيف يقبل أنه يسىء السمع فى موضع ولا يسيئه فى موضع آخر مثله؟

وقد قرأ آخرون بإسكان لام الفعل فى هذه الأسماء والأفعال المذكورة وغيرها نحو (ويعلمهم[٢٢٩] ونحشرهم[٢٣٠]) وأحدهم محمد بن عبد الرحمن بن محيصن أحد أئمة القراء بمكة، وقرأ مسلم بن محارب (وبعولتهن أحق) بإسكان التاء، وقرأ غيره (ورسلنا) بإسكان اللام[٢٣١] ولا يسوغ وصف هذه القراءات باللحن أيضا.

---

(٢٢٣) الآية ٦٧ من سورة البقرة. (٢٢٤) الآية ٢٦٠ من سورة آل عمران.

(٢٢٥) الآية ١٠٩ من سورة الأنعام. (٢٢٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

(٢٢٧) الآية ٣٢ من سورة الطور.

(٢٢٨) انظر: ابن الجزرى: النشر ٢/ ٢١٥ ، ٢٦١، ٢٤٣، ٢٦١ والبنا الدمياطى والإتحاف ٢١٥، ٢٣١ وأبو زرعة: حجة القراءات ص ٩٦، ٩٧.

(٢٢٩) انظر الآية ١٢٩ من سورة البقرة وغيرها. (٢٣٠) انظر الآية ٢٢ من سورة الأنعام. وغيرها.

(٢٣١) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٢١٣، ٢١٤ بتصرف.

«فالإسكان عربى جيد وقد نقله سيبويه فى بيت امرئ القيس ونحوه، والعرب تفعل ذلك لكراهة توالى الحركات فى الكلمة الواحدة»[٢٣٢] وفى الكلمتين، تخفيفا، وقد أكثر الأستاذ أبو على الفارسى فى الاستشهاد من كلام العرب على الإسكان ثم قال: فإذا ساغ ما ذكر فى هذه القراءة من التأويل لم يسغ أن يقال: لحن[٢٣٣].

وهذه قراءات سبعية فكيف يجوز الطعن فيها؟

ويقول ابن الجزرى: «إن الطعن مردود على قائله، ووجهها فى العربية ظاهر غير منكر، وهو التخفيف، وإجراء المنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة نحو (إبل وعضد وعنق) على أنهم نقلوا أن لغة تميم تسكن المرفوع من (يعلمهم) ونحوه، وعزاه الفراء إلى تميم وأسد»[٢٣٤].

وإجماع الأئمة على جواز تسكين حركة الإعراب فى الإدغام دليل على جوازه هنا وأنشدوا أيضا:

رحت وفى رجليك ما فيهما ... وقد بدا هنْك من الميزر

وقال جرير:

سيروا بنى العم فالأهواز موعدكم ... أو نهر تيرى فما تعرفكم العرب

وهذا يكون عند من يميل إلى التخفيف من العرب، فيسكن لكثرة الحركات، وهم أرباب البادية كتميم وأسد، أما بقية العرب من أهل المدن فيفضلون توفية كل حرف حقه من الإعراب ونطق الحركات كالحجازيين، وجاءت عليها قراءة الباقين، ﴿بَارِئِكُمْ﴾ ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بالإشباع.

٤- الفصل بين المتضايفين:

ولنقف أمام قراءة أخرى هى قراءة ابن عامر وأهل الشام **(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم)**[٢٣٥] ببناء (زين) للمجهول و(قتل) بالرفع و(أولادهم) بالنصب و(شركائهم) بالخفض فيما حكى أبو عبيد[٢٣٦].

وللنحويين فى هذه القراءة مواقف متعارضة من حيث الإنكار والتأييد.

---

(٢٣٢) أبو زرعة: حجة القراءات ص٩٦ ، ٩٧.
(٢٣٣) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٣٥٢.
(٢٣٤) المصدر السابق ٢/ ٢١٣، ٢١٤.
(٢٣٥) الآية ١٣٧ من سورة الأنعام.
(٢٣٦) القرطبى ص ٢٥٢٨، والأشمونى ٢/ ٢٧٦، والبنا الدمياطى: الإتحاف ٢١٧، ٢١٨.

فالمنكرون هم البصريون ومن شايعهم ممن لا يجيز الفصل بين المتضايفين، إلا فى ضرورة الشعر، وفى حالات خاصة، فقد اعتبروا تلك القراءة من قبيل اللحن(٢٣٦).

وقال أبو على الفارسى: هذا قبيح قليل الاستعمال ولو عدل عنها (بقصد قارئها ابن عامر) كان أولى:

وقال الفراء عن ذلك ونحوه إنه ليس بشىء(٢٣٧).

وقال الزمخشرى: «وأما قراءة ابن عامر فشىء لو كان فى مكان الضرورات - وهو الشعر - لكان سمجا مردودا كما سمج ورُدد.

زج القلوصَ أبى مزادة

فكيف به فى الكلام المنثور؟ فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟ والذى حمل ابن عامر على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء، ولو قرأ بجر (الأولاد والشركاء) لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى ذلك مندوحة»(٢٣٨).

وقال أحمد بن حمدان النحوى: «قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية وهى زلة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورد قوله إلى الإجماع وكذلك يجب أن يرد من زل منهم أو سها إلى الإجماع فهو أولى من الإصرار على غير الصواب».

وكأنهم بذلك يتصورون أن القراءة المذكورة ليست منقولة عن طريق التواتر عن النبى ﷺ بل هى اجتهاد ورأى شخصى لابن عامر، ولذلك كانوا يريدون أن يتخلى عنها، ووصفها الفراء والزمخشرى وصفا سيئا، واعتبرها ابن حمدان زلة عالم.

وقد وصف مكى هذه القراءة بالضعف فقال: وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه، لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق فى الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها، وهو فى المفعول به فى الشعر بعيد، فإجازته فى القراءة أبعد(٢٣٩).

---

(٢٣٦) القرطبى ص ٢٥٢٨، والأشمونى ٢/ ٢٧٦، والبنا الدمياطى: الإتحاف ٢١٧، ٢١٨.

(٢٣٧) الفراء: معانى القرآن ١/ ٣٥٨، ٢/ ٨١، ٨٢.

(٢٣٨) الزمخشرى: الكشاف ٢/ ٧٠، ٥٦٦ وابن الجزرى: النشر ٢/ ٢٦٣ وأبو حيان: البحر ٤/ ٢٣٠.

(٢٣٩) القرطبى ص٢٥٢٨.

ولكن هذا التصور المبنى على الطعن فى هذه القراءة غير سديد لعدة أسباب.

أولها: أن الفصل بين المتضايفين قد جاء فى السعة فى مواطن عديدة منها أن يكون المضاف مصدرا، والمضاف إليه فاعله والأصل مفعوله كالقراءة التى بين أيدينا، ولها شواهد من الشعر كثيرة مثل:

فسقناهم سوق البغاثَ الأجادلِ

فزججتها بمزجة زج القلوصَ أبى مزادة

فداسهم دوس الحصيدَ الدائسِ

وغير ذلك كثير: فهذه الظاهرة اللغوية جائزة عربية(٢٤٠).

ثانيها: أن القراءات ليست اجتهادا ورأيا بل هى منقولة مأثورة، وقد قال ابن الجزرى: نعوذ بالله من قراءة القرآن بالرأى والتشهى، وهل يحل لمسلم القراءة بما يجد فى الكتابة من غير نقل؟

ويقول أبو حيان فى الرد على الزمخشرى: «وأعجب لعجمى ضعيف فى النحو يرد على عربى صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها فى لسان العرب فى غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم(٢٤١).

وقال الإمام القشيرى - بصدد الدفاع عن هذه القراءة التى معنا - «وقال قوم: هذا قبيح، وهذا محال لأنه إذا ثبت بالتواتر عن النبى ﷺ فهو الفصيح لا القبيح، وقد ورد فى كلام العرب وفى مصحف عثمان (شركائهم) - بالياء - وهذا يدل على قراءة ابن عامر»(٢٤٢).

وقد أنحى صاحب الإتحاف باللائمة على من خطأ هذه القراءة، وقال: «هى متواترة صحيحة، وقارئها ابن عامر أعلى القراء السبعة سندا، وأقدمهم هجرة، من كبار التابعين الذين أخذوا عن الصحابة كعثمان بن عفان، وأبى الدرداء، ومعاوية، وفضالة بن عبيد، وهو مع ذلك عربى صريح من صميم العرب، وكلامه حجة، وقوله دليل لأنه كان قبل أن يوجد

---

(٢٤٠) سيبويه: ط بولاق ١/ ٩٠ - ٩٢ والرضى: شرح الكافية ١/ ٢٧٠، ٢٧١.

(٣٤١) أبو حيان: البحر ٤/ ٢٣٠.

(٢٤٢) القرطبى ٢٥٢٩.

اللحن، فكيف وقد قرأ بما تلقى، وتلقن وسمع، ورأى، إذ هى كذلك فى المصحف الشامى، وقد قال بعض الحفاظ: إنه كان فى حلقته بدمشق أربعمائة عريف يقومون عليه بالقراءة، قال: ولم يبلغنا عن أحد من السلف أنه أنكر شيئا على ابن عامر من قراءاته، ولا طعن فيها».

ثم فند مزاعم النحاة فى منع الفصل بين المتضايفين قائلا: «إنه لا يعول على هذا الكلام، وإن صدر عن أئمة أكابر لأنه طعن فى المتواتر» وبين أن غيرهم قد أجاز ذلك، وأيده بالمأثور من لسان العرب نثرا ونظما.

ونعى على هؤلاء أنهم قد يعتمدون الشاهد الواحد عن الشخص الواحد ولو كان أمة أو راعيا لا يوثق به، فكيف بهذه القراءة المنقولة المأثورة؟ يقول:

«ولو نقل إلى هذا الزاعم عن بعض العرب ولو أمة أو راعيا أنه استعمله فى النثر لرجع إليه، فكيف وفيمن أثبت تابعى عن الصحابة عمن لا ينطق عن الهوى ﷺ، فقد بطل قولهم وثبتت قراءته سالمة من المعارض ولله الحمد»(٢٤٣).

وقد امتدح ابن الجزرى ابن عامر كثيرا ونقل رأى ابن مالك فى إجازة القراءة، وإجازته الفصل بين المتضايفين مستدلا بهذه القراءة قائلا فى الكافية الشافية:

وحجتى قراءة ابن عامر ... فكم لها من عاضد وناصر(٢٤٤)

أما صاحب الشاطبية فقد ذكر أبياتا هى:

ومفعوله بين المضافين فاصل ... ولم يلف غير الظرف فى الشعر فاصلا
كلله در اليوم من لامها فلا ... تلم من مليمى النحو إلا مجهلا(٢٤٥)

وهو فى ذلك يدعو القارئ إلى أن يلتزم التريث فلا يلوم المضعف لهذه القراءة، وإنما يلوم من يجهل ابن عامر لأن هذا الإمام لم يقرأ بالتشهى، بل بالنقل الصحيح وهو - مع ذلك - عربى صميم، من صميم العرب، وضبطه صحيح وكلامه حجة.

---

(٢٤٣) البنا الدمياطى: إتحاف فضلاء البشر ص ٢١٧، ٢١٨.

(٢٤٤) ابن الجزرى: النشر ٢/ ٢٦٣-٢٦٥.

(٢٤٥) الضباع: شرح الشاطبية ص١٩٩، ٢٠٠.

وقد أردت بذلك العرض للنماذج السابقة من القراءات، وتخريجاتها اللغوية والنحوية وتعليقنا عليها أن أوضح أن تحكيم القوانين اللغوية دفع المحتجين للقراءات إلى التماس الوجوه العقلية الصرفة التى لا ترتبط بنظائرها إلا ارتباطا ظاهريا، ولذا لا ترتاح النفس إلى مثل هذه الألوان من الاحتجاج.

ولو أنهم أرجعوا هذه القراءات إلى أصلها فى اللهجات العربية وربطها، بالبيئة التى تنتمى إليها بدوية أو حضرية لكان ذلك أنسب للمقام وأدعى إلى الاطمئنان النفسى، وأقرب إلى البرهنة اللغوية الموضوعية.

فاللجوء إلى قانون القياس فى التعليل للقراءات غير سديد، إذ إن الظواهر اللغوية ليست مطردة، وفى كل مجال نجد عناصر تخالف العناصر الكثيرة الشائعة، وهذا لا يضر اللغة، ولا ينال منها، ولا يقتضى تأويلها بما يدخلها تحت الشائع الكثير لأن لها طبيعتها المميزة التى تجعلها ذات طابع استقلالى خاص.

وبهذا يندفع التهجم على القراءات القرآنية، وتثبت صحتها فإذا ثبت نقلها عن النبى ﷺ، وصحابته والتابعين فإن ذلك - وحده - يكفى فى إثباتها، وصحة الأخذ بها. ونحن نرى أنها ترجع إلى اللهجات العربية، إذ إن القارئين لها عرب يحتج بكلامهم، فلا يجوز ردها.

وقد وجدنا أن ابن جنى هذا العالم اللغوى الكبير يذكرنا بأن كل اللهجات الواردة عن العرب حجة، وذلك فى باب عقده بهذا العنوان فى كتابه (الخصائص) ويقول فيه - عقب ذكره اختلاف الحجازيين والتميميين فى ظاهرة لغوية -: (ليس لك أن ترد إحدى اللغتين[٢٤٦] بصاحبتها، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها، لكن غاية مالك فى ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها، وأشد أُنسًا بهَا، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا، أو لا ترى إلى قول النبى ﷺ: **«نزل القرآن بسبع لغات كلّها كاف شاف»** هذا حكم اللغتين إذا كانتا فى الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين، أو كالمتراسلتين، فأما أن تقل إحداهما جدا، وتكثر الأخرى جدا، فإنك تأخذ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياسا، إلا أن إنسانا لو استعمل القليل لم يكن مخطئا لكلام العرب، وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه)[٢٤٧].

---

(٢٤٦) يطلق علماؤنا القدامى (اللغة) ويقصدون بها (اللهجة).

(٢٤٧) ابن جنى: الخصائص ٢/ ١٠ - ١٢ بتصرف.

وبناء على ذلك وجدنا ابن جنى يحتج لـلقراءات - فى كتابه الـمحتسب - معـتمدا على الأثر والسماع لا على قواعد النحو ومبدأ القياس(٢٤٨).

ونخلص - بعد هذا التطواف - بعدة نتائج تمثل الرأى الذى ننتمى إليه وهى:

١- متى ثبتت صحة الرواية للقراءة فهى مقبولة لا يجوز الطعن فيها.

٢- إن محاولة إخضاع القراءات لأصول النحو واللغة التى رسمها علماؤنا لا تعطى التفسير الصحيح للقراءات، وقد تبين أن التحكم فى القراءات بهذا المنهج القياسى لم يكن عاما عند النحاة جميعا.

٣- الأولى تفسير هذه القراءات على أساس لهجى، من حيث المكان والزمان، والاجتماع والثقافة، والحضارة، فهى مظهر من مظاهر اللهجات التى كانت منتشرة فى الجزيرة، وذاب بعضها فى اللغة العامة، وبعضها ظل محتفظا بطابعه، واضحا فيما بقى من اللهجات التى تمثلها لنا هذه القراءات وما بقى من أشعار العرب وأحاديثهم التى وصلتنا فى كتب اللغة والنحو.

٤- إن علم اللغة الحديث يستطيع وضع التفسير الملائم لهذه اللهجات التى تمثلها القراءات، وقد كشف عن كثير من الجوانب التى توضح آثار البيئة وعوامل الزمن فيها.



(٢٤٨) ابن جنى:المحتسب ١/ ٣٢، ٣٣، ٢٩٢ وغيرها.



الباب السادس

الدرس اللهجى الحديث

تعــد دراسة اللهـجات Dialectology[1] دراسة مـهمـة من الدراسـات اللغـوية فى العصر الحديث، وهى من فروع علم اللغة العام: linguistics.

وقبل أواخـر القرن التـاسع عشر لـم ينظر اللغـويون الغربيـون إلى دراسة اللهـجات المتفرعة عن لغاتهم، بل حاولوا أن ينشروا بـين الناس الاتجاه إلى الفصحى ونبذ العاميات؛ لأن فى الفصحى ما يحـافظ على كيانهم الحضارى والأدبى، فهم يحـافظون على الفصحى من لغاتهم حتى يستطيعوا أن يحافظوا على وحدتـهم الثقافية والقومية، فإن تلك اللغات قد وعت لهم تاريخ أجيال وحضارات مـضت ونقلتها إليهم بحيث يستطيعون فـهمها ووعيها، فهم يتـصلون بماضيهـم وحاضرهم ومستـقبلهم، أما لو اتجـه الناس إلى العاميـات فسوف تصـرفهم عن تراثـهم وتمزق وحـدتهم وتقضـى على أملهم فـي المستـقبل، ولذلـك حذر العلماء هناك من استعمال العاميات وطلبوا مـن مجتمعاتهم أن يحافظوا على فصحاهم، بل حاولوا - ومعـهم الحكام - ابتكار الطرق والوسائـل التى تؤدى إلى منع انتشار الـعاميات، ومن ذلك أن الجمعيـة الوطنية الفرنسية عهدت عـام ١٧٩٤م إلى الأب جريجوار بأن يضع تقريرا يبين فيه الوسائل الناجعـة للقضـاء على اللهجات الشعبية ونشر اللغة الفصحى[٢].

ولـم يكن الاهـتمام بالفـصحى على هـذا النحو وحده هـو السبب فى إهمـال دراسة اللهجات فى تلك الحقبة من التاريخ بل ساعد على ذلك عوامـل أخـرى أهمها:

١ - توجه الـدراسة إلى الفصـحى وبيان خصـائصها واتجـاهاتها لأنهـا - مع غرض الحفاظ عليهـا ودوام استمرارها - معبدة الطرق واضحـة المسار مستقرة النظم مـمتدة عبر التاريخ بسمات يمكـن تحديدها والنظر فى أمرها، على العكس من اللهجـات الشعبية التى يحتاج تحديد مـسارها ونظمها وسماتها إلى دراسـات دائبة وجهود يتجشمها الـباحث فيها

(١) هو علم يدرس الظواهر والعوامل المختلفة المتعلقة بحدوث صور من الكلام فى لغة من اللغات، أو علم يدرس اللهـجات باعتبـارها أنظمة لغوية تـنشأ أو تتفرع عن لـغة أو لغات. انظر: المـصطلحات العلمية والفنية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ٤/ ٩٣، ١٥/ ٢٢١.

(٢) علم اللغة د. وافى ص ٤٩.

ويحتاج معها إلى أزمان طويلة لاستخلاص حقائقها وما يتعلق بها من دراسة الأحوال الاجتماعية والثقافية والبيئية للشعوب.

٢- العلماء - آنذاك - كانوا يحبون الدعة والهدوء، ودراسة الفصحى توفر لهم ذلك لأن سماتها واضحة معلومة لا تستدعى الأسفار ولا مشقات الانتقال.

أما اللهجات فتحتاج - لتتبع خصائصها والتعرف على ظواهرها - إلى تنقل وترحال لملاقاة أربابها فى بيئتهم دنت أو نأت، سهلت أو صعبت، مع ما يصحب ذلك من عناء السفر والرحلات الشاقة.

ولكنها - يوما ما - فرضت نفسها عليهم وجذبتهم - إن طوعا أو إن كرها - إلى دراستها وتتبع مناحيها، لأن التطور سنة الحياة، وما فى الكون - بشتى ألوانه - يتطور، فاللغة لا تخرج عن سنن الكائنات فى هذا الشأن، فكما يتطور كل شىء تتطور اللغة.

ولذا - على الرغم من محاولات الغربيين أن يمنعوا زحفها - وجدنا سيلها يتدفق فى كل مكان، ورأينا انشعاب اللغات الفصحى إلى عديد من اللهجات الشعبية تبعا لسنة الطبيعة وعامل الاجتماع - فى الداخل والخارج - فلم يستطيعوا أن يحسروا الموجات المتتابعة منها فاضطروا إلى التسليم بالأمر الواقع والاتجاه إلى تلك اللهجات الناشئة حتى يعرفوا خط سيرها فبدأوا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى الاهتمام بتلك اللهجات ودراستها.

وكما اهتم الفرنسيون - وجمعيتهم الوطنية - بمحاربة تلك اللهجات - أول الأمر - اهتموا أيضا - بعد أن علموا كغيرهم عدم جدوى محاولاتهم - بدراستها، وظهر ذلك واضحا فى إنشاء شعبة خاصة لدراسة اللهجات الشعبية فى معهد الدراسات العليا بفرنسا على يد أول مهتم فرنسى بها وهو (جاستون باريس) ونهضت دراستها على يد طائفة من العلماء الفرنسيين منهم تورتولون وبرنجييه وأنطوان توماس وألبرت دوزا.

وكذلك على يد غير الفرنسيين كالعالمين الإيطاليين كورنو وأسكولى، ومن أشهر المشتغلين بتلك الدراسة الأب روسلو الذى اهتم بالناحية الصوتية فى اللهجات وجيليرون الذى درس اللهجات من ناحيتها الدلالية.

وقد استعانت هذه الدراسة بكل الوسائل العلمية الحديث حتى استطاعت أن تضع قوانين لحياة اللغات وما يعرض لها من انقسام إلى لهجات وأسباب ذلك ونتائجه. فاللغات قد تحيا نتيجة لاستمرار بقائها فى الاستعمال على ألسنة أهلها، وقد تموت لانقراضها من الاستعمال أو تغيرها واضمحلالها، وليس معنى موت اللغة أن يقضى عليها نهائيا بحيث لا يبقى لها أثر لأنها - عندما تموت - تكون قد تركت آثارا فى خليفاتها كما يقول الدكتور السعران:

«إن اللغة اللاتينية لم تمت فى الحقيقة من الناحية التاريخية بل أصابتها تغيرات عميقة أنتجت أشكالا حديثة لها أبرزها: البرتغالية والقشتالية ولغة قطالونيا ولغة بروفانس والفرنسية والإيطالية ولغة رومانيا والأسبانية، وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أنا نحس إذا نظرنا إلى الأشكال الحديثة للاتينية بأنها لغات مختلفة»[٣].

ووصل العلماء - فى أمر التوحد والانقسام - إلى نتائج ذات قيمة علمية كبيرة، فاللغات - متأثرة بحتمية العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية - تميل إلى الانقسام أكثر من التوحد وهذا رأى بعض اللغويين، وهو اتجاه تؤيده الدلائل الواقعية، فاللغات - منذ آدم عليه السلام - يتوالى عليها الانقسام بعد التوحد، وهى على هذه الحال فى شتى بقاع الأرض إلى اليوم، ولم تستمر - حتى الآن لغة واحدة على طبيعتها دون تفرق إلى لهجات.

بيد أن (يسبرسن) يرى أن القوى الموحدة كانت فى العصور التاريخية أقوى - فى حقيقة الأمر - من القوى المقسمة[٤] ويستدل لذلك بكثرة المتكلمين بكل لغة فى الأزمان الحاضرة عنها فى الأزمان الماضية.

ولكن الرأى الأول تسانده ظواهر اللغات العالمية - دون ريب - وكثرة عدد المتكلمين لا يعنى توحد اللغة، فهذا قد يحدث مع تشعبها وانقسامها فكيف توصف بالتوحد مع الانقسام؟

وقد حدد العلماء الأسس التى تؤدى إلى ظهور لغة عامة وإلى استمرار التوحد اللغوى لأمة اكتملت لها تلك الأسس كالاتصال والاختلاط بين المتكلمين وشيوع الأدب

---

(٣) اللغة والمجتمع د. محمود السعران ص١٦٧، ١٦٩.

(٤) المصدر السابق ص١٨٠.

والثقافة بعناصرها المتعددة وما يصحب ذلك من حالات اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية وإعلامية.

واللغات قد تنتشر فى مساحات واسعة من الأرض وقد تبقى فى حيز ضيق من الوجود وربما توسط حالها، كل ذلك يخضع لعوامل الانتشار والتعثر وعدم الانطلاق، فمع أهلها تدخل أراضى جديدة وتتصارع مع لغات جديدة، نتيجة الغزو والاستعمار أو مع زيادة الناطقين بها زيادة طبيعية عن طريق النمو، وذلك قد يدعو إلى انقسامها، وقد تساعد على ذلك عوامل أخرى اجتماعية وسياسية وثقافية ونفسية وفسيولوجية وجغرافية، فلا ريب أن الجماعات المختلفة على هذا النحو تختلف لغاتها بل تنقسم إذا كانت واحدة ثم اختلفت عليها هذه العوامل، بل إن الإقليم الواحد كجمهورية مصر العربية تنقسم فيه لغة المحادثة إلى ألوان شتى من اللهجات المحلية نتيجة لاختلاف البيئات - نسبيا - بين أهلها فى مدنها وقراها، فنحن نستطيع أن نلمس هذه الفروق من سيرنا فى تلك الأماكن، فمن مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى نلمح مظاهر هذا الاختلاف بين اللهجات، فعلى حين ينطق بعضهم (يقول) ينطقها آخرون (يئول) وآخرون (يجول) ويعبر بعضهم عن السيارة بكلمة (كومبيل) وبعضهم (أتومبيل) وبعض ثالث (ترمبيل) وساقية المياه يسميها بعضهم (تابوت) وبعضهم (طبلية) وبعضهم (حلزونة) وبعضهم (حلوفة)، وهكذا، على حين تبقى مع ذلك اللغة العامة مفهومة للجميع ومستعملة فى الكتابة والأمور الرسمية كلغة قومية وهى - عندنا - العربية الفصحى التى تربط بين الأمة العربية فى شتى أقطارها.

والملاحظ أن لكل بيئة لهجاتها الخاصة التى تنبع من حياتها والمؤثرات عليها، فهناك لهجات خاصة تبعا للطبقات المتعددة، فلهجة للارستقراطيين وأخرى للزراعيين وثالثة للتجاريين ورابعة للبحريين وخامسة لأرباب الصناعات والمهندسين وسادسة للرياضيين، وغير ذلك من ألوان اللهجات التى تناسب كل الفئات الاجتماعية، ولذا يطلق علماء اللغة المحدثون على هذا اللون اللهجى اسم (اللهجات الاجتماعية) وأهم تلك اللهجات ما يسمونه: (اللهجات الحرفية)(٥).

ويرى بعض علماء الأنتوجرافيا أن لهجات هذا النوع ترتجل ارتجالا ويتفق عليها من أفراد الجماعة المتكلمة بها، ولكن الرأى السديد هو أنها تخضع لعوامل البيئة

---

(٥) علم اللغة د. وافى ص١٧٣، ١٧٦ واللغة لفندريس ص ٣١٥، ٤٢٧، ٤٢٨.

والنشأة الاجتماعية التى تحياها تلك الطوائف مع تسليمنا بأنه ربما نشأ اصطلاح أو أكثر عن طريق الاختراع ثم شاع استعماله بالتقليد ولكن هذا ليس ظاهرة عامة.

كل ذلك الانقسام واختلاف اللغات واللهجات قد خضع لعوامل كانت الدراسة الغربية فاتحة له وممهدة طريقه وواضعة أسسه العامة والخاصة حتى أصبحت له قوانين العلم التى طبقت - قديما - على اللغات الهندية الأوربية وانقساماتها إلى طوائف لغوية كبيرة[٦] وعلى اللاتينية - إحدى لغات الفرع الإيطالى من هذه المجموعة اللغوية - فقد انشعبت إلى عدة فروع لهجية - فى أواخر العصور الوسطى - هى: الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا[٧].

وعوامل تكوين اللغة العامة برزت فى دراساتهم - أيضا - فقد لوحظ أن التغيرات الفردية لا تؤثر تأثيرا فعالا فى هذا المجال، بل الاعتماد على العوامل الاجتماعية متضافرة، فقد كانوا - كما ذكر الدكتور السعران - يفهمون قديما «أن الإيطالية قد كونها دانتى، والإنجليزية كونها تشوسر، والألمانية كونها لوثر، والدينمركية كونها كريستيرن بدرسن، فأظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفا»[٨] كما أن الانقسام إلى لهجات شعبية ومحلية كانت له مبادئ وقوانين عمل الغربيون على إثبات وجودها وتأكيدها بالأدلة السليمة النابعة من التجارب ودراسة الوقائع اللغوية التى تؤكد صحة النتائج.

وقد وصلوا من ذلك إلى تحديد عوامل الخلاف التى تحدث فى صراع اللغات واللهجات وما يعتريها من تشعب، فقد يكون كثيرا من الناحية الصوتية ثم يكون - أيضا - من الناحية الدلالية، أما ناحية القواعد فإنها تكون قليلة وبطيئة التغير عادة.

وإننا نلاحظ ذلك فى لغتنا العربية، فالخلاف كبير بين اللهجات الفصحى التى كانت فى الجزيرة مثل العنعنة والفحفحة والاستنطاء وغير ذلك، وبعض الألفاظ قد اختلفت

---

(٦) لها طوائف ثمان. انظر علم اللغة د. وافى ص ١٨٠ وما بعدها.

(٧) المصدر السابق ص ١٦٠، ١٦١.

(٨) اللغة والمجتمع د. السعران ص ١٧٣.

دلالتها كما فى وثب عند حمير بمعنى جلس وعند غيرهم من عرب الشمال بمعنى قفز، والسدفة - فى لهجة تميم - الظلمة، وفى لهجة قيس: الضوء[٩].

أما الخلاف فى القواعد - كالبنية والاشتقاق والجمع والتأنيث والنسب والتصغير وتكوين الجمل - فهو قليل،وهكذا فى اللهجات العربية الحديثة.

وقد ظهر من ملاحظة تلك العوامل وظواهر الانقسام ودراسات المحدثين من الغربيين ومن تابعهم أن تكوين لغة عالمية أمر بعيد المنال، فما دام البشر مختلفين فى طبيعة بيئاتهم وأجسامهم وثقافاتهم والعوامل التى تتغلب عليهم فلا يمكن اتحاد لغاتهم، لأنها سوف تخضع لتلك العوامل وتتأثر بها، فمهما تكن واحدة فى أول أمرها فسوف يعروها الانقسام. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[١٠].

واللغوى الحديث يدرس اللغة من وجهين:

١ - اللغة من الناحية التنظيمية والتركيبية الموروثة: والتى تكون مجموعة من القواعد والقوانين تختزن فى عقول الجماعة الناطقة بها وتطبقها فى ميادينها المختلفة للتعامل والسلوك الإنسانى.

٢- اللغة فى تطورها الاجتماعى والتاريخى: فالإنسان كما تنتقل أحواله البيولوچية ووظائفه العضوية من طور إلى آخر فى مراحل يمر بها المجتمع البشرى بأسره فكذلك عاداته وتقاليده وظواهر الاجتماع التى تتصل به ومنها اللغة التى عراها ويعروها الاختلاف والانتقال بمرور الأجيال والعصور فتتغير وتتلون بألوان تتأثر بحال الإنسان ومرور الأحداث المتقدمة به من ثقافات وتجارب تتقدم به أو تتأخر وتستحدث أمورا وتتخلص من أخرى مضى عليها الزمن أو غيرها من منظور اجتماعى أو سياسى أو نفسى إلى غير ذلك مما يؤثر فى الإنسان وفهمه للحياة فهما جديدا، وتخضع اللغة العامة للطبقات الاجتماعية كما نرى فى لغة العمال والفلاحين والصناع والتجار إلى غير ذلك، ومن هنا تعددت اللهجات وتنوعت بما يسمى اللهجات الحرفية أو الطبقية.

وقد نظر إلى اللغة المشتركة على أنها النموذج الذى يحتذى، وأنها المعيار الأساسى الذى يقاس عليه ولها قواعدها، ونظمها المعروفة وعلى أن اللهجات متفرعة من هذا النموذج وداخلة فى إطاره.

---

(٩) المزهر ط الأولى ١/ ١٨٨، ١٩١.

(١٠) سورة الروم الآية ٢٢.

الأطلس اللغوى

فى العصر الحديث ظهرت طرق ومناهج لدراسة اللغات واللهجات فى الغرب وانتقلت إلى الدراسات اللغوية المعاصرة فى العالم العربى.

وقد ظهرت دراسات لبعض العلماء فى التوزيع الجغرافى للغات واللهجات وإمكان بيان الحدود الجغرافية الفاصلة بين اللغات أو اللهجات التى تنضوى تحت اللغة الواحدة.

اللغات: قرر الباحثون سهولة بيان الحدود الجغرافية للغات فحدود اللغة العربية واضحة المعالم، فهى تمتد فى الجزيرة والشام والعراق وشمال أفريقية ويمكن معرفة نهاية حدودها بابتداء اللغات المجاورة لها من فارسية وتركية وأفريقية وغيرها. وهكذا حال اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية وغيرها حيث يمكن بيان حدود كل منها بطريقة ميسورة.

وهذا فى غالب الأمر، وقد يصعب إيجاد فاصل بين اللغات، بأن توجد فى بقعة واحدة، توجد بينها حواجز، كما فى سويسرا، ففيها أربع لغات هى: الألمانية والإيطالية والرومانية والفرنسية، فمناطقها يصعب الفصل بينها لخضوعها لنظام سياسى واحد واختلاط شعبها بعضه ببعض، وهكذا شأن اللغات المتجاورة، فالفروق بين اللغتين المتجاورتين تختفى فى الأقاليم الحدودية الانتقالية.

وكذلك اللغات المتقاربة فى الأصل اللغوى كالفرنسية والإيطالية فمع إمكان وضع نقاط انتقال محصورة بينهما لا يبقى هذا الخط عند حدود اللغتين وكذلك الحدود بين الفصحى ولهجاتها، فلا نستطيع أن نبين بداية الفصحى الألمانية Thigh German ونهاية الألمانية المبتذلة Lew Germen، وهناك خصائص وسطية تربط اللغات المتشابهة بعضها ببعض وقد تختفى فيحصل الاختلاف الواضح.

وهذا ينطبق على طوائف اللغات كالهندوأوربية والسامية وغيرها، وهجرات السكان تقضى على الاختلافات وتقربها مع عدم تفكك سلسلة المنطق اللغوية.

اللهجات: يصعب رسم خط جغرافى للهجات التى تنتمى إلى لغة واحدة للصلات القوية بين الناطقين بها لأنهم أبناء أمة واحدة. وبناء على ذلك:

١ - أنكر بعض الباحثين وجود لهجات فى اللغة الواحدة بناء على أن المكان واحد لا يمكن تجزئته، كما أنه ليس من الممكن التفريق بين الخصائص الصوتية والصرفية والمعجمية، ومن هؤلاء: بول ميرو وجاستين بارى الذى يقول: لا يوجد أى حد حقيقى يفصل بين فرنسى الشمال وفرنسى الجنوب فصور التكلم الشعبية عندنا تمتد على أرض الوطن من طرف إلى آخر كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة فى كل نقطة منه بعضها على بعض وأصبحت درجات لا يكاد يتميز بعضها من بعض. وكذلك جوهان شميدت صاحب نظرية الأمواج، فالظواهر اللغوية متداخلة كالموجات بحيث يتعذر الفصل بينها أو بيان حدود كل منها.

وقد طبق ذلك على دراسة اللغات الهندية الأوربية، وقرر عدم وجود لهجات فيها، وأن الخط الفاصل بين اللغة واللهجة يصعب فى غالب الأحيان تتبعه ورسمه[١].

وقد ينظر إلى تصنيف اللهجات على أساس من سماتها الخاصة على أنه شىء من صنع الخيال إلى درجة كبيرة، ففى الولايات المتحدة الأمريكية - مثلا - لا يوجد ما يمكن أن يسمى لهجة جنوبية أو لهجة غربية وسطى أو لهجة نيو إنجليزية، ولكن توجد سلسلة من الخصائص المحلية غير المتناهية مع بعض ملامح مشتركة من ناحية، وملامح متباينة من إقليم إلى إقليم من ناحية أخرى[٢].

٢ - وقال بعض الباحثين: إن الفصل بين لهجات اللغة الواحدة يمكن عن طريق التعرف على السمات والخصائص البارزة لكل لهجة مما يوجد فى منطقة ولا يوجد فى الأخرى، ومن هؤلاء مييه الفرنسى ونص عبارته: «هناك لهجة محددة فى كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منهما تتميز فى مجموعها ببعض السمات العامة التى لا توجد فى الأخرى ... فإن كلا من اللهجتين فى مجموعها قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة إلى حد يجعلها فى مأمن من الخلط بينها»[٣].

ويذكر بعض الباحثين: هناك على سبيل المثال خط افتراضى واضح محدد يمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى يخترق معظم الأرض الألمانية، وعلى أحد جانبى هذا

---

(١) أسس علم اللغة لماريوباى ص ٢١١ وفصول فى علم اللغة العام لـ (ف٠ دى سوسير) ص ٣٥٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص٦٩.   (٣) اللغة ٣١٢.

الخط يقول المتكلمون det وعلى الجانب الآخر يقولون das، وإذا كان هذا الخط الافتراضى لا يتطابق دائما مع الواقع فإنه - غالبا - ما ينظم الظواهر فى شكل حزم أو مجموعات مع اختلافات يسيرة نسبيا، وإذا أخذ المرء المتوسط أو المعدل لهذه الخطوط الفاصلة فإنه يمكنه أن يحدد خطا مفردا يفصل منطقة لهجة رئيسية عن غيرها، وهذا هو أساس الطريقة العلمية لتصنيف اللهجات الرئيسية فى لغة معينة(٤).

ويذكر فرديناند دى سوسير «من الممكن أن نحدد اللهجة بخصائصها الكلية التى تتضمن اختيار نقطة محددة على الخريطة، ومن الممكن - أيضا - أن نحدد اللهجة بإحدى مميزاتها ونحدد بيسر مدى انتشار هذه الميزة أو الخصيصة».

ويقول الدكتور أنيس: «متى برزت صفات خاصة واتضحت للسامعين وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة، أمكن القول أن هناك لهجة قد نشأت وتميزت وتدرس على أنها لهجة متميزة»(٥).

وهذا من شأنه أن يقرب المطلوب، ولكنه لا يؤدى إلى بيان الحد الفاصل الدقيق بين لهجة وأخرى.

فلهجات اللغة العربية - مثلا - يمكن التعرف على خصائص كل منها مصرية أو سورية أو عراقية إلخ، ولكن لا يمكن أن يعرف - بالتحديد - المكان الذى تنتهى عنده السورية أو غيرها للتداخل الشديد بينها.

وقياسا على ذلك فاللهجات المحلية فى أى قطر يمكن أن تخضع لهذا المقياس من حيث الخصائص والمميزات، فطرائق النطق بينها مختلفة، فبعضها يميل فى مثل (عليه - إليه) وبعضها ينطق القاف همزة وبعضها جيما، وأخرى تحول الكاف إلى قاف فى نطق بعض الكلمات كما يلاحظ ذلك فى اللهجات العامية فى مصر.

وهكذا بيان كل ما يكشف عن الفواصل بين اللهجات بحيث يمكن معرفة خصائص كل منها وسماتها.

---

(٤) أسس علم اللغة لماريوباى ص٧٠.

(٥) فى اللهجات العربية ص١٧.



وعلى هذا المنوال سائر اللهجات العربية فى أقطارها المتعددة ويبدو أن هذا الرأى جدير بالاتباع.

وقد كانت الدراسة القديمة تعتمد على الشواهد والنماذج وملاحظة ما تحتوى من نظم وقوانين تدرك بالتجارب الذاتية التى تقوم على المشافهة والتلقين والنقل عن السابقين.

ولا ريب أن الأطلس اللغوى كانت له بذوره فى دراسات علمائنا القدماء حين جمعوا النصوص اللغوية التى استخلصوا منها قواعد اللغة العامة، وفيما جمعوا من نصوص تتعلق ببعض اللهجات السائدة فى بعض مناطق الجزيرة.

وفى العصر الحديث جدت الأجهزة والآلات المعملية وطرق القياس المستحدثة التى يسرت دراسة اللهجات وتحديد خصائصها والأماكن التى تنتشر فيها فيما يعرف بالأطلس اللغوى أو الجغرافية اللهجية Linguistic Geography or Dialect Geography[٦].

وذلك على أساس من علم اللغة الجغرافى؛ لأن العلاقة قائمة بين اللهجات وبيئاتها الجغرافية.

وقد بدأ ظهور الأطلس اللغوى على يد اللغويين التاريخيين لأغراض تاريخية فى معظمها ثم أصبح ينحو المنحى الوصفى العلمى فى مجال البحث اللغوى[٧] وقد ظهرت فكرة الأطالس اللغوية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٨٨٦م) وكان (وينكر Wenker) فى ألمانيا و(جيليرون Gillieron) - واضع علم اللغة الجغرافى[٨] - فى فرنسا من أوائل المهتمين بوضع هذه الأطالس للغتين الألمانية والفرنسية ولهجاتهما

---

(٦) انظر: أسس علم اللغة لماريوباى ص١٣٤.

(٧) المصدر السابق ص ١٣١.

(٨) وظيفة علم اللغة الجغرافى أن يصف بطريقة علمية وموضوعية توزيع اللغات فى مناطق العالم المختلفة ليوضح أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية والثقافية وطرق تفاعل اللغات بعضها مع بعض. ماريوباى ص ٣٧. علم اللغة الجغرافى هو التطبيق العملى الحديث لعلم اللغة، وعلم اللغة الجغرافى يغطى بشىء من التفصيل الوضع الحالى للغات العالم من حيث عدد المتكلمين والتوزيع الجغرافى ص ٦٤. وانظر أيضا ص ١٨٥، وتدرس فيه العوامل التى تؤدى إلى تقدم لغة أو تقهقرها وإحلال غيرها محلها ص٧٢.

ووضعوا شروط هذا المنهج الجديد للدراسة اللغوية حتى تخلو بهذا المنهج من الخطأ وتتجه ناحية الصواب، ثم امتد هذا النشاط العلمى اللغوى إلى دول أخرى كسويسرا والنرويج والسويد والبرتغال وإيطاليا وأمريكا وبعض البلاد الشرقية.

وفكرة الأطلس اللغوى نالت اهتماما كبيرا فى العصر الحديث لتحديد جوانب مفيدة فى علم التاريخ اللغوى، ويبدو هذا فى الصيغ الحية للغة أى بلد، بالإضافة إلى ما تحويه من خصائص لهجية متنوعة، وقد ساعد هذا كثيرا علماء اللغة التاريخيين، وبخاصة عند تحديد معالم التغير التى تمت فى الماضى حينما تكون الشواهد المطلوبة مفقودة، أو غير كافية(٩).

ومع ذلك فحتى هذا الوقت لا توجد إلا مناطق ضئيلة جدا هى التى وضع لها أطلس لغوى(١٠).

ويهتم علماء الأطالس اللغوية بدراسة الظواهر اللغوية الحديثة المتكلمة، ويهتمون بالناحية العلمية التى تنتقل إلى حقل التجربة.

وهم يجمعون المادة اللغوية المطلوبة من الأماكن المحلية التى يقع عليها الاختيار من إقليم ما - رسمت حدوده - لعمل خرائط له، مع الاستعانة براو يمثل المتكلمين المحليين، وكذلك الاستعانة بمسجل لغوى مدرب تدريبا دقيقا على كيفية الإجابة على الأسئلة.

ويجرى البحث بتحديد مجموعات الكلمات والعبارات والجمل التى يسبق إعداد مقابلات لها من اللغة العامة أو بتحديد الظاهرة أو الظواهر اللغوية التى يراد دراستها.

ويرتب ذلك فى صورة أسئلة يجيب عليها الراوى اللغوى، والمادة التى ينطقها الراوى اللغوى إما أن تكتب بالطريقة الصوتية أو تسجل على جهاز تسجيل، أو تستخدم الطريقتان معا.

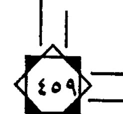
ثم تجرى مرحلة المقابلة والمعارضة بين كل كلمة أو عبارة أو اصطلاح أدلى به الرواة اللغويون المحليون وبين المقابلات لها من اللغة العامة، وتستخلص من المقارنة النتائج وتوضع على خريطة مستقلة للمنطقة.

ولهذا اللون من الدراسة طرق متنوعة عند العلماء والباحثين المشتغلين بعلم اللغة الجغرافى.

---

(٩) أسس علم اللغة لماريوباى ص١٣٢ وانظر أيضا ص ٣٧، ٢٢١.

(١٠) المصدر السابق ص٢٤٠.



ففى ألمانيا برزت (طريقة وينكر) وتقوم على جمع إحصائى تحدد فيه عدة خصائص أو كلمات أو عبارات من اللغة الفصحى أو العامة تمثل مظاهر لغوية متعددة صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية ودلالية، وينظر إليها على أنها المقياس المعيارى.

ويقوم المسجل اللغوى باستطلاع رأى الراوى اللغوى الممثل لنطق اللغة المحلية أو اللهجة التى يراد دراستها، فيسجل الكلمة أو العبارة أو الجملة التى ينطقها الرجل العادى فى الشائع من الاستعمال اللغوى فى الحياة العادية للمجتمع مما يقابل النطق النموذجى للغة العامة.

وبعد ذلك تفحص الإجابات - لعدد كبير من الرواة اللغويين، والتى سجلها المسجلون اللغويون - ويقارن النطق الذى فى اللغة أو اللهجة المدروسة بالنظام أوالاستعمال اللغوى النموذجى، وتستخلص النتائج المستنبطة من الإجابات على الأسئلة المدونة، ثم توضح هذه النتائج على خرائط لغوية، وتصنف حسب مجالات الدراسة من حيث أصوات المفردة والكلمات والجمل والدلالة والقواعد التى تخضع لها.

وفى فرنسا برزت (طريقة جيليرون) فى لون آخر من عمل الخرائط اللغوية.

وفيها تختار البلاد أو الأماكن التى يجرى فيها البحث من البلاد التى لها تأثير لغوى واضح فيما حولها من الأماكن بحيث تمثل بيئة لغوية واسعة.

وتوضع أسئلة فى صورة مجموعات كل مجموعة تتعلق بدراسة إحدى الظواهر اللغوية أو عدة ظواهر يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا، وتعرض هذه الأسئلة على أهل البلاد التى تجرى فيها دراسة اللهجة أو الظاهرة اللغوية عن طريق الرواة اللغويين أيضا، ويقوم بعمل الإحصاء مسجل لغوى مدرب كذلك.

وبعد جمع الإجابات تدرس ليمهد ذلك لمعرفة الخصائص والسمات للهجة أو اللهجات التى يقصد دراستها فى مجال الأصوات أو صيغ الألفاظ أو طرق التعبير إلى غير ذلك، ثم تسجل هذه النتائج على الخريطة الخاصة بها.

ويحتوى الأطلس اللغوى فى فرنسا - على سبيل المثال - على خريطة منفصلة كبيرة لكلمة «حصان» - كما تستعمل فى لغة الكلام - فى حوالى خمسمائة منطقة فرنسية مختلفة، وهناك خرائط لكلمات أخرى، والمحصل النهائى لهذه الخرائط يعطينا مجموعات من الخطوط المتقاطعة التى تمثل كل منها واحدة من الخمسمائة لهجة محلية

ليس فقط فيما يتعلق بالمفردات ولكن أيضا فيما يخص مجموعات الكلمات التى تخدم الغرض النحوى، وبهذا يصبح من الممكن تماما استخلاص نحو وصفى لكل لهجة من تلك اللهجات المحلية باتباع أسس التحليل الفونيمية والصوتية(١١).

وفى طريقتى وينكر وجيليرون يشترط فى الراوى اللغوى أن يكون من أهل المنطقة المدروسة الأصليين الذين لم يغادروها ولم يتأثروا بغيرهم ثقافيا أو اجتماعيا، وأن تتوافر فيه المقدرة اللغوية على تمثيل النطق الصحيح لأهل بيئته، وأن يتوافر عنده قدر كبير من الوعى والفهم للأسئلة بحيث يمكنه الإجابة عليها دون تعثر أو انحراف.

وأن يكون صادق القول غير واقع تحت مؤثرات تجعله يخفى بعض الإجابة أو يجيب بغير المطلوب، أو يعطى بيانات غير صحيحة أو غير دقيقة لأسباب أخرى.

«وكلما كان الراوى اللغوى أقل ثقافة كان أفضل لأن المتعلمين، أو الأكثر تعلما فى المنطقة تتأثر لغتهم بمعلوماتهم واحترامهم للغة الأدبية الوطنية»(١٢).

وفى الأطلس الفرنسى لم تحدد خصائص أو عبارات معينة يقاس عليها كما فى الطريقة الألمانية. وبهذا يمكن أن نميز الطريقة الفرنسية بأن المسجلين اللغويين لا يؤثرون على المتكلم الذى تدرس لهجته بل يترك على طبيعته ليقول ما يشاء، أما الطريقة الألمانية فقد فرضت نظما معينة تتطلب الإجابة بما يمكن أن يتكلف لها المجيب أو يحور من طريقة الإجابة تبعا للتأثير النفسى واللغوى عليه، وإن كانت الطريقة التى اتبعها النظام الألمانى تأخذ فى الاعتبار شمول النواحى المتعددة للاستعمال اللغوى مما يجعلها أوسع وأشمل.

والأطلس اللغوى يحوى خرائط متعددة للوقوف على ظواهر اللغة أو اللهجة مع الاستعانة ببعض النواحى الهندسية.

وعلى هذا فالأطلس اللغوى يقوم على عمل خرائط لبيان أصوات أو كلمات أو تراكيب لغة أو لهجة معينة أو عدة لهجات وتوضيح صلتها باللغة الأصلية أو بأخواتها من اللغات أو اللهجات الأخرى.

---

(١١) المصدر السابق ص ١٣٣.

(١٢) المصدر السابق ص١٣٢، ١٣٣.



وعمل الأطالس اللغوية يعتمد - إلى حد كبير - على مفردات اللغة وهو عمل لغوى يتم تحت ظروف البيئة المعينة(١٣).

وتتجلى أهمية هذه الخرائط اللغوية فى أنها توقفنا على بيان النواحى الصوتية واختلاف الألفاظ تبعا لاختلاف المناطق وأوجه الشبه بين اللغات واللهجات ومظاهر الاختلاف بينها على نحو دقيق.

ويخضع ذلك لطرق قياسية محددة لتوضيح ما يتعلق بالنواحى اللغوية المتنوعة على المستوى الصوتى والدلالى للغة واحدة ولهجاتها أو للغات لها علاقة بها أرقى منها أو أدنى، وهذا يتطلب عمل إحصاءات تتوقف عليها النتائج العلمية اللغوية، وهذا يتوقف على نوع الإحصاء العميق الدقيق أو السطحى الموجز، وكلما لوحظ التوحد فى طرق القياس والإحصاء كان ذلك داعيا إلى دقة النتائج.

والذى ينبغى عمله - فى هذا - هو الاستعانة بالمعلومات الدقيقة وجمع المادة التى تمثل ظواهر اللغة أو اللهجة بشمول واف فى مختلف المناطق، وأن تلاحظ كفاءة الرواة اللغويين والمسجلين بحيث تأتى النتائج دقيقة سليمة فلا تختلف من راو إلى آخر ولا من مسجل إلى غيره، ولا بد من تحديد الأسئلة التى ستلقى بحيث لا تختلف بين المسئولين، وألا تكون هناك عوامل مؤثرة فى اختلاف الإجابات أو صدقها.

وعن طريق الأطالس اللغوية تتحدد سمات اللغة أو اللهجة وخصائصها - فى مجالات الأصوات والكلمات والجمل وشتى النواحى اللغوية - ويعرف مكانها وصلتها باللغات أو باللهجات المجاورة وعلاقتها بالأم التى تفرعت عنها، وعلى هذا يمكن رسم الحدود الجغرافية لها على خريطة بوضوح كامل ومعرفة التغييرات التى تطرأ عليها من حين لآخر(١٤).

وهذه الأطالس تعتمد فى الكشف عن التاريخ الذى مرت به اللغة فى عصورها التى مرت بها وبيان اللهجة التى تعد أقرب إلى الفصحى - إن وجدت - ونتيجة لهذا اللون من الدراسة تكون الحدود اللهجية - أحيانا - واضحة كما فى المناطق الصحراوية أو الغابات أو المرتفعات، وأحيانا تكون غير محددة تحديدا واضحا، كما فى لهجات المناطق التى يتصل بها غير أهلها كحدود لهجات العواصم كالقاهرة ولندن وبغداد لتأثر البلاد المجاورة

(١٣) المصدر السابق ص١٣١ بتصرف.

(١٤) انظر: الأطلس اللغوى د. خليل عساكر ص ٣٧٩.

بها، ولهجة مصر بالنسبة للعالم العربى هى مصدر تتأثر به البلاد العربية الأخرى لمركزها السياسى والثقافى الذى يجعلها محط الأنظار.

والأطلس اللغوى يصبح - بعد إتمامه - مرجعا للغوى حيث يزوده بالمعلومات التى يريدها بدلا من الخروج بنفسه، ومحاولة الذهاب إلى الحقل اللغوى في المنطقة موضوع اهتمامه، وإن كان نزول اللغوى المباشر إلى الحقل اللغوى قد يصبح ضروريا مع وجود الأطلس اللغوى حينما تواجهه مشكلات خاصة. ومع ذلك فالأطلس اللغوى خاضع للتغيير وغير ثابت لما يعترى الحياة من تغيير، ولذا لا تظل نتائجه ثابتة بل يقتضى عمل أطالس بين الحين والآخر لمعرفة ما جد من تغييرات وتأثيرات لغوية فى المناطق التى درست من قبل. وهذا شأن اللهجات العامة الخاضعة للتطور السريع[١٥].

وعلى ذلك ينبغى فى دراسة اللهجة مراعاة أمور أهمها ما يلى:

١- إقامة الدراسة على أساس جغرافى.

٢- الاعتماد على الجانب الوصفى أى على ما هى عليه لا على ما ينبغى أن تكون عليه.

٣- بيان الطبقة الاجتماعية التى يراد دراسة لهجتها من عمال أو فلاحين أو صناع أو مثقفين ... إلخ.

٤- أن يكون الخبراء اللغويون الذين تؤخذ عنهم اللهجة من الناطقين بها ممن يمكن أن يمثلوا اللهجة تمثيلا صحيحا، والكلام الطبيعى خير مثال صادق.

٥- الاعتماد على النصوص فى اللهجات الصوتية المكتوبة.

٦- لابد من تمحيص الحقائق لكل إقليم عدة مرات لتوضيح الخصائص الصوتية والمعجمية والصرفية إلخ التى تتزاحم وتتراكب.

٧- أن تكون الاستبيانات مخططة بوضوح وتعاون المؤسسات المحلية.

ثم يحلل ما جمع من مادة علمية عن طريق الأجهزة والآلات - إن أمكن - ويوازن بين النتائج المعملية والنتائج السمعية المستنبطة بالملاحظة الذاتية وتستخلص النتائج

---

(١٥) أسس علم اللغة لماريوباى ص ١٣٣.

الصحيحة التى اتفق عليها سمعا وتجربة وحال الخلاف بينهما ينظر سبب الخلاف حتى يهتدى الباحث إلى الحقيقة، ثم يستخلص النظام العام للظاهرة اللغوية المدروسة.

ويمكن استخدام هذه الأطالس فى دراسة العربية الفصحى ولهجاتها وصلتها باللغات السامية واللغات الأجنبية، وهذا وثيق الصلة بالنصوص اللغوية ويمكن أن يساعد فى معرفة اللهجات المعاصرة، وربما كشف شيئا من تاريخ الظواهر اللغوية وعناصرها عندنا وتأثرها بغيرها[١٦] وربما كشف ذلك شيئا من الصلة بين اللهجات القديمة الفصحى واللهجات الحديثة عن طريق الموازنة العلمية والكشف عن الألفاظ الدخيلة من اللغات الأخرى.

وهذا العمل فى العربية يحتاج إلى جهد مضن وإلى عمل جماعى دائب يتحلى بالروح العلمية الجادة حتى يمكن الوصول إلى أطلس لغوى عربى حديث.

واللغة المشتركة تحكمها قواعد وقوانين في مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها الحقيقية والمجازية إلى غير ذلك مما عرف بقواعد النحو والصرف والبلاغة ومتن اللغة.

ولم يكن القدماء يهتمون بلهجات العربية خوفا على الفصحى منها ولأن اهتمامهم الأساسى بالفصحى وإن كانت بعض اللهجات قد درست فى كتب النحو واللغة دراسة جانبية. والعاميات يمكن دراستها على أساس أن لها قواعدها وليست - كما يظن - لا قواعد لها بل يمكن ضبطها وحصر مفرداتها وتراكيبها أيضا ودراستها دراسة وصفية.

وهى فى العالم العربى لها مظاهرها المتعددة والمتأثرة باللغات التى كانت فى المناطق التى تنتشر فيها كالفارسية فى العراق والرومية والسريانية فى الشام والقبطية فى مصر، وكذلك اللغات التى تدخل تلك المناطق مع التفاعل المتبادل بين شعوبها وشعوب العالم من ذوى اللغات المختلفة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية إلى غير ذلك، وكذلك آثار البربرية في لغات شمالى أفريقية وتأثير النوبية فى السودان، وهناك تأثيرات للغة الهندية في الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية.

---

(١٦) الأطلس اللغوى د. خليل عساكر ص ٣٧٩.

وهذه التأثيرات كما تتناول نقل بعض الألفاظ والتراكيب الأجنبية قد تتناول تأثيرات في جوهر اللغة فتصاغ الألفاظ العربية بطرق جديدة وكذلك التراكيب مثل: أعطني واحد شاى أو اثنين قهوة إلى غير ذلك، واللهجات الحديثة تحوى جانبا من اللغة الفصحى ولهجاتها إلى جانب ما دخلها من مظاهر جديدة وإن كان لا يعرف على وجه التحديد كيف تطورت ولا كيف اختلفت أو تفرعت، ويبدو أن اللهجات العامية مستمدة من الفصحى العربية مع تأثرها باللغات المحلية للأقاليم التى دخلها الإسلام.

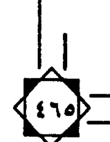
وإن الفاتحين الذين نزلوا فى ثكنات عسكرية كانوا خليطا من العرب أرباب اللهجات العربية الأصيلة وقد اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة وأثروا فيهم فنشأت لغة تجمع بين خواص اللغة الأصلية للسكان ولهجات العرب الفاتحين.

ولذا تبدو فى لهجات الأقاليم التى دخلها الإسلام مظاهر من اللهجات العربية القديمة للعرب الذين انتقلوا إليها - كقيس وتميم والحجاز وأضرابهم - وهى متأثرة بلغات البلاد الأصلية.

ومن هنا يمكن أن تدرس اللهجات العامية لبيان أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وقواعدها ومعرفة أصولها المؤثر منها والمتأثر. وهذا الكشف عن الخصائص والسمات يحتاج إلى مجهود كبير وتواجه الباحثين فيه مصاعب جمة.

وقد اتجه بعض المستشرقين إلى دراسة اللهجات فى الوطن العربى ومن ذلك:

- لهجة اليمن لـ ٠ غ ٠ كمبفماير الألمانى.
- لهجة بغداد لـ (مايستر).
- لهجة القدس لماكس مولر الألمانى.
- دراسة صوتية فى العامية المصرية لـ (هاريل).
- نحو اللسان العربى العامى الدارج بمصر لـ: (و٠ اسبيتاباى).
- دراسات فى اللسان العربى العامى ببيروت لـ: (أ٠ ماتسون).
- دراسات فى اللسان العربى الدارج بدمشق لـ: (غ٠ برجستراسر).



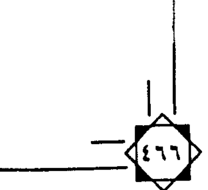
وقد قام: المستشرق الألمانى برجستراسر ببعض الرحلات إلى سوريا وفلسطين لعمل خريطة جغرافية للهجات هذه المناطق.

- لهجات شرقى الجزيرة (م جونسون) بجامعة لندن.

- صوتيات العربية بالمغرب الأقصى لـ: (أ٠ فيشر).

- نحو العربية التونسية لـ: (هـ٠ اشتمه).

وسار على هذا المنوال دارسون عرب فى العصر الحديث، فنرى دراسة لهجة القاهرة على يد الدكتور إبراهيم أنيس، ولهجة لبنان على يد الدكتور كمال بشر، ولهجة الكرنك على يد الدكتور تمام حسان، ولهجة إقليم ساحل مريوط للدكتور عبد العزيز مطر، ولهجة صنعاء وصلتها بالعربية الفصحى للمؤلف وغيرها...



نهاية وخاتمة

درسنا موضوع اللهجات متتبعين جذوره وعناصره من جوانبها المتعددة بما رأينا أنه يمثل أساس الدراسة اللهجية فتحدثنا عن الكلام والقول واللغة واللهجة وأسباب الانقسام والتوحد اللغوى ليكون مدخلنا لتناول اللهجات العربية، ثم تناولنا أثر البيئة ولقاء المجتمع البشرى بعضه ببعض - بعامة والعربى بخاصة - فى نشأة ألوان لهجية متنوعة توحدت فى لغة عامة للعرب جميعا، بعد صراع لغوى طويل.

وكانت لنا وقفات مع المتجنين عليها من مستشرقين وغيرهم لنرد الحق إلى نصابه.

ثم تناولت اللهجات العربية فيما بقى محفوظا فى كتب اللغة والنحو والقراءات من مظاهر إبدالية تناولت عديدا من مصطلحات اللهجات، وقد حاولت الاستقصاء والتتبع لذلك فى كل ما يتصل بالتغيير فى الأصوات سواء كانت حروف علة أو صوامت أو حركات مما له مصطلح لهجى أو لغوى ومما ليس له.

ومع أن الظاهرة واسعة متباعدة الأطراف حاولت جمع شتاتها ونظمه فى إطار علمى درسته بعرض آراء القدامى والمحدثين منتهجا البحث عن الحقيقة العلمية الناصعة.

وقد قام البحث على الربط بين الدراسة اللهجية والنحو والقراءات وأكد عمق الصلة بين ذلك كله، مما يكشف للباحث والدارس أن الإفادة الكاملة تأتى من الموازنة بينها، وربط كل منها بالآخر.

ثم عرضت للدرس اللهجى الحديث مبينا أسسه ومبادئه وكيف نفيد منه فى الاهتمام بالفصحى.

وقد عرضت الآراء فى نشأة العربية وتطورها ولم آلُ جهدا فى الكشف عن خصائصها وصلتها بأهلها وبيئاتهم وثقافتهم.

ونخلص من ذلك إلى ما يلى:

١ - دراسة اللهجات العربية تمثل مدخلا مهمًّا فى فهم طبيعة العربية الفصحى، لأنها تكشف كيف تنوعت، وتعددت طرق التعبير فيها، وأسرارها، ويمكن فهم قواعدها، وقوانينها التى تحكمها.

٢- وإن تعدد القبائل العربية قد بدا أثره فى كلامها وصلتها ببيئتها بدوا أو حضرا، سواء فيما يتصل بالجانب الصوتى أو الجانب الدلالى.

٣- إن التنقيب عن أولية العربية وتطورها يجد بابا واسعا فى لهجاتها للتعرف على النشأة والتطور، ويلقى بيانا واضحا عن تفرعها من الأم الأولى.

٤- فى إطار الدراسة اللهجية العربية نستطيع معرفة اتجاه التقنين اللغوى فيها، وصلته بالتعليل النحوى وكيفية توجيهه لمعرفة ما أراده العرب الفصحاء.

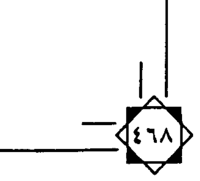
٥- إن الاحتجاج للقراءات القرآنية - من خلال مناهج علم اللغة الحديث - يضع التفسير الملائم لها فى إطار اللهجات التى تمثلها.

٦- لعل فى تنوع الإبدال بين الحروف والحركات ما يدل على تحول الحياة الإنسانية بعامة والعربية بخاصة فى مظاهرها الاجتماعية واتصالها باللغة.

وهناك صلة بين التبدلات الصوتية فى اللغات العالمية يمكن الكشف عنها بمعرفة خصائص الإبدال وطرقه، ولكن ذلك يحتاج إلى صبر وأناة، واطلاع واسع وإلى حيدة علمية وإنصاف فى التحليل اللغوى لبيان الحقيقة العلمية واللغوية.

ولعنا نتمكن - إن شاء الله تعالى - من إجراء نوع من هذه البحوث فيما يوفقنا له الله تعالى فى المستقبل القريب بالربط بين الإبدال فى العربية وبعض اللغات الإنسانية الأخرى كالإنجليزية وغيرها.

والله ولى التوفيق



أهم المصادر

- الإبدال لأبى الطيب اللغوى. دمشق ١٣٧٩ هـ - -١٦م.
- ابن جنى اللغوى. رسالة دكتوراه للمؤلف فى مكتبة كلية اللغة العربية مقدمة سنة ١٩٧١م.
- أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى. نهضة مصر ١٩٥٨م.
- الإتقان للسيوطى. ط مصطفى الحلبى ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبنا الدمياطى. ط ١٣٥٩م.
- أدب الكاتب لابن قتيبة. ط ١٣٢٨هـ. القاهرة.
- أسس علم اللغة لـ (ماريوباى) ترجمة وتعليق الدكتور أحمد مختار عمر. الطبعة الثانية ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م مطابع سجل العرب.
- الأشباه والنظائر للسيوطى. ط حيدر آباد.
- الاشتقاق لابن دريد. السنة المحمدية ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
- إصلاح المنطق لابن السكيت تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون ط. القاهرة.
- أصوات اللغة العربية للدكتور عبد الغفار هلال. مطبعة الجبلاوى. ط الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس. لجنة البيان العربى ١٩٦١م.
- الأصول. دراسة ايبستمولوجية لأصول الفكر اللغوى العربى· ط مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء· ط الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى. القاهرة ١٩٤١م.
- الاقتراح للسيوطى. ط الأولى.
- الإمالة فى القراءات واللهجات العربية للدكتور عبد الفتاح شلبى. نهضة مصر ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

الأمالى لابن الشجرى (نشره كرنكو) ط حيدر اباد ١٣٤هـ
الأمالى لأبى على القالى ط الثالثة القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦م
أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) للقاصى ناصر الدين البيضاوى جدة المكرمة ١٣٥٨هـ
- أوضح المسالك لابن هشام ومعه منار السالك للأستاذين محمد عبد العزيز النجار وعبد العزيز حسن. مطبعة الفجالة
- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ط ١٣٢٩هـ. القاهرة.
- البيان والتبين للجاحظ. ط. القاهرة ١٣١١هـ.
- تاج العروس بشرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدى. المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦هـ، ط بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى ط الأميرية ١٣٩٢ هـ ودار الكتاب العربى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م
- تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى مطبعة الأخبار ١٩١١م
- تاريخ الأدب العربى. العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف ١٩٦٠م.
- تاريخ الأسم والملوك للطبرى. تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم. دار المعارف ١٩٦٨م.
- تثقيف اللسان لابن مكى الصقلى لجنة إحياء التراث الإسلامى ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- التجويد والأصوات للدكتور إبراهيم نجا. ط السعادة
- تحقيق النصوص ونشرها للأستاذ عبد السلام هارون لجنة التأليف ١٣٧٤ ١٩٥٤م
- التصريف الملوكى لابن جنى أوربا (ليبزج) ١٨٨٥م، ط مصر (شركة التمدن الصناعية) ١٣٣١هـ - ١٩١٣م.
- التطور اللغوى التاريخى للدكتور إبراهيم السامرائى. دار الرائد. القاهرة ١٩٦٦م
- تنوير الحوالك. شرح موطأ مالك للسيوطى. ط القاهرة. دار إحياء الكتب العربية
- تهذيب اللغة للأزهرى. الدار المصرية للتأليف والترجمة. مطابع سجل العرب
- الجامع الصحيح للترمذى. ط ١٣٤١هـ وما بعدها وبتحقيق الأستاذ أحمد شاكر ط٣ القاهرة ١٩٦٨م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) للإمام القرطبى ط الشعب

جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط دار المعارف ١٣٩١هـ ١٩٧١م

جمهرة اللغة لابن دريد مطبعة المعارف بحيدر آباد. الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.

جمع الجوامع للسيوطي ط ١٣٣٧هـ

- الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي. بتحقيق الأستاذ طه محسن. نشر جامعة بغداد ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

- الحجة لأبي علي الفارسي. الجزء الأول. ط دار الكتاب العربي.

- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه بتحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم .ط ٢ دار الشروق ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. لابن عمر البغدادي. الطبعة الأولى ببولاق سنة ١٢٩٩ هـ وط دار الكتاب العربي ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م بتحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون.

- الخصائص لابن جني. ط دار الكتب ١٣٧١ هـ - ١٣٧٦ هـ (١٩٥٢م - ١٩٥٦م) مع مقدمة محققه الشيخ محمد علي النجار.

- دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح. ط بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

- دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي. بغداد ١٩٦١م، ١٩٧٤م.

درة الغواص في أوهام الخواص للحريري بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. ط نهضة مصر ١٩٧٥م.

دروس في علم أصوات العربية لجان كانتينو ترجمة صالح القرمادي - تونس ١٩٦٦م.

- دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

- دور الكلمة في اللغة لاستيفن أولمان. ترجمة الدكتور كمال بشر ١٩٦٢م.

- ديوان الأدب للفارابي بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر. ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م.

- ديوان صفي الدين الحلي المطبعة العلمية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.

- سر صناعة الإعراب لابن جني الجزء الأول ط ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م ومخطوط مكتبة الأزهر (١١٦ لغة) ودار الكتب المصرية ٥٨١٦هـ.

السيرة النبوية لابن هشام ط الثالثة ١٩٧٨م.

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك مع حاشية الشيخ محمد الخضرى. المطبعة الأزهرية ١٣٥٠ هـ ١٩٣٢م.
- شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى. ط دار إحياء الكتب العربية. المطبعة الأزهرية ١٣٢٥هـ.
- شرح الشافية للرضى. ط صبيح ١٣٤٥ هـ وط حجازى بتحقيق الأستاذ محمد نور الحسن وآخرين ولعبد الله الحسينى، والفاضل العصام. ط دار إحياء الكتب العربية.
- شرح شذور الذهب لابن هشام. ط صبيح ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- شرح المفصل لابن يعيش. ط المنيرية.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق الأستاذ أحمد شاكر. ط دار المعارف ١٩٨٢م.
- الصاحبى لابن فارس. المؤيد ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م وط بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٦٤م.
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا لأبى العباس أحمد القلقشندى. الأميرية ١٣٣١هـ ١٩١٠م.
- صحيح مسلم بشرح النووى. المطبعة العصرية. ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.
- صفة جزيرة العرب للهمدانى. ليدن ١٨٨٤م.
- الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر للسيد محمود شكرى الألوسى. ط السلفية ١٣٤١هـ.
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى. دار المعارف ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- الطبقات الكبرى لابن سعد. بيروت ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م.
- العربية ولهجاتها للدكتور عبد الرحمن أيوب. مطابع سجل العرب ١٩٦٨م.
- العقد الفريد لابن عبد ربه. ط ١٢٩٣ هـ القاهرة.
- علم الأصوات عند سيبويه ٠ أ٠ شادة ٠ ليدن ١٩١١م.
A. Schade: Sibwaihi's Lautiehre Leiden, 1911.
- علم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ٠ ط السلفية ١٣٥٧ - ١٩٣٨م ونهضة مصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢م.
- علم اللغة بين القديم والحديث للدكتور عبد الغفار هلال. مطبعة الجبلاوى. ط الثالثة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدى الجزء الأول إلى الثامن ط بغداد ١٩٦٧م - ١٩٨٥م.

- فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى لابن حجر. نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية

- فتوح البلدان للبلاذرى. تحقيق صلاح الدين المنجد. ط النهضة المصرية ١٩٥٦م.

- فصول فى علم اللغة العام لفرديناند دى سوسير - ترجمة الدكتور أحمد نعيم الكراعين. المطبعة العصرية. الإسكندرية ١٩٨٥م.

- فعل وأفعل للأصمعى. تحقيق الأستاذ عبد الكريم الغرباوى .ط لجنة تحقيق التراث ببغداد.

- الفائق فى غريب الحديث والأثر للزمخشرى .ط حيدر آباد ١٣٢٤ هـ - ١٩٢٥م.

- فقه اللغة للدكتور إبراهيم نجا. السعادة ج ٣ - ١٩٦٥م، ج٤ - ١٩٦١ وطبعة أخرى جديدة.

- فقه اللغة للدكتور عبد الله العزازى. دار الطباعة المحمدية ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧م.

- فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى. لجنة البيان العربى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

- فقه اللغة للدكتور محمد المبارك. ط جامعة دمشق ١٣٧٩هـ٠ ١٩٦٠م.

- فقه اللغة وسر العربية لأبى منصور الثعالبى .ط الحلبى ١٣٩٢ هـ.

- الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية للأستاذ جورجى زيدان. دار الهلال ١٩٢٣م.

- فى أصول اللغة (مجموعة القرارات التى أصدرها المجمع اللغوى عن الدورة التاسعة والعشرين إلى الدورة الرابعة والثلاثين فى أقيسة اللغة وأوضاعها العامة) ط ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

- فى اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس ٠ط٢ لجنة البيان العربى ١٩٥٢م، (ط٣) المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٥.

- القاموس المحيط .ط بولاق ١٢٨٩هـ، والحسينية ١٣٣٠ هـ، والسعادة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٣م.

- القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين. دار القلم ١٩٦٦م.

- القراءات وصلتها باللهجات العربية. للدكتور عبد الغفار هلال. بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض. العدد الثانى عشر.
- القلب والإبدال ليعقوب بن السكيت. القاهرة ١٣٩٨ - ١٩٧٨م.
- قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندى بتحقيق إبراهيم الأبيارى. ط دار الكتب الحديثة ١٩٦٣م.
- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد. مطبعة الاستقامة ١٣٦٥هـ.
- الكتاب لسيبويه. ط بولاق ١٩١٦م، ١٩١٧م، وبتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط. دار القلم ودار الكاتب العربى.
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد. بتحقيق الدكتور شوقى ضيف. ط دار المعارف ١٩٨٠م.
- كنز المعانى شرح حرز الأمانى (الشاطبية) المشهور باسم شرح شعلة لأبى عبد الله الموصلى. ط دار التأليف. بالقاهرة.
- اللسان والإنسان للدكتور حسن ظاظا. ط دار المعارف ١٩٧١م.
- لسان العرب لابن منظور. ط بولاق ١٣٠٠هـ - ١٣٠٧هـ، ط بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.
- العربية خصائصها وسماتها للدكتور عبد الغفار هلال مطبعة الحضارة ١٩٧٦م.
- لغات البشر لـ «ماريوباى» ترجمة الدكتور صلاح العربى. نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- اللغات فى القرآن لإسماعيل بن عمر المقرى. حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد. ط الرسالة ١٩٤٦، ودار الكتاب الجديد ١٣٦٨ هـ - ١٩٧٨م.
- اللغة للأستاذ فندريس تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص. لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠م.
- اللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب. الأنجلو المصرية - ١٩٥٤م.
- اللغة الشاعرة للأستاذ عباس العقاد. مطبعة مخيمر ١٩٦٠م.
- لغة تميم للدكتور ضاحى عبد الباقى. ط ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- اللغة العربية كائن حى للأستاذ جورجى زيدان. دار الهلال.

- اللغة والمجتمع للدكتور محمود السعران. ط ٢ دار المعارف. الإسكندرية ١٩٦٣م.
- اللغة والمجتمع للدكتور وافى. دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥م.
- اللغة والنحو بين القديم والحديث للأستاذ عباس حسن . دار المعارف ١٩٦٦م.
- اللهجات العربية للدكتور إبراهيم نجا. ط السعادة.
- اللهجات العربية فى التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندى. ط ١٩٧٨م. الدار العربية للكتاب.
- اللهجات العربية فى القراءات القرآنية للدكتور عبده الراجحى. دار المعارف ١٩٦٩م.
- ليس فى كلام العرب لابن خالويه. الطبعة الأولى بالمطبعة المحمودية التجارية.
- مجالس ثعلب لأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط. القاهرة دار المعارف ١٩٦٠.
- مجمع الأمثال للميدانى. السعادة ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.
- محاضرات فى فقه اللغة إلقاها أستاذنا الدكتور محمد قناوى. على طلبة الصف الثالث بكلية اللغة العربية عام ١٩٦٣م.
- محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها للدكتور أنيس فريحة ١٩٥٥م.
- المحتسب لابن جنى. دار التحرير ١٩٨٦هـ ١٣٨٩هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة لابن سيدة ط مصطفى الحلبى ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م وما بعدها.
- مختصر شواذ القرآن لابن خالويه. نشره المستشرق برجستراسر. ط القاهرة ١٩٣٤م.
- المخصص لابن سيدة ط الأميرية ببولاق ١٣٢٠هـ، ط بيروت.
- المزهر للسيوطى. ط الأولى. المطبعة السنية ١٢٨٢هـ، ط صبيح.
- مستقبل اللغة العربية المشتركة للدكتور إبراهيم أنيس. القاهرة ١٩٦٠م.
- مسند الإمام أحمد. ط بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- المصباح المنير للفيومى بتحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوى. ط دار المعارف.
- المعاجم اللغوية للدكتور إبراهيم نجا. ط السعادة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٤م.
- المصطلحات العلمية والفنية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

- معانـى القرآن للأخفش الأوسط. تـحقيق د٠ عيد الأمـير محمـد أمين. ط الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

- معانى القرآن للفراء بتحقيق الأستـاذين محمد على النجار وأحمد يوسف نجاتى ط . دار الكتب المصرية ١٩٥٥م والنسخة المصورة عنها. بيروت ١٩٨٠م.

- معـانى القـرآن وإعرابه لـلزجاج بـتحقـيق الدكـتور عـبد الجـليل شلـبى. ط ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- معجم قبائل العرب للأستاذ رضا كحالة. ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م.

- معجم ما استعـجم من أسماء البلاد والمواضع للبكرى. تحقيق الأسـتاذ مصطفى السقا. ط. القاهر ١٩٤٥ وما بعدها.

- معجميات عربية سامية للأب مرمرجى الدومنكى. مطبعة المرسلين اللبنانيين ١٩٥٠م.

- المغازى للواقدى بتحـقيق جونس. ط طهران المصورة عن طبعة جامـعة اكسفورد. لندن ١٩٦٦م.

- المغـنى فى تصريـف الأفعال للـدكتور محـمد عضـيمة. ط الـعهد الجـديد ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

- مغنـى اللبيب عن كـتب الأعاريب لابن هشـام . المطبعـة الأزهرية ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م وط المدنى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد.

- مفاتيح الغيب وبهامشه تفسير أبى السعود. المطبعة الخيرية ١٣٠٧هـ.

- المـفردات فـى غريـب القرآن لـلراغب الأصـفهـانى. ط مـصطفـى الحلبـى ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للأستاذ جواد على. ط بيروت ١٩٦٨م.

- مقاييس اللـغة لابن فارس. تحقيق الأستـاذ عبد السلام هارون. دار إحياء الكـتب العربية ١٣٦٦هـ.

- المقتضب للمبرد بتحقيق الشيخ محمـد عبد الخالق عضيمة. ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٨هـ (١٩٦٣ - ١٩٦٨م).

- المقدمة لابن خلدون. القاهرة ١٣٢٧هـ.

- مقدمة لدرس لغة العرب للأستاذ عبد الله العلايلى. المطبعة العصرية.

- مقدمة لدراسة فقه اللغة للدكتور محمد أحمد أبو الفرج. ط بيروت ١٩٦٦م.
- الممتع في التصريف لابن عصفور الأشبيلي. تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ط ٤ بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
- مميزات لغات العرب للأستاذ حفني ناصف. السعادة ١٣٣٠ هـ . ط الثانية.
- من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس. الأنجلو المصرية. ط الثالثة ١٩٦٦م.
- مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان. ط الرسالة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- المنصف لابن جني. ط مصطفى الحلبي ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.
- من لغات العرب لغة هذيل للدكتور عبد الجواد الطيب. ط ١٩٨٥م.
- منهج السالك إلى ألفية ابن مالك (الأشموني) بحاشية الصبان ومعه شرح الشواهد للعيني. ط دار إحياء الكتب العربية.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي. ط النهضة المصرية ١٩٧٧م.
- موطأ الإمام مالك. ط الثالثة بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف. نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري. ط مصطفى الحلبي بتحقيق الشيخ الضباع.
- نهاية الأرب لأبي العباس أحمد القلقشندي. العربية للطباعة والنشر ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير بتحقيق الأستاذين طاهر الزاوي ومحمود الطناحي .ط. الأولى. عيسى الحلبي ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- النوادر لأبي زيد الأنصاري. بيروت ١٨٩٤م.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي. ط السعادة ١٣٢٧هـ.
- الوجيز في فقه اللغة للأستاذ محمد الأنطاكي. ط بيروت ١٩٦٩م.

مراجع أجنبية:

- An outline of English phonetics by Daniel Jones. Cambridge university Press.

* * *

محتوى الكتاب

الموضوع **صحيفة**

الباب الثالث
التوحد اللغوى والعربية الباقية
٥٣ - ٧٣

الباب الرابع
اختلاف اللهجات العربية ومظاهره
٧٥ - ٣٨٠

الفصل الأول
الإبدال وأثره فى اللهجات
٨٧ - ٣٢١

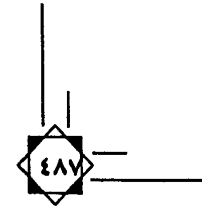
الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة

الموضوع صحيفة

الموضوع **صحيفة**

* * *



٢٣٥١ / ٩٨	رقم الإيداع
977 - 10 - 1090 - 5	الترقيم الدولى I. S. B. N